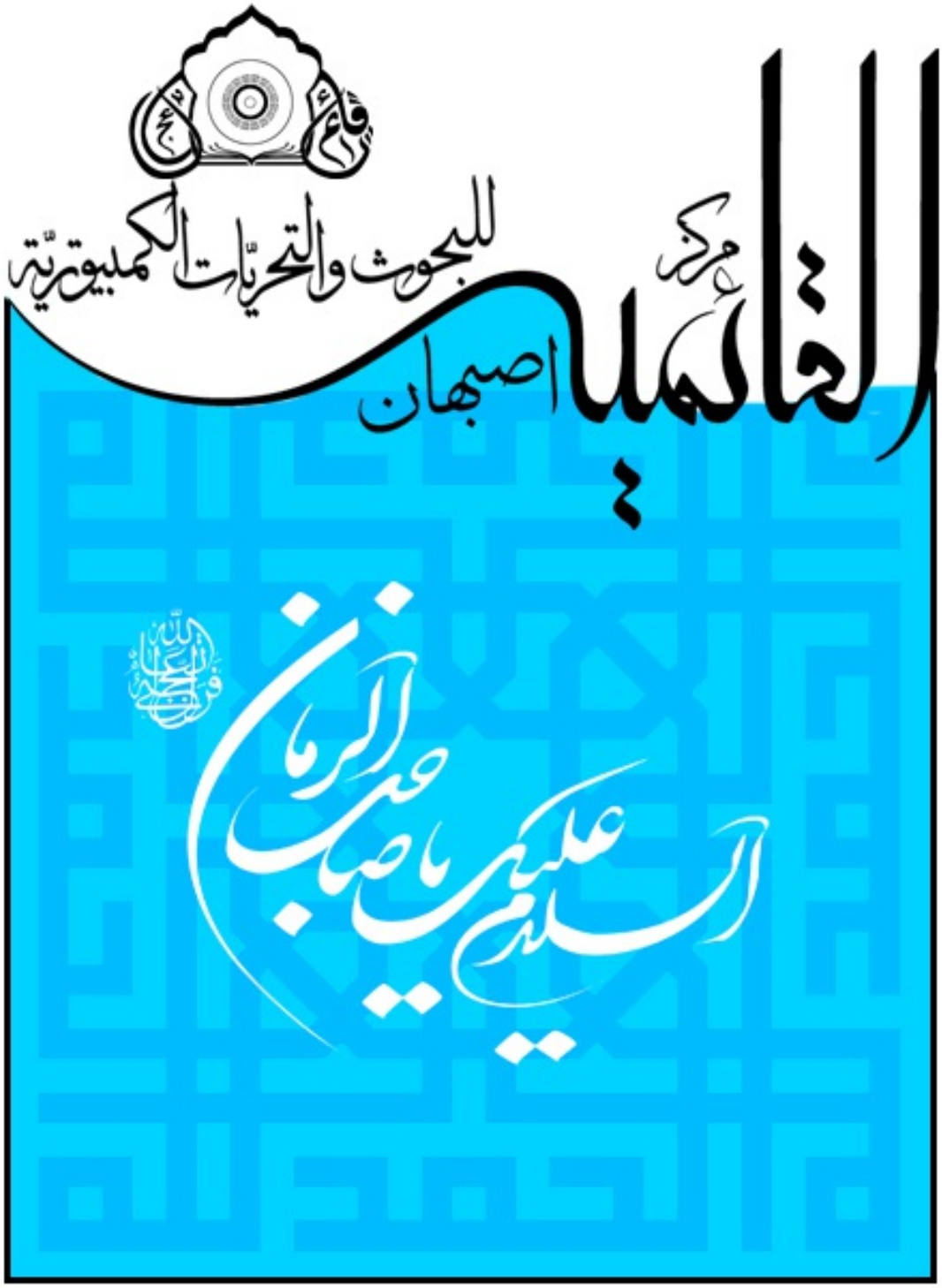

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

تحفة الأخيار

بمشتهى الأفكار والآثار

وهو رحلة

الشيخ الجليل السيد محمد بيرم الخامس التونسي

المتوفى سنة ١٣٤٠هـ

وضع حواشيه

أمين بن محمد المرزوقي الشنقيطي

الجزء الأول

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

صفوة الاعتبار بمستودع الامصار و الاقطار

كاتب:

محمد مصطفى بيرم الخامس التونسى

نشرت فى الطباعة:

دارالكتب العلمية

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، المجلد ۱ ----- ۱۲
اشارة ----- ۱۲
الجزء الأول ----- ۱۲
اشارة ----- ۱۲
مقدمة المحقق ----- ۱۲
ترجمة المؤلف ----- ۱۳
التعريف بكتاب صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار ----- ۴۳
[تمهيد] ----- ۴۴
المقدمة ----- ۴۵
الباب الأول فی السفر من حيث هو ----- ۴۵
الفصل الأول فيما جاء فی ذلک من الكتاب العزيز ----- ۴۵
الفصل الثانی فيما ورد فی السفر من السنة: ----- ۵۰
اشارة ----- ۵۰
و بيان وجه احتياج الإنسان إلى الهواء فی كل لحظة للتنفس هو: ----- ۵۱
الفصل الثالث فيما ورد فی السفر من كلام الحكماء و الأدباء: ----- ۵۲
الباب الثانی فی السفر لغير أرض الإسلام و فيه فصلان ----- ۵۲
الفصل الأول فی النصوص الدالة على الجواز ----- ۵۲
الفصل الثانی فی تطبيق الحكم على سفر العبد الضعيف إلى ممالک أوروبا: ----- ۵۳
الباب الثالث فی تقسيم أحوال أهل الأرض الآن ----- ۵۳
اشارة ----- ۵۳
القسم الأوّل آسيا ----- ۵۳
اشارة ----- ۵۳

الفصل الأول فی المملکة العثمانیة ----- ۵۳
الفصل الثانی المملکة الثانیة هی مملکة فارس ----- ۵۴
الفصل الثالث المملکة الثالثة هی مملکة أفغانستان ----- ۵۵
الفصل الرابع المملکة الرابعة هی مملکة بلوجستان ----- ۵۵
الفصل الخامس المملکة الخامسة هی مملکة الهند الإنکلیزیة ----- ۵۶
الفصل السادس المملکة السادسة ----- ۶۳
الفصل السابع المملکة السابعة ----- ۶۳
الفصل الثامن المملکة الثامنة ----- ۶۳
الفصل التاسع المملکة التاسعة ----- ۶۴
الفصل العاشر المملکة العاشرة ----- ۶۴
الفصل الحادی عشر المملکة الحادیة عشرة ----- ۶۴
الفصل الثانی عشر المملکة الثانیة عشر مملکة الروسیا فی آسیا ----- ۷۲
الفصل الثالث عشر المملکة الثالثة عشر مملکة هرات ----- ۷۳
الفصل الرابع عشر المملکة الرابعة عشر هی إمارات التتر المستقلین ----- ۷۴
الفصل الخامس عشر المملکة الخامسة عشر هی ممالک الأئمة فی جزیرة العرب ----- ۷۴
الفصل السادس عشر المملکة السادسة عشر ----- ۷۶
الفصل السابع عشر المملکة السابعة عشر ----- ۷۶
الفصل الثامن عشر المملکة الثامنة عشر ----- ۷۶
الفصل التاسع عشر المملکة التاسعة عشر مملکة الجابون ----- ۷۶
الفصل العشرون المملکة العشرون مملکة أتشین ----- ۷۷
القسم الثانی من الأرض هو قارة أوروبا، ----- ۷۸
اشارة ----- ۷۸
الفصل الحادی و العشرون فأما الدولة الأولی فهی الدولة العلیة و تختها القسطنطینیة، ----- ۸۰
الفصل الثانی و العشرون و أما الدولة الثانیة و هی الجبل الأسود، ----- ۸۰

الفصل الثالث و العشرون و أما الدولة الثالثة و هی الیونان، ---- ۸۱
الفصل الرابع و العشرون و أما الدولة الرابعة و هی إیطالیا، ---- ۸۱
الفصل الخامس و العشرون و أما الدولة الخامسة فهی دولة إسبانیا، ---- ۸۱
الفصل السادس و العشرون و أما المملکة السادسة و هی مملکة البرتغال، ---- ۸۲
الفصل السابع و العشرون و أما الدول الوسطی فأولها: دولة فرانسا، ---- ۸۲
الفصل الثامن و العشرون و ثانیها: دولة سفیسرا ---- ۸۲
الفصل التاسع و العشرون و ثالثها: دولة البلجیک، ---- ۸۳
الفصل الثلاثون و رابعها: مملکة دولة النمسا المترکبة من دولتین مستقلتین و هما أوستریا و هنکاریا، ---- ۸۳
الفصل الحادی و الثلاثون و خامسها: دولة الصرب، ---- ۸۳
الفصل الثانی و الثلاثون و سادسها: دولة رومانیا، ---- ۸۳
الفصل الثالث و الثلاثون و أما الدول الشمالیة فالدولة الأولی منها: دولة إنکلترا السابقة فی الحریة و الثروة، ---- ۸۴
الفصل الرابع و الثلاثون و الثانیة منها: دولة هولاندة، ---- ۸۴
الفصل الخامس و الثلاثون و الثالثة منها: دولة ألمانیا المتألفة من ستة و عشرین دولة ---- ۸۴
الفصل السادس و الثلاثون و الرابعة منها: دولة السوید المتألفة من دولتی السوید و النورویج، ---- ۸۵
الفصل السابع و الثلاثون و الخامسة منها: دولة الدانمرک، ---- ۸۶
الفصل الثامن و الثلاثون و السادسة منها: دولة الروسیا، ---- ۸۶
اشارة ---- ۸۶
فأوّل هاته المجالس: المجلس المسمی بمجلس السلطنة، ---- ۸۷
اشارة ---- ۸۷
الفصل التاسع و الأربعون مملکة وادای: ---- ۸۹
الفصل الخمسون فی بقیة ممالک القسم المسمی بالسودان. ---- ۹۰
الفصل الحادی و الخمسون مملکة «فلاتا»: ---- ۹۰
الفصل الثانی و الخمسون القبائل المتحدة المسماة برکو المتألفة ---- ۹۰
الفصل التاسع و الثلاثون و خلاصة الکلام علی جمیع قسم أوروباهو، ---- ۹۰

القسم الثالث من الأرض هو قارة أفريقيا، ۹۲
اشارة ۹۲
الفصل الأربعون فأول دولها: سلطنة مراكش، ۹۲
الفصل الحادى و الأربعون المملكة الثانية هى مملكة الجزائر، ۹۵
الفصل الثانى و الأربعون المملكة الثالثة هى مملكة تونس: ۹۶
الفصل الثالث و الأربعون المملكة الرابعة هى طرابلس الغرب ۹۶
الفصل الرابع و الأربعون المملكة الخامسة: هى مصر، ۹۷
الفصل الخامس و الأربعون المملكة السادسة: هى الحبشة، ۹۷
الفصل السادس و الأربعون المملكة السابعة: هى مملكة الزنجبار، ۹۷
الفصل السابع و الأربعون المملكة الثامنة: هى مملكة برنو، ۹۸
الفصل الثامن و الأربعون لا يخفى أن بقية أفريقيا [قد قسمها الجغرافيون إلى أحد عشر قسما كبرى،] ۹۸
[القسم الأول السودان] ۹۹
اشارة ۹۹
القسم الثانى: هو أراضى سانيغال أو سانيغانبى، ۹۹
اشارة ۹۹
الفصل الثالث و الخمسون فى المستقل من سانيغال قد بقيت دواخلها منقسمة إلى عدة حكومات أكبرها ثلاثة، ۹۹
الفصل الرابع و الخمسون ممالک تيمانى و سوليمانه، ۹۹
القسم الثالث: هو كينيا العليا، ۹۹
اشارة ۹۹
الفصل الخامس و الخمسون أوّل أراضى هذا القسم هى المسماة: كرومان، ۹۹
الفصل السادس و الخمسون فى مستعمرات الإنكليز بهذا القسم و هى الأراضى المسماة: جبال الأسد، ۱۰۰
الفصل السابع و الخمسون فى مملكة ليبريا هى مملكة جمهورية مستقلة تسمى: ليبريا ۱۰۰
الفصل الثامن و الخمسون فى أرض شاطىء الفيل، ۱۰۰
الفصل التاسع و الخمسون فى دواخل كينيا العليا ۱۰۰

الفصل الستون فی بقیة شطوط کینیا العلیا و دواخلها ---- ۱۰۰
الفصل الحادی و الستون فی ممالک رأس الرجاء الصالح فی نهایة الجنوب علی الشاطیء من المحیط الجنوبی رأس الرجاء الصالح ۱۰۱
الفصل الثانی و الستون فأما الزلوس فهم أقویاء أشدّاء أهل حرب، ---- ۱۰۱
الفصل الثالث و الستون و أما أراضی ناتال فسکانها إنکلیز و هلاندیز و زلوس و باستوس بربریس و هنود، ---- ۱۰۱
الفصل الرابع و الستون و أما جمهوریة نهر أورانج و هی شمال رأس الرجاء، ---- ۱۰۱
الفصل الخامس و الستون و أما جمهوریة ترانسفال فهی واقعة فی بلاد الزلوس ---- ۱۰۱
الفصل السادس و الستون و أما مملکة بادجوانه فتختها کورومان و بجوارها مملکة أوتانتو ---- ۱۰۱
الفصل السابع و الستون فی ممالک کینیا السفلی ---- ۱۰۲
الفصل الثامن و الستون فی ممالک هذا القسم و هی مرکز و أنها نبانی و سوفالا و سینا و کیلیمانی و موزنبیک و دیلکاد، ---- ۱۰۲
الفصل التاسع و الستون فی ممالک هذا القسم فسکانه من بربر أفریقیة الشمالیة و العرب و السودان ---- ۱۰۲
الفصل السبعون فی مملکة ماداغسکار أو کسکار ---- ۱۰۲
الفصل الحادی و السبعون فی ممالک الصحراء الغربیة: ---- ۱۰۳
الفصل الثانی و السبعون فی ممالک الصحراء الوسطی: ---- ۱۰۳
الفصل الثالث و السبعون فی مملکة الصحراء الشرقیة: ---- ۱۰۴
القسم الرابع من الأرض هی قارة أمریکا ---- ۱۰۶
اشارة ---- ۱۰۶
الفصل الرابع و السبعون المملکة الأولی: دولة أمریکا المتحدة، ---- ۱۰۷
الفصل الخامس و السبعون فی بقیة ممالک أمریکا الشمالیة. ---- ۱۰۸
الفصل السادس و السبعون و ثالثها: مکسکو، ---- ۱۰۸
الفصل السابع و السبعون و رابعها: أمریکا الوسطی، ---- ۱۰۸
الفصل الثامن و السبعون و خامسها: الجزائر الکثیرة المتفرقة، ---- ۱۰۸
الفصل التاسع و السبعون فالدولة السادسة: کلومبیا ---- ۱۰۹
الفصل الثمانون و السابعة: دولة بیرو ---- ۱۰۹
الفصل الحادی و الثمانون ثم یلیها شرقا [و] تمتد إلی الشطوط الشرقیة و علی جمیع دواخل القارة، الدولة الثامنة: و هی برازیل ---- ۱۰۹

الفصل الثانی و الثمانون و بین بیرو و برازیل الدولة التاسعة: ۱۰۹
الفصل الثالث و الثمانون و الدولة العاشرة: هی الشیلی ۱۰۹
الفصل الرابع و الثمانون و الدولة الحادیة عشرة: دولة سیونس أیرس، ۱۰۹
الفصل الخامس و الثمانون الدولة الثانیة عشرة: أوروکوای، ۱۱۰
الفصل السادس و الثمانون و الدولة الثالثة عشرة: هی بقیة أمریکا الجنوبیة المعروفة بتاکونی، ۱۱۰
القسم الخامس من الأرض أستراليا ۱۱۰
اشارة ۱۱۰
الفصل السابع و الثمانون و حیث قد تبین فی هذا الباب إجمال حالات الممالک ۱۱۱
اشارة ۱۱۱
جدول الإحصاءات ۱۱۱
السکان ۱۱۲
ملاحظات ۱۱۶
المقصد الأول ۱۱۷
الباب الأول فی سبب سفری ۱۱۷
اشارة ۱۱۷
فصل فی نشأتی ۱۱۷
فصل فی مرضی و ما عولجت به ۱۱۸
فصل فی حکم التداوی شرعا ۱۲۳
الباب الثانی فی قطر تونس ۱۲۶
اشارة ۱۲۶
فصل فی التعریف بالقطر التونسی ۱۲۷
فصل: فی إجمال تاریخ هذا القطر التونسی ۱۴۰
اشارة ۱۴۰
المطلب الأول: فی نبذة من تاریخه القدیم: ۱۴۱

المطلب الثانی فی علاقة القطر بالدولة العثمانیة ----- ۱۴۳
المطلب الثالث فی سیاسة القطر الخارجیة: ----- ۱۵۲
المطلب الرابع فی السیاسة الداخلیة من العائلة الحسینیة. ----- ۱۵۸
المطلب الخامس فی وزارة مصطفی خزنه دار: ----- ۱۶۹
المطلب السادس: فی وزارة الوزیر خیر الدین ----- ۱۸۷
اشارة ----- ۱۸۷
الأداء علی البضائع: ----- ۲۰۱
المطلب السابع: فی وزارة محمد خزندار ----- ۲۱۶
المطلب الثامن: فی وزارة مصطفی بن إسماعیل ----- ۲۱۸
فصل فی بعض عوائد أهل القطر و صفاتهم ----- ۲۲۹
مطلب فی الأوصاف العامة ----- ۲۲۹
مطلب فی التجارة: ----- ۲۳۲
مطلب فی ترتیب الأحکام و الإدارة ----- ۲۳۳
مطلب فی المعارف ----- ۲۳۶
مطلب فی الصنائع ----- ۲۳۷
مطلب فی المساکن و الطرقات ----- ۲۳۹
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۲۴۰

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، المجلد ۱

اشارة

نام كتاب: صفوة الاعتبار بمستودع الامصار و الاقطار

نويسنده: بيرم الخامس، محمد مصطفى

تاريخ وفات مؤلف: ۱۳۰۷ ه. ق

محقق / مصحح: جنان، مأمون بن محيى الدين

موضوع: جغرافياى عمومى

زبان: عربى

تعداد جلد: ۲

ناشر: دار الكتب العلمية

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۱۷ ه. ق

نوبت چاپ: اول

sfouah alaa'tbar bmstouda' ala'msar wala'ktar

تأليف: محمد بيرم الخامس التونسى تاريخ النشر: ۰۱/۰۱/۱۹۹۷

ترجمة، تحقيق: مأمون بن محيى الدين الجنان الناشر: دار الكتب العلمية

النوع: ورقى غلاف فنى، حجم: ۲۴×۱۷، عدد الصفحات: ۷۵۲ صفحة الطبعة: ۱ مجلدات: ۲

الجزء الأول

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المحقق

الحمد للّه الذى حمده من نعمائه و شكره على ألائه من آلائه، أحمده حمد العارف بحق سنائه و أقف عند غاية العجز عن إحصاء ثنائه، عاكف على رسم الإقرار بالإفتقار إليه و الإستغناء به فى كل آنائه.

و أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له المتوحد بعظمته و كبريائه، المتقدس عما يقوله الملحدون فى أسمائه، و أصلى على سيد ولد آدم و نخبة أنبيائه، محمد المفضل على العالمين باجتبائه و اصطفائه، و فضله بالآيات الباهرات و المعجزات الظاهرات على أمثاله من المرسلين و نظرائه، و رقاه إلى درجات العلى و أنهاه إلى سدرة المنتهى ليلة إسرائه، و حباه بالخصائص التى لا يضاهى بها بهاء كماله و كمال بهائه، و رداه رداء العصمة فكانت عناية اللّه تكنفه عن يمينه و شماله و أمامه و ورائه، صلى اللّه عليه و على آله مصابيح الهدى و نجوم سمائه و سلم تسليما كثيرا.

إن هذه الدراسة تهدف إلى تقديم رؤية لواقع البلدان التى رحل إليها الشيخ محمد بيرم الخامس التونسى من زوايا علمية تناول فيها

جمع حقائق السياق المجتمعى الذى عاش فيه، و المشكلات التى واجهته و التى ارتبطت ارتباطا وثيقا بمنهجية عمله.

لذلك كان هذا البحث الذى أسهم فيه المؤلف من إثراء تراثنا التاريخى من واقع ظروفه، و بيئته المتطورة سياسيا و اجتماعيا. و الذى نجح فيه أنه ترك مصدرا أصيلا عريقا جديرا بكل اهتمام و رعاية، لذلك اعتمدت فى هذه الدراسة على منهجية مستقلة لاستيفاء النقص و تفسير الغوامض و ذلك بالرجوع إلى كمية كبيرة من المصادر و المراجع، و التى ستجد لها فهرسا مرتبا فى آخر هذا الكتاب حسب التسلسل الأبجدى مع أسماء مؤلفيها و سنة الطبع.

و يأتى هذا الكتاب عرضا لحصيلة ما قد توصل إليه المصنف من البحث فى مجال التاريخ حيث قال: «... فجبت بحارا و قفارا و مدنا و أمصارا على حسب ما يسره المقدور، و ساعفت الوسائل على الوصول إلى مشاهدته من المعمور و رأيت بعينى البصر و البصيرة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۴

أمورا عجيبة خطيرة ...» و ذكر فيه البلدان التى رحل إليها من أوروبا و آسيا و أفريقيا، و توسع فى مواضع شتى من الكتاب، و أرخ فيه للقطر التونسى من زمن الفتح الإسلامى إلى حين دخول فرنسا فيه، و بلاد الجزائر أيضا و حروب فرنسا فيها كذلك الديار المصرية و الثورة العرابية و غير ذلك من الفوائد التاريخية التى أثرت بحق المكتبة العربية.

ظل هذا الكتاب حبرا على ورق زمنا طويلا إذ لم يبادر الباحثون و الدارسون بتفحصه كمادة للدراسة و التوسع فيه و أخذ ما يرونه مفيدا للتصدى للغزو الفكرى الجديد لما يحمله بين دفتيه من صورة للماضى نستخلص منها عبرة للمستقبل. و لا شك أن قضية الغزو الفكرى لتاريخنا تشغل بال و أذهان المثقف العربى كما تشغل بال المنظر السياسى سواء بسواء.

بهذا الجهد المتواضع أرجو أن أكون قد وفقت فى وضع لبنة جديدة تسد فراغ ما فى المكتبة العربية. و إضافة ما يمكن أن ينمى تراثنا العربى و يطوره.

و لا أنسى فى هذا المقام أن أتقدم بالشكر و العرفان بالجميل لكل من أسهم فى إخراج هذا البحث، و أعاننى على تذليل عقباته، من الأصدقاء المخلصين و الأهل و الأساتذة الأفاضل و فى مقدمتهم ابن العم نهاد بن حمدى الجنّان جزاهم اللّه عنى كل خير.

هذا ما حاولت صنعه و لا أدعى أننى بلغت بهذا كمالا فالكمال للّه وحده، لكنها محاولة آمل أن يجد فيها الدارس و الباحث ما يصبو إليه، و إن كان ثمة شىء يذكر فهو ثنائى على أجدادى و أساتذتى الذين منهم تعلمت و على كتبهم عولت و من آثارهم اقتبست غفر اللّه لهم ولى آمين.

مأمون بن محيى الدين الجنّان دمشق ۲۱/ ۱۱/ ۱۹۹۵ ص. ب ۲۹۱۷۳

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۵

ترجمة المؤلف

هو السيد محمّد بن مصطفى بن محمّد الثالث بن محمّد الثانى بن محمّد الأول بن حسين بن أحمد بن محمّد بن حسين بن بيرام، حضر إلى تونس قائدا على إحدى فرق الجيش العثمانى عند فتحها من يد الإسبانيول على يد الصدر الأعظم سنان باشا سنة ۹۸۱ هجريّة و قد تزوج بيرام بنتا من آل أبى عبد اللّه بن الأبار القضاعى صاحب كتاب التكملة و إعتاب الكتّاب، و هو الذى أرسله صاحب بلنسية زيان بن أبى الحملات إلى صاحب أفريقيّة (تونس) أبى زكريا يحيى بن أبى حفص يستغيث به لما حاصره ملك برشلونة الإسبانيولى فانشده قصيدته المشهورة الّتى أولها:

أدرك بخيلك خيل اللّه أندلساإن السبيل إلى منجاتها درسا

و قد قدر اللّه أن الأسطول الذى أرسله صاحب تونس لم يصل فى الوقت المناسب لانجاد الأندلسيين فرجع ابن الأبار لتونس حيث استوطن بها سنة ۶۳۵ ه. و قد أمهرها بيرام أربعة آلاف ريال. هذا هو المنشأ الأصلى لهذه العائلة.

و قد ولد السيد محمّد بيرم بمدينة تونس فى المحرم سنة ۱۲۵۶ هجرية الموافق لمارس سنة ۱۸۴۰ ميلادية، و أمه بنت الفريق محمود خوجه وزير البحريّة بالأيالة التونسيّة، و أمها بنت الغماد ذى الشرف المعروف و يتصل نسب آل بيرم بالسادة الأشراف من جهات أخرى أيضا، أهمها: جهة محمد بيرم الأول فإن والدته بنت السيدة الشريفة حسينة بنت محمد بن أبى القاسم بن محمّد بن على بن حسن الهندى الشريف، و هذا السيد قدم إلى تونس و أجمعت عامتها و خاصتها على الاعتقاد بنسبه الطاهر و التبرك به و نسله فيها بركة أهل تونس إلى الآن، أما نسبه فيتصل إلى الحسين السبط عليه السلام. و قد تولى محمّد بيرم الثانى نقابة الأشراف فى حياة أبيه مضافة إلى خطة القضاء الّتى كانت بيده سنة ۱۲۰۶ ه و استمرت النقابة فى يد ولده محمّد بيرم الثالث و حفيده محمّد بيرم الرابع إلى حين وفاته سنة ۱۲۷۸ ه كما أن رئاسة المفتيين الحنفيّة المعبر عنها فى تونس بمشيخة الإسلام استمرت فى يدهم و يد أبيهم محمّد بيرم الأول من ذى القعدة سنة ۱۱۸۶ ه إلى ۴ جمادى الأولى سنة ۱۲۷۸ ه أى إحدى و تسعون سنة و ستة أشهر و لم تنقطع إلّا مدة قليلة بين وفاة بيرم الأول و ولاية بيرم الثانى. و كان جميع آل بيرم منخرطين فى سلك العلماء مفتخرين بخدمة العلم إلا القليل منهم فقد دخلوا فى الخدمة العسكريّة. فاجتمع لهذه العائلة خدمة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۶

الدين من الطريقين طريق العلم و طريق الجهاد. حتى إن أحمد بيرم توفى بجراحة أصابته فى محاربة الجزايريين لمراد باى أمير تونس إذ ذاك سنة ۱۱۱۲ ه و كأن هذه الخدمة السياسيّة أثرت فى صاحب الترجمة مع قرابته لوزير البحريّة حينئذ فصار له ميل كلى للتداخل فى الأمور الملكيّة و معرفة أحوال الحكومة. و قد كان جده محمود خوجه رام إدخاله فى الخدمة العسكريّة لو لا ممانعة عمه شيخ الإسلام بيرم الرابع فدخل صاحب الترجمة إلى جامع الزيتونة و قرأ على مشايخ الوقت المعدودين. و لم يمنعه ذلك عن إشغال فكره بما يهواه من أمور الإدارة مع تباعد أهل العلم عادة عن كل ما هو خارج عن دائرة دروسهم، و قد جرت عادة الكثير من العلماء و الأدباء بتونس أن يكون لكل واحد منهم سفر شبيه بالسفينة يسمونه «كناشا» يجمعون فيه ما يحلو لديهم جمعه من إنشاآتهم أو إنشاآت غيرهم علميّة و أدبيّة نظما و نثرا متضمنة الفوائد المختلفة فى فنون و معان شتى، و قد خطى صاحب الترجمة على خطاهم و عمره سبعة عشر سنة و أول ما افتتح به كتابه ما تجمع لديه من أوامر و قوانين و نظامات فى شؤون الحكومة، أصدرها إذ ذاك صهره الأمير محمّد باشا و هذا يدل دلالة واضحة لا شبهة فيها على ميل صاحب الترجمة و تعلقه بأحوال السياسة، و قد كان فى حال صباه يرى العربان يفدون على والده و هو مشغول بالزراعة يتضجرون و يتوجعون مما يصيبهم من ظلم الحكام و تشديدهم فى نهب الأموال بسائر الطرق الّتى اخترعوها فى ذلك الوقت مما هو مبسوط فى الكلام عن سياسة تونس الداخليّة فى «صفوة الإعتبار»، فأثر فيه نحيبهم و بكاؤهم فأوقف حياته من ذلك العهد على الانتصار للرعايا و تخفيف الاستبداد عليهم و السعى وراء نشر القوانين و تأسيس المجالس النيابيّة، و الميل بكل جوارحه للحريّة مع ما جرت به العادة من تباعد ذوى البيوتات عن مثل ذلك، حتى لقد بلغ به الولع بالحرية و حب المجالس الشورويّة أن تخالف رأيا يوما و هو صغير السن لا يتجاوز من العمر عشرين سنة مع أبيه و ابن عمه عندما افتتح الأمير الصادق باشا المجلس الأكبر و أسس قوانين عهد الأمان

Constitution

(كونستيتسيون)، فكان صاحب الترجمة ينتصر لهذه المستحدثات و يتوسم فيها خيرا للبلاد و ذانك يخالفانه مع أن أحدهما كان من جملة أعضاء المجلس، لما غرس فى أذهان أصحاب البيوتات من التنحى عن مثل هذه المستحدثات الّتى لا تروق فى أعين حكامهم.

و بعد وفاة عمه الشيخ بيرم الرابع ولاه الأمير مشيخة المدرسة العنقيّة فى ۶ جمادى الأولى سنة ۱۲۷۸ ه فباشر التدريس فيها و من عادة علماء تونس من مشايخ المدارس أن يقرأوا فيها صحيح البخارى خصوصا فى الأشهر الثلاثة المكرمة و اعتبارا من ۱۵ رمضان يبتدىء كل واحد منهم بحسب الدور بختم ما قرأه، و ذلك بأن يتلو الحديث الشريف الذى وقف عليه و يكتب عنه ما يعن له من الشروح و التعليقات و يكون لذلك مجلس حافل يستمر من العصر إلى قريب الغروب و تتوالى الاحتفالات المذكورة إلى الليلة السابعة و

العشرين من رمضان حيث يكون ختم جامع الزيتونة و دور المدرسة العنقيّة فى اليوم الخامس و العشرين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۷

منه، و قد حضر الأمير بنفسه ذلك الختم فى تلك السنة تشجعيا للشيخ الجديد و كان حديث الختم قوله عليه الصلاة و السلام «إن أمتى يدعون يوم القيامة غرا محجلين فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل» و فى ۹ جمادى الثانية سنة ۱۲۷۸ ه صار مدرسا فى جامع الزيتونة من الطبقة الثانية، و فى ۱۵ رجب سنة ۱۲۸۴ ه رقى مدرسا من الطبقة الأولى فاستمر مباشرا للتدريس مشغولا بإدارة أملاكه و عقاراته و أموره الخصوصية و توفى والده إلى رحمة ربه فى ۱۴ جمادى الأولى سنة ۱۲۸۰ ه و ترك له ثروة عظيمة.

و فى تلك الأثناء ظهرت الفتنة العموميّة فى الإيالة التونسية متسببة عما كان يتوقعه و يخشاه من عاقبة ظلم الرعيّة و استبداد الحكام، و قبيل ذلك أقفلت المجالس الشورويّة الّتى كان صاحب الترجمة يتولع بها و يهواها و لا يتوسم لخير المملكة سواها، و كأن ذلك أثر عليه تأثيرا شديدا حتى أنه كاتب أحد أصدقائه من أمراء المسلمين المقيمين بأوربا بما نص محل الحاجة منه: «فيا لها من حال. يرثى لها من رام النزال. و تخر لشدّتها شامخات الجبال». إلى أن قال: «فقد فاز من نهض بنفسه. و استراح من فتنة باطنه و حسه. إذ الآيات وردت على ذلك ناصة. فقال تعالى: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً [الأنفال: ۲۵] ففاز المخففون. و ابتلى المتأهلون. و و اللّه العظيم و نبيه الكريم. طالما نهضت عزائمى إلى الترحال. فأثقلتنى قيود العيال. مع ما أنا عليه من الوحدة عن أخ شقيق. أو قريب يخلفنى فيهم عند الضيق. و لم أستطع التخلص بكلى. لما لا يخفى مما يثقل كلى. و أقسم بالقرآن. و صفات الرحمن. أننى عرضت للبيع أملاكى. لأتخلص بها من أشراكى. و أستعين منها بالأثمان. فلم أجد من يصرف لهذا الوجه أى عنان. و لو من أعيان الأعيان الخ».

و من ذلك الحين اشتد اتصاله بالوزير خير الدين باشا إذ كان هو رئيس المجلس الأكبر الذى الغى و كانت مناسبة الوصلة بينهما حبهما للحرية و تعميم الشورى فى المملكة و هما كما لا يخفى القوّتان الوحيدتان لحفظ استقلال البلاد من التلاشى، و لذلك فإنه لما تولى خير الدين باشا الوزارة الكبرى فى تونس فى رمضان سنة ۱۲۹۰ ه كان صاحب الترجمة من أكبر أنصاره و محازبيه و تظاهر بذلك تظاهرا كليا حتى نشر فى الرائد التونسى الذى هو جريدة الحكومة الرسميّة مكتوبين أظهر فيهما انبساط الأهالى من تغيير الوزارة و بين غلط المنتصرين للحاكم السابق و أنهم فئة قليلة لا تحب خير البلاد، و كان بذلك أول تونسى جاهر بآرائه السياسية فى الجرائد تحت إمضائه على ما أظن و زاد على هذا التظاهر الأدبى بأن سعى فى أعمال تظاهر مادّى و ذلك بأن اتفق مع علماء جامع الزيتونة على إقامة احتفالات فى الجامع شكرا للّه على انقاذ البلاد من عهد الجور و إدخالها فى عصر الإطمئنان و الرجوع لعهد الأمان، و حصل بالفعل ذلك الإحتفال و أعقبه كثير مثله فى جهات الحاضرة و بقيّة بلدان المملكة، فكانت نهضة حقيقية وطنيّة صادرة عن إخلاص نيّة حبّا فى الحريّة و إستقامة الأحكام.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۸

و لما استقرّ الوزير المشار إليه فى المنصب و وجه عزيمته لإصلاح الإدارة رأى أن الأوقاف مشتتة قد استولت عليها أيدى الخراب و الأطماع فرأى: «إن جمعها فى إدارة واحدة يكفل حفظها و يجمع ريعها فيصرف فى أوجهه المشروعة». و ذلك على النحو الجارى فى دار الخلافة السعيدة، و قد رأى الوزير أن يعهد إلى صاحب الترجمة أمر هذه الإدارة الجديدة لما يعهده فيه من معرفته بالأحكام الشرعية و إطلاعه على المقتضيّات الوقتية فامتنع المرحوم أولا من قبول أى وظيفة كانت، لأنه لم يكن يميل إلى التقيد بشىء مّا يمنعه عن السعى وراء ضالته المنشودة و هى الحريّة للرعيّة و دخوله فى الوظائف يجعله بلا ريب مقيدا مع الوزير بالآداب الّتى تقتضيها الوظيفة، أما بقاؤه خارجا عن دائرة الحكومة فيبقيه على حريته الّتى تمكّنه من تذكير الوزير بما عساه ينساه من تتميمه لما كان تعهد بإجرائه، هذا فضلا عما كانت عليه سجيّة صاحب الترجمة من الهمة و إباءة النفس، حتى كأن جدّه حسين بيرم المتوفى سنة ۱۱۵۵ ه قد نظر إليه بظهر الغيب لمّا ذيل البيتين الشهيرين:

شيآن لو بكت الدماء عليهماعيناى حتّى تؤذنا بذهاب

لما يبلغا المعشار من حقيهمافقد الشباب و فرقة الأحباب

بقوله:

و أشدّ من هذين أن يلقى الفتىذل السؤال و وقفة الأبواب

و مع ذلك فقد تغلب أصحابه عليه و قبل إدارة الأوقاف فى ۱۷ صفر سنة ۱۲۹۱ ه و لم ينفرد مع ذلك بأمرها بل شارك معه مجلسا مؤلفا من ثلاثة أعضاء أحدهم من رجال الإدارة و الإثنان الآخران من أعيان الأهالى و التجار و جعل نظرهم فى الأوقاف على قسمين:

الأول: الأوقاف الأهليّة أى الّتى هى موقوفة على ذريّة الواقف أو قرابته.

الثانى: الأوقاف الّتى على أعمال البر مثل الجوامع و قراءة القرآن و غير ذلك.

فأما نظرهم فى الأول فهو مجرد نظر إرشاد، و إما القسم الثانى فنظرهم عليه نظر تصرف مطلق، و المباشر للأعمال هو الرئيس بعد أخذ رأى الأعضاء عنها، و قد جمع الأوقاف كل نوع منها لجهة واحدة بأن ضم مثلا جوامع الخطب كلها لجهة و المدارس كلها لجهة و أوقاف القرآن لجهة و هكذا إلى آخر أنواع الموقوف عليه، و جعل لكل قسم وكيلا خاصا يباشر العمل فى ذلك تحت النظر الأصلى فيقبض الوكيل و يصرف فى إقامة الشعائر و فى إصلاح الموقوف و الموقوف عليه و لكنه لا يعمل شيئا إلّا بعد الإستئذان من رئيس المجلس، و جميع حساباته ترسم فى دفترين مخصوصين بشهادة عدلين أحد الدفترين للحسابات اليوميّة و الثانى للحسابات العمومية، و إنما جمع كل نوع من الأوقاف تحت نظر وكيل واحد لأن الموقوف عليه مختلف الريع بعضه غنى و بعضه فقير، فإذا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۹

كانت إدارتها جميعا متحدة فيصرف من دخل الغنى على الفقير لأنهما من نوع واحد، و بذلك تيسرت سهولة الإصلاح. ثم إنه فى آخر كل أسبوع يقدّم الوكلاء حساباتهم و يوردون للخزينة العموميّة كل ما زاد عندهم من الإيراد على المصروفات الضرورية، و هذه الخزينة لها ثلاثة مفاتيح اثنان منها يبقيان بطرف أمين المال و الثالث يحفظ عند الرئيس و لا تفتح إلّا بحضور الجميع، ثم إن جميع أماكن الأوقاف لا يحصل تأجيرها إلّا بعد الإعلان و المزايدة علنا بمحضر القاضى ثم إن أموال الأوقاف أول ما يقام منها الوقف و الموقوف عليه حسب نص الواقف و يقدّم الأهم على المهم و جميع مداولات المجلس و دفاتر الإيراد و الصرف فى الخزينة العمومية، يمضيها جميع الأعضاء مع الرئيس يوميّا، و كان يصرف من فواضل الأوقاف على الأوقاف الّتى لم يحضرها دخلها و ذلك على وجه القرض و لمّا يحضر مالها تعيد ما استقرضته للخزينة العموميّة، ثم يدفع منها جميع مرتبات الحكام الشرعيين من قضاة و مفتيين فى جميع المملكة و السادة الأشراف، و يدفع منها مصروفات نظارة المعارف من موظفيها و مرتبات مدرسى جامع الزيتونة و مصروفات دواوين الشريعة المطهرة، و مصروفات المجلس البلدى بحاضرة تونس و إصلاح الطرقات و تنظيفها و إقامة الجسور و القناطر، و مصروفات المستشفى و المكتبة العموميّة و غير ذلك من مصاريف بعض المهمات الّتى تحدث أحيانا و ترجع إلى مصلحة عموميّة إن كان فى الفواضل ما يوفى بها، و بسبب إجراء قوانين الأوقاف حقيقة بدون محاباة تحسن حالها و زادت إيرادتها حتّى بلغت فى السنة الخامسة من وجود هذه الإدارة مليونين و مائة و خمسين ألف ريالا و نيفا، و كانت فى السنة الأولى مليونا واحدا و مائتى ألف ريال و نيفا، زيادة على ما ظهر من الأوقاف الّتى كانت تلاشتها أيدى العدوان حتّى بلغت إلى مئات من قطع الأراضى و الدكاكين و البيوت و آلاف من شجر الزيتون كما هو مبسوط فى العدد ۱۸ من الرائد التونسى سنة ۱۲۹۷ ه و ظهرت أوجه من الموقوف عليه لم تكن فى الحسبان كالوقف على تنوير الأماكن المظلمة فى الليل و الوقف على التقاط العقارب إلى غير ذلك من أوجه البر.

و قد التزم الرئيس أن يفرغ جهده لإصلاح هذه الإدارة المستجدّة و تدريب عمالها على العمل حسب المرغوب حتّى التزم فى أول الأمر أن يباشر جميع الأعمال بنفسه جزئيّة و كليّة ليلا و نهارا و استمر على ذلك مدة طرأ عليه فى أثنائها مرض عصبى لم يفارقه إلى أن قضى عليه، و كان ابتداء المرض فى صيف سنة ۱۲۹۲ ه و بسبب هذا المرض عزم على السفر للتداوى فى أوربا فسافر إليها فى

شوال سنة ۱۲۹۲ ه و كان ذلك سببا لكتابته «صفوة الإعتبار». و لم تكن هذه الرحلة أول تأليف له بل قد سبق له كتابة رسالة سماها «تحفة الخواص فى حل صيد بندق الرصاص»، و مضمونها احتواه عنوانها و سبب تأليفها الخلاف الحاصل بين بعض العلماء فى حل أكل الصيد المذكور من عدمه، و ألف أيضا فى أول نشأته مجموعا مختصرا مفيدا فى فن العروض و ذلك عند بداية تعاطيه لنظم القريض، و حرّر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۰

مسألة فقهيّة فى جواز إسدال شعر الرأس و سببها أن الأمير أمر رجال حكومته بإسدال شعرهم و كانوا يحلقونه فاستفتى فى جواز ذلك من عدمه و اختلفت فتاوى العلماء خشية القول بالتشبه بالإفرنج فكتب المرحوم رسالته بالجواز مستندا على عمل النبى صلى اللّه عليه و سلم.

و فى تلك السنة أى سنة ۱۲۹۲ ه افتتحت فى تونس أول مدرسة على حسب النظام الجديد المتبع فى أوروبا سميت المدرسة الصادقيّة نسبة للأمير فكان المرحوم من أعضاء اللجنة الّتى رتبت نظاماتها و اهتم كثيرا بإقناع الناس على إدخال أبنائهم فيها و كان هو من أول العاملين بقوله فجعل ابنه كاتب هذه الأسطر من جملة تلامذتها، و قد حصل فى بداية الأمر نفور الناس منها إذ أن العادة جرت بنفرة غير المألوف و لم تزل تلك المدرسة ناشرة فوائدها بين التونسيين و أكثر المتولين مناصب الحكومة بتونس الآن هم من الشبان الذين تغذوا بلبان معارفها.

و فى ۱۰ جمادى الثانية سنة ۱۲۹۲ ه عهدت إليه نظارة مطبعة الحكومة فنظمها و أصلح شأنها و أصدر الرائد التونسى (الجريدة الرسميّة) فى مواعيده المعينة كل أسبوع مرة و كان لا يصدر إلّا بحسب التيسير، و لما كان الرائد التونسى هو الجريدة الوحيدة الّتى تصدر فى تونس بذل كل ما فى وسعه لجعله مفيدا لبنى وطنه، و استعان على تحريره بجهابذة أعلام كالشيخ حمزة فتح اللّه المصرى، و الشيخ محمّد السنوسى التونسى. و نشرت فيه مقالات رنانة حاثة على الجامعة و الوحدة و العدل و الإئتلاف لا سيما زمن الحرب بين الدولة العليّة و الروسيا، و قد قسم المرحوم وقته فكان يتوجه لإدارة الأوقاف صباح كل يوم و يتوجه للمطبعة بعد الظهر. و فى تلك الأثناء نظم المكتبة الصادقية بإزاء جامع الزيتونة و هى مكتبة جمعت آلافا من الكتب النفيسة فى كل فن، تبرع بجانب عظيم منها الوزير خير الدين باشا و أكثرها كتب استولت عليها الحكومة من مملوكات الوزير القديم مصطفى خزندار، و جعلها مفتوحة للمطالعة و استفادة العموم فى جميع أوقات النهار بشرط أن لا يخرج منها كتاب و جميع مصاريف هذه المكتبة تحملت بها إدارة الأوقاف على ما مرّ بيانه.

و فى سنة ۱۲۹۳ ه لما ظهرت الحرب بين الدولة العليّة و الصرب بذل صاحب الترجمة غاية مجهوده لمساعدة الدولة بالمال و الخيل و البغال حيث لم تتيسر مساعدتها بالرجال لأسباب سياسيّة و موانع محليّة، و قد نشر صاحب جريدة الجوائب الصادرة بالأستانة قصيدة لصاحب الترجمة فى الحث على التعاون و الإئتلاف عند تلك المناسبة قال فيها:

يا أمة الإسلام صونوا عزكم‌بتعاضد و تمدن و تنافس

يا أمة الإسلام أحيوا ذكركم‌بتآلف و تودّد و تآنس

يا أمة الإسلام نمّوا صيتكم‌بمعارف و صنائع و مجالس

يا أمة الإسلام حوطوا أمركم‌بتشاور و تدبر و حوارس

يا أمة الإسلام أجلوا فخركم‌بديانة قد سترت بحنادس

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۱ يا أمة الإسلام هبوا للفلاح و لا تضيعوا نجحكم بتقاعس

يا أمة الإسلام عوا و استيقظوا‌إن الهلاك مسارع للناعس

يا أمة الإسلام زيدوا ثروة‌بتعاون و مصانع و مغارس

يا أمة الإسلام شيدوا مجدكم‌بتناصر و تناصح و تجانس

يا أمة الإسلام شدّوا عزمكم‌فثباتكم بين البرايا ما نسى

و لما خلت وظيفة شيخ الإسلام بتونس عند وفاة صاحبها توجهت الأنظار لتولية صاحب الترجمة عليها حتى إن المنصب المذكور بقى خاليا مدة شهرين لذلك، فاعتذر بأن الوقت غير مناسب لإعادة جاه هذا المنصب و رجوع عزه إليه كما كان عليه زمن عمه.

و لما استعفى خير الدين باشا من الوزارة التونسيّة فى رجب سنة ۱۲۹۴ ه رام صاحب الترجمة التخلى عن وظائفه أيضا، غير أن مداخلة الأمير الشخصيّة منعته من تنفيذ هذا العزم و قد رأى من الوزير محمّد خزنه دار جميل العناية كما يستدل عليه من المكتوب الآتى:

«الهمام الأوحد النحرير الشيخ السيد محمّد بيرم رئيس جمعيّة الأوقاف دام مجده أما بعد.

السلام عليكم [و رحمة اللّه] و بركاته فالواصل إليكم ترجمة مكتوب ورد من المكلف بأمور دولة أسبانيا للإطلاع عليها و تعرفونا بما يجاب الرجل فى النازلة و فى أمن اللّه دمتم و السلام من كاتبه محمّد فى ۲۹ ذى الحجة سنة ۱۲۹۴ ه».

و من ذلك الحين أيضا صار الوزير مصطفى بن إسماعيل يظهر له كمال التودّد و التلطف و فى مصيف سنة ۱۲۹۵ ه أثناء وجود المعرض الباريسى سنة ۱۸۷۸ توجه المرحوم ثانيا إلى باريس للمعالجة من مرضه الذى لم يفارقه، و فى هذه السنة زار لندره من بلاد الإنكليز و عند عودته عرج على الجزائر، و فى مدة إقامته بباريس أكرمه المارشال مكماهون رئيس الجمهوريّة الفرنسويّة إذ ذاك بإحضاره فى الأوبره و هو التياتر و الكبير فى نفس لوجته (حجرته) و حضر بعض الاحتفالات الّتى أقامها الوزراء أثناء المعرض، و بالجملة فإن القوم أكرموه إكراما فائقا، و فى تلك السفرة احتفل ولى عهد الإمارة بتونس و هو الأمير الحالى بختن نجليه فكاتبه المرحوم بالتهنئة و كانت بينهما علاقة ودّيّة قديمة، فأجابه الأمير بهذا المكتوب و نصه بعد الحمدلة و التصلية:

تبدّت فى حلا الحسن الجلى‌خريدة ذات ثغر ألعسى

تجرّ مطارفا و تميس تيهاو يسطو لحظها فى كل حى

فيا للّه ما أحلى دلالاو أعذب لفظها شهد الشهى

فما للبحر لم يصبح فراتاو قد أمست به زمن الملى

فقلت لها انتم يا خود فخرفقالت بنت فكر البيرمى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۲ لقد حاز المعارف و المعالى‌وحيد الدهر ذو الحسب النقى

أتت من نحوكم درر التهانى‌منظمة بسلك جوهرى

و كيف يفوت حظك بابتعادو فى الأحشاء ذو ودّ خفى

وها ولدى الزكى يروم وصلالجانبكم بباريس السمى

و أنى ارتجى بشرى الشفاءو عودكما مع اللطف الخفى

الماجد الزكى العالم أبو عبد اللّه الشيخ السيد محمّد بيرم حرسه اللّه تعالى. أما بعد أتم السلام فقد ورد نظمكم الرائق. و ما تضمنه من التاريخ الفائق. فى التهنئة بالختان و أنى أهنيك بذلك كما ارتجى هناءك. بتمام شفائك. و أنت إن ترحلت عن حمانا جسما. فلم يزل ودّك مرتسما. بدفاتر الإحشاء رسما. و السلام، من الفقير إلى ربه أمير الأمراء على باى أمير الأمحال عفى عنه، فى ۲ رجب الأصب من سنة ۱۲۹۵ ه.

و لما رجع من هذه السفرة و استقر مدة أحب أن ينظم المستشفى التونسى على النحو الذى رآه فى أوروبا من إتقان المستشفيات و الاعتناء بالمرضى و تقسيمهم كل قسم على حدة، و كذلك تحسين حال المجانين إذ إن المستشفى التونسى واحد يقبل جميع المرضى.

و استعان على ذلك بحكماء ماهرين أهمهم الدكتور ماسكرو حكيم الأمير الخصوصى، و قد حسن للوزير مصطفى بن إسماعيل هذا

العمل و تخصيص إحدى القشلاقات العسكريّة القديمة الواسعة لهذا الغرض، و كانت معطلة خاوية تنعى بفراغها و إقفال أبوابها ما كانت عليه البلاد التونسيّة فى العصر السالف من القوّة و الاستعداد و التأهب للمكافحة و الجلاد و المدافعة عن استقلال البلاد، و القشلة واقعة فى حى مرتفع نقى الهواء و فى تلك الأثناء حصلت منازعة بين الحكومة التونسيّة واحد الفرنساويين المدعو الكونت دو صانسى على أرض فسيحة تعرف بهنشير سيدى ثابت كانت تنازلت له عنها الحكومة لتحسين حالة الزرع و إنتاج الخيل و لما أخل بالشروط الّتى أعطيت له بمقتضاها، و انتهت مدة التنازل رامت الحكومة استرجاعها و بينما هى تنازعه فيها إذا بالوزير و بعض أعوانه دخلوها عنوة فوقع لذلك هرج و مرج و انتهزها قنصل الفرنسيس الموسيو روستان فرصة لإرهاب الأمير و الاستيلاء على الوزير و زيادة شوكة دولته فى تونس، فقطع العلاقات السياسية و طلب عدة مطالب للترضية أهمها عزل الوزير و التعويض على الكونت.

و كل مطلع على تاريخ تونس الحديث ملم بما كتب عن مصطفى بن إسماعيل فى «صفوة الإعتبار» و غيرها يعلم أنه لم يكن أهلا لتقليد الوزارة و لا لمباشرة شؤون المملكة بأى وجه من الوجوه و هكذا جرت سنة الخلق كلما أخذت أمة فى الإنحلال و الإضمحلال تسلط عليها الوضيع. و نبذ الرفيع. و تقدّم الغافل. و تأخر العاقل. و تملك الغبىّ. و احتقر الذكىّ. و انتصر الجهل. و خذل الفضل. و قامت دولة الأوغاد و السفل. ليقضى اللّه أمرا كان مفعولا و لو لا سيطرة الظلم و الاستبداد من الحكام و إلجامهم الأهالى بلجام من الجور

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۳

و الإعتساف. لما رفع مصطفى بن إسماعيل من حضيض الأرض إلى عنان السماء. و من دائرة السوقة إلى منصب الوزراء و للّه الأمر من قبل و من بعد.

و لما كان الوزير المذكور يحس من نفسه بعدم اللياقة لمركزه، كان دائما متوقعا الشر من كل مقتدر على تفهيم الباى بحقيقة حاله و سوء أعماله، و لذلك فإن رستان علم أن لا شىء يقوده غير الإرهاب فطلب عزله إرهابا له فسهل عليه قياده من ذلك الحين فصار فى يده كالميت فى يد غاسله، و قد أسرع الوزير بترضية القنصل ترضية رسميّة على الإعتداء الذى حصل منه فداء لمركزه و استقرّ الرأى على تشكيل لجنة للتحكيم تحت رئاسة قاض فرنساوى يكون فيها عضوان تونسيان و عضوان فرنساويان تنظر فى جميع مدعيّات الطرفين و تصدر حكمها فيها فكان صاحب الترجمة أحد ذينك العضوين التونسيين، و قد ناضل عن حقوق حكومته بجميع قواه و بلغ به تعب الفكر و البدن منتهاه حتى عاد إليه المرض بعد أن كاد يشفى منه و قد أوصاه الحكماء الذين باشروا معالجته فى باريس و فى مقدّمتهم شاركو الشهير بأن يقلل ما أمكن من الإشتغال بالفكر و يتباعد عن الإنفعالات النفسانيّة إذ إن مرضه عصبى واقع فى الأعصاب الواصلة بين المعدة و القلب مع ضعف شديد فى الدم تطرأ عليه أدوار غريبة فى الوجع و الألم التزم لتسكينها بتعاطى المرفين و هو روح الأفيون، و قد رجع من باريس آخر مرة و كاد يبطل استعماله بالمرة بل بقى عدّة أشهر لا يستعمله أصلا غير أن مسألة صانسى و ما رآه فيها من حيف الأجنبى لاهتضام حقوق البلاد و التلاعب باستقلالها أعاد إليه المرض كله بأشد مما كان عليه و قد صدر الحكم بمحقوقيّة الحكومة التونسيّة كما هى العادة فى جميع المسائل الّتى تقع من هذا القبيل فى البلاد الشرقيّة فى مثل هذه الأوقات.

و فى تلك الأثناء أنهى تنظيم المستشفى الجديد المسمى بالصادقى و هو على قسمين:

أحدهما: مجانى للفقراء يسع مائة مريض. و الآخر: للموسرين بأجرة معينة زهيدة، و افتتحه الأمير بنفسه فى موكب حافل حضره فى يوم ۱۰ فبراير سنة ۱۸۷۹ (۱۸ صفر سنة ۱۲۹۶ ه) و أعلن الوزير عن لسان الحكومة بحسن مساعى صاحب الترجمة فى تنظيم هذا المستشفى بقوله فى خطاب ألقاه على مسامع الأمير فى ذلك الاحتفال و هو:

«بمقتضى الاذن العلى و عناية سيدنا أدام اللّه تعالى بقاءه بمصالح بلاده وقع انجاز هذه المأثرة الجميلة التى هى إحدى مآثر الحضرة العليّة، و هى هذا المستشفى الصادقى الذى شرفه سيدنا أيده اللّه تعالى بالحضور فيه هذا اليوم، و قد اعتنى الشيخ السيد محمّد بيرم

ببذل الجهد فی انجازه و ترتیبه علی الکیفیّة المشاهدة بما نرجو من اللّه تعالی أن یحل ذلک من سیدنا محل الاستحسان».

فأجاب الأمیر بالشکر و الثناء و أهدی إلی صاحب الترجمة فی ذلک الیوم علبة مرصعة ذات قیمة وافرة مکتوب علیها اسمه بالأحجار الکریمة. و فی أواسط تلک السنة تطاول أحد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۴

أعوان الوزیر علی القاضی المالکی الشرعی بدیوان الحکم و هو أمر لم یعهد له مثیل فی تونس حیث لم تزل الأحکام الشرعیّة و حکامها مرموقین بعین التبجیل و الاحترام اللائقین، فهاجت البلاد لذلک و ماجت و اتفق الحکام الشرعیون علی تعطیل الأحکام إلی أن یسترضیهم الأمیر بعزل الوزیر و عقاب تابعه العقاب الصارم و إجراء القوانین و المجالس الشوروّیة فی البلاد لتکون ضمانة کافیة علی عدم العود لمثل هذا الحادث المکدر و عدم تسلیم الادارة لمن لا یکون کفوءا لها، و بعد أن اتفقت کلمتهم علی هذه المطالب و کادوا أن یحصلوا علیها دخل بین بعضهم داخل الغرور و التفرقة فتشتتت آراؤهم و انحلت جامعتهم و رضوا بتبعید التابع المتطاول لاحدی معاقل المملکة فی قابس الواقعة علی حدود طرابلس، و بتشکیل الأمیر لمجلس سماه مجلس الشوری للنظر فی مهمات أمور الدولة و جعله تحت رئاسة الوزیر نفسه و أعضاؤه بقیّة وزراء المملکة و مستشاروها و لیس فیهم إلّا اثنان من الأهالی و الباقی کلهم من مماليک الجراکسة و زاد علیهم اثنین هما السید محمّد بیرم و العربی باشا زروق رئیس المجلس البلدی، و کانا من أشد المعضدین لعزائم الحکام الشرعیین فی مطالبهم الّتی طلبوها و کان ذلک فی ۱۱ رجب سنة ۱۲۹۶ ه و لا یخفی ما فی رضاء المشایخ بمثل هذا المجلس خصوصا بعد تعیین صاحبیهم فیه من الایقاع بهما و التغاضی عن صالح البلاد الحقیقی.

و لم تطل الأیام حتی اختلق الوزیر مأموریة لصاحب الترجمة و أرسله بها إلی فرنسا و حاصلها السعی لدی کبراء القوم و خصوصا «غامبیتا» رئیس مجلس النواب إذ ذاک و صاحب القول الفصل فی بلاده، لتغییر قنصلهم فی تونس لأنه اشتد علی الحکومة اشتدادا لم یبق لها حریّة للعمل فی شؤونها الداخلیة قط، و لم یقف عند حدّ فی إلقاء الدسائس و الفتن و توغیر الصدور بین الراعی و الرعیّة حتی أنه لما طلب أعیان الأهالی التونسیین ما طلبوه من تأسیس الحریّة و الشوری فی بلادهم کان الموسیو «رستان نائب» الجمهوریّة الفرنسویّة ینصح الأمیر بعدم الاصغاء إلی هذا الطلب، و إن العساکر الفرنسویّة بالجزائر مستعدة لمعاضدته و کسر شوکة الأهالی و اذلالهم عند اللزوم، و هی سیاسة قدیمة اتبعتها فرنسا فی تونس نفسها، فإن قوانین عهد الأمان السابق ذکرها المؤسسة فی تونس سنة ۱۲۷۴ ه کانت بمساعی فرنسا و انکلترا ظاهرا و تهدیدهما للأمیر باسطولیهما اللذین حضرا لذلک الغرض و کان ذلک لمجرد قتل یهودی فی اقامة حدّ اقتضته الشریعة، و لما اجریت تلک القوانین بالفعل سنة ۱۲۷۷ ه و توجه الأمیر لمقابلة الامبراطور نابلیون الثالث فی الجزائر و أهدی إلیه نسخة من تلک القوانین اقتبلها منه بالشکر ظاهرا و لما اختلی الامبراطور بقنصله «لیون روش» و بخه توبیخا شدیدا علی ما رواه المرحوم الجنرال حسین و أفهمه غلطه من المعاضدة علی إجراء القوانین الشوروّیة فی تونس حقیقة، و قال له: «إن العرب إذا تأنسوا بالعدالة و الحریّة فلا راحة لنا معهم فی الجزائر مطلقا» و من ذلک الحین وجه القنصل همته لاقناع الوزیر مصطفی خزنه دار بإلغاء تلک القوانین و وجد منه اذنا صاغیة فألغاها و بقیت کذلک إلی

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۵

هذا الوقت. و قد قبل السید محمّد بیرم مأموریته کما قبل المرحوم حسین باشا وزیر المعارف إذ ذاک بتونس مثلها لدی البرنس «بسمارک».

و لما توجه صاحب الترجمة للسلام علی الأمیر سلام الوداع واجهه بکلام اللوم و العتاب علی ما جری منه من تعضید المطالب الأهلیة، فأجابه الشیخ بیرم بکلام أثر فی نفسه تأثیرا لم یزل یکرّره بتوجع إلی آخر مدته و هو أنه قال له: «إننا نطلب الحریّة الّتی قال سیدنا أنه لا یعطیها لنا غیره» فأجابه الأمیر: لمن أعطی الحریّة أللنجار و الحداد أم لک أو لهذا؟ (و أشار إلی أحد کبار الحاضرین) فإن النجار و الحداد إذا أعطیا الحریّة أساءا التصرف بها و لم تبق لنا معهما راحة، فقال له السید بیرم: «إن الحریّة الّتی یعطیها سیدنا للحداد و النجار

تصيرهما مثلى أنا و مثل هذا»، و أشار إلى ذلك الوجيه و سبب انزعاج الأمير من هذا الجواب هو تكرار لفظة الحريّة فيه و لم يعهد أنه سمعه من قبل، حتى أن أمراء تونس قديما كانوا يعتقدون أنهم يمتلكون البلاد بمن فيها من الأرزاق و الأنعام و السكان امتلاكا شرعيّا لا ينازعهم فيه منازع، و أورد المؤرخ اللبيب الشيخ أحمد بن أبى الضياف فى تاريخه نادرة جرت له مع أمير تونس حسين باشا الثانى فى هذا الموضوع كادت أن تورده حتفه رحمه اللّه.

و لما وصل صاحب الترجمة هذه المرّة إلى باريس و كان ظاهر أمره أنه توجه للتداوى اجتمع بالموسيو «غامبيتا» و فاوضه فى المسألة الّتى كلفه بها الوزير و سلمه تقريرا فيها هذه صورته:

«إنى أقدم على وجه خصوصى غير رسمى إلى حضرتكم العليّة تقرير ما هو واقع فى المملكة التونسيّة مما عساه أن يكدر صفاء القلوب حيث كنت أنا و أهل بلادى على علم من أن الدولة العظيمة الحرّة لا يبلغها ما هو حاصل الآن من نائبها فى تونس الذى اتخذ طريقة التشديد و التخويف ديدنا فى كل شىء حتى صير حكومتنا متحذرة من أصدقائها عوضا عن زيادة الألفة و الركون الذى هو الواجب مع الأمة الفرنسويّة الّتى كل أهالينا يعلم أنها وحدها هى الّتى تفيدنا و لهذا عندما امتلأ و طابنا من الكدر لم نقصد إلّا ابلاغ الحال إلى رجالها المنصفين من غير أن نطرق بابا غير بابها و ذلك أن موسيو «رستان» النائب المذكور بعد أن أوقع دولتنا فى إرتباك و كاد يغير علينا الدولة الفرنساويّة فى نازلة موسيو دو صانسى الّتى لا تستحق تلك الأهميّة حسبما يوضح ذلك التقرير الذى حرره مجلس التحقيق المعين من فرنسا و بعد أن اضطر حكومتنا الفقيرة الّتى لم تستطع دفع كبونها (فوائد ديونها) و لا مرتبات متوظفيها إلى دفع مبالغ مجانا من المال و الأملاك إلى أناس لا فائدة بهم لكلا الدولتين لأسباب نتحاشى عن ذكرها أمام فخامتكم حتى أنه خسرنا فى مدة الستة أشهر الأخيرة فقط نحو مائة ألف و سبعة و أربعين ألفا فبعد هذا كله إذا هو الآن يتعرض رسميّا لتحسين ادارة البلاد الّتى بها تتمدن الأهالى و يدخلون فى الحضارة و كانت الدولة الفرنساويّة أنالتنا إياها على يد نائبها سنة ۱۲۷۴ ه ۱۸۵۸ انتصارا للإنسانيّة و الحق فعوضا عن زيادة التقدم مع تقدم العالم إذا هو الآن مضاد لذلك و قال إلى سيادة سيدنا الباى لا تفعل مجلس الشورى الذى طلبته منك الأهالى وابق على حالتك العتيقة بل أوعز إليه مع بعض أعوانه المنكشف

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۶

حالهم بأن يقتل نحو ثلاثة أشخاص و ينفى نحو سبعة و يلتجى إلى حمايته و لا عليه فى شىء فلو لا مكارم سيادة سيدنا الباى لأوقع البلاد بل فرنسا ذاتها فى ارتباكات مضادة للإنسانيّة و العدالة المجبولة عليها الدولة الجمهوريّة الفرنساويّة.

فيا أيتها الحضرة الفخيمة هل ترضى الأمة و الدولة التى ترسل أبناءها إلى أقصى المشرق و المغرب لحفظ الإنسانيّة أن يكون نائبها مضادا لذلك فى بلاد هى جارة لها عندما كانت الدولة العظيمة تخرج أهل الجزائر من الحكم العسكرى إلى الحكم البلدى متسترا فى دعواه بعدم التعرف بالمجلس بأنه سمع أن المقصد منه هو التعرض لمصالح فرنسا مع أنه على علم بأن مصلحة الأمة الفرنساويّة يعتبرها و يراعيها كل من الآمر و المأمور فى بلادنا لعلمنا بمقامها بيد أنه إذا كانت المصلحة ليست لفرنسا و إنما هى مجرد فوائد شخصيّة فإن مصلحة البلاد تقدم عليها و هو الذى نؤمل المعاضدة عليه من الرجال المشهورين فى العالم من الدولة الفرنساويّة و تبقى بمآثرهم مزينة صحف التاريخ فهذا أنا أنهى إلى مسامعكم الشريفة اختصار ما هو حاصل و لحضرتكم أن تطلبوا الايضاح ممن يعلم حالة بلادنا من الذين لهم خبرة بها من الصادقين.

و قد بادر صاحب الترجمة بارسال تفصيل المقابلة و ما حصل فيها من الكلام إلى الوزير بمكتوب مؤرخ فى ۱۲ شعبان سنة ۱۲۹۶ ه من جملة ما قاله له فيه عن لسان «غامبيتا»: «إن كنتم تريدون الارتياح من الرجل (أى رستان) فيجب أن تكتموا هذا الأمر بل و لا اجتماعكم بى فى شأنه و إلّا كان ذلك ينقض قصدكم». و ما كاد يصل هذا المكتوب إلى تونس حتى انتشر الخبر بسر المسألة و لم يعلم إن كانت الاشاعة حصلت من نفس الوزير أو من المترجم الذى كان الواسطة فى الكلام بين غامبيتا و صاحب الترجمة الذى لم يكن يتكلم اللسان الفرنساوى، و الحاصل أن القنصل انتهز هذه الفرصة الجديدة و أرعد و أبرق على الأمير و الوزير و زاد فى ايغار

صدورهما على صاحب الترجمة و ساعده البخت أو الصدفة بأنه فى الوقت الذى كان الأهالى فى تونس يطلبون تأسيس الشورى فى بلادهم كانت الدول مشغولة فى مصر بخلع إسماعيل باشا و حصل ذلك على يد خير الدين باشا صاحب الصدارة حينئذ، و ارتباطات الباشا المذكور بتونس و خصوصا بصاحب الترجمة مشهورة عند الجميع، فاستنتجوا من ذلك أن طلب الشورى فى تونس لم يكن القصد منه إلّا إحداث ارتباكات فى المملكة تفتح الباب لمداخلة الباب العالى خصوصا، و كان صاحب الترجمة معارضا شديد المعارضة فى وصل سكة الحديد بين الجزائر و تونس و تعيين الحد الفاصل بينهما إلّا بعد العرض للدولة العليّة، و زادوا فى اقناع الباى بالتلغراف الذى أرسله خير الدين باشا يعلمه فيه بفصل إسماعيل باشا عن خديويّة مصر و قد استعمل الصدر الأعظم فى تلغرافه عبارات اشتم منها رائحة التهديد و الوعيد للباى حتى التزم الحال للاستفهام من الباب العالى بواسطة السفارة الفرنساويّة عن الغرض من عبارات ذلك التلغراف مع أنه فى ذلك الوقت كانت العلاقات الخصوصيّة بين المرحوم و خير الدين باشا معكرة مكدرة من حين خروج الباشا المذكور

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۷

من وزارة تونس، و لم يصف ماؤها إلّا بعد ذلك التاريخ كما يدل عليه المكتوب الآتى:

«الفاضل الزكى الثقة المعتمد الشيخ سيدى محمّد بيرم حرس اللّه تعالى كماله، و بعد:

قد وصلنا مكتوبكم فى ۲۲ من الشهر و علمنا ما احتوى عليه من لذيذ الخطاب و نحن للّه الحمد على ما يسر الاحباب من العافية التامة فى أمورنا الحسيّة و المعنويّة، و أما ما أشرتم إليه من الأحوال السالفة عن قدومنا لدار الخلافة فجوابه عفى اللّه عما سلف و السلام، من خير الدين فى ۲۹ شعبان سنة ۱۲۹۶ ه».

و من راجع تاريخ مكتوب صاحب الترجمة المذكور أعلاه و جواب المرحوم خير الدين باشا عنه و قارن بينهما و بين تاريخ انفصال الباشا المشار إليه عن الصدارة العظمى الواقع فى ۹ شعبان سنة ۱۲۹۶ ه يعلم علم اليقين أنه فى مدة صدارة الباشا المشار إليه لم تكن بينه و بين الشيخ بيرم أدنى علاقة و إن كل ما بناه إذ ذاك المرجفون بناء على علاقاتهما الوداديّة القديمة هو محض اختلاق، و كأن الوزير التونسى غفل أو تغافل عن حقيقة المأموريّة الّتى أناطها بعهدة صاحب الترجمة فأرسل إليه تلغرافا رسميّا إلى باريس نص ترجمته:

«من باردو فى ۷ أغسطس سنة ۱۸۷۹ الموافق ۱۸ شعبان سنة ۱۲۹۶ ه من الوزير الأكبر إلى الشيخ سيدى محمّد بيرم: شاعت الأخبار بأنك متداخل فى أمور سياسيّة خصوصا و أنه لم يصدر لكم أدنى أمر فيها، و لذلك فإن سيدنا المعظّم يأمركم صريحا بأن لا تتداخلوا مطلقا فى هذه المسائل حيث أنكم سافرتم لمعالجة صحتكم و إذا انتهت مدّة التداوى فارجعوا إلى تونس».

ثم بعد ذلك ورد له مكتوب من الوزير بتاريخ ۲۵ شعبان جوابا عن مكتوبه المؤرخ فى ۱۲ شعبان و فيه يقول: «أما بعد السلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته فقد بلغنا مكتوبكم الخصوصى و علمنا ما ذكرتم و ما وقع مع موسيو «غامبيتا» فمثلك من يعتمد عليه و على صداقته و أما كتمان السر فيكون مهنا لأن نفعه لنا و إنما اللّه يحقق الأمل من اتمام الوعد لأن القنصل فى غاية القوّة الخ».

فلم يسع صاحب الترجمة بعد هذا الاضطراب فى أقوال الوزير إلّا أن يستعفى من وظائفه فأجابه الوزير عن الاستعفاء بهذا المكتوب و نصه: «الفاضل الزكى المدرس الشيخ السيد محمّد بيرم رئيس جمعيّة الأوقاف حرسه اللّه أما بعد السلام عليكم و رحمة اللّه، فإن ما عرضتموه علينا من طلب الاعفاء من رئاسة جمعيّة الأوقاف علمناه و من معلوماتكم أنكم كنتم طلبتم هذا منا قبل سفركم على خير فلم نسعفكم لذلك و الذى نعرفكم به أننى لم نزل على رأيى فى عدم اسعافكم لما ذكر و نرجو اللّه أن يجمعنا بكم و أنتم على حال كمال و دمتم بحفظ اللّه و السلام، من الفقير إلى ربه أمير الأمراء مصطفى الوزير الأكبر عفا عنه فى ۳ رمضان سنة ۱۲۹۶ ه».

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۸

و فى اليوم نفسه أرسل له مكتوبا آخر نصه: «أما بعد السلام عليكم و رحمة اللّه فإنه بلغنا كتابكم المؤرخ فى ۲۵ الشهر الفارط متضمنا

ما نحن على ثقة منه من سلوككم الطريق المستقيم فى أقوالكم و أعمالكم و تحرزكم فى الاجتماع من أن ينسب إليكم غير ما قصدتموه و لا يستغرب ذلك من مثلكم و نرجو اللّه أن يجمعنا بكم و أنتم على حال كمال و دمتم بحفظ اللّه و السلام».

و قد رجع صاحب الترجمة إلى تونس بعد الالحاح الشديد عليه من أصدقائه فوجد الحال متغيرا و ملامح الوزير تظهر الشر و مع ذلك فقد أبلغه صاحب الترجمة ما رآه و سمعه فى باريس بخصوص المسألة التونسيّة و أراء رجال السياسة فيها، و من جملة ما بلّغه أن الأخبار رائحة هناك بأن القنصل أقنعه بمساعدة فرنسا على مرغوباتها من ضم تونس إليها و فى مقابلة ذلك تضمن للوزير ولاية العهد على الامارة و استيلائه عليها بعد سيده و نصحه بأن لا يغتر بهذه الترهات فإن القنصل إذا حصل على مرغوبه لا يوفى وعده للوزير و لا تعود الخسارة إلّا على البلاد و أهلها، و قد حقق الزمن حدس السيد بيرم فإنه لما دخلت فرنسا فى تونس سنة ۱۲۹۸ ه لم تطل مدتها فيها حتى عزلت مصطفى بن إسماعيل عن الوزارة و أخرجته من البلاد بالمرة و لم نوف له بما وعدته به بل نظرت إليه نظر الخائن، و كثيرا ما تكلمت جرائدها و أرباب الوجاهة فيها لتجريده عن نيشان اللجيون دونور الفرنساوى و هو حامل أول درجة منه، و بقى يتقلب متغرّبا فى البلدان تقذفه أمواج الذل و السؤال بعد أن صرف ما ادّخره أيام عزه من الأموال الطائلة و أصبح:

يوما بحذوى و يوما بالعقيق و بالحديب يوما و يوما بالخليصاء

إلى أن جاءت به المقادير إلى القسطنطينية حيث تغاضت الدولة العثمانيّة عن ذنوبه و أبقته يتنعم بلذيذ الحياة و يتحسر على ماضى عزه و غبن صفقته.

أما صاحب الترجمة فإنه بعد عودته إلى تونس من مأموريته توجه إلى (المرسى) للسلام على ولى عهد الامارة الأمير الحالى السابق ذكره، فوجد الأمير المشار إليه فى مركبته أمام محطة السكة الحديد فاركبه معه و سارا إلى بستان الأمير فكبر هذا الأمر على مصطفى بن إسماعيل و أمر صاحب الترجمة بالكف عن التردّد على ولى العهد، و كثرت الدلائل على سوء نيّة الوزير نحو السيد بيرم و تغلب دسائس موسيو «رستان» ضدّه حتى نصحه بعض الأصدقاء من خواص حاشية الباى بالسفر خارج المملكة لأن بقاءه فى البلاد فيه خطر عليه، فطلب بعد عيد الفطر التوجه لأداء فريضة الحج خصوصا و قد تهدّده الوزير بأنه إذا شاع الخبر الذى كان أعلمه به بخصوص مساعيه لولاية الامارة يلقيه تحت أعباء المسؤوليّة الثقيلة فامتنع الوزير من اعطاء الرخصة بالسفر و قد توسط حينئذ السيد الشريف نقيب الاشراف السابق فى تونس للحصول على تلك الرخصة و بين للوزير عدم جواز منع المسلمين من أداء فريضة الحج و زيارة النبى صلى اللّه عليه و سلم، و للسادة الاشراف فى تونس النفوذ الكبير و الكلمة المسموعة فالتزم الوزير بالاجابة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۹

و قد سافر صاحب الترجمة من تونس فى ۲۶ شوال سنة ۱۲۹۶ ه و لم يعد إليها بعد و قصد مالطه و منها للاسكندريّة و مصر القاهرة، و فيها تقابل مع الخديو المرحوم توفيق باشا و كان ذلك فى ابتداء ولايته فقدّم له قصيدة فى التهنئة بالولاية و تاريخها.

و قد دار الحديث بينهما عن كيفيّة نظام اللجنة الماليّة الدوليّة المؤلفة فى تونس لادارة أشغال الدين و عن النتائج الّتى أنتجتها، و هل البلاد متضررة منها أم لا؟ و كان ذلك بسبب ما اقترحته انكلترا و فرنسا إذ ذاك على الحكومة المصريّة من اقامة لجنة للمراقبة الماليّة، ثم أن المرحوم سار إلى الحجاز و قد تقابل فى مكة المكرمة مع المولى الشريف حسين الأمير الأسبق و أكرم وفادته ثم بعد أداء فريضة الحج و المناسك توجه للزيارة فى المدينة المنورة حيث أقام ثلاثة أيام و كان مرضه العصبى مشتدّا عليه فى الطريق و هناك توسل للحضرة النبويّة بقصيدة طويلة طالبا من اللّه الشفاء للبدن و اللطف بالوطن و مطلع القصيدة:

إلى السدّة العظمى شددت عزائمىإلى سدّة الاجلال شمس المكارم

إلى باب خير الخلق خصصت وجهتىو من فضل باب اللّه أملت راحمى

إليك رسول اللّه قد جئت ضارعاو فضلك ممدود على كل قادم

فيا خير خلق اللّه جد لى بالرضاو امّن مخافى من عقاب المآثم

و یا أکرم الأمجاد هب لی توبةو أسس علی التقوی قیام دعائمی

و أنت ملاذی فی أموری کلهافعجل شفائی من سقامی الملازم

ألا یا رسول اللّه طهر بلادنافقد جار فی الأنحاء ظلما مخاصمی

یرید خلاف الحق فی الخلق جائرافننصحه رشدا لذا کان ظالمی

فعجل بانقاذ البلاد من الذیتأبط شرا و ارتدی بالمظالم

و فرج همومی و الکروب و علتیو لیس سواک یرتجی للعظائم

و للعدل أن ینقاد کل ملوکنالکیما یحل الدین أعلی العواصم

و من المدینة المنورة توجه إلی ینبع و سافر منها إلی بیروت مارا علی خلیج السویس و قد ذکر هذه الرحلة فی أول الجزء الخامس و ما لاقاه فی سفره من کرم و اکرام صاحب السماحة السید السند السید سلمان أفندی القادری نقیب اشراف بغداد.

و لما وصل إلی بیروت لاقاه والی سوریّة إذ ذاک المنعم المقام الجلیل الذکر مدحت باشا بمزید العنایة [و] الرعایة، و احتفل به أعیان المدینة من مسلمین و مسیحیین بما أبقی لهم فی نفسه الذکر الحسن و الثناء المستطاب، و کان المرحوم من جملة المشترکین المساعدین فی جمعیة المقاصد الخیریّة الّتی تأسست فی بیروت لانشاء مدارس خیریّة و قد زار تلک المدارس و لاقی من احتفال الأساتذة و التلامذة و انشادهم القصائد و المقالات الرائقة بین یدیه ما زاد ابتهاجه، و قد هنأه الشاعر الدراکة البلیغ المرحوم الشیخ إبراهیم الأحدب بقصیدة شائقة ذات أربعة و أربعین بیتا مطلعها:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۰ بدر العلی تاریخه (من غربه)فی الشرق أشرق نوره لمحبه

و منها:

من أین هذا الطیب هل ریم النقالیلا سری لیدیر راحة صبّه

أو جاء بیروتا محمّد بیرممن طیبة فذکت نوافح قربه

حیث الزمان علی تلوّن طبعهأدّی به کفارة عن ذنبه

و قد مدحه أیضا الأدیب الفاضل و اللوذعی الکامل الشیخ أبو حسن قاسم أفندی الکستی البیروتی بقصیدة غراء منها:

به تونس الغرب استعزت و أحرزتبصحبته الفضل الذی لیس یجحد

یغار علی الدین الحنیف لأنهخبیر به لا یعتریه التردّد

علیه من العلم الشریف جلالةیقوم لها الدهر الحسود و یقعد

و سیرته الحسناء فی کل موطنبألسنة الأیام تتلی و تنشد

و بعد أن أقام هناک أسبوعا رام فیه التوجه لدمشق الشام لرؤیة معالمها العظام و ملاقاة السید الأمیر عبد القادر الجزائری غیر أن الوقت لم یسعف بذلک لتراکم الثلج فی الطریق و تعطیله للسکة فتوجه توّا إلی القسطنطینیّة و هناک ورد علیه مکتوب من الأمیر المشار إلیه نصه:

«بسم اللّه الرحمن الرحیم- الحمد للّه حمد المتوسلین. و الصلاة و السلام علی سید المرسلین. و علی آله و صحبه آمین. من خادم أهل اللّه عبد القادر بن محیی الدین الحسنی إلی جناب العالم الفاضل. و الهمام الکامل. صاحب المقام السنی. الشیخ السید محمّد بیرم أفندی المحترم. أدام اللّه علیه سوابغ النعم. أما بعد اهداء تحیّة مقرونة بالاخلاص و التکریم. و أدعیة متوالیة بدوام نفعکم العمیم فالموجب لتحریره أولا السؤال عن راحة وجودکم السعید. و الابتهاج بسماع حدیثکم المجید. و ثانیا قد بلغنا من ولدنا عبد القادر أفندی الدنا سلامکم. و مزید محبتکم و ودادکم. و حصل لنا بذلک تمام السرور. زادکم اللّه نورا علی نور. و رغبة بربط أسباب المودّة بجنابکم. و استجلاب بدائع خطابکم. و مجاب دعائکم علی الدوام. تحرّرت لکم هذه الأرقام. و علیکم السلام فی ۱۶ جمادی

الأولى سنة [۱۲۹۷ ه]».

المخلص عبد القادر الحسنى

و كان المرحوم قبل توجهه إلى الاستانة أرسل مكتوبا بواسطة بعض خواصه للوزير بتونس نصه:

«الصدر الهمام أمير الأمراء جناب الوزير الأكبر سيدى مصطفى أطال اللّه عمره أما بعد السلام التام، فإنى قضيت المناسك و للّه الحمد و لم أستطع المبادرة بالرجوع إلى الوطن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۱

لأنى فى اضطرار إلى اراحة البال و البدن للأسباب الّتى تعلمونها حقّا، فلزمتنى مراعاة الحال إلى أن ينفس اللّه الكرب لقوله تعالى: وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [البقرة: ۱۹۵] و اللّه حفيظ و ولى من يتوكل عليه و السلام فى غرة صفر سنة ۱۲۹۷ ه».

إلّا أن هذا المكتوب لما بلغ تونس منعه أحباء صاحب الترجمة و خواصه من الوصول ليد الوزير و بقى المرحوم فى وظائفه إلى حين وصوله للاستانة، و لما ورد خبر وصوله إليها أسرعت الحكومة التونسيّة بتوجيه جميع وظائفه إلى غيره، و هو المرحوم الشيخ أحمد الورتتانى. و مما يجمل بى ذكره هنا أن عائلة صاحب الترجمة رأت من مكارم أخلاق هذا الخلف و حسن تودّده و تلطفه بها ما يندر وجود مثله فى الأعصر السالفة فضلا عن هذا الزمان فى وقت اضطهاد الحكومة لسلفه و مراقبتها الشديدة لكل ما يتعلق به، ثم إن صاحب الترجمة لما استقر بدار الخلافة مدح الحضرة السلطانيّة بقصيدة مطلعها:

النصر و التأييد و العمر المديدقد توجّت فى عرشها عبد الحميد

و أرّخ سنة الجلوس الشاهانى بقوله:

بشرى الولاية قد أتت تاريخهالخلافة يسنى بها عبد الحميد

و لم تطل الأيّام حتّى أرسل الوزير التونسى يطلب من الباب العالى ارجاع الشيخ بيرم إلى تونس مدّعيا أنه سافر بدون رخصة الحكومة و لم يقدم حسابا عن ادارته فى الأوقاف و الواقع و نفس الأمر أنه لم يطلبه إلّا بالحاح قنصل فرنسا عليه من جهة لأن فرنسا لا تحب حصول الارتباط بين تونس و الدولة العليّة بأى وجه من الوجوه، حتّى أنها من بين سائر الدول لم تعترف بفرمان سنة ۱۲۸۸ ه المقرّر لتابعيّة تونس للخلافة الإسلاميّة، و من جهة أخرى قد خشى الوزير من التحام صاحب الترجمة بخير الدين باشا و افسادهما مساعيه لتولى الامارة و اطلاع الدولة العثمانيّة على دسائسه و سوء سياسة الحكومة التونسيّة فى مدة الصادق باى لأنه سلم جميع الأمور بيد وزيره العديم الخبرة، و قد بذل مصطفى بن إسماعيل جميع مجهوده و أغرى بعض كبار الرجال فى الاستانة لمساعدته على اخراج الشيخ بيرم منها غير أن حكمة مولانا أمير المؤمنين و عدالته حالت بين صاحب الترجمة و بين أعدائه و أصدر أمره العالى بأنه: إذا كانت هناك دعوى على ناظر أوقاف تونس المقيم بالاستانة فلترفع فيها إذ أن تونس لم تخرج عن كونها من الولايات العثمانيّة الّتى تجمعها جامعة تخت السلطنة، و بذلك سكت مصطفى بن إسماعيل عن دعواه الفاسدة.

أما أولا: فلانّ صاحب الترجمة لم يخرج من تونس إلّا بجواز (باسبورت) رسمى ممضى عليه من الوزير نفسه بصفة كونه وزير الخارجيّة لم يزل محفوظا للآن، و قد حضر لوداعه يوم السفر كثير من كبار رجال الحكومة بما فيهم وزير البحريّة و أعد له بأمر الوزير الأكبر زورق خصوصى من زوارق الباى لتوصيله للباخرة، و قد أوصاه الوزير بمحضر جمهور عديد من التونسيين لاحضار بعض هدايا من الحرمين المحترمين، هذا ما يتعلق

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۲

بالسفر و أما حساب الأوقاف فقد جرت العادة بنشره سنويّا فى الجريدة الرسميّة «الرائد التونسى» و لم يتأخر نشره قط و هو محفوظ فى مجموعة الرائد يمكن مراجعته. ثم إن صاحب الترجمة قبل سفره للحجاز أخذ براءة من مجلس ادارة الأوقاف ممضى عليها من جميع الأعضاء و من أمين الصندوق و هى حجة قوية ناطقة بأن لا شبهة فى الحساب و لا شىء من أموال الأوقاف باق فى ذمة الناظر و تلك

البراءة هی بنصها بالحرف الواحد:

الحمد للّه و صلی اللّه علی سیدنا و مولانا محمّد و سلم:

ریالات فضة

اطلعت الجمعیّة علی حساب دخلها و خرجها سنة ۱۲۹۶ ه التاریخ بانضمام حسابات السنین السابقة إلیها، فکانت جملة الدخل ثلاثمائة ألف و ثلاثة و خمسین ألف ریال و تسعمائة و تسعة و ثلاثین ریالا و نصف ریال و عشرة نواصر فضة، و جملة الخرج ثلاثمائة ألف و أربعة آلاف و ثمانمائة ریال و ثمانین ریالا إلّا ثمانیة نواصر و نصف ناصری فضة الذی بتذاکر الجمعیّة، و کان الفاضل ما قدره تسعة و أربعون ألف ریال و ستون ریالا إلّا سبعة نواصر و نصف ناصری فضة أخرج منه الرئیس ثمانیة آلاف ریال و ستمائة ریال و خمسة و عشرین ریالا فضة صرف خمسة آلاف فرنک صرفت فی مصالح الدولة و خرجت فیها تذکرتین منها لقابضها یدفعها مصروفا علی ید الوزیر الأکبر و لم یدفعها القابض إلی الآن إحداهما: تذکرة مؤرخة فی ۲۷ القعده من عام ۱۲۹۳ ه عدد ۴۶۱۹ بها ألفا فرنک اثنان، و ثانیتهما: مؤرخة فی ۱۵ الحجة سنة ۱۲۹۵ ه عدد ۳۵۶۹ بها ثلاثة آلاف فرنک، و لما کان الفصل الواحد و العشرون من ترتیب الداخلیّة للجمعیّة قاض بابقاء المفتاح الثالث للخزنة الثانیة عند الرئیس، و الفصل السابع عشر من الترتیب المذکور قاض بأن کاهیة الجمعیّة یقوم مقام الرئیس عند غیبته و قد أراد الرئیس السفر إلی أوروبا فبمقتضی ذلک أبقیت تذکرتا الدولة المذکورتان بالخزنة الثانیة المذکورة و سلم إلی الکاهیة مفتاحها الثالث بمحضر الجمعیّة بعد اطلاعها علی الحساب المذکور و سلامة ذمة الرئیس مما فی عهدته، و کان الباقی تحت ید أمین مال الجمعیّة أربعین ألف ریال و أربعمائة ریال و خمسة و ثلاثین ریالا إلّا سبعة نواصر و نصف ناصری فضة، و کتب فی ۲۰ یونیه الموافق لرجب الأصب ۱۳ من عام ستة و تسعین و مائتین و ألف.

صح أحمد الورتتانی صح محمد بن الأمین

صح محمد الشاذلی السنوسی صح من محمود بن سالم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۳

هذا و قد خرج صاحب الترجمة من القطر التونسی و ترک وظائفه فیه و لم یکسب منها شیئا مع أنه کان یسهل علیه کثیرا فی تلک الأوقات الدخول فی أبواب الکسب بلا معارض و لا ممانع کما جرت به العادة عند الکثیر محافظة منه علی الاستقامة و احترام الحق، لا سیما و الأوقاف لم تکن فی بادیء أمرها مضبوطة و لا معلومة فأمرها فی الواقع موکول لذمته و طهارة نفسه فکان کثیرا ما یلتزم لبیع أملاکه و عقاراته لتسدید مصاریفه الواسعة حتّی أن مصاریف سفره الأخیر لباریس حیث توجه بمأموریّة من طرف الوزیر التونسی تحمل بها من عنده و بلغت أربعة عشر ألف فرنک مع أن الوزیر المذکور وعده بتسدیدها و لم یوف بعد.

و لما استقرت إقامته فی دار الخلافة وجد المرحوم خیر الدین باشا مهتمّا بتقدیم تقریر بشأن الإصلاحات المقتضی إدخالها فی نظام الدولة العلیّة لزیادة سطوتها و تأیید عظمتها علی حسب ما یفتکر، و قد انهی التقریر المذکور بالفعل غیر إنه لم یحز محل القبول لأنه لم یکن مطابقا فی بعض وجوهه لاحکام الشریعة الغراء فأخذ الشیخ بیرم فی تطبیقه علیها، و لما انتهی منه حصل تقدیمه للحضرة السلطانیّة و من ذلک الحین شملته الأنظار الشاهانیّة بعین ملاحظتها لدقة علومه و اتساع معارفه ثم أنه تفرّغ لتدوین «صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار» و تمم الجزئین الأولین منه، و کان یقصد تقدیمه للحضرة المعظمة المشار إلیها عند إتمامه خصوصا و هو شارع فی جعل خاتمة الکتاب المذکور علی نحو مقدمتی: «ابن خلدون» و «أقوم المسالک»، أی أنها تتضمن ما یقتضیه الحال لإصلاح الأحوال فی البلاد الإسلامیّة لعود عصر شبابها إلیها کما هو غرضه الوحید الذی یدأب له منذ زمان و یتحمل فی سبیله کل مشقة و عناء، و قد تحسنت صحته إذ ذاک و استراح من اتعاب المرض و کاد أن یشفی منه تماما حتی أن استعماله المرفین قل بحیث بلغ درجة تقرب العدم و بینما هو علی ذلک الحال متنعم البال منتظرا الرحمة من اللّه بانقاذ بلاده من حکومتها الجائرة إذ ذاک و قد اعتذر عن العمل بمقترحات اقترحها علیه الموسیو «فورنییه» سفیر فرنسا فی ذلک الحین حاصلها الرجوع إلی تونس تحت کنف فرنسا أو

الإقامة بالجزائر أو بباريس إذ فاجأته الأخبار بزحف العساكر الفرنسويّة على الحدود التونسيّة و ابتداء حركة «خمير» المخترعة.

نعم إن الشيخ بيرم كان عالما بما ستؤول إليه البلاد من السقوط فى يد فرنسا و لكنه لم يكن ينتظر حصول ذلك فى العصر الحاضر و كانت فى تلك الأثناء ترد عليه مكاتبات من بعض أحبائه التونسيين و غيرهم بما يحصل فى تونس من تلاعب الوزير بين قنصلى فرنسا و إيطاليا و إرضائه أحدهما يوما و اغضابه الآخر يوما ثانيا، و كان الشيخ ينصح مكاتيبه و محبيه بتجنب هذه الألعاب المضرة خصوصا تظاهر الوزير بالميل الفجائى لايطاليا و اغضائه مرة واحدة عن فرنسا حتى إنه أهان كرامتها لأن ذلك لا تؤمن عواقبه، و لم يمض على ذلك شهر حتى أيدت الوقائع ما كان يخشاه و ليس من غرضنا تكرار كتابة ما حصل فى ذلك العهد لدخول فرنسا إلى تونس و أعلان حمايتها عليها، إذ أن ذلك تكفلت به كتابات غيرنا و لكنا نقول: إن الحضرة السلطانيّة أصدرت أمرها لخير الدين باشا و لصاحب الترجمة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۴

بتقديم ما يريانه فى هذه المسألة لجانبها و قد كتب صاحب الترجمة فى ذلك تقريرا مفصلا لخص فيه بيان حقوق الدولة العليّة على البلاد التونسيّة و ارتباطاتها بها قديما و حديثا، و استنهض همم الدولة لإنقاذ تلك المملكة المسلمة حيث أنها مرقد المجاهدين و مدفن الصحابة و التابعين من الوقوع فى يد دولة أجنبيّة و ختم التقرير بنتيجة ما يراه و هو:

إنه إذا كانت الدولة تشغلها شواغل الحرب الروسيّة و عواقبها من انقاذ تونس بالقسر من مغتصبها، فلا أقل من إنه يلزمها التحالف مع دولة أجنبيّة أخرى للتساعد بها على نيل ذلك المرام و لو اقتضى الحال التنازل لها عن مدينة واحدة مثل «مينا بنزرت» فى مقابل هذا التحالف و كانت الدولة جرت على مثله مرارا عديدة، فإن خسارة مدينة واحدة خير من خسارة مملكة برمتها و قد كان الشيخ بيرم يكتب هذا التقرير و الدموع تقرح عينيه و الألم العصبى الذى تحرك و تجدّد يفتك بجسده، و كان يكرر القول على جلسائه بأن لا حذر مما قدّر لا سيما و أن الفرصة المناسبة للدولة قد فاتت و هذا الزمن زمن قتال لا وقت جدال، و سيأتى ذكر هذا التقرير فى مجموعة منشآته و رسائله.

و لما رسخت قدم فرنسا فى البلاد يئس المرحوم من قرب العودة إليها و رام التقرب من عائلته للمخابرة فى شؤون بيع ما تبقى من أملاكه و نقله العائلة من تونس إلى بلاد أخرى، فسافر إلى إيطاليا لذلك الغرض و أقام فى مدينة «ليفورنو» لقربها من تونس، و كان مدة إقامته فى الأستانة معاشرا لاهلها و خصوصا أبناء العرب منهم معاشرة الصفاء و الإخلاص متباعدا عن المزاحمة فى طلب المناصب أو التداخل فيما لا يعنيه، و لم ير منهم الّا ما يسره و كان السيد سلمان القادرى رجع من القسطنطينيّة إلى بغداد فلما استقرّ بها كاتب صاحب الترجمة بما نصه:

«كتابى هذا و أنا ممتلى من الأشواق، و مضطرب لما لها من الاحراق، كيف لا و حب ذلك المولى الأجل. و النجيب الأفضل، قد أخذ بمجامع القلوب و أحاط بالفكر على أتم أسلوب، لمزيد ما انطوى عليه من الأوصاف الحميدة، و المكارم السديدة، مع طبع رائق، و علو جناب فائق، و شهامة كاملة، و نجابة فاضلة، و علم وافر، و فضل متكاثر، فكل فضيلة به حريّة، و كل مفخرة له سجيّة، و ليكن معلوما لسيدى أدام اللّه تعالى بقاه، و أناله كل ما يتمناه. بأنى لم أخل ذكر ثنائه الجميل من لسانى، و لم ينفك تخيل شخصه المنير لحظة عن جنانى. بل لا زلت آنسا بما ذكرته من الذكر و الخيال. مفتخرا بما خصلته من محبة ذلك المولى النبيل بين الأحباب فى جميع الأحوال، ثم إنى و إن قدمت من قبل هذا عريضة لم أحظ بجوابها من ذلك الجناب الرفيع لكنى أبدى عذرا لما وقع من القصور مدة من عدم ترديفه بكتاب آخر إذ ترادف العرائض. معدود لدى من جملة الفرائض. فلم يكن التأخير المذكور ناشئا من قصور فى المحبة. و لا عن تقصير فى العلم بعلو الدرجة و المرتبة. بل ذلك نوع من التقدير. و وجدانك القوى عالم خبير. يصدّق ما يدعيه هذا الخالص الفقير.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۵

فالمرجو من بعد هذا أن تستمر المراسلات فى البين. و ينقطع بوجودها البين. أفندم».

فى ۱۹ جمادى الأولى سنة ۱۲۹۹ ه. الداعى پوست نشين حضرت كيلانى نقيب بغداد السيد سلمان القادرى

و قد كان صاحب الترجمة على عادة أهل تونس و على ما امتاز به من التشيع الكلى لآل البيت النبوى الكريم يميل ميلا خاصا للسيد المشار إليه لنسبه العالى و حسبه الغالى و فضله المتلالى، حتى إن ذلك كان من جملة البواعث على الإيقاع به تشفيا من سيادة السيد النقيب حرسه اللّه و مع ذلك فقد كان المرحوم يسعى جهده لجعل علاقاته مع جميع من يعاشره من العرب و غيرهم فى الأستانة على أحسن ما يكون من المجاملة و حسن المعاملة، و كان مع صاحبى السماحة السيد أحمد أسعد أفندى و السيد أبى الهدى أفندى على قدم الوداد و حسن الإعتقاد، كما يظهر من آثارهما المحفوظة لديه و نذكرها هنا تبركا بهما و افتخارا بودهما:

«أخذت يا بهجة الفضلاء. و قرّة أعين العلماء. كتابكم الكريم. و أمركم المحترم الفخيم. و اطلعت على رسالتكم الجميلة الشاهدة لحضرتكم بأيادى العلم الطويلة. و إنى بحمده تعالى ممن يحب أن يسدى المعروف لأهل الفضائل. سيما لمثل حضرتكم من أرباب المزايا العليّة و الفواضل. فإذا وفق المولى نقوم بتقديمها لمحلها. و دمتم أرباب المناقب و أهلها».

الداعى (أبو الهدى)

«قدوة الأماجد الكرام. ذو الفضل و الإحترام. محبنا العزيز السيد محمّد بيرام. حفظه اللّه آمين و بعد مزيد السلام. مع التحيّة و الإكرام. نعرف سيادتكم هو أن الساعة ثلاثة و نصف فى يومنا هذا لازم تشرفونا فى البيت مع نجلكم المكرم لأجل أن نتبرك بكم. هذا ما لزم و دمتم. فى عز و سرور. و أنعم حبور فى ۷ ذى القعدة سنة ۱۳۰۰ ه».

الداعى (أحمد أسعد)

و بعد أن اتفق صاحب الترجمة مع عائلته على العود إلى الأستانة و السكنى بها حيث لم ير محلا انسب منها من بلاد الإسلام و لا تليق السكنى بعائلة مسلمة فى بلاد أجنبيّة مع أنه كان يخطر فى بال بعض التونسيين إذ ذاك التوجه فى عدد كبير إلى أمريكا للإستيطان بها، غير أن هذا الفكر لم يمكن تنفيذه لصعوبات حالت دونه فقصد المرحوم التوجه إلى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۶

القسطنطينيّة و عرج على جنيفا من بلاد سويسره حيث أبقى كاتب هذه الأحرف فى إحدى مدارسها المعتبرة، ثم قصد ويانه و بلاد المجر و الصرب و رومانيا حيث أقام ليلة فى بخارست و منها توجه إلى وارنه من أعمال البلغار و منها ركب الباخرة قاصدا دار الخلافة حيث لم تتصل السكة الحديد إذ ذاك بينها و بين أوروبا.

و قد قاسى فى هذه السفرة آلام البرد و اتعاب السفر الذى حق فيه القول بأنه قطعة من العذاب خصوصا و لم يكن صاحب الترجمة يتكلم بلغة أجنبيّة إلّا بعض كلمات فرنساويّة و ليس فى النمسا و لا فى البلاد الّتى عرج عليها كثيرا ممن يتكلم تلك اللغة و كان يسرع المسير للوصول قبل عائلته إلى الأستانة لتحضير محل لنزولها، و قد وصل إليها قبل العائلة بنحو يومين أو ثلاثة و بعد أن استراحوا قليلا فاجأهم ذوو الدسائس و الأغراض بوشايات أوغرت الصدور على صاحب الترجمة. و كادت أن توقعه فيما لا تحمد عقباه و كان مبنى تلك الوشايات على حصول الحركة العرابيّة بمصر أثناء وجود الشيخ بيرم فى أوروبا فبنى عليها أصحاب الأغراض أقوالا فاسدة و مزاعم بعيدة منشأها الحقيقى حزازات فى صدورهم من الحسد له و بغية الإيقاع بأرباب المناصب من أصدقائه و أحبائه فأرادوا الإنتقام منهم بالإساءة إلى صاحبهم و جعله محل تهمة يستخرجون منها ما يروج غرضهم فى النكاية باولئك الرجال فالتزم هذا المهاجر بدينه إلى دار الخلافة الإسلاميّة أن ينزوى فى بيته و يلازمه مدة تقرب من الستة أشهر لا يخرج منه إلا لقضاء الضرورى أو أداء فرض عين كصلاة الجمعة و قد رأى فى تلك الأثناء من تودّد الهمام الأبر الصالح الورع الشيخ محمّد ظافر أفندى المدنى و تلطف الفريق الغيور الحاج حسن باشا محافظ مركز بشكطاش محل سكنه و كلاهما من أقرب المقرّبين للذات الشاهانيّة المخلصين لها فى السر و العلانيّة ما أطلق لسانه بالشكر و قلبه بالدعاء الصالح لهما.

و الحق يقال أن الحضرة الخاقانيّة لم تفتر عن شمول صاحب الترجمة بعين رعايتها و كثيرا ما كان أمير المؤمنين نصر اللّه به الدين يظهر علائم رضائه و صفائه عليه حتى أنه لما أراد يهدى إلى أمبراطور المانيا فريدريک الثالث و كان إذ ذاک ولى العهد بعض جياد الخيل أمر أحد الأعوان أن يتوجه إلى الشيخ بيرم ليكتب رسالة عربيّة يصحبها المأمور السلطانى معه عند ذهابه إلى برلين ليقدمها مع الخيل إلى الأمير المشار إليه و كان ذلک بعد صلاة يوم الجمعة الثالث و العشرين من رجب سنة ۱۲۹۹ ه و كان يطلق عليه عند ذكره من ألفاظ العناية ما يستدل به على قرب منزلته من خليفة المسلمين و بمجرد وصول جلالته إلى قصره الفاخر ببلدز بعد صدور ذلک الأمر جاءه الرسول بالكتابة المطلوبة فسرّ بها كثيرا و اثنى على كاتبها. و تلک الرسالة هى:

«الحمد للّه بديع الخلق كما شاء و أراد. جاعل الصافنات الجياد. عدة مستمرة من أهم آلات الإستعداد. و صلاته و سلامه على رسوله متمم مكارم الأخلاق. الحاث على الفروسيّة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۷

و اقتناء الخيل العتاق. و على آله و أصحابه فرسان ميادين الوفاق». أما بعد: فلا يعزب عن نباهة نبيه. و دراية خبير فى المعارف وجيه. ما للخيل على الإطلاق من المزيّة. فى المنافع البشريّة. بسائر الآفاق. حتّى ورد فى الخبر الشهير: «الخيل معقود بنواصيها الخير» لا سيما نوع العراب منها. الجامعة لأشتات المحاسن فلا مندوحة لأهل الفضل عنها. ألم تر أنها قد حوت جمال الصورة و استقلت بالحذق و تهذيب الأخلاق المشكورة، فكادت أن تشارک النوع الإنسانى فى الإدراک. و فضلت سائر أنواع الحيوان بلطافة الذات و المزية فى مواطن العراک. ألا و هى وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً [العاديات: ۱] فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً [العاديات: ۳] متوسطة الجموع، مستشرفات الفروع. مبلغات الآمال، مقربات الشواسع لهمم الرجال. فلذلک توجهت إليها عناية أهل الفضل، و تسابقت إليها الرغبات فى الخصب و المحل، و لم تزل كريماتها محفوظة الأنساب، متوارثة الخصال الحميدة من الأجداد إلى الأعقاب. لا يأتلى أهل العناية عن اقتنائها، و معرفة أصلها و نسبتها و انتشائها. و يفوز عليها بالمزيّة ما صلح منها لاقتناء الملوک العظام، سيما ما اختص بأن يعتلى صهوته خليفة الإسلام. لا زال تاجا على هامة الأيام، و ما تختاره إليه العرب من صفوة جيادها الكرام.

و على الخصوص ما تميز بإهدائه. لخلاصة أهل ولائه. من الملوک الفخام. و كان منها هاته الخمس الجياد. العتيقات الأعراق الأمجاد. ثلاثة منها عراب الآباء و الأمهات، و اثنان من خلاصة الأعاجم الوطن و إن ناكبت العراب فى الصفات. و قد تحرر هذا التحرير فى التعريف بأصولها. و ما جمعت من سمات الكمال و فصولها، فأما الثلاثة العراب، السابقة القرين فى العراقة و الإنتساب.

فأولها: اشقرها المبارک، الذى لا يدانيه فى استجماع المحاسن مشارک، و اسمه المجلى، و قد طابق اسمه مسماه إذ هو لمفاخر الخيل مجلى. و هو من جياد نجد العربيّة.

الشهيرة الصفات و المزيّة، سقلاوى القبيلة، شامل لما يحمد فى أمثاله من الفضيلة، كل سلسلة أصوله من قبيلته المحمودة، و كلا أبويه متفرع من ذلک القبيل إلى جدود كثيرة معدودة، مسماة أجداده و جداته، خالصة من اشتباه النسب و كمالاته.

و أما ثانيها: و هو الأشهب، الجاعل أبعد القصبات الهين الأقرب. و اسمه السابق، فهو مناكب متقدمه فى جميع صفاته حتى غدى به لاحق، سوى أنه استعوض عن النجديّة، بأن كان من العراق العربيّة، و لا يخفى ما لعتاقها من شهرة المزيّة، سيما فى حفظ النسب

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۸

من الإختلاط. و انتساق عموده على أقوم صراط، لاجرم أن كان وحيد أقرانه. بنباهة شأنه.

و أما ثالثها: المسوّم. و هو الأحمر المستكمل المقوّم. و اسمه أبو ليلى، فقد جمع لما فى جياد الخيل يتلى. إذ هو من صنف كحيل العجوز، الذى هو لصفات العتاق من العراب يحوز. و على من جاراه فى ميادينها يفوز، فهو لا يجارى إذا ما ضمر. لأنه من خلاصة خيل قبيلة شمر.

فلعمرى أن هاته الثلاثة و إن اختلفت أنسابها، فقد اتحدت عراقتها و أحسابها، و كل منها قد استكمل صفات الجودة و الفضيلة، و

استتبت فيه محامد كل الخصال الجميلة. فلا بدع أن تبعها ما يكمل به عدد الخمس، مما تنبسط له الروح و تنشرح به النفس. و هما الفرسان الأخضران، اللذان استكملا صفة العتاق و لو أنهما أعجميان. و هما من جزيرة مدلى الشهيرة، ذات النقطة المهمة من البحر الأبيض الفائزة بالخيل ذات المناقب الخطيرة، و هما و إن افترقا هيكلا. فقد تفردا منظرا مجملا. إذ هما فرسا رهان، متحدا الأخلاق و السمات و الألوان. فاستكملت هاته الخيل مزايا التناسب، و كانت لها جهة ملائمة بما للمتهادين من التوادد المتقارب».

و قد كان السلطان أرسل له قبل ذلك أيضا كتاب الشفاء لابن سينا فى نسخة جميلة لتفحصه و تقديم كتابة بمضمونه، و بعد مدة من الزمن صفا فيها الجوّ للشيخ بيرم من رمى الأعادى و حسد الحساد زاد السلطان فى إكرامه باحتساب مصاريف إقامته فى الأستانة على خزينة الدولة باعتباره ضيفا من ضيوف الحضرة السلطانيّة و ذلك بأن تدفع نظارة الماليّة أجرة المنزل و لوازم البيت و قدرت فى الشهر بخمس و عشرين ليرة عثمانيّة و قد استمر صرف هذا المرتب مدة ثمانية عشر شهرا أى لحين خروج صاحب الترجمة من الأستانة.

و قد بادر المرحوم بكتابة المكتوب الآتى لأداء واجب الشكر على هذه العناية السلطانيّة و نصه:

المقام الذى أناخت به مطايا البيان و استقرت، و اعترفت البلاغة بأنه وحيد عصره و أقرت. و عضد اليراع اشهادها إذ كان بعد أن جست يدها استطاعته و تقرّت. فلا بدع أن ابصرت به عين الوزارة و قرت، و كان يمين الخلافة المؤتمن منها على ما تشا. ألا و هو صاحب الدولة على رضا باشا. باشكاتب الحضرة السلطانيّة، افاض اللّه عليه آلاءه القدسيّة، أما بعد، سلام تحمله أيدى التعظيم. و تحفه آداب الإجلال و التفخيم. فقد بلغ العبد ما حصل له من عناية مولانا صاحب الخلافة العظمى، و السلطنة الباذخة المجد الشمى. فوقع منى هذا الإنعام الموقع الذى ليس وراءه حد فى الإعجاب، و هزنى السرور حتى أعجزنى عن التلفظ بالخطاب. كيف لا و قد لاجت من ذاك الإنعام بفضل اللّه علائم اخلاصى فيما اقتحمته من مفارقة وطنى و كسبى و عشيرتى و خواصى كما كنت بسطته لدى جنابكم قبل أن تحدث على وطنى الطامة الكبرى. المرجو من اللّه أن يبدل بأمير المؤمنين عسرها يسرا. من أنى أعد عملى قربة للّه جلّ و على، إذ فى ذمتى و رقبتى بيعة لأمير المؤمنين لا تبلى. و لا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۹

يجوز لى شرعا أن أبتغى بعبد الحميد سلطانى بدلا. فقد ورد فى صحيح البخارى: «من خرج عن السلطان قيد شبر مات ميتة جاهليّة» فلم أبالى لذلك بالمضادات الوطنيّة و الخارجيّة. و استقررت فى ظل الخلافة الإسلاميّة. إلى أن غمرتنى الإنعامات الخاقانيّة، فكيف لا أطير لهذا الإنعام سرورا. و هو علامة بإرادة اللّه تعالى أن تنال النفس الرضى موفورا، فقلت يا نفس قرّى عينا، وردى من مناهل أمير المؤمنين عذبا معينا، فها أنت شاهدت قسطاس عدله، و أين أنت من جوده و فضله، و فوق ذلك ألطاف العناية. الّتى ليس وراءها للتطلب من غاية. فحسبى حسبى، و لنتوجه ضارعا إلى ربى. بشراشر لبى، و اخلاص قلبى، و نقول اللهم يا من تجلى بجلائل نعمائه، و يا من احتجب برداء كبريائه. يا من توجهت إلى جنابه الأقدس عزائم الآمال. و يا من تعلقت بعميم جوده أطماع السؤال، نستوهبك من الصلوات و التسليمات، ما يناسب من فضلته على جميع المخلوقات، و أنرت به أقطار الأرض و السموات، سيدنا و مولانا محمّد خاتم الرسالة. و منار الدلالة. و تنظم فيهما معه صحبه الكرام و آله. و نتضرّع إليك اللهم أن تكسو هاته الدولة العليّة العثمانيّة حلة النصر، خافقة ألوية عدلها إلى آخر الدهر، مؤيدة أعلامها. مكتوبا على صفحات الأيام إجلالها و اعظامها، بتأييد أسد غابها. و إمام محرابها، قرة أعين المسلمين. مولانا أمير المؤمنين. المحفوف بالتأييد الربانى، الخليفة الأعظم السلطان عبد الحميد الثانى، اللهمّ و كما جعلته منخرطا فى سلك المدح من رسولك عليه الصلاة و السلام لامراء القسطنطينيّة من آله الكرام حسبما هو فى الصحيح المأثور. فاجعله اللهمّ مظهرا لوعدك حيث قلت وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ [الحج: ۴۰، ۴۱].

و أطل اللهم فى طاعتك عمره، و اجعل السداد و الصلاح فيما دبره. منكسة أعداؤه على الأعقاب. مستبشرة أحباؤه بعمله المستطاب. و ألسنتهم بالدعاء إليه صادحة. خاتمين ضراعتهم بأسرار الفاتحة. و بعد أن انتظمت دعواتنا بمشيئة اللّه فى سلك الإجابة. و احرزت من

حضها موقع الإصابة. حان لعصابة الشكر و الحمد و الثناء أن تكون لسدّة أمير المؤمنين أيده اللّه مصروفة. و من البديهى أن وقوعها موقع القبول لدى جلالته على حسن تمهيد مثلك أيها الوزير بعد الإعتماد على اللّه تعالى موقوفة. فلتور لها زناد الحميّة. من تلك الغيرة الرضائيّة. لا زلتم صاعدين مدارج السعادة فى العناية السلطانيّة».

و فى تلك المدة تفرغ الشيخ لتأليف الجزء الثالث من «صفوة الإعتبار» و تحرير رسالة سماها «التحقيق فى مسألة الرقيق» بحث فيها عن كيفيّة معاملة الرق عند المسلمين بمقتضى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۰

الشريعة و بيان أسباب الرق و دواعيه و أحكامه و ذهب فيها إلى أن العبيد المباعين الآن هم أحرار و أن منع الحكومات الإسلاميّة لتجارة العبيد هو شرعى محض لا يحتاج الحال فيه لطلب الدول الأجنبيّة، و قد حرر قبل ذلك جوابا علميّا لبعض نبلاء الإنكليز عن سوءال وجهه إليه مضمونه: هل أن التونسيين مسرورون من دخولهم تحت دولة أجنبيّة؟ فأوضح السيد بيرم فى جوابه بأن التونسيين ليسوا أقل الأمم حبا فى الإستقلال و التنعم بلذائذه و الغيرة على الوطن، و أنهم مسلمون يتمنون بكل جوارحهم دوام صلتهم بالجامعة الكبرى الإسلاميّة و استدل على ذلك بأدلة عقليّة و نقليّة طويلة مقنعة، و قد كانت من عادة صاحب الترجمة منذ كان فى تونس أن يحتفل كل سنة بالمولد النبوى الشريف احتفالا شائقا واظب عليه لحين وفاته، حتى أنه كان آخر أعماله فى هذه الدنيا رحمه اللّه. و فى كل سنة يكتب رسالة مخصوصة فى موضوع من المواضيع العلميّة يتخلص فيها لذكر المولد الشريف و قد ألّف فى الأستانة رسالتين لذلك الغرض إحداهما: فيما يجب لآل البيت النبوى الكريم من التبجيل و التعظيم، مبينا حقوقهم على المسلمين بشرط ثبوت النسب العلى حتّى لا يدخل فى هذه السلسلة السامية دخيل تترتب له تلك الحقوق الواجبة. و ثانى الرسالتين: فيما يجب للنبى صلى اللّه عليه و سلم على سائر المسلمين.

و ألف رسالة أخرى فى سكنى دار الحرب و ذلك عندما رأى ما طرأ على بلاد الإسلام من التقهقر المستمر نسأل اللّه اللطف و السلامة، و قد ذهب فى هذه الرسالة بعد شرح ما عليه البلاد الإسلاميّة الآن الشرح الكافى و ايراد الأدلة و النصوص الشرعيّة إلى أن الإنسان حر فيما يختاره حسب مصلحته و اجتهاده. و قد سأله بعض الأفاضل عن رأيه فى مسألة الإجتهاد و التقليد مستندا على الرسالتين المطبوعتين فى الاستانة المنسوبتين لملك بهوبال صديق حسن خان فشرع فى الجواب غير أنه لم يتمه، و يظهر من فحوى كلامه و أعماله الخصوصيّة أنه يرى تقليد أحد الأئمة الأربعة واجبا على حسب المشهور فى مذهب أهل السنة.

و لما تولى أمير تونس الحالى منصب الأمارة هنأه الشيخ بيرم بمكتوب مصدر بهذين البيتين:

ألا بعلى ملك تونس سدّدافلا زال فخرا للبلاد موءيدا

و نجح دعائى بأن إذ قلت أرّخن ألا بعلى ملك تونس سدّدا

و قد توجهت فى ذلك الوقت آمال أحباء قائل هذين البيتين لرجوعه إلى تونس إذ أن نفوره الذاتى كان من الوزير مصطفى بن إسماعيل الذى أفل نجمه بوفاة سيده الصادق باى و لم يبق من مانع له من العود إلى بلاده و مسقط رأسه و مدفن أجداده خصوصا و «رستان» نائب فرنسا استبدل بغيره، وصفا الوقت و زال المقت. فكاتبه بعض المتشيعين للسفارة الفرنسويّة بتونس بمناسبة الفرصة لا سيما و قد كان وعد الأمير عند توديعه و هو إذ ذاك ولى العهد بالعود إلى الوطن عند ولايته عليه، فاعتذر صاحب الترجمة عن كل ذلك بأن السيرة العموميّة هناك لم تبق على الحالة المألوفة ثم أن صحته لم تزل فى تقهقر فى الأستانة لتأثره

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۱

من الإنفعالات النفسانيّة المتسببة عن دسائس ذوى الأغراض السابق شرحها الّتى لا يكاد يخلو منها من كان له شأن بين الناس أو فضل يميزه بين أقرانه، و المعالجة و العيال يلزمها الكثير من المال فباع صاحب الترجمة جميع أملاكه بتونس و صار يصرف من ثمنها فى حاجياته و عوائده الّتى لم يغير منها شيئا بحيث رأى نفسه فى تأخر مالى مستمر لا يأمن معه من الوقوع فى مخالب الفقر، و هو لم

يحسن من العمل إلّا مباشرة عقاراته و التفرغ للأشغال العلميّة. و كان بعض كبار أصدقائه ينفره من سائر الوظائف العادية لاعداده إلى وظيفة مخصوصة تليق بعلومه و ما زال منتظرا حتى ضاق لذلك ذرعا و زاد عليه اشتداد المرض العصبى إذ وجد عاملا لتحريكه قويّا و هو الانفعال النفسانى المستمر فنظر فى أمره فلم يجد من البلاد الإسلاميّة الّتى يمكنه الإقامة فيها براحة بال إلّا القطر المصرى و هو مع حرارته الّتى يأباها مزاج صاحب الترجمة إلّا إنه أوفق من غيره من البلاد الأخرى، أما الولايات العثمانيّة فقد أشار عليه بعض المطلعين على الأحوال على أن طلبه التوجه إليها لا يحوز محل القبول خصوصا و هو لم يكن له ميل إلّا للتوجه إلى المدينة المنوّرة للمجاورة أو إلى الشام و يمنعه عن الإقامة فى الحجاز احتياجه المستمر للحكماء و العلاجات و هما شيئان مفقودان تقريبا من تلك الجهات المباركة، فاستخار اللّه فى القدوم إلى مصر و ساعدته المقادير بالحصول على مكاتيب توصية لبعض ذوى النفوذ فى هذه البلاد فأراد طلب الرخصة للقدوم إليها و لكنه استشعر أن طلب الإذن للتوجه إليها ربما لا يحوز قبولا خصوصا و أنه تعذر عليه وجود من يبلغ الحضرة السلطانيّة تفصيل أمره و شكوى حاله على الوجه الحقيقى، و إلّا فإن احترام الخليفة لمثله من علماء المسلمين كان يدفع شكواه و يرفع عنه ألم معيشته و لكن دون الملوك من عقبات الأشغال ما يمنعهم عن الوقوف أحيانا على مثل هذه الأحوال فإذا فقد الناصح الأمين الذى يتيقظ لملافاة هذه الأمور بحسن تبليغها إلى مقام الخلافة حصل الإهمال الذى وقع فيه صاحب الترجمة و أمثاله، فالتزم التمحل بطلب العودة إلى الوطن و قارن هذا الطلب الإجابة إذ كاتبه على رضا باشا باشكاتب المابين الهمايونى بهذه البطاقة العربيّة و هذا نصها بالحرف الواحد بخط يده:

«العالم الفاضل و الأديب الكامل محمّد أفندى بيرم سلمه اللّه.

بعد التحيّة الوافية نبدى لكم أننا عرضنا مادة العزيمة إلى بلدتكم فصدرت الإرادة السنيّة السلطانيّة على عزيمتكم إلى ذلك الطرف إن شاء اللّه تكون مصحوبا بالسلامة و نروم منكم أن لا تنسونا من دعائكم الصالح فى السفر و الإقامة و دمتم فى ۲۱ ذى الحجة سنة ۱۳۰۱ ه.»

(على رضا)

و ممّا يذكر هنا مقرونا بمزيد الأسف أن القسطنطينيّة العظمى تشتمل على نحو المليون نفس من السكان من أجناس مختلفة أقلهم أبناء العرب أو المنتسبون إليهم و مع ذلك لا ترى أشد منهم تهافتا على الإيقاع فيما بينهم فبينما ترى الروم و الأرمن و اليهود يعاضدون بعضهم

بعضا و يسعون لبنى جنسهم فى الخير بحيث يصدق عليهم أنهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ترى أولاد العرب المسلمين ينتحلون و يتلهفون على اختلاق الأسباب و إيجادها لإبعاد بنى جنسهم عن دار الخلافة و تنفير قلوبهم منها و للّه فى خلقه آيات. فقد راجت فيهم سوق التحاسد و التباغض و التنافر و التشاحن حتّى لا يكاد يخلو حديث من أحاديثهم أو حركة من حركاتهم إلّا فى إيذاء بعضهم و إيقاع السوء بأنفسهم و التخاذل فيما بينهم لا فرق فى ذلك بين الكبير و الصغير و العظيم و الحقير بل الداء واحد فى الكل إلّا من وفق اللّه و لا شك أن هذا من سوء حظ الإسلام الذى كان ينبغى أن يصرفوا له أوقاتهم فى خدمته بما فى يدهم من القدرة على نفعه نسأل اللّه أن يرفع من بينهم آفة الدسائس الّتى يشوشون بها على أنفسهم و على بلادهم و يسقطون بها سائر الأمة العربيّة فى أعين الأمة التركيّة.

و قد غادر الشيخ مركز الخلافة و العين مغرورقة بالدمع و الحشاء ممتلىء بالأسى و الصدر مفعم بالأسف ليس ذلك لمنصب فارقه أو لرفاهة عيش زايلها أو لطمع فى شىء من نعيم الدنيا الزايل و عيشها الفانى و إنما كان يتحرق فوءاده لما كان يرى عليه الأمة الإسلاميّة من الإنحلال و الأخذ فى أسباب الضعف و كيف أن بلاده وقعت أولا فى يد الأجنبى و خرج لأجل ذلك مشتتا بعائلته فى البلاد ليسكن بها بلدة إسلاميّة فلم ير أمامه مكانا هو أولى أن يقصد لهذا الغرض و أليق بعالم مسلم مثله من أولاد نقباء الأشراف أن يقيم

بعائلته فيه سوى دار الخلافة، و علل النفس بأن ما يراه هناك من صولة الإسلام و تشييد الدين و استقامة أمور المسلمين و اجتهاد أمير المؤمنين و من حوله من خاصته و حاشيته و رجاله لإنقاذ الإسلام و أهله مما سيسلى مصابه بفقد بلاده و منّى النفس بأنه لا ييأس على ضعفه و عجزه من القيام بخدمة تفيد الإسلام أو نصيحة تشيد الدين أو اشتراك فى عمل يجمع به كلمة المسلمين أو ما يماثل ذلك ممّا يجب على كل فرد من المسلمين القيام به و خصوصا من كان من طائفة العلماء فرأى لسوء الحظ من تلك الدسائس و دنايا السعايات و مسابقة الوشاة أضرارا بكل من كان مثله على رأيه حتى يخلو الجوّ لأولئك المسابقين ما اضطره إلى مبارحة دار الإسلام للتشتت مرة أخرى فى البلاد بعائلته بعد أن يئس من العمل فى حقه بمقتضى الآية الشريفة قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى [الشورى:

۲۳] و المرحوم يمت بحبل النسب إلى البيت الطاهر النبوى من جهة و يتصل من الجهة الأخرى إلى مجاهد فى سبيل خدمة الدولة العليّة أراق دمه فى افتتاح البلاد التونسيّة، و لم تزل أعقابه تتوارث الولاء و الإخلاص و الصداقة المتينة للدولة العليّة فى كل زمان و مكان حتّى أنه لما أهدى السلطان عبد المجيد كركا من السمور الفاخر من ملبوساته الذاتيّة إلى أمير تونس أحمد باشا لم ير الأمير المشار إليه أليق بلبسه من الشيخ بيرم الرابع فأعطاه أياه و لم يزل محفوظا يتبرك به فى بيت بيرم بتونس و صار لبس الكرك مزيّة لهم لم يقلدهم فيها سواهم، و قد اكتفى الشيخ الرابع بذلك عن قبول نشان الافتخار التونسى لما عرضه الأمير عليه و اتبعه فى ذلك صاحب الترجمة أيضا سنة ۱۲۹۵ ه إذ صارت العادة فى تونس أن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۳

العلماء لا يتقلدون النياشين و فى حرب الدولة مع الروسية سنة ۱۲۴۴ ه تقاعست الولاية التونسيّة عن نصرة الدولة مادّيا و ادبيّا فلم يجد شيخ الإسلام بالآستانة من يستعين به لحث المسلمين فى تونس على مساعدة الدولة إلّا جد صاحب الترجمة بيرم الثانى لما هو مشهور عن هذه العائلة منذ القدم أنها متعلقة بخدمة الدولة لا تفتر عن ذلك أبدا فأجابه بالمكتوب الأتى نصه:

«ربنا أفرغ علينا صبرا و ثبت أقدامنا و انصرنا على القوم الكافرين. إن أحسن ما تشرفت به الأمة المحمديّة، و تجملت به العصابة الأحمديّة. اتباع أوامر اللّه تعالى و نواهيه.

و بذل الجهد فى إعلاء هذا الدين و تشييد مبانيه، اقتداء بصدرها الأول، و عملا بسنة نبيه المرسل. و لعمرى أن هذا فى العبارة و إن كان سهلا بينا. ففى إبرازه للوجود ليس هينا، لتوقفه على إمدادات إلهية. و هداية ربانيّة. وداع إلى هذا بلسانه، و رمحه و سنانه، و قد تطابقت حملة الأنباء فى سائر البلاد. من جميع العباد، أن القائم بهذا الشأن، و الحائز قصب السبق فى هذا الميدان، و مجدد الدين بعد الأندراس. و مظهر أعلامه أثر الإنطماس.

الدولة العثمانيّة أعلى اللّه منارها، و ضاعف اقتدارها. و أنام الأنام فى ظلها، و أعاد عليهم من فيض فضلها، فلم تخل و الحمد للّه من إمام يهدى إلى الحق و إلى طريق مستقيم، و لم يأل جهدا فى رمى أعدائه بالعذاب الأليم، مؤيد من اللّه بعلماء، عاملين هم ورثة الأنبياء ناهجين فى نصح العباد مناهج الأصفياء، و قد ورد علينا من حضرة مولانا شيخ الإسلام، و إمام العلماء الأعلام، و مرجع الحكام فى الأحكام، و من بيده مقاليد النقض و الإبرام، لا زالت أقلامه فى بحار العلوم سابحة، و مواعظه للقلوب جارحة، و تجارته عند اللّه تعالى رابحة، كتاب كريم، هاد بأوامره و نواهيه إلى الصراط المستقيم، لا يقابله كل مؤمن إلّا بالقبول و التسليم، و كيف لا و قد جاء بالذكرى الّتى تنفع المؤمنين. المأمور بها فى الكتاب المبين، حاثا على الجهاد، و التشمير عن ساق الإجتهاد، و تعاطى أسبابه، و طرح الأمور الصارفة عن بابه. فاجتمع لقراءته الأعيان من العلماء و غيرهم بحضرة الأمير جمعا، و فتحوا له قلبا و سمعا، و تلقوه بالإذعان و القبول، و المبادرة لامتثاله بالفعل و القول، و أميرنا مثابر على تنفيذ أوامر الدولة العلية، الّتى طاعتها من طاعة رب البريّة، و ما هو إلّا أن يؤمر فيطيع.

و يكلف فيأتى بما يستطيع، و اللّه تعالى يؤيد سلطاننا بمدد نصره، و يجعل أعداء الدين تحت قهره، و يعلى رايته الشامخة فى البر و

البحر، و يكتب على صفحاتها سورة الفتح و النصر، و السلام اللائق بجلالكم، من العبد الفقير محمّد بيرم».

و فى الحرب الأخيرة تأخرت الحكومة التونسيّة عن مساعدة الدولة أيضا لخوفها من معارضة فرنسا، فقام الشيخ بمقتضى ما ورثه عن ذويه من محبة الدولة العليّة يحرض الوزير و ينصح الأمير و يحض المسلمين جميعا على إعانة الدولة، و لم يكتف بذلك فقط، بل سعى سعيه حتّى توصل لاستخراج فتاوى شرعيّة بوجوب القيام بواجب المساعدة للدولة، حتّى لا يبقى هناك عذر لمعتذر فى ذلك التقاعس و هذا صورة السؤال الذى طلب عليه الفتوى:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۴

«علماء الإسلام، بعد اهداء السلام، و التحيّة و الاكرام، ما قولكم. رضى اللّه عنكم.

فى نازلة صورتها أن إمام المسلمين قد أخبر أهل قطر من المسلمين ممن هم تحت طاعته، و داخلون تحت بيعته يخطب أئمتهم باسمه على منابرهم بأن العدوّ قد فاجأ بلاد المسلمين معلنا بالحرب و وقعت منه المباشرة بالفعل فى حدود المملكة، و كان الإمام استشعر من العدوّ ما آل أمره إليه من مباشرته بالحرب فهيأ من العساكر بحدود المملكة للمدافعة عن بيضة الإسلام نحو الستمائة ألف، و حين اطلاعه على جيوش العدوّ و علم ما أمكن من أخبارهم رأى الإمام أن الستمائة ألف تحتاج إلى ضم آخرين إليهم من العدد الكثير الذى تحصل به مقاومة العدد و يمكن له به مدافعة العدوّ، فاستنفر كل من استطاع من أهالى ذلك القطر إلى الانضمام إلى حوزة العساكر ثم الذى وقع فى الخارج بعد استنفار الإمام هو أن العدوّ قد استولى على بلدان و قرى من مملكة ذلك الإمام و أهاليها مسلمون جارية فى تلك البلدان و القرى شعائر الإسلام، كما استولى على قسم من مملكة ذلك الإمام سكانه نصارى يؤدون الخراج و يذعنون بالطاعة للإمام و هذا القسم له بال من المملكة يبلغ عدد سكانه نحو الخمس ملايين و قد جعله العدوّ مركزا لذخائره و عدده و عدده بما فيه من الحصون، و مع ذلك لم يقدر العدد الوافر المهيأ من عساكر المسلمين على إخراج العدو لما تسلط عليه، نعم حصلت للعدو مضرات أخرى من غزو سفنه و ثورة قسم ممن كان تحت سلطانه من المسلمين بإعانة الإمام لهم فهل يجب و الحالة ما ذكر على أحاد ذلك القطر المستنفر أهله ممن قدر على الزاد و الكراع و السلاح أن ينفر للإمام و يلبى دعوته سواء كان ذلك القطر مواليا لموضع الهجوم أو بعيدا عنه؟ و على تقدير أن يكون الموضع الموالى أهله تكاسلوا أو عرض لهم مانع يتعلق الوجوب حينئذ بمن يلى من يليهم و هكذا أم لا يجب؟ و إذا قلنا بوجوب ذلك على الأفراد و الأشخاص بذلك الشرط فلو كان هناك من له منفعة عامة كمثل عالم لا أعلم منه فى البلد بفصل القضاء، فهل ذلك مسقط للوجوب عنه أم لا؟ جوابكم الشافى».

و ما فتيء رحمه اللّه يخلص الخدمة للبيت العثمانى عند كل فرصة و بكل وسيلة، حتّى أنه رأى رأيا ينتج عنه نفع المسلمين و ارتقاء شأنهم جميعا من جهة توثيق عرى الجامعة الاسلاميّة و ائتلاف ممالك المسلمين و تنظيم أحوالها على ما يضمن قوة المركز و ثبات الوجود، و من جهة اعتلاء شأن البيت العثمانى بتشييد أمر الخلافة فيه على جميع المسلمين و ممالكهم و ذلك الرأى هو: «أن تتحد الممالك المستقلة الاسلاميّة و الولايات العثمانيّة المستقلة استقلالا داخليا ثم يصير الجميع عصبة واحدة و مملكة واحدة تحت رئاسة الخليفة السلطان العثمانى».

و من ضمن الأمور الّتى أوصى بها فى روابط هذه الجامعة أن يجتمع أمراء الممالك الاسلاميّة فى بعض السنين بالكعبة المطهرة لتكون شاهدا على قوة ارتباطهم، و فى ذلك من اعلاء شأن الممالك الإسلامية ما لا يخفى على كل من أمعن النظر فى نظام الممالك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۵

الألمانيّة الّتى كانت ضعيفة ضئيلة بتفرقها ممالك صغيرة يسهل على الطامع ابتلاعها كما حصل مرارا، فلما اتحدت جميع المقاطعات الألمانيّة على النمط الذى نراه الآن بمملكة بروسيا أصبحت أعظم الممالك شأنا و أشدها قوة، و صارت مملكة بروسيا الّتى كانت تحت رحمة الطامع لضعفها و انفرادها أقوى الممالك باتحادها مع بقيّة الممالك الألمانيّة، و قد كتب المرحوم فى هذا الباب كلاما

طويلا مستشهدا فيه بالشواهد الدينيّة و التاريخيّة، كقول أحد مشايخ اسلام الاستانة الأقدمين عند تحسينه هذا المشروع لمن كان يعارضه: «إن الأليق بمجد السلطان و فخر الدولة أن يكون السلطان سلطان السلاطين لا سلطان الولاة».

و ربما أدخلناه فى ضمن ما سننشره من بعض كتاباته الّتى تركها عند الفرصة.

و قد خرج الشيخ على تلك الحال يقلب طرفه فى البلاد لعله يجد بلدة اسلاميّة يشد إليها رحله فلم يجد من بلاد المسلمين بلدة يطمئن فيها الساكن على نفسه و عرضه و لا يكون عرضة لمثل تلك الدسائس إلّا البلاد المصريّة، و إن كان دمعه ليجرى أسفا على تلك البلاد أيضا الّتى أصابها ما أصاب غيرها من سيطرة الأجنبى عليها، و لكن رب ضار نافع و بعض الشر أهون من بعض؛ و قد أنكر عليه المتشدقون عمله هذا و قدومه على مصر فى حالة وجود الانكليز و تضارب الأحوال فيها غير أنه كان يجيب على ذلك: «بأن لا حق لأحد فى الاعتراض علىّ إذ أن الدولة رضيت لى الاقامة فى تونس تحت حماية فرنسا حسب منطوق الارادة السنيّة المسطرة أعلاه، و تونس انسلخت بالمرة عن الممالك العثمانيّة و لا أثر لسلطة الدولة أو المسلمين فيها، أما مصر فإنه مع وجود الانكليز فيها فإنها لم تزل ولاية من ولايات الدولة و سيطرة الحكومة المحليّة فيها قائمة، و على فرض المساواة فى المعاملة لا قدّر اللّه فلا فرق بين الانكليز و الفرنسيس».

و قد انتقل المرحوم بعائلته إلى مصر معرجا فى طريقه على بلاد اليونان و ذلك فى المحرم سنة ۱۳۰۲ ه (نوقمبر سنة ۱۸۸۴) أى بعد الاحتلال الانكليزى بسنتين و شهرين، و لما استوطن بالقاهرة هنأه حضرة المصقع البليغ الشيخ حمزة أفندى فتح اللّه بهذين البيتين البديعين:

لئن أشرقت فى الشرق مصر ببيرمو أضحت به تلك الكنانة تونس

فكم شاد مع آبائه من مكارمأضاءت بها فى الغرب من قبل تونس

و بعد أن استراح أيّاما قابل الجناب الخديوى التوفيقى المرحوم فأظهر له مزيد العناية و أنزله منزلة الثقة الأمين فحكى له سموّه جميع ما جرى فى الثورة العسكريّة و تفاصيلها و كل ما يتعلق بما قاساه فيها و ختم كلامه بقوله: «إننى ذكرت لكم كل هذا لتتأكدوا من صداقتى لكم». ثم أظهر له من علائم الاكرام ما جعله دائم الشكر له، و من ذلك أنه أمر بأن تكون مصاريف الشيخ على نفقة الحكومة كما كان فى ضيافة مولانا السلطان، و فى ۲۵ ربيع الأول من تلك السنة أصدر جريدة «الاعلام» و هى جريدة علميّة سياسيّة يوميّة غير أن صحة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۶

صاحب الترجمة و قلة اختباره بالقطر المصرى لم تساعداه على توالى إصدارها يوميّة فجعلها تظهر ثلاث مرات فى الاسبوع ثم صارت أسبوعيّة، و استمرّت كذلك مدة طويلة بحيث أن أول عدد منها صدر فى التاريخ المذكور و آخر عدد و هو ۲۶۹ صدر فى غرة جمادى الأولى سنة ۱۳۰۶ ه ثم احتجبت الجريدة المذكورة عن الظهور بتولى صاحبها خطة القضاء فى محكمة مصر الابتدائيّة الأهليّة، و كان فى نيته عند تأسيسها مع فتح مطبعة مخصوصة به أن يشغل نفسه بتحريرها و بطبع الكتب المفيدة طلبا لنفع العموم بما اكتسبه من الاختبار بالتجول فى البلدان و بما يعلمه من العلوم الشرعيّة الاسلاميّة و تطبيقها على الأحوال السياسيّة الّتى ينتج عنها تحرير البلاد و انتظام أمورها، كما كانت تتولع به نفسه منذ القديم حتى قال خير الدين باشا عن هذه الجريدة: إنها لا تلبث أن تكون «تيمس العرب».

و دفعه إلى ذلك أيضا ما كانت عليه سجيته من حب الاشتغال بالعلوم و فن التحرير و الانشاء و ما يتسع هذا الغرض إلّا فى مثل الاشتغال بطبع الكتب و انشاء الصحف، و لكن قد خاب جميع أمله إذ أن الجريدة لم تطل أيامها حتى رماها بعض الناس بأنها تحث على الانتماء للأجنبى و هو أمر لم تقله أبدا و غاية ما هنالك أنها كانت تحث على الاستفادة من الانكليز ما داموا موجودين فى البلاد إذ أن معاكستهم و أمر البلاد و الأمة جميعا فى يدهم لا تحمد عقباها كما بينته التجربة بعد و الذى ألجأه لانتهاج هذا المسلك ما قاساه من ظلم الاستبداد و ما رآه من وجود عوامل محركة فى مصر باغراء بعض الأجانب لتوغير صدور الناس على حكامهم إذ ذاك،

و خشى من دوام الحال على ذلك المنوال أن يأتى بالضرر المادى و المعنوى على الطائفة الاسلاميّة.

و الحاصل أن كثيرا من الناس لم يقدروا عمله حق قدره، هذا زيادة عن أن حال الجرائد فى الشرق ليس هو على ما يشاهد فى البلاد المرتقيّة فى التمدن و الحضارة بحيث أن الجرائد هنا لا تنجح إلّا إذا كان لها معضد قوىّ و لم يتعوّد الشرق لغاية الآن أن ينمى شيئا ما لم تكن يد الحكام فيه، و الشيخ بيرم كان قليل المعرفة بالناس و أخلاقهم فى مصر فلم يجن من جريدته ثمرة تذكر ثم أن الكتب الّتى طبعها تحمل بخسارة مصاريفها و لم يكسب منها شيئا و زد على ذلك أنه تربى فى ترف و عزة نفس و همة عالية، و من تكن هذه أخلاقه قلما ينجح فى عمل تجارى ثم أن الحرّ أضر بصحته و زاد فى تقهقرها فزاد فى استعمال المرفين زيادة مفرطة حتى صار يستعمل نحو الغرام و كسور فى اليوم و هو مقدار كاف لقتل عدة من الأنفس الغير المتعودة عليه فالتزم بعد سنتين و نصف من الاقامة بمصر أن يسافر إلى أوروبا و كان ذلك قريب احتفال ملكة انكلترا بمضى الخمسين سنة على توليها الملك.

فتوجه أولا- إلى مدينة فلورنسا من أعمال ايطاليا لملاقاة صديقه المرحوم الجنرال حسين باشا التونسى حيث طلبه لتسوية شؤونه لما أعياه المرض فأوقف جملة من أملاكه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۷

على بعض أخصائه و خصصها بعدهم لجيوش المسلمين، و من هناك قصد المرحوم مدينة باريس لاستشارة حكمائها فى أمر صحته ثم سافر إلى لندرة عاصمة الانكليز و هناك قابل جملة من نبلائها و كبار أعيانها كاللورد «سالسبورى» و اللورد «نورثبروك» و قد تكلم مع من قدّر اللّه.

و الإهمال أن يكون بيدهم زمام الأحوال المصريّة بما رآه نافعا لبنى جلدته و جنسه و حاميا لذمارهم و مشيدا فى المستقبل لفخارهم و كان إذ ذاك النفور متمكنا بين نائب الانكليز فى مصر و بين رئيس مجلس النظار فيها فكان القوم فى حيرة من هذا الأمر خصوصا و المرشحون لمنصب الوزارة فى مصر قليلون جدّا و الفكر القائم فى أذهان بعضهم حينئذ أن رياض باشا مكروه فى البلاد مستدلين على ذلك بظهور الثورة فيها مدة وزارته الأولى فبذل المرحوم جهده لصرف هذا الفكر و سعى بقدر استطاعته لما فيه اعلاء شأن المسلمين.

و بعد أن حضر الاحتفال رجع إلى باريس لاتمام المعالجة ثم عاد إلى مصر بعد أن تغيب عنها نحو الخمسة أشهر معرجا فى طريقه على برلين و ويانه، و فى الاثناء المذكورة سعى الساعون كثيرا لارجاعه إلى الاستانة و كاتبه بعض أصدقائه فى ذلك حسب ما صدرت به الأوامر السلطانيّة فأظهر المرحوم كمال استعداده للرجوع إليها قائلا: «إن بيعة أمير المؤمنين لم تزل فى عنقى». و أوقف رجوعه على تسوية أحواله الماليّة ثم يقدم إلى القسطنطينيّة و مع ذلك فلم تكن الأعداء تكف عنه الأذى فى غيابه أيضا حتى أنه لما طبع صاحب الترجمة إحدى رسائله المذكورة آنفا المختصة بحقوق الاشراف، دس أرباب الدسائس له فى دار الخلافة ما أوجب المخابرة مع الحكومة المصريّة بشأن موضوع تلك الرسالة إذ قيل إنه تعرض فيها لمسألة الخلافة و هو أمر لم يخطر له على بال و من العبث أن يفتكر فيه عاقل، و حاشا لمثل الشيخ بيرم و قد وصل لما وصل إليه من التعب المادى و المعنوى غيرة منه على بنى جنسه و ملته أن يتصور حدوث زيادة الشقاق بينهم و زرع بذور الخلاف بمسألة استقرّ القرار عليها منذ قرون، و أجمع المسلمون قاطبة فى مشارق الأرض و مغاربها عند عربها و تركها و زنجها بالاقرار فيها لبنى عثمان منذ عهد السلطان سليم الأول، ثم تعقبوه أيضا فيما يكتب فى جريدة الاعلام إلى أن يسر اللّه بقدوم الغازى مختار باشا إلى مصر و ظهر له بالعيان فساد تلك الوشايات.

و فى أثناء سفره كاتبه العلامة المرحوم الشيخ عبد الهادى نجا الأبيارى من كبار علماء الجامع الأزهر و مفتى المعيّة السنيّة بهذا المكتوب:

بسم اللّه و السلام عليكم و رحمة اللّه

ورد الكتاب على المحب المغرمفشفاه من وجد الغرام المؤلم

قد شمت منه مذ شممت أريجهبشرا بصحة ذى السيادة بيرم

حیّا فأحیا مهجة کانت بماقاساه تمسی فی أشد تألم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۸ و أبیک ما ذاقت شرابا سائغامن بعد فرقته و راحة نائم

إلّا بأن سرّت سرائرنا بمأبداه من سریان برء محکم

لجناب مولانا الهمام فإنهو بهجة الدنیا و نور العالم

جمع الاله له الفضائل مثلماجمع الزهور الروض تحت المرزم

ما بین أخلاق کأزهار الربیو محاسن تزهو بکل مخیم

بجمالة و جلالة و فخامةو سماحة موروثة عن حاتم

و سیادة و سعادة أبدیّةو جمیل تدبیر برأی محکم

فاللّه یکمل صحة لجنابهما غردت قمریّة بترنم

استفتح ألوکتی هذه بلطائف تحیّات تتمسک. بها نسائم الأسحار فتتمسک. و استفتح کمائم رقائق تضرعاتی بقلب سلیم إلی ربه تنسک. مبتهلا إلیه تعالی أن ینعم البال و یشرح الصدر بکمال صحة مزاج حضرة نضرة وجه الأیام، و غرة طلعة الزمان و قرة أعین الأنام، شمامة الدنیا الّتی بها تتأرج، و شمس قلادة العلیاء الّتی بها تتبرج. علامة العصر، الذی أنست محاسنه محاسن أبناء سلافة العصر. فما هو إلّا روح الأرواح، و لوح الفضائل الّتی تتبلج فی المساء و الصباح. و أن شفاء جسمه لشفاء لکل علیل، و روا ظمأ کل غلیل. فمهما صح مزاجه الشریف صح مزاج الأیام. و مهما لبس حلل العافیة فعلی الدنیا السلام، هذا و رجائی أن تنعشوا روحی بنوالی أخبار صحتکم کلما وفد وافد، و تنعموا نفسی بورود أخبار صحتکم کلما ورد لهذا الطرف وارد، ثم سعادة الهمام فکری باشا یتحف حضرتکم بلطائف التحیّات، أحسن اللّه لنا و له و لحضرتکم النهایات فی ۱۳ الحجة سنة ۱۳۰۴ ه.

عبد الهادی نجا الأبیاری

و علی ذکر هذا المکتوب و الشیء بالشیء یذکر ننشر هنا بعضا من محررات وردت علی صاحب الترجمة عن لسان المغفور له توفیق باشا دلالة علی منزلته لدیه و انموذجا علی معاملته له، فمنها: تلغراف جاءه جوابا علی التهنئة الّتی قدّمها یوم تذکار الجلوس الخدیوی فی ۲۶ یونیه سنة ۱۸۸۸.

حضرة الأستاذ الفاضل السید محمّد بیرم بمصر:

تلغراف حضرتکم الوارد بتهنئة الحضرة الخدیویّة علی الیوم السعید بعرضه قد صارت الممنونیّة لجنابه العالی من ذلک و لزم تبلیغ الأمر للمعلومیّة.

سر تشریفاتی خدیوی برأس التین

و منها مکتوب ورد له من محمّد زکی باشا تشریفاتی أول خدیوی إذ ذاک و هو:

حضرة والدنا العزیز المحترم دام بالخیر و النعم:

تشرفنا بورود تذکرة حضرتکم و متشکرین غایة التشکر و بوقته قدمنا الأمانة للأعتاب

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۹

الکریمة فحصلت الممنونیّة التامة و أمرنا بتبلیغ ذلک لسیادتکم أفندم فی ۶ شعبان سنة ۱۳۰۶ ه.

الداعی محمّد زکی

و لما کنا بصدد ذکر هذه المحررات فلنجعل خاتمتها مکتوبا ورد علی المرحوم من صدیقه الحمیم. الملاذ العظیم. ذی القلب السلیم. الأستاذ الأبر مولانا الشیخ محمّد ظافر دامت برکاته إذ الغایة بیان ما کانت علیه صلات صاحب الترجمة بمعاصریه و معارفه و مخاطباته مع محبیه و نص المکتوب:

الحمد للّه إلى حضرة الهمام الفاضل. و العمدة الكامل. جامع شتات الفضائل. و ناظم فرائد محاسن الشمائل. و منبع المعارف. و مجمع اللطائف. و قطب فلك السياسة و مركز دائرة أرباب الرئاسة. جناب الأعز الأكرم. مولانا الشيخ سيدى محمّد بيرم. أدام اللّه عزه و اقباله. و أناله مناه و آماله. آمين.

بعد اهداء تحيّات أطيب نفحا من روض الأزهار. و ألطف من نسيم الأسحار. فقد وصل كتابكم الكريم. المشتمل على الدر النظيم. الحرى بالتبجيل و التعظيم. و قرت به أعيننا سرورا. و امتلأت به قلوبنا بهجة و حبورا. و ما أعلنتموه من الفرح و الجذل. بحصول نشاط محبكم من عارض المرض الذى حصل. فهو من علامات تمام الوداد. و خلوص محبتكم الأصيلة و كمال الاعتقاد. و لكم عندنا من ذلك الحظ الأوفر. و القسط الأكبر. و ما عطفتم به على ذلك من الذكر الجميل. و الثناء و التبجيل. على المحب فهو من انطباع كمالاتكم الظاهرة. الّتى تجلت فى مرآت ذاتى و أصبحت فى عالم الشهادة لكم ظاهرة. كما هو مصداق قوله صلى اللّه عليه و سلم: «المؤمن مرآة أخيه» كما يشهد بذلك ذوق كل صديق و موقن و على كل فنحن معترفون بالقصور. و نسأل اللّه سبحانه و تعالى التوفيق فى جميع الأمور. و أن يجعلنا ببركة دعاكم مظهرا للخيرات. و واسطة لتوالى المبرات. و أن يجعل العاقبة للمتقين.

و ينجز وعده بنزول نص النصر على أعلام جيوش المؤمنين. و نخص بالسلام كامل من بحضرتكم و جناب أخينا الشيخ سيدى حمزه مسلم عليكم. و كذا كامل أولادنا مقبلين يديكم. و هذا ما لزم. و دام مجدكم و السلام. ۱۳ شعبان سنة ۱۲۹۴ ه.

خادم الفقرا محمّد ظافر المدنى

و قد تفرغ صاحب الترجمة فى الأوقات الّتى يتركها له المرض لاتمام تأليف ابتدأه فى استانبول سماه «تجريد السنان للرد على الخطيب رونان» و ذلك أن العالم الفرنساوى المذكور و هو من مشاهير أهل بلاده تعرض فى خطابة ألقاها بباريس تحت عنوان «الإسلام و العلم» إلى ذكر الديانة الاسلاميّة و أنها تمنع العلوم من الانتشار بين أبنائها فأفسد صاحب الترجمة هذا الزعم برد مقنع أتى فيه على ذكر جميع العلوم و الفنون الّتى استنبطها المسلمون

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۴۰

أو نقحوها، و له رسالة فى صورة سؤال حرّرها فى جواز شراء أوراق الديون الّتى تصدرها الممالك الاسلاميّة حتّى تبقى أموال المسلمين فى بلادهم و لا يحجبهم عنها اشتباه الرباء الذى لا ينطبق فى هذه الحالة عليها، و كتب تقريرا مسهبا فى شأن التعليم بمصر ذهب فيه إلى لزوم انتشاره باللغة العربيّة لسهولة تناوله و تعميمه بين العموم مستندا فى ذلك على عمل العرب فى صدر الإسلام و على عمل الأروباويين أنفسهم فإنهم لا يعلّمون إلّا بلغاتهم و قد نجحوا.

أما مصر فلما اتبعت طريقة التعليم باللسان الأجنبى لم تنتشر فيها العلوم و الفنون مع طول الزمن الذى مضى من حين تأسيس المدارس فيها، و له أيضا عدة كتابات على جملة أحاديث نبويّة شريفة و هى الّتى كان يحتفل بختمها فى تونس على حسب العادة الجارية هناك فى المدرسة العنقيّة الّتى كان شيخا عليها و فى سراى المرسى عند جناب الأمير الحالى و لم تتركه أيضا فى مصر دسائس بعض الفرنسيس و تهمهم الباطلة فمن ذلك أن جريدة لالنترن (المصباح) الباريسيّة نشرت خبرا عن مكاتبها فى القاهرة فى شهر أغسطس سنة ۱۸۸۹ مفاده: أن الشيخ بيرم سافر متوجها إلى الشيخ السنوسى للإتفاق معه على اهاجة نار الفتنة فى السودان بواسطة المهدى و القصد من ذلك كله معاكسة فرنسا، و صادف نشر هذا الخبر خروج صاحب الترجمة حقيقة من القاهرة و لكن لاستنشاق الهواء البارد على شاطىء البحر فى جهة رأس البر بدمياط.

و قد تجول المرحوم فى كثير من أنحاء القطر المصرى و كان يكتب أثناء تجوله فى ذهبيّة بقيّة «صفوة الإعتبار» فأتم الجزء الرابع و أول الخامس و لم يمهله الأجل لاتمامه، فإنه كان يقصد التوسع فى الكتابة عن بلاد النمسا و سويسره و المانيا و رومانيا و البلغار و الصرب و اليونان و هى البلاد الّتى شاهدها، و لكن ما كتبه إجمالا عنها فى الجزء الأول يمكن أن يغنى القارىء عن التفصيل و الإسهاب. و كان ينوى كتابة خاتمة «صفوة الإعتبار» على نمط مقدمتى «تاريخ ابن خلدون» «و أقوم المسالك» فلم تمكنه صحته و لا

أجله من إخراجها من حيز الفكر إلى قوة العمل، و نحن نورد هنا بعض تعليقات كتبها ليوسع البحث فيها فى هذا الموضوع عسى أن يقيض اللّه من يمشى على نمطها إذ المقصود هو نفع ملتنا و إيقاظنا من غفلتنا و كفى بما جرى للأمة فى القرنين الماضيين من التقهقر و التلاشى و الإنحلال، واعظا فى ديوان العبر و أهم باب المبتدأ و الخبر لمن يروم الإستفادة بالماضى ليدفع به غائلة المستقبل، أما تعليقاته فهى: فيما ينبغى لنا اتخاذه و تدبير نفوسنا عليه و فيه فصول.

الأول: فى زيادة نشر العلم.

الثانى: فى كيفيّة الحكم و أنه ينبغى اتخاذ قول واحد من المذهبين (أى فى تونس حيث الأحكام جارية بمقتضى المذهبين الحنفى و المالكى)

الثالث: فى كيفيّة إدارة السياسة و ما هو عمل الملك و ما هو عمل كل وزير و ما هو

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۴۱

عمل مجلس النواب الذى حقه أن يتخذ من الأهالى و أن لا تعطى الكلفة دفعة واحدة بل على قدر استطاعة الأهالى و قابليتهم و أن ذلك يأتى فى المسلمين من الملك و هو المربى لرعيته و السبب فى عدم اعطاء الحريّة التامة فى فرنسا كما هو جار فى انكلترا ثم تعامل الدول مع دول الإسلام على خلاف التصرف فى داخليتهم لضعفنا و عدم انصافهم فعلينا بالوسائل و حكم تذاكر البنوك شرعا و ليس هو من قبيل السفتجة. و علاقة الدول و الأحكام و فوائد الصحف و فوائد سكك الحديد و البريد و التكلم عليه و عدم تأخير المقصد فى الكلام عند الزيارة لاثنين معا. و النهى عن الغيبة بين الأخوان. اجتهاد اليهود فى المال بكل بلاد و أغلب الصناعات بأيديهم و عدم تعاطيهم الصنائع المجهدة. الطرق الموجبة للنفرة بالتفاضل، ابلاغ الشريعة إلى الكفار واجب و لو بدون حرب، اجتهاد الأجانب فى العمل حتى وصّلوا بين شاطىء أميركا و البحرين الأحمر و الأبيض و خرق المنسنى و الخرق تحت المنش، أسباب عدم استواء الدول الأجانب فى التظلم ببلاد الإسلام على حسب مقاصدهم و قوتهم فامريكا مثلا و إن كانت رعيتها عند الترك قدر رعيّة الإنكليز فلا تجد منهم تظلما و لا إقامة حجة مستمرة من سفيرهم، الوجوب على الحكومة و العلماء فيمن يتوجه إلى الحج بتعليمه ما يجب عليه قبل السفر و إلّا فيمنع.

و فى ۱۲ جمادى الأولى سنة ۱۳۰۶ ه (۱۴ يناير سنة ۱۸۸۹) عين صاحب الترجمة قاضيا فى محكمة مصر الإبتدائيّة الأهليّة فى مدة وزارة رياض باشا الثانية و كان فى وزارة نوبار باشا كلف المرحوم بكتابة ما يراه عن القوانين المعمول بها فى المحاكم الأهليّة من حيث مطابقتها للشريعة الغراء، أو القوانين الجارية فى الدولة العثمانية الشامل لها كتاب المجلة و الدستور فرام أولا التوسع فى الموضوع بتقسيم القوانين المصريّة بابا بابا و مقارنتها بالمجلة أو الدستور و إذا لم يجد نصا مطابقا لها فيهما فيطبقها بقدر الإمكان على قول أحد المجتهدين بدون تقيد بمذهب مخصوص، غير أن عملا مثل هذا يلزمه طول الوقت و كثرة العمال و الزمن غير قاض بذلك فالتزم أن يصرف النظر عن هذا العمل و كتب عن القوانين ما نصه:

«القوانين الأصول الّتى عليها مدار الحقوق فى الحكومة المصريّة هى القانون المدنى و قانون التجارة البرى و قانون التجارة البحرى و قانون العقوبات و هاته القوانين الأربعة نظر مطابقتها للقوانين العثمانيّة أو للشريعة المطهرة على التفصيل الآتى:

فأما قانون العقوبات و قانون التجارة البريّة و البحريّة: فجميع ما يوجد من موادها فى القوانين العثمانيّة المماثلة لها هو مطابق مطابقة كاملة، و هو أيضا الأكثر من مواد القوانين المصريّة لكن القليل جدّا من مواد هاته القوانين لا يوجد أصلا فى مثلها من القوانين العثمانيّة.

و أما القانون المدنى المصرى: فهو مخالف للمجلة العثمانيّة الّتى هى قائمة مقامه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۴۲

مخالفة كثيرة كليّة، غير أن القانون المدنى المصرى مع ذلك أكثره مطابق للشريعة المطهرة على الإطلاق من غير نظر إلى خصوص

مـذهب معين بـل بـالنظر إلى أقوال الأئمـة المعمول بـأقوالهم فى الديانـة، و القليل من هـذا القانون المـدنى مخالف أيضا لجميع تلك الأقوال غير أن تحويره بما يرجع به إلى مطابقة أحدها مما يقتضيه الحال أمر سهل يسير بفطنة حذاق أهل الخبرة و العلم».

و كـذلك كلفه الباشا المشار إليه تقـديم تقرير بما يراه لإصـلاح حال الأوقاف و قد فعل و كان موجها همته فى مدة توظفه بالمحاكم للسـعى وراء تطبيق قوانينها على الشـريعة الغراء، و لما قـدم ولى عهد الإنكليز إلى مصـر كان صاحب الترجمة من الأفراد القليلين الذين اجتمعوا به و فى تلك السنة أنهى رياض باشا ترميم منزله بالحلميّة فهنّأه المرحوم بهذه الأبيات:

أن الوزير المصطفى فى عصرهلا زال عونا للمليك بأزره

أبدى من التدبير فى الإصلاح ماقد حقق المعهود منه بقطره

فلقد أتى فى قصره ما يبتغىحسنا به و متانة مع وفره

و القطر قصر واسع الأرجاء قدأبدى له أنموذجا من قصره

و كلاهما مستأهل بعيالهو إدارة بإصابة من فكره

فكما نشاهد فى الصغير إجادةفكذا الكبير نراه صار بأمره

إذ اتقن التحسين حتى أرّخواقصر رياض فيه جنة مصره

(سنة ۱۸۸۹)

و قـد عين عضوا فى اللجنـة الّتى تشـكلت للنظر فى تعميم المحاكم الأهليّة بالوجه القبلى و عضد هذا التعميم، و كذلك انتخب عضوا فى لجنة تشـكلت فى المحكمة بناء على طلب نظارة الحقانيّة لتقديم تقرير للنظارة بكل ما يرى لزوم تعديله فى القوانين على حسب ما يلائم حالـة البلاد و عين عضوا فى لجنـة بنظارة الداخليّة لمراجعـة الأحكام الصادرة من قومسـيونات الأشـقياء و انبنى على عمل هـذه اللجنـة الإفراج عن عدد عظيم من المحكوم عليهم بالأشـغال الشاقة فى طره و كان إمضاؤه على تقرير هذه اللجنة آخر أعماله الرسـميّة فتوجه إلى مدينـة حلوان لتغيير الهواء، و هناك اشـتدّ عليه المرض و بلغ به الضـعف غاية المنتهى و ظهر فى جهة جنبه الأيسـر خرّاجان بسبب الحقن بالمرفين أعقبهما بعد فتح الطبيب لهما تكوّن المادة فى الرئة و بعد أن لازم الفراش بالمرض المعروف بذات الجنب نحو الخمسة و العشـرين يوما فارق الحياة و ذلك فى الساعة الخامسة و نصف بعد ظهر يوم الأربعاء ۲۵ ربيع الثانى سنة ۱۳۰۷ ه (۱۸ دسمبر سنة ۱۸۸۹) و قـد خلف ثلاثـة بنين رزق بهم من بنت عمه الّتى تزوّج بهـا فى ۱۴ ربيع الثانى سنة ۱۲۷۷ ه و كـان قبل ملازمته للفراش محتفلا بالمولد النبوى الشريف هناك بمحضر بعض الأصحاب و قد دخل إلى الحرم من

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۴۳

تلك الحفلة و لم يخرج حيا و فى مدة مرضه ورد عليه مكتوب من صديقه رياض باشا و نصه:

«جناب الأستاذ:

من صـميم الفؤاد قـد تكـدرت من خبر مـا طرأ على جنـابكم من انحراف المزاج الـذى لم أعلم به إلّا من منـذ كم يوم و ادعو المولى سبحانه و تعالى أن يمنّ عليكم بالشـفاء و كمال الصـحة و العافية و نراكم معنا عن قريب، و على أى حال أترجاكم أن لا توأخذونى و العذر عند كرام الناس مقبول.

فى ۱۳ ربيع الثانى سنة ۱۳۰۷ ه».

محبكم المخلص رياض

و قـد حضـر دولـة الباشا المشار إليه إلى حلوان و قصـد عيادته و أرسل إليه نجله، و كذلك كان المرحوم توفيق باشا كثير السؤال عنه يوميا بواسـطة طبيبه عيسى باشا حمدى، و لما توفى أظهر لأبنائه جميل التلطف تغمده اللّه برحمته، و قد شيع رياض باشا جنازة صاحب الترجمـة صبيحـة يوم الجمعـة و كانت مودّتهما صافيـة خالصـة و دفنه فى التربـة المخصوصة الّتى شـيدها بقرب ضـريح الإمام الشافعى

رضی اللّه عنه و قد کتب علی قبره هذه الأبیات و هی من إنشاء الشاعر البلیغ حفنی بک ناصف:

یا قبر أضنانا البکاء و تبسمأدریت أن الفضل فیک مخیم

أعلمت أنک قد حویت محمّداو ترکت أکباد الوری تتضرّم

هذا الذی کانت بدائع فکرهتملی البیان علی الیراع فینظم

من عترة ثوت العلوم بدارهمفهم لطلاب الهدایة أنجم

أولاه مولاه مواهب فضلهو اللّه یعطی من یشاء و یرحم

و أقام فی دار النعیم فأرخوافی جنة الفردوس أسکن بیرم

سنة ۱۳۰۷ ه.

و قد رثاه جملة من أحبابه و کتبت الجرائد تنعیه و لنقتصر منها علی ما قالته «الوقائع المصریّة» جریدة الحکومة المصریّة الرسمیّة الصادرة فی ۲۱ دسمبر سنة ۱۸۸۹ نمرة ۱۴۵:

«إنا للّه و إنا إلیه راجعون. فی آخر لیلة الخمیس الماضی انتقل من هذه الدار الفانیة إلی الدار الآخرة الباقیة المرحوم الشیخ محمّد بیرم أحد قضاة المحکمة الإبتدائیّة الأهلیّة بمصر، و صاحب جریدة الإعلام العربیّة. و کانت وفاته رحمه اللّه بمدینة حلوان عقب اشتداد الداء العصبی الذی منی به من عدة سنین و لم ینجع فیه علاج الأطباء.

و فی صباح یوم الجمعة الماضی احتفل بنقل جسده من حلوان احتفالا یلیق بمقامه و فضله و انتظره علی محطة میدان محمّد علی العدد العدید من رجال الحکومة السنیّة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۴۴

و أکابرها، و فی مقدمتهم صاحب الدولة ریاض باشا رئیس مجلس النظار و ناظر الداخلیّة و المالیّة و کثیر من العلماء و قضاة المحاکم الأهلیّة و مشاهیر المحامین و ذوی الفضل من الوجوه و الأعیان. و مما هو جدیر بالذکر فی هذا المقام ما کان من صاحب الدولة ریاض باشا من العنایة بأمر المرحوم و الإهتمام بشأنه و المساعدة فی إکرام تشییع جنازته و دفنه و تعزیة أولاده و تشجیعهم علی تحمل المصاب إلی غیر ذلک من الإحتفال و الإکرام، و لما وصلت الجنازة إلی المحطة شیعت فی مشهد حافل مشی فیه دولة رئیس النظار و من تقدم ذکرهم و من حضروا من حلوان بغایة السکون و الوقار و کان فی مقدمة المشهد الذاکرون و مرتلو البردة و غیرها من الأحزاب و الأوراد، ثم المشیعون للجنازة فحملة السریر و کلهم آسفون لفراق هذا الرجل العظیم الشان، و قد دفن رحمه اللّه فی المدفن الذی بناه صاحب الدولة ریاض باشا بقرافة الإمام الشافعی علیه الرضوان و فرّقت الصدقات علی الفقراء و المساکین و دعا الناس للمرحوم بالرحمة و الغفران.

أمّا الرجل رحمه اللّه فکان عالما فاضلا فقیها کاملا متضلعا من العلوم الشرعیّة بأنواعها مطلعا علی أحوال الأمم و له الباع الطولی فی فنون التاریخ القدیم و الحدیث و کان من ذوی الأقلام البلیغة فیما یرید کتابته من المواضیع و قد ألف رسائل کثیرة فی الأحادیث و الأصول و الأحکام الشرعیّة و الجغرافیا التاریخیّة و السیاسیّة و غیرها، و کلها تدل علی غزارة مادته و سعة تفننه فی المعارف و العلوم و کان کثیر الاستشهاد بأحوال الأمم الغابرة و الحاضرة فی کتاباته و أقواله و له قوة حاضرة فی إقامة الدلیل و البرهان کما یشهد بذلک المقامات الافتتاحیّة الّتی کان ینشرها فی جریدة الإعلام رحمه اللّه رحمة واسعة و أفرغ علی آله و ذویه جمیل الصبر. و عزاهم علی مصابهم فیه أکمل العزاء و أثابهم علی الصبر عظیم الأجر آمین».

و هذا ما قالته جریدة «الحاضرة» الصادرة بتونس فی ۲۴ دیسمبر سنة ۱۸۸۹ عدد ۷۴ «صباح یوم الخمیس الفارط نشرت أخبار التلغراف من حلوان مصر القاهرة خبر وفاة العلامة النحریر صاحب الصیت الشهیر المؤلف الشیخ السید محمّد بیرم و بما أنه من مفاخر البلاد التونسیّة تقوم الحاضرة بواجب رثائه و هی أدری من غیرها بفضائل رجالها، فقد ولد هذا العالم فی بیت العلم البیرمی سنة ست و

خمسین و مائتین و ألف و تربی فی مهاد العلم و التعلیم، و قرأ علی ابن عمه الشیخ أحمد بیرم و علی عم جده الشیخ مصطفی بیرم و علی شیخ الإسلام الشیخ محمّد معاویة و قرأ علی الشیخ الطاهر بن عاشور و الشیخ الشاذلی بن صالح و الشیخ محمّد الشاهد و الشیخ علی العفیف و غیرهم من فحول جامع الزیتونة إلی أن حصل علی مرتبة عالیة و تقدم لخطتی التدریس، و قرأ کتبا مهمة بجامع الزیتونة و ولی مشیخة المدرسة العنقیّة بعد وفاة عمه شیخ الإسلام الرابع و ختم بها الأختام المهمة و کان یعیدها کل سنة فی بیت الحضرة العلیّة.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۴۵

و کان عالما فاضلا عالی الهمة عزیز النفس رفیع الحسب منشئا فصیح اللسان جمیل المحاضرة صاحب أناة و وقار خبیرا بالسیاسات الشرعیّة و الوقتیّة حسن التدبیر واسع الإدارة امتنع من قبول الخطط الشرعیّة عدة مرار متعللا بضعف بدنه، و کان عضوا فی عموم الجمعیّات الّتی انعقدت لوضع التراتیب العلمیّة و التنظیمیّة أول الوزارة الخیریّة و هو الذی قام برئاسة جمعیّة الأوقاف عند تأسیسها فأسس أصولها بعد أن جمع شملها بما یقتضیه العلم و الإنصاف، و ولی نظارة المطبعة الرسمیّة و اعترته أمراض عصبیّة بمعدته سافر بسببها عدة مرار لباریز و إیطالیا و حنکته الأسفار بما یزیده فی الاعتبار، و بإشارته کان إنشاء المستشفی الصادقی و باشر إقامته علی النمط الذی رآه بباریز، و من قلمه کان إنشاء قانونه و شکره الأمیر یوم فتحه فی الموکب العمومی و ولی عضوا فی مجلس الدولة الشوری علی عهد وزارة ابن إسماعیل و اشتد مرضه و الحّ فی طلب الإعفاء و لم تسعفه الدولة بذلک و خرج لبیت اللّه الحرام أواخر سنة ست و تسعین و مائتین و ألف و رجع علی طریق الشام.

و لما رأت الدولة انحلال وظائفه أحالتها لغیره فی الثامن و العشرین من محرم سنة ۱۲۹۷ ه و تنقل من الشام إلی دار الخلافة العثمانیّة فنزل بمنزل التعظیم و التکریم و عرضت علیه نقابة الأشراف و الفتوی بالشام فلم یقبل لضعف بدنه، ثم انضمّ إلیه أبناؤه و عائلته و أجرت علیه الدولة جرایة سلطانیّة و هنالک ألف رحلته «صفوة الإعتبار بمستودع الأقطار و الأمصار» و أودعها من الأصول السیاسیّة و الأصول العلمیّة ما یدل علی کمال تضلعه و قوة عارضته، و أقام بالآستانة إلی أن شق علیه مرضه العصبی و أشار علیه الأطباء بالتنقل إلی البلاد الحارة فتنقل بأهله و أبنائه أول المحرم سنة اثنتین و ثلاثمائة و ألف و تلقته الدیار المصریّة بالرحب و القبول و أنزله الجناب الخدیوی منزلة التکریم و أجری علیه جرایة تلیق بأمثاله و فتح بها مطبعته الإعلامیّة و أفادت صحیفة «الإعلام» فی سائر الجهات العربیّة إلی أن ولی حاکما بالمحکمة الأهلیّة و فی أثناء هاته الأسفار کان مجدا فی الاعتناء بکرام أبنائه فی المدارس إلی أن وصلوا إلی قدم الکفاءة للمهمات و ترقی أولهم لخطة کاتب بمجلس النظار بالدیار المصریّة نسأل اللّه أن یجعل منهم خلفا محمودا و أن یدیم علیه فی نعیم الجنان ظلّا ممدودا».

هذا و قد قیل إن قیمة المرء لا تقوم بمقدار مادحیه فقط بل بانضمام المنتقدین علیه أیضا، و علی ذلک نقول أنه من دون سائر الجرائد العربیّة و الإفرنجیّة قد انفردت إحدی جرائد الآستانة العربیّة بنشر ما یخالف أمره علیه الصلاة و السلام: «اذکروا موتاکم بخیر» .

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۴۶

و لم یکن ذلک لیؤثر علی حسن صیته و شهرته فقد قیل- کلام العدی ضرب من الهذیان- و من تأمل فی تاریخ حیاة المغفور له علم أنه کلما خفض الأعداء و الحساد من شأنه ذراعا ارتفع میلا و کلما اشتدت به ملمات الحوادث و کوارث الزمن زاد قدره اعتلاء، فقد خرج المرحوم من دیاره مغربا مشردا فما زالت به همته حتّی بلغت به إلی شرف المقابلة بالحضرة الشاهانیّة و نوال أقصی الرعایة السلطانیّة و خسر أمواله و أملاکه، فقام له فضله و علمه بعدم الحاجة لأحد فعاش میسورا و مات میسورا و اجتهد بعض ذوی التقصیر فی الحط من سیرته و الطعن فی شهرته فما زاده ذلک إلّا اعتلاء فی الصیت و احتراما فی النفوس و توقیرا فی الصدور، فقضی حیاته حمید السیرة و انتقل إلی رحمة ربه طاهر السریرة و علی کل حال فنسأل اللّه أن یجازی الجمیع خیرا و لا یریهم ضیرا، هذا و قد کتبت ما کتبته و اللّه یعلم إنی لم أقصد به فخرا و لا حبّا فی الظهور و إنما هی حقائق مثبوتة بمستنداتها ألقیتها تحت نظر القارىء لیری فی

حياة هذا المؤلف و ما طرأ عليه من نعيم و بؤس العبرة الّتى يتوخاها و قياما بحقوق الأبوة و التربية و إجابة لما كان كلفنى به عند قدومه إلى مصر و لكونى أعلم الناس بأحواله رحمه اللّه رحمة الأبرار.

و كلما تذكرت على قبره محاسن أفعاله فى حياته العموميّة و جميل أخلاقه و شهامة نفسه فى حياته الخصوصيّة أكاد أنشد بيت المعرّى مخاطبا لقبر أبيه:

لأطبقت أطباق المحارة فاحتفظبلؤلؤة المجد الحقيقة بالخزن

۹ ذى الحجة سنة ۱۳۱۱ ه محمّد بيرم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۴۷

التعريف بكتاب صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار

و هو رحلة الشيخ الجليل و العالم المحقق النبيل السيد محمّد بيرم الخامس التونسى رحمه اللّه و طيب ثراه الجزء الأول- يشتمل على مقدمة و أقسام و فيها مباحث: فى أحكام السفر شرعا و الإستدلال على قدرة الخالق و القول بتكوير الأرض و دورانها و الإستدلال على ذلك بأقوال الحكماء و الفقهاء و الصوفيّة و غير ذلك من المباحث الشرعيّة و العلميّة الطبيعيّة و ذكر ما ورد فى السفر من كلام الحكماء و الأدباء و حكم السفر لغير أرض الإسلام و أسباب سفر المؤلف و تقسيم أحوال أهل الأرض الآن مقسّما ذكرهم إلى (۸۷) فصلا أى على عدد الحكومات المستقلة مشروحة كل واحدة منها بالشرح الوافى و هو أتم كتاب فى الجغرافية العموميّة للكرة الأرضيّة مطبوع باللغة العربيّة.

و فى هذا القسم كثير من الفوائد: كدخول الإسلام إلى الصين و ذكر دولهم فيه و المملكة التى أنشأها السلطان سليمان و ذكر استيلاء الإنكليز على الهند و الموكب الذى حصل لتلقيب ملكتهم بلسطانة الهند و سفر ولى عهدهم إلى ذلك القطر و ما جرى له من الإحتفال و كذلك سفر شاه إيران إلى أوربا و الأستانة و ما لاقاه فيها من إكرام السلطان عبد العزيز و تفصيل أحوال مملكة مراكش و أسباب تقدم أوربا.

و يلى هذا الكلام على القطر التونسى منشإ المؤلف ثم جدول عمومى عن أحوال جميع ممالك الأرض و بيان عدد سكانهم و ديانتهم و قواتهم الحربيّة و البحريّة و إيرادهم و مصروفهم و تجارتهم و ديونهم و طول السكك الحديديّة فيها.

الجزء الثانى- فى بقية الكلام على القطر التونسى بالتفصيل عن إدارته و سياسته و أحكامه و أخلاق أهاليه و جميع ما يتعلق بذلك من زمن الفتح الإسلامى إلى حين دخول فرنسا فيه.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۴۸

الجزء الثالث- فى الكلام على مملكتى إيطاليا و فرنسا بالإسهاب و أسباب تقدمهما و تاريخهما القديم و الحديث و حالتهما الإداريّة و السياسيّة و قواتهما الحربيّة و الماليّة و انتشار العلوم و المعارف فيهما و رسوخ الحريّة فى ابنائهما.

الجزء الرابع- فى الكلام على قطر الجزائر و تاريخه و دخول فرنسا فيه و ما وقع فى حربه مع الفرنسيس و بيان حالته الآن كل ذلك بغاية البسط و الشرح و كذلك الكلام على مملكة إنكلترا و ما رآه المؤلف فيها و ذكر تاريخها و أسباب تمدنها و تقدمها و انتشار مستعمراتها و أحوالها بالتفصيل ثم ذكر جزيرة مالطه و استيلاء الإنكليز عليها و حالتها قديما و حديثا.

و فى هذا الجزء الكلام على القطر المصرى و بيان أحواله إلى سنة ۱۳۰۳ هجرية أى حين وصول المرخصين العثمانى و الإنكليزى إليه و ذكر الديار المصريّة و جغرافيتها و تاريخها و حكوماتها و سياستها و تفصيل الثورة العسكريّة و فيه بحث عن افساد دعوى حرق المسلمين لمكتبة الإسكندريّة.

الجزء الخامس- فى الكلام على الحجاز بالتفصيل و الدولة العثمانيّة و تاريخها إلى حين عقد معاهدة برلين و أسماء سلاطينها و تاريخ

ولايتهم مع بيان أعمالهم الشهيرة منظومة فى قصيدة.

و فى جميع هذه الأجزاء مكاتبات لبعض الملوك و السلاطين و الأمراء و معاهدات دوليّة كثيرة و فرمانات سلطانيّة متعددة فى أغراض و مقاصد شتى.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۴۹

ما شاء اللّه كان بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[تمهيد]

الحمد للّه مالك الملك و الممالك. خالق النور و الظلمة و الضلال و الهدى إلى أقوم المسالك. سبحانه الخالق الحكيم. المبدع للكون و ما فيه من حقير و عظيم. رسم عليه دلائل وحدانيته لتدبر المتبصرين. وَ مِنْ آياتِهِ [خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ] وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ [الروم: ۲۲] و الصلاة و السلام الأكملان الأتمان على تاج العالم المصون. و مظهر الكمالات المسرى به إلى المسجد الأقصى و المقام المكنون. سيدنا و مولانا محمد رسول اللّه. المطهر عنصره الجثمانى. و المنزه جوهره الروحانى. من الكدر و الاشتباه. و على آله الطاهرين. و أصحابه الذين جابوا الأرض فى هداية المخلوقين.

أما بعد: فإن اللّه جلت عظمته اقتضت حكمته الباهرة. أن ربط فى هاته الدار الأسباب بالمسببات خفية كانت أو ظاهرة. و أخفى مراده فى التكوين. فكان مدار تكاليف الشرع هو اعتبار الأسباب رحمة بالمؤمنين. و تفويض ما وراء ذلك إلى خالق مسبب يجرى على مقتضى تقديره فى الأزل و ما يدرك أسرار حكمته إلا قليل من الكاملين. و كان مما عرض للعبد الحقير. أن بليت بمرض أعيا علاجه أطباء قطرنا الشهير. و أشير علىّ بالسفر لأجل ذلك الغرض. فاستخرت اللّه تعالى و استشرت الأصدقاء لتحصيل ذلك الحق المفترض. فجبت بحارا و قفارا. و مدنا و أمصارا على حسب ما يسره المقدور. و ساعفت الوسائل على الوصول إلى مشاهدته من المعمور. و رأيت بعينى البصر و البصيرة. أمورا عجيبة خطيرة. أحببت نظمها فى عجالة حفظا لها من الإهمال. و تطفلا على منح العلماء أولى الكمال.

كل سرّ جاوز الإثنين شاع كل علم ليس فى القرطاس ضاع

و هى و إن كانت بالنسبة لمعارف الكاملين و الفحول. ليست مما يلتفت إليه أو يلاحظ

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۵۰

بالقبول. لكنها على كل حال بضاعة من علم. تلاحظها بالإغضاء أعين أهل الحلم. فلعل اللّه بفضله يفيد بها أهل و ظننا و إخواننا المسلمين. و يهدينا إلى إحياء معالم ديننا المتين.

و سميتها: صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار. معتمدا على فضل المانح الجليل.

و هو حسبى و نعم الوكيل.

فنقول: أن هاته الرحلة مرتبة على مقدّمة و مقصد و خاتمة فالمقدّمة فيها ثلاثة أبواب:

الباب الأول: فى السفر من حيث هو و يشتمل على ثلاثة فصول الباب الثانى: فى السفر لغير أرض الإسلام و فيه فصلان الباب الثالث: فى تقسيم أحوال أهل الأرض و فيه خمسة أقسام و ستة و ثمانون فصلا و المقصد فيه ثلاثة عشر بابا: الأول: فى سبب سفرى. الثانى: فى مملكة تونس. الثالث: فى مملكة إيطاليا. الرابع: فى مملكة فرانسا. الخامس: فى قطر الجزائر. السادس: فى مملكة إنكلتره. السابع: فى جزيرة مالطه. الثامن: فى قطر مصر.

التاسع: فى الحجاز و جزيرة العرب. العاشر: فى بقية الممالك العثمانية. الحادى عشر: فى مملكة أسفيسره. الثانى عشر: فى مملكة النمسا. الثالث عشر: فى مملكة الرومانيا. و كل باب يشتمل على فصول حسبما فيه من الفروع. الخاتمة: فيما ينبغى للأمّة الإسلامية

إتخاذه من زيادة بث المعارف و ما تثمره من الخيرات.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۵۱

المقدمة

الباب الأول فى السفر من حيث هو

الفصل الأول فيما جاء فى ذلك من الكتاب العزيز

إعلم أن اللّه تعالى قد أمر فى كتابه العزيز بالسير فى الأرض للإعتبار و الإستدلال على وجوده و وحدانيته، فقال تعالى: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ* فى آيات من الكتاب المجيد فى [الأنعام: ۱۱- و النمل ۶۹- و العنكبوت ۲۰- و الروم ۴۲]، و فى بعضها قال: ثُمَّ انْظُرُوا [الأنعام: ۱۱] و فى أخر قال: فَانْظُروا* [النمل: ۶۹- العنكبوت ۲۰- و الروم ۴۲]. فكان العطف تارة بالفاء و تارة بثم إشارة إلى أن النظر و الإعتبار كما يلزم فى حالة السير يلزم بعده حتى لا يكون الزمن و العمل خاليا عن فائدة صحيحة فى نظر الشرع فأوّلا:

يحصل النظر الإجمالى فى حالة السير ثم يحصل النظر التفصيلى بالاعتبار عند الإنفصال منه حتى يستقرّ فى النفس بغاية التروّى. و لا يخفى أن القاعدة الأصولية عندنا هى أن الأمر للوجوب، و هو حقيقته و لا يصرف إلى غيره إلا عند القرينة الصارفة، و قد اشتملت الآيات المذكورة على أمرين و هما: الأمر بالسير و الأمر بالنظر. فكلاهما واجب غير أن الأول واجب لكونه وسيلة للثانى، و الثانى: واجب مقصود لذاته و إفادة ترتبه على سابقه تحصل بكل من الفاء و ثم بيد أنه تحصل بكل واحدة فائدة خاصة، فالفاء تفيد ترتب النظر على السير بغير مهملة، و ثم تفيد ترتبه عليه بعده حتى يكمل رسوخه، و بهذا تبين الوجه فى العطف بهما و لا نحتاج إلى أن الإتيان بثم لإفادة التفاوت بين مراتب الواجبين، حيث أن أحدهما مقصود لذاته و الآخر مقصود لكونه وسيلة كما ذهب إليه أبو السعود و القونوى لأنّ هذا لا يكون فائدة يستدعيها المقام بخلاف ما ذكرناه.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۵۲

ثم أن كون السير واجبا لما ذكر هو ما عليه المحققون، و إن سبق قلم الزمخشرى و تبعه القاضى البيضاوى إلى أن الأمر بالسير للإباحة و الأمر بالنظر للوجوب، فقد قال غيرهم: إن ذلك ينبو عنه المقام.

أما أولا: فلأنه إخراج للأمر عن حقيقته.

و أما ثانيا: فلا وجه لذكر إباحة السير للتجارة و غيرها فى سياق الإفحام للجاحدين، ثم يعطف عليه ما هو واجب و لا يتم إلا بسابقه.

و أما ثالثا: فقد تقرّر فى الأصول أن ما لا يتم الواجب إلا به يكون واجبا فكيف يكون النظر فى آثار المكذبين واجبا بدون سير؟ فإن قيل: إنا لم نر فى دواوين أصول الدين أن من واجبات الديانة السفر كما ذكر؟ فالجواب أن معنى الوجوب معلق بما إذا لم يحصل الإعتبار المفضى للإعتقاد إلا بالسفر، لأنه يؤدّى إلى رؤية الآيات بالمشاهدة التى لها من التأثير ما ليس لغيرها، أما إذا حصل الإعتقاد فلا داعى حينئذ لوجوب السفر و إنما هو مباح. و لهذا كانت الآيات المذكورة فى سياق الحجاج للمعاندين و كأن ما ذكر هو الذى أدى ببعض المفسرين للقول: بأن الأمر للإباحة.

و قد ذكر الغزالى فى الإحياء: أن السفر تعتريه الأحكام الخمسة من الوجوب و الندب و الإباحة و الكراهة و الحرمة لأنه من الوسائل فيأخذ حكم ما قصد به و أبان ذلك بيانا شافيا.

و إذا تقرّر أن السير واجب لأجل الإعتبار، فنقول: إن المعتبر به أشياء منها ما دلت عليه الآيات المذكورة من الإعتبار بعاقبة المكذبين للرسل، و منها ما دل عليه قوله تعالى:

وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ [الروم: ۲۲]. فإن المسافر يرى من عجائب قدرة الخالق جل و علا

من اختلاف الطباع و اختلاف الأشكال و الهيئات و اللغات و البشرة ما يقضى بوجوب وجود صانع ذلك المختار فى أفعاله، إذ لو

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۵۳

كان الأمر مستندا للطبيعة لجاءت الخلق على هيئة واحدة فى جميع ما تقدّم، مع أنا نرى الإختلاف و التباين تارة مع قرب المناخ و تارة مع بعده، مع أن الأرض واحدة و عناصرها واحدة و أصل البشر واحد و مزيد البسط لهذا فى كتب الكلام.

و منها: ما دل عليه قوله تعالى: قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ [يونس:

۱۰۱] فأمر تعالى بالإعتبار بما خلق من الأجرام العلوية و كيفية وضعها و حركاتها، كما أمر تعالى بالإعتبار بما خلق فى الأرض من الجماد و النبات و الحيوان، و فى هاته الآية أجمل المنظور فيه و قد فصله فى آيات كثيرة من كتابه العزيز للإستدلال على وجوده و وحدانيته، فقال فى سورة [الرعد ۲]. اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى. فذكر أن الأجرام العظيمة الهائلة قد بقى كل منها فى مركز مخصوص من الجو و له حيّز يمتاز به عن غيره من غير اضطراب و لا تلاطم و ليس لكل منها ما يعتمد عليه من الأجرام المرئية مع أن أجرامها هى فى نفسها مرئية على خلاف المعهود فلا بد أن يكون جميع ذلك لموجب أوجبه، فإن قيل: إن موجبه هو وجود أعيانها و ذواتها فهذا مردود لوجهين:

الأوّل: أن الأجسام متساوية فى تمام الماهية و لو وجب حصول جسم فى حيّز معين لوجب حصول كل جسم فى ذلك الحيّز.

و الثانى: أن الخلاء لا نهاية له و الأحياز المعترضة فى ذلك الخلاء الصرف غير المتناهية و هى بأسرها متساوية، و لو وجب حصول جسم معين فى حيّز لوجب حصوله فى جميع الأحياز ضرورة أن الأحياز متساوية، فثبت بهذا أن وجود الأجرام الفلكية فى أحيازها ليس هو لذاتها، و إنما هو لمدبر حكيم قادر خص كلا منها بما شاء.

ثم إنّ كمال الإعتبار بترتيب تلك الأجرام العلوية و كيفية أوضاعها و أشكالها إنما يتم على أكمل وجه بالسير فى الأرض، فما يرى منها فى جهة القطبين لا يرى من المناطق المعتدلة، و كذلك ما يرى فى أحد نصفى الكرة لا يرى من النصف الآخر.

ثم قال تعالى عقب الآية السابقة: وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَ أَنْهاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [الرعد: ۳] قال المفسرون: إنه تعالى لما قرّر الدلائل العلوية أردفها بالدلائل الأرضية بالاعتبار بذات الأرض و ما احتوت عليه من عجائب قدرة الخالق الحكيم القاضية بوجوب وجود صانعها، فإن حكماء المتأخرين الذين وصلوا بالمعارف و التحاليل و الآلات إلى ما لم تبلغه فلاسفة الأقدمين حتى زيفوا لهم كثيرا من خرافاتهم و بينوا خطأهم، فهؤلاء حذاقهم قد أقرّوا بأنه لا بد من خالق لما هو موجود إذ ما يعللون به كثيرا من الأشياء من قولهم الجاذبية و النواميس و الطبيعة و غير ذلك، قد صرحوا بأنها عبارات إصطلاحية و إلا فحقائقها أمور مجهولة تلتزم متتبعها بالإعتراف بالصانع فمن هؤلاء الحكيم المتبحر «فيلكس

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۵۴

لامروس» و هو من مشاهير فحول علمائهم فى القرن التاسع عشر المسيحى حتى أن كتابه «فى الجغرافية الطبيعية» الموسوم بالدراسة الأولية عليه مدار تعاليمهم فى المدارس و اختير للتعريب ليعلم و يعمل به فى المدارس المصرية.

و قد صرح هذا فى كتابه المذكور فى مبحث الجو و كرة الهواء، بقوله: «و إذا فرض زوال التثاقل العمومى من الهواء فإنه يتشتت فى الفضاء» إلى أن قال: «لكن الحكمة الإلهية اقتضت الآن حفظ الأشياء و ضبطها فى مواضعها الشاغلة هى لها بموجب قوة مجهولة ذاتها لا فعلها تسمى بالجذب و هى كلمة يعلم منها الفعل لا السبب إذ هذا الأخير مع كثرة بحث الطبيعيين عنه و تفتيشهم عليه لم يزل مجهولا إلى الآن و على المتولع بدراسة العلوم أن لا يأخذ بظواهر مثل هاته الكلمات العلمية التى يوضح بها سبب أو أسباب طبيعية مجهولة لحادث من الحوادث، فإذا قيل: هنا مثلا: إن الأجرام تزن أو تثقل لأنها مجذوبة لغيرها أو أنها جارية على مقتضى نواميس الجذب كان ذلك الدور المعيب (الخ كلامه)». ثم إن الإعتبار بأحوال الأرض المشار إليها فى الآية الكريمة هى من جهات:

أولها هيئة الأرض: و هى كونها جرما عظيما، حتى أن مقدار ما يصل إليه بصر الإنسان منها يراه مبسوطا مع أنها هى كرة، قال العلامة الرازى . ما معناه: «أنه لا ينازع فى كونها كرة إلا من لا تدبر له». و قد ألف الشيخ محمد بيرم الثالث قدّس سره رسالة فى ذلك استدل على تكويرها بكلام الحكماء و الفقهاء و أهل الباطن، و ها نحن نسرد هنا نبذة من ذلك مع اختصار و زيادة.

فأما كلام الحكماء: فمنه ظهور أعالى الأشباح من بعد، و منه ارتفاع الشمس و الكواكب فى جهات من الأرض بخلاف جهات أخرى حسبما حرر ذلك بموازين أخذ الإرتفاع.

و أما كلام الفقهاء: فقد ذكروا فى كثير من المسائل أنه لا عبرة باختلاف المطالع فى الصوم فيجب على أهل المشرق برؤية أهل المغرب للهلال، لأن الوجوب معلق بشهود الشهر لطائفة من الناس بخلاف الإمساك و الفطر فإنه يكون لكل أهل قطر بحسب ما عندهم، لأن الوجوب معلق بدخول الوقت للمكلف، و ذكروا فى الصلاة أن بعض الجهات تطول فيها الأوقات و بعضها تقصر حتى يفقد بعض الأوقات كالعشاء فى بعض الجهات الضاربة إلى أقاصى أحد القطبين، و ذكروا فى المواريث إذا مات متوارثان فى يوم واحد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۵۵

و زمن واحد منه لكن أحدهما فى المشرق و الآخر فى المغرب فإن المغربى يرث المشرقى، لما أن وقت المشرقى متقدّم فى الوجود على وقت المغربى كالزوال مثلا.

و أما كلام أهل الباطن: فقد نقل عن سيدى عبد العزيز الدباغ رضى اللّه عنه: «أن ساعة الإجابة من يوم الجمعة الوارد فيها الحديث بأنها من عند جلوس الإمام على المنبر إلى انقضاء الصلاة». قال إن ذلك خاص بوقت صعود إمام المدينة المنوّرة و لما كان ذلك الوقت لا يتحد فى جميع البلاد، منّ اللّه بساعة النبى صلى اللّه عليه و سلم و جعلها تختلف باختلاف صعود الأئمة على المنابر من ذلك اليوم، و جميع ما تقدم إنما يتأتى على القول بأن الأرض كورويه و لو كانت بسيطة لما تأتى شىء من ذلك، إذ الشمس إذا ظهرت تظهر على الجميع فى آن واحد. و من كلام القطب سيدى أحمد بن عروس رضى اللّه عنه: «الصريح فيما نحن بصدده و هو من أنواع النظم المسمى بالملحون، قوله:

و أدينا مثلتها دلاعاتتكركب فى جملة أدلاع

ماذ لحقوها من طماعاو رماتهم فى بيرما لوقاع

و هو صريح فى تكويرها و دورانها على ما سيأتى، و ليس فى القرآن ما يعارض ذلك إذ مساق الآيات لما يشاهد و المشاهد البسط فى نظر العين، و لما كان خطاب التكليف بهاته الشريعة المطهرة عاما لجميع طبقات الناس كان خطابهم على أسلوب يقتدر به كل على التوصل إلى قدر مدركاته، هذا فى مسائل التكاليف العامة كالإستدلال على وجود الخالق و صحة الرسالة و العلم بدخول أوقات الصلاة و الصوم و أشباه ذلك، أما ما يكتفى فيه بالإستفتاء عن الغير فقد خص اللّه به الفقهاء.

فقال تعالى: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ* [الأنبياء: ۷]. و هذا أصل نافع يجرى فى كثير من الأشياء، و قد بسطه الشاطبى فى موافقاته.

و ثانى الجهات المشار إليها فى الآية: الإستدلال بالجبال المعنون عنها بالرواسى، فإن عظم خلقتها و اختلاف أوضاعها و اختصاص كل بحد محدود قاض بوجود مدبر خصها بتلك الحالات، و لو كانت بمجرد الطبيعة التى هى إسم بلا مسمى لتساوت فى جميع الحالات، مع أن المشاهد هو اختلافها هذا بحسب الظاهر، و أما إذا دق النظر فيما تختلف به مما تشتمل عليه من أنواع الصخور و التراب و الطين و المعادن، فذاك أمر يبهر العقول و يوقف الأذهان، و من أراد الإطلاع على أسرار ذلك فليراجع كتب الطبيعيات و الكيمياء.

و ثالث الجهات المشار إليها فى الآية: الإعتبار بالأنهر و اختصاصها بأحوالها التى هى عليها مما يقتضى وجود مخصص لها، و الأغلب فى نظم القرآن قران الأنهر بالجبال إشارة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۵۶

إلى أن تكون الأنهر بسبب الجبال إما من الثلوج المذابة منها أو من منابع العيون المتفجرة فيها، و كأن سبب كثرة هاته المنابع فى الجبال هو أن الجبال من أسباب جذب الأبخرة و الأمطار و على قدر تشرب سطح الأرض للمياه يكثر فى باطنها اجتماعها، ففى الأراضى البسيطة تتصاعد تلك المياه أبخرة لسهولة نفوذ البخار فى أجسام الأرض المتخلخلة بخلاف الأراضى ذوات الجبال فإنها بصلابتها تمنع نفوذ الماء بخارا كما تحميه من تأثير حرارة الشمس، فلا يزال الماء يجتمع فى طبقات الجبال إلى أن يتكون منه مقدار عظيم فينفذ بقوة لأنه أعلى مما حوله من الأرض فتتكون منه الينابيع و العيون و تسيل جداولا و نهيرات، فإذا اجتمعت فى حوض تكون منها نهر و يعظم و يصغر بحسب ما يلتقى فيه من الأنهر و الينابيع.

و رابع الجهات المشار إليها فى الآية: الإعتبار بما فى الأرض من الثمرات و أنها كلها مثل الحيوان ذكر و أنثى، و هذا التفسير البين المحمولة فيه الآية على حقيقة اللفظ من قوله تعالى: وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ [الرعد: ۳]. إنما اطلعنا عليه من ترقى العلوم الطبيعية و الفلاحية، فقد تبين بالتجربة و المشاهدة و قرّره جميع فلاسفة المتأخرين فى كتبهم أن جميع أنواع الثمرات بل حتى الزهور أيضا تشتمل على ذكر و أنثى و إذا أفرد أحدهما عن الآخر لا تتولد الثمرة، غير أن بعض الأنواع تكون فيه الشجرة الواحدة مشتملة على البزر الذكر و على البزر الأنثى و تتلاقح مع بعضها بالريح و هو المشار إليه بقوله تعالى: وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ [الحجر: ۲۲] و بعض الأنواع تكون فيه شجرة الذكر مفردة عن شجرة الأنثى و هذا النوع الأخير كان معلوما منه سابقا بعض أفراد كالنخل و التين، لكن الآن قد تحقق أن جميع الأنواع لا تثمر إلا بالتلاقح بين الذكر و الأنثى حتى إذا تتبع قطع أحد الصنفين من شجرة تشملهما و أبقى نور الآخر بحاله و لم يكن فى ذلك الموضع شجرة أخرى مثلها فإن ما بقى فيها من النور لا يثمر، و قد حرر ذلك و علمت علامات الذكر و علامات الأنثى فى كل نوع بحسبه فسبحان القادر الحكيم الذى أرسل محمدا صلى اللّه عليه و سلم حقا و صدقا بأوضح المعجزات، فقد أنبأ بهذا منذ أكثر من ثلاث عشرة مائة سنة عندما لم يكن هناك حكيم يختلج هذا بفكره فضلا عن الأمّة الأميّة و هو أحدها لا يقرأ و لا يكتب، فلا شك أن هذا إنما هو بوحى من الخالق الذى يعلم ما خلق سبحانه و تعالى، و لدقة هذا الأمر و غرابته قد اعترف منصفوا أهل هذا العصر بأن الحكمة قد فازت بها الأمة العربية منذ بعث فيها رسولها و استندوا لما اشتمل عليه القرآن من بديع الحكم، فإن معرفة كون الريح تلقح الأشجار لم تعلم عند الحكماء إلا فى آخر هذا القرن، و القرآن الكريم ناطق بها و لهذا قال مستر اجنيرى (حرف ج ينطق به بين التاء و الشين) الإنكليزى معلم اللغة العربية فى مدرسة عامّة الفنون فى بلد أكس فور الكائنة جنوبى لندرة: «إن أصحاب الإبل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار و الثمار قبل أن يعلمها أهل أوروبا بثلاثة عشر قرنا». أقول و كذلك كون الثمار تشتمل على الزوجين و ما ذلك إلا بتعليم الخالق لا بواسطات و لا تعلمات و لا تجربات و تحليلات كيمياوية و بذلك يعلم حقية قول من قال إن القرآن لم يفسر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۵۷

على حقيقته و إنما كانوا يبينونه على قدر ما تصل إليه العقول و على قدر الحاجة فى الأحكام.

و بما تقدم يظهر أنه لا حاجة إلى تأويلات المفسرين فى قوله تعالى: وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ [الرعد: ۳]. حيث حملوا الزوجية على معان أخر كاختلاف الطعوم و الطبائع مما ينبو عنه التأكيد باثنين، فإن ما ذكروه لا ينحصر فى اثنين إلا بالنظر للمقابل و حيث تبينت الحقيقة فلا داعى إلى التأويل و يخالف ما قالوه من التأويل و يؤيد ما حررناه من الحمل على الحقيقة أن ما أوّلوا به لا يستقيم على نمط واحد فى آيات القرآن العظيم الواردة فى هذا المقصد كقوله تعالى فى سورة [الحج: ۵] وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. فإن ما قالوه من اختلاف الطعوم أو الطبائع لا يطّرد فى جميع ما تنبته الأرض بل فيها المتوافق فى ذلك و إن كان بحسب التشخيص مختلف الأنواع بخلاف ما قلناه فإنه مع الحمل على الحقيقة هو مطّرد أيضا.

و بما تقدّم يعلم وجه طلب العلوم الرياضية على ما سيأتى فى محله إن شاء اللّه تعالى حيث أن التفسير المتقدّم فى الجملة الشريفة إنما تبين بها كما أن تمام الآية اشتمل على إشارة غريبة من ذلك القبيل و هو الجهة الخامسة من جهات الإعتبار المشار إليها بقوله تعالى: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ [الرعد: ۳]: فقد تقدّم أنه تعالى بعد أن ذكر فى الآية السابقة الدلائل العلوية ذكر بعدها الدلائل الأرضية و نسق فيها تعاقب الليل و النهار فجعله من الحوادث الأرضية، فقال المفسرون لظهوره فيها و إن كان هو من متعلقات العلويات و هو الشمس، و اعلم أن مسألة حركة الأرض أى هل هى التى تدور أو أن الشمس هى التى تدور؟ هى من المسائل الظنية أعنى أن أدلتها ظنية و كثير من مسائل علم الهيئة هو على هذا النحو إلى الآن، كمسائل الأبعاد بين الكواكب و مقادير أجرامها و طبائعها. و ما تشتمل عليه.

و علماء هذا الفن مقرّون بذلك كما يأتى، و يشهد له أنهم كانوا مطبقين على أن بعد الزهراء من الشمس مقادير معلومة، ففى سنة (۱۲۹۳ ه) كان اقتران الشمس بالزهراء يعنى أن الزهراء تمرّ حائلة بين الأرض و الشمس فاعتنوا لذلك من قبل و أرسلوا العارفين إلى الجهات التى يمكن منها رؤية ذلك لتحرير الرصد بالآلات فحرروا ذلك و وجدوا أن جميع حسابات السابقين خطأ فإن البعد الذى حرر هو أقل مما كانوا يحسبون و كذلك مقدار جرم الزهراء، و من الجائز أيضا ظهور الغلط فى هذا التحرير فى وقت آخر.

و حيث كانت المسائل فى هذا الفن ظنية اختلف علماؤه فى أسباب وجود الليل و النهار و اختلاف الفصول بالحرّ و البرد بعد الاجماع على أن ذلك من آثار تقابل الشمس و الأرض، فقدماء الفلاسفة ذهبوا إلى أن الأرض هى التى تدور و الذين بعدهم ذهبوا إلى أن الأرض مركز للفلك و بدوران الفلك يحدث الليل و النهار، و أن الشمس هى التى تدور معه و لها سير خاص بها يحدث منه الصيف و الشتاء.

و اشتهر هذا المذهب و زاد انتشارا عندما انتشر هذا العلم و تهذب فى الأمّة الإسلامية

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۵۸

لما استفحل فيها العلم، و كان ذلك المذهب هو المشتهر ممن أخذوا عنه العلوم الرياضية ثم أحيى المذهب الأوّل، و تأكد الآن عند علماء العصر بهذا الفن و أنكره المنتسبون للعلم من المسلمين ظنا منهم أن المذهب الآخر هو من عقائد الإسلام، أو أن المذهب الآخر مصادم للنصوص، و الحق أن ليس شىء من هذا و لا من ذلك هو مما يجب اعتقاده عندنا و إنما المدار عندنا على الإعتبار بالآثار المشاهدة من الليل و النهار و أشباه ذلك و إثبات جريان للشمس، و أما كيفيته فلا تعلق لها بالعقائد و سير الشمس ثابت على كلا المذهبين لأن المتأخرين يثبتون لها حركة رحوية على نفسها و حركة ثانية على منطقة لها أيضا ثم حركة ثالثة لها مع جميع ما يتبعها من الكواكب حول شىء مجهول، كما أن هاته الدورة مجهولة المستقرّ أيضا و كأنها هى المشار إليها بقوله تعالى: وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [يس: ۳۸]. و ذلك أن المستقرّ أوتى بلفظه منكرا للإبهام فيفيد أنه غير معلوم للخلق و لهذا أوتى به مضافا إلى الشمس باللام فكان منكرا و لم يقل مستقرّها بالإضافة المفيدة للتعريف لأن ذلك المستقرّ غير معروف، و علماء هذا الفنّ الآن من غير المسلمين مقرّون بذلك فهو حينئذ إجماعى بيننا و بينهم. ثم أن كون حدوث الليل و النهار هو من آثار دوران الأرض، ربما كانت آيات عزيزة تشير إليه فمنها: الآية المتقدّمة.

فإنه تعالى بعد أن ذكر الدلائل على وجوده من السماء، ذكر الدلائل الأرضية و خرط فيها الليل و النهار، فيشير ذلك إلى أنهما من آثار الأرض لأن وجودهما و إن كان يستلزم الشمس و الأرض معا لكن تخصيصه بالإنخراط فى الدلائل الأرضية يدل على تعلق خاص، و هو كون دورانها هو السبب على أن منطوق الآية فيه تدعيم لهذا حيث قال: يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهارَ [الرعد: ۳]. فجعل الليل الذى هو ظلمة الأرض يغشى به النهار الذى هو ضوء الشمس ففيه تلميحة إلى أن الأرض هى التى تحدث ذلك بفعل اللّه.

و من الآيات المشيرة إلى ذلك أيضا قوله تعالى: وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها، وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها، وَ النَّهارِ إِذا جَلَّاها، وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها [الشمس: ۱- ۴]. فجعل النهار الذى هو مقابلة وجه الأرض للشمس مجليا لها و الليل الذى هو الظلمة الأصلية للأرض مغشيا لها، فأسند فاعلية ذلك لغير الشمس بل لفاعل آخر و هو الليل و النهار الذى هو من آثار الأرض، و إذا كان هذا ثابتا فما يدل على الآيات على

طلوع الشمس و غروبها و غير ذلك يمكن تأويله باعتبار الأبصار و العرف الجارى فى اللسان.

ثم اعلم أنه لا- يلزم من دوران الأرض نفى السماء على ما يتوهمه غير العارف لأن السموات لا شك فى وجودها للنصوص القطعية عليها، غير أن جرمها غير معلوم لنا و إنما نعتقد أنها أجرام شداد هى بالنسبة لكل من على الأرض فوقه كما هو المفهوم اللغوى للفظ سماء و أمّا ماهية أجرامها فاللّه أعلم بها، و نعتقد أنها سبع طبقات شداد ثم طبقة أخرى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۵۹

تسمى بالكرسى ثم طبقة أخرى تسمى بالعرش و لا يلزم من كونها شدادا أن لا تخترقها الكواكب بسيرها، فإن ذلك مشاهد لنا كما أنه لا- يلزم من سير الكواكب انعدامها حتى يقولون إن الكواكب ملقاة فى الفضاء، لأن ذلك متوقف على معرفة كنهها و هو فوق عقولنا، لأن العقول إنما تتوصل إلى المعهودات للحواس و ما لا تعهده الحواس يعسر إدراكه على حقيقته، و لهذا كان علينا أن نصدّق الصادق و نكل معرفة ذلك إلى خالقها، فقد قال سيدنا عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنه عند قراءته لقوله تعالى: وَ أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ [الإنسان: ۱۵ و ۱۶] ما معناه: أن القوارير الزجاج الذى لا يحجب ما وراءه، و الفضة إذا طرّقت ما عساها أن تطرّق لا- تكون إلا كثيفة، فهاته الفضة هى نوع آخر لا نعلمه و نكل علمه إلى اللّه، بل الأغرب أن مثل هاته المسائل أقرّ بها الحكماء الذين لا يعتقدون الشرع، فقد قال أحد حكماء الفرنساويين المتأخرين ما ترجمته: «إن للعقل حدّا محدودا لا يتجاوزه، كما أن للبصر حدا محدودا لا- يتجاوزه، فإتعاب العقل فى التوصل إلى معرفة كنه الأجرام العلوية و ما هيئتها، كإتعاب البصر فى أن يرى ما فوق السقف من أسفله، فهب أنك أعنته بأعظم المرايا المكبرة فإنه لا يمكن أن يخترق السقف حتى يرى ما فوقه» اه.

و يمكن لنا أن نقرب لاؤلئك المنكرين للسماء فهم وجودها على مقتضى علم الهيئة الذى هم عليه الآن، بأنهم يسلمون وجود كرة الهواء محيطة بالأرض و أنها عظيمة شديدة حتى قرّروا أن ذات الإنسان المتوسط مضغوطة و حاملة لأكثر من ثلاثة و ثلاثين ألف رطل من الهواء، و مع ذلك فإن هاته الكرة العظيمة الشديدة تخترق كيفما أراد المخترق لها فلم لا يجوز أن تخترق الكواكب السيارة السموات على هذا النحو، ثم أن هاته الكرة الهوائية نهاية ارتفاع سطحها الأعلا عن سطح الأرض نحو ستة عشر فرسخا، و هى فى ذاتها تختلف طبقاتها و ما فوقها ليس بخلو، لأنه لا يوجد فى الكون خلو مطلق كما هو رأى قدماء الفلاسفة و متأخريهم، كما قرّره الحكيم لا مروس فى كتابه السابق ذكره فلم لا يجوز أن يسمى الشىء المعمر لحدّ محدود من الفضاء بالسماء و ما فوقه من حدّ آخر بسماء آخر و هكذا، و إن كنا نجهل حقائقها لكنا نقول أنها لا تمنع من سير الكواكب فى مناطقها، و من ذلك الأرض فالأرض التى يقع بها الإعتبار بالأوجه المتقدّمة لا يكمل مزيد الإعتبار بما فيها من اختلاف أقطارها حرّا و بردا و ثمارا و أنهارا و جبالا و سكانا إلا بالسفر و مشاهدة عجائب خلق اللّه فيها.

الفصل الثانى فيما ورد فى السفر من السنة:

اشارة

روى السيوطى فى الجامع الصغير عن ابن السنى و أبى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۶۰

نعيم عن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه عن النبى صلى اللّه عليه و سلم أنه قال: «سافروا تصحوا و تغنموا» فأرشد الرسول صلى اللّه عليه و سلم إلى أن فى السفر ثمرتين راجعتين إلى الجسم زيادة على ما تقدّم من الثمرات الروحية، الأولى: هى الصحة لما يشتمل عليه السفر من الرياضات البدنية، إذ لا- يخلو غالبا عن مشقة و لهذا رخص فيه من الرخص ما هو معلوم فى الفروع بقطع النظر عن العلة

الباعثة عليه كما هو المذهب الحنفى و إتعاب البدن يثمر صحته، و أيضا لإستنشاق المسافر الهواء السليم الذى هو أنفع للجسم من الأكل و الشرب لأن الإنسان لا غنى له عن التنفس فى كل لحظة بخلاف الأكل و الشرب لإمكان الصبر عليهما مدّة ما.

و بيان وجه احتياج الإنسان إلى الهواء فى كل لحظة للتنفس هو:

«أن اللّه قدّر بحكمته تركب الجسم الإنسانى على أبدع وجه، و جعل سبب قوامه هو الدم المصفى من الغذاء، فبعد هضم الغذاء فى المعدة يمتص صفوه فى قناتين توصلانه إلى القلب بعد اجتماعهما فى قناة واحدة و هو إذ ذاك فى لون البياض و قبيل الوصول إلى القلب يصب ذلك فى قناة دم الدورة الراجع إلى القلب أيضا، و للقلب شكل صنوبرى منقسم داخله إلى قسمين يمين و شمال و كل منهما منقسم إلى قسم علوى و قسم سفلى و بينهما حاجز فيه منفذ يوصل بينهما له غطاء ينفتح و ينطبق، فالقناة المتقدّمة تصب فى الطبقة العليا من القسم الأيسر، و من هناك ينفتح له الغطاء فيصب نقطة فى الطبقة السفلى ثم ينقبض الغطاء بسرعة ثم نقطة أخرى و هكذا، و كلما انطبق الغطاء ضربت جميع الأنباض التى فى البدن، فحركتها تابعة لحركة الغطاء قوّة و ضعفا سرعة و بطئا، ثم يخرج الدم من القسم الأيسر السفلى فى عرق عظيم هو مجتمع عروق الأنباض فيصعد إلى أعلا ثم يتفرّع منه فروع و هاتيك الفروع تتفرع منها فروع أخر أقل منها حجما و هكذا إلى أن يعم جميع أجزاء البدن و هى عروق الأنباض، و كلما انتهى نبض إلى حدّه يتلقى الدم منه عرق من عروق الشرايين التى لا تتحرّك، و هاته وظيفتها إرجاع الدم إلى القلب فتكون عند اتصالها بالأنباض صغيرة الحجم، ثم لا تزال تجتمع فتعظم إلى أن تصير عرقا واحدا فيصب فى القسم الأيمن من القلب الذى هو مقسوم أيضا مثل الأيسر و حركته مثل حركته غير أن الدم يخرج من الطبقة السفلى منه فى عرقين يوصلانه إلى الرئة، و لا يخفى أنه أى الدم إذ ذاك قد دار فى جميع البدن و نقص من أصل كميته بما ترشحه العروق إلى اللحم و العظم و قد تغيرت عناصره فقل منه الأكسوجين و زاد فيه الحامض الفحمى حتى بتغير لونه فيصير مسودا بعد أن كان أحمر، فلو بقى على حالته لضرّ بقاؤه فى البدن.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۶۱

لكن حكمة اللّه تداركت هذا الملم باللطف فجعلت الرئة تجذب الهواء الذى هو مركب فى حالة سلامته الأصلية من الآزوت و هو أكثر أجزائه، و لا يضرّ و لا ينفع الحيوان ذا الدم إذا كان مخلوطا مع بقية الأجزاء و من الأكسوجين الذى هو الجزء النافع للحيوان ذى الدم، و أقل منه كمية الحامض الفحمى الضار للحيوان المذكور، و من شىء يسير من الماء حالة كونه بخارا فإذا دخل الهواء الرئة استرجع الدم منه الأكسوجين الذى فقده و دفع فيه ما عنده من الحامض الفحمى المضرّ ثم أخرجته الرئة بالتنفس و أخذت هواءا آخر لما ورد إليها من الدم أيضا و هكذا فى كل لحظة، و عندما يصفو الدم فى الرئة برجوعه إلى اعتداله ينبعث منها فى عرق عظيم و يرجع إلى القلب من الجهة اليسرى على نحو ما قدّمناه و هكذا، فسبحان القادر الحكيم اللطيف.

و بهذا البيان ظهر وجه احتياج الإنسان للهواء أكثر من الغذاء و إذا علم ذلك علم وجه كون السفر مثمرا للصحة لأن الهواء فى الأماكن المسكونة يكثر فيه الجزء الحامض الفحمى المدفوع بتنفس السكان بخلاف الأماكن الغير المسكونة فإن هواءها يكون أصفى و أنقى من غيرها، و المسافر لا بد له من قطع مفاوز و بحارا فيستنشق ذلك الهواء الحسن فيصفى دمه و يصح بسببه بدنه كما قال عليه الصلاة و السلام و بما قررناه فى التنفس و الهواء يعلم وجه كراهة النفخ على الماء و الطعام شرعا، لأن الهواء المنفوخ به يكون حاملا لجزء كثير من الحامض الفحمى الذى هو مضر بالصحة.

و اعلم أن ما قرّرناه فى حسن الهواء و سلامته للمسافر هو بالنظر إلى الغالب الكثير فلا يعترض عليه بأن هناك أماكن خالية عن السكان و مع ذلك هى و خمة لما يعرض لها من تعفن أو غيره فلا يكون هواؤها سليما لأن ذلك قليل و الحكم على الغالب، و هكذا القول فى الغنيمة أى الربح المالى إذ شأن المسافر الإطلاع على أحوال التجارة و السعى فيها فيربح إذا سعى لها و لا يعترض بكون

المسافر لا يربح إذا سافر لمقصد سياسى أو تنزهى أو بدنّى أو غير ذلك، إذ مدار حصول الشيء على السعى فى أسبابه.

الفصل الثالث فيما ورد فى السفر من كلام الحكماء و الأدباء:

اعلم أنه قد ورد فى مدح السفر كثير من كلام البلغاء و الحكماء فلا نطيل بجلبه هنا و نقتصر على كلام الإمام الشافعى رضى اللّه عنه حيث قال:

تغرّب عن الأوطان فى طلب العلاو سافر ففى الأسفار خمس فوائد

تفرّج هم و اكتساب معيشةو علم و أداب و صحبة ماجد

فقد جمع من فوائد السفر ما تتشوّق النفوس إلى اكتسابه.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۶۲

الباب الثانى فى السفر لغير أرض الإسلام و فيه فصلان

الفصل الأول فى النصوص الدالة على الجواز

لا خفاء أنّ الأعمال بمقاصدها، فإما أن يكون السفر لمقصد صحيح شرعا كمقصد مصلحة عامّة أو مصلحة خاصة لا مندوحة عنها، أو يكون لمجرّد توسع فى المال و تنزه، و على كلاـ الوجهين فالسفر جائز غير أنه يختلف حكمه بالنسبة للمروءة و حفظها حتى تبقى العدالة أو لا تبقى بانعدام المروءة، و ها نحن ننقل ما اطلعنا عليه فى المسألة. ففى الفتاوى البيرمية نقلا عن خط الشيخ محمد بيرم الرابع ما نصه: «سئل جدى رحمه اللّه عن ركوب البحر و الذهاب لدار الحرب هل يسقطان العدالة أم لا»؟ فأجاب بما نصه: أما نفس ركوب البحر فإنه لا يمنع قبول الشهادة إلا عند ظن الهلاك، و أما الذهاب إلى دار الكفر فينظر فيه للسبب الحامل عليه، فإن كان مصلحة: إما عامّة للمسلمين، أو خاصة بالذاهب، كما إذا كان به مرض عجز عن علاجه هنا فهذا لا بأس به و لا تسقط العدالة بسببه، و إذا كان لغرض التجارة و الاستكثار من حطام الدنيا فهذا هو الذى تسقط به العدالة هذا ملخص ما فهم من كلام أصحابنا كما فى الوهبانية و شروحها و اللّه تعالى أعلم انتهى.

و فى الفتاوى الهندية من كتاب السير بعد أن ذكر أن الرجل لا يخرج للجهاد إلا إذا رضى أبواه أو من يقوم مقامهما على التفصيل المقرر هناك قال: «و إن أراد الخروج للتجارة إلى أرض العدوّ فكرها خروجه (أى الأبوان)، فإذا كان أميرا لا يخاف عليه منه أو كانوا قوما يوفون بالعهد يعرفون بذلك و له فى ذلك منفعة فلا بأس بأن يعصاهما، ثم ذكر مسائل تحوم على أن المدار فى الجواز و عدمه على غلبة الظن بالأمن فإذا حصل ذلك جاز له السفر و لو بغير رضى الوالدين فتلخص مما تقدم أن السفر إلى أرض غير المسلمين جائز كيفما كان المقصد على شرط الأمن، و إنما يختلف الحكم بالنسبة للعدالة، و لا يخفى أن العدالة مدارها على حفظ المروءة و التنزه عن الرذائل و سفاسف الأمور، فإذا كان يقتحم الأخطار من السفر المذكور لمجرّد الزيادة فى التحسينات كالتنعم بالنظر أو بزيادة المال كان ذلك قادحا فى العدالة و إن لم يكن محرّما، و أما إذا كان السفر المذكور لغرض صحيح و لو

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۶۳

لتجارة محتاج إليها له خاصة أو له و لغيره فهو مع كونه مباحا لا يسقط العدالة أيضا بل له الأجر الأخروى إذا صحح النية و أخلصها التى هى أساس العبادة، و قد علم مما مر أن شرط الجواز هو الأمن و هذا الشرط لا يختص بأرض غير الإسلام بل هو شرط أيضا فى أى أرض كانت كما فى حواشى الشيخ ميارة على لامية الزقاق حيث قال أثناء الكلام على الإمامة ما مفاده: «إن الإنسان إن لم يستطع كف الظلم و المعاصى تجب عليه الهجرة». فإذا كانت تجب الهجرة منها فكيف يجوز الإقدام على الدخول إليها و اللّه تعالى يقول: وَ

لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكَمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [البقرة: ۱۹۵]. ثم أن الأمن يعلم حصوله و عدمه من الباب الآتى إذ أهل الأرض الآن مختلفوا الصفات و الأحوال.

الفصل الثانى فى تطبيق الحكم على سفر العبد الضعيف إلى ممالک أوروبا:

سيعلم من المقصد الوجه الحامل لى على السفر إلى ممالک أوروبا و هو إما التداوى بعد العجز عن علاج المرض فى بلادنا أو مصلحة أو ضرورة و كل الوجوه الثلاثة مما يسوغ السفر بلا سقوط العدالة، و إذا اعتبرنا ما حصل من ثمراته و أقله الحمل على جمع هاته الخلاصة فإنى أرجو من كرم اللّه تعالى أن يعفو عن زلاتى و يعاملنى بمحض جوده و فضله سيما و البلاد التى قصدناها من بلاد الأجانب هى تامّة الأمن كما يعلم من الباب الآتى.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۶۴

الباب الثالث فى تقسيم أحوال أهل الأرض الآن

اشارة

و فيه سبعة و ثمانون فصلا اعلم أن اللّه جلت قدرته قد قسم الخلائق فى هاته الأرض و خالف بين عوائدهم و اصطلاحاتهم و لغاتهم و إن اتحد الجميع فى أصول الاحتياجات كالطعام و الملبس و الوازع، و قد قرب الجغرافيون سكان كرة الأرض من اثنتى عشرة مائة مليون إلى ثلاثة عشرة مائة مليون، و قسموا الأرض إلى أقسام خمسة و هى آسيا، و أوروبا، و أفريقيا، و أمريكا، و أستراليا، و هى أقسام اعتبارية إذ الأرض واحدة و ما فيها متقارب متماثل.

القسم الأوّل آسيا

اشارة

اعلم أن القسم الأقدم عمرانا و الأكثر سكانا و الأشرف معنى لما حواه من كونه مصدرا للديانات الإلهية و دارا للرسل عليهم أفضل الصلاة و السلام، و منبع سطوع النور العظيم الحاوى للذات الشريفة المحمدية عليها أفضل الصلاة و أزكى التحية هو قسم آسيا الشامل لمكة و المدينة و القدس، و هو يحده شرقا خليج برنغ و المحيط الشرقى، و جنوبا المحيط الهندى و خليج فارس و البحر الأحمر، و غربا البحر الأحمر و البحر الأبيض و بحر مرمرا و البحر الأسود و نهر دون و جبال أورال، و شمالا المتجمد الشمالى و هذا القسم يشتمل على عشرين مملكة.

الفصل الأول فى المملكة العثمانية

اعلم أن أعظم الممالک الإسلامية فى هذا القسم هو المملكة العثمانية لاستيلائها على أغلب الممالک الإسلامية التى كانت تقسمت و اتحادها تحت سلطنتها و لاشتمالها على الحرمين الشريفين، و لأن سلطانها هو صاحب الحرمين الشريفين و لامتدادها على ممالک وسيعة إسلامية فى أفريقية، كما أن لها فى أوروبا ممالک واسعة فتألف من المجموع مملكة عظيمة تختها القسطنطينية، و تسمى فاروقا

لفرقها بين أرض آسيا و أرض أوروبا و لفرقها بين البحر الأبيض و البحر الأسود، فكان لها بهذا الموقع عظيم الإعتبار، و سكان هاته القاعدة زهاء مليون و نصف، و أقسام هاته المملكة هى الأناضولى و فيه آسيا الصغرى و الشام و العراق و ديار بكر و أرمينية و الجزيرة و الحجاز و اليمن، و لها فى أوروبا قسم الروملى و لها فيه ولايات ممتازة و هى إيالة البلغار و الروملى الشرقية و فيه جزائر البحر الأبيض التى منها ما

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۶۵

له امتياز كجزيرة كريدوسيواس، و لها فى أفريقيا ممالك أيضا و هى طرابلس و مصر و تونس، و هاتان الأخيرتان لهما امتيازات خاصة فى الإدارة.

و تشتمل المملكة الآن فى الأقسام الثلاثة من الأرض على نحو اثنين و عشرين مليونا عدا الممالك التى لها امتيازات، فإذا انضم ذلك كان الجميع يناهز الأربعين مليونا، و الذى يخص قسم آسيا فقط من السكان نحو ستة عشر مليونا، و قد ابتدأ تأليف هاته المملكة من سنة (۶۹۹) تحت سلطنة السلطان عثمان فى أرمينية و لا- زالت تعظم إلى أن بلغت نهاية السطوة على جميع ممالك المعمورة، ثم ابتدأت الروسيا فى حروبها و تداخلت الدول الأوروباوية تارة بالدفاع عنها و أخرى للربح منها، و لا زالت بين الدول لها اعتبار و حكومتها شوروية فى الرسم، لكنها الآن تحت الحكم العرفى.

و لم تزل سلاطينها يحضون على الأمن فى جميع أنحاء المملكة و فى جميع أنواع السكان الذين أغلبهم مسلمون، و هم نحو ستة عشر مليونا، و باقيهم أغلبهم نصارى على مذاهب شتى، و الباقى من ديانات مختلفة. و لزيادة توطيد الأمن و إجراء العدل أسس المقدس السلطان عبد المجيد التنظيمات الخيرية فى سنة (۱۲۵۷ ه)، ثم أكدها ولده السلطان المعظم عبد الحميد بالقانون الأساسى الذى أصدره فى سنة ۱۲۹۳ ه وفقه اللّه لما يرضاه، و بقية التفاصيل المتعلقة بهذه المملكة تأتى إن شاء اللّه تعالى فى المقصد، و قوّتها المالية و الحربية تأتى فى آخر المقدمة فى جدول قوات الدول بحول اللّه و إرادته.

الفصل الثانى المملكة الثانية هى مملكة فارس

و هى مملكة إسلامية قاعدتها إيران و عدد سكانها من الخمسة ملايين إلى سبعة ما بين سنية و شيعية، و لها تقدّم فى الحضارة و بعض رجال دولتها مهذبون لهم معارف كافية فى السياسة، و رئيس الدولة يلقب بالشاه و هو الآن الشاه ناصر الدين من آل البيت المطهر، و قد التفت إلى الإصلاحات التى يقتضيها الحال لما شاهده فى أوروبا و غيرها عند أسفاره لها منذ استدعته الدولة النمساوية فى سنة ۱۲۹۰ ه للحضور للمعرض الذى فتحته فأجاب دعوتها، كما أجاب السلطان عبد العزيز العثمانى دعوة دولة فرانسا لمعرضها فى سنة ۱۲۸۷ ه، و الشاه المشار إليه زار فى سفرته المذكورة الدولة العلية، فإنه بعد أن وصل إلى لندره على طريق الروسيا و ألمانيا، رجع على طريق فرانسا ثم النمسا المدعو إليها، و من هناك توجه للآستانة.

و لما علم السلطان بقصده لزيارته أرسل له باخرة جليلة سلطانية لركوبه و جفنين مدرعين يحفانه، و أرسل له فيها وزير البحر فركب الشاه الباخرة من إحدى فرض إيطاليا بعد زيارته لملكها، فوصل إلى جناق قلعة فى يوم الأحد (۲۲) من جمادى الثانية سنة (۱۲۹۰ ه) فأطلقت له المدافع من القلعة و اصطفت له العساكر و اقتبله هناك الصدر رشيد باشا فى باخرة سلطانية و معه سفير الشاه فى الأستانة و والى جزائر البحر الأبيض، و فى يوم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۶۶

الإثنين لاقاه فى بحر مرمرا سفراء الدول فى بواخرهم الرسمية و وجوه تجار الفرس فى ستة بواخر أخر، و لاقاه هناك أيضا فرقة من الأسطول العثمانى فوصل فى موكبه البهى إلى الآستانة من يومه و أرسى قبالة قصر بكلر بيك المعد لنزوله فأطلقت له المدافع و توجه

السلطان للقائه فى الباخرة و رحب به و آنسه و لبثا مليا و المترجم بينهما ميرزا حسين خان صدر دولة الشاه، ثم نزلا معا إلى القصر و أطلقت المدافع من جميع الأسطول العثمانى ثم رجع السلطان إلى قصر بباشكطاش، ثم زاره الشاه بعد الإستراحة و آنسه و كان كل منهما متقلدا بنيشان صاحبه و زينت له سائر الدواوين الملكية و منازل تجار الفرس، و حصل له من العناية ما أكد له مزيد الألفة بين السلطنتين ثم عاد إلى بلاده، و أخذ فى فتح الطرق للتقدّم لكن السير فيها بطىء ثم عاد إلى أوروبا سنة (۱۲۹۵ ه) لزيارة معرض باريس على وجه غير رسمى، و زاد استبصارا فيما ينبغى اتخاذه و شرع فى شىء من التنظيم سنة (۱۲۹۶ ه) تداركا لما يحيط به سياج الحفظ لأمته و مملكته التى أخذت منها الروسيا قسما عظيما فى أواسط القرن الحالى، و هاته المملكة حكمها الآن استبدادى مطلق، غير أن ما لا باعث عليه من الجزئيات يجرى فيه الحكم الشرعى الإسلامى و الغرباء لهم الأمن من جهة الحكم إذا دخلوا المدن العظيمة منها و حلوا فيها.

أما غيرها فلا اطمئنان فيها إلا إذا أخذ المسافر وصيات من رؤوساء الحكام أو خفراء له، و دخل هاته الدولة و خرجها يأتى إن شاء اللّه تعالى.

الفصل الثالث المملكة الثالثة هى مملكة أفغانستان

و موقعها شرقى فارس و قاعدتها كابل و قد كانت هاته المملكة مقر المملكة الغزنوية ثم السلجوقية ثم استقلت بولاية أحمد شاه فى القرن الثانى عشر ثم دخلت تحت السابقة الذكر، ثم استقلت فى عشرة السبعين بعد الألف و المائتين بإعانة الإنكليز، و سكانها نحو الستة ملايين و قيل ثمانية و الأول أقرب، أكثرهم أهل بادية و سكان جبال و الديانة العامة هى الإسلامية السنية و الحكم استبدادى مطلق، و لا راحة تستقر فيها لكثرة الثورات و عدم انقياد القبائل، ثم تعارض سياستى الروسيا و الإنكليز فيها حتى اغتر أميرها و حارب الإنكليز فوقعت المملكة فى قبضتهم و خذلته الروسيا حيث تم لها جل قصدها من حرب سنة ۱۲۹۴ ه بتسليم الإنكليز لها، و من عادات هاته المملكة أن يكون نحو عشر السكان عساكر دفاعية عن الوطن، و فيهم المشاة و الخيالة و هم غير منتظمين و لا يبقون فى الخدمة العسكرية إلّا نوبا و الأهالى تقوم بهم فإن كل مقاطعة أو ولاية عليها مقدار معلوم من العساكر بما يلزمهم، ثم هم يقسمون اللوازم على ما يقتضيه الحال فأصحاب الأملاك يقومون بالخيالة و غيرهم يقومون بالمشاة.

و أما الطوبجية: فمنهم خيالة و منهم مشاة و كلهم ملازمون للخدمة، و الدولة تقوم بهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۶۷

و تجرى لهم مرتبات، و حدث فى جندهم بعض تنظيم على النوع الجديد منذ مدّة قريبة، و تقدير دخلها مجهول.

الفصل الرابع المملكة الرابعة هى مملكة بلوجستان

و تسمى سابقا بالسند أى داخلة فيه، و موقعها جنوبى المملكة السابقة و عدد سكانها نحو المليونين و هم متفرّقون تحت رؤوساء شتى و أعظمهم الآن خان كيلات، و الديانة الغالبة هى الإسلام على مذهب أهل السنة، لكن كأنها بالنظر للغالب إسم بلا مسمى حيث كانت الغارات مستمرة بينهم و سفك الدماء يفتخر به سيما فى الأقوام المشركين الذين بقوا فى الجبال، فهم لا يبقون هناء للمسلمين، و حيث كانت أراضى هاته المملكة رديئة و هوائها ردىء و تجارتها قليلة، لم يرغب فيها الإنكليز و رضوا باستمالة رؤوساء القبائل إليهم بعضهم بالإرهاب و بعضهم بالإرغاب و بما تقدّم يعلم حال هاته المملكة.

الفصل الخامس المملكة الخامسة هى مملكة الهند الإنكليزية

و موقعها على شاطىء البحر المحيط الجنوبى الهندى، و تتوغل فى داخل القارة إلى جبال همىلاى و هى محادة للمملكتين الأخيرتين فى الذكر من شرقيهما، و هى مملكة عظيمة جدا تشتمل على ما ينوف عن المائة و التسعين مليونا من النفوس منهم مسلمون نحو أربعين مليونا و ازدادوا فى السنين الأخيرة نحو خمسة عشر مليونا بدخول الأهالى فى دين الإسلام طوعا عند وقوع المناظرات الآتى ذكرها.

و الجميع تحت الإستيلاء الانكليزى غير أن بعضهم لهم استقلال فى إدارتهم الداخلية و هم عدة ملوك و أمراء، و عدد هاته الممالك الممتازة ثمانية عشرة مملكة، و سبب استيلاء الإنكليز على هاتيك الممالك الرحيبة على وجه الإجمال، أن هاتيك الممالك كانت فى القرون الأخيرة انقسمت إلى إمارات و ملوك طوائف يتناصرون على مدى الزمان سيما بعد ضعف المملكة الإسلامية هناك عند انقراض دولة السلطان محمد شاه فى أواسط المائة الثامنة هجرية الموافقة للمائة الرابعة عشر مسيحية، فمن ذلك الوقت تزايدت المناقشات بين ملوك تلك الأقطار و زاد انقسامهم إلى طوائف صغار مع أن نفس أجسامهم و خلقتهم ليست بمستعدة للحروب و الأتعاب. لأنهم أناس نحاف الأجسام، فيميلون إلى الراحة و التنعم بالملابس الرائقة و المآكل الخفيفة و الإستكثار من المال و المجوهرات، لا سيما أهل الأقطار الجنوبية لحرارة أقاليمهم بقربها من خط الإستواء، و لهذا من قديم كانت سلطة الأفغانستان متوالية عليهم من غربيهم و شمالهم، فداموا على تلك الحالات التى سئمت منها نفوسهم و ضجروا أشد الضجر لمباينتها لطباعهم، و قد كان أهل البرتغال من الأوروباويين فتحوا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۶۸

السير على طريق رأس الرجاء الصالح من أوروبا إلى الهند و تملكوا بعض مراكز فى تلك الجهات سنة (۹۰۳ ه و ۱۴۹۷ م)، ثم قلدهم فى التجارة غيرهم من الأوروباويين حتى عقدت شركة إنكليزية للتجارة فى الهند، و عينت أولا- سفينتين عظيمتين شراعيتين و محتويتين على قوات دفاعية للخوف مما عساه يطرأ عليها من تجرىء أهل تلك الأقطار الذين كانوا يجهلون تفصيل أحوالهم لبعد المسافة و طول الطريق، الذى هو رأس الرجاء الصالح و كان هذا فى سنة (۱۰۵۳ ه و ۱۶۴۳ م).

فنفقت التجارة الإنكليزية هناك و كثرت خلطة الإنكليز بالأهالى، و تعرفوا أحوالهم بما سهل لهم التداخل فى سياستهم و تداخلوا فيها، [و أطلقت] اليد لتلك الجمعية التجارية إلى أن وقعت الحرب بين فرنسا و إنكلترا فى سنة (۱۱۵۹ ه و ۱۷۴۶ م)، فحينئذ ابتدأ النفوذ السياسى و أبطلت الشركة و تسلط الإنكليز على بعض الشطوط الهندية مع النفوذ و الوجاهة فى غيرها، حتى أن بنباى أعطيت من الهنود مهر الكاترينة زوجة كارلوا الثانى ملك الإنكليز فى عشرة الستين و سبعمائة و ألف أى حدود سنة ۱۱۷۵ ه، و الممالك التى استولت عليها دولة الإنكليز بدون واسطة الشركة التجارية هى الممالك المعروفة بحكومة الخلجان، و منها جزيرة سيلان التى هى فى الجنوب الغربى من الهند و سكانها نحو (۲۳۷۵۰۰۰) و كذلك جهات الخلجان فالجميع استولت عليها دولة الإنكليز بلا واسطة، و لهذا كانت إدارتها هناك مخالفة لبقية ممالك الهند، فلحكومة الخلجان إدارة منفردة تحت حاكم عام له مجلس شورى و مجلس نواب للنظر فى مصالحهم و تأليف ما يصلح بهم من القوانين، و أعضاءه هم كل ذى وظيفة فى تلك الحكومة من الأهالى و أعضاء أخر من الإنكليزيين توظفهم الدولة، ثم الرئيس العام هناك يرجع نظره لوزير المستعمرات لا لوزير الهند و يخاطبه بدون واسطة الحاكم العام فى الهند.

و أما بقية الممالك الأخر فقد أخذتها الدولة من الشركة المار ذكرها و لم تزل سلطة الإنكليز تتقدم هناك حتى استولوا على بنغالة فى سنة (۱۲۷۱ ه- ۱۸۵۷ م)، و ازدادت حينئذ السلطة تقويا و نفوذا و امتدّت فى تلك الممالك حتى دخلت فى حوزتها جميعها من غير كبر مشقة، إلى أن حدثت ثورة عامة شديدة هائلة من الأهالى و أوقعوا بالإنكليزيين الذين هناك أشد وقعة فى سنة (۱۲۷۴ ه-

۱۸۵۷ م)، حتى آيس الإنكليز من تلك المملكة و أيقنوا بتقلص ظلهم منها لو لا اغترار الأفغانستان و معاضدتهم للإنكليز على قهر الهنود، فقهروهم و قتلوا منهم خلائق لا تحصى و مثلوا بهم شرّ مثلة، و عادت السلطة الإنكليزية سلطة تامة و لم يحصل للإفغانستان إلا التسلط على سياسته و مملكته بما لم يستقر معه قرار إلى الآن، ثم أن الإنكليز لقبوا ملكة إنكلترا بإمبراطورة الهند فى سنة (۱۲۹۳ ه- ۱۸۷۶ م) و عقدوا له فى الهند موكبا حافلا لم يسمع بنظيره، و حضره كل ملوك الهند الذين تحت ولاية الإنكليز.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۶۹

و حيث كان من العجائب بمكان رأينا أن نثبت هنا ما ذكره أحد مراسلى الصحف العربية فى شأن ذلك الموكب و نصه: «بينما الناس فى فترة و إذا بالإنكليز اخترعوا طريقة أنتجت جملة فوائد لهم و لرعيتهم و هاك بيانها تفصيلا و هى: تلقيب ملكة الإنكليز بإمبراطورة الهند فلهذا أجمعت جمعية عمومية من ملوك الهند و من أمرائها فى بلدة دهلى التى كانت قبلا تخت ملك ملوك الهند، فبعد أن حضر جميع هؤلاء الملوك و الأمراء و أهل الثروة العظمى و نصبوا خيامهم الفاخرة خارج البلدة، كرت الناس من كل فج عميق إلى دهلى ما بين متفرج و تابع و ما بين تاجر و صانع و عامل، إلى أن غصت المدينة بالناس و صار المحل الذى أجرته عادة فى الشهر خمس روبيات مائة روبية، و العجلة التى تكرى عادة بربع روبية بعشرة روبيات، فكأن السماء أمطرت و الأرض أنبتت بنى آدم، فإن شارع دهلى عرضه أربعين مترا و كان المار فيه يخشى على نفسه من شدة الإزدحام، و جل هؤلاء الناس وصل إلى دهلى بواسطة سكة الحديد فإنها متشعبة فى جميع أقطار الهند كتشعب عروق الجسد، و هذا الجمعية الكبرى تسمى بلغة أهل الهند «بالدربار»، فجميع ما شاهدته فى هذا الدربار يعجز لسانى عن بيانه و قلمى عن حسابه، و إنما أشرح لك فصلين:

أحدهما: فى كيفية دخول حكمدار الهند إلى دهلى، و كيف استقبلته ملوك الهند و أمراؤها، و كيف مشوا فى صحبته و إنقادوا فى موكبه و خلف ركابه.

و الفصل الثانى: فى صورة الجلسة أى هيئة اجتماع الملوك و كيف ألقى عليهم خطاب امبراطورتهم، و كيف تلقوه بالاحتفال و القبول.

أما الفصل الأوّل: فهو أنه فى السادس من ذى الحجة سنة (۱۲۹۳ ه) بعد الظهر بساعتين، اصطفت العساكر الإنكليزية البيض و هم فى أحسن الملابس و بغاية النظام فى الطول و الإستواء من محطة سكة الحديد إلى محل قيام الحكمدار، و هو مسافة ثمانية أميال و ارتصوا من طرفى السوق الكبير من الجانبين، فبعد الساعة الثانية سمعنا صوت المدافع إيذانا بوصول الحكمدار، و شرع أول الموكب فى المرور و كان أولهم فرقة من خيالة على خيل حمر بغاية الجسامة على لون واحد و سروج بلون واحد و لباس فرسانها بلون واحد و عددهم نحو الخمسمائة، ثم تلتها فرقة أخرى خيالة نحو الخمسمائة على خيل بيض جسام كنظام ما قبلها، ثم تبعتها فرقة أخرى خيالة نحو الخمسمائة على خيل شهب فى غاية الضخامة كنظام ما قبلها، ثم أعقبتها سرية أخرى خيالة نحو الخمسمائة على خيل بلق كنظام ما قبلها، ثم حلبة أخرى على خيل شقر ثم أخرى على خيل صفر ثم و ثم و ثم إلى أن مر نحو خمسة آلاف خيال جميعهم بغاية الأبهة، ثم أقبلت الطوبجية و معهم مائة مدفع خلف بعضها فى غاية الضخامة و حسن النظام و حسن الآلات و العدد مع كبر الخيل و حسن هيئتها، ثم أقبلت سرية الفيلة و أوّلها فيل عجيب الشكل أظنه أعلى فيل فى أرض الهند، و ناباه بارزان عن شدقيه نحو ذراعين و عليهما أطواق من الذهب حلية له، و عليه تخت جسيم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۷۰

جميعه من الفضة الخالصة، و رخت طويل إلى الأرض مرصع، و على ذلك التخت اللورد ليتون حكمدار الهند، و هو رجل ضخم الجسم أحمر اللحية و كان على يساره زوجته و خلفه فيل مثله فى الحلية عليه بنتان صغيرتان، و خلفهم نحو عشرة أفيال أقل من الفيل الأوّل فى الحلية و عليهم أتباع ذلك الحكمدار و خدامه، ثم أقبلت أفيال أخر نحو العشرة و جميعها بالحلى الفاخرة و عليهم حكمدار «مدراس» و أتباعه، ثم حلبة أفيال أخر نحو العشرة و عليهم حكمدار «بمباى» و أتباعه، ثم سرب أفيال أخر نحو العشرة عليهم حكمدار

«لاهور»، ثم أفيال أخر عليهم حكمدار «السند»، ثم فرقة أفيال أخر نحو العشرين و هى مركوب سلطان حيدرآباد و أتباعه و رخت الفيل الأوّل منها مرصع بالجواهر، ثم فرقة أفيال أخر نحو العشرة عليها راجاجيت برا و وزراؤه و هكذا.

ثم أقبلت أفيال خلف أخر عليها ملوك الهند و الراجات و عددهم نحو التسعين و كانوا كلهم خلف الحكمدار بعماية الوقار و الرزانة و الخضوع و التؤدة، و يقال إن عدد الأفيال فى ذلك الموكب نحو ألف و مائتى فيل و ليس فيها كلها أعلى من فيل الحكمدار. و هكذا انتهى الموكب الذى لم يسمع بمثله منذ نزل آدم عليه السلام على جبل سرنديب و لا أظن أنه سيحصل مثله، و كان مبدؤ مروره من الساعة الثانية إفرنجية إلى الساعة الرابعة، و إنما قلت إن هذا الموكب لم يسمع بمثله لأنا ما سمعنا أن ملكا من ملوك الهند المتقدمين أطاعه جميع النوّاب و جميع الراجات بدون توقف و لا مخالفة و لا توان، أو أنهم مشوا خلفه فى موكبه و تحت ركابه و هو جالس بالتعاظم على فيل أعلى من جميع أفيال الدنيا و جميع الملوك ينقادون خلفه مع الأدب و التؤدة، و إذا أمكن لأحد قياصرة أوروبا العظام و ملوكها الفخام أن يحشر اليوم عسكرا مثل هذا العسكر و مدافع مثل هاته المدافع فمن أين له ألف و مائتا فيل تنقاد خلفه و عليها تسعون ملكا، فو اللّه لو لم يكن للإنكليز فى الشرق فخر إلا هذا الموكب لكفاهم.

الفصل الثانى: فى صورة الجلسة أى كيفية اجتماع الملوك و كيف ألقى عليهم الحكمدار خطاب إمبراطورتهم، و كيف تلقوه بالقبول و الإحترام، و كان ذلك يوم (۱۴) ذى الحجة سنة (۱۲۹۳ ه) و هيئته نصف دائرة جنوبى و نصف دائرة شمالى، و جميعه مسقف بالقماش و بين الشطرين طريق فاصل للمرور.

فالنصف الجنوبى عليه ملوك الهند أرباب التيجان، و هو عبارة عن دكة مرتفعة بدرجتين عرضها نحو أربعة أذرع و طولها نحو مائة ذراع، و عليها كراسى الملوك مصطفة بحسب رتبتهم.

و النصف الشمالى هو قسمان بينهما طريق فاصل و ارتفاع الربعين نحو أربعة أذرع و له درجات للجلوس، و فى وسط الدائرة دكة مرتفعة نحو أربعة أذرع مساحتها خمسة فى خمسة و لها مرقاة للصعود عليها فهذه الدكة الوسطى جلس عليها حكمدار الهند و وجهه إلى جهة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۷۱

الجنوب جهة الملوك، و الربع الذى على يمينه جلس عليه الإنكليز المتفرجون أرباب المناصب، و الربع الذى على يساره جلس عليه أعيان أهل الهند و أمراؤها غير أرباب التيجان و هم المدعون للحضور، و قطر هذه الدائرة نحو مائة ذراع و حولها دائرة أخرى كبيرة خالية عن الناس لها حاجز من درابزين خشب فاصل بين المتفرجين العوام و بين مجلس الأمراء، و المسافة بين الدائرة الداخلة و الدائرة الخارجة نحو مائة ذراع و من حول الدائرة الخارجة عسكر الإنكليز نظاما و خيالة مرتصين فى ذلك الفضاء و عددهم بالتقريب نحو العشرين ألفا، و أكثرهم من الإنكليز البيض، و مسافة ما بين المجلس و ما بين دهلى ستة أميال فى صحراء واسعة بقرب جبل صغير يسمى جبل الفتح، فإن الإنكليز فتحوا دهلى من هذا الجبل سنة (۱۲۷۴ ه).

ثم اجتمع الناس المتفرّجون من كل فج عميق ما بين ماش و راكب حتى ملؤوا ذلك الفضاء. فصار من بيده تذكرة العزيمة يدخل فى الدائرة الداخلية و من ليس بيده تذكرة يقف خارج الدرابزين الخشب، ففى الساعة الثانية عشرة أقبل حكمدار الهند و هو لابس من فوق السترة و البنطلون جبة واسعة الأكمام و طويلة الذيل و هى أشبه بالفرجية التى تلبسها كبار العلماء بمصر و لونها رمادى و جميع أطرافها مطرزة بالذهب، و مع الحكمدار زوجته و من خلفه ابن السلطان لكهنؤ و ابن أخى سلطان ينبال فى صورة خادمين، فلما صعد على درج التخت رفع الغلامان أذيال جبته عن التراب إلى أن استقر فوق التخت فجلسا هما على كرسيين صغيرين خلفه و جلس هو على كرسى مذهب و زوجته على يساره، ثم أخرج الحكمدار من جيبه ورقتين أعطاهما لرجل إنكليزى جهورىّ الصوت، فقرأ الأولى و هى باللغة الإنكليزية و مضمونها: «أن الملكة لقبت بإمبراطورة الهند و أن جميع الأمم ارتضوا بذلك». ثم قرأ الورقة الثانية و هى باللغة الهندية و مضمونها: مثل الأولى، فعند ختامها قام جميع ملوك الهند و صاحوا بارك اللّه لها فى هذا اللقب و نحن أيضا جميعا

راضون بذلك، فأطلقت المدافع من طرف عساكر الإنكليز و من طرف ملوك الهند و اشتغلت آلات الموسيقى بأحسن الألحان، و انفض المجلس فى الساعة الواحدة فكانت مدة جلوس الملوك نحو ساعة، و مدة جلوس الحكمدار و قراءة الورقة نحو ربع ساعة، ثم نورت جميع البلدة ليلتين جرى فيهما من ألعاب البارود ما يعجز عن تصوّره.

و كيفية وصول ملوك الهند إلى الدربار: أن كل ملك قدم بعساكره من أبناء جنسه و بمدافعه. فلما وصلوا إلى محل الجلوس دخلت الملوك و جلسوا على كراسيهم تجاه الحكمدار و وقفت عساكرهم و أفيلتهم خارج الدائرة و عددهم نحو التسعين ملكا و هم مرتبون بحسب العدد.

و هكذا المدافع التى كانت تقابلهم بالسلام عند قدومهم، أعنى أنه عند قدوم ملك حيدرآباد على قلاع الإنكليز، أطلقوا له واحدا و عشرين مدفعا و لراجا بروده كذلك و مثلها لراجا جيتبور، و تسعة عشر لراجا كشمير، و ثلاثة عشر لنواب رامبور غالب على خان لأن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۷۲

رتبته بالنسبة لأقرانه هى العدد الثانى و الخمسون.

و هكذا يتقهقر العدد فى مدافعهم إلى آخرهم و هم نواب دجانة، إذ لم يطلق له سوى ستة مدافع. فكانت كثرة الإطلاق باعتبار كبر دولتهم و كثرة إيرادهم و اتساع دائرتهم بالحرية و التصرف المطلق، و أكثر ملوك الهند من الوثنيين. أما المسلمون فلهم خمسة عشر ملكا.

ثم إن الإنكليز استفادوا من هذا الدربار ثلاث فوائد.

إحداها: أنهم جعلوا أهل الهند و ملوكها رعية لهم برضاهم و اختيارهم لا بالسيف و طريق التغلب كما مر فى الأزمان السابقة.

الفائدة الثانية: أنهم جمعوهم ليختبروا حالهم من جهة المال و القوة العسكرية و هل عندهم أسلحة جديدة يخشى بأسها أو لا، فوجدوهم على الحالة الهمجية القديمة فى الأسلحة و آلات الحرب حتى أن بعضهم كان لعساكرهم البنادق و الفتيلى أى المشادلى، و بعضهم يحمل القوس و النشاب و الرمح، و بعضهم يلبسون الدروع و الخود على العادة الجاهلية، فاطلعوا على قوتهم و عرفوا أنهم ما داموا يجهلون الأسلحة الأوروباوية فلا يمكن للخناس الذى وسوس للصرب أن يوسوس لهم.

الفائدة الثالثة: أن تجار الإنكليز ربحوا من هذا الدربار عشرة ملايين ليرة لما حصل عنه من رواج التجارة و نفاق السلع حتى فاق على معرض باريس فى زمن نابليون، حيث جلب إليه من كل غريبة و نادرة و عجيبة، فإن عدد تذاكر سكة الحديد التى بيعت إلى السفر إلى دهلى بلغت نحو مليونى تذاكرة، و بعض الوفود رحل من محل بعيد عن دهلى مثل أهل كلكوته و أهل مدراس و أهل السند و أهل بمباى و أهل بشاود، و كان بعضهم يركب فى الدرجة الأولى و بعضهم فى الثانية و بعضهم فى الثالثة، فالدرجة الأولى أجرتها نحو عشرين جنيها، و الدرجة الثانية أجرتها نحو عشرة جنيهات، و الدرجة الثالثة نحو ثلاثة. فإذا ضربت القليل فى الكثير و القريب فى البعيد كان المدفوع من مليونى نفس ثمانية ملايين ليرة، و جميع ملوك الهند حضروا ذلك الدربار امتثالا لأوامر الحكمدار ما عدا ملكة تنجاور فإنها اعتذرت بأنها فى حالة الولادة، و نواب و أمير و غالب على خان فإنه تعلل بأنه مريض بداء البرص و أنه لا يمكنه الحضور فى مجمع الملوك لئلا تنفر طباعهم منه انتهى. ثم زار تلك الممالك ولى عهد ملكة إنكلترا و احتفلوا به و هادوه بهدايا نفيسة ملوكية يأتى الكلام عليها فى الكلام على معرض باريس من المقصد.

ثم إن استيلاء الإنكليز كما تقدم كان شيئا فشيئا، فبعض الملوك و الأمراء سلموا إليه السيادة و أبقاهم على ولايتهم عند قصده لهم بالحرب، و أبقى لهم ما يملكون من المال و المجوهرات فى خاصة ذاتهم و بعض التصرفات، و التصرف الحقيقى بيد الإنكليز سواء كان فى الإدارة المالية أو السياسية، و أما العسكرية فلكل عساكر تحت أمره، و كثيرا ما تأتى العساكر الإنكليزية لإرهاب الولاة و الملوك و إخضاعهم، فالتصرف حقيقة للإنكليز لكن للملوك الأبهة و الإسم بحيث أن التصرفات تنسب إليهم بالإسم، كما أن بعضا من الملوك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۷۳

و الأمراء طلب الدخول لما رأى العواقب آيلة إليه، فلذلك لم تزل إلى الآن ممالك مستقلة بإرادتها تحت ولايته، فمنها ما يؤدى له خراجا و منها ما يأخذ الملك و حكومته مقدار ما يكفى للقيام بمصالحهم و ما بقى يرجع إلى حكومة الهند العامة و تصرفهم على نحو ما سبق، و قد قسم الإنكليز تلك الممالك الهندية عدا حكومة الخلجان المتقدمة إلى ثلاثة أقسام كبيرة:

فالقسم الأوّل: مملكة بنغالة و قاعدتها كلكوته، و هى مقر الحاكم العام و يتبع هذا القسم من الممالك الممتازة بالإدارة إحدى عشرة مملكة:

فأوّلها: مملكة نيزام و هى واقعة فى وسط أرض دكين بين مملكة بنباى من غربها و بين مملكة مدراس من شرقها، و تخت هاته المملكة مدينة حيدر أباد التى سكانها نحو أربعمائة ألف نفس، و الإنكليز ساكنون فى بلدة صغيرة من غربها تسمى سكندرآباد، و بهاته المملكة بلد تسمى «أهور» بها معابد عجيبة تحت الأرض دالة على مهارة مهندسى ذلك العصر عندهم، و سكان هاته المملكة نحو عشرة ملايين و ملكها من الهنود و له زيادة استقلال فى إدارته على ما للممالك التابعة للإنكليز، و يؤدّى لهم خراجا معينا سنويا و هى مملكة إسلامية.

و ثانيها: بوندلكند و بها عدة خانات كل خان يحكم على قبائل و جهات خاصة، و عدد سكان هاته المملكة الموزعة على الخانات نحو ستة ملايين، و لكل خان مركز هو تخت حكومته.

و ثالثها: مملكة بوبول و لها ملك أيضا و سكانها نحو ستمائة ألف و سبعين ألفا و تختها بوبول.

و رابعها: مملكة شنديا و لها ملك أيضا و سكانها نحو مليونين و نصف و فى هاته المملكة بلدة «أوجين» التى تعتبرها الهنود مبدأ خط الطول و تختها كواليور.

و خامسها: مملكة هلكار و لها ملك أيضا و سكانها نحو ستمائة ألف و تختها هندور و هاته الممالك الأربعة الأخيرة فى الذكر كانت هى مملكة المهرجات سابقا.

و سادسها: مملكة راجابوتان و لها ملك و سكانها نحو سبعة ملايين و تختها أوديبور.

و سابعها: مملكة بهوبال و لها سلطانة إسلامية بالوراثة للملك من آبائها، و زوجها مباشر للتصرفات بالنيابة عنها و هو رجل عالم كما ذكرنا فى غير هذا المحل، و سكانها نحو ستمائة ألف و تختها بهوبال.

و ثامنها: مملكة لادك و لها أمير و سكانها نحو مائة ألف و سبعين ألفا من الأنفس، و تختها لادك.

و تاسعها: مملكة بدستان و لها ملك له زيادة امتياز فى الإدارة، و سكانها من المسلمين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۷۴

و قاعدتها على نهر السند تسمى اسكرودو، و تسمى هاته المملكة أيضا ببلاد البلتسى.

و عاشرها: مملكة كناوود و هى صغيرة و عدد سكانها قليل و لها أمير.

و حادى عشرها: مملكة سيرمور مثل المتقدمة عليها و تختها نحمين.

و القسم الثانى من الأقسام الكبرى: هو ممالك بونباى و يتبعه من الممالك الممتازة خمس ممالك:

فأولها: مملكة كاش و تختها بوهيج.

و ثانيها: مملكة كانبى و تختها كانباى.

و ثالثها: مملكة أكوى كووا و سكانها نحو مليون و ثمانمائة ألف نسمة و تختها باردوه.

و رابعها: مملكة ساوندوارى و تختها ساوندوارى.

و خامسها: مملكة كولابور و تختها مدينة كولابور.

و القسم الثالث من الأقسام الكبرى: هو ممالك مدراس و يتبعه من الممالك الممتازة إثنان.

فأوّلها: ميسورا و تختها ميسورا و سكانها نحو ثلاثة ملايين.

و ثانيها: مملكة أتراه نكور و عدد سكان هاته المملكة مليون و ثلاثمائة ألف نسمة، و تختها بلداتريفان ديرام و لكل حاكم مستقل بامتياز فى الإدارة على نحو ما تقدّم ذكره.

فما تقدم هى الأقسام الكبرى التى لكل منها أقسام صغرى تحتها و ممالك ممتازة ترجع إليها، كما أنه يوجد أربعة أقسام صغرى ليست داخلة تحت الأقسام الأولى و إنما لها إدارة منفردة تحت نظر الحاكم العام الإنكليزى، و هى أقسام أربعة داخلة بتا تحت الإنكليز و إدارتها بيدهم مثل الأقسام الكبرى، و هاته الأربعة أقسام.

أوّلها: المسماة بولاية الشمال الغربى.

و ثانيها: المسماة أود.

و ثالثها: المسماة بنجاب.

و رابعها: المسماة بالولاية الوسطى.

كما تتبع ممالك الهند الإنكليزى مملكة كشمير لكنها لما كان لها زيادة امتياز ذكرناها منفردة و سيأتى الكلام عليها.

و الممالك الممتازة إن كانت إسلامية فرئيسها يلقب بنائب لأنهم فى السابق كانوا نوّابا لسلطان المسلمين الذى تخته بلد دهلى، و إن كانت الممالك غير إسلامية فرئيسها يلقب براجا هذا.

و أمّا كيفية الإدارة السياسية و العسكرية فى جميع الممالك الهندية فإن جميع الأقسام ترجع إلى حاكم عام إنكليزى يرتبط مع دولة إنكلترا بواسطة وزارة الهند فى لوندره، ثم هو فى نفسه قد وظفته دولته بهذا الإسم فى (سنة ۱۲۷۵ ه- ۱۸۵۸ م)، و رتبت للهند قانونا

خاصا فمن مهمات كلياته أنّ الحاكم العام له النظر العمومى على أقسام المملكة كلها و ما يتبعها و تصرفه مقيد بمجلس شورى مركب من أعيان الإنكليز المقيمين فى الهند و من أحد كبراء الأهالى، و هذا المجلس و الرئيس عليه الذى هو الحاكم العام تحت احتساب مجلس الندوة فى لندرة و مسؤول له، و الواسطة بين الدولة و الحاكم العام هو وزير الهند فى لندره و له فى الوزارة مجلس عدد أعضائه خمسة عشر و كاتبان، و من حقوق مجلس الهند المذكور إنشاء القوانين العامّة فى الهند و تنظيم الإدارة السياسية و العسكرية و إنشاء الأحكام العامّة، و ما ينشؤه هذا المجلس إذا وافق عليه مجلس الندوة فى لندره يصير معمولا به فى ممالك الهند.

ثم لكل من الأقسام الثلاثة الكبرى المذكورة حاكم خاص و مجلس شورى مركب من أعيان الأهالى و أعيان الإنكليز تحت رياسة الحاكم، و من وظائف هاته المجالس إنشاء قوانين الأحكام الخاصة بقسمهم و عرضها على الحاكم العام و بعد نظره هو و مجلسه فيها و التصديق عليها يرفعها إلى الندوة بلندره كما تقدم، كما أن للمجالس الثلاثة المذكورة الإحتساب على سيرة الحكام فى قسمهم و النظر على الضابطية المكلفة بالأمور السياسية و الأحوال العرفية، و لهم النظر على الملوك و الأمراء الراجعين إلى قسمهم، كما أن لحكام هاته الأقسام المقيد تصرفهم بالمجالس قوة على التنفيذ بواسطة القوّة العسكرية، ثم لكل قسم ولايات فرعية و منها الممالك و الإمارات المستقلة، و كل من هاته الولايات لها مجالس إدارة تحت رياسة الوالى أو الأمير أو الملك، و يتصرف بمشاركة نظر المجلس فى الإدارة السياسية و المالية و العسكرية، و المتوظفون يكونون بحسب أهالى الولاية: إما من مسلمين فقط أو هنديين فقط أو مختلطين، و التصرفات الصادرة من هؤلاء سواء كانت حكمية أو سياسية أو مالية يمكن رفعها لمجلس القسم الراجعة الولاية إليه و له تحقيق النظر فى النازلة على قواعد عندهم فى ذلك، و هكذا الأحكام الشخصية فى كل ولاية لها مجلس و قوانين يتصرفون بمقتضاها، و هاته القوانين قواعدها الكلية هى قواعد أحكام الإنكليز.

غير أن لكل ولاية قوانين خاصة مطابقة للعوائد و العرف المتعارف فيها، أمّا ما يرجع إلى الزواج و الإرث و الملك، فإن الأهالى تجرى

عليهم أحكام ديانتهم بواسطة مجالس من أهل الديانة و يمكن رفع أحكامهم إلى مجلس الولاية و منه إلى غيره إلى أن ينتهى إلى المجلس العام، و الديانات التى لها متوظفون هناك من الدولة هى الديانة الإسلامية و البرهمية و ما أشبههما من الديانات المجوسية و الوثنية و لهم خرافات مبسوطة فى كتب الكلام، و السكان الآن مختلطون من عرب و فرس و أوروباويين و هنود أصليين، و المعارف عندهم الآن فى تقدّم سيما العلوم الكيمياوية و الحكمية لفتح الإنكليز هناك المدارس مشتملة على ما فى أوروبا من المعارف، و اقتدت بهم الأهالى حتى ضعفت تجارة الإنكليز بما ينتج من مصنوعات البلاد و العلوم الإسلامية نافقة السوق و لها فحول مؤلفون منهم: سلطان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۷۶

بهوبال الذى طبع الآن من تأليفه فى مطبعته و مطابع الممالك العثمانية كثير من تأليفه، فمنها: تفسير للقرآن سماه «فتح البيان فى مقاصد القرآن» نحا فيه التوسط بين المنقول و المعقول و منها: «المحصول فى علم الأصول» و منها: «لقطة العجلان فيما تمس إلى معرفته حاجة الإنسان» و هو كتاب بديع فيه تحرير كثير من المسائل الأصولية و الكلامية و الفرعية و له عدة تآليف أخرى، و هذا العالم الملكى هو من نوادر هذا العصر فإنه مع اشتغاله بمهام السياسة التى تقلدها بالنيابة عن زوجته سلطانة تلك المملكة قد تبحر فى الفنون العلمية سيما الشرعية و آلاتها و فصاحته فى نسج تآليفه يحمده عليها أهل اللغة العربية و على الخصوص فى هذا الزمن الذى كادت أن تتلاشى فيه اللغة و العلوم من الأمّة الإسلامية.

و من فحول علمائهم فى هذا العصر الشيخ العلامة رحمه اللّه صاحب تأليف «إظهار الحق» الذى ألفه بسبب مجادلات دينية فتح بابها قسيسوا البروتستانت رائمين دعوة أهل الهند المسلمين إلى ديانتهم، فأفضى الحال إلى مناظرتهم مع الشيخ المذكور و آل الحال إلى مناظرتهم بالتأليف فأفحمهم بتأليفه المذكور مستندا فى الردّ إلى كتبهم و أقوال علمائهم بما ينبىء عن اتساع باعه و اطلاعه، و هذا التأليف قد ترجم إلى الفرنساوية و غيرها من اللغات و هو بديع فى بابه و قد صار الآن عزيز الوجود مع أنه طبع مرتين و شاعت منه آلاف من النسخ و فى هاته المملكة علماء أخر و للّه الحمد.

كما أن لأهلها تقدّما فى الحذق و الصناعات سيما النقش و الترصيع فى الخشب و العاج من قديم الزمان، و منسوجاتها و طرازها شائع فى أغلب الأقطار، كما أن أهلها هم الذين اخترعوا الأرقام الحسابية و لذلك تسمى بالأرقام الهندية إلى الآن و هو اختراع عجيب شمل جميع الأعداد فى تسعة أشكال، و يكفى للدلالة على ما كان عندهم من الحذق فى الصنائع

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۷۷

المعابد التى فى جزيرتى الفيلة و سلسيت الكائنتين قرب بنباى، فإن تلك المعابد منحوتة فى الصخر نحتا عجيبا فى الصناعة و الاتقان، كما أنه فى إيالة بيجابور فى جبل نحات مدينة فيزيابور التى كانت تختا لملك المسلمين هناك و فيها بناآت بديعة و الآن خربت، و هاته المملكة لما كانت متسعة جدّا فهواؤها مختلف و لكن تغلب فيها أمراض تقل فى غيرها، و تشتمل على أغلب النباتات المعروفة فى غيرها و لها نباتات تختص بها كالقمارى و الجوز الطيبى و غيرها، و قد امتدّت فيها الآن طرق الحديد تخترقها فى أغلب الجهات، كما أن المواصلات فى أنهرها العظيمة متوفرة بالسفن، كما أن الطريق الحديدى اخترق أهم جهاتها و دونك أهم ما وصل إليه.

فمنه فرع من كلكوته إلى دكة، و منها إلى ميرزابول، و منها ايضا إلى دهلى و منه إلى أباد إلى بنباى، و منها إلى كوراتشى، و منها أيضا إلى مدراس، و من هاته إلى بيبول و منها إلى نيفاباتام و من مدراس إلى كلكوته و من كوراتشى إلى حيدرآباد و من ملتان إلى لاهور و منها إلى بيشاور، و لا زالوا يمدونها فى أغلب الجهات حتى قربت إلى حدود الأفغانستان و يمكن أن تصل إلى الصين و الممالك العثمانية، إذ التفكر فى ذلك مستمر بحيث أن السفر الآن فى الهند مع الأمن فى غاية السهولة الموصلة بالطرق الحديدية و العادية و الأنهر و الترع، كما أن السلك الكهربائى واصل بعضها ببعض كما وصلها بأوروبا بحيث أن إنكلترا تصل لها الأخبار من الهند على ثلاثة طرق:

فأوّلها: من الهند إلى خليج فارس إلى الممالك العثمانية إلى بقية أوروبا.

و الثانى: من لندره إلى جبل طارق إلى مالطة إلى السويس إلى عدن إلى الهند.

و الثالث: من لندره إلى فرنسا إلى الجزائر إلى مالطه إلى البقية مما تقدم.

و لا يبعد أنه يصل أيضا على طريق رأس الرجاء الصالح فإنه وصل من لندره إلى هناك و منه إلى زنجبار فلم يبق إلا منها إلى الهند، و من أخشابها المنفردة بها عود القمارى.

و أما قوة هاته المملكة الحربية و المالية فستأتى إن شاء اللّه فى جدول الدول.

الفصل السادس المملكة السادسة

هى مملكة بورما و هى إلى الشمال الشرقى من المملكة السابقة و عدد أهلها نحو ثلاثة ملايين و نصف و ديانتهم بوذية مشركون، و حكمهم استبدادى مطلق و هم أهل مكر و خديعة و ليس لهم ولوع إلا- بعلم النجوم و الأرصاد و السحر و أكثرهم يعلم القراءة و الكتابة، و لأراضيهم نتائج حسنة و تجارة واسعة مع مجاوريهم من الهند و الصين، و قاعدة المملكة مدينة أفاقى القديم و الآن مدينة مندلاى، و الداخل إليهم يكون فى قبضة البخت من حكامهم و إن كان الإنكليز فى هاته الأزمنة مرشدا إليهم، بعد أن أخذ منهم قسما فى سنة (۱۸۲۵ ه)، و قد صار يأمرهم بالعدل حتى أنكر على ملكهم فى سنة (۱۲۹۶ ه) قتله لثمانين صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار ؛ ج۱ ؛ ص۷۸

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۷۸

نفسا من الرجال و النساء و الأطفال شر قتلة و هم من عائلات الملك، و كاد أن يعقد معه حربا لأجل استتباب الأمن جوار الهند، و دخل هاته الدولة و خرجها مجهول و قوتها من النوع الهمجى و كأنها لا تلبث أن تدخل فى حكم الإنكليز.

الفصل السابع المملكة السابعة

مملكة سيام أو صيام و هى جنوبى المملكة السابقة و شرقى بقية المملكة الهندية الإنكليزية، و عدد أهلها مع ما يتبعها فى جزيرة مالقا و غيرها نحو ستة ملايين و نصف، و ديانتهم و حكمهم مثل المملكة السابقة و معارفهم أقل من سابقيهم لكنهم يوصفون بالأمانة و تجارتهم من معادن بلادهم الغنية مع الهند و الصين و الأوروباويين، و قاعدة المملكة صيام فى القديم و الآن مدينة بان جوك، و الدخل و الخرج و القوّة كلها مجهولة و هى فى القوّة على غير نظام.

الفصل الثامن المملكة الثامنة

هى مملكة كوشين الصين أو أنام و هى شرقى المملكة السابقة، و عدد أهلها قبل استيلاء الفرنسيس على قسم منها ما بين إثنى عشر مليونا إلى ستة عشر مليونا لكنها الآن نحو تسعة ملايين، و قاعدتها مدينة أووى و بلسان الهنود فوشواش و قيل و هو الأصل مدينة هويفو و هى مربعة الشكل يحيط بها نهر هو من جانبين و ترعة من الجانبيين الآخرين، عرض هاته الترعة سبعون ذراعا و كل ذكر عندهم ملزوم بالدفاع عن الوطن من سنّ العشرين إلى الستين، و لهم خلق بشوش و لبس النساء و الرجال سواء و هو سراويل و جبة إلى الكعب، و الرجال لا- يزيلون شيئا من شعورهم و إنما يربطونها و من عاداتهم إباحة السكر و لا ديانة عندهم و إنما يعتقدون

خرافات كثيرة، و النسوة لا يحتجبن و يتعاطين الأشغال مثل الرجال، و ملكهم له اعتناء بتعليم الأهالى العلوم الرياضية و يرسل خمسة عشر تلميذا من أبناء أعيانهم إلى فرانسا للتعلم فى مدارسها و عند رجوعهم يعوّضهم بغيرهم، و هم يبثون علومهم فى الأهالى، و بعد استيلاء الفرانسيس على قسم من مملكته صار محافظا على موالاتهم و حفظ عهودهم حتى أرسل سفيرا مخصوصا لباريس مدة ولاية الرجل الشهير تيارس رياسة الجمهورية الفرانساوية، كما رتب هذا الملك جيوشه على الطراز الأوروباوى، و ستتأتى قوّته العسكرية فى جدول الدول، و أما المالية فمجهولة، و أما العادات الحكمية فلا تخرج عن عادات الممالك السابقة.

الفصل التاسع المملكة التاسعة

مملكة كمبوديا و هى غربى بعض المملكة السابقة و جنوبى بعض صيام، و عدد أهلها نحو مليون و قاعدتها مدينة سايكون فى القديم و الآن مدينة بنوم بنه، و يقال فى ديانتهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۷۹

و حكمهم و قوّتهم ما هو واقع فى الممالك المجاورة لهم، و قد استولى الفرنسيس على قسم من هاته المملكة عند مصب نهر كمبوديا و قد صارت هاته المملكة تحت حماية فرانسا منذ سنة (۱۲۸۰ ه- ۱۸۶۳ م).

الفصل العاشر المملكة العاشرة

هى مملكة ملقا و هى شبه جزيرة إلى الجنوب من مملكة صيام و يحيط بها البحر من جميع بقية الجهات، و عدد أهلها نحو ثلاثمائة و خمسة و سبعين ألف نسمة والديانة الغالبة فيها هى الإسلام و حكمهم الصورى ملك مستقل مستبد لكنه قليل النفوذ، و أغلب القبائل تعيش بحرّيتها تحت رياسة كبرائها، و كل قبيلة تدافع عن نفسها و لذلك يعدها الجغرافيون منقسمة إلى أربعة قواعد.

الأولى: براك.

و الثانية: سلنكور.

و الثالثة: جوهر.

و الرابعة: باهنك.

و أراضيهم غير مخصبة لكنها فيها معادن غنية و أشجار الأفيون كثيرة فتجارتهم فيه مع الصين واسعة، و قد استولى الإنكليز على جهات من هاته المملكة منها مدينة ملقا.

الفصل الحادى عشر المملكة الحادية عشرة

هى مملكة الصين و هاته المملكة هى أكثر ممالك العالم سكانا و أغناهم، لاحتوائها على أقاليم مختلفة، ففيها جميع أنواع النبات و المعادن، و تجارتها متسعة مع جميع الأقطار، و لأهلها شهرة قديمة فى الصنائع، و أهمها: صناعة الخزف فإنها اشتهرت بإتقانه على جميع النواحى فيتنافس الناس فى اقتناء أوانى الخزف الصينى تنافسا كليا، و بعضهم يبلغ به درجة خارقة للعادة و للإعتدال، سيما فى أوروبا حتى تجد الواحد منهم يزين بيته بترصيف تلك الأوانى التى تتكلف عليه بمآت الألوف، و كذلك ملوك الهند و ما والاه يتنافسون فى اقتناء الرفيع من أوانى ذلك الخزف، و قد يبلغ ببعض الناس اشتراء صحن واحد بألف فرنك فما فوق، و على وجه

العموم كل الناس يرون رقته و حسنه، غير أن هاته الصناعة الآن انحطت فى هاته المملكة عما كانت عليه بكثير لعدم الإتقان السابق، فالتنافس و التغالى إنما هو فى الخزف القديم و له صفات كثيرة تميزه عن غيره.

فمنها: إنه هو و إن كان كثيفا لكن النور يظهر من ورائه.

و منها: أنه إذا ضرب عليه يكون حسن طنينه كأنه طنين معدن مطرق من المعادن العزيز.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۸۰

و منها: حسن الألوان فيه كما أنهم لهم إتقان فى صناعة النقش و التصوير فى سن الفيل و غيره.

و أما المعارف و العلوم: فالظن أنهم كانت لهم فى القديم فنون كثيرة و بقيت فيهم الدعوى فقط، بحيث يرون أنفسهم أعلم أهل الأرض، لكن فى الواقع ليس لهم إلا شىء من الحكميات و النجوم مغرمون باستخدامه فى علم الغيب و أشباهه مما لا طائل تحته، و حدث فيهم أخذ بعض الطبيعيات عن الأوروباويين و استخدموها فى منافعهم كالبخار و الكهربا لكن لم يتجاوزوا إلى الآن المقدار الذى أخذوه و لم يخترعوا شيئا فيه، و قد كانوا اكتشفوا بيت الإبرة، و قد أثبت بعض المؤرخين أنها من اختراع العرب كما أن أهل الصين اخترعوا البارود و لم يعرف أنهم استعملوه فى حرب قبل استعماله فيها عند غيرهم، و إنما كانوا يستعملونه للإصلاح كدك التلال و غيره، و إن وجد من آثار سلاحهم قديما ما يدل على أنهم كانوا يستعملونه فيه، و أوّل ما عرف البارود فى جهاتنا من العرب سنة (۷۳۷) هجرية.

و موقع هاته المملكة من مبدأ الشطوط الشرقية من آسيا على المحيط الشرقى إلى أن تتصل بأملاك الروسيا، و من الجهة الجنوبية تبتدىء من جبال هملاى إلى سبيريا من جهة الشمال فهى حينئذ تحاد الهند من شماليه و ما والاه من الممالك الشرقية منه، و عدد سكان هاته المملكة نحو الثلث من سكان العالم كله و هم على ما تحرّر فى سنة (۱۲۸۶ ه- ۱۸۶۹ م) قريبا من خمسمائة و سبعة و ثلاثين مليونا من النفوس، و هذا المقدار يساوى نحو الضعف من سكان أوروبا كلها، و مع هاته الكثرة التى هم عليها كانوا فى السالف لا تكاد تجد منهم خارج مملكتهم إلا النادر القليل لأعجابهم بأنفسهم، و لأن اصطلاحات أحكامهم تمنع الخروج من الوطن إلا بإذن خصوصى مع التشدد فيه حتى يتبين وجه أكيد لمريد السفر، ثم مع ذلك إذا غاب المسافر عن وطنه مدة ثلاث سنين يمنع من العودة إليه و الدخول فيه، كما أن من أحكامهم منع دخول أجنبى إلى أرضهم إلا- برخصة مخصوصة فأذا نالها كان أين ما حل مكرما محروسا، و أما إذا دخل بغير رخصة فلا يأمن على نفسه سيما من الحكم، و قد بقوا على هاته العوائد إلى أواسط هذا القرن، ثم أطلق الإذن لمن يريد السفر فصار يخرج منهم الكثير إلى الهند و جزائره و إلى أمريكا، و الخارجون لهم براعة فى التجارة.

و تكاثر الخارجون لضيق الأرض بهم حتى أنهم فى وطنهم يضطرون إلى السكنى على الألواح فى الشطوط، بل أنهم يجعلون على الألواح بساتين لأن الأرض لا تكفيهم لكثرتهم و إتقانهم لتعميرها بالفلاحة حتى أنهم يعملون من أنواع السرقين ما لا يعلمه غيرهم إلى الآن، و هذه المملكة تنقسم إلى ثمانى عشرة ولاية تسمى كل واحدة منها بلغتهم «سنقا».

و أولها: المحتوية على تخت السلطنة تسمى باكنغ أوبا أوتاشى أوبى، و يبلغ عدد سكانها أربعين مليونا، ثم أن كل ولاية تنقسم إلى أوطان يقال للواحد منها بلغتهم «فو» و كل وطن من هاته ينقسم إلى أجزاء يسمى كل واحد منها «تشيو» ثم كل جزء ينقسم إلى أقسام متعددة صغار تسمى «هيان».

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۸۱

و كانوا يمنعون إقامة نواب الدول الأجانب فى مملكتهم فضلا عن قاعدتها، و حيث كانت دول أوروبا فى هاته القرون الأخيرة لهم مزيد الاعتناء باتساع تجارتهم طلبوا من تلك الدولة الإذن لتجارهم بالإشتغال فى المملكة و الإقامة بها كما يقيمون سفراء لهم عندها، و بعد مشقات شديدة حصلوا على الرخصة فى وفود تجارهم لكن بخصوص مراسى معلومة على البحر، و كذلك السفراء، على شرط أن لا يبيت أحد منهم فى البلد أو فى البر و إنما يبيتون فى سفن حول الشاطىء، ثم فى أواسط هذا القرن أرادت الدول زيادة اتساع

الخلطة و التقدّم فى الإلتحام بأن يكون لتجارهم الدخول إلى دواخل المملكة مع التعهد من الدولة بحمايتهم و أن يكون سفراؤهم يقيمون فى قاعدة المملكة، و حيث كان أهل الصين أشد الناس تحفظا على عوائدهم امتنعوا من ذلك، و جرت من تجاسر الأوروباويين مهاوش قتل فيها منهم كثير ممن وجد فى مراسى المملكة مخالفا لما أذن له فيه، فتعصبت حينئذ دولتا إنكلترا و فرنسا على محاربة الصين و حاربوهم فما كانت بضع أشهر حتى وصلت عساكر أوروبا إلى قاعدة المملكة و عقدوا صلحا على نحو ما طلبوا.

و بهذا يتبين للمطالع حالة أهل المملكة فى الشجاعة و الفنون الحربية، لأنهم مع كثرتهم المفرطة قهرتهم دولة الإنكليز و الفرنسيس بعساكر قليلة لما لا يخفى من كثرة البعد بين أوروبا و الصين سيما و قد كان ذلك قبل فتح خليج السويس الذى سيأتى الكلام عليه فى المقصد إن شاء اللّه تعالى.

فكان طريق الوصول إنما هو رأس الرجاء الصالح، نعم إن لكل من الدولتين مراكز حربية فى الهند لا سيما دولة الإنكليز التى مملكتها فى الهند أعظم من مملكتها فى أوروبا، لكن هبهم بلغوا ما بلغوا فلو كانت دولة الصين على كثرة سكانها لها الإستعداد الحربى مع الرجولية فى السكان لأمكن لهم الفيضان على جميع العالم فضلا عن المدافعة عن نفسها، و كان السبب فى عدم اقتدارهم كثرة استعمال الأفيون الذى هو مصيبة عامة فيهم و تبلغ ببعضهم مبالغ نسأل اللّه تعالى منها اللطف و الحماية، غير أن هاتيك الخلة لا تعم جميع أقسام المملكة، و ذلك أن هاته المملكة الرحيبة تنقسم إلى ثلاثة أقسام كبرى.

الأوّل: منشورية و هو الجهة الشمالية الشرقية من المملكة.

الثانى: المقاطعات الثمانى عشرة، و هو الجهة الشرقية و الوسطى من المملكة، و هو الصين الأصلية و تغلّب عليه أهل القسم الأول ثم تغلبوا على القسم.

الثالث: و هو الأملاك الإضافية مثل المنغول و التبت و غيرها، و صار الجميع مملكة واحدة معروفة بالصين.

فأهالى الصين الأصليون هم الذى تغلب فيهم الصفة المتقدم ذكرها، و أما المنشورية و المنغول و غيرهم فإنهم أقوياء و أشدّاء لا سيما التتر المنغولى. و لهذا كانت السلطنة لغير الصينيين الأصليين، و لما تفطنوا فى السنين الأخيرة لما لحقهم من قهر الأوروباويين لهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۸۲

مثل ما تقدّم من جهة إنكلترا و فرنسا و من جهة أخرى قهر الروسيا لهم من جهة الغرب الشمالى و حمايتها لبعض ممالك التتر المنغول منهم، جدوا الآن فى الإستحضارات الحربية حتى روى بعض الأوروباويين عنهم أنهم أحدثوا ترتيبا فى القوات الحربية يمكنهم من إحضار خمسة ملايين من العساكر تحت السلاح، و شرعوا فى الإستكثار من الآلات الحربية و جلبها من أوروبا على الطراز الجديد، كما فتحوا معامل فى ممالكهم لأجل ذلك، و كذلك القوات البحرية استحضروا منها فى ممالكهم معامل لأجل السفن و المدرعات و التوربيد، و استصنعوا فى أوروبا كثيرا منها فإن تم استحضارهم على نحو ما تقدم يمكن أن يصيروا على حالة الهجوم بقوات مفجعة.

و أما الديانة: فإنهم ليسوا على دين واحد بل على ثلاثة أقسام كبرى:

أوّلها: و أقدمها الدين الذى أسسه حكيمهم المسمى عندهم «بو» و قيل إنه كان أول سلطان فى عائلة «هيا» و ذلك قبل هذا التاريخ بنحو أربعة آلاف سنة، و عقائد هذا القسم و فروع عباداته لهم فيها تآليف يعتبرونها كأنها كتب سماوية، و فى القرن السادس عشر قبل التاريخ المسيحى هذب لهم تلك الديانة حكيمهم المسمى «كنفوتسى» و مضمون هاته العقائد الإقرار بالخالق سبحانه و تعالى و بالحشر، و من أخلاقهم السماحة و لا يغصبون على ديانتهم أحدا و لا يحتقرون ديانة من خالفهم.

القسم الثانى: هو الدين الذى أسسه حكيمهم «لاوتسو» و مضمون عقائدهم القول بالتناسخ ، و عدد أتباع هذا الدين نحو مائة مليون.

القسم الثالث: الدين الذى أسسه حكيمهم المسمى «فواوصاكيا أو بدهة» و يعرف بالمذهب البدهى، و كان أوّل ظهوره أواسط القرن السابع قبل الميلاد، و عندهم من الكتب تآليف عديدة منقسمة إلى مجموعين:

أحدهما: يقال له «عندجور» و هو مائة و ثمانية مجلدات.

و الثانى: يسمى «دندجور» و هو مائتان و أربعون مجلدا و يوجد من كل منهما نسخة تامّة بمكتبة باريس الكبرى. قيل: إن المجموع الثانى اشترته دولة الفرانسيس بأربعين ألف فرنك.

كما أنه يوجد أقسام أخرى من الديانات كالبراهمة و غيرهم من عبدة الأصنام أو النصارى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۸۳

و اليهود، و الديانة الغالبة فيهم هى البوذية، و هى نوع من الوثنيين، كما أن فيهم قسما عظيما من المسلمين يبلغ إلى ما ينيف عن الستين مليونا، فمن هؤلاء نحو أربعين مليونا متفرّقين فى الممالك أصلهم من الأهالى، و من العساكر المسلمين الذين جلبهم ملك الصين فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور حيث ثارت عليه رعاياه، فاستنجد بالخليفة على أن يؤدّى إليه معلوما إذا أنجده، فأرسل له أربعة آلاف من صناديد المسلمين و قهر بهم رعاياه و جازاهم عن ذلك بجواز الإقامة فى مملكته مع جواز التزوّج ببنات الأهالى و مصاهرة الأعيان و إعطائهم ما يحتاجون إليه، فأقاموا على شروط و هى استقلالهم فى إدارتهم الخصوصية و عبادتهم و إشهارها، فأجاز لهم مطلبهم لكن فرقهم على المدن العظيمة فى مملكته، و صار فى كل مدينة مدينة مستقلة بالمسلمين على حسب كثرتهم و قلتهم مستقلين فى أحكامهم الخصوصية مشهرين لشعائر الدين، و لهم قضاة و أئمة بحيث لا يتداخل فيهم الحكم الصينى إلا فى عموم السياسة، و منهم فى مدينة «باكين» قاعدة المملكة نحو عشرين ألفا و لهم جامع ضخم قديم حسن جدّا، و يسمونه بلغتهم «هوى هوى» و مساجد أخرى نحو العشرين منها إثنان لأهل الشيعة حيث حدث فيهم هذا المذهب فى القرون الأخيرة، و أغلبهم أهل سنة عن مذهب أبى حنيفة و كذلك بقية المسلمين فى الصين مثل ما ذكر من القسمين.

و من عادات هؤلاء المسلمين أن ينشروا فى رأس كل سنة تقارير تشتمل على بيان أوقات الصلاة مكتوبا بأعلاها من أركان الإسلام الخمس كلمة الشهادة، و الصلاة، و الزكاة، و الصوم، و لا يذكرون الركن الخامس و هو الحج. قال بعضهم: إن علمائهم أسقطوا ذلك لعدم تحمل مشقة الطريق لبعد مسافة الحج عندهم، و أظن أن علة منع الخروج من ممالكهم هى الباعث على ذلك، و إلا فليست مملكة الصين بأشق فى السفر من أهالى «سمطرا» و أقصى الغرب و دواخل السودان، فجرت على ذلك عادتهم و لو بعد انتفاء المانع و سهولة السفر بحرا فى البواخر.

و من عاداتهم أيضا أن يكتبوا على أبواب الجوامع «خواى خوى ثانغ» أى محل الجماعة الإسلامية، و أن يكتبوا «تسين جسن سواى» معبد الإله الحقيقى، و يسمون علمائهم «لاوجوفو» أى المعلم الأكبر، و أمّا أهل الصين فيسمون جوامع المسلمين «ليطاسو» أى محل العبادة الإسبوعية، و حيث كان الدين الإسلامى لا يجوّز مناكحة المشركين أسلم كثير من نسائهم بل و عائلات النساء و تزوّج بهنّ المسلمون و تناسلوا إلى أن بلغ عددهم نحو الأربعين مليونا فى هذا العصر، و لم يزالوا على الإستقلال الإدارى حتى حكى طرفا منه ابن بطوطة و هم عليه إلى الآن.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۸۴

و من المسلمين أيضا أقسام فى الجهة الغربية و الغربية الشمالية من المملكة، فمنهم المجتمع و المفترق، و تسلطت على ممالكهم دولة الصين و لا- يزالون ينتهزون الفرص للخروج عنها فتارة يتمكنون من ذلك و تارة تعود للإستيلاء عليهم، مثل مملكة «كاشغار» فى الجهة الشمالية الغربية فقد استقلت تحت ملك فى عشرة الثمانين و مائتين و ألف، و هو الأمير يعقوب خان الذى ولد فى جوار «تشقند» و حصّل العلوم فى «سمرقند»، و اشتهر فى أعظم مدارس بخارى مع مهارة فى السياسة أهلته لأن يكون مشيرا مطاعا عند أمير «خوقند»، و أرسله حاميا لمهاجمات الروس على قلعة «اكمتشيت»، ثم توجه إلى «كاشغار» للحرب مع الصينيين و حصل على انتصار عظيم أورث له شهرة وثقة من المسلمين به هناك، و طمع فى تعويض مملكة سلطنة الصين بمملكة إسلامية و كسر لهم جيشا فيه أزيد من مائة ألف مقاتل و استولى على جهات معتبرة حتى ارتعدت منه مملكة الصين فى سنة (۱۲۹۳ ه).

و حيث كان بين عدوين مال إلى مسالمة الروسيا و عقد معها معاهدة تجارية و رام أحكام وحدة الإسلام، فبايع بالخلافة للسلطان

العثمانى و تلقبه الدولـة العثمانية بالأمير أدبا مع الخليفة، و جلب هو من قاعدة الخلافة معلمين للفنون الحربية و الصـناعات الهندسـية و نظم الجيوش فاخترمته المنية قبل رسوخ المملكة و تناحر بنوه و قسـموا المملكة فانتهزت دولة الصين الفرصة و استولت على الجميع و إلى الآن أحوالها مخضرمة.

و هكـذا أنشـأت دولـة إسـلامية فى أواسـط الصـين بميـل إلى الغرب تحت سـلطنة رجل يسـمى السـلطان سـليمان، فى حـدود السـنين المـذكورة، و جعـل قاعـدة مملكته مدينـة «طليفـة» و إنشـاء السـلاح فى ممالكه و طلب التعرف به من الـدول و أنه متسـلطن على نحو الستين مليونا من مسلمين و غيرهم فلم يكن إلا حلما و انتزعت منه السلطنة.

و من عجائب مملكـة الصـين السور العظيم الـذى يبتـدىء من الشـطوط الشـرقية و يمرّ ممتدا بوسط المملكة إلى حيث العرض أربعين درجـة شـمالية و الطول تسـعة و تسـعين شـرقيا، فمجموع طوله نحو ألف و مائتين و خمسـين ميلا، و سـمكه من الأسـفل نحو خمسة و عشـرين قـدما و من أعلى نحو خمسة عشـر قدما، و ارتفاعه ما بين خمسة عشـر إلى عشـرين قدما، و فى أماكن منه حصون يبلغ ارتفاع بعضـها إلى أربعين قـدما، و هو مبنى بالحجـارة و الآجر و القرميـد و بعض أماكن طين فقط، بناه بعض ملوكهم قبل التاريـخ المسـيحى بنحو مائتى سـنة و عشرين سنة قاصدا به ردّ المهاجمات على المملكة الصينية الأصلية من المنغول و القبائل الشمالية و لم يجده نفعا إذ هم الـذين تسـلطوا على المملكـة و السور الآـن خراب فى جهات كثيرة، و قـد غلط من توهمه السـد الـذى بناه «ذو القرنين» لمنع فساد «يـأجوج و مـأجوج» محتجـا على مـا يقول بأن ليس فى الأرض سور ذو عظمـة غير ذلك، ورد قوله ظاهر لأن الصـفات المـذكورة فى القرآن للسد غير الصفات التى عليها ذلك السور، ثم إن صفات يأجوج

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۸۵

و مـأجوج المـذكورة فى النصوص المرويـة غير موجودة فى أولئـك الأـقوام، و دلت النصوص أيضا على أن ذاك السـد يـدكّ قرب الساعـة و تحـدث منهم حوادث لم تظهر إلى الآن، فلا يكون حينئـذ ذلك السور هو السـدّ و لا يخفى أن بعض الأوروباويين الآن لهم دعوى مثل بقيـة البشـر الغير متبصـرين من العجائب بما هو عليه، و ادعاء بلوغ النهاية فى العلوم حتى أنهم أنكروا وجود السدّ لدعواهم أن كرة الأرض صارت الآن معلومـة، و لم يجـدوا فيها السـد، فهاته الـدعوى هى فى الواقع مبالغـة منهم، و إنما يقال إن اكتشافهم الآن للكرة أكثر من اكتشاف الأمم السابقين الذى وصلت إلينا مؤلفاتهم، و إن احتمل إطلاع غيرهم على ما اطلع عليه الآن أو أكثر، لكن لم نجـد لـذلك أثرا و لا يلزم من عـدم وجود الـدليل انعدام المدلول، أما الإحاطة بجميع كرة الأرض و علم جميع ما فيها فهو غير مسـلم لوجوه.

فمنهـا: أن جميع علمـاء الجغرافيـة نصوا فى تـأليفهم أن جهـة القطبين لم يمكن الاكتشـاف عليها إلى الآن و أن المجهول جهـة القطب الجنوبى أكثر من المجهول جهة الشمالى، لأنه أى الجنوبى أشد انحرافا عن وصول الأشعة الشمسية إليه مستقيمة.

و منها: أن الإكتشافات لا زالت تنموا شـيئا فشـيئا فإنه منـذ أربعمائة سـنة لم تكن أمريكا معروفة و كان علماء ذلك العصـر يرون أن ما وراء شـطوط القارات القديمة إنما هو بحر صـرف، حتى أن من ضـمن فى وجود عمران وراء ذلك سخروا منه تارة و اضطهده جهلاء علماء الديانـة تارة أخرى، كما يأتى الكلام عليه فى أحوال أمريكا، ثم تبين بالواقع وجود ذلك العمران الذى يحسب القسم الثانى من أقسـام الأـرض، ثم منـذ ستين سـنة اكتشـفت استراليا التى هى القسم الخامس من القارات، و لا زالت الإكتشافات متتابعـة إلى الآن فى أمريكا و فى غيرها، و منذ أربع سنين فقط اكتشف سواح الإنكليز جزيرة صغيرة جهة الشمال معمورة بخلق صغار الجثث فطس الأنوف كبار الأذان يأكلون نوعا من السـمك و يلبسون جلـده و يوقـدون عظمه، و كـذلك اكتشف منـذ قريب قوم من البشـر على نحو تلك الصـفة فى شـمالى أمريكا الشـمالية ينحتون من جبال الثلج بيوتا و يجعلون للطواقى المنفذة للضوء قطعا من الثلج الصفيق لكى لا تمنع الضوء و تقيهم مرور الأرياح.

و هكـذا لاـ زال الإكتشـاف يتتـابع: وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ [المـدثر: ۳۱]. و من تأمل سـياق الآيـة الكريمـة فى حكايـة حال «ذى

القرنين» إلى بلوغه إلى «يأجوج و مأجوج» ظهر له من السياق أنهم جهة أحد القطبين إذ قال تعالى: فَأَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءَ الْحُسْنى وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً كَذلِكَ وَ قَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۸۶

قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا [الكهف: ۸۵- ۹۸].

فذكر أن ذا القرنين اتخذ أوّلا- طريقا إلى أن بلغ منتهى الأرض من جهة الغرب فوجد الشمس هناك تغرب فى ماء أسود كأنما هو بالحمئة أى الطينة السوداء و هو و اللّه أعلم البحر المحيط الغربى لشدة عمقه يتراءى أنه أسود و سمى عينا نظرا إلى سياق عظمة قدرة الخالق و ما اطلع عليه ذو القرنين الذى البحر المذكور بالنسبة إليه ما هو إلا كالعين إلى آخر الآية ثم ذكر أتباعه لطريق آخر وصل به إلى منتهى مطلع الشمس من الأرض و قص ما وقع هناك أيضا، ثم ذكر أتباعه لطريق آخر، فظاهر السياق أنه لغير المشرق و لغير المغرب فهو حينئذ إلى أحد القطبين و هو الذى ذكر فيه قصة يأجوج و مأجوج، و على ذلك فذو القرنين سافر إلى أقاصى ثلاث جهات من الأرض و اللّه أعلم، أىّ القطبين الذى هو الجهة الثالثة.

و يؤيد هذا الفهم المأخوذ من السياق ما روى من «أن سيدنا الخضر كان وزيرا لذى القرنين و أنه اجتاز معه أرض الظلمة حتى وجد بها عين الحياة» الخ. و أرض الظلمة لا تكون إلا فى أحد القطبين أو ما قاربه لأنه هو الذى يطول مغيب الشمس عنه كما هو معروف عند الحكماء و الفقهاء، و بنى عليه هؤلاء أحكاما فى الصوم و الصلاة مقرّرة فى دواوين الفقه، و ليست هى أرضا غير المعروفة و إنما أتتها الظلمة مما أشرنا إليه، ثم أن قارات الأرض إن كانت إذ ذاك على حالتها الآن ربما تقتضى أن القطب الذى وصل إليه هو الشمالى، هذا إذا كانت هيئة الأرض إذ ذاك هى على نحو ما عليه الآن، أما إذا كانت على شكل آخر فيمكن أن يكون القطب هو الجنوبى أيضا، و إنما قلنا هذا لأن الأرض تتغير أشكالها على طول الزمان بما يحدث فيها من الزلازل العظيمة و انخفاض جهات من اليابسة و ارتفاعات فى جهات من البحر.

و هكذا فإن أمريكا على ما سيأتى كانت متصلة بقارة آسيا من جهة بوغاز برن بل أن جهة من مملكة تونس الشرقية تسمى برج بو الشاطر فى عمل بن زرت كانت قديما مرسى السفن فى دولة القرطاجنيين و الآن صارت محترثات خصبة، و البحر يبعد عنها نحو خمسين ميلا، و كذلك فى الجهة الجنوبية جنوبى الجريد كان فيها بحر يدخل إلى دواخل القارة الأفريقية و الآن صار صحراء و هى المسماة بالصحراء الكبيرة. و سيأتى بقية الكلام عليه فى الكلام على تونس. و كذلك خليج السويس كان بحرا موصلا بين البحر الأبيض و البحر الأحمر ثم سد ثم فتح الآن على ما سيأتى الكلام عليه أيضا فى محله إن شاء اللّه تعالى.

فقد قال المفسرون فى قصة سيدنا موسى و سيدنا الخضر عند قوله تعالى: حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ [الكهف: ۶۰]. «إن المراد بمجمع البحرين هو محل إتصال بحر الروم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۸۷

ببحر فارس» . و هل ذلك إلا من السويس أو من مكان آخر من آسيا اليابسة؟ و هو أيضا يفيد المطلوب، فتقلب حالات الأرض لا تبعد أن يكون سدّ يأجوج و مأجوج جهة القطب الجنوبى الذى هو و ما قاربه أكثر مجهولية من الشمالى، سيما و آثار سلسلة الجزائر

إلى استراليا كالآثار الدالة على الإتصال، و يؤيد أنه فى أحد القطبين الصفات التى ذكرت ليأجوج و مأجوج فى خلقتهم فى الأحاديث الصحيحة كما فى البخارى و غيره من الصحاح، و هى صفات تقرب كثيرا من الصفات التى وجد عليها أهالى الجزيرة التى ذكرناها قريبا جهة الشمال و اكتشفها الإنكليز و شاع أمرها و ذكرها فى صحف الأخبار و رسمت فى خارطات الجغرافيين، و وصول ذى القرنين إلى هاتيك الجهات و ما وراءها ليس بغريب.

أما أولا: فلأن حرارة الأرض إذ ذاك ليست هى التى عليه الآن فجهات القطبين لم تكن على هاته الدرجة من البرودة، و لذلك أدلة مسلمة فى كتب الجغرافية الطبيعية خلاصتها على مذهب المتأخرين الذى لا يخالف الشرع، أن هاته الأرض كانت كوكبا نائرا ناريا ثم انطفت طبقتها العليا، و لا تزال تثخن تلك الطبقة، و على قدر ثخنها تبرد و تنحصر الحرارة فى جوف الأرض و مركزها، و مهما وصلت الطبقة إلى درجة من الإعتدال الصالح لخلق من مخلوقات اللّه يخلقه اللّه فيها. و هكذا على التدريج إلى أن تم ما أوجده اللّه فيها و اضمحل منها من أنواع الحيوان ما لم تبق صالحة له كنوع يشبه الفيل و هو أضخم منه و أنيابه مرتفعة إلى فوق، فإنه الآن انعدم مما هو معروف من الأرض و اكتشف على عظامه فى طبقات سفلى من الأرض بالحفر جهة سيبيريا، و يشهد بصحة هذا القول الأحاديث الواردة فى التكوين و أن آدم عليه السلام، خلق بعد الأرض بمدّة طويلة و أن الخيل خلقت قبل آدم عليه السلام بكثير، إلى غير ذلك من الصفات الواردة عن الشارع فى كيفية التكوين، و قد وجد فى سيبريا من عظام الحيوانات التى لا تعيش إلا فى الأرض الحارة كالفيل و غيره بكثرة، مما يدل على أنه ليس بمجلوب و إنما هو حيوان أصلى.

هناك ما يقضى بأن تلك الجهة كانت حارة ليست على ما هى عليه الآن من شدّة البرد، فيحتمل أن زمن ذى القرنين كانت الحرارة معتدلة هناك حتى يمكن الوصول إلى تلك الجهة بلا مشقة، و لا يقال إن التاريخ من زمن ذى القرنين إلى الآن لا يقتضى هذا التغير الكثير، لأنا نقول: إن ذا القرنين هذا هو عربى كثر ذكره فى أشعار العرب و اسمه الصعب ملك من ملوك العرب العرباء معاصر لإبراهيم عليه السلام أو بقرب منه هذا هو الصحيح، و إن غلط الرازى و غيره فى توهمه أنه اسكندر المقدونى و مقدار زمنه لا يمكن الوقوف على تحقيقه، و ذلك أن ذا القرنين كان قبل موسى عليه السلام بكثير حسبما تقدّم فى كون الخضر عليه السلام وزيره و هو الذى عاش و تعلم منه موسى عليه السلام، و جميع التواريخ القديمة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۸۸

يعتمد فيها المؤرّخون على التوراة و هى قد وقع فيها التحريف قطعا فى كثير من الآيات لا سيما ما يتعلق بالتاريخ تحريفا فاحشا، و لا يلتفت لغلط ابن خلدون فى دعواه عدم التحريف بعد إثباته بالعيان، و فيما أثبته الشيخ رحمة اللّه قدّس سرّه فى كتاب إظهار الحق من الإختلاف الكثير فى التاريخ بين نسخ التوراة القاضى بعضها باجتماع نوح و إبراهيم و بعضها بالبعد الكثير بينهما، و حرره مؤرخوهم أنه سنة (۳۵۲) مع أن العبرانية تقضى باجتماعهما لأن نوحا مات بعد ولادة إبراهيم ب ۵۸ سنة، و السامرية تقتضى أن إبراهيم ولد بعد موت نوح ب ۵۹۲ سنة، و اليونانية تقتضى أنه بعده ب ۷۳۲ سنة و الأولى يخالفها الإجماع و الأخر بينهما التناقض التام، و غاية المحقق أن إبراهيم لم يجتمع بنوح فى عصر عليهما السلام، و الإختلافات على هذا النمط و عدم التحرير فى التواريخ كثير جدّا فلا اعتماد حينئذ على ما هو موجود من التوراة، نعم أن متأخرى المؤرخين قد اعتنوا بهذا الفن و حرروه باستدلالات من الآثار القديمة و الإطلاع على لغات قديمة لكن لم نطلع إلى الآن على أدلة وجدوها تثبت مدة زمن ذى القرنين على فرض تعينه و كم عدد السنين بيننا و بينه.

و أما ثانيا: فلا يبعد أن يكون لذى القرنين إذ ذاك من آلات حمل الأثقال و تيسير السفر ما لا يعلم الآن، و يداعمه قوله تعالى فى حقه: إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً [الكهف: ۸۴] مما يقتضى اتساع اقتداره و تهيىء الأسباب لمقاصده، كعلم جر الأثقال مثلا الذى شوهدت الآن آثاره مما لم يقدر عليه متأخروا هذا العصر، و كذلك النحت للقطع الهائلة التى لم تعلم كيفية قطعها و نقلها، سيما و قد وجد فى مصر من صورة السلك الكهربائى و الرتل ما يقتضى علمه سابقا، مع صور آلات أخرى غير معلومة كما سيأتى الكلام عليه فى أحوال مصر.

فيمكن أن تكون حالة الأرض على هيئتها هاته و لذى القرنين و علمائه و جنوده من المعارف و الآلات ما تيسر لهم به الوصول إلى الأماكن الصعبة مما لم نعلمه الآن، و أما قول بعض المؤرّخين: «إن الواثق من بنى العباس أرسل معتمدين إلى السدّ و قاسوا بابه و قفله إلى غير ذلك من الصفات التى ذكرت له». فإنا لم نكن على ثقة منه و لم نعتمد عليه، سيما و لم يعين أولئك المؤرخون مكانه و إنما يقتضى كلامهم أنه فى الجهة الشمالية الشرقية من آسيا، فلا يبعد أن يكون ما وصلوا إليه هو سور الصين، و إذا فرضنا أنه هو المراد بالسد فى النصوص الواردة، يلزم حمل الصفات المذكورة فيها على بقاع من ذلك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۸۹

السور ككونه من زبر الحديد و مفرغ عليه النحاس و الصدفان.

حينئذ طرفان من ذلك السور كما تأوّل صفات يأجوج و مأجوج، إلى ما يصح إطلاقها به على التتر و المنشورية، و يكون وعد اللّه الذى يدك فيه السدّ هو قرب الساعة و لا شك أن الساعة قربت، كما أعلم به رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى قوله: «بعثت أنا و الساعة كهاتين و أشار بالسبابة و الوسطى كناية عن مزيد القرب» و كما قال تعالى: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ [القمر: ۱]. فما بقى من الدنيا بالنسبة إلى ما مضى شىء قليل جدّا، و الطبيعيون أنفسهم مقرون بذلك لما يستدلون به من كيفية تكوين الأرض و ارتباطها بالأجرام العلوية.

و حينئذ يكون الفساد الموعود به فى النصوص من أولئك القوم، هو ما وقع من التتر المنغولى من الفساد فى الممالك و كفى بوقائع جنكس خان و ما عثاه هو و أصحابه فى الدنيا مصداقا لذلك، فإن من له إلمام بتاريخه يرى فيه العجب العجاب و هى مصيبة عظمى لم تحدث على المسلمين مثلها، و إنما تطاول الزمان و عدم علم الجمهور بها هو الذى لم يصير لها اعتبارا الآن، و كل هذا الأخير مستبعد و إنما يلزم المآل إليه إذا فرضنا الإحاطة حقيقة بجميع أطراف الأرض، و الحاصل أنه مهما وجدنا نصا عن الصادق يلزم التسليم إليه و التصديق به فإن وجدنا ما يخالف فهمه فى الوجود وجب فهمه على مقتضى الوجود، إذ يستحيل مخالفة خبره للواقع، و قد نص على هذا العلماء الراسخون، و منهم سعد الدين التفتازانى فى «التلويح». ثم إن لمملكة الصين من الأنهر العظيمة الحاملة للسفن الشراعية و البخارية ما أغناهم عن تكثير الطرق الصناعية فى الأرض.

و أما الجهات التى لا تصل إليها الأنهر: فإنهم يصنعون فيها ترعا متصلة بالأنهر ميسرة للسير و حمل الأثقال، حتى أن منها ترعة هى من عجائب الدنيا طولها نحو ستمائة و خمسين ميلا، و صنعت فى عدة أجيال من الجيل السابع من تاريخ المسيح أى القرن الثانى الهجرى إلى القرن الثامن من الهجرة، و لم تحدث فيها الطرق الحديدية إلى الآن.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۹۰

و أما المعادن: فعندهم أغلب المعادن المعروفة، و لكنهم لقلة مهارتهم فى استخراجها و تصفيتها يحتاجون إلى جلبها من خارج.

و هكذا نباتات هاته المملكة فيها أغلب نبات المعمور لاتساعها و اختلاف أقاليمها، و كذلك الحيوانات و الهواء، و قاعدة المملكة هى مدينة باكين التى هى من أعظم مدن العالم، سكانها أزيد من ثلاثة ملايين و لها سور يحيط بها، و أغلب أبنيتهم طبقة واحدة مقسمة إلى عدة أقسام إلا قصور الملوك ففيها طبقات، و الأهالى يتزوّجون امرأة واحدة شرعية و يتخذون غيرها كالسرارى على أنهنّ خذيمات لها، و لهم شارات فى التفاخر و الدلالة على البيتوتية و الغنا منها أن الأغنياء و الأكابر يخلدون إلى الراحة حتى لا يكادون يتحرّكون و تغلب هاته الصفة فى نسائهم، فكان من عجائب عاداتهم فيهنّ أن بنت الأعيان إذا ولدت يجعلون لها حذاء من حديد أو ما أشبهه من الأشياء الصلبة، و يلبسونه لها فى سن المهد و تترك كذلك إلى انتهاء شبابها فتكون أقدامها صغيرة جدّا بحيث لا تستطيع المشى، و كذلك كفوف يديها حتى لا تقدر أن تشتغل و لا ترفع شيئا، من الإعتناء بتسمينها فتصير ذاتها ضخمة و كفها و قدماها فى غاية الصغر، دلالة على أنها لا تحتاج لعمل شىء بنفسها و كل الضروريات و غيرها تفعلها لها الخوادم، فيصنعون مساطب لحملها على الأعناق عندما تريد المشى لأى جهة كانت و هكذا جميع الحركات، و يستكثرون من الخدم على قدر البسطة فى المال و الجاه و عادة

الحمل على الأعناق عامة حتى فى الرجال الكبراء و الأغنياء، و هاته الخلة جارية أيضا فى أهالى الهند.

و أما حكم هاته المملكة المتسعة: فهو يرجع إلى عامل واحد ذى حكم استبدادى مطلق و له وزراء يديرون و يجرون أمر المملكة على إرادته، ثم فى الجهات أمراء مستبدون فى التصرف فى إماراتهم تحت أوامر السلطان العام الذى يقلد و يعزل منهم حسب إرادته، و مع ذلك الإستبداد فإنهم لتحفظهم على العوائد القديمة تجد كأن أحكامهم قانونية لإجرائهم الحوادث شبه بعضها، و لا يتجاسرون على خرق العادات القديمة فى جميع تصرفاتهم إلا فى أمر أكيد عظيم و قلما يقع، و لهم اعتقادات فى ملكهم ربما أدّتهم إلى اعتقاد ألوهيته، و لهم أيضا دواوين يضبطون بها إدارات التصرف و الأموال و أرزاق العساكر، فمن نظر إلى مجموع تصرفات المملكة يجدها مشابهة أعظم مشابهة إلى الدول القانونية، و كان ذلك هو سبب قدم هذه الدولة و عدم تلاشيها، إلا أن السلطان عندهم و إن كان له أن يفعل ما يشاء، إلا أنه لا يفعل شيئا إلا بمشاورة رجال دولته و أرباب مجالسه فى جميع الأمور، و كل من أمرائه لا يتصرف إلا بمشاورة رجال مجالسهم، و لا يتوظف أحد فى خطة أيا كانت إلا أن يكون من أصحاب العلوم و المعارف الذين هم وجهاء الأمّة، كما يشترط فى كل موظف أن يكون متأهلا و جديرا بالخطة التى يتقلدها، و من عاداتهم الشبيهة بالقانونية أن المتوظف إذا ظلم أحد الرعايا و لو فى أقل الأشياء يعاقب أشد العقاب، بل إنهم مطلوبون كل على حسب خطته بما يطرأ على الأهالى من المصائب السماوية التى يكون فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۹۱

وسع البشر تداركها كفيضان الأنهر و سقوط الجدران و ما شاكل ذلك، و يعاقبون عليه بالعزل و لهم صحيفة رسمية قديمة قبل أن تعرف الصحف فى أوروبا بقرون، و لها نحو ستين صحيفة تنشرها يوميا و لا تحتوى إلا على الحوادث الخاصة بدولتهم و تصرفاتها، و حيث كانت الكتابة عندهم صعبة جدّا لأنها فيها علامات عوضا عن الحروف، منها أصلية و منها فرعية تدل على الكلمات فكانت نحو ألفين و خمسمائة علامة و هى المستعملة الآن.

أما العلامات القديمة التى لم يبق استعمالها إلا نادرا فهى نحو أربعة و أربعين ألفا و أربعمائة و تسعة و أربعين شكلا، فلذلك كانت معرفة الكتابة عندهم قليلة جدا. و قد تعارفوا صناعة الطبع قبل معرفتها فى أوروبا بكثير، و هى على غير الصورة المعروفة الآن، فإنهم كانوا ينقشون الكتابة فى ألواح بحيث تكون على عدد صفحات الكتاب الذى يريدون طبعه، و إن شئت قلت ينسخون الكتاب أو الكتابة بالنقش فى ألواح و يطبعون بها ما شاؤوا ثم يدخرونها إلى وقت الحاجة فيعيدون الطبع متى أرادوا.

و أما الغناء فى المملكة فهو كثير لكثرة موارد الثروة و كثرة السكان، و مع ذلك هو بالنسبة لغنى الممالك المتمدنة ذات الصنائع المخترعة قليل نظرا لعظم المملكة و ما فيها، و قد تقدّم ما فى عزم دولتها و ما شرعت فيه من القوّة الحربية.

و أما القوّة المالية فهى غير معروفة لاختلاف أنواع الأداء و تفرّقه على أنواع المتوظفين كل منهم له كيفية فى الإستخلاص على وظيفته من الأهالى.

الفصل الثانى عشر المملكة الثانية عشر مملكة الروسيا فى آسيا

هاته المملكة تبتدىء من الشمال الأقصى من القارة ثم تنعطف مع حدود الصين الغربية و تصل إلى مملكة إيران من شماليها و إلى المملكة العثمانية من شرقيها، فهى متسعة جدّا و لا تزال تتوسع فى الممالك الصغيرة بأواسط آسيا حيث تفرّقوا شيعا فصارت تتغلب عليهم بتسليط بعضهم على بعض و انتصارها لبعضهم حتى تبتلعهم شيئا فشيئا بحيث لم يبق منهم إلا القليل كما سيأتى الكلام عليه بعد، و حكمها فى هاته المملكة سيبين فى الكلام على هاته الدولة فى ممالك أوروبا و كذلك بقية التصرفات السياسية.

و إنما نقول هنا أن فيها قسما يسمى سيبيريا هو شمالى الصين فى نهاية شدة البرد، و هو قليل السكان و الحيوانات إلا بعض الحيوانات

المتجلدة على البرد كالدب الأبيض و الذئب الكبير، و قد اطلع علماء الطبيعة على أن تلك الجهة كانت عامرة بأنواع من الحيوانات التى تألف الجهات الحارة كالفيل و بعض أنواع من الحيوانات فقدت الآن، مثل حيوان أكبر من الفيل و يشبهه فى الخلقة و له شعر صلب مستطيل يمتدّ من مبتدأ رأسه إلى مغرس ذيله يكون مرتفعا مفرزا عن بقية شعر بدنه، و له أنياب طوال متجاوزة لشفتيه مثل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۹۲

أنياب الفيل غير أنها مرتفعة إلى فوق، و اطلعوا على وجود هاته الأنواع هناك بكثرة عظامها فى طبقات سفلى من الأرض، تدل على أن تلك الجهة كانت حارة كما تقدم، و هى الآن من شدة بردها اتخذتها الروسيا منفى لأصحاب الجرائم الشديدة، فما يصلون إليها إلا بعد فقدان أكثرهم فى الطريق و من وصل منهم لا يبقى سالما و تحدث لهم و للسكان الأصليين أمراض فى الأعين من شدّة الضوء المنبعث من سطوع الأشعة الشمسية فى بياض الثلج المتكاثر الدائم.

و يوجد فى هاته المملكة أعنى بقية مملكة الروسيا فى آسيا أنواع شتى من الفراء العالى. و فيها أنواع النبات المختلف الذى يوجد فى أغلب الأقطار الباردة و المعتدلة، و تجارتها متصلة مع جميع الأقطار لكنها ليست بمتسعة لصعوبة النقل حيث لم تتم الطرق الكافية الموصلة لشواسع هاته المملكة المتسعة، و لأجل انحطاط درجة المعارف و الصنائع التى يمكن بها مناكبة الأوروباويين فى هذا العصر، و لا يخفى أن مملكة متسعة مثل هاته تشمل أصنافا من البشر، لا بد أن يكون أهلها مختلفى الطبائع و العادات، فالمسلمون كالجركس و الكرج هم أهل شجاعة و تجلد و صبر على اقتحام المشاق، مع تعصب لبعضهم و غيرهم من المسلمين، و غيرهم كأهل خيوا و القريم و الداغستان هم أيضا فيهم تلك الصفات، غير أنها أقل من سابقهيم و دونهم أيضا فى التعصب و قد استولت الروسيا على هاته الممالك تدريجيا، فمنذ نحو ثلاثمائة سنة و هى تمتدّ فيهم شيئا فشيئا، و مع كون الروسيا استبدادية فالمسلمون الذين طال استيلاؤها عليهم و تناسوا العداوة، تعاملهم الآن بالرفق و حرية الديانة بحيث يكون الأذان و الصلوات فى المساجد و عقد الأنكحة كلها قائمة، و كذلك تعلم العلوم الدينية، و لسانهم هو أيضا مباح و لا يتعرّض لهم بشىء، و تجرى عليهم بقية الأحكام الشخصية و السياسية مثل بقية الروسيين حتى فى اتخاذ العساكر منهم، لكن أكثر العساكر منهم هم على غير نظام، مما يسمى قزاق نوع من الخيالة الغير النظامية، و أما المسلمون الذين تسلطت عليهم من قريب فتجرى فيهم أنواع القهر و الغلظة من الحكم العسكرى البحت ما تنفر منه الطباع، و ذلك للتحرّس من ثورتهم و تربية الجيل الناشىء على المذلة و الخضوع إلى حكمها، و للّه الأمر من قبل و من بعد.

الفصل الثالث عشر المملكة الثالثة عشر مملكة هرات

هاته المملكة موقعها شرقى إيران و غربى بعض الصين و الهند و جنوب الروسيا و شمال أفغانستان، و كانت تابعة لإيران ثم استقلت عند استقلال الأفغانستان و أهلها مسلمون سنيون و الظن أنها لا تلبث أن تلتهمها بعض الدول المجاورة لها لصغرها بالنسبة إليهم، و الأقرب رجوعها لإيران بإعانة الإنكليز فى هاته المدة لإتمام مأربه هو فى الأفغان، حيث أنهم موافقون لهم فى المذهب و يمدونهم بالإعانة على حرب الإنكليز، فلذلك أغرى إيران

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۹۳

بالحرب لهم و الاستيلاء عليهم، بيد أن سياسة الروسيا عطلت ذلك.

و عدد الأهالى مجهول الحقيقة و على التخمين أنهم نحو مليونين تحت ملك مسلم استبدادى مطلق من ذرّية أحمد شاه، الذى أنشأ فى أفغانستان و ما والاها مملكة ذات شأن و الأحكام الشخصية شرعية و لهم أيضا فيها حكام سياسية لكن النفوذ قليل، لأن أغلب السكان قبائل رحالة فيهم حرية البداوة هم من أصل التركمان، و كانت فى المملكة مدن عظيمة فى أودية بين الجبال التى على جنوبى صحراء خوارزم هدمت كلها بتخريب جنكس خان التترى، و قاعدة المملكة مدينة هرات و هى مدينة عظيمة تسقى بنهر يتشعب فى

شوارعها و دورها، و لها تجارة حسنة فى نتائج أراضيها المخصبة مع الممالك المجاورة، و فيها من النباتات كل نبات الأراضى المعتدلة لاعتدال هوائها و سلامته، و كانت مناخا للعلوم و منبتا للعلماء الأفاضل حتى قال ياقوت فى المشترك: «إن علماءها لا يحصى كثرتهم إلا- اللّه» و هى الآن دون ذلك و إنما فيها من العلماء حسب الحال، و لأهلها من الصنائع الجيدة السيوف و آلات القطع، لأن تيمور لنك نقل إليها ماهرى هاته الصناعة من دمشق فبقيت فيهم إلى الآن و لهم مهارة فى صناعة البسط و الأقمشة الحريرية، و يقال فى قوّتها الحربية و المالية ما قيل فى أفغانستان على نسبة عدد سكانها.

الفصل الرابع عشر المملكة الرابعة عشر هى إمارات التتر المستقلين

هاته الإمارات موقعها غربى الصين و شرقى و جنوبى بعض الروسيا و شمالى و شرقى هرات و بعض إيران، و جميع السكان مسلمون سنيون و حقيقة عددهم مجهول و إنما يقال على التقريب أنهم نحو سبعة أو ثمانية ملايين، و قد كانت الممالك منقسمة إلى خمسة أقسام، كل قسم مستقل تحت حاكم يلقب بالخان و هى: «خيوه، و بخارى، و تشقند، و خوقند، و قبائل التركمان الرحالة المعروفة بتيكى.

و أما الآن فإن «خيوا» دخلت فى حوزة الروسيا و صارت جزءا من ممالكها و إن أبقيت لها بعض امتيازات ظاهرية كإبقاء خانها و لقبه، غير أنها فى الواقع هى من مستملكاتها الداخلة فى حكمها و تحت أمرها.

و أما بخارى: فهى أيضا مثل خيوا غير أن امتيازاتها أكثر منها، و على كل حال فكلاهما يصح أن يقال أنهما مستقلتان بالإدارة الداخلية تحت الأمر الروسى، و يؤدّيان له الخراج السنوى، و لهما عساكر بقدر ما تسمح لهما به الروسيا للتحفظ على الراحة فى المملكة أو لإعانة الروسيا فيما تأمرهما به.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۹۴

و أما تشقند: فقد صارت ولاية روسية تحت حكم جنرال روسى، فهى حينئذ مشمولة بالكلام الذى سبق فى أحوال مملكة الروسيا.

و أما خوقند: فلا زالت مستقلة تحت إمارة خانها، و حكمها إستبدادى و عدد سكانها نحو مليونين.

و أما قبائل التركمان: فقاعدة مملكتهم هى «مرو». و موقعها جهة الشرق الجنوبى من بحر قزبين المستملكة جميع شطوطه الروسيا، و عدد السكان نحو مليونين و نصف لكنهم ليسوا خاضعين حقيقة للخان و إنما هم قبائل لكل منها رئيس، و كأنها مع أختها لا تلبثان أن تلحقا أخواتيهما إذ الحرب الآن قائمة على ساق بين الروسيا و قبيلة تيكى، و قد كسروا الروسيا فى هذا العام و هو سنة (۱۲۹۷ ه) مرّتين إنكسارا هائلا- و لا- زالت تستعد لحربهم، و إخوانهم ممن استولت الروسيا عليهم و غيرهم ينظرون إليهم كما كانوا هم ينظرون إلى حربهم معها، إلى أن ينفذ حكم اللّه الذى لا معقب لحكمه و تكون له الحجة البالغة سبحانه و تعالى، حيث تفرّق المسلمون شيعا للأغراض و الأهواء النفسانية، و لم يجروا الشرع فى الأحكام الكلية و الجزئية و أخلدوا إلى الجهل و التنعمات الزائلة، حتى تمكن العدوّ منهم و صارت بلدان الإسلام و مناخ العلوم لعبة بأيدى الأعداء و أصحاب الأهواء- و لا حول و لا قوّة إلا باللّه العلى العظيم- فوا أسفاه على بخارى و سمرقند و غيرهما من مدارس الدنيا فى الفنون و العلوم الدينية و الرياضية، و واها على تلك الدقائق و الاستنباطات و الإختراعات لتأسيس العلوم و تهذيبها و إتقانها، و رحم اللّه أولئك الرجال الذين عمروا الأرض و حموا الدين و لم تزل الأمم تستنفع بمعارفهم إلى الآن، و لم يعملوا بها بل و لم يتعلموها حق علمها حتى كادت أن تصير فى خبر كان، و اللّه يرث الأرض و من عليها و هو خير الوارثين.

الفصل الخامس عشر المملكة الخامسة عشر هى ممالك الأئمة فى جزيرة العرب

هاته الممالك يحيط بها البحر من جهتين: فمن الشرق خليج فارس، و من الجنوب المحيط الشرقى، و يحدّها غربا الحجاز و اليمن من توابع الممالك العثمانية و عدن التابعة للإنكليز، و من الشمال العراق العربى للدولة العثمانية. و هاته الممالك هى المعروفة سابقا بنجد، و تهامة، و اليمامة، و أخلاقهم هى أخلاق العرب فى هذا العصر من التجرّد عن أغلب الصفات التى كانت للعرب السابقين، و أما الديانة فى الجميع فهى الإسلام، و أما المعارف و العلوم فكاد أن لا يعرف عندهم منها إسم و لا مسمى إلا قليلا منهم فى قليل من علوم الدين، و الحاصل أنهم أمم يقرّ بهم الجغرافيون بستة ملايين من النفوس على البداوة، و أغلبهم رحالة ينقسمون فى الأحكام إلى شيع كثيرة يلقب كل رئيس منهم بالإمام، كإمام مسقط، و إمام رياض بنجد من الوهابيين، أعنى أتباع عبد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۹۵

الوهاب الذين ظهروا فى أوائل القرن الثالث عشر، ناشرين دعوة شيخهم محمد بن عبد الوهاب حيث كان مدعيا بحفظ السنة و إبطال البدعة فتجاوز الحدود حتى منع المباح، و قويت شوكته و كثرت أتباعه حتى تسلط على الحرمين الشريفين و قطعة من العراق إلى كربلا- و مسجد على، و خرّبه و هدم البناآت على القبور و أزال الكتابات التى عليها، و أراد أن يحمل الناس على الاتباع حتى فى العادات و الأحوال الدنيوية و إن اختلف الأعصار و لم يتقيد بمذهب خاص بل أنه يدعى العمل بالحديث على مقتضى ما يفهمه، و سيأتى ما يتعلق بهاته المسألة فى فصل من المقصد عند الكلام على رجوعى من السفر الأول إلى باريس، و ملخص الكلام أن هاته الفرقة تجاوزت المقصد الصحيح فى الدين الذى ينبغى التيقظ إليه و إن كانت تدّعيه، كما أن بعض الرادين عليها تجاوزوا حدّ ما ينبغى و خرجوا أعمالها كلها عن حدود الشرع، بل كادوا أن ينسبوها للكفر و قد ألفت تآليف كثيرة فى الردّ على مذهبهم من علماء مصر و تونس و غيرهم .

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۹۶

لما استفحل أمر هاته القبيلة و استولت على الحرمين الشريفين و نشرت دعواها فى تأليف خاص، و بقيت على ذلك إلى أن تجرّد لها إبراهيم باشا من أمراء مصر و قهرها، و أسر رئيسها سعود بن عبد العزيز العنزى من ربيعة الفرس، حيث كان هذا من أعظم أنصار الوهابى و القائمين ببيعته و انتشار مذهبه إلى أن مات فى ضراعية و تلاشت من ذلك الوقت تلك الدعوة و الدولة، و لم يبق لها اعتبار إلا فى نجد و أمامها الآن أحد نسل سعود المذكور، و هو فى التصرف أشبه بشيخ قبيلة بعيد عن الملك و انتظامه و شارته، و هكذا سائر الأئمة المتقاسمين بتلك الجهات، و الأحق أن لا يعتبروا مملكة مستقلة و إنما يعتبرون كأنهم قبائل فى أطراف الممالك العثمانية غير خاضعين إليها، و لو أنها أحسنت التصرف بالدين و السياسة، فإنها بإرادة اللّه تضمهم إلى ممالكها و تنظم أمرهم على أحسن ترتيب فينصلح حالهم و تتقوى بهم الدولة الإسلامية، لأن فى أراضيهم أودية فسيحة خصبة و جبالا غنية بالأشجار و المعادن، لا سيما فى نجد، مع كرامة خيلها فى الدنيا و الرغبة فيها من جميع أهل العالم العارفين بالخيل، و كذلك عندهم من الحيوانات الأنسية و الوحشية ما هو مورد للثروة.

فكما امتدّت الدولة العلية بالولاية على اليمن شيئا فشيئا إلى العهد القريب، كذلك إن شاء اللّه تجمع كلمة الإسلام هناك على خليفة واحد، و كان سبب بقائهم إلى الآن لم تستول عليهم إحدى الدول هو اتساع أراضيهم و كون أغلبها صحارى و قفارا، و أكثرهم قوم رحّل فلا- يضبطون بسهولة لأنهم يلتجؤون إلى الدواخل، و الدولة العلية يسهل عليها ذلك لاتحاد الدين، و الإستيلاء على أغلب حدودهم فلا- يصعب عليها المدد و الإستعانة ممن جاورهم، و بالعلماء فى هدايتهم حتى تجرى فيهم التراتيب الشرعية و تنتفع بهم الأمّة كما ينتفعون هم بالعدل و التمدن و المعارف، و لا شك أن لاتحادهم اعتبارا عظيما عندما يتقدّمون، لا سيما و أصل الغريزة العربية سليمة و للّه الحمد، أصفى قابلية للتقدّم من غيرها، و شاهده ما حصل من العرب بعد غرس الحكمة فيهم بالدين الإسلامى و أهم هؤلاء القبائل و أئمتها الآن هى قبيلة مسقط و لها إمام و قد أدخل تحته طوعا قبيلته ظفار فى هاته السنة و هى سنة ۱۲۹۷ ه، و له

نوع احتماء بالإنكليز كما سيأتى فى الكلام على زنجبار من أفريقية.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۹۷

الفصل السادس عشر المملكة السادسة عشر

هى مملكة نيبول و موقعها بين جبال همىلاى الوسطى و تراى، و بين سكين من شرقيها و كيماوون من غربيها، فهى واقعة بين الصين و الهند الإنكليزى، فلها الصين من الشمال و الشرق الشمالى، و الهند من الجنوب و الغرب و الشرق، و عدد سكانها نحو مليونين و نصف، و عوائدهم مثل أو قريب من الهمج من الدول الشرقية مع شجاعة و كذلك أحوال ديانتهم.

الفصل السابع عشر المملكة السابعة عشر

هى مملكة بوتان أو بهتان، و هى أرض بين جبال همىلاى و أسام، و هى شرقى المملكة السابقة و تفصل بينهما قطعة من ممالك الهند الإنكليزى، فيحدّها جنوبا الهند الإنكليزى و كذلك شرقا و غربا، و يحدها الصين شمالا، و سكانها نحو مليون من النفوس و ديانتهم وثنية، و لهم ملكان أحدهما: دينى و يعتقدون حلول الإله المسمى عندهم «بودا» فيه، و يلقبون هذا الملك «دورمه رجا» و الثانى: هو الملك السياسى و بيده القوة الحربية و الحكمية، و يلقبونه «دب رجا»، و يتصرف فى العسكرية بواسطة أميرين. أحدهما: فى مشرق المملكة. و الثانى:

فى مغربها، و هم فى الحقيقة همج، إذ القبائل غير خاضعين للحكام.

الفصل الثامن عشر المملكة الثامنة عشر

هى مملكة كشمير الشهيرة بما لها من المنسوجات الرفيعة، و تختها مدينة كشمير و قد صارت دولة مستقلة من سنة (۱۲۶۳ ه- ۱۸۴۶ م)، غير أنها تؤدى خراجا سنويا إلى الإنكليز، و موقعها فى الشمال الغربى من ممالك الهند الإنكليزية، فيحدها جنوبا ما ذكر، و شرقا الصين، و شمالا التتر المستقلين، و غربا أفغانستان، و أهلها نحو سبعمائة ألف لكنها زادت اتساعا بما استولت عليه من قبائل الجبال التى فوق التتر، و أهاليها مسلمون و لها ملك بإدارة استبدادية شبه القانونية، و عليه نظر الحاكم العام الإنكليزى فى الهند، لكن لكثرة امتيازاته ذكرناه مستقلا، و كذلك يرسم فى الخرايط.

الفصل التاسع عشر المملكة التاسعة عشر مملكة الجابون

هاته المملكة هى أوّل ممالك الجزر التابعة لآسيا و هى متكونة من عدة جزر شرقى مملكة الصين، و كانت فى القديم تابعة للصين، و أهلها مثل أهل الصين فى الشكل و العادات و الحذق بالصنائع، و عددهم نحو ثلاثة و ثلاثين مليونا و ثلاثمائة ألف و ستمائة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۹۸

و خمسة و سبعين نفسا، ثم استقلوا فى أحكامهم و ملكهم.

و فى أواخر هذا القرن أعنى منذ نحو عشرين سنة استولى ملكهم رجل عاقل من عائلة الملك، و شمر عن ساعد الجد فى إحداث

عصر جديد للمملكة حتى خرجت عن أن تشبه الممالك الشرقية، و صارت كأنها دولة و مملكة أوروباوية غربية من أعظم الممالك ذات السطوة و الشأن و التمدن و التقدم و المعارف و الصنائع، و ذلك أنه تولى ملكهم المسمى «الميكادو» و كان حدث السن ذا أخلاق حسنة و تربية صالحة، و كان معجبا بأحوال الأوروباويين القادمين إلى دولته للسياحة و التجارة، و كان سمع من أحوال أوروبا و تقدمها ما هو معروف و رأى من تقهقر مملكته و ما جاورها ما أوجب له العزم على تغيير حالتها، و لكنه خشى من تمسك قومه بالعادات القديمة التى يحافظون عليها كأهالى الصين، لكنه استعان بالخلة المخصوصة بها أمّته و هو إعجابهم بالحوادث الجديدة، فابتدأ بتغيير زى المتوظفين و رؤوساء الدولة و جعله على النحو الأوروباوى، و بقى هو فى ذاته على الزى القديم مختبرا لأفكار القوم بذلك، فلم ير منهم إلا الإسراع و الإستحسان لما أمر به فلم يلبث أن غير زيه فى نفسه.

و أرسل سفراء إلى أوروبا لاستقراء ما فيها من أصول المنافع و الصنائع و آلات الحرب و حركاته، و جلب المبادىء المحتاج إليها فى مملكته من علماء و آلات و غير ذلك. ثم ألزم أمّته بإعطاء الحرية العمومية حيث كانوا تحت حكم الأشراف، بمعنى أن كل عائلة شريفة تملك قسما من الأراضى بمن فيها من الناس يكونون تحت عبوديتهم و امتثال أوامرهم، فأبطل هاته العادات و انتخب من قوانين ممالك أوروبا ما صلح فى نظره و صلحه على مقتضيات عادات بلاده و أمر بالعمل به.

كما ألزم العمل بالطريقة العسكرية فى حركات الحرب المعمول بها فى أوروبا، و ألزم كل ذكر يبلغ سن العشرين بالإنتظام فى سلك العسكرية للدفاع عن الوطن على قانون معروف، و فتح المكاتب و المدارس فى العلوم الرياضية و غيرها، و كثر منها التكثير اللازم.

و ألزم الأهالى بعقد الشركات للبريد و أنواع التجارة و الفلاحة، و فتح الطرق الحديدية و استخراج المعادن، و زيادة عما جلبه من السلاح الأوروباوى من الطراز الجديد، أحدث معامل فى مملكته و أنشأ السفن حتى كانت عنده إحدى عشرة مدرعة، و بالجملة: فإن انقياد الأمّة الجابونية إلى هذا الملك و تقدم هاته المملكة فى أسرع وقت من عجائب هذا القرن التى تخلد فى التواريخ، و ستأتى قوّتها الحربية و المالية فى جدول الدول.

و على ما تقدم فتعتبر كإحدى الدول الأوروباوية الأول المتقدمة، و فيها من الثروة و التمدّن و الغناء ما فى ممالك أوروبا و ما فى مملكة الصين، و قاعدة هاته المملكة مدينة «جدو» فى جزيرة نيغون التى بها جبال بلكان كثيرة و لأجلها يكثر فيها الزلزال، و معادنها غنية و أصل ديانتهم كديانة أهل الصين.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۹۹

الفصل العشرون المملكة العشرون مملكة أتشين

و هى قاعدة جزيرة سومطرى، و هاته الجزيرة خصبة جدّا و فيها معادن جيدة و مغاص على اللؤلؤ، و يقسمها خط الإستواء إلى قسمين، و هواؤها على العموم جيد فى الجبال ردىء فى الأودية، و سكانها نحو ثلاثة ملايين، و كان من الحق ذكرها فى اتباع الدولة العثمانية، لكن التغافل من بعض المتوظفين أوجب إهمال الدولة لحقوقها فيها على ما سيأتى، و أوجب التكلم عليها باستقلالها، «و ذلك أن هاته المملكة كانت فى الزمن القديم تحت رؤوساء من المجوس إلى أن فتحها السلطان «جوهشاه» من أمراء الهند فى ۴ رمضان سنة ۶۱۱ ه، و أسلم كل أهلها و تمذهبوا بمذهب الشافعى، و فى سنة ۹۲۲ ه فى ولاية سلطانها «فرماهشاه» بايعت بالخلافة للسلطان «سليم خان» و حصلت منه على فرمان متضمن لقبول حمايتها و إبقاء سلاطينها على يد الوزير سنان باشا، ثم جدد ذلك السلطان «عبد المجيد» سنة ۱۲۶۷ ه و أرسل إلى سلطانها «علاء الدين منصور شاه» فرمان التبعية و نيشانا مرصعا، و نشرت على قلعها و سفنها الراية العثمانية.

و عدة سلاطين تلك العائلة إلى سنة ۱۲۹۳ ه ستة و ثلاثون سلطانا، و بمقتضى ما لهم من الرخصة فى إدارة المملكة مع تكاثر الأجانب و حبهم التسلط فى جهات الهند و جزره عقد أحد سلاطينهم المسمى «علاء الدين محمود شاه» سنة ۱۱۵۵ ه معاهدات مع الهلانديين

على أحوال التجارة و السياسة، و منها أن لا يقع منهم التعدّى على أحد رعايا أتشين و لا التعدّى على حقوقها و ممالكها، ثم معاهدة أخرى مع الإنكليز سنة ۱۲۴۱ ه أيام السلطان «جوهر العالم شاه»، و بموجب ذلك سوغ للملكتين المتاجرة فى مملكة أتشين فأما الإنكليز فما زالوا قائمين بعهدهم إلى الآن، و أما الهلانديون فأخلوا بالعهد منذ سنة ۱۱۸۰ ه فاستولوا على بعض جوانب من المملكة، لكن لما كان أهلها نافرين عن سلطانهم و بينهم عداوة سكتت دولة أتشين على الإستيلاء عليهم كما هى المصيبة فى هذا الزمن بالمسلمين من الشماتة ببعضهم بدخول الأجانب فيهم حتى يتمكنوا منهم جميعا لا قدر اللّه، ثم لا زالت هو لاندة تفتح فى أبواب التسلط على المملكة إلى أن فتحت عليهم حربا فجأة سنة ۱۲۹۳ ه و كان سلطانها إذ ذاك حديث السن و هو «محمود شاه علاء» و عند غيبة الناظر عليه و مدبر أمور ملكه الأمير «عبد الرحمن الزاهر» حيث توجه إلى الأستانة لاستنجاد الدولة العلية أيام السلطان، عبد العزيز فلم يساعد، و اشتدّ الحرب بينهم و لا زال الهلانديون يفتحون فى تلك المملكة إلى الآن، و إن وجدوا من الحمية و الشجاعة ما عاقهم عن إنفاذ غرضهم عن عجل، لكن أعانهم خذلان بعضهم لبعض مع عدم آلات الحرب و عدم معرفة آلاته الجديدة، و أما قوة هاته الدولة المالية و الحربية فغير معلومة و كأنها لا تلبث أن تصير من أتباع هولانده كما وقع فى جزيرة جاوة و جزائر و أقواق و غيرها مما استولى عليها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۰۰

الفرنسيس و الهلانديون و غيرهم من الدول الأوروباوية، فإن لكل من هاته الدول مستعمرات فى هاته القارة فى شطوط الهند و فى شرقيه و جزره، و تجرى فيهم أحكام الدول المتغلبين لكنها ليست كأحكام ممالكهم و إنما هى أحكام إستبدادية عسكرية بمراعاة العوائد للأهالى، و لما كانت هاته المستعمرات لا تبلغ إلى مستعمرات الإنكليز لم نذكرها على حدتها مثل ما ذكرنا الهند الإنكليزية، و للّه ميراث السموات و الأرض.

القسم الثانى من الأرض هو قارة أوروبا،

اشارة

هاته القارة يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا الجهة الشرقية فتتصل بقارة آسيا المار ذكرها، و الحدّ بينهما هو جبال أرال و نهر دون الذى مصبه فى البحر الأسود، ثم يحدّها جنوبا البحر الأسود و بحر مرمرا و البحر الأبيض و بغاز طارق، و غربا المحيط الغربى و المانش، و شمالا المحيط الشمالى و المنش و البلتيك و المتجمد القطبى، و هاته القارة الآن رمقها السعد بألحاظه و حط لديها ركابه فكما تسعد أفراد الإنسان و تنحس كذلك بقاع الأرض حاشا البقاع المكرّمة بالأنوار الإلهية، و إنما نعنى البخت الدنيوى. فإن هاته القارة كانت قد لبثت مدّة و هى فى الحضيض الأسفل ما بين خلاء و خراب و دثار و توحش فيما سلف من العصور، إلى أن حدثت فيها دولة الرومان و اليونان و تشعشعت فيها المعارف و ارتقى فيها التمدّن و الصنائع، لكنها لم تلبث أن عادت كما كانت عليه من التوحش و البربرية لاقتصار تلك المبادىء الحسنة على أفراد و إن كانوا كثيرين فى مراكز مخصوصة، و انحصار السلطة القهرية فى تلك المراكز فزال التقدم بتقهقر تلك السلطة، غير أنها حدث فيها تمدن آخر فى مدّة الإمبراطور شارلمان المعاصر للخليفة هارون الرشيد الذى أكب على المعارف و ملازمة أهلها، و بث منها فى ممالكه ما وسعه الإمكان، غير أنها تقهقرت بعده أيضا و شرع فيها تمدّن منذ خمسمائة سنة على خلاف المعهود سابقا، و امتد فيها تدريجا إلى أن بلغت فى هذا العصر إلى الدرجة القصوى من التهذيب و التمدّن و المعارف الدنيوية، حتى صار لأهلها الوجاهة و النفوذ على جميع أقسام الأرض و دونك أنموذجا لأخبار ذلك الترقى، و حاصله:

إن أهالى أوروبا استفادوا من العلوم التى باللسان اللاتينى و اليونانى اللذين تحفظت عليهما الكنيسة، و كان أهلها فى مدّة الجهل العام يبذلون أقصى الجهد فى التحفظ على تعلم ذينك اللسانين و ترقى تلامذتهم فى العلوم الموروثة من الرومان و اليونان، كما استفادوا من الأمّة العربية فى المغرب بمجاورتها فى الأندلس، فأخذوا عنها العلوم الرياضية و تهذيب الأخلاق و الجغرافيا التى علمتها المسلمون بالأسفار للحج من الأقطار القاصية و الفتوحات

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۰۱

الممتدة شرقا و غربا و الإعتناء بالتجارة، حتى أن ملك صقلية دعا إليه العلامة الإدريسى ، و ألف عنده كتابه الغريب المسمى: «نزهة المشتاق» فى الجغرافيا، و استفادوا أيضا من الإسلام فى المشرق فى مدّة حروب الصليب فخالطوهم و تعلموا منهم مسالك الترقى و القوة و فنون المعارف فانبثت فيهم فى جهات عديدة فى وقت واحد، فكانت فى القرن الثالث عشر المسيحى الموافق للقرن الخامس و السادس الهجرى علماء فى الفلسفة و غيرها فى كل من فرنسا و إيطاليا و ألمانيا، و اجتهدت من ذلك الوقت كل جهة فى ترقية نفسها و التشبث بالوسائل التى لا- تحوجها إلى غيرها، و أعظم الوسائل التى أعانتهم على بلوغ المعارف صناعة طبع الكتب التى كثرت بها الكتب و رخصت حتى تيسر الإطلاع عليها حتى لغير ذى الثروة.

و لما انفتحت بصائرهم و علموا أن العوائق عن بلوغ المقصود منحصرة فى عدم إنسجام الإدارة و الأحكام على مقتضى المصلحة و عدم صرف النظر إلى منافع الأمّة حيث لم تكن لهم شريعة تضبطهم و إنما الملوك المستبدّون هم الذين يتصرفون كما أرادوا، و جذبوا إليهم العلماء بالترغيب و الترهيب فأعانوهم على العامّة إلى أن وصلوا إلى درجة الإضمحلال، فلما انفتحت بصائر الأمم تحزبوا فى جهات إلى تقييد التصرف من الملوك بمشاورة رؤوساء الأمم و وجهائهم، و أن تكون الإدارة على قانون معلوم موافق لعادات الأمّة و ما يقتضيه حالها و أن يستوى الشريف و المشروف فى الحقوق الشخصية، و أن لا يمتاز قسم من الناس بالأشياء الضرورية كالعلوم و الأراضى و التجارة و غيرها، فحصل هذا المقصود فى بعض تلك الممالك بإراقة الدماء الغزيرة بين الملوك المستبدين و بين الأمّة.

و فى بعض الممالك تفطن عقلاء ملوكها إلى وجوب العمل بذلك الوجه إما لحذقهم و إيثارهم للمصلحة العامّة على الخاصة بهم حيث علموا أنها أى الخاصة لا تدوم إلا بدوام الأمّة، فآثروا مصلحة الأمّة أو إتقاء من أيلولة أمر المملكة إلى ما آل إليه غيرها مما لا ثمرة لهم فى الإصرار على منعه، فسارعوا إلى منح الأهالى بالقوانين و الحرية منة منهم، و ما حصل فى إحدى الممالك إجراء القوانين على أى وجه من الوجوه المتقدّمة إلا أخذت فى الترقى و الثروة لانكفاف الظلم المؤذن بالخراب، فتحسنت أحوالها و نمت سكانها و عمرت أرضها و كثرت صنائعها و انتشرت فيها المعارف و زادت إتقانا و اختراعا و امتدّت تلك المملكة بسطوتها على من لم يجاريها فيما هى عليه، و سرى العمل على ذلك النحو فى جميع ممالك أوروبا تدريجا إلى أن عم جميعها و لم يبق منها الآن مخالفا لبقيتها إلا مملكة الروسيا بحيث يصح أن يقال إن جميع أوروبا كأنها مملكة واحدة على نمط واحد، و غاية الإختلاف بينها إنما هو بزيادة الثروة و القوة و الحضارة، أما أصول هاته الأشياء فهى موجودة فى الجميع.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۰۲

و لذلك نتكلم على هاته القارة كلاما عاما و نذكر أسماء ممالكها و قواها إذ هذا كاف فى المقصود من هذا التأليف، حيث أن المقصود هو معرفة الممالك الآمنة من غيرها، سيما و نحن سنذكر إن شاء اللّه تعالى فى المقصد تفاصيل ممالك مهمة، منها. فيقاس عليها غيرها، إذ هى متشابهة على التقريب. و إنما نفرد دولة الروسيا لمخالفة سيرتها للبقية، و أما الدولة العلية فقد تقدّم الكلام عليها فى قسم آسيا، فأحكامها جارية فى الجميع على السواء غير أنها لما كانت لها فى قسم أوروبا ولايات ممتازة و ولايات غير ممتازة فنعيد ذكرها هنا أيضا، و على ذلك فنقول:

«إن أوروبا تنقسم إلى دول جنوبية و دول وسطى و دول شمالية و جميعها ثمانية عشرة مملكة كلها نصرانية إلا الدولة العلية كل منها

مستقل عن الآخر و إن كان بعضها يتألف من أكثر من مملكة واحدة، فالدول الجنوبية ستة و هى:

الدولة العلية، و الجبل الأسود، و اليونان، و إيطاليا، و إسبانيا، و البرتغال، و الوسطى ستة أيضا و هى:

فرنسا، و أسفيسرا، و البلجيك، و أوستريا، و الصرب، و الرومانيا، و الشمالية ستة أيضا و هى:

الروسيا، و السويد، و الدانيمرك، و هلاندة، و ألمانيا، و انكلترا.

الفصل الحادى و العشرون فأما الدولة الأولى فهى الدولة العلية و تختها القسطنطينية،

فحالتها العامّة تقدّم الكلام عليها و أما الخاص منها بهاته القارة فإن لها ممالك رحيبة فمنها ما هو ممتاز و يؤدّى أداء سنويا معلوما و إدارته فى نفسه مستقلة، كولاية البلغار التى قاعدتها صوفية فإنها بعد معاهدة برلين الناتجة من حرب سنة ۱۲۹۴ ه التى سيأتى تفصيلها فى المقصد إن شاء اللّه تعالى، صارت هاته الولاية إمارة نصرانية مستقلة و إدارتها على نحو الإيدارات العامّة فى ممالك أوروبا ذات القوانين التى يرد الكلام عليها عن قريب إن شاء اللّه تعالى.

و أغلب سكانها بلغاريون و بقية سكان الإمارة من المسلمين و اليونان، و كل منهما فى أشدّ الضنك لا سيما المسلمين من قساوة القسم الغالب الذى صارت له السيادة على الجميع، لأنهم و لئن كانوا ظاهرا إدارتهم حرة قانونية لكن الباطن استبدادية تحت إشارة الروسيا المستبدة الموادة للإمارة المذكورة، و هاته الإمارة ليس لها حق فى إنشاء حصون على حدودها و الحصون التى كانت فيها للدولة تهدم بمقتضى معاهدة برلين، و عساكر الإمارة يكونون من الأهالى و أغلب رؤوسائهم الآن من الروس و إلى الآن لم يتعين مقدار الأداء السنوى الذى يلزمها أداؤه للدولة العلية بسبب التراخى عن إجراء جميع فصول معاهدة برلين، و كذلك للدولة العلية فى هاته القارة ولايات أخر مستقلة فى الإدارة و ما زاد من دخلها عن مصارف مصالحها الذاتية يؤدّى إلى خزنة الدولة، إلا الكمرك و الدخان فهما راجعان للدولة، و هاته الولايات نصرانية و شروط و اليها أن يكون نصرانيا يولى من الدولة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۰۳

بعد موافقة الدول عليه و لا يعزل قبل إتمامه لخمس سنين، و أما العساكر فليس لها أن تنظم جيشا و إنما تحدث حرسا أهليا لإنفاذ الأحكام و حفظ الراحة المعتادة، و إن أحوج الحال إلى قوّة عسكرية فإن الدولة ترسل للوالى مقدار ما يطلبه لذلك، و للدولة أن تقيم فى الحصون و الحدود عساكر على حسب ما يظهر لها بشرط أن لا يكون على الأهالى منهم أدنى كلفة أو تعلق. و هاته الولايات هى:

الرميلى الشرقية، و أكريت، و السوسام. و الأحكام الجارية فيها قانونية بواسطة مجالس من الأهليين، كما أن للدولة ولايات أخر فى هاته القارة ليس لها امتياز عن غيرها من بقية الممالك، و هى: ولايات الرميلى كادرنة و شقودرة، و سلانيك، و جزاير البحر الأبيض، و أما بوسنة و هرسك فكلاهما تحت تصرف النمسا، و هما من حقوق الدولة، و لذلك كان لها فيهما العلم بحيث ينشر كل من علم أوستريا و علم الدولة معا، و الخطبة بإسم السلطان العثمانى و المتوظفون العثمانيون إن صلحوا فى نظر الوالى الأوستورياوى يبقون، كما أن أوستريا أدخلت عساكرها مشاركة للعساكر العثمانية فى صنجق نوفى بازار مع بقاء الإدارة بيد الدولة، و كل ذلك بموجب معاهدة برلين.

فيحد أملاك الدولة فى أوروبا الآن شمالا نهر الطونة، و غربا النمسا و الصرب و الجبل الأسود و بحر البنادقة، و يحدها جنوبا بوغاز القسطنطينية و بحر مرمرا و بوغاز جناق قلعة و بحر الجزر و البحر الأبيض و اليونان، و شرقا البحر الأسود و بحر الجزر.

الفصل الثانى و العشرون و أما الدولة الثانية و هى الجبل الأسود،

فإنها استقلت بعد الحرب الواقعة سنة ۱۲۹۲ ه و كانت تابعة للدولة العلية و لا زالت تلقب بالإمارة، ثم ضم إليها قطع من ممالك الدولة العلية و صار الآن سكانها نحو ثلاثمائة ألف، و يحد هاته المملكة شمالا فى البعض أوستريا، و غربا بحر البنادقة، و من بقية الجهات الدولة العلية، و قاعدة المملكة ستين.

الفصل الثالث و العشرون و أما الدولة الثالثة و هى اليونان،

فإنها كانت تابعة للدولة العلية أيضا و استقلت فى سنة ۱۲۴۶ ه، و كان إذ ذاك عدد سكانها نحو ثمانمائة ألف فتكاثروا إلى أن بلغوا الآن إلى ما يزيد على المليون و نصف، و لهذا الجنس الشهرة التامّة فى التقدّم و فنون العرفان فى الأعصر السابقة، إلا أنهم لم يبقوا على ما كانوا عليه، و إلى الآن لهم اعتناء زائد بالأسفار و قوة البحر، و هذه المملكة شبه جزيرة فى البحر الأبيض فيحيط بها من جميع الجهات إلا الجهة الشمالية فتحدها الدولة العلية، و لها جزاير أخر بقربها تابعة لها و قاعدتها أتينا.

الفصل الرابع و العشرون و أما الدولة الرابعة و هى إيطاليا،

فقد كانت منقسمة إلى عدّة إمارات و ممالك ثم فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۰۴

أواسط هذا القرن أخذت فى الإتحاد إلى أن تم إتحادها بجعل مدينة رومة تختالها فى سنة ۱۲۸۷ ه، و صارت دولة من الدول العظام، سكانها نحو سبعة و عشرين مليونا و يحدها البحر الأبيض من الغرب فى البعض، و فى الباقى فرانسا، و يحدها جنوبا البحر المذكور، و يحدها من الشرق بحر البنادقة فى الجل و فى البعض أوستريا، و يحدها شمالا أوستريا فى البعض و فى الباقى سفيسرة و فرانسا، و سيأتى مزيد الكلام عليها بانفرادها فى المقصد إن شاء اللّه تعالى.

الفصل الخامس و العشرون و أما الدولة الخامسة فهى دولة إسبانيا،

و قد كانت متلاشية فى شمال الأندلس و لما أكب المسلمون هناك على شهواتهم و عملوا بالظلم بعد أن بلغوا الدرجة القصوى من العدل و المعارف و القوّة حتى فتحوا قسما عظيما من فرانسا ثم تركوا ما كانوا عليه و انقسموا ملوك طوائف كما قال شاعرهم:

مما يزهدنى فى أرض أندلس‌ألقاب معتضد فيها و معتمدى

ألقاب سلطنة فى غير موضعهاكالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

فحينئذ استعانت دولة الاسبنيول بذلك الإنقسام و الظلم، و أعانت بعضهم على بعض و تستبدّ هى بالفائدة إلى أن تسلطت على الجميع، و فعلت من التوحش و القسوة ما تنفر عن سماعه الآذان، حيث ألزمت المسلمين إما تبديل دينهم أو القتل، فهرب من قدر منهم على النجاة أفواجا أفواجا حفاة عراة و تشتتوا فى المغرب و الجزائر و تونس أيدى سبا، ثم استفحل أمر تلك الدولة أى الإسبنيولية إلى أن كانت هى وحدها إذ ذاك ذات التقدّم على سائر الدول الأوروباوية لما فازت به من ثمرات فنون المسلمين و صنائعهم، و كانت وحيدة فى القوّة البحرية حتى أن أوّل من اكتشف أمريكا كان من أسطولها كما سيأتى ذكر ذلك إن شاء اللّه تعالى.

و عمرت مستعمرات فى أمريكا و البحر الهندى و أفريقية، غير أنها فيما بعد أثخن فيها الإستبداد جراحة سنة اللّه فى أرضه فتقهقرت

إلى أن كادت أن تتلاشى، و خرج عنها كثير من مستعمراتها و خربها الظلم و نقصت فيها الأنفس و الأموال و الثمرات، إلى أن استفاقت الأمّة من غفلتها و ثاروا ثورة واحدة حتى حصلوا على ترتيب دولة قانونية، و امتدّ أمرهم فى تحصيل مقصودهم بضع سنين و هى من سنة (۱۲۸۶ إلى سنة ۱۲۹۳ ه)، فاستقرّ حالهم على حكومة حرّة و ملكوا عليهم ابن ملكتهم السابقة التى ثاروا عليها بعد أن سيروا الحكومة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۰۵

الجمهورية، ثم عدلوا عنها و رادوا أحد عائلات ملوك أوروبا فملكوا عليهم ابن ملك إيطاليا، ثم بدا له منهم النفرة فخلع نفسه و أوصلوه إلى بلاده محروسا مكرّما و عادوا إلى الجمهورية، فأنف منها شرفاؤهم و أغلب الأهالى فاستقر أمرهم على ابن ملكتهم المذكور، على أن يكون تحت القوانين المرتبة و خاضعا لها فاستقام حالهم بذلك و أقبلوا على إصلاح شؤونهم، بيد أن ذلك لما كان حاصلا من عهد قريب و بعد حروب أهلية لم تتراجع دولتهم إلى أن تعد من الدول الأوّلية، و سكان هاته المملكة عدا ما بقى لها من المستعمرات سبعة عشر مليونا و لها مستعمرات فى أمريكا و فى شطوط أفريقيا و آسيا و جزر الأقيانوس، يبلغ عدد سكانها نحو تسعة ملايين، و هاته المملكة يحدها جنوبا بوغاز طارق و البحر الأبيض، و شرقا البحر الأبيض فى البعض و فرانسا فى الباقى، و شمالا المحيط الشمالى، و غربا المحيط المذكور و مملكة البرتغال، و قاعدتها مدريد.

الفصل السادس و العشرون و أما المملكة السادسة و هى مملكة البرتغال،

فقد كانت قسما من الأندلس ثم إسبانيا و عند تقهقر هاته استقلت عليها و أجرت القوانين فكانت مستقيمة السيرة على قدر حجمها.

و سكانها نحو أربعة ملايين و نصف و لها مستعمرات فى شطوط أفريقية و الصين و الهند، يبلغ عدد سكانها نحو ثلاثة ملايين و نصف، و يحد هاته المملكة غربا المحيط الغربى و من بقية جهاتها إسبانيا، و قاعدتها أشبونة بالتسمية العربية و حرفوها الآن فصارت لزبون.

الفصل السابع و العشرون و أما الدول الوسطى فأولها: دولة فرانسا،

ذات النخوة و الشأن المتقدّمة فى التمدن و السطوة و العرفان، و سيأتى تفصيل الكلام عليها إن شاء اللّه تعالى. و إنما نقول هنا: إن هاته المملكة حوت من المحاسن و الصفات ما أقر لها به معاصروها و مناكبوها، و لو لا تقسيم أهلها لأحزاب مع سرعة العمل بينهم لما جارتها دولة، و هى تشتمل على نحو ستة و ثلاثين مليونا من النفوس، و لها مستعمرات فى جميع القارات يبلغ عدد سكانها نحو خمسة ملايين، و استقلالها قديم و تختها مدينة باريس. و يحدها جنوبا البحر الأبيض و إيطاليا و إسبانيا، و شرقا إيطاليا و سفيسرة و جرمانيا و البلجيك، و شمالا البلتيك و المانش و المحيط الشمالى، و غربا المحيط المذكور. و هى من أقدم الدول القانونية و إن طرأ عليها فى الوسط شىء من الإستبداد لكنها أزاحته، و حكومتها جمهورية و قاعدتها باريس.

الفصل الثامن و العشرون و ثانيها: دولة سفيسرا

و يحدها جنوبا إيطاليا، و شرقا أوستريا، و شمالا المانيا، و غربا فرنسا، و قد كانت تداولها كل من فرنسا و ألمانيا مدة قرون و فى خلالها يحصل لها فى بعض الأحيان استقلال، إلى أن تم استقلالها باعتراف جميع الدول الكبيرة و ضمانتهم لاستقلالها و ذلك سنة

۱۶۴۸ أى أواسط القرن الحادى عشر الهجرى، و لا زالت على ذلك.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۰۶

و سكانها نحو مليونين و نصف، و حكومتها جمهورية خالصة، بمعنى أن المجالس العليا ينتخب أعضاؤها من أنفسهم سبعة أشخاص لمدة ثلاث سنين يكونون بمثابة الوزراء فى إدارة الأمور على نحو ما تتفق عليه المجالس، و ينتخب لهؤلاء السبعة رئيس لمدة عام واحد يكون هو رئيس الدولة العام و تخت المملكة مدينة بارن.

الفصل التاسع و العشرون و ثالثها: دولة البلجيك،

فيحدها جنوبا و غربا فرنسا، و شمالا بحر المانش و المحيط الشمالى، و شرقا المحيط الشمالى و هولانده و ألمانيا. و عدد سكانها نحو خمسة ملايين و تخت المملكة مدينة بروكسل، و كانت من ملحقات فرنسا ثم استقلت بأمرها مع اتحادها بهولاندة بعد سقوط نابليون الأول، ثم استقلت بتا سنة ۱۸۳۰ مسيحية الموافقة سنة ۱۲۴۶ هجرية فسبقت أيضا فى العمران و الثروة.

الفصل الثلاثون و رابعها: مملكة دولة النمسا المتركبة من دولتين مستقلتين و هما أوستريا و هنكاريا،

و كل منهما لها إدارة خاصة بجميع داخليتها و وزراء يباشرون الإدارة فى كل منهما، و لها ملك واحد يلقب بإمبراطور أوستريا و ملك هنكاريا، و لهما قانون معلوم فى كيفية الإتحاد و الإنفراد و حدود كل منهما، و منها أن يكون وزير الخارجية و علائقه متحدا فى كل من المملكتين، و دولة أوستريا من أقدم دول أوروبا و كانت فى مبدئها صغيرة ثم تعاظمت و دخلت فى العصبة الالمانية حيث أن من أهاليها قسما عظيما من الجنس الالمانى، و صارت لها الرياسة على العصبة مدة إلى أن انتزعتها منها دولة بروسيا سنة ۱۲۸۴ ه فى حرب عاضدتها فيها إيطاليا و استقرت الآن منفردة عن العصبة الالمانية، و صار عدد أهالى هاته الدولة نحو سبعة و ثلاثين مليونا، و يحدها جنوبا رومانيا و الصرب و الدولة العلية و بحر البنادقة و إيطاليا، و غربا سفيسرة و ألمانيا، و شمالا ألمانيا و الروسيا، و شرقا الروسيا و رومانيا، و قاعدة المملكة الأولى هى مدينة فيينا، و قاعدة الثانية هى مدينة بست و تحت تصرفها بوسنة و هرسك.

الفصل الحادى و الثلاثون و خامسها: دولة الصرب،

و إنما صارت دولة مستقلة بعد حرب سنة ۱۲۹۳ ه و كانت إمارة مستقلة بالإدارة تابعة للدولة العلية و تؤدّى لها الخراج، و بمقتضى معاهدة برلين صارت دولة مستقلة يحدها جنوبا الدولة العلية بإمارة البلغار و غيرها، و شرقا هى أيضا و نهر الطونة، و شمالا النهر المذكور و النمسا، و غربا ولاية بوسنة و هرسك الراجعة للدولة العلية و تصرفها بيد النمسا، و عدد سكان هاته الدولة مع ما أضيف إليها بمقتضى المعاهدة المذكورة نحو المليونين، و قاعدتها بلغراد.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۰۷

الفصل الثانى و الثلاثون و سادسها: دولة رومانيا،

يحدّها جنوبا الدولة العلية بولاية البلغار فى البعض و فى الباقى نهر الطونة، و يحدّها شرقا البحر الأسود و الروسيا، و شمالا الروسيا و

النمسا، و غربا النمسا، و قاعدتها بخارست، و عدد سكانها نحو خمسة ملايين، و بقية أحوالها مثل الدولة المتقدمة عليها فى الذكر، لكنها متقدمة فى التمدن و المعارف و القوة، و عندما كانت تابعة للدولة العلية كانت تسمى بالولايتين أى الأفلاق و البغدان حيث كانت منقسمة إليهما، ثم اتحدتا فى عشرة السبعين و المائتين و ألف تحت أمير واحد، ثم استقلت بمقتضى معاهدة برلين بعد أن دخلت فى إعانة الروسيا على كره من الأهالى، و لا زالوا محبين للترك إلى الآن.

الفصل الثالث و الثلاثون و أما الدول الشمالية فالدولة الأولى منها: دولة إنكلترا السابقة فى الحرية و الثروة،

و هى جزيرتان منقطعتان فى المحيط الشمالى يحيط بهما البحر من جميع الجهات، و أقرب جهة من القارة إليها هى مملكة فرنسا و يفصل بينهما بحر المانش، و أضيق جهة منه بينهما نحو عشرين ميلا- و سكانها نحو ثلاثين مليونا، و قاعدتها مدينة لندرة، و لها مستعمرات فى جميع أقسام الكرة، فمنها: الهند و جزره، و عدن فى آسيا، كما تقدّم الكلام على ذلك. و منها رأس الرجاء الصالح و غيره فى أفريقيا، و منها آيالات فى أمريكا الشمالية و أخرى فى الجنوبية، و أعظم جزائر أوستريا و عدد جميع من يتبعها فى المستعمرات نحو مائة و تسعين مليونا، و سيأتى الكلام على هاته المملكة مفصلا فى باب خاص من المقصد إن شاء اللّه تعالى.

الفصل الرابع و الثلاثون و الثانية منها: دولة هولاندة،

و يحدها شمالا و غربا المحيط الشمالى، و يحدّها جنوبا البلجيك، و شرقا ألمانيا، و قد كانت تداولتها دول جرمانيا و فرنسا و إسبانيا إلى أن استقلت مع البلجيك بعد سقوط نابليون الأول، ثم انفصلت عنها البلجيك سنة ۱۸۳۰ م- ۱۲۴۸ ه، و عدد سكانها نحو ثلاثة ملايين و ثمانمائة ألف نفس، و لها مستعمرات فى جزائر الهند و جاوا و سمطرا و أمريكا و أفريقيا، عدد سكانها نحو عشرين مليونا من الأنفس و قاعدة المملكة مدينة هاك.

الفصل الخامس و الثلاثون و الثالثة منها: دولة ألمانيا المتألفة من ستة و عشرين دولة

كل منها مستقل بإدارته الداخلية، و لهم قانون فى الوحدة و مجلس يشترك فيه الجميع عدد أعضائه على قدر مناسبة سكان الممالك المشتركة فيه، و الرياسة على جميع هاته الدول الآن لدولة بروسيا و ملكها يلقب بإمبراطور ألمانيا، و يحدّ جميع المملكة شرقا الروسيا و النمسا و بحر البلتيك، و شمالا البحر المذكور و الدانيمرك، و غربا هولاندة و البلجيك و فرنسا، و جنوبا سفيسرة و إيطاليا و النمسا، و عدد سكان الممالك أحد و أربعون مليونا، و القاعدة الكبرى للجميع هى برلين،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۰۸

و هذه أسماء الدول المتألفة منها العصبة مع عدد السكان و أسماء القواعد:

عدد سكان الممالك/ أسماء القواعد/ أسماء الممالك

۰۰۰، ۱۷۱، ۲۵/ برلين/ بروسيا

۰۰۰، ۸۶۴ ۰۴/ مونيخ/ بافير

۰۰۰، ۸۱۸، ۰۱/ استوتكادر/ فورتنبرغ

۰۰۰، ۴۶۱، ۰۱/ كارلس/ بادن الكبرى

۰۰۰، ۵۶۰، ۰۲/ درازد/ الساکس

۰۰۰، ۹۷، ۰۰/ نیوستراتس/ مکلنبورغ ستراتس

۰۰۰، ۳۱۶، ۰۰/ أولدنبورغ/ أول دن بورغ

۰۰۰، ۲۸۶، ۰۰/ ویمبر/ الساکس ویمر

۰۰۰، ۱۸۸، ۰۰/ مینجن/ الساکس مینجن

۰۰۰، ۱۷۴، ۰۰/ غوطا/ الساکس کوبری غوطا

۰۰۰، ۱۴۱، ۰۰/ التنبورغ/ الساکس التین بورغ

۰۰۰، ۰۷۵، ۰۰/ رودول استاد/ أشفارزبورغ

۰۰۰، ۰۶۸، ۰۰/ سوندرسوزن/ شوراشبورغ سوندرسوزن

۰۰۰، ۰۸۹، ۰۰/ شلایز/ أدلیس شلایز

۰۰۰، ۰۴۵، ۰۰/ غرایز/ أولیس غرایز

۰۰۰، ۲۰۳، ۰۰/ دیسو/ أنحلت

۰۰۰، ۳۱۲، ۰۰/ ابرونزویک/ أبرونزویک

۰۰۰، ۱۱۱، ۰۰/ دیتموله/ لیب دیتموله

۰۰۰، ۰۳۲، ۰۰/ بوکی بورغ/ لبیب شاومبورغ

۰۰۰، ۰۵۶، ۰۰/ أدرسن/ فالدیک

۰۰۰، ۸۵۳، ۰۰/ دارمستاد/ ایس دارمستاد

۰۰۰، ۵۴۸، ۰۱/ (کولما)/ (استرسبورغ) (میتس) للجاس و اللورین

۰۰۰، ۳۶۰، ۰۰/ هانبورغ/ بلدة هامبروغ

۰۰۰، ۰۵۲، ۰۰/ لونک/ بلدة لنک

۰۰۰، ۱۲۳، ۰۰/ بمریم/ بلدة بریم

۰۰۰، ۰۰۳، ۴۱//

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۰۹

و کلها ذات قوانین، و السیاسة الخارجة متکفلة بها الدولة الرئیسة.

الفصل السادس و الثلاثون و الرابعة منها: دولة السوید المتألفة من دولتی السوید و النورویج،

و کل منهما مختصة بإدارتها الداخلیة و الوزارة و اللسان و العساکر بحیث لا یجمع بینهما إلا کون الملک واحدا و السیاسة الخارجیة أیضا لحکومة السوید، و کانت المملکة قدیما ذات عظمة فاستقلت عنها الدانمرک و أخذت قسما عظیما منها الروسیا و استقرّت علی الحالة التی هی علیها الآن منذ سقوط نابلیون الأول، فمجموع سکان المملکتین نحو خمسة ملایین و نصف یخص السوید نحو أربعة ملایین و یخص النورویج نحو ملیون و نصف، و قاعدة الأولی استکولم و قاعدة الثانیة کریستیانیة، و یحدّ المملکتین اللتین هما شبه جزیرة تمتدّ إلی نهایة القطب الشمالی، فمن الجنوب بحر البلتیک و خلیج بوتنیا، و شمالا المتجمد الشمالی فی القطب، و غربا خلیج الصوند و البحر الشمالی و بحر الإسکندنافیا اللذان هما من المحیط الشمالی، و شرقا الروسیا فی البعض، و فی الباقی الخلیج الفاصل

بینهما.

الفصل السابع و الثلاثون و الخامسة منها: دولة الدانمرک،

و انفردت عن السوید و النورویج فی أواسط القرن الثالث عشر من الهجرة، ثم فی أوائل عشرة الثمانین و مائتین و ألف هجریة، حاربتها کل من بروسیا و النمسا و امتلکتا منها ولایتی الشولسویغ و هولستین التی هی أول شرارة ألقیت لانقلاب الموازنة السیاسیة فی هذا القرن کما یأتی تفصیله فی المقصد عند ذکر إیطالیا إن شاء اللّه تعالی، فاستقرّت المملکة شبه جزیرة ممتدة من الجنوب إلی الشمال و یحدّها جنوبا حیث تتصل بالقارة ألمانیا البرسیانیة، و شرقا خلیج الصوند و بحر البلتیک الفاصلان بینها و بین السوید، و شمالا خلیج سکارج راک الفاصل بینهما أیضا، و غربا البحر المحیط الشمالی. و سکانها نحو ملیون و ستمائة ألف و لها مستعمرات فی جزائر البحر الشمالی من أوروبا، و لها فی أمریکا أیضا مستعمرات، و مجموع سکان مستعمراتها نحو مائة ألف و خمسة و عشرین ألفا و قاعدتها کونبهاغ.

الفصل الثامن و الثلاثون و السادسة منها: دولة الروسیا،

اشارة

و مملکتها بالنظر لسطح الأرض هی أکبر الممالک و قد تقدم الکلام علی قسمها من آسیا، و أما فی أوروبا فیحدّها شمالا المتجمد الشمالی، و شرقا جبال أورال و نهر دون الفاصل بین آسیا و أوروبا، و جنوبا البحر الأسود و الرومانیا و النمسا، و غربا ألمانیا و السوید. و عدد جمیع سکان المملکة بین آسیا و أوروبا نحو نیف و ثمانین ملیونا من النفوس، منهم نحو ستین ملیونا من المذهب المسمی أرتیدوکس، و هو مذهب الیونان من المسیحیین و کلهم من نوع البشر المسمی بالسلاف، و بقیة العدد منه نحو ثمانیة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۱۰

ملایین مسلمون، و الباقی من مذاهب شتی من الدیانة المسیحیة و غیرها و الدولة علی المذهب الأرتیدوکس، و هی و إن لم تجبر غیر أهل ذلک المذهب علی تبدیل دیانتهم أو مذهبهم، غیر أنها تمنعهم من حریة المذهب و إشهار تعالیمه، بل تجبرهم علی تعلیم أبنائهم فی مکاتبها و تجبرهم أیضا علی ترک لغاتهم، و لا یخفی أن أهل مملکة مثل تلک فی الإتساع و کثرة الأجناس لا بد أن یکون لهم لغات شتی، حتی قیل إن اللغات الأصلیة فیهم تتجاوز الخمس عشرة لغة.

و هاته الدولة تکونت علی الصفة المار ذکرها فی مدّة قلیلة، فإن هاته المملکة کانت قدیما لا یعرف منها إلا أهل الجنوب بإسم قبائل إلی القرن الثالث المسیحی، فتألفت فی روسیة و أوروبا سلطنة عظیمة من أمة الغوت، ثم تلاشت بالحروب الأهلیة و بهجمات الأمم الشرقیة علی أوروبا و تمادت علی ذلک، إلی أن استولی علی أغلبها التتر فی مدّة «باتوخان ابن جنکز خان»، ثم ابتدأ تأسیس المملکة سنة ۱۴۸۱ م- ۸۸۶ ه علی ید إیغان الملقب بالأمیر الکبیر، و خضعت له و لذریته القبائل المتکونة منها روسیة الأصلیة ثم انقطعت عائلته. و حدث فی المملکة تقهقر أشرف بها علی الإضمحلال، إلی أن تولاها «میشال رومانوف» . و هو الذی أسس الدولة الموجودة الآن و ذلک سنة ۱۶۱۳ م- ۱۰۳۲ ه.

فأخذت فی الراحة الأهلیة و ضم ما کان خرج عنها إلی أن تولاها بطرس الأکبر محیی تلک الدولة فهو الذی أسس إسمها بین الدول المعتبرة و اجتهد فی ترقیتها، و کان مع مزید اعتنائه بالسیاسة و مباشرتها بنفسه تحمل أتعاب السفر الشاق فی ذلک الوقت لتعلم الصنائع بنفسه حثا لأمّته علی الإقتداء به، و بقی مدّة فی ترسخانة هلاندة لتعلم صناعة النجارة حتی أتقن تعلمها و جلب للمملکة

معلمين من عدّة صنائع، و أخذت من ذلك الوقت فى الترقى و الإتساع مع خرمه هو و من خلفه، و مهارتهم فى الفنون الحربية و المكايد السياسية إلى أن بلغت الآن إلى ما هى عليه من مزيد القوة و الإتساع، و لو أنها كانت فى المعارف و الحرية مثل بقية ممالك أوروبا لما كادت أن تسلم منها دولة، بيد أن بقاءها على أصول الإستبداد أوجب فيها قلة الثروة و المعارف، فلم تقدر على إنجاز كل ما تضمره و إن كان القيصر الموجود الآن و هو الإسكندر الثانى قد حرر الفلاحين من تملك الأعيان لهم، حيث كان سابقا إن قسم الأعيان من المملكة من ملك منهم أرضا يملكها بمن فيها من البشر و يستعملهم استعمال العبيد بحيث يتصرف فيهم تصرفه فى المتاع، كما كانت تلك العادة جارية فى أوروبا حتى أن الفلاح إذا أراد التزوّج بعد الإذن له من سيده، يأتى بعروسه ليلة عرسه إلى سيده و لا يمكن له أن يدخل بها قبل أن يبارك له عليها سيده، و إن أراد الإختلاء بها فله حق ذلك و قس على ذلك من أنواع الشناعة ما شئت، ففى سنة ۱۸۶۷ م- ۱۲۸۴

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۱۱

ه، أبطل القيصر إسكندر الثانى ذلك الحكم و حرر الفلاحين.

و أما إدارة هاته المملكة فهى من قبيل الإستبداد المطلق بمعنى أن رئيس المملكة و يلقب عندهم بإكزار بمعنى قيصر أو إمبراطور مع إنضمام معنى الرياسة الدينية، فهو الذى يتصرّف فى الكليات و الجزئيات على حسب إرادته و اختياره و من ينوبه فى الوظائف يتصرّف مثل ذلك التصرّف بإسم الإكزار، و للإكزار رياسة التصرّف فى الديانة و فى الملك و فى العسكر و فى الشخصيات، و مع ذلك لهم تراتيت و مجالس لتدبير الملك و إدارة الولايات.

فأوّل هاته المجالس: المجلس المسمى بمجلس السلطنة،

اشارة

و هو مجلس تشريع و إدارة و حكم فيستشار فى جميع الأمور المهمة غير السياسة الخارجية فإنها مختصة بالملك، و يستعين بوزرائه فيها، و لهذا المجلس النظر فى أحداث القوانين و إجرائها و تعين المداخيل و المصاريف و تدقيق النظر فى محاسبات الوزراء و ترفع إليه الأحكام الشخصية الثقيلة، و يتركب من الوزراء و أعضاء العائلة الملكية و أعضاء ينتخبهم الإمبراطور لمدّة حياتهم، و حضور الأعضاء فيه على نوعين.

فالأول: لازم الحضور.

و الثانى: يحضر بالإستدعاء لداع يقتضيه، و له تقاسيم فى الإدارة كل قسم مناط به شىء مما يتعلق بالوظيفة.

المجلس الثانى: هو مجلس السناتو الذى أسسه بطرس الأوّل، و وظيفته حراسة القوانين و المراقبة على سيرة كبار المتوظفين و الولاة، و الحكم النهائى فى الجنايات السياسية إلّا خصوص نوازل يختص بها الإمبراطور، و هو ينقسم إلى أقسام مراكزها فى عدّة جهات من المملكة فى المدن الكبيرة، و يجتمع فى أوقات الاجتماعات العامّة.

المجلس الثالث: مجلس ينظر فى خصوص المعاريض المقدّمة للإمبراطور و هل للمشتكين من الحكام عرض نوازلهم على أحد المجلسين المذكورين سابقا.

المجلس الرابع: المجلس الدينى المركب من أساقفة الايالات الكبيرة، و وظيفته تسمية كبار الكنائس و النظر فى إدارتها إذا أمضاه الإمبراطور.

و المجلس الخامس: مجلس الوزراء المؤتلف من تسعة وزراء فأكثر على ما يقسم الإمبراطور إدارة الوزراء إليه.

و المجلس السادس: مجلس الرقيب العام، أعضاءه مثل الوزراء.

ثم إن المملكة تنقسم إلى أقسام و هى أيضا تنقسم إلى أصغر منها إلى آخره سواء كانت فى المدن أو فى البوادى، فالأقسام الكبار

المتصرّف فيها هو الوالى العام البلدى، و هو المطالب للإمبراطور بجميع ما يحدث فى ولايته، و لذلك كان له الإطلاق أيضا فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۱۲

إمضاء ما يراه مجلس الولاية أو دحضه، و هكذا كل رئيس فى قسم أصغر منه هو مطالب لمن فوقه، فلا جدوى فى أن كان لكل منهم مجلس مركب من أعضاء من أهل المكان، و فى كل قسم كبير جمعية تسمى جمعية الأعيان عدد أعضائها على حسب الدوائر و المشيخات الراجعة لذلك القسم، و رئيسها يلقب بمار يشال الأعيان و وظيفتها تعيين غالب المتوظفين فى كل ثلاث سنين إذا أمضاه الوالى أو الإمبراطور، و فى كل مدينة أو قرية مجلس بلدى تحت رياسة أحد أعيانهم، و الذى ينتخب أعضاء المجلس و الرئيس هو البلدية من البلدان، و معنى البلدية هو الأعيان و الأواسط من الناس، و أما أصحاب الخدم البدنية فليس لهم هذا المقام.

و وظيفة المجالس البلدية إدارة الأشغال العامة و مصالح البلدان و الحكم فيما يحدث بين البلدية فى التجارة، كما أنه يوجد فى هاته الأقسام مجالس للحكم فى الجنايات و مجالس للحكم فى الأمور العرفية و إمضاء الحكم مناط برئيس القسم كما تقدم، كما أن لكل مشيخية بالبادية جمعية من كبار عائلاتهم لفصل نوازلهم و تقسيم الأداء اللازم للدولة و تعين من يدخل للعسكر، و رؤوساء هاته الجمعيات هم أقدمهم فى المشيخة و لهم الخيار أيضا فى تنفيذ رأى الجمعيات، و من مجالسهم مجلس الصلح و هو الذى يونج المتوظفين عن تجاوز مأمورياتهم و الحكم فى الجنايات الخفيفة و الماليات التى لا تبلغ أربعمائة فرنك، و من قواعدهم أن الخصمين إذا حكما أحدا يمضى حكمه على شرط تقييده فى دفتر مخصوص لذلك، أما أحكام الحكام فهى شفاهية. و يشترط فى المتوظفين أن يكون أصحاب عرض و أن لا ينقص سنّ أحدهم عن الخمس و العشرين سنة، و فى خصوص الولايات التى فى حدود المملكة يوجد حاكم عسكرى مع الحاكم المدنى و له الرياسة عليه، و بخصوص ولاية فلندا وزارة خاصة فى قاعدة المملكة و مجلس سناتوا يسميه الإمبراطور فى كل ثلاث سنين، و تخت جميع المملكة هى صان بطرسبورغ، فإدارة هاته المملكة و إن كانت لها مجالس و قوانين و كثير من متوظفيها تنتخبهم الأهالى لكنها فى الواقع استبدادية، حيث أن إجراء كل شىء و تنفيذه مناط بالإمبراطور ثم بخلفائه و لهم الخيار فى التنفيذ و عدمه من غير تقيد بمرجع.

و لا يخفى أن ذلك الرئيس و إن كانت أغراضه لا تعم جميع الجزئيات لكنه له حواشى و أتباع فيراعى لكل منهم بعض الوجوه و لكل منهم علائق و أغراض فيتسع الخرق فى المراعاة و المداراة و تجرى الأمور على الشهوات، و لهذا لما كثرت الصحف الخبرية فى نفس المملكة، و كثرت فيها الصحف الأجنبية، و كثرت المدارس التى تعلم أصول التهذيب، و كثرت المواصلة ببقية ممالك أوروبا بالطرق الحديدية، انفتحت بصائر أهالى المدن الكبيرة فى الروسيا و سرى الأمر منهم لمدن ثوانى فى جهات من المملكة، فحصل منهم سنة ۱۲۹۶ ه ثورات عديدة و لا زالت مستمرّة إلى الآن، لكن تارة تشتد و تارة تخف فى طلب إجراء الحرية و القوانين مثل بقية أوروبا، و زادهم حملا على ذلك ما رأوه من

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۱۳

دولتهم عند إعلانها الحرب على الدولة العلية سنة ۱۲۹۴ ه الآتى خبرها فى المقصد إن شاء اللّه تعالى، حيث حررت أهل البلغار مع أنهم أحسن إدارة منهم و جعلت لهم ولاية ممتازة إدارتها قانونية، فقالوا ما لنا نتحكم على جيراننا و ننفع غيرنا و نهرق لأجلهم دماءنا و أموالنا، و نحن فى حالة أتعس منهم فكأنّ لسان حالهم يقول:

يا أيها الشيخ المعلم غيرهل لا لنفسك كان ذا التعليم

فالحاصل أن مملكة الروسيا إنما تقدمت بالسطوة و القوة لمجرد حذق أمرائها، فإن القيصر و لئن كان له التصرف المطلق لكنه دائما يراعى مصلحة المملكة و يقدّمها على حظوظه الخاصة و لا يصرف من أموال الدولة إلا فى مصالحها، و هو فى حد ذاته فى غاية الإقتصاد. ثم إنه يستعين بالرجال العارفين الحازمين الصادقين و لا يغير أحدا من الكبراء من منصبه إلا لمصلحة مهمة أو ذنب ثابت، حتى أن وزيره الأكبر الآن و هو غرتشقوف له فى الوزارة سبع و عشرون سنة مع كبر سنه الذى يبلغ الثمانين و لم يغيره بل أنه مرض

مرضا شديدا فى هاته السنة و هى سنة ۱۲۹۷ ه و اضطر للإستعفاء فلم يعفه و جعل له نائبا عنه لمباشرة الأشغال إلى أن تيسر له مباشرة الأحوال و عاده بنفسه فى مرضه كما أنه استعفى مرارا و لم يجبه إلى ذلك، و هو أى القيصر منقاد لتدابير وزرائه و الناصحين العارفين و هكذا أسلافه، فإن الوزير نسل رود الذى كان قبل غرتشقوف مكث فى الوزارة ثلاثين سنة.

و بذلك حصل التقدّم للدولة و صارت مدنها الكبيرة لا يفرق بينها و بين مدن أوروبا القانونية لا فى الإدارة الحكمية و لا السياسية و لا التحسين التشخيصى، أما غيرها من بقية المملكة فكأنما الناس عبيد مستعملون للرعاة حتى حكى لى أحد السواح الثقات: «أن مشايخ القرى يضربون الرعية بالسياط و هم مارون بالطريق و لا يأمر الشيخ أحدا بشىء إلا و يتبعه السوط ضربا لأجل ضيافة السائح» فتعجب السائح من ذلك و قال له: «يا أيها الشيخ لا لزوم لهذا الإكرام»، حيث أن الواقعة هى أن السائح لما قدم للقرية و بيده توصيات من الحكومة فى الإلتفات إليه من الرعاة و إكرامه عمل شيخ القرية بذلك و أمر فى الحال أحد الأهالى بالإتيان بعلف الدواب من عنده و أمر آخر بالإتيان بالأكل الطيب من عنده أيضا و أتبع الأمر بالضرب و الشتم، فقال له السائح المقالة المار ذكرها، فأجابه: «بدع عنك هذا الكلام إن هؤلاء الكلاب لا يصلح فيهم إلا هذا العمل فلو أنى طلبت منهم ما طلبت بأعلى ما يكون من الثمن عن طيب نفس لما أجابوا لشىء»، و كلام هذا الشيخ و إن أمكن أن يكون فيه مبالغة لكنه لا يخلوا عن الصحة لأن الأهالى أعنى أغلبهم تربوا على السذاجة الحيوانية و لم تتهذب أخلاقهم مع النشأة على الذل و الهوان و التحكم الشديد، فلو طلب منهم الحاكم شيئا اعتادوا على إعطائه مجانا بالوعد بالثمن لما صدقوا بذلك، و رأوا أن رزقهم يؤخذ منهم قهرا و حب المال مجبولة عليه الطباع، فيتكاسلون عند إعطائه إلا بالغضب، فيصنع الحكام معهم ذلك الصنيع، و لو أنهم عودوهم من الصغر و النشأة على مكارم الأخلاق و إكرام

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۱۴

الضيف و رأوا منهم مرارا إعطاء الحقوق و الثمن لما خالفوا طبع سائر البشر.

و اعلم أن فى أقسام هاته المملكة أقواما كثيرين من المسلمين منهم أهالى ولاية قازان الذين أسلموا منذ العصر الأول، إذ قيل: إنهم أسلموا فى عصر بنى مروان فى كبد القرن الأول من الهجرة، و قيل: فى خلافة المأمون . و قيل: فى خلافة الواثق ابن أخيه، و انتشر فيهم الإسلام بإسلام ملك بلغار الماس خان بن سلكى خان فى خلافة المقتدر ، فتسمى بالأمير جعفر، و قاعدة هاته الولاية مدينة بلغار المذكورة فى كتب الفقه للإختلاف فى وجوب العشاء على أهلها فى مدّة الصيف حيث لا يغرب فيها الشفق، و إنما أفردت بالذكر مع شمول الحكم لكل ما قرب إلى أحد القطبين لأنها هى التى كانت إذ ذاك معروفة بإسلام أهلها، و لم يحدث الخلاف فى الوجوب إلا فى المائة السادسة، إذ لا نص عن المتقدّمين.

و قد أفرد المسألة بتأليف بديع أحد علماء هاته البلدة فى هذا العصر و هو العلامة هارون ابن بهاء الدين المرجانى ابن شهاب الدين البلغارى أيد القول بالوجوب، و له نفس بديع و قول مصيب اختصره ملك بهوبال السيد محمد صديق خان فى لقطة العجلان. فلله الحمد على وجود أمثالهم فى هذا العصر الذى تغرب فيه الدين فضلا عن العلم، و تلك المدينة واقعة على عرض خمس و خمسين درجة شمالا و نحو سبع و أربعين درجة طولا شرقيا من باريس، و هى على نهر الفلكى الشهير.

الفصل التاسع و الأربعون مملكة واداى:

و هى مملكة إسلامية لها ملك مستقل و لها تجارة واسعة مع مصر و طرابلس الغرب، و لأهلها وفاء عظيم بالعهد. «ذكر لى ثقة أن أحد أهالى واداى قضى عليه بالأسر فبيع فى طرابلس و الحال أنه حر»- و بذلك يعلم إصابة منع التملك الذى هو مباح للخوف من الوقوع فى الحرام حسبما يشهد لذلك ما كتبه عالم أفريقية سيدى إبراهيم الرياحى من المالكية و شيخ الإسلام بيرم الرابع لأحمد باشا عند أمره بعتق العبيد، فكتب إليه كل من العالمين المذكورين كتابة جيدة فى إصابة رأيه- ثم أن ذلك الأسير بعد أن أقام مدّة وصل فيها إلى سنّ الشيخوخة بطرابلس أعتقه مالكه و رجع إلى بلده و كان غنيا، و بعد نحو ثمان سنين قدم على معتقه و معه هدية ثمينة وفاء

بحق الصحبة و معه تجارة و قضى أمره و رجع إلى بلاده، و عدد أهالى هاته المملكة نحوا من مليونين و نصف، و تختها مدينة «وره» و عادات هاته المملكة و أحكامها على نحو مملكة برنو تقريبا.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۲۶

الفصل الخمسون فى بقية ممالک القسم المسمى بالسودان.

فأوّلها: قبيلة كانم بو، و هى فى الجهة الشمالية من برنو و قد كانت سابقا مستقلة ثم صارت الآن تابعة إلى واداى المتقدّمة مع امتياز، و قاعدتها ماو ثم قبيلة باكرمى و هم تابعون إلى واداى أيضا بامتياز و قاعدتهم ماسنا و هى غربى السابقة، و من غريب ما فيها أن عندهم نوع من النمل يحفر بيوته كبيرة جدا بحيث يكون ارتفاعها نحو عشرين ذراعا و اتساعها نحو مائة و عشرين ذراعا، و هاته الممالک و التى قبلها هى حول أعظم بحيرة فى قسم السودان المسماة اتشاد فواداى من شرقها، و كانم من شمالها، و باكرمى من جنوبها و يليها قبيلة موزكو. و من غريب عاداتهم أن الرجل و المرأة إذا تشاجرا فإذا ابتدأ أحدهما بالكلام خيط الآخر فمه بالخيط حتى إذا انتهى صاحبه فتح هو فاه و فعل صاحبه مثل فعله لكى لا يقطع عنه الكلام، و لذلک ترى أفواههم مثقوبة من الصغر لأجل ذلک و يدعى أنهم يأكلون الأسرى بل و إن من تفطنوا به منهم أنه أصابه مرض أكلوه قبل أن ينحف فلا يصرح أحد بمرض للخوف على نفسه.

الفصل الحادى و الخمسون مملكة «فلاتا»:

و مركز قوتهم بلد هوسا التى بها شبان أقوياء من السودان و يسمون بإسم بلدهم، و هم خاضعون إلى فلاتا و هؤلاء جلهم مسلمون حسن السيرة على ما هم عليه، و تختهم بلد سا كاتو و لهم سلطان مستقل مسلم و مسكنه بلدة ورنو، و أعظم بلاد للتجارة عندهم بلد كانو، و أهلها مسلمون و لهم بعض صنائع جيدة كالدبغ و الصبغ و النسج، و لهاته القبيلة السيادة على جميع القبائل المجاورة لها إلا نحو ثلاثة قبائل جوار الصحراء، و هى: كوبر، و مريادى، و كاغو، و لذلک كانت فلاتا مملكة و موقعها غربى الممالک السابقة على نهر ينجر الذى هو أعظم أنهر قسم السودان، و لهم عليه قوة عظيمة.

الفصل الثانى و الخمسون القبائل المتحدة المسماة بركو المتألفة

من تنبكتو و كورما و لتباكو، و قد كان الجميع تحت سلطنة واحدة جمعهم عليها أحد علماء فوت المسمى عمر الفوتى، و هو من العلماء الأجلاء من كبار تلاميذ سيدى أحمد التجانى رضى اللّه عنه، و توصل باجتماع التلامذة عليه إلى أن صار ملكا و جمع هاتيک القبائل و التى يأتى ذكرها تحت سلطنته، لكن فى آخر الأمر وقعت حروب معه إلى أن قتل بلغم يقال: إنه أثاره على نفسه لما أيس من الحرب

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۲۷

و كان ذلک فى حدود سنة ۱۲۸۳ ه و له عدة تآليف، و جميع هاته القبائل مسلمون و فيهم الصالحون و لهم تجارة مع المغرب لكنهم الآن حكمهم كأنه حكمهم جمهورى تحت عدة رؤوساء متعاضدين على دفع مهاجمات الفلاتا من الجنوب و التوارک من الشمال، ثم يلى هاته المملكة من غربيها قبائل (بنبره) و قاعدتهم سان سان دنک، و هاته القبيلة مستقلة تحت رياسة حاكم منهم و بقربها مكان كان يسكن به قبيلة يربا و الآن لا يعلم من به.

الفصل التاسع و الثلاثون و خلاصة الكلام على جميع قسم أوروباهو،

أن يقال: «إن جميع الممالك المار ذكرها إلا ما استثنى كلها ممالك قانونية، يعنى أن إدارتها منضبطة فى السياسات بأمور محدودة مكتوبة يعلمها الخاص و العام و لا يجوز للمتصرف مجاوزتها، و المباشر لإجرائها هم الوزراء بإذن رئيس الدولة على اختلاف لقبه من أمبراطور أو ملك أو رئيس جمهورية و عدد هؤلاء الوزراء يختلف بحسب كبر الممالك و صغرها، حتى تحتاج الإدارة إلى زيادة الفروع أو لا. و أصول الإدارات التى لا بد منها فى كل مملكة هى إدارة الداخلية ثم الخارجية ثم المالية ثم الحربية، و قد يتفرّع عن هاته فروع على حسب الحاجة، و لأهميتها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۱۵

تنفرد بوزارة مثل غيرها من الأحوال، فمن هاته وزارة الأحكام و البحر و المعارف و الأشغال العامّة و الديانة، و يجعل لهؤلاء رئيس فى الأغلب يكون هو أحدهم و تارة يكون منفردا ليرأسهم عند الاجتماع و ينفذ ما يتوقف على جمعهم، و رئيس المملكة ينتخب هذا الرئيس و هو يعين لصاحب المملكة بقية أقرانه فيوظفهم و ليس له بعد ذلك إلا إمضاء تصرفاتهم أو تبديلهم إن وافقه القانون، و ما يراه من التصرف إنما يتصرف فيه بواسطتهم ثم يحتسب على الوزراء مجلسان.

أحدهما: مجلس الأعيان من الأمّة و اختيار أعضائه بيد صاحب المملكة أو بواسطة وراثة تتوارثها بعض العائلات، و قد تنتخب الأهالى بعض الأعضاء من بعض المملكة.

و الثانى: مجلس النوّاب، أى نوّاب الأمّة تنتخبهم الأهالى لمدة معلومة بغاية الحرّية فى الإختيار على شروط فى المنتخب و المنتخب تؤل إلى صفات تثبت حق الغيرة على الوطن و معرفة مصالحه و الأهلية لنصحه، و مجموع المجلسين يصح أن يسمى مجلس الأمّة أو المملكة، فإذا رأى هذا المجلس فسادا فى تصرف أحد الوزراء أو مجموعهم و أصر المعترض عليه على رأيه لزمه الإستعفاء لأنه يتصرف على خلاف إرادة الأمّة، و هنا يكون لصاحب المملكة الحق فى قبول اعتراض المجلس و إبدال المعترض عليه أو يأذن الأمّة بانتخاب مجلس آخر بعد حله للأول، فإن وقع إنتخاب الأمّة على أناس موافقين للمعترض عليه بقى الأمر على ما هو، و إن انتخبوا أهل المجلس الأول أنفسهم أو غيرهم ممن يوافقهم فى الرأى لم يبق لصاحب المملكة حينئذ إلا إبدال الوزراء المعترض عليهم و توظيف غيرهم ممن يوافق رأى الأمّة، هذا زيادة عما لهذا المجلس من حفظ جميع القوانين و مراعاة مصالح المملكة فى المال و السياسة و الأحكام و عقاب المذنبين من المتوظفين و لو من الوزراء، غير أن مباشرة العمل ليست بيده و إنما هى لمن تعود إليه من وزير أو مجلس حكم أو صاحب المملكة فهذا هو أصل إدارتهم السياسية.

و أما أصل الإدارة الحكمية الشخصية فهى منفردة عن السياسة و لا تسلط للسياسة على الحكام الشخصيين، و هم يوظفون لمدّة حياتهم أو انتقال لدرجة أعلى، و تصرفهم مناط بمجالس متعددة الأعضاء و وراءها مجالس أخر لرفع المحكوم عليه لشكواه من المجلس الحاكم إليها، و وراء ذلك احتساب مجلس الأمّة.

و الأحكام يستندون فيها القوانين مرتبة برضاء مجلس الأمّة و تكون الأحكام علنية إلى غير ذلك من الأوجه المقرّبة لبحت الانصاف و دفع الظلم، فهاته هى الأصول المعمول بها، و تختلف فروعها بحسب الممالك و عادتها فليس قانون الأحكام متحدا فى جميع الممالك بل إنما يتحد الجميع على أصل الجنايات كالقتل مثلا هو ممنوع فى الجميع و مرتكبه يعاقب فى الجميع و إن اختلف عقابه بحسب العادات، كما أن من الأحوال المتفق عليها أن يكون قسما مما تدفعه الأهالى إلى دولتهم يصرف فى تحسين المملكة و رونقها و إصلاحها كمد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۱۶

الجسور و الطرق الحديدية و تنظيف الطرق زيادة على إنشائها، و كذلك كل ما يؤول لتوسيع التجارة و المعارف و الفلاحة و غير ذلك مما يعود على المملكة بالتحسين و التحصين.

القسم الثالث من الأرض هو قارة أفريقيا،

اشارة

هاته القارة صارت الآن جزيرة عظيمة جدّا يحيط بها البحر من جميع جهاتها، فيحدها شرقا المحيط الشرقى و البحر الأحمر و خليج السويس و البحر الأبيض، و يحدها شمالا البحر الأبيض و بوغاز طارق و المحيط الغربى، و يحدها غربا المحيط الغربى، و يحدها جنوبا المحيط الجنوبى، و قد عرفت جميع شطوطها و ما قاربها على التحقيق و بقيت دواخلها غير مسبورة على التحقيق إلى الآن لشدّة حرها، حيث كان خط الإستواء قاسما لها، و لصعوبة السفر من توحش أهلها و قلة الماء و الطرق، و تشتمل هاته القارة على ستة و أربعين مملكة ما بين مستقل و تابع لغيره، فأما الجهة الشمالية من القارة فإنها لها الشهرة التامّة، و ناكبت بتقدمها غيرها من القارات فى العصور السابقة، و لا زالت إلى الآن مرعية الإعتبار.

الفصل الأربعون فأول دولها: سلطنة مراكش،

و يحدها غربا المحيط الغربى، و جنوبا الصحراء الكبيرة، و شرقا ولاية الجزائر، و الصحراء المذكورة، و شمالا البحر الأبيض و بوغاز طارق، و هى مملكة متسعة اختلف الجغرافيون فى عدد سكانها من خمسة ملايين إلى ثلاثة عشر مليونا و الأقرب للصحة على حسب ما يسمع من أهلها الذين لهم خبرة بأحوالها أن السكان المطيعين للحكم نحو سبعة ملايين، و مبتدأ الحكم النافذ من الشطوط الشمالية إلى بلدة رودانة فى الجنوب، و هى تبعد عن مراكش من جنوبها نحو مسيرة ستة أيام و موقعها جهة السوس الأقصى، و هناك أمم تابعون بالإسم و هم أكثر من الخاضعين للحكم و ليس فيهم من أمارات الخضوع إلا الخطبة بإسم سلطان المغرب، و هم على نوع من الهمجية و تناصر الجاهلية، و جميع السكان مسلمون إلا- نحو ثلاثمائة ألف من اليهود و بعض الغرباء من الإفرنج فى المراسى، و حكمهم استبدادى فى السياسة، و أغلب الأحكام الشخصية يحكم فيها بالشرع و المباشر للحكم هو قاض يختار من أعلم الموجودين، و المذهب العام هو المذهب المالكى و لهم مفتون يوليهم القاضى و بعضهم يوليه السلطان، و هؤلاء المولون من السلطان يستشيرهم القاضى عند طلب الخصم للشورى فى حكمه أو عند توقف القاضى فى وجه الحكم و هكذا فى كل مدينة أو قبيلة قاض، و جميع ما يرجع إلى تلك المدينة من الإيالة يرجع إلى ذلك القاضى و له نواب فى القرى الصغيرة، و فوق الكل قاضى فاس و هو قاضى القضاة، و فى فاس قاضيان بهاته الصفة كل منهما مستبد بجهة من المدينة و ما يتبعها لأنها تنقسم إلى فاس القديمة و فاس الجديدة، ثم فى هاته المدة زيد قاض ثالث دون الآخرين فى الرتبة و إنما هو بصفة نائب عن قاضى فاس القديمة، لأن هذا مع كبر علمه

و مزيد فضله استعفى مرارا معتذرا بكبر السنّ و ضعف البدن فلم يساعفه السلطان لذلك و وظف له ذلك النائب، و هذا القاضى هو الذى يولى جميع القضاة إلا- قضاة مراكش فلا- دخل له فيهم اللهم إلا إذا أراد السلطان أن يولى أحد علماء فاس قاضيا بمراكش فحينئذ يستشير قاضى فاس فى تعيين القاضى.

و كل مكان يشتمل على قاض له وال يسمى فى عرفهم قائدا، له فصل النوازل العادية و السياسية و بعض الشخصيات.

و الدولة مركبة من السلطان و الوزير و الحاجب و وزير القضايا و كتبة و رؤوساء للجند و لجهات سياسية، فأما السلطان فإن له عائلة شريفة ثابتة النسب برسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم كان أرسل إليها بعض أهل المملكة و أتوا بجدّهم من ينبع النخل من المدينة المنوّرة منذ نحو ستمائة سنة للتبرك بهم فى صلاح ثمار نخلهم حيث بانت بركة آل البيت فى جهات أخرى من المملكة، ثم عند

وقوع حروب أهليـة و انقسام المملكـة إلى طوائف نادى بجـدهم مولاى محمـد قسم من المملكـة و بايعوه فى الثلاثين بعد الألف، ثم اجتمعت بقيـة المملكـة على ولده من بعده و لم يزل الملك فيهم، لكن المتولى لا يعهد إلى معين من عائلته و إنما له أن يوظف منهم من رآه أهلا فى كبار الأعمال، و عنـد فقد السـلطان تجتمع أعيان المتوظفين و العلماء و أعيان الأهالى و ينتخبون أحد أعضاء العائلة و يبايعونه بالسـلطنة، و بقيـة أعضاء العائلـة يجب عليهم قراءة العلم و من يوظفه منهم السـلطان يشـتغل بوظيفته و من لا وظيفـة له يشـتغل بصـناعة يتمعش منها و هى لا تكون إلا عالية كالتجارة و التدريس و الفلاحة، و مع ذلك يجعل لهم من بيت المال شىء لا يكاد يسدّ من عوز، و أما الوزير فينتخبه السـلطان و لا يكون إلا عالما ذا وجاهة من الأهالى و هو وزير القلم على الطريقة القديمة فى دول العرب من أن يكون الوزير هو وزير الإنشاء و لذلك يجب أن يكون ماهرا فى فنون الأدب مع مشاركة حسـنة فى غيرها، و لعمرى أن صـناعة الإنشاء فى الـدول باللغـة العربيـة كادت الآن أن تكون مقصورة على دولـة مراكش و أما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبوا و كادت كتابتهم أن تخرج عن الأسلوب العربى، بل صاروا لا يتحاشون عن اللحن و الكلمات البربرية بخلاف كتاب المغرب و هذا ديدنهم من قديم، و مما يحسن ذكره هنا:

إن حموده باشا رحمه اللّه الرجل الشـهير من أمراء العائلة الحسـينية بتونس المتولى فى أوائل هذا القرن، كان وقع فى أثناء ولايته قحط شديد اضـطر بسـببه لطلب الميرة و الحبوب من سلطنة المغرب لأن أرضها كانت خصبة فى ذلك العام، و لم تكن المواصلة فى أوروبا و غيرهـا من الأقطار سـهلة فى ذلك الوقت، و كان من عادة سـلطنة المغرب أن تمنع خروج الحبوب من مملكتها. فأرسل حموده باشـا العالم المقدّس سيدى إبراهيم الرياحى لطلب

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۱۸

ذلك المهم و وجه معه مكتوبا كان من جملة عباراته: «تبق تأذن بخروج القمح الخ».

فقوله: «تبق» عبـارة بربريـة اعتادهـا كتاب التونسـيين فى الأوامر الرسـمية، و لما قرأ ذلك الكتاب تعجب وزير القلم بدولـة المغرب من تلك العبارة و اشـتد حنقه منها، كيف يخاطب السـلطان بها و لو لا تبحر سيدى إبراهيم فى العلوم لخاب المسعى، فقال لهم: إنها عبارة عربيـة و هى جملـة دعائيـة فى صورة الخبر إيـذانا بتحقيق الإجابـة ببقاء السـلطان، و ما بعـدها جملـة حالية إيذانا بأن بقاءه يكون دائما مشـمولا بعلو الكعب الـذى تحتـاج إليه المسـلمون من الأقطـار و هو دايم الإذن بما ينفعهم، ثم قال لهم: و على فرض لحن العبارة هل يسوغ لسـلطان من المسـلمين أن لاـ يرحم عصابـة إسـلامية و يتركهم يهلكون جوعا لسوء عبارة من جهل الكاتب، و قرائن الحال حافة بحسن المقصد على أنها لها محل وجيه الخ، فنجح سعيه رحمه اللّه.

و أما بقية المتوظفين فينتخبهم السـلطان أيضا على حسب إرادته، و السـلطان يجلس يوميا صباحا و مساء لقبول المشتكين كيفما كانت الدعوى، و يكون قبل جلوسه قد هيأ له وزير القضايا تقريرا فى جميع من ورد ذلك الوقت مع بيان دعوى كل واحد، ثم ينتظم مجلس السـلطان بوقوف وزيره و الحـاجب و كبـار الأـعوان و يمكن وزير القضايـا التقرير من السـلطان فيقرأه و يـأذن بإدخال المشـتكين على حسب ترتيبهم فى كتاب التقرير و يسمع من المشتكى دعواه و يطابقها على التقرير و عند ذلك لهم طريقتان.

الغالبة: هى أن السلطان يجيب المشتكى بما يراه فى فصل نازلته أو تحويلها إلى الشرع، ثم ينفذ وزير القضايا ما أمر السلطان به.

و الطريقـة الثانيـة: هى أنه بعـد فراغ جميع المشـتكين و تطبيق شـكواهم على التقرير يوقع السـلطان على التقرير فى كل نازلة بما يراه و يـدفع التقرير إلى ذلك الوزير و هو يخرج من بين يـديه و ينفـذ ما أمر به السـلطان، و سـيرة عموم الدولة على السـنن القديم فى الأمم التى لم يتسع نطاقها فى التمـدن و فى الأغلب محافظون على الشـعائر الدينيـة و سوق العلوم الدينيـة رائجـة جدّا بحيث لا تخلو المملكة من فحول فى كل وقت، و من أهم صـفات سـلاطينهم العلم و أما العلوم الرياضـية فإما أن يقال أنها منقطعـة عندهم بالمرة أو أن بعض فروعها لم يزول فيه رمق على النمط القديم، و ذلك مثل علم الأسطرلاب و الهندسة.

كما أن لبعضـهم ولوع و دعوى فى علم الطلسـمات و سر الحرف، و كذلك علم الكيمياء بمعنى قلب بعض المعادن إلى الذهب الذى

ضاعت فی البحث عنه رجال و أموال من غیر طائل، و أغلب السکان غلیظوا الطباع علی السذاجة البربریة، أهالی شجاعة و اقتحام للمشاق و رضاء بشظف العیش.

و لأهل المدن أخلاق حمیدة و صفات جیدة متمسکین بالدیانة و متحاشین عن المعاصی و کل قادح فی العدالة، و لهم الید الطولی فی التجارة بحیث أن تجارة داخل المملکة أعنی

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۱۹

غیر المراسی التی علی البحر هی بید الأهالی، و یرسلون منهم إلی أقاصی الممالک لمعاطاة الأشغال التجاریة و وصلها بمملکتهم، حتی لا تکاد تجد مدینة شهیرة للتجارة فی إحدی قارات أوروبا و آسیا و أفریقیا إلا و فیها من تجارهم من له مزید الرواج و الثروة، و لهم براعة فی إدارة التجارة یناکبون بها الأوروباویین و لا زالوا یحترسون من تداخل الأجانب فی أحوال مملکتهم حتی أنهم یمنعونهم من السکنی فی غیر المراسی التی علی البحر، و سفراء الدول یسکنون فی مرسی طانجه، و من أراد منهم مواجهة السلطان یرسل إلیه بطلب ذلک فیرسل له السلطان خفراء مخصوصین و یقدمون به من هناک إلی تخت المملکة، فینزل فی إحدی القصور الملکیة و یعین له یوما للمواجهة فیخرج فیه و یقف فی ساحة أو طریق رحیبة معلومة و تقف العساکر و المتوظفون یمینا و شمالا، ثم یأتی السلطان راکبا فی خاصته و حاشیته و هم مشاة إلی أن یقرب من السفیر فیتعرض له و عند الوصول إلیه یوقف السلطان سیر جواده و یسلم علی السفیر و یلقی إلیه السفیر الکلام الرسمی المعهود للإقتبال فیجیبه السلطان بمثل ذلک و یعلمه أنه أذن وزیره باقتباله و التفاوض معه فی مأموریته و یستمر فی سیره و ینفصل الموکب و بعد ذلک یقع التفاوض بین الوزیر و السفیر إلی أن یستقر القرار علی شیء، فیعود السفیر إلی البلد المستقر به محفوفا بالخفر.

و من عوائدهم فی أمن الطرق أن کل قبیلة حول إحدی الطرق تکون کفیلة بمن یمر فی ذلک الطریق علی حدود معلومة ثم یدخل المسافر فی کفالة غیرها و هکذا علی شرط أن لا یسافر لیلا و أن یعطی علی کل دابة أجرا مخصوصا لتلک القبیلة و هذا الأجر لا یحجف بالمارین فإذا حصلت مضرة لأحد المسافرین تغرمها القبیلة التی وقع فی حدودها ذلک الحادث، و إذا دخل وقت الغروب فیجب علی المسافر المبادرة إلی أحد المنازل الواقعة علی الطریق لتلک القبائل و هم یرحبون به و لهم منازل کثیرة حول الطریق، و کذلک البرید له فی کل بلدة شیخ و له أتباع یحملهم المکاتیب و یأخذ علیها أجرا زهیدا و یسافر به الحامل و معه رفیق لکی لا یقع التعطیل بمرض أو غیره، و یمشون راجلین و یمکنون المکاتیب فی کل بلدة بید شیخ بریدها و هو یوزعها ما لم یعرض أمر خاص فلصاحبه إرسال برید خاص بأجر وافر علی حسب بعد المکان و لأصحاب البرید سرعة فی السیر. أما برید الدولة فهو فی عهدة القیاد یرسلونه من واحد إلی آخر إلی أن یصل لمقره و أصحابه رکاب و لا یسمح لأجنبی مطلقا أن یقیم بداخل المملکة.

و الیهود یسکنون فی المدن و غیرها علی صفة أهل الذمة غیر أن عوائدهم القدیمة معهم تجاوزوا فیها حد الشرع فی إهانتهم و إذایتهم حتی فتحوا علیهم بابا لمداخلة الدول بواسطة الجمعیات الیهودیة فی ممالک أوروبا و کانت أرسلت فی أواسط هذا القرن دولة الإنکلتیرة طالبة من السلطان تغییر تلک العوائد فأجابهم لطلبهم قائلا أن الحکومة تسلک معهم هذا المسلک و أما الأهالی فحیث کانوا غیر منقادین لجمیع الأوامر فعلی الحکومة مراقبتهم بقدر الإستطاعة.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۲۰

و لما علم الیهود بذلک امتنعوا من قبول تلک المنح و أرسلوا إلی أوروبا قائلین: دعونا علی عادتنا المألوفة و لا تتداخلوا فینا و أعلنوا للحکومة و الأهالی بذلک طالبین التألف بهم و الأمان علی أنفسهم فأمنوهم و استقروا علی ما کانوا علیه، و وجه سلوکهم ذلک المسلک أمران:

أحدهما: ظاهری، و هو أن دیانتهم قاضیة علیهم یتحمل الهوان و المشاق إلی خروج المسیح لکی ینقذهم علی دعواهم.

و ثانیهما: و هو الباطنی أنهم یعلمون تسلط الأهالی علیهم و عدم معارضة الحکومة لهم إما عجزا أو تعاجزا فیقعون فی الهلاک، و علی

فرض أخذ الدول لثأرهم فما فائدتهم بعد انقراضهم، و صرح بذلك بعض رؤوسائهم لأنهم أحرص الناس على حياة. و فى هاته السنة و هى سنة ۱۲۹۷ ه أحرق الأهالى يهوديا فعادت الكرة من الجمعيات المذكورة آنفا و وجدت دولة إسبانيا الفرصة للتداخل تعاميا عما فعلته هى مع اليهود مما هو من ذلك القبيل أو أشد، و ما بالعهد من قدم كانت تمنع دخولهم إلى مملكتها و لم يزل ذلك إلا عند إعطاء الحرية العامة فى إسبانيا منذ عهد قريب، و لكن مريد التداخل يفتش على ما يوافق قصده، فلذلك دعت دولة إسبانيا جميع دول أوروبا لعقد مؤتمر للنظر فى أحوال اليهود و رعايا الأجانب فى مملكة المغرب لأن اليهود أكثروا بالرحيل إلى بعض الممالك الإفرنجية و يحصلون منها على الحماية ثم يعودون إلى المملكة المغربية و يسكنون بأماكنهم الأصلية و عند إجراء الأحكام و العادات عليهم يتجاسرون بإظهار الحماية الأجنبية فلم تعترف لهم الدولة المغربية بذلك و تقول: إما أن تكون أجنبيا فلا تدخل للمملكة و إما أن تكون أهليا فتجرى عليك الأحكام هذا على تسليم الحماية، و دولة إسبانيا تريد الإنتصار للمحتمين و أن يكون لهم السكنى فى دواخل المملكة بدعوة تعميم التجارة، و بعض الدول يوافقها لكى يتسع باب التداخل فى المملكة حتى يتسلط عليها. و الدولة المغربية مصرة على الامتناع و التمسك بالمعاهدات و العادات المألوفة فعقدوا لذلك مؤتمرا فى مدريد فى شهر جمادى الثانية سنة ۱۲۹۷ ه و كانت كل من دولتى فرنسا و انكلترا مساعدة لدولة المغرب، أما فرنسا فلمجاورتها لها فى الجزائر و هى قد رأت من أهالى الجزائر متاعب شديدة فإنها استولت عليهم منذ خمسين سنة و هم لا زالوا يحدثون الثورة عليها مهما سنحت لهم الفرصة مع قلة الفائدة بالنسبة للخسارة، فتريد توكيد المودة مع دولة المغرب لكى لا يحدث لها بمشاحنتها هيجان فى الجزائر سيما و هى تعلم أن الاستيلاء على المغرب غير متيسر لمعارضة دول أوروباوية قوية فى ذلك، و أما إنكلترا فتريد استجلاب دولة المغرب و بقاؤها لكى لا يتسلط على خليج طارق دولة قوية يمكن أن تمنع الإنكليز من المرور به إلى البحر الأبيض، كما تخشى أيضا من أنها إذا أظهرت لها التشدّد عليها ربما تميل إلى دولة أخرى ذات اقتدار و تحالفها و يصير الجميع ضدا للإنكليز فى وقت الحاجة.

و مثل هاتين دولة ألمانيا، فكثيرا ما تظهر المودة لدولة المغرب رجاء أن تمكنها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۲۱

بمرسى على أحد شطوطها و لا أقل من أن تكون مجرّد حليفة لها حتى يخشى الفرانساويون عند عقدهم الحرب مع ألمانيا من هجوم المغرب على الجزائر، و بقية الدول لا أرب لهم هناك و لذلك يظن أن لا يحصل ضرر على هاته الدولة من ذلك المؤتمر لأن إسبانيا وحدها لا تقدر على جلب مساعدة الدول إليها، و هى بنفسها و لئن كانت قادرة على التسلط على المغرب لكن الدول السابقين الذكر اللاتى لها منافع هناك تعارض إسبانيا فى قصدها. و مع هذا كله فإنهم لا بد أن يظهروا شيئا لتلك المملكة حتى تراعى الإتحاد الأروباوى، و يا ليتهم تجنبوا ما نهى عنه الشرع و لم يعملوا مع أهل الذمّة إلا ما أمر به الشرع لأن مجاوزة الحدود تقضى بالإنقلاب و لا حول و لا قوة إلا باللّه.

ثم إن صناعة النقش فى الجص على ظواهر الحيطان المسماة فى العرف بنقش حديدة لها إتقان عظيم بهاته المملكة و كذلك دبغ الجلود، و أما القوة الحربية فإن لهم قبائل مخصوصين معفون من جميع الأداء للدولة و هم القائمون بحمايتها مع إعطاء الدولة إليهم المعاشات و السلاح و الخيل، و على بقية القبائل زيادة على الزكاة و العشر أن يدفعوا للدولة مقادير معينة من الخيل، أما عند حدوث الحرب فيلزم جميع المملكة أداء ما يحتاج إليه من الكراع و الذخيرة، و لا زال سلاحهم على الطرز القديم و كذلك حركاتهم العسكرية، لكن منذ نحو ثلاثين سنة ابتدأوا بتنظيم العسكر على الطرز الجديد و ألفوا جيشا يحتوى على ستة عشر ألفا، و معلموه من عساكر تونس و لكنه انخرم و هرب أغلبه، و لكن قد أخذ السلطان المتولى الآن و هو مولاى حسن فى تنظيم الجيوش على مقتضى الطرز الجديد و أرسل تلامذة إلى مدارس فرنسا و ألمانيا لتعلم الفنون الرياضية، و اللّه ينجح سعيه و يحرس المملكة.

الفصل الحادى و الأربعون المملكة الثانية هى مملكة الجزائر،

و هی شرقی السابقة. و یحدها شرقا تونس، و جنوبا الصحراء، و غربا المغرب، و شمالا البحر الأبیض، و هی تابعة لفرنسا منذ سنة ۱۲۲۷ ه، و سیأتی تفصیل الکلام علیها فی المقصد. و إنما نقول هنا أن عدد سکانها نحو ملیونین و نصف و أکثرهم مسلمون، و قاعدة المملکة هی بلد الجزائر و الأحکام السیاسیة و الضبط مثل فرنسا، و الأحکام الشخصیة بین شرعیة إسلامیة و بین قانونیة فرنساویة.

الفصل الثانی و الأربعون المملکة الثالثة هی مملکة تونس:

و یأتی تفصیل الکلام علیها فی المقصد إن شاء اللّه تعالی، و الإجمال أنها مملکة إسلامیة تابعة للدولة العثمانیة مستقلة بالإدارة و حکمها استبدادی محض، و سکانها نحو ملیون و نصف، و قاعدتها مدینة تونس، و یحدها شرقا و شمالا البحر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۲۲

الأبیض، و غربا الجزائر، و جنوبا الصحراء الکبیرة و طرابلس.

الفصل الثالث و الأربعون المملکة الرابعة هی طرابلس الغرب

و هی مملکة إسلامیة من عهد سیدنا عمر رضی اللّه عنه، و کانت فی أیام دولة الرومان و القرطاجنین فی غایة العمران و الخصب و إن کانت المیاه بها قلیلة لکن الآثار القدیمة دالة علی إخراج منابع الماء بها من العیون و الآبار و حفظ ماء المطر غیر أنها الآن قلیلة الخصب و السکان، فسکانها لا یتجاوزون الملیون و المعمور منها أودیة خاصة و قاعدتها طرابلس و یتبعها ولایات مثل برقة و غدامس و فزان و بنغازی، و هاته الأخیرة تارة تفرد بالإدارة و تارة تتبع طرابلس، و قد استولت الدولة العثمانیة علی هاته المملکة فی المائة العاشرة من الهجرة سنة ۹۵۸، و ذلک أن الدولة الحفصیة التی قاعدتها تونس لما ضعف أمرها و استبدّ علیها الولات فی الأطراف کان من جملة من عصی علیها والی طرابلس التی کانت تابعة لها، و جار فی الأهالی فتجهز إلیه السلطان الناصر الحفصی و غلبه و أولی علی طرابلس أبا محمد عبد الواحد ابن حفص فقبل الولایة بعد امتناع طویل علی شروط.

أوّلها: إبقاءه والیا إلی أن یعید البلاد إلی أعزّ ما کانت علیه من الغناء و الراحة.

الثانی: أن یستقل بالإدارة مدّة ولایته بحیث لا یعارض و لا یرد أمره فی شیء.

الثالث: أن ینتخب مقدارا من العساکر حسب إرادته لإبقائهم فی إعانته، فأجیز له ذلک و بقی فی الولایة إلی أن مات و ولی ابنه الذی هو علی شاکلته فاستقرّ العدل و الغناء فی المملکة حتی بلغ النهایة، و أخلدت الأهالی إلی الراحة و ترک السلاح لما ضجروا منه سابقا حتی کان ذلک سببا لطمع العدوّ فیهم، و ذلک أنه قدمت إلی ثغر طرابلس سفینتان مشحونتان تجارة فاشتری جمیع ما فیهما رجل واحد و نقد الثمن حالا و استدعی من فیهما لولیمة أعدّها لهم، و بعد إحضار الطعام أخذ لؤلؤة فاخرة ذات قیمة عظیمة و دقها فی الهاون بمرأی منهم و ذرها علی الطعام قائلا هذا لکم مقام الفلفل، ثم أحضر بطیخة خضراء و أراد قطعها فلم یجد سکینا فسأل منهم سکینا و لما سئل عن سبب عدم السکین عنده، قال: إن الأهالی کانوا ضجروا من حمل السلاح لیلا و نهارا أیام الظلم و العدوان، و لما استقرّ الأمن و العدل صار السلاح بیننا حمله معیبا و من حمله أهین بین الأهالی. فتعجب المدعوون الذین هم من الإسبنیول القائم فی ذلک الوقت کما یرد خبره فی تاریخ تونس، فأخبر أصحاب السفن دولتهم بما رأوا فطمعت فی طرابلس و کان عندها ابن السلطان الحفصی مستنجدا بها علی أبیه، فحملت بجیش قلیل علی طرابلس و امتلکتها بإسم أحمد الحفصی الابن المذکور و جار فی البلاد أشدّ الجور هو و الإسبنیول، و لما رأی ذلک النابلطان الذی هو أحد ممالک إیطالیا تداخل بین الأهالی بالإفساد و وعدهم بالحمایة

من الظلم و أنهم إذا أطاعوه حماهم من المظالم و لا يتداخل فى أمورهم و إنما يستولى على الحصون فقط، فكان ما كان و أجرى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۱۲۳

فيهم الأمر أوّلا على نحو ما وعد ثم ابتدأ بالتداخل فى أمرهم فامتنع بعض أعيان الأهالى و تحصنوا فى «تاجورى».

و كانت الحرب بينهم قائمة غير أنهم علموا بضعفهم عن امتداد المقاومة فأرسلوا وفدا منهم إلى الأستانة مستنجدين بالدولة العثمانية فى إنقاذهم و دعوها للإستيلاء على جميع البلاد حيث كانت هى إذ ذاك أقوى دول الإسلام و جمعت تحت رايتها أغلب الممالك الإسلامية كمصر و الشام و العراقين، و لما وصل الوفد إلى الأستانة تعجب من شكلهم كل من رآهم و لم يجدوا أحدا يفهم لغتهم حتى صادف أحد الطواشيين فى القصر السلطانى الجمع المحتبك للتفرّج فيهم و كان عالما باللغة العربية فعلم القصد و كان هو الواسطة فى إبلاغ مطالبهم للدولة، فأولته هو على تلك البلدة و أرسلته معهم مع حامية ضعيفة لأنهم سهلوا الأمر على الدولة، لكنه لما أن وصل ذلك الوالى و علم حقيقة الأمر أرسل بتفصيل الأخبار إلى الدولة و كان إذ ذاك أسطولها الموجه إلى الإستيلاء على تونس على أهبة السفر تحت رياسة سنان باشا فأمر بالتعريج على طرابلس أوّلا فافتكها من أيدى النابلطان و بقيت مستقلة بالإدارة و ليس للدولة عليها إلا هدايا و إعانات فى وقت الحرب، إلى أن عصى يوسف باشا قره منلى و حاربته الدولة فى أواسط هذا القرن أى سنة ۱۲۵۱ ه و استولت استيلاء باتا على المملكة و صارت إدارتها مثل إدارة سائر الولايات العثمانية، و مركز الولاية مدينة طرابلس الغرب و سكانها يميلون للبداوة و لو أهل المدن، و يحدها شرقا مصر، و شمالا البحر الأبيض و تونس، و غربا تونس، و جنوبا الصحراء الكبيرة.

الفصل الرابع و الأربعون المملكة الخامسة: هى مصر،

و إجمال الكلام عليها أنها مملكة إسلامية مستقلة بالإدارة تابعة للدولة العثمانية، و قاعدتها مصر و يتبعها ممالك مثل النوبة و دارفور و كردفان و زيلع و غيرها من ممالك السوادن، و جميع سكانها مختلف فى عددهم من الثلاثة عشر مليونا إلى الستة عشر مليونا و الأخير باعتبار الإضافات اللاحقة بها أقرب، و حكمها ظاهرا قانونى بين شرعى و سياسى، و يحدها شمالا البحر الأبيض و الصحراء، و غربا طرابلس، و شرقا الشام و جزيرة العرب و البحر الأحمر، و جنوبا الحبش و السودان و الصحراء الكبيرة، و تفصيل الكلام عليها يأتى فى المقصد إن شاء اللّه تعالى.

الفصل الخامس و الأربعون المملكة السادسة: هى الحبشة،

و يحدّها من جميع جهاتها السودان المصرى و عدد أهلها نحو خمسة ملايين على التوحش و البربرية، و الديانة عندهم الغالبة نوع بين النصرانية و اليهودية و الوثنية، أعنى أنها كانت نصرانية ثم امتزجت بفروع من تلك. و الحكم إستبدادى متوحش و لا يعرفون حقائق العلوم و لا التمدّن، و لذا لا يعلم كم دخلها و لا خرجها، و هى لا تزال فى ضعف من الحروب الأهلية، و بين أهلها كثير من المسلمين دخلهم الإسلام من عهد البعثة.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۱۲۴

الفصل السادس و الأربعون المملكة السابعة: هى مملكة الزنجبار،

و موقعها على شطوط أفريقية الشرقية على المحيط الشرقى، و قاعدتها فى جزيرة أمام القارة. و هاته المملكة هى إسلامية عربية من قديم، و تارة تكون تابعة لغيرها من ملوك جزيرة العرب و تارة تستقل، و فى أوائل هذا القرن استفحل ملك أحد أئمة مسقط بجزيرة العرب و هو المسمى بالسيد سعيد من أعيان ملوك الإسلام المتأخرين، فعبر السيد سعيد البحر و استولى على زنجبار و جعلها مقر ملكه، و أشاد فيها الحصون و رتب فيها الإدارة الملكية مع انتحال شعائر الدين الإسلامى و كان من أتباع المذهب الوهابى، كما أنشأ أسطولا بحريا يتألف من أربع سفن كبار حربية ذات طبقتين، و من عمل مداركه السياسية أنه لما علم إزدياد القوّات الأوروباوية و طموح أنظارهم إلى الجهات الشرقية و غيرها كما حصل بالفعل فى شطوط أفريقية و الهند، راكن حينئذ دولة الإنكليز و جعل معها عهدا حتى تكون كافلة بحماية ممالكه من تسلط الغير لأنها أقوى دولة أوروباوية لها شوكة فى تلك الأقطار، و فى آخر حياته أولى على مسقط أحد ولديه و هو المسمى السيد توينى مستقلا بها، كما أولى على الزنجبار ولده الآخر المسمى السيد ماجدى، و بعد وفاته حصلت نفرة بين الأخوين و عزما على الحرب فتداخلت بينهما دولة الإنكليز و تصالحا على أداء ملك الزنجبار إلى إمام مسقط مقدارا سنويا حيث أن المملكة الأولى أغنى من الثانية و الثانية أقوى. و كانت مالكة للأولى. ثم (ازداد غناء مملكة الزنجبار و اعتبارها بعد فتح خليج السويس لاعتناء سلطانها السيد برغش، و إجراءه للعدل.

و لأهلها تمدن و فطانة عربية، و قد زار سلطانها السيد برغش ممالك أوروبا فى أوائل عشرة التسعين بعد المائتين و ألف و أخذ ينحوا منحى التمدن الأوروباوى فى بعض أشياء، سالكا مسلك الإستشارة الذى هو أساس العدل، و دخل هاته المملكة يأتى إن شاء اللّه تعالى فى جدول دخل الدول، و أما عدد السكان فهو نحو مليونين تقريبا.

الفصل السابع و الأربعون المملكة الثامنة: هى مملكة برنو،

و هى فى دواخل القارة فى الجهة الشمالية الشرقية، و يحدّها شرقا واداى، و جنوبا الأراضى المجهولة، و شمالا الصحراء الكبيرة، و غربا قبائل بنبرا. و هى مملكة سودانية إسلامية يقال فى صفتها و أحوالها ما يشبه مملكة مراكش.

و ملكها من نسل العرب و يقال من الأشراف، و تخته كوكا أو كوكو قرب بحيرة أتشات أكبر بحيرات دواخل أفريقية، و هذا التخت منقسم إلى قسمين كل قسم له سور و فيها بلدان للتجارة، منها ما به معامل للصبغ و أخرى لنسيج الثياب القطنية.

و سلطانها مستقل و يلقب فى عرفهم بالشيخ و من دونه يلقبون سلاطين، و له اقتدار و يوسم بالعلم بل يقال عنه أنه يقرأ درسا من تفسير البيضاوى و درسا من صحيح البخارى.

و لمملكته قبائل تؤدّى خراجا له و هى مركى، و تختها دورا و مندرا و لوكون، و لهم صنائع فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۲۵

النسيج و غيره و لسلطان برنو جيش من السودان على أنواع غير نظامية، و له معسكر خاص يقدمه بين يديه على أحسن صورة و أكمل خلقة أشدّاء لهم رماح و أقواس من الحديد و لكل فى ذراعيه حلق من حديد ماسكة لزنديه علامة على القوة، و لا لبس لهم إلا ما يستر العورة و بأصابعهم خواتم من حديد تعين على جذب القوس لصلابته ليبعد رميه، و لا يلبس العمامة إلا السلطان و هى عمامة كبرى بيضاء. و لدولة ألمانيا معه مواصلة و مهادات لإعانة جمعية الجغرافيا على الاكتشاف، و يقال إنه يقدر أن يعسكر من الفرسان أزيد من مائة ألف من عموم الأهالى و يستعمل عندهم الأسلحة النارية، و لغة الدولة هى العربية و فيها العلماء و عدد السكان باعتبار الإضافات نحو ثمانية ملايين تقريبا.

الفصل الثامن و الأربعون لا يخفى أن بقية أفريقيا [قد قسمها الجغرافيون إلى أحد عشر قسما كبرى،]

لما كانت غير مكتشفة حق الإكتشاف لجميعها و ليس لأهلها من التقدّم ما يماثل بقية الممالك، قد قسمها الجغرافيون إلى أحد عشر قسما كبرى،

[القسم الأول السودان]

اشارة

فأوّلها: سمّوه بالسودان، و يحدّه شرقا ولايات مصر السودانية مثل دارفور، و يحدّه شمالا الصحراء الكبيرة، و يحدّه غربا سانيغال، و يحدّه جنوبا كينيا العليا و بلاد الكفر. و هذا القسم يشمل عدة ممالك و قبائل مستقلة.

(تنبيه) لما كان غالب أسماء هاته الجهات و القبائل منقولة من لسان أعجمى إلى الفرنساوى، و منه نقلنا أغلبها، فربما وقع تحريف فى الإسم، و لكن على كل حال يفيد تقريبا المقصود بالمادّة، و من ممالك هذا القسم سلطنة برنو المتقدّمة و أكثر الممالك التى فيه أهلها مسلمون و فيهم علماء أجلة لهم تآليف إلى هذا العهد، و لكن الإطلاع على تفاصيل أحوالهم بالنسبة إلينا لما كان عسرا اكتفينا بالذكر الإجمالى.

القسم الثانى: هو أراضى سانيغال أو سانيغانبى،

اشارة

و هو يشتمل على عدة أمم، و يحده شمالا الصحراء، و شرقا قسم السودان، و جنوبا مملكة جبال الأسد و كينيا العليا، و غربا و بعض الجنوب المحيط الغربى، و فيها جبال كثيرة و نهران عظيمان، و عدد جميع سكانها نحو إثنى عشر مليونا، و قد استولى الفرانسيس و الإنكليز و البرتغال على أكثر شطوطها.

الفصل الثالث و الخمسون فى المستقل من سانيغال قد بقيت دواخلها منقسمة إلى عدة حكومات أكبرها ثلاثة،

الأولى: بالس. الثانية: ماندنيك. الثالثة: كيولوفس، ثم البقية صغار متفرقون.

الفصل الرابع و الخمسون ممالک تيمانى و سوليمانه،

و موقعها فى جنوب السابقة بينها و بين كينيا العليا، و تختها فالابا و بإزاء هاته قبائل كورانكو و تختها كورا كونكا.

القسم الثالث: هو كينيا العليا،

اشارة

و فيها قبائل و أقسام و هذا القسم ممتد مع شاطىء البحر الغربى معرج معه إلى الشرق ثم إلى الجنوب إلى مبدأ خط الإستواء القاسم للقارة، و يحده جنوبا كينيا السفلى عند خط الإستواء و المحيط الغربى، و غربا المحيط، و شرقا بلاد الكفر، و شمالا قسم السودان فى الأغلب و فى الأقل سانيغال.

الفصل الخامس و الخمسون أوّل أراضى هذا القسم هى المسماة: كرومان،

و هی قبیلة من الأصلیین هناک ذات أخلاق حسان و هم أقویاء تألفهم الغرباء و یوفون بالعهد، و هم فی شمال کینیا العلیا، و علی الاجمال فجمیع سکان کینیا العلیا متوحشون من السودان و بینهم مسلمون و نصاری ارتحلوا إلی هناک و منهم من صار لهم فیها مستعمرات.

الفصل السادس و الخمسون فی مستعمرات الإنکلیز بهذا القسم و هی الأراضی المسماة: جبال الأسد،

و سکانها من السودان و تختها فریتوفن.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۲۸

الفصل السابع و الخمسون فی مملکة لیبریا هی مملکة جمهوریة مستقلة تسمی: لیبریا

سکانها من السودان المعتوقین من أمریکا، و تعرّفت بها دول أوروبا من سنة ۱۲۵۶ ه- ۱۸۷۴ م. و سکانها نحو خمسمائة ألف من السودان، و لها مجلس نواب إلی غیر ذلک من سمات الدول المتمدنة و لغتهم إنکلیزیة، و نهایة مساعیهم تحریر العبید السود فی الدنیا و موقعها علی الشاطیء الغربی المذکور، و تختها مدینة مرنوفیا و تحت هاته الجمهوریة ولایة أخری أنشأتها الجمعیة الحرّة المذکورة، و من قانونها أن لا یدخلها إلا السودان الذین یقسمون أیمانا علی أن لا یشربوا مسکرا، و إسم تختها هدبر.

الفصل الثامن و الخمسون فی أرض شاطیء الفیل،

و هی تلی المملکة المتقدمة، و هی من أراضی کینیا، یحدها المحیط المذکور جنوبا بقرب خط الإستواء و لم یمکن للسواح التوغل و الإقامة بها لفساد هوائها و إن أصلح الفرنساویون أماکن أقاموا بها، و شرقی الأرض المذکورة الأرض المسماة بشاطیء الذهب سمیت بذلک لغنائها به و استعمرها الإنکلیزیون ببلدان کثیرة.

الفصل التاسع و الخمسون فی دواخل کینیا العلیا

و فی دواخل کینیا عدة ممالک سودانیة منها: قبائل فانکی، کأنهم عصبة ضد حرب قبائل إسهانتی التی هی فی الدواخل المذکورة، و هم مثل أمّة قویة مخوفة لسفکهم الدماء حتی أنهم یضحون الآدمین فی جنائز کبرائهم و عند انتصارهم، و تختهم یسمی کوماسی.

الفصل الستون فی بقیة شطوط کینیا العلیا و دواخلها

ثم شرقی الشاطیء الذهب شاطیء المماریک سمی بإسم التجارة الرائجة هناک، ثم فی دواخله ممالک داهومیه سکانها نحو ثمانمائة ألف من السودان و لها ملک له عشرون ألفا من العسکر منهم خمسة آلاف نساء و یضحون المئات من الآدمین فی أفراحهم، و تختهم أبو میخ. ثم فی شرقی ما ذکر ممالک هاونکلا و أتاکلا و هوی و بالی و شرقیها ممالک یربا تمتدّ إلی أن تصل إلی قرب ممالک برنو و ما جاورها و قد تقدم ذکرها، و بإزائها قبیلة أکیاس الذین التجأوا من کثرة الحرب معهم إلی جبال صخریة و أنشأوا هناک بلدا متحصنین بها، و عددهم نحو مائة ألف تحت ریاسة رئیس بانتخابهم، و لهم رئیس حرب و أسلم منهم کثیر و أمّنوا سبلا إلی مملکة تنبکتو، و شرقی السابقة مملکة بنین و شرقی هاته شاطیء کالآبار، ثم جنوبی هاته محاذا لها علی الشاطیء مستعمر فرنساوی یسمی کابون و هو نهایة ممالک کینیا العلیا.

القسم الرابع: من الأقسام الکبری قسم أفریقیة الجنوبیة.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۲۹

الفصل الحادی و الستون فی ممالک رأس الرجاء الصالح فی نهایة الجنوب علی الشاطیء من المحیط الجنوبی رأس الرجاء الصالح

و هو مستعمر للإنکلیز، و تختها بلد الرأس سکانها سبعمائة ألف ویلیها شمالا فی داخل القارة ولایات صغار، و هی تاماکاس و کوراناس و بوشمس.

القسم الخامس: من الأقسام الکبری بلاد الکفر و هو شمالی الرأس و هو أراض واسعة عظیمة تنتهی إلی الشاطیء الغربی، و الشاطیء الشرقی. و تتوغل فی القارة و تسمی بلاد الکفر، و منهم قبائل الزلوس و قبائل ناتال و جمهوریة نهر أورنج، و جمهوریة ترانزفال، و بلاد البتجو أناس و بلاد أوتانتو.

الفصل الثانی و الستون فأما الزلوس فهم أقویاء أشدّاء أهل حرب،

و قد حاربوا الإنکلیز سنة ۱۲۹۶ ه کما هی عادتهم معه، و مات فی هاته الحرب ابن نابلیون الثالث إمبراطور الفرانسیس لترؤسه علی عسکر إنکلیزی، ثم قهر الإنکلیز الزلوس و أسروا ملکهم الذی یعتقد نفسه کنابلیون الأول و خضعوا إلی الإنکلیز علی شروط استقلال إدارتهم.

الفصل الثالث و الستون و أما أراضی ناتال فسکانها إنکلیز و هلاندیز و زلوس و باستوس بربریس و هنود،

و جمیعهم نحو أربعمائة ألف نسمة، و تختها ماریس بورک.

الفصل الرابع و الستون و أما جمهوریة نهر أورانج و هی شمال رأس الرجاء،

و سکانها من الکفر المسمون بوتجوانس و هلاندیز، و تختها بلویم فنتین، و لهم رئیس و مجلس شوری و مجلس نواب، و دیانتهم برتستانت و هناک قبیلة من الکفار مستقلة تسکن بالجبل الأزرق.

الفصل الخامس و الستون و أما جمهوریة ترانسفال فهی واقعة فی بلاد الزلوس

و عددهم نحو ثلاثمائة ألف و ثلاثین ألفا، و تنقسم الحکومة إلی أربعة أقسام، لکل: مجلس و رئیس و منفذ و کاتب و تختها بوتش شیفستروم، و من قوانینهم أن رئیس الجمهوریة معه إثنا عشر عضوا لإدارة الحکومة یبقون ثلاث سنین.

الفصل السادس و الستون و أما مملکة بادجوانه فتختها کورومان و بجوارها مملکة أوتانتو

و هم فاسدوا الأخلاق حتی یشبهونهم بالمنغول، و عقولهم ردیئة حتی أنهم یدخلون منازلهم یمشون علی أیدیهم و أرجلهم کالحیوانات، و فی کلامهم یلصقون لسانهم بلهاتهم. و فی شمالی نهر أورنج

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۳۰

صحراء تسمی کالاهاری لا ماء فیها و لا نبات إلا إذا صب المطر فتنبت عروقا و بطیخا بکثرة، و یوجد الفیل هناک بکثرة و الجاموس و الزرافة و النعام و الکرکدان و هناک نوع من البشر وحشی یصطادونه کما تصطاد السباع. ثم أراضی الزنبیر یسکنها نوع من السودان یسمی ماتیونا و انتتفی و کولولو و غیرهم.

القسم السادس: من الأقسام الکبری: کینیا السفلی، و هی علی شاطیء المحیط الغربی یحدّها شمالا کینیا العلیا، و غربا المحیط، و شرقا

بلاد الكفر، و جنوبا قسم الرأس.

و هى أرض غنية بها نوع من القصب عجيب يسمى بانبو، يدوم من الأربعة إلى الخمسة آلاف سنة و ساق شجرته محيطه نحو ستين ذراعا، و بها نوع من القردة أكثر شبها بالإنسان، لكن بها نوع من الذباب قتال لمن يلسعه، و أغلب السكان من السودان و حشيون و منقسمة إلى عدة عمالات.

الفصل السابع و الستون فى ممالک کینیا السفلی

فالأولى: تسمى لونقور و تختها بوالى، ثم عمالة کاکونکو و تختها کین کلی، ثم عمالة نکویو و تختها کانبدا، ثم عمالة کونکو تختها بنزا کونکا، ثم عمالة أنکلا تحت استعمار البرتغال و تختها لوواند، ثم عمالة بنکلا للبرتغال أيضا تختها صان فليب، و هذان سکانهما نحو ستمائة ألف من السودان و لکل حاکم، و فى جنوبيها صحراء سيم ببازى.

القسم السابع: من الأقسام الکبرى: هو المسمى موزن بيک، و هو شمالى بلاد الکفر على الشاطىء الشرقى للمحيط، و لا يعرف منه إلا الشط، و هو مستعمر للبرتغال و منقسم إلى سبع حکومات.

الفصل الثامن و الستون فى ممالک هذا القسم و هى مرکز و أنها نبانى و سوفالا و سينا و کيليمانى و موزنبيک و ديلکاد،

و يحد هذا القسم شمالا مملکة الزنجبار التى تقدم ذکرها.

القسم الثامن: من الأقسام الکبرى: قسم سوموليس و هو فى الشرق الشمالى من زنجبار، و يحده شمالا جون عدن، و شرقا المحيط، و جنوبا المحيط و زنجبار، و غربا زنجبار.

الفصل التاسع و الستون فى ممالک هذا القسم فسکانه من بربر أفريقية الشمالية و العرب و السودان

و هاته المملکة هى المسماة بزيلع، و کانت شطوطها للدولة العلية، ثم سلمتها إلى مصر بالزيادة فى خراجها و فى نهاية شماليها بلاد عدل و أغلب سکانها مسلمون و لهم إمام من العرب، و فى الشمال الغربى منها بلاد هرر و قاعدتها مدينة هرر سکانها نحو الثمانين ألفا کلهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۳۱

مسلمون على أوصاف حميدة، و بلادهم حصينة ذات أسوار، و التجار آمنون و لهم تجارة واسعة مع اليمن و غيره مع خصب الأرض و سلامة الهواء فى أغلب الجهات و هى داخلة فى الممالک التابعة لمصر.

القسم التاسع: من الأقسام الکبرى هو القسم المجهول، و هذا القسم الکبير الأوسط من أفريقية الجنوبية مجهول، و يحده شرقا زنجبار و ما حولها، و غربا کينيا السفلى و ما حولها، و شمالا برنو و ما والاها، و جنوبا بلاد الکفر، و يخرقها خط الإستواء، و تمتدّ منه جنوبا نحو عشرة درجات و کذلک شمالا و لا يعرف منها عند الجغرافيين إلا ثلاث عمالات، أوّلها: عمالة کازمب و تختها لوسندا. و ثانيها: أونيام وزى و تختها کزخ. و ثالثها: و جيجى و تختها کأولى.

القسم العاشر: هو الجزائر البحرية، و أما الجزائر التابعة لأفريقية و هى فى المحيط کلها لا اعتبار لها إلا جزيرة سنتيلين المقابلة لجون کينيا فى دواخل المحيط، و إنما اشتهرت لکونها مات بها نابليون الأول منفيا فى أسر الإنکليز، و أغلب تلک الجزائر فى تملک دول أوروبا إلا ما يتبع الزنجبار، و کذلک ما يتبع جزيرة ماداغسکار التى هى الجزيرة الوحيدة فى أفريقية فى المحيط الشرقى تجاه شاطىء موزنبيک کما سيأتى.

الفصل السبعون فى مملکة ماداغسکار أو کسکار

و هی من الجزائر الکبیرة المعتبرة فی الدنیا و هی غنیة و فیها نوع من السباع إسمه ماکیز و های های و غیرها من الحیوانات الغیر المعروفة.

و سکانها نحو خمسة ملایین و کلهم من السودان و نوع یسمی هو واس یظن أنهم من نوع سکان الهند، و عددهم نحو ثمانمائة ألف و الدین الغالب هو الکفر من عباد الأوثان، و الجمیع تحت حکم واحد و علیهم ملکة أنثی إسمها رانافولو الثانیة، و قد أمرت بإحراق جمیع آلهتهم و هدم جمیع معابدهم و أمرتهم بالدیانة البروتیستانت فأطاعوها و هم علی ذلک الآن، لکنهم بالإسم فقط إذ لا یعتقدون شیئا و کان ذلک الأمر فی سنة ۱۸۶۸، و تخت المملکة بلدة تناناریفو، و قد اکتشف هاته الجزیرة العرب قبل البعثة و عرفها أهل الصین و أهل همالای.

القسم الحادی عشر: من الأقسام الکبری: قسم الصحراء فتنقسم إلی ثلاثة أقسام:

أوّلها: صحراء المغرب.

و ثانیها: الوسطی أو بلاد التوارک.

و ثالثها: الشرقیة أو بلاد التیبوس.

فالأولی: هی بین مراکش و سنیغال علی شاطیء المحیط الغربی، و الشاطیء فی البحر مملوء صخرا و الریح الغربیة تخرج من البحر رمالا تحدث فیه جزرا منتقلة، و قد تحقق أن وسط هاته الصحراء یکون الرمل دائما منتقلا إلی الجهة الجنوبیة الغربیة، و کان ذلک أحد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۳۲

أسباب عدم النبات بها و تسمی هاته الصحراء بالساحل، و یوجد بها عدة جزائر بالنبات علی خط واحد إمّا لوجود ماء جار علی منحاها تحت الأرض أوندی، و القوافل تمرّ دائما علی سمتها للسقی من آبارها و التزوّد من عشبها.

الفصل الحادی و السبعون فی ممالک الصحراء الغربیة:

و یسکن بهاته الجزائر فی بعض الأوقات نوع من البشر یسمون زنقا، و کذلک التوارک و العرب یجذبهم إلی هناک ربح تجارة العبید و کلهم یتمعشون من القوافل المارة علیهم و تارة یسرقونهم و تارة یسافرون معهم هداة للطریق، و الأصلیون من سکان الصحراء المذکورة مسلمون و هم مرکبون من عرب بنی حسن الذین یقال إنهم رحلوا من الیمن فی القرن الحادی عشر میلادیا، و فیها عمالة تسمی تیریس فی الشمال الغربی علی الشاطیء تأتیها الحیوانات من المغرب و سانیغال و الرعاة لرعی حیواناتهم زمن الربیع لکثرة الخصب، و سکانها أولاد دلیم و هم أقویاء شداد متسلحون و یخترقون الصحراء بالهجائن السریعة و یتمعشون بالنهب، و فی جنوبها بلاد بها کثرة سباخ یتزود منها الملح جمیع أهالی الصحراء إلی بلاد تنبکتو، کما أن فی صحراء المغرب جزائر نباتیة تسمی إدرار علی نحو ثلاثین میلا من سانیغال و بها جبال کثیرة و بلدان و قری و تختها یسمی وادان و سکانها بین عرب و بربر، ثم جزائر تاغانیت کان یسکنها قبائل زاغانا و تختها تیشیت، ثم جزائر والاتا فی الجنوب الغربی و بلاد الهث ضاربة فی الجنوب تختها کسانبرا، و بقرب سانیغال بلاد ترارزاس و براکناس و بلاد سیدی هاشم الذی کان دخل إلی مراکش.

الفصل الثانی و السبعون فی ممالک الصحراء الوسطی:

و أما الصحراء الوسطی فیسکنها العرب المنتقلون إلی هناک بالإستیطان و التوارک، و یمتدون من حدود فزان ببلاد طرابلس إلی بحیرة تشاد، و مرکز قوتهم فی ربا علی شکل مثلث و بها جبال کثیرة و نهیرات و ثلاثة جبال کبری بمحل یسمی نمات، و خارج

المثلث المذكور جهة الجنوب الغربى بلاد أزاود و بقية الجهات قفراء و التوارك يسمون أنفسهم إيموشاك بمعنى مستقلين و أشراف، و إسم التوارك أطلقه عليهم العرب و هو بمعنى التاركين لتركهم الحق فى الصدر الأول، و أما الآن فهم مسلمون و لغتهم تسمى تاماشك و ينقسمون إلى عدة قبائل: توارك هرر فى جبال هكار، و توارك أزقر فى جبال غات، و توارك مويدير فى جبال سكمارن، و توارك الفوقاس، و فى الجنوب جهة تنبكتو توارك الفراج، و توارك أنّ هو و أولاد أحمد و القبائل و تالغوى و جميع هؤلاء القبائل ينقسمون إلى أربعة أقسام كبرى و هى: توارك هكار و توارك أزقر فى غات و توارك كلوى و توارك والى منيدن فى شرق تنبكتو، و القسمان الأوّلان معروفان لكثرة التجارة معهم من الجزائر و يدعون بأنهم أشراف البربر، و هم بيض حسان الخلقة شجعان يحملون الرماح و السيف و الميكحلة أى البندقة و السكين، و يركبون الهجين السريع للغاية مع قوته، و يلبسون

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۳۳

قميصا أبيض أو أسود و على رؤوسهم شواشى طوال و لثام بحيث لا تظهر إلا أعينهم، و لهم ملك يحكم مع كبار القبائل و ولد أخت الملك هو وريث الملك.

هكذا قانونهم و حكمهم ليس بقهرى مطلق بل لهم نوع من الحرّية، و من عاداتهم أن لا يتزوّج الرجل إلا امرأة واحدة شرعية و له غيرها، و ديانتهم الآن الإسلام ليسوا بمتغالين فيها كما هى حالة مجاوريهم، و لهم غنم أصوافها قصيرة و ألياها كبيرة للغاية و لهم معز وابل لحمل الأثقال و هجائن للركوب، و لهم نوع من الخيل من أجود الجياد، و فى جزائر الصحراء لهم نخيل كثير، و القبائل الرحالة هم الحارسون للقوافل المارة فى بلادهم بين شواطىء أفريقية الشمالية و السودان بأجرة مقوننة معروفة و القادم من فزان يجد غات على مسيرة ثلاث و ثلاثين يوما من لغوات، و الأمطار هناك قليلة جدّا و مرض الأعين كثير و هو أصعب طريق بين السودان و طرابلس، و من شهر سبتمبر إلى غاية شهر ننبر يجتمع فى بلاد غات أزيد من ثلاثين ألف جمل بأحمالها، و فى الجنوب الغربى هضاب على جبال هقر تكاد أن تسمى سفيسرة أفريقية لأنها بها جبال ذات آجام و غابات و وهادات تسقى من عيون غزيرة و يدوم فيها الثلج من دجنبر إلى مارس، و من هاته الجبال منبع أعظم أنهر الصحراء المسمى ايغرغر و يذهب جهة الشمال و ينقطع قرب تكررت فى حدود الجزائر، و هى مسكن التوارك الخالصين المخيفين لمن جاورهم بقوتهم و شجاعتهم.

و أكبر بلدانهم تسمى «أدلى» و فى الشمال الغربى جهة مملكة مراكش عمالة توات المكونة من عدة جزائر نباتية متقاربة، و بها نوع من الشجر يسمى كروك هو أحسن فحم للبارود. و أرضهم خصبة لجميع النبات و لهم حيوانات كثيرة و السكان أناس طيبون مسلمون متصلبون و يتجرون مع المغاربة. و الجزائريين و مع غات و السودان، و أكبر مدنها يتميموم و ادرار و تامنتيت و تجتمع الطرق فى بلد أولف و لذلك كانت موقعا مهما للحرب، و فى الجنوب عمالة ايرفى طريق السودان و هى متكونة من جبال صخرية و فى الأودية ينبت كل نبات و فى شهر استمبر تنزل أمطار غزيرة و السكان يسمون كلوى، أصلهم ما بين التوارك و السودان، و تختهم يسمى أوكاديس و لهم ملك يسكن بها. و فى حدود السودان بتوغل فى الجنوب إيالة دامركو، و فى الغرب منها قرب نهر دوريبا إيالة والى مانيدن و بها بلدة مبروك الواقعة على الطريق بين تنبكتو و غات.

الفصل الثالث و السبعون فى مملكة الصحراء الشرقية:

و أما الصحراء الشرقية المحادة لمصر من غربيها فهى ليست كبقية الصحراء، لأنها بها الطفل نوع من الطين بكثرة و بها جبال لونها رصاصى أو أصفر و بها ربا من الرمل رحالة إلى جهة الجنوب و جهة الغرب و سكانها يسمون تيبوس من السودان من نوع القانورى التابع لبرنو و منقسمون إلى عدة قبائل، و هى:

«الرشاد و قران و بركو و باتلين» و غيرها، و الطريق ما بين مرزوق إلى كوكامارة على

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۳۴

سلسلة من الجزر النباتية طويلة جدّا، و أكبرها تسمى كوار و هو حقيقة إسمها و إن سموها بامّما، و يوجد فى هذا القسم جزائر أخر و هى تيبستى و بركو موقعها بين مرزوق و واداى ثم جزيرة كوفارا التى بها بلدة كبابو الواقعة فى الشمال. و جهة الشرق من هذا القسم تسمى ليبيا بها بعض جزر تابعة الآن لمصر و هاته الأماكن التى عبرنا عنها بالجزر تسمى فى العرف بالواحات.

و الخلاصة فى أفريقية: إن جميع سكانها عدا الممالك الشمالية و الممالك التى على الشطوط نحو مائة مليون، و أهم الشطوط بيد ممالك أوروبا و لهم فيها حكم إستبدادى بمراعاة للعوائد، غير أنهم يستعملون القوة القاهرة لتوحش السكان. و بقية السكان غير الممالك التى مرّ ذكرها بتفصيل حالتها هم أناس متوحشون كالحيوانات العجم و دأبهم غزو بعضهم بعضا و لبعضهم رؤوساء يلقبون بألقاب الملك و يجرون الحكم القهرى، و لهم عادات مبنية على خرافات و جلهم أشدّ الناس تعلقا بالسحر و رعبا منه و يعتقدون له من التأثير أمورا عجيبة يكاد السامع أن لا يفهمها، حتى أن بعضهم يستعمل السحرة فى الحرب بل و يعتقدون فيهم الإحياء و الإمانة.

و من هذا القبيل فى حكاية ما يعتقدونه ما أخبرنى به ثقة عدل راويا عن والده الذى هو مثله: «أنه رأى من عجائب سحرهم أن قبيلة و نقره من عادتهم التجارة و يرحلون لأجلها إلى بلد جنى من بلاد قسم السودان، فيتهيأ لذلك كل عام نحو ثمانية أو عشرة من كبرائهم أهل السحر و يعلنون بذلك فلا يزال الناس يأتونهم بأقربائهم و وكلائهم المريدين للسفر و يستودعونهم عندهم إلى أن يجتمع منهم آلاف كل منهم يحمل بضاعته على عاتقه، و يسافرون هكذا مشاة، فإذا مات أحد المستودعين اجتمع السحرة و طلوه بأشياء من نوع شجر عندهم لكى لا يفسد جسمه ثم يأخذون ذنب بقرة مستودع فيه السحر على زعمهم و يمسكونه بيده ثم يوقفوه و لا يزال سائرا معهم إلى الليل فيمدّ ميتا و هكذا ذهابا و إيابا و بضاعته على عاتقه و هو ميت إلى أن يرجع إلى صاحبه». و لو لا تواتر الأخبار بمثل ذلك فى أنواع سحرهم لما أثبتنا هذا هنا للعلم بأحوال ما يعتقدونه، و ديانتهم شتى من أنواع الكفر و بعضهم يعتقد الألوهية فى ثعابين أو عقارب أو حيات أو أصنام أو ملوك، حتى اعتقد قوم منهم فى سائح أبيض أنه ابن الشمس و عبدوه و لما أراد الرجوع خاف على نفسه منهم من غصبه على البقاء بين أظهرهم إلى أن اختفى و نجا.

و هكذا يعتقدون الألوهية فى كثير من الحيوانات و بعضهم له لباس و بعضهم عراة بالمرة، و النساء كإناث الحيوانات المشتركة و بعضهم يتستر على العورة الغليظة و بعضهم يلبس شيئا من الثياب، و بعضهم يسكن تحت السماء و يتقى البرد و الحر بظل الأشجار، و بعضهم يتخذ بيوتا من الهشيم أو أغصان الشجر، و بعضهم له قرى و هم يتفاوتون فى هاتيك الخلال شدة و ضعفا، و فى هؤلاء الأقوام قبائل من المسلمين و هم على توحشهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۳۵

أحسن حالا من غيرهم لأن الديانة هذبت من أخلاقهم نوعا ما و إن كان بعضهم لا يعلم من الديانة إلا الإنتساب إليها و بعضهم يعلم الكليات الخمس الواجبة إجمالا من غير معرفة تفصيلها، و إذا قام أحدهم إلى الصلاة يصير يركع و يسجد من غير عدد مخصوص لأنهم إنما يعلمون وجوب الصلاة التى هى قيام و ركوع و سجود من غير تفصيل و لا عدد و لا ترتيب، و هكذا يوجد فى أفريقية أقوام ينتسبون إلى الديانة النصرانية و اليهودية و ليست على قواعدها المعروفة، و لا زال الأوروباويون يرسلون دعاة لإدخالهم فى النصرانية هم و غيرهم من أمم تلك القارة، كما يرسلون سواحا للكشف عنها و تحقيق ما فيها و كأنها لا تلبث أن تصير مطمح الأنظار و محطا للتقدم، فقد اعتنوا من كل الجهات بالبحث عن ذلك رغبة فى ازدياد التجارة و الربح، و نجح كثير من سواحهم فى الحصول على اكتشافات نافعة من خصب أقطار و كثرة سكان و وفور معادن و غير ذلك من حيوانات وحشية و أهلية لها فائدة فى التجارة. و ألفوا فى صفات البلدان التى شاهدوها كتبا مفيدة، و على الإجمال يقال إن قارة أفريقية لا زالت غير معروفة حق المعرفة إلا ما بيناه منها منفردا، و قد رأيت أبياتا للشيخ أحمد بابا التونبكتى و هو عالم مشهور من علماء السودان فى أوائل هذا القرن، قدم من بلده تنبكتو قافلا للحج مارا على المغرب و تونس، و هاته الأبيات تفيد معرفة أسماء قبائل من السودان و معرفة ديانتهم و هى:

كل الذى من صنف متش قدماعليك بالكفر عليه فاحكما

كذلك كرم كثد كل و يرباتنبع و يركبس و بوبا كنبا

فهم يجوز فيهم السباءو بيعهم يجوز و الشراء

و احكم بإسلام بلاد برنوكشنكاغ و كنو و عفنو

مولى و كوبر وصفى كذلكو جل فلات و بعض زكزكا

القسم الرابع من الأرض هى قارة أمريكا

اشارة

يدعى غالب أهل العصر أن هاته القارة كانت مجهولة عند القدماء إلى سنة ۱۴۹۲ مسيحية الموافقة لأوائل القرن العاشر من الهجرة، فاكتشفها رجل إسمه كريستوف كلمبوس و هو من أهالى جنوه متخذا صناعة الملاحة، و هى إذ ذاك تستلزم معرفة الحروب لكثرة الحروب البحرية سيما فى شطوط أوروبا، و كان الفتى فى فكره وجود أرض وراء المحيط الغربى و الجزائر الخالدات لمعرفته بالجغرافيا و رسم الخارطات، فسعى إلى ذلك مع ملك البرتغال، ثم مع ملك جنوه و خاب أمله و بعد المحاولات الطويلة مع إيزابلا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۳۶

ملكة إسبانيا فى مدة ثمان سنين حصل على المساعدة بثلاث سفن و العهد إليه بأن يكون خليفة الملك عما يكتشفه و يأخذ العشر من المداخيل لنفسه، ثم بعد مقاسات شديدة له من الملاحين الذين أرادوا قتله ليأسهم من النجاح كلل سعيه بالنجاح بعد سبعة و عشرين يوما من شطوط إسبانيا إلى جهة الغرب، و أول جزيرة اكتشفوها سماها سان سلفدورى، و لا زال يكتشف فيها جزيرة بعد أخرى كلها فى غاية النضارة و سذاجة الأهالى و سلامتهم حتى أنهم عراة نساء و رجالا و لونهم ذهبى و يبنون بيوتا من أغصان الشجر، و بعض الجزر يبنون القرى من الحجارة و الطين و اكتشف فيها على البطاطس و التبغ اللذين لم يكونا معروفين من قبل، و هكذا اكتشف بها على الطماطم التى يقال إنها هى السبب فى حدوث المواد الطيرية فى القارات لأنه لم يكن معروفا ذلك المرض من قبل حتى سمى بالحب الإفرنجى نسبة إلى الإفرنج لأنه عرف منهم بجلبهم للطماطم و سيأتى الكلام إن شاء اللّه تعالى على وجه تسمية أهل أوروبا بالإفرنج.

ثم إن كلمبوس رجع إلى إسبانيا و عاد بأسطول و عساكر أكثر مما كان أتى به سابقا فلم يبق هناك، ثم قدم بعد مدة رجل يقال له أمريكوس و هو الذى اكتشف على أمريكا الجنوبية و به سميت جميع القارة، و الحق أنها كانت معروفة سابقا و كذلك طريقها من جهة المحيط الغربى، و دليله أنهم أثبتوا أن أهالى النورويج كانت لهم تجارة و معاملة مع أهالى كرنيلاندا من أمريكا الشمالية منذ القرن الثالث و الرابع من الهجرة، حيث ذكروا أن رجلا من أهالى اسكتلانده التى هى الآن من ممالك إنكلترا و كانت إذ ذاك تحت حماية النورويج، قذفته الرياح فى ذلك الزمان فى البحار الشمالية إلى أن وصل إلى كرنيلاندا ثم رجع إلى بلاده و صار لهم اتصال معهم، غير أنهم لم يثبتوا زيادة اكتشاف عما عدا ذلك مع أن القارة كبيرة جدا، و كذلك رأيت فى جغرافية ابن الوردى أنه قال ما معناه: «إن وراء الجزائر الخالدات و بحر الظلمات جزائر عظيمة جدا و فيها خلق كثير و قد وصل إليها أحد النوتية عن غير قصد بمطاردة الرياح ثم رجع منها بعد أن أيس من الحياة و وصفها بأوصاف جميلة مطابقة لما اكتشف من بعد». و إنما قال فى المحيط الغربى بحر الظلمات لأنه تتكاثف فيه جهة الشمال الأبخرة حتى يصير ظلاما الليل و النهار كما هو مشاهد الآن لجميع المسافرين بين أوروبا و أمريكا حتى تضطر البواخر مدة سفرها أن تصرخ بعد كل دقيقة ببوق البخار كى لا يقع لها تصادم مع غيرها، لأن نور الشمس محجوب و نور المصابيح لا يخرق تكاثف الأبخرة.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۱۳۷

و كذلك نقل لى ثقة أنه رأى فى بعض كتب الشيخ محيى الدين بن العربى : أن وراء المحيط أمما من بنى آدم و عمرانا و هو فى القرن السادس رضى اللّه عنه، فدل هذا على معرفة تلك القارة من قديم و إنما الإنتفاع التام بها لأهالى هاته القارات لم يعرف إلا منذ قريب، ثم إن هاته القارة العظيمة التى تعد نحو نصف الأرض المكشوفة هى يحيط بها البحر من جميع جهاتها و يفصلها عن غيرها من القارات إلا- جهة القطب الشمالى أزيد من درجة نيف و ثمانين فهى مجهولة، كما أن القليل من الجهات الشمالية وسط القارة لم يعرف بالتحقيق، و هكذا الوسطى من الجنوبية و جميع القارة تقسم إلى شمالى و جنوبى، و يوصل بينهما برزخ من الأرض ضيق يبلغ فى بعض الجهات إلى أربعة و عشرين ميلا يسمى برزخ بناما، و قد أرادت فى هاته المدة جمعية فرنساوية خرقه حتى يتوصل من المحيط الشرقى إلى المحيط الغربى بقصر فى المسافة و كأنه يتم عن قريب، و سكان جميع هاته القارة يبلغون إلى نحو الستين مليونا و لو أضيف إليهم أربعمائة مليون لوسعتهم الأرض و قامت بجميع ثروتهم، و أكثر أولئك السكان من أهالى أوروبا و آسيا و أفريقيا و الأصليون قليلون ثم تنقسم القارة إلى عدة دول.

الفصل الرابع و السبعون المملكة الأولى: دولة أمريكا المتحدة،

و موقعها فى أمريكا الشمالية و تمتد من الشرق إلى الغرب على جميع القارة، فيحدها شرقا المحيط الغربى، و يحدها غربا المحيط الشرقى، و يحدها جنوبا خليج مكسكو و مكسكو و خليج كاليفورنيا، و يحدها شمالا الأملاك الإنكليزية و البحيرات الشمالية. و سكان هاته المملكة نحو إثنين و أربعين مليونا منقسمون إلى ستة و ثلاثين حكومة كل حكومة مستقلة بإدارتها الداخلية و مجتمعون فى الأحوال العامة مما يعود إلى مصلحة الجميع، و تخت الجميع بلاد واشنطون يتركب فيها مجلس من جميع الحكومات و ينظر فى مصلحة الجميع، و رئيس هاته البلاد هو رئيس جميع الدول التى هى جمهورية و هى التى لها المعاملة السياسية مع الدول الأجنبية و رياسة العساكر و البحرية و سيرة الدولة و قوانينها مثل سيرة الدول الأوروباوية الأكثر حرية و تقدما، و لا زالت تتقدم فى الحضارة و المعارف و القوة حتى كان لها الشأن العظيم و صار لها الإعتبار التام عند جميع الدول، و كانت سابقا من مستعمرات الإنكليز ثم استقلت سنة ۱۷۸۹ أوائل القرن الثالث عشر هجريا، و هاته فى أسماء الحكومات المركبة منها العصبة، و هى: نيوهمشير و مساشوست ورد إيسلند و كنكتيكوت و نيويورك و نيوجرسى و فنسلوانيا و دلاوار و مريلاند

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۱۳۸

و رجينيا و كرولينا الشمالية و كرولينا الجنوبية و جاورجيا و ماين و فرمونت و مشيغان و أوهيو و أنديانا و الينوى و كنتوكى و تنيسى و الأباما و فلوريدا و مسسبى و لوسيانا و وسكونسن و أيووا و مسورى و أركانساس و كانساس و نبراسكا و أرجون و منيسونا و تكساس و كليفورنيا و واشنطون.

و هاته الأقسام تكونت شيئا فشيئا و أول ما تم منها الثلاثة عشر الأولى فاستقلت كما تقدم ثم مهما أتم قسم شروط العمران و الدخول فى العصبة قبل، و لهذا بقيت بعض أقسام إلى الآن تتمم فى استعدادها لكى تدخل فى العصبة.

و سكان هاته الممالك من الغرباء و أطردوا السكان الأصليين إلى شمالى القارة، و الأصليون يسمون بالهنود لشبههم بهم فى اللون و الخلقة و قد تهذب منهم أفواج و لا زال أغلبهم على التوحش يسكنون مع الوحوش، أما الغرباء فقد بلغوا الغاية فى التمدن و الحرّية، فمن حريتهم أن ولىّ رئيس الجمهورية عندهم رجل صناعته الأحذية حيث كان مستكملا لشروط الإنسانية و وقع عليه الإنتخاب و ذلك فى عشرة الثمانين و مائتين و ألف، كما تقدموا فى فنون المعارف الرياضية و السياسية و اخترعوا أشياء عجيبة من الكهرباء و البخار، فأول ما عرف استعمال البلون أى القبة الهوائية للإطلاع على أحوال العدو فى الحرب فى هاته المملكة عند ما كانت الحرب

مستعرة بين الحكومات على أحوال العدو فى الحرب فى هاته المملكة عندما كانت الحرب مستعرة بين الحكومات الشمالية من الدولة المذكورة و الحكومات الجنوبية منها التى نشأت بسبب منع العبودية فإن الجنوبيين أصروا على إبقاء ملك العبيد و بقيت الحرب بينهم عدة سنين و ذلك فى عشرة الثمانين من القرن الثالث عشر من الهجرة. فمن الإختراعات فى ذلك الحرب أن أصعدوا ركابا فى قبة الهواء مستصحبين بأسلاك كهربائية ليخبروا مراكز الجيش بأحوال جيوش العدو المستتر وراء جبال أوروبا، و من ثمرات قوة الاجتماع التى ظهرت عندهم الطريق الحديدية التى وصلت بها شطوط المحيط الشرقى بشطوط المحيط الغربى و كان يوم تمامها يوما مشهودا فاحتفلت له جميع البلاد، و آخر مسمار انتهت به صناعة الطريق صنع من ذهب و دق بمطرقة من فضة و ربطت به عند آخر دقة أسلاك الكهرباء إلى جميع البلاد فعند آخر دقة على المسمار حصل العلم لجميعهم بذلك فى آن واحد، و لهم ثروة عظيمة بالمعادن جميعا سيما معدن الذهب فى كليفورنيا الذى ينحت منه الذهب صخرا عظيمة، و هكذا الصنائع و التجارة مع الأمن العظيم و الإطمئنان التام و قد استملكت هاته الدولة بالشراء من الروسيا أملاكها جهة الشطوط الشمالية من جهة غربى القارة.

الفصل الخامس و السبعون فى بقية ممالك أمريكا الشمالية.

فأولها: مستعمرات الإنكليز، ففى القسم الشمالى حادا للممالك السابقة الأملاك
صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۳۹
الإنكليزية، و هى يجرى فيها الحكم الإنكليزى بنوع امتياز.
و ثانيها: ما يلى ما ذكر شرقا، و هو قسم المتوحشين الأصليين و بقية الأقسام المريدة للدخول فى العصبة السابقة.

الفصل السادس و السبعون و ثالثها: مكسكو،

و هى تلى البلاد المتحدة جنوبا، و استقلت أواسط هذا القرن من تسلط إسبانيا عليها و لكنها لم تزل متأخرة فى جميع أنواع العمران حتى الأمن لاختلاف سكانها، و حكمها الآن جمهورى و عند اكتشاف الإسبنيول عليها وجد فيها أمما فيهم بقايا التمدن و لهم ملك و الموجود فيها من آثار المدن يدل على تقدم أهلها و قوتهم قديما و عدد سكانها نحو تسعة ملايين و قاعدتها مكسيكو.

الفصل السابع و السبعون و رابعها: أمريكا الوسطى،

و هى تلى السابقة جنوبا و حكمها جمهورى و هى أقرب إلى الخراب لتعاظم الفتنة بين أهلها و استقلت أيضا عن إسبانيا فى أواسط هذا القرن.

الفصل الثامن و السبعون و خامسها: الجزائر الكثيرة المتفرقة،

و هى تابعة إما تماما أو تحت الحماية لدول متفرقة من أوروبا كإنكلتره و إسبانيا و فرنسا و هولاندا و الدانيمرك و السويد، كما أن لهؤلاء الدول أملاكا فى القارة الجنوبية و أكثرهم تملكا إسبانيا و إنكلتره، و حقيقة عدد السكان مجهولة لكثرة التوحش و عدم الفائدة الكبرى للدول بتهذيبهم، و قد جربوا أن كل من تمدن هناك حاز الإستقلال بإدارة نفسه مع أن عدد السكان قليل فى نفسه، ثم إن

بقية القارة الجنوبية تشتمل على دول شتى.

الفصل التاسع و السبعون فالدولة السادسة: كلومبيا

المنقسمة إلى ثلاثة أقسام كل منها مستقل تحت الحكم الجمهورى، و عدد جميعهم نحو ثلاثة ملايين و هم على حالة التأخر، و موقعها من مبدأ البرزخ الموصل بين القارة الجنوبية و الشمالية يقسمها خط الإستواء متصلة بالشاطىء الغربى و الشمالى و الشرقى.

الفصل الثمانون و السابعة: دولة بيرو

و سكانها نحو مليون و نصف، و حكمها جمهورى و موقعها على الشاطىء الغربى جنوبى المملكة السابقة.

الفصل الحادى و الثمانون ثم يليها شرقا [و] تمتد إلى الشطوط الشرقية و على جميع دواخل القارة، الدولة الثامنة: و هى برازيل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۴۰
و سكانها نحو ستة ملايين و نصف و حكمها ملكى مقيد بالقوانين، و يوجد فيها عدة آلاف من المسلمين أصلهم من سودان أفريقية و لكنهم لا يعلمون إلّا كليات الديانة على سبيل الإجمال، كما يستفاد ذلك من رحلة عبد الرحمن بن عبد اللّه البغدادى الذى كان إماما فى بعض السفن المدرعة العثمانية، و سافرت إلى البصرة على طريق البحر المحيط الغربى على بغاز طارق و صادفتهم زوابع اضطرتهم عن غير قصد إلى شطوط برازيل، و لما خرجوا إلى التفسح فى البرّ أقبل عليهم أقوام مسلمون و طلبوا إبقاء الإمام عندهم لتعليم الديانة فبقى هناك مدة، و ألف رحلته المختصرة المترجمة إلى التركى المسماة «مسلية الغريب» و كان سفره سنة ۱۲۸۲ ه و لا يبعد أن يكون فى جميع أمريكا أمم كثيرة من المسلمين و لا يجدون من يهديهم و لا حول و لا قوة إلا باللّه.

الفصل الثانى و الثمانون و بين بيرو و برازيل الدولة التاسعة:

و هى بوليفا سكانها لا يبلغون نصف مليون و حكمهم جمهورى.

الفصل الثالث و الثمانون و الدولة العاشرة: هى الشيلى

سكانها نحو مليون و ربع و حكمها جمهورى و موقعها على بقية الشطوط الغربية إلى نهاية القارة فى الجنوب.

الفصل الرابع و الثمانون و الدولة الحادية عشرة: دولة سيونس أيرس،

و يقال لها لابلاتا و هى وسط القارة الجنوبية تحدّها شيلى من الغرب و المحيط الشرقى و برازيل من الشرق، و سكانها مجهولوا العدد و حكمها جمهورى.

الفصل الخامس و الثمانون الدولة الثانية عشرة: أوروكواى،

هى جنوب برازيل سكانها نحو مائة و خمسين ألفا تحت الحكم الجمهورى المستقل و هى على الشاطىء الشرقى الجنوبى.

الفصل السادس و الثمانون و الدولة الثالثة عشرة: هى بقية أمريكا الجنوبية المعروفة بتاكونى،

و أهلها من الأصليين هناك طوال شداد متوحشون، يقال تقريب عددهم مائة و خمسون ألفا فى تلك الأراضى الواسعة، و موقعها على الشاطىء الشرقى فى نهاية القارة جنوبا و غربها الشيلى، و الحاصل أن غير الدولة المتحدة لم يكن فى أمريكا من الدول ما يعتبر إذ أغلب الأقسام المذكورة و لئن كانت تحت أحكام منتظمة لكنها لم يتسع فيها نطاق المعارف و التقدم و ألهتهم الحروب الأهلية عما يصلح شأنهم، سيما و أغلبهم حديثوا عهد بالعتق من تسلط

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۴۱

الدول الأوروباوية عليهم الذين كانوا يجرون فيهم الحكم الإستبدادى الظالم، و أما أقلهم فإنهم من الأهالى الأصليين الذين: إما أنهم تناسوا التمدن أو لم يعرف فيهم و لم يحسن الغرباء معاشرتهم و إنما عاملوهم معاملة الوحوش و أطردوهم أو أفنوهم من ديارهم فبقوا على الجهل و التوحش، و فى بعض الأماكن لا تساعدهم طبيعة الإقليم على شىء، فقد ذكروا أن فى الجهات الضاربة لأقاصى الشمال قوم ينحتون من الجليد بيوتا و يجعلون لها مضاوى نحتا و يسدونها بطبقات من الجليد الصفيق ليمنع مرور الهواء و لا يمنع الضوء، و يبقون فى تلك الدهاليز ليالى الشتاء الطويلة التى هى أغلب أيام السنة عندهم و يكتسون بجلد عجل البحر و يأكلون لحمه و يوقدون عظمه، و من أغرب ما يحكى عنهم أنهم يطبخون اللحم المذكور فى قدور من الخشب، و صورة طبخهم أنهم يتخذون من بعض الأشجار التى تنبت فى الأرض الجليدية قدورا يضعون فيما تجوف منها اللحم و يصبون عليه الماء ثم يأخذون الحجارة و يحمونها فى النار إلى أن تصير حامية جدا فيلقونها فى القدر فتطفأ و يسخن الماء بحرارتها ثم غيرها و غيرها إلى أن يصل الطبخ إلى الإعتدال الذى اعتادوه، و ربك يخلق ما يشاء و يختار و هو القادر الفعال.

القسم الخامس من الأرض أستراليا

اشارة

هى مجموع جزائر جهة الجنوب من المحيط الشرقى قبالة الهند، و الظن أنها كانت متصلة بشبه جزيرة سمطرا قديما و فصلتها زلازل هائلة قديما كما يتبين من النظر إلى الخريطة، و يدعى أن أعظمها اكتشف منذ أقل من مائة سنة، و الحال أن بها سكانا نحو مليونين من البشر و فى لونهم السودانى أشكال من جهة التعليل بأن سواد اللون من كثرة الحرّ تحت خط الإستواء مع أن عرض أعظم جزيرة هناك يبتدىء من عرض خمسة و ثلاثين جنوبيا و ذلك العرض من المناطق المعتدلة، مع أن الأهالى الأصليين سود و كلهم متوحشون و إنما يفترقون فى شدّة التوحش و ضعفه، و قد أخذت بعض الجهات فى التمدن شيئا ما، و كل هاته الجزائر تحت تسلط دول أوروبا و أغلبها تملكا الدولة الإنكليزية، و قد جعلت أوستراليا منفى لأصحاب الجرائم العظيمة، فبالتغرب و الحكم المشدد هناك تهذبوا و تقدموا شيئا فشيئا إلى أن أنكروا على الدولة الإنكليزية نفى المجرمين إليهم لأنهم ليسوا بأهل لمعاشرتهم، ثم أخذوا استقلال إدارتهم برضاء الدولة الإنكليزية و لا زالوا تحت حمايتها.

و بقیـة دواخل الجزر مجهولـة إلی الآن و هکـذا جهة القطب الجنوبی، و اکتشف النوتیة منذ أربعین سـنة علی أرض فی تلک الجهات واسـعة و لم یروا فیهـا سـکانا، و إلی الآـن لم یزل البحث علی مـا فیهـا و مـا ورائها، و کـذلک سـنة ۱۲۹۱ ه اکتشف نوتیـة من النمسـا أرسلتهم دولتهم للإکتشاف علی أحوال القطب الشمالی فی باخرة تامة التجهیز فرجعوا بعد عامین بعد أن خلصتهم باخرة روسیة عندما کادوا أن یهلکوا لانکسار باخرتهم بالجلید و رجوعهم فی قوارب صـغیرة، فأخبروا باکتشافهم لأرض واسعة فی درجة ثلاثة و ثمانین و أنهم لما

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۴۲

انتهوا إلی رأس فیها سـموه رأس أوستریا وجـدوا بحرا جهـة الشـمال مائعا علیه یسـیر من الجمـد لا یتحمل حمل المراکب الجلیدیـة و حـدس بـذلک علماء هـذا الفن علی أن الحرارة من الکهرباء جهة القطب یمکن معها الحیاة و السـکنی أزید من المناطق المتجمدة، و هو یؤید ما قلناه فی بحث السد عند الکلام علی الصین و اللّه أعلم بما خلق و ذرأ و هو الحکیم الخبیر.

الفصل السابع و الثمانون و حیث قد تبین فی هذا الباب إجمال حالات الممالک

اشارة

و ما هی علیه من الأحکام و الأمن، ناسب أن نذکر هنا خلاصة فی أسـماء الممالک و قواعد بلدانها و عدد سکانها و کمیة عساکرها و عدد سفنها الحربیة و مقدار دخل حکومتها و مقدار خرجها، و کذلک قیمة السلع الداخلة و الخارجة بمتجر تلک المملکة، و کم علی حکومتها من الدین و کمیة ما مد من طرق الحدید فیها لتتبین بذلک قوة الممالک و مراتبها فی الإعتبار، و هاتیک التفاصـیل جمعناها من عدة مواد و تقویمات کلها فی سـنین متقاربة، من سـنة ۱۲۸۸ إلی سنة ۱۲۹۷ ه بحیث لا تتجاوز العشـر سـنین، و إنما نبهنا علی هذا لأن الأعداد المذکورة فی الأغلب یتغیر بعضـها بطول السـنین، لکنها فی الأغلب لا تتغیر فی أقل من عشـر سنین إلا بأمور جزئیة، إلا أن یطرأ علی مملکـة من الممالـک حـادث غیر اعتیادی بحرب هائلـة أو غیرها، کما أنا لم نعتبر فیما نقلناه الأعـداد القلیلـة بالنسـبة إلی ما یقتضـیه کل نوع من الأنواع المذکورة لعدم الجدوی فیه بالنسبة لما نحن بصدده، سیما و کثیر من تلک الأنواع هو من أصله غیر محرر بالتدقیق إلا فی بعض مواد فی بعض الممالک.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۴۳

جدول الإحصاءات

/ التجارة/ سککُ الحدید/ الدیون/ الخرج

الدیانة/ فرنک/ أمیال/ فرنک/ فرنک

إسلام/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵۰۰/ ۱۳۸۶/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵۰۰۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۶۸

إسلام/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵۰۰/ ۱۲۰۵/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۲/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۰۹

إسلام/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۴۰/ ۲۰۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۲۷/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۴

إسلام/ م / لا / ۰۰۰، ۰۰۰، ۴۰/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ ۰۰۰، ۵۴۵۰۰

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ ۰۰۰، ۳۵۰، ۲۱/ لا/ لا/ ۰۰۰، ۷۵۰، ۱

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۴۴

السكان

الدخل/ السفن/ العساكر/ عدد النفوس//

فرنک/ حربیة/ وقت الحرب/ ملیون/ التخوت/ الدول

۰۰۰، ۰۰۰، ۳۶۸/ ۷۸/ ۰۰۰، ۶۰۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۲/ القسطنطینیة/ العثمانیة

۰۰۰، ۰۰۰، ۲۱۶/ ۱۳/ ۰۰۰، ۶۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۶/ مصر/ تابع لها

۰۰۰، ۰۰۰، ۱۴/ ۲/ ۰۰۰، ۳۰/ ۰۰۰، ۵۰۰، ۱/ تونس/ تونس مثلها

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۷/ فاس/ الغرب

۰۰۰، ۰۰۰، ۶۲/ لا/ ۰۰۰، ۶۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵/ طهران/ الفرس

م/ لا/ ۰۰۰، ۲۰۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۶/ کابل/ أفغانستان

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲/ کیلات/ بلوجستان

م/ م/ م/ ۰۰۰، ۷۵۰/ براک/ ملقا

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲/ هرات/ هرات

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲/ خوقند/ خوقند

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۵۰۰، ۲/ مرو/ الترکمان

م/ م/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲/ مسقط/ مسقط

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲/ رياض/ رياض و غيرها

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲// عرب الجزيرة

م/ لا/ ۰۰۰، ۲۰/ ۰۰۰، ۱۰۰۰/ كشمير/ كشمير

م/ م/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳/ أجسين/ أتشين صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار ؛ ج۱ ؛ ص۱۴۴

۰، ۷۵۰، ۱/ م/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲/ زنجبار/ الزنجبار

م/ لا/ ۰۰۰، ۲۰۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۸/ كوكوا/ برنو

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۵۰۰، ۴/ وره/ واداى و توابعها

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۶/ ساكاتو/ فلاتا

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۴/ سان سان/ تنبكتو و توابعها

م/ م/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۸/ هرر/ عادل و جوارها

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲/ كنبرا و غيرها/ الصحراء الغربية

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۴۵

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

إسلام/ م/ لا/ لا/ م

نصرانية/ م/ لا/ لا/ م

مشركون/ م/ لا/ لا/ م

مشركون/ م/ لا/ لا/ م

مشركون/ م/ لا/ لا/ م

مشركون/ م/ لا/ لا/ م

مشركون/ م/ م/ لا/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۸۰۰، ۱

مشركون/ م/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۷۰۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۹۰

مشركون/ م/ لا/ لا/ م

مشركون/ م/ لا/ لا/ م

نصرانية/ م/ لا/ لا/ ۰۰۰، ۲۰۰

نصرانية/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۶۵۴، ۱/ ۰۰۱۲/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۰۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۶

نصرانية/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۸۳۵، ۲/ ۰۰۰، ۹/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۸۴، ۱

نصرانية/ م/ ۰۰۰، ۵/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۷۰۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۶۲۴

نصرانية/ م/ ۰۸۰۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۰۰۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۳۰

نصرانية/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۸/ ۰۰۰، ۲۵/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۹۳، ۲۴/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۶۶۷

نصرانية/ م/ ۰۰۰، ۲/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۵/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۷

نصرانية/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۴/ ۴۰۰، ۲/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۶۰، ۱/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۰۰

نصرانية/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۳/ ۰۰۰، ۱۶/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵۰۰، ۸/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵۹۰، ۱

نصرانية/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۸۰/ لا/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۰۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۴

نصرانیة/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۶۲/ ۰۰۰، ۲/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۵/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۰۰

نصرانیة/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۶/ ۰۰۰، ۲۷/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۴۸۰، ۱۹/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۸۰۰، ۱

مختلطة/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۳/ ۰۰۰، ۱۱/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۸۰۰، ۲/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۰۰، ۱

مختلطة/ تابع// تابع/ تابع

نصرانیة/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵۰۰/ ۲/ ۰۰۸، ۱/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۵۰، ۲/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۲۰

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۴۶

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۴/ أدلی و غیرها/ التورک

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱// صحراء تیبوس

م/ م/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵/ أدواح/ الحبشة

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵۰۰، ۳/ مندلای/ بورما

م/ م/ ۰۰۰، ۴۰/ ۰۰۰، ۵۰۰، ۶/ بان جوش/ سیام

م/ م/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۹/ نوشواشین/ کوشین الصین

م/ م/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱/ بنوم بنه/ کمبودیا

۰۰۰، ۰۰۰، ۸۰۰، ۱/ ۳۷/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵۳۷/ باکین/ الصین

۰۰۰، ۰۰۰، ۲۹۰/ ۱۳/ ۲۳۰، ۵۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۳/ جدو/ الجابون

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۲۵۰۰// نیبول

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱// بوتان

۰۰۰، ۱۵۰/ م/ ۰۰۰، ۱۵/ ۰۰۰، ۳۰۰/ حینین/ الجبل الأسود

۰۰۰، ۰۰۰، ۳۶/ ۳۰/ ۰۰۰، ۱۰۰/ ۰۰۰/ ۰۰۰، ۲/ أتنه/ الیونان

۰۰۰، ۰۰۰، ۲۹۰/ ۸۷/ ۸۲۹۸۲۷/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۷/ رومیه/ إیطالیا

۰۰۰، ۰۰۰، ۵۸۸/ ۱۸۲/ ۰۰۰، ۲۱۶/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۶/ مدرید/ إسبانیا و ملحقاتها

۰۰۰، ۰۰۰، ۱۳۰/ ۵۰/ ۰۰۰، ۷۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۸/ لزبون/ البرتغال و ملحقاتها

۰۰۰، ۰۰۰، ۶۶۷، ۲/ ۱۵۴/ ۱۶۴، ۴۲۳، ۲/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۴۱/ باریس/ فرنسا و ملحقاتها

۰۰۰، ۰۰۰، ۳۷/ لا/ ۰۰۰، ۲۰۰/ ۰۰۰، ۵۰۰، ۲/ باری/ سفیسرة

۰۰۰، ۰۰۰، ۳۰۰/ م/ ۰۰۰، ۲۰۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵۰/ بروکسل/ بلجیک

۰۰۰، ۷۵۰۰، ۱۵۸/ ۷۰/ ۰۰۰، ۰۹۴، ۱/ ۰۰۰، ۵۰۰، ۳۸/ فیینا/ النمسا و تابعها

۰۰۰، ۰۰۰، ۱۴/ لا/ ۰۰۰، ۲۲۵/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲/ بلغراد/ الصرب

۰۰۰، ۰۰۰، ۱۰۰/ م/ ۰۰۰، ۱۴۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵/ بخارست/ الرومانیة

۰۰۰، ۰۰۰، ۸۰۰، ۱/ ۳۸۳/ ۲۳۵، ۵۴۱/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۰/ لوندره/ انکلترا

۰۰۰، ۰۰۰، ۳۰۰، ۱/ لا/ ۰۰۰، ۴۹۱/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۷۵/ کلکوته/ الهند التابع لها

تابع/ لا// ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۵// بقیة مستعمراتها

۰۰۰، ۰۰۰، ۲۲۰/ ۱۱۸/ ۰۰۰، ۱۴۰/ ۰۰۰، ۸۰۰، ۲۳/ هاک/ هلانده و توابعها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۴۷

نصرانیة/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۲/ ۰۰۰، ۲۵/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵۰۰، ۳/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۰۰، ۱

نصرانیة/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۰۰، ۱/ ۷۷۰، ۱/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۱۲/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۳

نصرانیة/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۰۰/ ۰۰۰، ۵۴۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۰۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۶۳

نصرانیة/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۰۰/ ۰۰۰، ۹/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵۰۰، ۹/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۲

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

نصرانیة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

نصرانیة/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۶/ ۰۰۰، ۷۴/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۱/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۷۵

نصرانیة/ م/ ۵۷۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۱/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۲۵

نصرانیة/ ۰۰۰، ۷۷۵، ۳۸/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۸

نصرانیة/ م/ لا/ م/ م

نصرانیة/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۴۰۰/ ۷۰۰، ۳/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۰۰، ۱/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۰۰

نصرانیة/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۰۰۰/ ۲۰۰، ۱/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۸۰۰، ۱/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۸۱

نصرانیة/ م/ م/ م/ م

نصرانیة/ م/ ۴۰۰، ۱/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۰۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۸۵

نصرانیة/ م/ م/ م/ م

نصرانیة/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۰۰/ م/ م/ م

نصرانیة/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵۲۵/ ۰۰۰، ۲/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۴۰۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۱۵

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۴۸

۰۰۰، ۰۰۰، ۳۲۱، ۱/ ۷۲/ ۰۰۰، ۵۰۰، ۱/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۴۱/ برلین/ المانیا

۰۰۰، ۰۰۰، ۱۳۶/ ۱۲۸/ ۰۰۰، ۱۴۰/ ۰۰۰، ۵۰۰، ۵/ استکهولم/ السوید و النورویج

۰۰۰، ۰۰۰، ۷۰/ ۳۷/ ۰۰۰، ۴۱/ ۰۰۰، ۸۰۰، ۱/ کوبنهاغ/ الدانیمرک

۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۲/ ۲۵۵/ ۰۰۰، ۵۰۰، ۱/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۸۲/ سان بترسبوروغ/ الروسیا

م/ لا/ م/ م/ أسفار/ بالس و ما جاورها

م/ لا/ م/ م/ کوران کوکا/ تیمانی

م/ لا/ م/ م// کرومان

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۵۰۰/ برنوفیا/ لیبریا

م/ لا/ م/ م// فانکی و ما معها

م/ لا/ ۰۰۰، ۲۰/ ۰۰۰، ۸۰۰/ أنومیخ/ داهومیه

م/ لا/ م/ م// أکیاس و ما معها

م/ لا/ م/ م// أورنج و ما جاورها

م/ لا/ م/ م/ کرومان/ بادجوان

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۰۰// المجهول من أفریقیا

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۵/ تناناریفو/ مادغسکار

۰۰۰، ۰۰۰، ۲/ ۱۷۸/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۴۲/ واشنطون/ أمریکا المتحدة

۰۰۰، ۰۰۰، ۱۲۵/ ۹/ ۴۰۰، ۲۲/ ۰۰۰، ۱۳۴، ۹/ مکسیکو/ المسکیک

۰۰۰، ۰۰۰، ۸/ لا/ م/ ۰۰۰، ۵۸۰، ۲/ لسکونی مالا/ أمریکا الوسطی

م/ م/ م/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳/ سانتنی دیبوکوتا/ کلمبویا

۰۰۰، ۰۰۰، ۳۰۰/ ۳۵/ ۰۰۰، ۳۰/ ۰۰۰، ۵۰۰، ۱/ لیما/ بتره

۰۰۰، ۰۰۰، ۲۸۱/ ۸۷/ ۲۴۱، ۶۱۱/ ۰۰۰، ۵۰۰، ۶/ ریبودوخسرو/ برازیل

م/ لا/ م/ ۰۰۰، ۵۰۰، ۲/ شوکیزک/ بولیفیا

۰۰۰، ۰۰۰، ۸۵/ م/ م/ ۰۰۰، ۲۵۰، ۲/ سانتیاکو/ الشیلی

م/ م/ م/ ۰۰۰، ۲۵۰/ لنسبون/ اروکوای

م/ م/ م/ ۰۰۰، ۲۵۰/ متیفیتبو/ تاکونیا

۰۰۰، ۰۰۰، ۱۱۵/ م/ م/ ۴۹۰، ۸۷۷، ۱/ وینوس ایر/ أرجانتی

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۴۹

ملاحظات

کل ما هنا اعتبار لما هو واقع فی سنة ۱۲۹۷ ه

۰۰۰، ۲۵۰، ۱۱۶ عدد نفوس المسلمین المستقلین بأحکامهم

یضم علیهم عدد نفوس المسلمین الداخلین تحت أحکام غیرهم

۰۰۰، ۰۰۰، ۶۰ فی الصین

۰۰۰، ۰۰۰، ۴۰ فی الهند

۰۰۰، ۰۰۰، ۸ فی الروسیا

۰۰۰، ۰۰۰، ۳ فی فرنسا

۰۰۰، ۰۰۰، ۱۰ فی بقیة الممالک

۰۰۰، ۰۰۰، ۱۲۱

۰۰۰، ۰۰۰، ۱۲۱

۰۰۰، ۲۵۰، ۲۳۷

۴۹۰، ۷۴۱، ۳۹۷ عدد نفوس النصاری

۰۰۰، ۳۰۰، ۷۸۹ عدد نفوس الباقی من المشرکین و غیرهم

۴۹۰، ۲۹۱، ۴۲۴، ۱

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۵۰

المقصد الأول

الباب الأول فی سبب سفری

اشارة

فصل: قد عرض للعبد الحقیر السفر إلی أوروبا ثلاث مرار إلی هذا التاریخ و هو سنة ۱۲۹۷ ه، فأما فی مرتین و هما الأوّلیتان فکان السفر لأجل التداوی فقط علی ما سیأتی بیانه، و أما المرة الثالثة فکانت لما ذکر أیضا و لأشغال سیاسیة أوعز إلیّ بها الوزیر، ثم عند رجوعی من هاته الثالثة نقض المذکور غزله و حملنی علی مفارقة الوطن حفظا لما یوجب اللّه علیّ حفظه، فوجهت القصد إلی أداء الحج المفروض و التشرف بزیارة أعظم الرسل- علیه أفضل الصلاة و أزکی السلام و علی آله الکرام و خلفائه الأعلام و أصحابه الفخام رضوان اللّه تعالی علیهم أجمعین- ثم استقررت بالقسطنطینیة العظمی ثم سافرت إلی أوروبا رابعا سنة ۱۲۹۸ ه، وعدت إلی الأستانة و سنفرد کل مملکة شاهدتها بباب خاص نذکر فیه أحوالها و ما شاهدته فیها، کما أنی أبین فی هذا الباب المرض الذی حملنی علی السفر و ما قیل فی التداوی شرعا و ما عولجت به، و حیث کان لأصل النشأة و الإقلیم دخل عظیم فی العلاج کما قرره الأطباء المتقدمون و المتأخرون، لزم أن نذکر طرفا من حال نشأتی و نفرد کل قسم من هاته الأمور بفصل خاص، و اللّه المستعان.

فصل فی نشأتی

اعلم أن نهایة ما نعلم من نسبی هو ما یذکر و هو: أننی محمد بن مصطفی بن محمد الثالث ابن محمد الثانی ابن محمد الأول ابن حسین بن أحمد بن محمد بن حسین بن بیرم و هذا الجد الأعلی قدم إلی تونس عند قدوم سنان باشا وزیر الدولة العلیة مع العساکر العثمانیة لفتح تونس من ید الإسبنیول سنة إحدی و ثمانین و تسعمائة، ثم أقام بها و تزوج بابنة ابن الأبار أحد وزراء الأندلس و علمائها، صاحب القصیدة التی یستغیث بها علی لسان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۵۱

صاحب الأندلس سلطان المغرب للأندلس عند قدومه علیه سفیرا عن مخدومه، و مطلعها:

أدرک بخیلک خیل اللّه أندلسا إن السبیل إلی منجاتها درسا

ثم تناسل نسله إلی حسین الأخیر منخرطین فی سلک الوظائف العسکریة أو الملکیة مع التحلی بالآداب العلمیة، فتزوج حسین هذا إبنة طاهرة من ذریة المولی الشریف سیدی حسن الشریف الهندی الشهیر رضی اللّه عنه و بارک فی آل بیته العامر السعید إلی قیام الساعة، فولدت له محمد بیرم الأول و منه دخل النسل إلی سلک العلماء إلی الآن و المرجو من کرم اللّه أن یدیم ذلک فی أعقابنا ما قدر لهم بالوجود، و استفحل العلم فی هذا البیت و للّه الحمد حتی سمعت من شیخنا العلامة شیخ الإسلام محمد ابن الخوجة یعرّف جدی محمد الثانی بقوله أبو یوسف الثانی، و مؤلفات هذا الجد تشهد لشیخنا بصدقه و کذلک لبقیة علماء بیتنا تآلیف عدیدة عظیمة مفیدة،

و تقلبوا فى الوظائف العلمية إلى رياسة الفتوى و تلقب منهم أربعة بشيخ الإسلام.

و لما تأهل والدى قدس اللّه روحه للزواج، زوجه أبوه بابنة وزير البحر محمود بن محمد خوجه و والدتها من بيت الغماد ذى الشرف المعروف، و قد ألف الجد محمد بيرم الثانى تأليفا خاصا فى التعريف بنسبه الجثمانى و الروحانى بلغ فيه إلى نفسه و العبد مذيل عليه بذكر من لم يحوه ذلك التأليف من فروع هذا البيت و ما ذكر فى هذا الفصل أنموذج منه، و كانت ولادتى فى سنة ۱۲۵۵ ه.

ثم اشتغلت بالقراءة و التعلم متفرغا إلى ذلك إلى أن وليت خطة التدريس سنة ۱۲۷۸ ه و كذلك مشيخة المدرسة العنقية، و لم يكن لى هم بشىء من أحوال الدنيا إلا مطالعات الحوادث السياسية الداخلية و الخارجية إلى أن توفى والدى رحمه اللّه و نعمه سنة (۱۲۸۰ ه)، فاضطررت إلى إدارة مخلفاته و لم يكن لى إلا محض الوداد مع سائر السكان لبعدى عن مواقع التحاسد بينهم و تجنبى للخطط، حتى أن خطة التدريس و المشيخة المذكورتين إنما قبلتهما بعد الإلحاح عند وفاة عمى شيخ الإسلام محمد بيرم الرابع، و انحلال الخطتين المذكورتين بسبب موته حيث كانت مشيخة المدرسة إليه، و انحلت وظيفة التدريس بسبب انتقال صاحبها لما فوقها و صاحب ما فوقها ترقى إلى مشيخة الإسلام و هو شيخنا العلامة محمد ابن الخوجه المشار إليه آنفا، و بقيت على ذلك مرتاح البال سليم الوداد إلى أن ولى الوزارة الكبرى بتونس الناصح الأمين خير الدين باشا و نحا منحى الحكومة الشوروية فى إجراء العدل، فرأى اجتهادا منه فى انتقاء المتأهل للخطط أن يستعين بالعبد فى بعض الخطط حسن ظن منه، فلم يسعنى إلا مساعفته لما كنت منه على علم من توغله فى حب العدل و الميل إلى القوانين و الشورى، حتى كان أول ناشر لمفاخرها فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۵۲

قطرنا بتأليفه «أقوم المسالك». مع امتناعى سابقا عن كل وظيفة لما أعلم من خمول الإنصاف و ظهور الإعتساف، و عندما غلب على الظن حصول الجدوى بولاية الشهم المذكور أجبت استدعاءه و قلدت رياسة جمعية الأوقاف التى هى من مبتكرات الوزير المذكور فى تونس، إذ رتب قانونا لها يحفظ الأوقاف و ينميها بضبط لم يسبق إليه، فاستعنت اللّه و بذلت مقدورى للوفاء بما عهد إلى ثم ضم إلى ذلك نظارة المطبعة و هكذا بذلت فيها مستطاعى غير أنى فى ذاتى تحملت من الأتعاب الفكرية و البدنية ما لم تتحمله نشأتى، بل و كذلك الخسائر المالية لأن المرتب الذى جعل لى و إن كان فى نفسه نظرا للبلاد وافرا لكنه كان غير واف بما اعتدته من المصاريف التى كنت أحصل على الوفاء بها من دخل أملاكى و معاطاة تجارتى، و لما استغرقت الوظيفية الأوقات للقيام بها حق القيام تعطل الدخل السابق فعوضا عن الإستغناء بالوظائف صرت أبيع من كسبى شيئا بعد شىء للوفاء بحاجات المعاش، و لا أعد ذلك شيئا فى جنب القيام بحق الوطن بل إنى أحمد اللّه تعالى على ما أنعم.

فصل فى مرضى و ما عولجت به

حيث كان نسل بيتنا متوارثا فيه ضعف الأبدان و كثرة الأسقام حتى قال الجد الثانى فى تأليف نسبه المشار إليه آنفا عند الكلام على أقرائه شرح صدر الشريعة على الوقاية و السبب فى طول مدة أقرائه له كثرة ما كتب على مباحثه المهمة من التعاليق المختصرة و المطولة، مع الشغل بخطة القضاء و الضعف البدنى إلى أن قال: «فإنا أهل بيت باض السقم فى بيتنا و فرخ و شوى و طبخ نسأله سبحانه أن يجعل ما فاتنا من القوة فى أبداننا قوة فى ديننا و أن يعافينا و يعف عنا و يميتنا على الإسلام بلا محنة إنه جواد كريم». و قد كان الجد المذكور مبتلى بمرض عصبى أعيا علاجه أطباء زمانه إلى أن حصل له إنكماش فى أصابع يديه و هو مع ذلك يطالع و يؤلف إلى أن توفى سنة ۱۲۴۷ ه و هو ابن أربع و ثمانين سنة لا يفتر عن التحرير و المطالعة قدس اللّه ثراه، كما أن والدتى رحمها اللّه و نعمها كان بها مرض الأعيا يعتريها بكثرة فى ركبتيها و هو من الأمراض العصبية، و كذلك كان بها مرض عصبى فى معدتها.

فلما تقدم، كان مزاجى منهشا للمرض العصبى لأنه من الأمراض التى يعتريها التوارث، و لما شقت علىّ الأشغال الفكرية و البدنية و كانت طبيعية إقليمى مائلة إلى الحرارة و اشتد الحرّ فى الصيف كنت أستحم بالماء البارد بعد التعب بالشغل نحو سبع ساعات تطلبا

للنشاط و الإرتياح للإستعانة بذلك على الأشغال عشية، فارتكبت ذلك مرتين أو ثلاثا و عند آخرها حصل لى وجع شديد يكاد لا يطاق يبتدىء من فم المعدة ثم يمتد للجنبين مع مصاحبة الإسهال و تطول حصته من الساعة إلى الساعتين، و تكرر ذلك مع شدته و لم ينجح فيه شيء من علاج أطباء بلادنا مع تنوعه و كثرة اجتماع الأطباء إليه بحيث لم أبق واحدا من مشاهيرهم لم أحضره فرادى و مجتمعين، و غاية ما أرسى عليه حالهم هو استعمال المسكن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۵۳

المسمى «بكلوراتو مرفينا» الذى يستخرج من روح الأفيون، و يستعملونه محلولا فى الماء المقطر وزن نصف قمحة من العلاج المذكور، أى عشرة من مائة من غرام واحد فى ستة غرامات من الماء المذكور، ثم يملؤون منه حقنة صغيرة تحمل غراما واحدا إلا ربعا من الماء المدبر المذكور، و يحكمون إدخال أنبوبها فى رأس إبرة خاوية الوسط و سنها فى غاية الحدة، ثم يمسكون الجلد من المريض بأصابع اليد و يجذبونه إلى أن يبعد شيئا ما عن اللحم ثم يدخلون الإبرة هناك و يجذبونها إلى خارج إلى أن لا يبقى إلا آخرها داخل الجلد، و يبقى محلها هناك متمددا و حينئذ يحقن الماء المذكور تحت الجلد ثم يزيلون الإبرة و قد تم حينئذ عمل العلاج، فبعد دقيقة أو دقيقتين أو أقل يسكن الألم بفضل اللّه.

و تمادى الحال على ذلك مع كثرة تردد المرض كل يوم مرة أو بعد يومين مرة و بعد كل نوبة يتركنى فى غاية التعب و يورث ارتخاء و ضعفا سيما و قد كنا لا نعلم كيفية استعمال ذلك المسكن فيلزم الصبر على شدائد الألم الفادح إلى أن يأتى الطبيب فما يأتى إلا و قد وجدنى أخذ منى الألم مأخذا عظيما، فلذلك نحل جسمى و صار يعترينى فى بعض الأحيان دوار و تارة يعترى تخضرم فى النبض مع شد ضعفه، و امتد ذلك نحو ثمانية أشهر و حينئذ ألح علىّ الحكيم الماهر النصوح «منياينى» بالسفر إلى أوروبا، و قد كان أشار علىّ بذلك من أوّل الأمر غير أن غيره من الأطباء خالفوه فإنهم قالوا لا يلزم السفر و يمكن العلاج فى البلاد، لكنى لما رأيت من طول الأمر و زيادة الضعف ما رجح لى كلام «منياينى» أعدت استشارة الأطباء فوافقوه و كان قصده من السفر:

أولا: ذات السفر فإنها من أسباب الصحة طبا، و قد علمنا من الفصل الثانى من المقدمة أن السفر من أسباب الصحة شرعا أيضا.

و ثانيا: الإرتياح لى من الأشغال الفكرية التى لم يمكن لى التجنب عنها فى البلد.

و ثالثا: لملاقاة مشاهير الأطباء الذين لا يوجدون عندنا كما سيعرف فى محله، و هذا الأخير هو الذى أوجب تعيين الوجهة إلى خصوص أوروبا.

فسافرت حينئذ و كان ذلك فى دجنبر و اجتمعت بمشاهير من أطباء إيطاليا و فرنسا و استقرّ رأى أغلبهم و أعلمهم على أن المرض عصبى مع ضعف شديد فى الدم و مركزه ما بين أعصاب المعدة و القلب، و عالجونى بالمياه الباردة جدا المنبعثة بقوة و ذلك بأن يضرب بها كفى القدمين، ثم المعقلين، ثم فقرات الظهر، ثم فم المعدة، ثم الوجه و الرأس، و يتم جميع ذلك فى دقيقتين أو ثلاث ثم ينشف البدن بخرق من الكتان مع عنف و ضرب خفيف و استعجال، ثم تلبس الثياب و يداوم المشى العجول نحو نصف ساعة أو أزيد إلى أن يسخن البدن و يحصل شيء من العرق. أو حك حوالى فقرات الظهر بخرقة من الشعر الصلب ثم إمرار إسفنجة مبتلة بالماء البارد على ذلك المحل عند النوم مع تكبيس الأعضاء و الظهر بالأيدى.

و ظهر لهذا العلاج بعض النفع غير أن شدّة البرد هناك الخارقة لمعتادنا فى إقليمنا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۵۴

المعتدل أوجبت على الأطباء الإشارة بالعود إلى الإقليم مع التوصية بالتحذير من الأسباب المحيرة للمرض، ككثرة الشغل و المآكل العسيرة الهضم، ثم تعاهد المعالجة بالماء البارد و شرب أدوية عديدة منها شيء قليل من روح الزئبق و أشباهه من أجزاء يسيرة من عقاقير قتالة مع التحذير من مقاديرها و خف المرض عند الرجوع إلى الوطن حتى أنى لم أضطر إلى استعمال المسكن بالحقنة نحو ثمانية أشهر، لكن المرض لم ينقطع و إنما كان يأتى خفيفا و مع العود إلى الأسباب التى لم أجد عنها مندوحة عاد الألم لما كان و

اضطررت للسفر ثانيا لخصوص باريس التى وجدت بها أمهر من رأيته من الأطباء و هو الحكيم «شاركو» و قد ورد الخبر باكتشافه لعلاج جديد من المعادن، و لما عدت إليه عالجنى بالكهرباء التى يسرد الكلام عليها إن شاء اللّه.

و صورة العلاج بآلات على نوعين، أحدهما: مسكنة للهيجان العصبى و هى آلة مركبة من ثمانين إسطوانة منقسمة إلى قسمين كل قسم يشمل أربعين أسطوانة و يوضع كل قسم فوق القسم الآخر و كل أسطوانة مركبة من طبقات، إحداها: نحاس و الأخرى: روح التوتيا المسماة بالزنك، و الثالثة: طبقة من الجوخ، و فى مركز كل أسطوانة عمود من سلك حديدى يخرقها و يتصل الجميع بطبقة من «الكاوتشو» و يغمس الجميع فى ماء مخلوط بالنشادر، و هذا الغمس لا يلزم فى كل مرة بل إذا حصل ضعف فى عمل الكهرباء ثم يجفف من التقاطر و يوضع فى صندوق من خشب بداخله صفحتان من الفولاذ موصلتان للكهرباء بسطح الطبقة العليا، و فى هذا السطح بيت إبرة و مسامير من نحاس مسطحة الرأس منقوش عليها أعداد من عشرة إلى أربعين يمينا و هكذا شمالا، و عمودان قصيران مثقوبان و يدان تداران على مركزهما و يوضع طرفهما على العدد المطلوب من المسامير اليد اليمنى على المسامير اليمين و اليسرى على المسامير الشمالية و على بيت الإبرة ضلع من خشب، و عند إرادة العمل بذلك الصندوق المهيأ يلزم وضعه بحيث يكون الضلع الخشبى الممتد على بيت الإبرة متوجها جنوبا و شمالا، ثم تدار اليدان لتحريك القوة الكهربائية و توضع إحداهما: على أحد الأعداد المناسبة لقوة الهيجان و قوة المريض أيضا، و هكذا الأخرى بحيث لا يبلغ بهما معا إلى نهاية العدد من الجهتين التى هى درجة الثمانين فى القوة الكهربائية لأن ذلك يخشى منه من الصاعقة على الإنسان، ثم يؤخذ سلكان من الفولاذ محكم لفهما بخيوط الحرير حتى لا يبدو منهما أقل جزء و يوضع كل منهما فى أحد العمودين المثقوبين، و يحكم إمساكهما هناك بلولب و فى رأس طرفيهما الآخرين شبه ختم من معدن ملفوف فى جلد رقيق يبل بالماء لسهولة توصيل الكهرباء و كل من الختمين له يد من خشب يمسكها العامل و يسمى أحد السلكين: بالموجب و الآخر: بالسالب تبعا لنوع تسمية الكهرباء، و الموجب هو الذى تكون اليد الدوارة من جهته فى درجة أعلى من الجهة الأخرى، فإذا ألصق الختمان ببعضهما أو اتصلا بجسم يوصل بينهما رأيت الإبرة فى بيتها تضطرب يمينا و شمالا و يشتد اضطرابها و يضعف على حسب الدرجة المجعولة فيها قوة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۵۵

الكهرباء و إذا حصل هيجان فى المرض يوضع الختمان على المريض بقرب مجلس الألم على هيئة التقابل بين السلكين ففى بضع ثوان يسكن الهيجان بإذن اللّه من غير أن يحس المريض بأدنى حركة أو ألم و يسمى هذا النوع من الكهرباء الكهرباء الساكنة و هاته الآلة من اختراع «كستاف طروقية» و عندما كان يعترينى المرض بالدوار و ضيق الصدر كان الحكيم يضع الختم الموجب على العنفقة ساكنا و السالب على الجبهة يديره من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر، فكان إذا قرب من الحاجبين أرى كأن البرق يتطاير من عينى متواليا و يلزم إزالة السالب شيئا فشيئا بأن يرفع بعض أطرافه ثم و ثم إلى أن ينفصل جميعه و أما الآخر فيفصل دفعة واحدة.

و الآلة الثانية الكهربائية: هى آلة لتقوية البدن و الأعصاب، و صورتها مربع من خشب عليه اسطوانتان من البلور مركوزتان على قطع من «الكاوتشو»، هو نوع غروى يجف و يتصلب مستخرج من صمغ الأشجار غير أن إحداهما يحيط بها «الكاوتشو» إلى نحو الثلثين منها و الثانية إلى نحو الربع، و يمد عليهما أسطوانة عظيمة من النحاس خاوية الوسط، و فى أواسط كل من الأسطوانتين البلوريتين رباط من نحاس فيه موضع لوضع قطب أحد الدائرتين الآتى بيانهما، و هذا القطب وسطه فولاذ و ظاهره كاوتشو يتصل بدائرة مسطحة جيدة من الكاوتشو أيضا، و أحد طرفى قطبها خارق للأسطوانة البلورية متصل بدائرة صغيرة من نحاس، كما أنه فى نحو الربع السفلى من الأسطوانتين موضع لقطب دائرة مثل تلك، لكنها من البلور و إنما مركزها على القطب من الكاوتشو، و بقية قطبها من النحاس و أحد طرفى قطبها خارق للاسطوانة البلورية متصل بدائرة من خشب لها يد تدار بها و على خط نهايتها محل لوضع حبل من جلد مكركب يوصل بينها و بين الدائرة النحاسية التى فوقها المتصلة بقطب دائرة الكاوتشو، و بدوران هاته الدائرة الخشبية يدور كل من دائرة البلور و دائرة الكاوتشو اللتين وضعهما بين الأسطوانتين.

و تبعد إحداهما عن الأخرى نحو أصبع عرضا، و مركز الكاوتشو أعلى من مركز البلور، ثم أن المربع الخشبى تلصق به آلة ذات و سادتين لاصقتين فى خشبتين، و هما جلد محشوتان بالشعر و لهما لولب يقرّبهما من بعضهما أو يبعدهما، و فائدتهما هى إدخال الدائرة البلورية بينهما بحيث يلتصق بكل من سطحيها إحداهما، حتى إذا أديرت يحصل حكها بهما و يدلك كل الوسادتين بشىء محجر من الكبريت تقوية لأحداث الكهرباء، ثم يتصل بإحدى الاسطوانتين البلوريتين عند مركز قطب الدائرة العليا قوس من نحاس ينفتح و ينغلق، بحيث إذا أغلق يتصل طرفه بالاسطوانة الكبرى النحاسية و فى هاته الاسطوانة حلقة من جنسها خارجة عن رأس الاسطوانة البلورية ليوضع فيها رأس قضيب من نحاس و ذلك الرأس منحنى ليمكن إمساكه فى الحلقة، و هو أى القضيب طويل أزيد من ثلاثة أمتار. و جميع تلك الآلة يوضع على مائدة من خشب مرتفعة على الأرض نحو ذراعين و نصف بأرجل متينة لا تضطرب عند إدارة الآلة و يكون وضعها فى محل خالى عن الندا متجدد الهواء بعيدا عن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۵۶

الأشجار و البحر نحو عشرة أو إثنى عشر ذراعا، و وضعها هى فى المحل يكون بعيدا عن الحيطان فى الأقل ذراعين، و إذا كانت الكهربائية ضعيفة يربط برجل القوس عند الاسطوانة البلورية سلسلة من أى معدن وجد، و يربط طرفها الآخر بالحائط ثم يوضع كرسى أرجله من البلور الثخين بعيدا عن الآلة قدر ذراعين، و يوضع عليه طرف القضيب الماسك فى الاسطوانة النحاسية، و يجلس على الكرسى المريض و تدار الآلة إما بالبخار أو باليد، و يفتح القوس النحاسى و عند ذلك يمتلىء الجالس بالكهرباء من غير أن يحس بشىء، إلا إذا قرب منه جرم ما فإنه يتطاير بينه و بين الجالس شرر يشبه البرق، و يحس به الجالس ضربا و إحراقا لكنه لا أذية فيه.

و لزيادة الدواء يأخذ الحكيم عصا من نحاس و يدها التى يمسكها من البلور و فيها حلقة تربط بها سلسلة معدنية متصلة بالأرض، و للحذر من مسها للحكيم يدخلها بحلقة متسعة من النحاس موصولة بيد من البلور يمسكها الحكيم بيده اليسرى ليبعد جرم السلسلة عن نفسه من غير تعطيل لحركتها أو اتصالها بالأرض، حيث كانت تمر فى الحلقة الواسعة، ثم يصوب رأس القضيب الذى بيده و هو مخروط مذبب صوب المريض الجالس على الكرسى، على الجهات التى هى مجالس للألم و إذ ذاك ترى شعلة من النار الزرقاء المبيضة خارجة من رأس القضيب و يحس المريض بريح باردة واصلة إليه، و إن قرب منه القضيب خرج الشرر و تارة يعوض رأس القضيب بكورة نحاسية توصل به و تارة يعوض بكورة خشبية متعددة الأنواع من صلابة الخشب و رخاوته، لأن الصلب أشد كهربائية فيستعمل من تلك الأنواع على حسب قوة المريض، و يدام العمل من خمس دقائق إلى عشرين دقيقة تدريجا مع تأنس المريض و نقاهته، و حصل لى بهذا العلاج مدة أربعين يوما نفع عظيم و للّه الحمد، كاد أن ينقطع به الألم بالمرة إلا بقايا قليلة لا عبرة بها.

و عند الرجوع إلى الوطن أكد علىّ الحكيم الحذر من الأسباب و تفقد العلاج المذكور، أو شرب قطرات صغيرة من محلول الذهب الذى بان نفعه أيضا من ست قطرات فى نصف كأس من ماء إلى خمس عشرة قطرة تدريجا قبل الأكل فطورا و عشاء و عند النوم، فكنت أستعمل آلة الكهرباء الدوائية التى ظهر نفعها غير أن الأطباء أوصونى على عدم ملازمتها خوفا من تأنس البدن، و لذلك تركتها مدة مع أنى كنت اشتريت آلة و استصحبتها معى، و الفرق بينها و بين الآلة التى عند الحكيم فى باريس أن التى أخذتها تدار باليد و الأخرى تدار بالبخار لكثرة استعمالها حيث يعالج بها كثيرين، و أما التى عندى فتكفى فيها يد الآدمى إذ لا يدوم العمل بها أكثر من عشرين دقيقة فى اليوم. ثم عند تركى للعلاج بها مدة كنت أخاف من اشتداد الألم الذى تتظاهر مخايله من حدوث بعض الدوار و الإرتخاء و الحزن، الذى هو من علامات الهيجان للنوع الثانى من المرض، و هو اعتراء برد شديد فى الأطراف و صغر فى النبض مع ألم عام لا- أقدر أعبر عنه و لا- أعلم مجلسه أين هو، مع ارتعاش فى الأعضاء و جفاف فى الريق و صعوبة فى ابتلاع الريق و الطعام و ضيق فى النفس،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۵۷

و هذا الهيجان لا تنفع فيه الآلة المسكنة إلا إذا كان شديدا، و أما إذا خفيفا فلا.

و من عجيب عوارض هذا النوع من الهيجان شدة السمع حتى كنت أسمع الشيء الخفيّ البعيد الذى لا يسمعه الحاضرون معى مع التأذى من شدة صوته عندى، فضلا عما إذا كان الصوت قريبا منى، حتى يلتزم من حضر عندى السكوت بل ربما تآذيت من صوتى نفسه و هكذا الشم، فقبل حصول الهيجان كنت أشم ما لا يدركه أمثالى لكن وقت الهيجان يصيبنى زكام مفرط، و ربما هاته الحالة لا يسكنها و لا مسكن الحقنة إلا بعد مدة، و هى أشد علىّ من هيجان الوجع، و لذلك كنت أستعمل عند تعطيل التعاهد بالآلة العلاجية شرب ماء الذهب المتقدم ذكره، و قد قلت للحكيم عند وصفه هذا الدواء و أنه من مخترعات هذا العصر: «إن أكل الذهب للتقوى معلوم عندنا»، و قد كان الإمام ابن عرفة فى المائة الثامنة و التاسعة يبرد كل يوم بندقيا- البندقى نوع من سكة الذهب منسوب إلى البندقية وزنه نحو نصف دينار ذهبا- على دجاجة و يطبخها جيدا و يأكلها، فقال البندقى: كثير، فقلت له:

حيث أن الذهب غير محلول فلا يأخذ منه البدن إلا مقدار ما تهضمه المعدة و ما عداه يذهب فى الفضلة، فقال: نعم، و على كل حال فلهذا العصر فضل فى الإقتصاد فلم يسعنى إلا التسليم، و هذا العلاج بالمعدن كنت أستعمله قبل السفر ثانيا، لكن على ظاهر الجسد و ذلك بأن يؤخذ شيء من أحد المعادن الخالص و يجعل منه نحو سوار، فإن ظهر فى المريض بلبسه نوع ملايم ديم عليه و إلا يبدل بمعدن آخر، و أوّل من اكتشفه طبيب نمساوى، و لم يلتفت إلى قوله إلى أن أصغى إليه الحكيم «شاركو» الفرنساوى، و جرّبه فوجده صادقا فأعلن به من مجلس فن الطب بباريس و صار معمولا به.

غير أنى وجدت فرقا بين الكيفية التى جربها لى الطبيب البارون «كستلنوفو» و بين ما فعله الطبيب بباريس، فإن الأوّل كان يستعمل المعدن و يبقيه إن وافق و كل المعادن التى جربتها لم توافق سيما النحاس فإنه يحدث التحيير إلا الذهب فلما جربته لبسا خف التحير و سخنت أعضائى، و كان العرق الذى يأتى من الألم حارا على خلاف ما كان من برده، و لما أعلمت بذلك الحكيم «شاركو» أذن الطبيب المباشر و هو «فغرو» بأن يجرب المعادن، فأعطانى ميزان القوة و قبضت عليه بجهدى و قيد الدرجة و كذلك علم ميزان النبض، ثم أوّل ما بدأ به من المعادن معدن المغناطيس، و هو على هيئة قطعة من حديد موضوع على مائدة فألصقه بذراعى الأيمن و جعل فاصلا بينه و بين البدن قطعة من ورق، فما لبث نحو دقيقتين إلّا و حصل هيجان عظيم فى المرض خشيت منه، و كان تابعى معجلا باستعمال الحقنة للتسكين فنهاه الطبيب، و استعمل الآلة الكهربائية الساكنة المار ذكرها فحصل السكون بفضل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۵۸

اللّه، و تبين أن ذلك المعدن غير ملائم و هو نظرى و وافقنى عليه الحكيم «شاركو» و إن كان الطبيب «فيغرو» يرى أنه موافق، بمعنى أنه لما أحدث تأثير أدل على تأثير للبدن منه، لكنى أقول: إن البدن يتأثر منه بالضرر لا النفع و لم أعد إليه و لا لغيره ذلك اليوم حذرا على البدن من كثرة الإضطراب، ثم جربنا النحاس و هو أيضا غير موافق كما تقدم غير أنه لم يحدث هيجانا كبيرا، ثم جربنا الفضة فلم توافق و لم تضادد بدليل موازنة ميزان القوة و النبض، ثم جربنا الذهب فكان ملائما بحرارة البدن و زيادة القوة و نشاط النبض، و لذلك استقرّ الرأى على عمله لكن لا يكتفى فيه بالاستعمال على ظاهر الجلد فقط بل بالشرب أيضا على نحو ما تقدم، و كل معدن كان تجريبه فى يوم خاص.

كما عولجت قبل السفر الثانى بماء «البرمور و بوتاسيوم» بإشارة الطبيب «كستلنوفو» و رأى فى كميته و أوقاته كيفية رآها الطبيب «منياينى» كثيرة، فلما استعملها مع المواظبة أكثرت على النوم حتى كدت أن أكون نائما ثمان و أربعين ساعة تماما، و المقدار هو قدر ملعقة أكل بعد كل ساعة من الماء المذكور، و بعد رجوعى من باريس و العلاج بالكهرباء على نحو ما مر، بقيت على العافية و للّه الحمد مدة عام إلّا ستة أيام، حيث تراكمت الأتعاب الفكرية و البدنية و حوادث فى البلد أوجب جميعها السفر ثالثا إلى باريس و الإشتغال بغير الدواء فى هاته المرة، مع مصاحبة الأتعاب الفكرية أوجب عدم نجح العلاج السابق و إن خف الألم شيئا ما، فلما عدت بعد إفراغ المستطاع وجدت الحال فى الوطن غير الحال، و أخلاق الحكومة و إن شئت قلت الوزير بخصوصه غير ما تركته عليه، كأنى أتيت شيئا على غير أمره، و تحقق لدى ما كنت أتوقعه من السوء لكل ناصح أمين غير مبالى على سوء الأعمال كما سيرد شرحه إن

شاء اللّه تعالى، فعزمت على التوجه لبيت اللّه الحرام ملتجأ إلى الرسول عليه الصلاة و السلام لكشف الضر الخاص و العام، فنلنا بجاهه المرام و لا زلنا نؤمل التمام مما التجأنا إليه فيه و منه حسن الختام.

فصل فى حكم التداوى شرعا

اعلم أن التداوى قد ورد بالهداية إليه القرآن العظيم كما فى قوله تعالى: يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ [النحل: ۶۹] فدلت الآية الشريفة على أن العسل دواء للآلام يستشفى به منها، كما بيّنه الحديث الشريف الوارد فى صحيح البخارى و غيره من قصة الصحابى الذى قال للنبى صلى اللّه عليه و سلم: «إن أخى يشتكى بطنه، فقال له صلى اللّه عليه و سلم: إسقه عسلا، ثم عاد و أعاد الشكوى و أعاد له صلى اللّه عليه و سلم صفة الدواء ثانيا، ثم وقعت الإعادة أيضا ثالثا، و قال الصحابى: قد سقيته و ما زاده إلا انطلاقا! فقال صلى اللّه عليه و سلم: إسقه عسلا صدق اللّه و كذب بطن أخيك، ففعل الصحابى و شفى المريض» .

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۱۵۹

فإن الحديث قد بين إن شفاء الناس هو تداويهم به من أمراضهم حيث قال: صدق اللّه أى فى قوله فيه شفاء للناس، ثم يدل الحديث أيضا على أن استعمال الدواء لا بد فيه من مقادير و أوقات، و لذلك أمره بالتكرار لأنه تعالى كما له إرادة فى جعل الشىء سببا فى البرء له إرادة فى خصوص مقداره و أوقاته، و أنه لا ينبغى أن يهمل الدواء إذا لم ير منه نفع فى المرة الأولى، إذ لعله لم يكن هو المقدار الكافى لما استعد له بدن المريض و للّه سبحانه و تعالى حكم فى الأشياء لم تصل عقولنا للإطلاع على تفاصيلها، فيلزمنا اتباع ما دلت العادة و التجربة على جعله سببا للمسبب بمقتضى الحكمة الأزلية، و من ادعى عمل الأشياء بالطبع لا يسعه إلا العجز عندما تجاريه بسؤالك: لماذا كان طبعها كذا؟ و إذا علل تقول له: لماذا كان ذلك التعليل؟ و هكذا، بل إنهم كثيرا ما يعجزون من أوّل الأمر فيقولون: إن الشىء الفلانى يفعل كذا بالخاصية، حيث لم يجدوا شيئا يمكن لهم به التعليل الأول، و الحق أن ذلك جميعه بخلق اللّه و جعل تلك الأشياء أسبابا عادية يخلق عندها ما أراده بسابق حكمته.

و لما تقدم أجمعت الأمّة على جواز استعمال الأدوية، و إنما وقع الخلاف فى جواز استعمال المحرم دواء و وقع الخلاف فى الترجيح عند الحنفية، و محل الخلاف هو ما إذا تعين الشفاء فى خصوص ذلك المحرّم و لم يوجد شىء آخر حلال يقوم مقامه، أما إذا وجد فلا مبيح حينئذ و القائل بالإباحة يستدل بالضرورة و أنها مبيحة للمحذور، فيكون كالخائف من الهلاك جوعا فى أكل الميتة، و مقتضى تجويزهم للكتابة بالدم على جبين صاحب الرعاف لكى ينقطع عنه، هو ترجيح للتداوى بالمحرم، لأن الكتابة بالدم النجس إهانة للحروف و لا سيما إذا كان فيها إسم اللّه و ذلك محرّم قطعا و إنما جاز للضرورة فلا يكون إذ ذاك حراما و يجيبون من احتج بقوله صلى اللّه عليه و سلم: «لم يجعل اللّه شفاءكم فيما حرم عليكم» ، فإن الشىء إذا تعين فيه الشفاء يرتفع عنه التحريم.

و بيان هذا المعنى هو أن يقال: إن الأشياء المحرّمة إنما حرمت لما فيها من المفاسد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۱۶۰

و المضار للمخلوق، لأنه تعالى منزه عن الإحتياج لشىء، و كل ما ورد به الشرع فإنما هو لهدايتنا لما ينفعنا فنؤمر به أو لما يضرنا فننهى عنه، و حيث لم يكن فى طوق عقولنا الإحاطة بعلم جميع ذلك لأن بعضها يتوقف على علوم تشيب الغراب، و هو تعالى خالقنا الرؤوف العالم بنا و رسوله هو الأب الرحيم بخلق اللّه و نحن على يقين من ذلك و للّه الحمد، فما علينا إلا أن نتبع ما شرع لنا موقنين و مسلمين أن ذلك هو الصالح بنا كتسليم الإبن لأبيه العاقل، و تسلم الجند لرئيسه الخبير من غير بحث عن موجب تكاليفه مع أن المشبه به يمكن فيه حصول الإعلام بالبواعث، غير أنه ترك حذرا من فوات الفرص و إطالة الأمر بخلاف المشبه، فقد علمنا عجز عقولنا عن إدراك جميع مصالحنا بتعاليلها و لذلك ما أمكن إدراكه.

قلنا إنه معقول المعنى و ما لم ندركه عملنا به، و قلنا إنه تعبدى و الكل معقول فى نفس الأمر، فالشىء المحرّم إذا اضطر للتداوى به

ليس المعنى أنه يرتفع الضرر الذى حرم من أجله، بل أن الضرر الحاصل الذى يراد دفعه به أعظم من الضرر السابق فيرتكب أخف الضررين كما هى القاعدة الشهيرة، فالخمر مثلا المحرّم لتوقع جرّه إلى إفساد العقل إذا غض الإنسان و خشى الهلاك، جاز له شربه لدفع الهلاك الذى هو أعظم ضررا من توقع جرّه لإفساد العقل، و لا يقال إنه على هذا يلزم التوقف فى كل جزئية على علم مفسدة المحرّم الذى أريد استعماله و حرم من أجلها و مقايستها بالمفسدة التى يراد دفعها به، مع أنك مصرح بعدم علم الجميع، و القائلون بالجواز لم يخصصوا ما علمت مراتبه و قيس بينها، لأنا نقول القواعد الكلية فى مثل ذلك كافية فى حصول المقصود، و قد علمنا منها أن حفظ النفس هو ثانى مرتبة بعد حفظ الدين و جميع الأشياء المبحوث عنها آيلة إلى حفظ النفس من الهلاك، و الهلاك أعظم مفسدة و مضرة من كل ما يمكن أن يكون فى الأشياء المحرمة من أسباب التحريم الراجعة إلى أجزاء خاصة من النفس كالعقل مثلا، فيقدّم حفظ النفس جميعها عليها و لا يمس ذلك الدين لأن محله القلب أى الروح التى هى محل الإعتقاد، و ذلك لا يخرج منه إلا بما دخل فيه كما هى العبارة المشهورة، و لذلك صرح الفقهاء بأنه لا يفتى بالردة استعجالا حتى يثبت اضطراب العقيدة و العياذة باللّه، و لو صرح

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۶۱

فى الفتاوى ببعض أشياء أنها مكفرة فلا يعول عليها ، نعم إن جميع الشعائر الظاهرة هى من الدين أيضا و منها حفظ النفس.

و قد علمنا من الشرع تقديمها على كل ما سواها إلا الإعتقاد، و لهذا يجوز إتلافها فى القتال على الدين و هكذا على شعائره، فإنهم صرحوا بأن من تركوا جميعا الآذان يقاتلون حفظا للدين و تقديما له على النفس، لكن ذلك إذا كان منبئا عن الإستخفاف الراجع للإعتقاد، أما إذا تبين التأويل أو العذر المنبىء عن صحة الإعتقاد فلا يقاتلوا حينئذ و لهذا لم نؤمر بقتال تاركى الجمعة بتأول وجوب الإمام المعصوم مع أنها من شعائر الدين.

و بما تقدم يعلم جواز تلقيح الجدرى من الحيوان أو الإنسان، لأنه قد ثبت بالتجربة المفيدة للقطع أنه حافظ من الهلاك أو مما يقرب منه، و من هذا الباب تجويزهم للكتابة بالدم مع أنه فيه استخفاف بالحروف التى مرجعها الدين، و بيانه أن الإستخفاف فعل القلب و الأعمال الظاهرية دالة عليه و أقيمت مقام الحرمة بسبب دلالتها لا لذاتها، فهلاك النفس تعارض مع ما يدل على الإستخفاف فقدم دفع الهلاك للتيقن بسلامة الإعتقاد، و غلب ذلك الدلالة لارتكاب أخفّ الضررين.

فإن قيل: كيف يكون أخف الضررين مع أن الآخر مرجعه للدين و هو مقدم على النفس؟

فالجواب: إن الدين قد علمت أنه سالم و هو الإعتقاد و لم يبق إلا الدلالة فى مقابلة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۶۲

النفس التى هى محل الإعتقاد، و القيام بجميع التكاليف فغلب ترجيحها كما صرحوا به فى جواز التيمم لخوف المرض، فى أن ذلك ليس تقديما للنفس على الدين بل من باب تقديم أغلب الدين على بعضه، لأن الإنسان إذا سلم أقام الطهر و الصلوات الكثيرة و غيرها من التكاليف، بخلاف ما إذا هلك فتسقط بموته جميع التكاليف المتعلقة بذاته فلا يسوغ له أن يسعى فى إبطاله تكاليف كثيرة لإقامة عبادة واحدة، فهو حينئذ من باب أخف الضررين كما تقدم.

و اعلم أن للعبد توقفا شديدا فى دعوى جواز مسألة الكتابة بالدم لحفظ النفس من الرعاف الخ، و بيانه أن صاحب «الفصول العمادية» و غيره ممن نقل عنهم الشيخ بيرم الثانى فى كتابه «حسن النبا فى جواز التحصن من الوبا»، قد صرحوا بأن تعلق الأسباب بمسبباتها على ثلاث مراتب.

أحدها: التعلق القطعى، و هو ما لا يتخلف فيه المسبب عن السبب إلّا على وجه خرق العادة كالشبع للأكل و الرىّ للشرب.

و ثانيها: الظنىّ، و هو ما يكثر فيه ارتباط المسبب بالسبب و قد يتخلف نادرا، و مثلوا له بالأدوية مع الأمراض.

و ثالثها: الوهمى، و هو ما لا يرتبط فيه المسبب بالسبب إلا نادرا و مثلوا له بالكى و الرقى مجمعين على ذلك.

و غاية ما اختلفوا فيه هو أن تعاطى القسم الثالث هل هو مخالف للتوكل أم لا؟

و احتج صاحب «حسن النبأ» لكونه غير مخالف للتوكل رادا على صاحب الفصول بثبوت الرقيا من النبى صلى اللّه عليه و سلم و كذلك الكى. فليراجع ما أطال به هناك، فأنت ترى أطباقهم على جعل الرقيا من الموهوم و ما تقدم من الكتابة بالدم للراعف ليست هى إلا رقيا، فكيف ينطبق عليها شرط جواز استعمال المحرم و هو تعينه للشفاء؟ و أين التعين من الوهم؟ و كيف يقدم على أمر محرم بإجماع لأمر موهوم؟

فعلى الآخذ للأحكام الشرعية التثبت و عدم الإغترار، و لهذا صعبت درجة المفتى لكى لا يضل و يضل بغير علم و لا ينفعه مجرد وجود المسائل فى كتب بعض المتأخرين، إذ كثيرا ما زلقت الأقدام من بعضهم فينقلها عنه غيره كأنها المذهب الذى عنه لا يذهب، و اللّه يحفظ المسلمين من مزالق الشبهات.

و كان منشأ ذلك القول هو ما قاله صاحب «النهاية» فى مبحث «جواز التداوى بالمحرم إذا تيقن فيه الشفاء» و ساق لذلك مثالا، و هو: جواز كتابة الفاتحة بالدم للراعف على جبينه و أنفه، لكنه قيد ذلك بحصول العلم الذى هو اليقين و ذلك على معرض التمثيل بدليل عطفه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۶۳

البول، حيث قال: و بالبول أيضا، أى إذا حصل العلم .

و من المعلوم أن الفقهاء يصوّرون المسائل و لو المستحيلة تقريرا لحكمها لما عسى أن يطرأ فى زمن لا يقدر فيه على استنباط الأحكام، فليس كلامه دليلا على الجواز فى تلك المسألة لأنه مقيد بالعلم، و قد علمت أنها من قبيلة الرقيا و الرقيا من الموهوم فلا يجوز الإستناد إلى كلامه مع الغفلة عن قيده الذى هو العلم، و لم نر فى كلامهم من يسوغ إطلاق العلم على الوهم، و غاية ما قالوه فى المسألة: إن بعضهم جعل كلام حذاق الأطباء مما يحصل به العلم، و قال العلامة السيد ابن عابدين فى حواشى الدرّ: «إنه لعله من التوسع فى إطلاق العلم على الظن». أقول: و ذلك لأن مسائل علم الطب على قسمين:

أحدهما: ما يرجع إلى علم التشريح، و كيفية تركيب الأبدان و هى يقينية.

و الثانى: ما يرجع إلى الدواء و مسائله ظنية كما تقدم.

ثم اعلم أن تعاطى الأسباب بأقسامها الثلاثة التى تقدمت فى صدر هذا المبحث، هو من أعمال الكاملين فى الدين و لا ينافى التوكل على اللّه، و قد بسط المسألة بيرم الثانى فى كتابه «حسن النبأ» المشار إليه، و حققناها فيما كتبناه على باب: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين» . من البخارى.

و خلاصة الكلام أن العمل بالأسباب مع التوكل على اللّه فى نجاحها هو المشروع، و مخالفة ذلك سوء أدب مع الخالق جل و علا، فيعصى الإنسان من حيث يظن أنه يطيع، و قد صرح بمثل ذلك العارف الشعرانى فى «المواثيق و العهود»، حيث قال: «إن التوكل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۶۴

لا يشرع إلا مع الأسباب أو عند فقدها أما مع إمكانها فهو كالعاصى». و بكلامه رضى اللّه عنه يتبين الوجه فى الفرق بين حالى النبى صلى اللّه عليه و سلم مع صاحبه الصديق، رضى اللّه تعالى عنه، فإنه عليه الصلاة و السلام: لما هاجر إلى المدينة عند اجتماع قريش على أذيته لم يكن له عليه الصلاة و السلام من الأسباب الحامية منهم مع كثرتهم و شدة عداوتهم و اتفاقهم إلا الإعتماد على أمر اللّه له بالهجرة و وعده له بإبلاغه إلى المأمن و انتصار الدين و ظهوره، فلما سافر و اختفى فى الغار مع صاحبه الصديق رضى اللّه عنه، و خرجت قريش فى تطلبهم و وصلوا إلى الغار و لم يكن لهم مانع ما عن تفتيشه و الدخول إليه مع شدة حرصهم على ذلك، كان سيدنا أبو بكر رضى اللّه تعالى عنه خائفا فزعا يدعو اللّه، و الرسول عليه الصلاة و السلام مطمئن يقول له ما أخبر اللّه به لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا [التوبة: ۴۰]. و فى غزوة بدر لما أعد الرسول صلى اللّه عليه و سلم العدة و العدد و هيأ أسباب القتال و التقى الجمعان للطعان، كان

الرسول صلى اللّه عليه و سلم يدعو اللّه بإلحاح حتى قال: «لأن تهلك هاته العصابة فلن تعبد بعدها فى الأرض» أو كما قال، و كان الصديق رضى اللّه عنه يقول له: لا تحزن إن اللّه منجز لك ما وعدك من النصر، و لا شك أن النبى صلى اللّه عليه و سلم أكمل حالا من جميع الخلق، فكيف اختلف حاله فى الواقعتين مع أن ظاهر الأمر فيهما مع صديقه رضى اللّه عنه فالوجه يتبين مما قرره الشعرانى فى القاعدة المار ذكرها، «و هو أن حال الغار ليس فيه مجال للأسباب لفقدانها فليس هناك إلا التوكل البحت». و لذلك كان صلى اللّه عليه و سلم مطمئنا لأنه أكمل توكلا، و أما حالة الغزوة فهى حالة الأخذ فى الأسباب ثم التوكل معها و لا يسوغ التوكل البحت، و لذلك كان صلى اللّه عليه و سلم مجتهدا فى الدعاء لتكون الأسباب ناجحة.

و ليس للأمة إلا اتباع الرسول فالعمل بالأسباب عند وجودها مع التوكل على اللّه فى نجاحها هو المشروع، و لا يشكل على هذا ما ينقل عن كثير من الصالحين من تركهم للأسباب و خرق العادة إليهم، لأنه مندفع بما قرره أبو إسحاق الشاطبى فى الموافقات:

«من أن هؤلاء و إن خرقت لهم العادة لكنهم لم يخرجوا عن الأسباب لأن خرق العادة من الأسباب الخفية»، و استشهد لذلك بأدلة تشفى الغليل، و يبينه ما وقع من العارف الربانى الإمام فى علم الباطن و الظاهر سيدى عبد العزيز المهدوى، شيخ مظهر العلم سيدى محيى الدين ابن العربى الحاتمى الذى ألف لأجله الفتوحات المكية، و يخاطبه فى رسائله بقوله يا وليّ، فإنه قد ذكر عنده أن أحد الصالحين كان مارا بطريق فوقع فى جب فمرّ بعض السابلة على ذلك الطريق و رأوا الجب، فقالوا: إن هذا الجب يضر بالسابلة لوقوعه فى الطريق

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۶۵

فلندفع أذاه بوضع هذا الصخر العظيم على فمه و نسدمه، ففعلوا من غير أن يعلموا بالصالح الواقع فيه، و خطر هو بباله أن يعلمهم ثم قال: لا التجىء إلى مخلوق و اللّه أعلم بحالى، و بعد ما مر السابلة جاء سبع و حفر فرجة من فم البئر و أدلى ذنبه إلى الرجل الصالح، فقال:

إن هذا إذن من اللّه بنجاتى، فتمسك بذيل السبع و أخرجه السبع من البئر و ذهب إلى حال سبيله، و سمع مناديا يقول قد نجيت من الهلاك بالهلاك.

و سئل الشيخ سيدى عبد العزيز كيف يصح هذا العمل من هذا الرجل الصالح و الحال أنه مخالف للشريعة لأن اللّه يقول: وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [البقرة: ۱۹۵] و عدم إعلامه هو للسابلة من باب الإلقاء باليد، فأجاب سيدى عبد العزيز رضى اللّه عنه بأن التكاليف الشرعية العملية هى ثانى رتبة من التكاليف الاعتقادية، و ذاك الرجل الصالح علم من نفسه ركونها للأسباب و عدم صحة توكلها فقهرها حتى يثبت صحة الإعتقاد الذى هو الدرجة الأولى، فلهذا كان الرجل قد عمل بالشريعة بوضع درجات التكليف مواضعها، هذا محصل كلامه رضى اللّه عنه. و به يعلم أن كل من ارتكب منهم مخالفة الأسباب لا بد أن يكون له حامل خاص، و إلّا فهم رضى اللّه عنهم أشد محافظة على الشريعة، فلا يغتر أحد بأن أعمالهم مخالفة لمشروعية الأسباب بل يحمل كل منهم على أمر خاص يليق بحاله، وفقنا اللّه للإهتداء بهداهم.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۶۶

الباب الثانى فى قطر تونس

اشارة

لما كان مسقط الرأس فى هاته البلاد و هى منبت الآباء و مستقر الأجداد، و نحن بصدد التعريف و الكلام على ما شاهدناه فى الأقطار على حسب مشاهدتنا لها فى التواريخ، لزم بالضرورة تقديم الكلام على الوطن النابت حبه فى القلب النبات الحسن.

فصل فى التعريف بالقطر التونسى

اعلم أن موقعه على شواطىء أفريقية الشرقية الشمالية على البحر الأبيض، و يحده البحر المذكور شمالا و شرقا و طرابلس الغرب فى بعض الحد الشرقى و الصحراء الكبيرة جنوبا و الجزائر غربا و يبتدىء شمالا من عرض سبع و ثلاثين درجة و سبع عشرة دقيقة و عشرين ثانية، هذا عند أعظم المراسى هناك و هى مدينة «بن زرت»، و يمتد من هناك إلى الجنوب إلى أن يدخل فى الصحراء الكبيرة من غير تعين للحد، و إنما أشهر المدن جهة الحد الجنوبى هى مدينة توزر، و هى واقعة فى عرض أربع و ثلاثين درجة و إحدى عشرة ثانية و عشرين دقيقة، و هذا القطر طوله من الشمال إلى الجنوب أكثر من عرضه من الشرق إلى الغرب، ممتد على ساحل البحر فيبتدىء من عرض درجة ۳۷ و دقيقة ۱۹ و ينتهى معموره إلى درجة ۳۳ و دقيقة ۱۰، و يبتدىء فى الطول المؤسس على باريس من طول درجة ۹ و دقيقة ۲۲ إلى نحو درجة ۵ و دقيقة ۵۰، و به رأس داخل فى البحر يسمى رأس «أدار» و هو أطول رأس فى البحر الأبيض، و يتصل ببقية القارة بالمكان المسمى دخلة المعاوين، كما أن بالقطر رؤوس أخر و هى: الرأس الأبيض، و رأس الزبيب، الإثنان حول بن زرت. و رأس سيدى على المكى ، و رأس جبل المنار، و رأس المهدية، و رأس كبودية، و رأس الغدامسى، و يتبع هذا القطر عدة جزر صغيرة أعظمها جزيرة جهة الحدود الجنوبية، ثم قرقنه و هى أمام صفاقس، ثم جزيرة الكلاب و الجوامير و جالطه و غيرها، و به خمسة أجوان كبيرة أحدها جون سيدى أبى سعيد، و هو بقرب الحاضرة، و جون قابس جهة الجنوب، و جون الحمامات، و جون بن زرت، و جون رواد، و به ثلاث

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۶۷

بحيرات. أولها: بحيرة الحاضرة، و ثانيها: بحيرة المزوقة عند بن زرت، و ثالثها: بحيرة الكلبية بين القيروان و الساحل.

و أما الأنهر: فليس به إلّا نهر واحد و هو مجرده و منبعه من ولاية قسنطينة التابعة للجزائر، و ينحدر من هناك مشرقا مع زيادة تعاظمه بالجداول التى تصب فيه إلى أن يخترق القطر التونسى مارا من الغرب إلى الشرق فى الجهة الشمالية من القطر، و تزداد مياهه أيضا بما يصب فيه من الجداول إلى أن يصب فى البحر فى جون رواد من شماليه قرب غار الملح، و هذا النهر و إن لم يكن سواه فى هذا القطر فهو لا يحمل إلا القوارب الصغيرة فى الصيف و أما فى الشتاء فيمكن أنه يحمل القوارب الكبيرة لا السفن، و إذا تكاثرت الأمطار فإنه يفيض و يطفو على أراضى وسيعة و ربما حصلت منه بعض أضرار.

و أما الجداول: فهى ليست بكثيرة جدا و لكنها خارقة لأغلب الجهات، و منها ما يجرى دواما و منها ما يجرى عند هطول الأمطار و من أشهر هاته الجداول واد ملأن و منبعه من جبال برقو من الجهة الجنوبية، و يخترق وطن رياح ثم ينحدر إلى أن يصب فى البحر فى رادس يبعد عن الحاضرة عشرة أميال، و كثيرا ما يمنع المارة عن عبوره عند كثرة الأمطار، و تارة يفيض لكن لا يحصل منه ضرر لمن يجاوره غير أنه يضر بمن يكون فيه من الرعاة و المارين، حيث أن فيضانه يأتى دفعيا و جريان مائه سريعا لكثرة انحداره.

و أما العيون: فليست كثيرة فى عموم القطر، لكنها تكثر جدا فى الجهة الشمالية فى جبال ماطر و جبال طبرقة و جبال باجة، و فى الكاف عين عظيمة جدا كثرة ماء و عذوبة و برودة، حتى تقع المخاطرة فى الصيف لمن يقتدر أن يرفع شيئا من قعر الماء الجارى عند منبعه، ثم تنحدر من الجبل و تسيح فى البساط مهملة، و كذلك فى إسبيطله عين عظيمة و فى زغوان و جقارعيون كثيرة، و بعضها و هو أكبرها مجلوب إلى تونس الآن فى قنوات من حديد مع آثار القنوات القديمة التى كان جلب فيها الرومان الماء من هناك إلى قرطاجنة، و كذلك فى الجريد عيون غزيرة عذبة الماء و حارة، كما يوجد بالقطر مياه كثيرة معدنية أشهرها ماء حمام الأنف النابع من جبل أبى قرنين و هو ماء حار عليه عدة حمامات، و الماء نابع من عدة عيون أحسنها عين حمام العريان، ثم عين الحمام الكبير و له نفع عظيم لعدة أمراض قد أفردت منافعه و كيفية استعماله برسالة خاصة للحكيم الكبير و ترجمها و نقحها العلامة بيرم الأول قدس ثراه، و هذا الحمام يبعد عن الحاضرة خمسة عشر ميلا جهة الجنوب الشرقى مطل على شاطىء البحر جامع للنزهة و النفع و التأنس، حيث كان

على الطريق العام الموصل إلى الساحل و غيره من أكبر جهات القطر و درجة حرارة مائه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۶۸

من ۴۸ إلى ۴۹ من تورومیتر صانتی غرام الذی هو میزان للحرارة الذی سفره من الجمد، و المائة درجة هی درجة غلیان الماء و کل لیتره منه تزن ألف غرام و عشرة غرمات و سبعة صانتی غرام، و معتاد الماء المطلق المقطر یزن ألف غرام و الغرام هو نوع من مقادیر الموازین کل ثلاثین غراما بأوقیة، و تفصیل الأجزاء التی فی هذا الماء من المعادن هو ما یأتی بیانه:

صنتی غرام/ غرام/

۰۰/ ۰۲۸/ ففی کل ألف غرام من الماء المذکور حامض فحم الجیر

۰۰/ ۰۱۲/ حامض المانیزیا

۰۰/ ۰۰۰/ حامض الحدید قلیل

۵۲/ ۰۰۱/ الجبس

۱۱/ ۰۰۰/ ملح دیسود

۱۱/ ۰۰۰/ ملح بوتاس

۷۵/ ۰۰۹/ مانیزیا کلولورد یسودیوم

۹۰/ ۰۰۱/ کلولورد کالسیوم

۵۵/ ۰۰۰/ کلولورد یمانیزیوم

۰۷/ ۰۰۰/ کلولورد یبدتاسیوم

۰۷/ ۰۰۰/ آسید سیلسیک أی طین البلور

و فی کل کیلو (۲۲۰) صانتی میتر و مربع من الحامض الفحمی، و فیه ۲ میلغرام من برومور و مانیزیا، و إصطلاح هاته الأعداد معلوم فی الحساب، و کذلک یوجد فیه حمام قربص البعید عن الحمام السابق نحو أربعین میلا فی الجهة الشرقیة الجنوبیة منه، و هو أکثر عیونا و أشد حرارة و له نفع عظیم فی کثیر من الأمراض العصبیة و أمراض المواد الطیریة، و من غریب خواصه: أنه إذا وضعت دجاجة فی مجری الماء قرب منبعه نحو بضع دقائق یزول ریشها بتمامه، بل أن بعضا من الأهالی یضع قدرة للطعام هناک فیطبخ اللحم أحسن طبخ و هکذا غیره إلّا بیض الدجاج، فمع شدة تلک الحرارة و مع سهولة طبخ البیض فإنه لا ینضج و لو أبقی هناک یوما تاما، هکذا یروی عن کثیر و أجزاؤه تقرب من أجزاء ماء حمام الأنف.

و کذلک یوجد قرب رأس الجبل من وطن بن زرت حمام معدنی غیر أنه لا یستعمل إلا عند بعض البوادی، و أهل القری هناک، و لا شهرة له مع أنه کثیر المنافع. و کذلک یوجد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۶۹

فی النفیضة میاه معدنیة نافعة للشرب و الإستحمام و هی مهجورة کغیرها من منابع الثروة و التقدم.

و أما جبال هذا القطر فتتصل به سلسلة جبال أطلس التی تبتدیء من عرض ۲۸ درجة و تنتهی فی عرض ۳۷ فی مملکة المغرب، و أعلی رؤوسها بین فاس و مراکش و ارتفاعه علی سطح البحر ثلاثة عشر ألف قدم و مائة قدم، و فی اختراقها للقطر التونسی عدة فروع أشهرها: جبال مطماطه، و جبل طبرقة، و جبل الرقبة، و جبل زغوان و هو أعلاها، و جبل الرصاص، و جبل أبی قرنین، و مناخ هاته الجبال هی الجهة الشمالیة و الغربیة الشمالیة ثم لا تزال تنخفض و تضیق عند توجهها للجنوب مارة بقرب سواحل البحر إلی أن تتصل بجبال الودارنه من عمل الأعراض، و عدا هاته لا یوجد جهة الجنوب إلّا ربیّ لا اعتبار لها و لیس منها جبل بلکانی إلا جبل أبی قرنین، فإن الآثار دالة علی أنه کان فی الأصل بلکان حیث یوجد فی قمته العلیا فوهة مسدومة الآن، مع منابع الماء الحار المتدفقة منه و مع

الإنفجار البليغ الكائن فى أحد رؤوسه التى بقرب البحر فى الجهة الشمالية منه، المعروفة بضربة السيف الحادث ذلك الإنفجار الهائل بسبب الزلزال الشديد الذى هو من علايق البلكانية.

و قد علمنا مما مر أن فى الحد الجنوبى الصحراء الكبيرة، و قد قال قوم: إنها كانت بحرا متصلة بالبحر الأبيض بخليج من شطوط قابس، و مما يستدلون به الأرض السواخة التى بين الشاطىء المذكور و الصحراء، و رام «فرديناند ديلسبس» الرجل الشهير بأعمال خليج السويس أن يحفر خليج قابس لكى يصير البحر فى وسط أفريقية، و حققوا أن سطح البحر أعلى من سطح الصحراء بما يحمل السفن الكبيرة و أن البحر يمد هناك إلى طول نحو ثلاثمائة ميل، و رأى قوم امتناع ذلك.

و لكن المريد اشتغل الآن بخليج بنما فى أمريكا فترك الكلام و العمل فى بحر الصحراء.

و أما معادن هذا القطر فهى لم تزل فى حجب الترك و لا شك أنها غنية نافعة، و المحقق منها الآن المعروف هو الرصاص و الفضة فى كل من جبل الرصاص و دجبة.

و أولها: كان مستعملا بكثرة و آثار خدمة الرومان له العظيمة لا زالت إلى الآن، و استخراج المعدن منه لا يحتاج لكبير معالجة، حتى أن الاعراب تأخذ منه ما تريد و لهذا صار إسم المعدن عنوانا على الجبل، و قد منح فى وزارة «مصطفى خزنه دار» إلى أحد الطليان ثم انتقلت منحته إلى لجنة طليانية و لم تزل بأيديهم إلى الآن من غير حصول فائدة لهم و لا للبلاد.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۷۰

- و ثانيها: الآن بيد لجنة فرنساوية هى صاحبة امتياز طريق الحديد، و الظاهر من أعمالها السريعة المجدة أنها تستخدمه عن قرب و إن كانت إلى الآن لم تحدث فيه شيئا، كما يوجد المعدنان المذكوران فى جهات أخر من جبل الرقبة و كذلك قرب اسبيطله، كما يوجد قرب هاته معدن من الذهب، و فى وطن أولاد عون يوجد القزدير و الزئبق و يوجد الحديد فى الجبل الأحمر قرب «باردو» و فى دجبة، و هو غنى سهل الإستخراج فى كليهما كما يوجد السيمان فى الجبل الأحمر و هو غنى سهل و يوجد فيه الفحم الحجرى أيضا، كما يوجد معدن المرمر الرفيع الأحمر و الأخضر الذى كانت تستعمله الرومان و القرطاجنيز فى هياكلهم الشهيرة، و هو قرب طبرية. و آثار استخراج الأقدمين موجودة تعدها البوادى غير أن تأوى إليها، كما يوجد الرخام الأسود فى جبل أشكل من وطن ماطر، و يوجد الكذال الرفيع الصلب فى جبل أبى قرنين و هو مستعمل إلى الآن و يسمى محله مقطع الحجر، و كذلك فى الجبل الأحمر الجبس كما يوجد الملح فى سباخ عديدة، أشهرها: سبخة سكره، قرب الحاضرة. و فى عشرة الثمانين و المائتين و ألف أرسلت دولة فرنسا أحد علماء الطبيعات بطلب من الحكومة التونسية و طاف فى جميع القطر بتدقيق، و كتب ما يشتمل عليه من المعادن و مقدار درجتها و أماكنها لكن بعض تلك التقارير لم تصل للحكومة التونسية إلى الآن.

و أما أراضى هذا القطر فهى خصبة جدا تبعا لماء السماء و كأنها لكثرة خصبها و اشتمالها على أكمل الصفات الحميدة خصت بإسم أفريقية من باب إطلاق العام على الخاص لمزية فيه، حتى صار كأنه هو الجميع أو أن أصل الإسم خاص بهذا القطر، ثم سمى به جميع ما اتصل به من القارة، و يؤيده تسمية الجهة الأكثر خصبا منه بخصوص هذا الإسم، و هى الجهة الشمالية الشاملة لماطروباجة و ما بينهما، فإنها إلى الآن تسمى على لسان العام و الخاص بأفريقية غير أنهم يبدلون القاف كافا مفخمة، و ينقسم القطر إلى ثلاثة أقسام باعتبار الخصب.

فالجهة الشمالية التى هى أكثر جبالا- هى الأكثر خصبا على مرور السنين، فالمزارعون هناك لا تكاد تجد سنة لا يربحون فيها من مزروعاتهم، و لا أقل أنهم لا يخسرون شيئا.

و على الخصوص فى هذا جهة جبال ماطر كما أن الخصب فى هاته الجهات لا يتجاوز الحدود المتعارفة فى الربح.

و أما القسم الثانى: فهو الجهة الوسطى من القطر و الجهة الشرقية من الجنوب على قرب من البحر، و ذلك كالساحل و القيروان و الأعراض و صفاقس و خصب هذا القسم باعتبار السنين و ما فيها من المطر قلة و كثرة، و حيث كان نزول المطر فى تلك الجهات

قليلا فكذلك الخصب قليل، ففى العشر سنين مثلا يحصل عندهم الخصب مرة أو مرتين لكنه خصب خارق للعادة، و يكاد السامع أن لا يصدق به أولا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۷۱

ما شهد به العيان و تواتر النقل فيه حتى بلغ حد القطع، فإن رجلا زرع فى أراضى الساحل التابعة لبلد سوسه ربع قفيز قمحا فحصل مائة قفيز و خمسة عشر قفيزا، و بلوغ هاته الدرجة قليل و الكثير أن من يزرع قفيزا يأخذ من الستة عشر قفيزا إلى الخمسة و الثلاثين قفيزا، و قد حكى الوزير أبو محمد خير الدين باشا، عندما كان وزيرا بتونس إلى نائب إحدى الدول ما يحصل بتلك الجهة من عظم الخصب، و أن الأمير أحمد باشا كان أتى فى أحد أسفاره بجذر من شعيرة واحدة أنبتت ستمائة سنبلة و أزيد، فظهر على وجه النائب استبعاد الحقيقة و سكت الوزير إذ ذاك ثم أرسل إلى عامل القيروان و جلاص بأن يبحث عند استواء الزرع على أعظم جذر و أكثره سنابل، فأرسل إليه صندوقين عظيمين بكل واحد منهما جذر واحد فاستدعى الوزير ذلك النائب و معه طائفة من الأعيان و أراهم الجذور فاعتنوا بأنفسهم بالبحث عن المنبت و وجدوا أصله شعيرة واحدة، و عدوا كم تفرع فى أحدها فتجاوزوا فى العد الأربعمائة و الخمسين و بقى نحو الثلث بلا عد، و قالوا يكفى الذى تحمل منه هذا العدد فله أن يتجاوز حتى الألف، و يعظم طول السنبل أيضا حتى يحجب الفارس بفرسه إذا مر فيه، و العادة عند فلاحة تلك الجهات أن يزرعوا حبات الشعير كزرع الشجر، أعنى يتركون بين الشعيرة و الشعيرة مسافة وسيعة و أما بقية السنين فأما أن يخسروا رأس المال أو بعضه أو يحصل لهم ربح يسير، و ذلك لقلة نزول الأمطار بتلك الجهات لخلوها عن الجبال المرتفعة و الأشجار الطويلة، و أراضى هذا القسم يلزمها البذر القليل بالنسبة للقسم الأول، فالمقدار من الأرض الذى يبذر فيه قفيز فى القسم الأول يبذر فيه فى هذا القسم الربع و أقل.

و أما القسم الثالث: فهو غير صالح لزرع الحبوب بالمرة، و هو الجهة الجنوبية المسماة بالجريد لأنها أراضى متسعة من الرمل و قريبة إلى الصحراء الكبيرة و لا تصب فيها المطر إلا نادرا، و إذا صبت أضرت بأهلها لأن نباتهم أكثره النخيل و المطر تضر بثمره العجيب و أما نبات هذا القطر فأغلب زراعة أهله فى القسم الشمالى و الأوسط هى الحبوب من القمح و الشعير، و أقل منها الذرة و الفول و الدرع و الجلجلان و الحبة الحلوى و الكروية و البسباس و التابل و الحبة السوداء و الكتان و القطن و اللوبياء و البطاطس و الحمص و العدس، و لكثرة خصب هاته الأشياء كان هذا القطر يسمى بمخزن حبوب روما، و يزرعون من البقول الطماطم و البصل و الصلق و الكرنب و البروكلو و القناوية أى الباميا و الملوخية و الفلفل الأخضر و الأحمر و المعدنوس و السنباخ و الكرضون و الدبا بأنواعها، و الحمقاء و الشبت و الثوم و الخس و السكوريا و البراصا و الفجل و السماق و الكلافس و الفراولو و البطيخ الأحمر و الأخضر و القثاء و اللفت و الكسبرا و بوخريش و الإسطفلينا، و فيه أنواع بريئة عجيبة الرائحة و المنظر لا يحيط بها إلا خالقها، و منها: القيحوان و البابونج و الأتاى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۷۲

و هو غير مستعمل، و فيه من الأزهار المستنبتة زهر البنفسج و ينبت بنفسه أيضا فى زغوان و غيره من أماكن المياه الكثيرة، و هكذا الورد و الياسمين بأنواعهما و الفل و القرنفل على أنواع شتى و غير ذلك من الزهور الطيبة الزكية، بحيث تكون جبال هذا القطر و أوديته و بساتينه أيام الربيع و أواخر الشتاء و أوائل الصيف روضة نضرة بألوان النبات المخضرة به الأرض و أنواع الزهور و النور المختلف الأشكال و الروائح.

و مما ينبت بنفسه القرنين الخارج من الخرشف الذى يقال أنه الجزر و السكوم، و ينبت فيه جميع النباتات من الكلأ البرى و من أحسنه لغذاء الحيوانات النجم و فى الجهات الشمالية آجام و غياض و غابات عظيمة غنية، و أشهرها: غابة طبرقة، يستخرج منها الأخشاب لبناء السفن و الخفاف و أعواد السقوف من الطرفا و غيرها، مع المتانة و الدوام، و العجب أنها مع كثرتها فتجارة الأخشاب المجلوبة من أوروبا رائجة فى أغلب حواضر القطر، و لتلك الغابات أشجار عظيمة جدا، ذكر لى ثقة: «أنه رأى فى غابة طبرقة شجرة من الزيتون

أحاط بساقها ستة عشر رجلا، كل منهم فاتح يديه للغاية ليمسك صاحبه». و أشجار تلك الغابات هى الذرو و الصفصاف و البلوط و البندق و القسطل و الزان و الفرنان، و منه يستخرج الخفاف و قشره لدبغ الجلود، و فيه تجارة رائجة و شجر النشم و الدردار و العرعار و غيرها من غير ذات الثمر.

كما يوجد فيها ذات الثمر نحو الجوز، و لأخشابه سوق نافعة كما لعروقه أيضا، فإنهم يأخذون قشرها و يستعملونه للصبغ و غيره، و أكثر هذا فى جبل زغوان و كل تلك الأشجار و الغابات نابتة بنفسها من غير حراسة إلا لحفظ طبرقة من جهة البحر، لأن للحكومة معلوما على الخفاف و هى مختصة بأخشاب السفن، كما لها معلوم على نوع من قشر الفرنان المستعمل للدبغ و بقية المنافع مكنوزة أو ضائعة.

و يستنبت فى جميع جهات القطر شجرة الزيتون المباركة إلا فى الجهة الضاربة للجنوب و كيفية غراسته على أنواع.

فمنها: أن يؤخذ قطعة من الفروع الغضة بأوراقها و فروعها فتغرس و تبقى الفروع ظاهرة و يسمى الشطبة و هو أردؤها.

و منها: أن يقطع من فروع الشجرة ما بلغ و لم يجف و يقطع فى طول ذراع ثم يحفر إليه عمق ذراعين فى طولهما و عرضهما، و تلقى تلك القطعة المسماة بالقنوط هناك ممتدة مع خلط التراب الذى تردم به بالسرقين و هو المسمى عندهم بالغبار.

و منها: ما يؤخذ من قاعدة الشجرة الجافة عند بدو اللقاح منها و يقطع بآلة من حديد مكركبا، حيث أن أصل خلقته فى القاعدة كذلك إلى أن يبقى ماسكا للأصل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۷۳

شىء قليل فيجذب باليد لكى ينسلخ من القشر سلخا، و يغرس على النحو السابق و يسمى السلعة.

و منها: أن يزرع النوى و بعد كبر شجرها تلقح من شجرة الزيتون، لأن النابت من النوى يخرج ثمره رديئا لا زيت فيه، و هو المسمى بالجبوز و يوجد من هذا النوع غابات كثيرة مهملة فى الجبال و غيرها و أعظمها ما بين إسبيطله و القيروان.

و منها: ما يزرع من القنوط المذكور لكن ليس كل شجرة منفردة من أول الأمر بل يزرع عدد كثير منها فى مكان مخصوص متقارب لبعضه و يسمى بالمشتلة، و بعد ثلاث سنين من نباته تنقل كل شجرة لمحلها، و هذا الصنف هو الأكثر استعمالا و للأهالى اعتناء بإتقانه و تنميته و سقيه، و الأغلب فى هاته الشجرة أن تستنبت من غير سقى إلا فى السنين الأولى، فإذا ثبتت عروقها ترك سقيها إلا بما يأتيها من ماء المطر، و لثمرها أنواع كثيرة مختلفة فى الطعم و الزيت كثرة و قلة و الأغلب هو النوع الأسود الصغير الحجم و هو العام، و يختلف زيته بالنظر للكثرة و الحسن على حسب الأرض التى يزرع بها، فما يزرع فى الجبال و الأراضى الكثيرة الحجارة يكون أكثر زيتا و أحسن زيوت هذا القطر زيت زيتون بلد قفصة و بلد توزر فإنه ألذ طعما و أنقى لونا كأنه ماء لا يكاد يبدوا من الزجاجة إذا وضع فيها، و من أنواع الزيتون الحسنة الطعم النوع المسمى بالمرسلين، و هو أخضر متوسط الحجم مائل إلى الطول دقيق النوى، و يتقن صنعه أهل زغوان بالنارنج و أهل الحاضرة بذلك أيضا و بالليمون و الفلفل الأحمر و الأخضر، و مثله النوع المسمى بالطازلا، الكبير الحجم جدا الأسود اللون، و من أنواعه الحسان المسمى بالمسكى و هو مكركب مائل إلى البياض بخضرة، و بقية أنواع الأشجار المستنبتة فمنها البرد قال أى النارنج الغير المرّ و فيه أنواع و هى:

الطرابلسى، و المالطى، و الجبالى، و أغرب نوع لم أره فى غير هذا القطر مع البحث عنه البرد قال المسكى، و هى لا حموضة فيه أصلا بل فيه حلاوة زائدة كأنه مخلوط بسكر أو عسل، و منها النارنج و الليم الحلو و الليمون الحامض و فيه أنواع.

منها: ما يبقى فى جميع الفصول الأربعة و الكمثرى و فيها أنواع لكل زمن من فصول السنة نوع و قد نقل من أوروبا أنواع تعظم كثيرا و عنى بتربيتها بعضهم فأنتجت فى السنين الأولى ثم أخذت فى التراجع، و التفاح مثل ذلك و المشمس و منه نوع يسمى بالشاشى، صغير مبيض منقط بحمرة أو سواد لم أر مثله فيما رأيت من الأقاليم طعما و نكهة، و الإجاص بأنواع كثيرة منه الأحمر و الأسود و الأبيض و الأخضر و المكركب و المستطيل و الصغير و الكبير، و يسمى بالعوينة، و أحسنه المسكى و هو صغير مستطيل، و اللوز و

العنب و التين و الخوخ و الهندى أى التين الهندى، و هو نوع يخرج من شجرة لها شوك كثير و لا ساق لها، و ورقها مثل أظلاف الإبل، له شوك كثير و يسمى فى المشرق بالصبارة، و يستعمل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۷۴

بكثرة سياجا على البساتين و هو مرغوب فيه فى هذا القطر لتمعش أقوام مثل جلاص و تفكه الآخرين و لو من أهل المدن، لطيب نكهته و طعمه مع قلة ضرره إلا إذا أكثر أكله على جوع فإنه قابض جدّا ربما قتل بذلك، و من طبيعته أنه يكثر فى سنين الجدب أى فى العام الذى تقل فيه الأمطار، و لذلك صار الهندى أهم النبات النافع للفقراء.

كما يستنبت فى هذا الإقليم التبغ أى ورق التدخين و النشوق، فأما ورق التدخين:

ففيه الجيد و لكنه لا يبلغ إلى أعلى نوع منه، و أما ورق النشوق: فإنه أعلى من جميع أنواع ما يزرع منه فى غير هذا القطر، سيما ما يزرع منه فى جهة باجة و تبرسق و قربة، و عادة دقه فى هذا القطر أنه يدق ناعما للغاية و قد كانت فيه أرباح للقطر بكثرة خروجه منه، و الآن صار يجلب إليه كثير من الخارج لتحجير الحكومة زرعه بإطلاق، حيث كان لها عليه آداء وافر، و ينبت أيضا الجوز و السفرجل و العناب و الزعرور و الرمان و بوصاع و الموز و النخيل، غير أنه فى غير الجريد لا يتمر إلا ثلاثة أنواع و هى: البسر الأخضر و الأصفر و الرطب، و أما فى الجريد فله أنواع عدها بعضهم ثمانين نوعا، و اختص على جميع ما علمنا من الأقاليم رؤية و سماعا بالنوع المسمى بالدقلة الذى لا نظير له حلاوة و لذة طعم، و يحمل منه لسائر المعمور رغبة فيه إلى غير ذلك من سائر نباتات الأقاليم المعتدلة، لا سيما الجبال الشمالية الكثيرة المياه فإنها يوجد بها حتى بعض نباتات الأقاليم الباردة، و هى على ممر الأيام نضرة خضرة بما كساها اللّه من جمال النبات و الخصب.

و أما هواء هذا القطر فهو معتدل الأغلب، و الجهة الجنوبية يغلب فيها الحرّ و إذا هب الريح الجنوبى على أى جهة و فى أى وقت يحصل منه الحرّ لا سيما فى الصيف فإنه يؤذى بحره حتى بعض الثمار و الأشجار، و فى غير ذلك الإعتدال هو الغالب و يشتد البرد فى الشتاء لكن لا يصل إلى إنجماد الماء أو نزول الثلج إلا نادرا، نعم فى جبال الشمال المرتفعة يحصل الجمد فى كل سنة بل يبقى الثلج فى بعضها و لو فى الصيف لكنه قليل، و أغلب جهات القطر سليمة الهواء موافقة للصحة و فيه جهات حسنة الهواء جدا نافعة للمرضى و لو بمرض السلّ الذى أحسن علاجاته الهواء لأن مجلسه الرئة، فمن هاته الجهات الحسنة المشهورة، المكان المعروف برأس الجبل، و هو جهة الشمال من القطر بقرب شاطىء البحر تبعد القرية التى هى مركزه على البحر نحو أربعة أميال، و البحر من شماليها و هو على سفح جبل منخفض مرمل تحف بها بساتين ناضرة إلى البحر تسقى بآبار ذات ماء حلو جيد نقى، و على شاطىء البحر عين عذبة ضعيفة الجريان لكنها نابعة من الصخر حلوة جدا نقية مسرعة للهضم كثيرا بحيث يصير الشارب منها يأكل أكثر من عادته، و كذلك من الأماكن الشهيرة بحسن الماء و الهواء بلدنا بل التى هى قاعدة الوطن القبلى، و هى على مبتدىء الرأس الطويل رأس أدار عند اتصاله بالقارة، تبعد على البحر نحو ميل و هو من شرقيها الجنوبى، و هى فى وهاد مرمل وراءها جبل و أمامها بحر و تحدق بها البساتين و الجنان بأنواع الليمون و البرد قال و غيرهما من الفواكه.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۷۵

و أحسن من هذين المكانين هواء الجبل المعروف بالأنصارين يبعد على الحاضرة نحو ستين ميلا جهة الشمال مع بعده عن البحر فإن هواءه لارتفاعه يغلب عليه البرد، و فى أعاليه مسارح و مزارع متسعة و عيون دافقة و أجام و غياض نضرة لا يركد فيها الماء بل ينحدر إلى أسفل و الشاهد على أن هذا المكان أحسن هواء من جميع جهات القطر، أن أهله لم يصبهم كثير من الأمراض الوبائية مع أن كل تلك الأمراض عمت القطر التونسى عدة مرار، و لم يعلم أن أحدا من أهل ذلك المكان أصيب بشىء من ذلك، بل إن الوافد إليه يسلم عند الحلول به و سبحان من خص ما شاء بما شاء. غير أن هذا المكان به عاهة صعباء هى كثرة الحيات المؤذية به و اللّه لطيف، كما يوجد بالقطر جهات و خمة رديئة الهواء، فأولها: نفزة من عمل الجريد، و ثانيها: باجة قاعدة العمل المسمى بها، فيغلب على

أهاليها الأمراض و ترى وجوههم صفرا و الوافدون عليهم فى أقل زمن يمرضون، لا سيما فى الصيف، و أما غير ما تقدم فالهواء معتدل سليم.

و أما حيوانات هذا القطر ففيه أغلب حيوانات أقاليم الاعتدال أنيسة و وحشية، فمن الوحشية الأسد و أغلبه فى الجهة الغربية و يضرب المثل بجرأة أسد عرار من أقسام تلك الجهة، و النمر فى كل الأجام القليلة العمران، و الضبع و الذئب و الثعلب و الفهد و النمس و هو النسناس و الخنزير و بقر الوحش و الغزال و الأرنب و الذربال و القنفذ و الوعل و الورل و الجرذ على أنواع، و البقر الجاموس كان جلب و سرح فى جبال ماطر و جبل أشكل الذى تحيط به بحيرة أشكل و هى حلوى، فتناسل هناك و تكاثر و هو على ملك الحكومة و توحش بحيث صار إذا احتيج إلى شىء منه يلزم صيده حيا، و قد تأخذ منه الحكومة أو بعض رجالها لجر الأثقال و اللبن و قد قل فى هاته المدة لكثرة صيد الولاة و عدم حراسته حقيقة.

و يوجد فى القطر من الحشرات: الثعبان و لا سيما فى جبال الودارنه فإنه يعظم جدا، لكنه غير مضر هناك بحيث يكون مساكنهم كأنه من الحيوانات الأليفة كالقط و أشباهه، و هم لا يؤذونه و هو لا يضر و لا ينضر منهم و يبلغ طول الواحد إلى ثمانية أذرع و غلظه أزيد من شبرين، و أما فى جهات الجريد و الصحراء فهناك أنواع من الثعبان مضرة، و منه نوع يسمى «بالزريق» رقيق قوى جدا إذا قصد شيئا يطفر عليه فيخرقه كالسهم، و كذلك الحيات القتالة و توجد بكثرة فى الشبيكا و تامغزا من الجريد و العقارب فى الجهات، غير أن كثرتها الفادحة فى الجريد. و هى مؤذية و لا سيما فى القيروان و فى بعض الجهات لا أذية منها كما فى بارود مقر الأمراء بل لا تكاد توجد هناك، و فى جبل المنار توجد بكثرة صغيرة الجرم لا أذية منها، و كذلك يوجد العنكبوت و تارة يعظم إلى أن يصير فى حجم العصفور الصغير و هو قليل الأذية، و كذلك يوجد النمل على أنواع شتى و كثيرا ما يضر بالزرع من القمح و الشعير، و كذلك الجراد يأتى فى بعض السنين و يضر بالنبات جميعا إذا كان كثيرا، و الخنفس على أنواع شتى، و الوزغ و الحرباء و غير ذلك مما هو قليل الوجود فى هذا القطر.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۷۶

و أما الحيوانات الأنيسة فيوجد منها الخيل و منها الجياد العتيقة العراب، و أكثر ألوانها الزرق أى الشهب المشوبة بالسواد و بقية الألوان، كالحمر و الكميت و الدهم، و الشهب موجودة أيضا بكثرة غير أنها أقل من الأول، و يوجد بقلة البلق و الصفر، و هذا الجنس يستعمل للركوب و جر العجلات بأنواعها و الحرث، و مثله البغال، و أما الحمير فهى موجودة بكثرة لكنها لا تستعمل لركوب أهالى المدن و أعيان القبائل بل عادتهم الإستحياء من ركوبها، و إنما تركب من عامة الاعراب و السوقة و تستعمل للحمل و مثل ذلك الإبل فلا تركب إلا كما تقدم فى الحمير، و كذلك يوجد البقر و الضأن و المعز و الكلاب على أنواع، و منها: السلوقية و القط.

و أما الطيور فى هذا القطر فمنها الأنيسة و هى الدجاج على أنواع و الأوز و البط و الدجاج الهندى و هذا النوع اختلفت أسماؤه فترى كل إقليم ينسبه إلى جهة، ففى تونس قد رأيت نسبته و فى غيرها بعض يقول رومى و آخرون فارسى و آخرون صينى الخ، و كذلك يوجد الحمام على أنواع شتى، و غير هذه الأجناس يجلب بقلة مشغلة للترف، و أما الوحشية فمنها المقيم و منها الرحالة.

فأما المقيم فمنه: البزويش أى عصفور البيوت و هذا النوع لا تكاد تخلو منه بلاد و إن اختلفت بشدة الحرّ و البرد، فقد رأيته فى لندره كما رأيته فى مكة المشرفة لا فرق بين ذا و ذا سوى تأثير فى اللون، ففى البلاد الباردة يميل لونه إلى السواد و فى البلاد الحارة يميل لونه إلى البياض، و منه القنابر و الزريص و الحمام و الحجل و المقنين و الشبروش و دجاج الحرث و الغر و النسر و العقاب و الفاس و البرنى و العصفور الكانالو غير أنه يربى و الزراعة و بورأس و الغراب و غراب الزرع و الفاخت و خادم الحجل و الطوطو و المرل.

و أما الرحالة فمنها: الإوز و البط و الغرنوق و الكركى و الدراج و السمان و البلبل و المنيار و البيبط و الزرزور و الابابيل و الخطاف و الهدهد.

و أما مدن هذا القطر فقاعدته تونس، و هى فى عرض ست و ثلاثين درجة و ست و أربعين دقيقة و ثمان و أربعين ثانية شمالا، و طول

تسع درجات شرقا من باريس بقرب من ساحل البحر الأبيض على جون سيدى أبى سعيد على تسعة أميال منه، يفصل بينهما بحيرة ملحة لها منفذان إلى البحر تمر بهما القوارب، أحدهما: يمر فى حلق الوادى. و الثانى:

بينه و بين رادس.

و البحيرة قليلة العمق بها جزيرة تسمى شكلى بها حصن قديم و على شاطئها على حافة البلاد مرسى للقوارب الحاملة للبضائع و الركاب، بين القاعدة و مرسى حلق الوادى، و يتصل بهاته المرسى أى مرسى البحيرة بالحاضرة فرع من طريق الحديد الغربية، و يقال إنه عقدت مع لجنة فرنساوية تسمى لجنة بون كالمه و هى صاحبة امتياز طريق الحديد الغربية شروط فى جعل تلك المرسى مؤتمنا للسفن،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۷۷

و يلزم لذلك حفر البحيرة و غير ذلك من الأعمال.

و هاته القاعدة هى أكثر طولا من الشمال إلى الجنوب من العرض، و يحيط بها سور إلّا من جهة الشرق فإن حدها هناك هو البحيرة المذكورة، كما أن السور ابتدىء فيه من جهة الجنوب و لم يتم ما بين باب الفلة و باب القرجانى، و فى السور تسعة أبواب.

أولها: فى قرب نهاية السور عند اتصاله بالبحيرة من جهة الشرق الشمالى و يفتح الباب إلى الشمال و يسمى باب الخضراء، ثم يليه باب ابن عبد السلام، ثم باب سعدون، ثم باب حومة العلوج، ثم باب سيدى عبد اللّه، ثم باب سيدى قاسم، ثم باب القرجانى، ثم باب الفلة، ثم باب عليوه، و هو فى نهاية السور من جهة الجنوب الشرقى عند اتصاله بالبحيرة أيضا. و لهاته القاعدة حصون على كل باب إلا- باب حومة العلوج، و فى خلال السور حصون أخرى كحصن القصبة و هو أكبرها و موقعه على أعلى ربوة فى البلاد، لأن البلاد جاءت فى سفح ربوتين متصاعدة فيهما، إحداهما: ربوة القصبة، و الثانية: ربوة القرجانى.

و من الحصون حصن درب بن عسال، و حصن سيدى يحيى، و خارجها أيضا بقرب منها حصون، فمنها: حصن الجلاز على أعلى رأس فى جبل الجلاز من جهة الجنوب للحاضرة، و منها: حصن الرابط فى الجهة الشمالية الغربية فى الجبل الأخضر، و بقربه:

حصن فليفل، و حصن: زوارة. و أمام حصن القصبة داخل المدينة بطحاء عظيمة و فى جهتها الجنوبية سراية المملكة التى بناها حموده باشا و لا زالت معتنى بها إلى الآن، و هى مقر الحكومة و الوالى عند وفوده للحاضرة.

و فى جهتى الشرق و الشمال من البطحاء سوق ذو حوانيت و أمامها مظلات مرفوعة على أعمدة من الرخام. و فى جهتها الغربية الحصن و بوسطها جنية و فوارة للماء من ماء زغوان، و يحيط بالمدينة فاصلا بينها و بين الربضين طريق متسع و أشهر الأماكن الرحيبة بالحاضرة بطحاء رمضان باى، و بقربها مركز الضابطية، و بطحاء الممر بربض باب الجزيرة، و كذلك بطحاء المركاض أمام القشلة الحسينية، و بطحاء الحلفاوين بربض باب السويق، و به أيضا بطحاء التبانين، و بين الربضين بطحاء باب البحر و هى أنزه و أرحب الأماكن و حولها بناءات أنيقة، و بوسطها جنينة و فوارة و يمر منها طريق عظيم متسع إلى مرسى البحيرة، و ذلك المكان هو منتزه الأهالى فى عشايا الصيف لأن حول الطريق العريض أشجار و قهاوى و ملاهى، و حول باب البحر و بقربه حارات الإفرنج و يتصل بها حارات اليهود.

و ماء زغوان مخترق لأغلب جهات البلد فى قنوات من حديد، و أغلب الأسواق متصل بعضه ببعض، و قد كانت كل صناعة لها سوق مخصوص لكن الآن وقع بعض تداخل، و مناخ هاته الأسواق هو الجهة الغربية من المدينة حول جامع الزيتونة الذى هو بقرب القصبة المار ذكرها، و جامع الزيتونة هو أول جامع بنى بالحاضرة و كان تمامه سنة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۷۸

۱۴۱ حسبما كتب ذلك على أقواس بيت الصلاة بالقوس المواجه لمحل المصحف فنقش عليه تاريخه، لفظ: «اعلم».

و هذا الجامع هو أعظم جامع بالحاضرة و هو بركة أهلها و لا يخلو من رجل صالح، و هو مناخ العلوم و نتجت فيه فحول عظام قديما و

حديثا، و إن كان أقدم منه فى البناء جامع القصر لأنه كان كنيسة قبل الفتح فصار جامعا، و تشتمل الحاضرة على سبعة جوامع خطب للحنفية و أعظمها جامع محمد باى تجاه زاوية سيد محرز بن خلف ، و بقية الجوامع و المساجد البالغة نحو ثلاثمائة كلها مالكية و أعظمها جامع الزيتونة، و فى الحاضرة زوايا كثيرة منها ما به ضريح سادات من الصالحين كزاوية سيدى محرز بن خلف عماد البلدة رضى اللّه عنه، و زاوية سيدى على بن زياد من كبار أصحاب مالك بن أنس ، و زاوية سيدى أحمد بن عروس ، و زاوية سيدى منصور، و غيرهم رضى اللّه عنهم و تبلغ أزيد من مائتى زاوية.

و سكان الحاضرة تقريب عددهم نحو مائة و خمسين ألف نسمة منهم نصارى، و آفدون اتباع الدول الأجنبية نحو عشرين ألفا، و يهود نحو أربعين ألفا، و المسلمون ما بين أهالى أو جزائريين نحو تسعين ألفا، و بقرب الحاضرة على نحو ثلاثة أميال من الغرب الشمالى بلدة باردو التى هى مقر الحكومة، و تشتمل على قصور للإدارة و مساكن الوالى و قرابته و على جامع واحد و حمام، و لها قاض خاص. و حول الحاضرة إلى مسيرة تسعة أميال و أقل بساتين و عمران و أحسنها المكان المسمى منوبة، لاشتماله على قصور جميلة فى بساتين أنيقة، و بها قرية حول زاوية الولية الصالحة السيدة عائشة المنوبية، و هى فى الجهة الغربية من الحاضرة على مسيرة تسعة أميال، و فى الجهة الشمالية بساتين أريانة تضاهى السابقة مع حسن هوائها، ثم فى الجهة الشرقية بساتين مرسى قرطاجنة التى هى أنزه و أبهى مكان حول الحاضرة تبعد عنها نحو سبعة عشر ميلا على شاطىء البحر الذى مجدت محاسنه شعراء

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۷۹

القطر، و قال أبو عبد اللّه الباجى المسعودى فيه عدة موشحات منها قوله:

يا شاطىء المرسة السلامعليك يا نزهة العيون

و أشهر أماكنها العبدلية المشتملة على سوق و قصور أنيقة لولى العهد فى الولاية الأمير على باى، و فى الجنوب الشرقى من الحاضرة على بعد تسعة أميال مستقيما مرسى حلق الوادى التى هى أكبر مراسى القطر، و يكثر سكانها صيفا حيث ينتقل الوالى و الحكومة إليها و كثير من اليهود للتنزه بها و يبلغ سكانها إذ ذاك إلى نحو ثلاثين ألفا، و قد أحدث خارج سورها بناآت كثيرة نحو بلدة جديدة فى شرقيها على ترتيب هندسى، و بينها و بين مرسى قرطاجنة المتقدمة بلدة جبل المنار هى أقرب إلى الثانية، و هى مقرّ انتزاه أهل الحاضرة فى الصيف، تشتمل على أزيد من أربعمائة دار أغلبها أنيق متقن مطلة على البحر بحيث يراها القادم فى البحر على أحسن منظر لتصاعدها فى الجبل مع تزويق الأبنية، و إن كانت طرقها وسخة و قد التفتوا فى المدة الأخيرة إلى شىء من نظافتها. و تشتمل على ضريح الوالى الصالح سيدى أبى سعيد الباجى، و غيره من الأولياء رضى اللّه عنهم، و تنسب البلدة إلى سيدى أبى سعيد.

كما أنه بين هاته البلدة و بلدة حلق الوادى عدة قرى فى مكان مدينة قرطاجنة العتيقة التى هى الآن خراب و لم يبق منها قائما إلا مواجل الماء، و قد كانت مسدومة بالتراب، ثم فى هاته المدة الأخيرة فرغت منه و وجدت حيطانها و طليها أحسن مما يبنى جديدا، و هى نحو إحدى عشرة ماجلا متصلة ببعضها بمنافذ و لا تحتاج إلا لشىء يسير من الإصلاح، و هى من المبانى العجيبة التى تقصدها السواح لرؤيتها، كما أن خرائب قرطاجنة لا زال يستخرج منها الصخور الضخمة و الاسطوانات المرمر، و كثير من الإفرنج يبحث فيها على الأشياء العتيقة و يستخرج منها تصاوير و أصنام و صناديق من رخام عليها كتابات عتيقة، و هى قبور لقدمائهم و تارة يستخرج بعض فصوص منقوش عليها تصاوير فى غاية الإتقان، فمنها:

فص قدر الظفر منقوش به عجلة و أربعة من الخيل، و من اتقان النقش أن صفائح الخيل تظهر مساميرها و لا يستبين عجبها إلا بالمرآة المكبرة، كما يستخرج أحيانا قطع من السكة ذهبا أو غيره.

و الحاصل أن هاتيك الجهات و ما حولها إلى الجبل الخاوى لا زالت تشتمل على عجائب من آثار الأقدمين، و من القرى الواقعة هناك الآن أشبه شىء بالخراب المعلقة و دوار الشط ثم بينهما و بين حلق الوادى بساتين قرطاجنة على الشط، و هى جميلة ذات قصور أنيقة. و فى الجهة الشمالية الشرقية من الحاضر بساتين سكرة، و سميت بذلك لأنها كان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۸۰

يزرع بها قصب السكر بكثرة، و تسقى من عين عظيمة عذبة مارّة تحت الأرض لا يعلم منبعها و إنما هى آتية من الشمال الغربى ذاهبة إلى الشرق الجنوبى فى قناة من البناء المتقن، و الآن عليها آبار كثيرة و لكن من التقهقر صارت تلك الجهة كأنها خلاء و ليس بها قصبة واحدة سكرية، إذ صار هواؤها رديئا من السبخة التى هى فى شماليها الشرقى بينها و بين بساتين قرت التى هى قرب شاطىء البحر شمالى الجبل الخاوى، و فيها جبال عظيمة من الرمل المنتقل أهلكت أغلب بساتين تلك الجهة و هى آتية من الشمال محاذية للشاطىء ذاهبة إلى الجنوب و كأنها من الرمال التى يقذفها البحر بعد التصفية مما يأتى به نهر مجردة.

و المدينة الثانية فى القطر هى: القيروان، و هى اختطتها الصحابة رضوان اللّه عليهم عند الفتح فى مكان صالح بمعيشة حيواناتهم، و قريب من طبيعة أرض الحجاز لتأنسهم بها، و بعيدة عن البحر حذرا من هجمات المحاربين قبل التمكن، و هى فى الجنوب الغربى من الحاضرة فى طول ۴۵ ثانية و ۳ دقائق، و عرض ۴۱ ثانية و ۳۵ دقيقة. و بها الجامع الكبير الذى بنته الصحابة ثم جدده بنو الأغلب عندما كانت تلك البلدة هى قاعدة القطر، و لا زال بعض سقوف الجامع مما صنعه الأغالبة إلى الآن، كما أنها فيها ضريح السيد الصحابى سيدنا أبى زمعة الأنصارى رضى اللّه عنه، و عليه بناآت ضخمة و مدارس للعلوم و أوقاف كثيرة.

و لتلك البلدة سور و ضريح السيد خارج السور، و فى السور منافذ ضيقة معرجة للخروج منه راجلا عند غلق الأبواب، و على السور عدة حصون و هى الآن ليست على ما كانت من العمران، و سكانها الآن نحو عشرين ألفا كلهم مسلمون، و لا يدخل البلد غير مسلم، و هم قائمون بجميع ما يحتاجون إليه من صنائع و تجارة، و لا زال العلم فى أهلها و بالجامع الأعظم و بمدارس السيد عدة دروس فى علوم شتى.

ثم إن القطر التونسى ينقسم إلى عدة أعمال بالنظر إلى السياسة.

(۱) فالحاضرة و ما حولها إلى نحو عشرين ميلا من كل جهة عمل.

(۲) و يليه من الجهة الشرقية الجنوبية عمل الوطن القبلى و هو ينقسم إلى الجزيرة مما يلى الحاضرة، و قاعدتها بلد سليمان و سكانها نحو أربعة آلاف نسمة، و إلى الوطن و قاعدته بلد نابل و سكانها نحو خمسة عشر ألف نسمة، و فى الجميع أزيد من ستين قرية فمما يتبع الأولى المنزل و بنى خلاد و الصمعة و أقليبية التى هى حصن على رأس إدار، و مما يتبع الثانى بنى خيار و قربة و الحمامات و هى حصن فى الجون المعروف بها، و فى ذلك الرأس الطويل مقرّ السادات المعاويين الثابتى الشرف رضى اللّه عنهم.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۸۱

ثم يلى ذلك جنوبا: (۳) عمل الساحل المنقسم إلى وطن سوسه وطن المنستير، و يتبع كل منهما عدة قرى:

فمما يتبع سوسه: بلد مساكن أهاليها أشراف و القلعة الكبرى و القلعة الصغرى و غيرها، و سوسه التى هى القاعدة ذات سور و حصون و هى مرسى على البحر، و بها جامع عظيم و سكانها نحو تسعة آلاف نسمة و لهم حضارة و بقايا من العلوم.

و مما يتبع المنستير بلد المهدية و لها حصن و سور و جامع و هى مرسى تجارية أيضا و لها قاض خاص، و أكثر سكانها حنفية من أبناء الترك الذين استوطنوا تونس، و عدد سكانها نحو ثمانية آلاف نسمة، و يتبعها أيضا بلد جمال و بلد المنارة و غيرها، و المنستير هى القاعدة و لها سور و حصون و هى مرسى تجارية أيضا و سكانها نحو سبعة آلاف نسمة، و هى دون سوسة فى الحضارة و المعارف.

و يلى هذا العمل (۴): عمل صفاقس، و هو جنوبى السابق على شاطىء البحر، و قاعدته مدينة صفاقس و سكانها نحو عشر آلاف و لأهلها شهرة بالتجارة فى دواخل القطر و فى الممالك الإسلامية، و لهم مزيد محافظة على الصلوات فى المساجد و لهم بقايا من العلوم الدينية و الأدبية، و هاته البلدة لها سور و حصون و هى مرسى تجارية أيضا و تأوى إليها سفن الحكومة فى الشتاء لأنها مأمن طبيعى للسفن، و لشاطئها مد و جزر و يتبعها جزيرة قرقنة التى بها قرى و لأهلها صناعة الحلفة و الحبال.

ثم يلى هـذا العمل على الشاطىء الجنوبى (۵): عمل الأعراض، على جون قابس التى هى قاعدة العمل، و سكانها نحو تسعة آلاف و هم على البداوة، و لها مرسى قليلة التجارة و هذا العمل ينتهى إلى غايته الحدود من جهة الجنوب و الجنوب الشرقى إلى طرابلس.

ثم يلى هذا العمل فى الشرق (۶): عمل جربة، التى هى جزيرة فى البحر و عدد سكانها أزيد من ثلاثين ألفا متفرقين على عدة قرى و لهم شهرة تامة بالتجارة فى سائر ممالك الإسلام.

و يلى عمل الأعراض من غربيه (۷): عمل الجريد، الواصل إلى نهاية الحدود الجنوبية فى الصحراء و هو منقسم إلى أربعة أقسام.

الأوّل: فى جنوبية و هو وطن الوديان و الشبيكة و تامغزا. و يليه شمالا: وطن نفطة، و يليه شمالا: وطن توزر، و يليه شمالا: وطن قفصة، و هاته لها حصن، و قاعدة جميع الجريد هى توزر، و قد كانت مناخا للعلوم و لا زالت فيها بقايا و عدد سكانها نحو ألفى نسمة.

ثم شمالى هذا العمل (۸): عمل القيروان، و قد مر ذكرها لأنها لها التقدم على غيرها.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۸۲

و يلى عملها شمالا (۹): عمل أولاد سعيد من البوادى سكان الخيام.

و يليه فى الشمال الغربى. (۱۰): عمل رياح المشتمل على بلد زغوان فى جبلها الشهير، و على بلد تستور و على بلد مجاز الباب و غيرها، و أكبرها تستور عدد سكانها نحو أربعة ألاف، و هذا العمل يتصل بعمل الحاضرة. و حينئذ قد عرفنا جهة الشط الجنوبى الشرقى إلى الحدود، ثم ما والاه من دواخل القطر و يبقى علينا تقسيم جهاته الغربية و الشمالية.

فأما الغربية، فيتصل بعمل الحاضرة (۱۱): عمل طبربة، و قاعدته طبربة و هى قرية الآن فى غاية التأخر.

(۱۲) ثم عمل تبرسق، و هى قاعدته و سكانها نحو ألفى نسمة.

(۱۳) ثم عمل باجة، و هى قاعدته و هو عمل كبير و قاعدته ذات حصن و قصر لنائب الوالى الذى يسافر بالمعسكر كل صيف إلى هناك فى القديم و عدد سكانها نحو خمسة آلاف نسمة.

(۱۴) ثم عمل الكاف، و هى قاعدته و لها حصن و هى فى رأس جبل و عدد سكانها نحو خمسة آلاف نسمة، و يتصل عملها إلى نهاية الحدود الغربية، غير أنه لا يصل إلى الشط من جهة الشمال، فتلك الجهات هى الأعمال الشمالية و تبتدىء من جهة الحد بجبال طبرقة و سكانها.

(۱۵) بوادى و بها حصن.

و يليه (۱۶) عمل جبال ماطر، و هى قاعدته و سكانها نحو ألفى نسمة من البوادى.

ثم يليه (۱۷) عمل بن زرت، و هى قاعدة و هى مرسى أمينة جدا لو سهل لها بعض تسهيل فى منفذها إلى البحر لأمكن أن تأوى جميع سفن الدنيا فى أمان، و لموقعها اعتبار عظيم فى التمكن من البحر الأبيض، و سكانها نحو ستة آلاف نسمة و لها حصن و سور و الماء يجرى إليها فى قنوات من البناء من بعد للشرب لأهلها، و يخترقها خليج يوصل إلى بحيرة المزوقة المتصلة ببحيرة أشكل التى بها جبل كالجزيرة فيه حيوانات كثيرة، و هو منزه لمريد الصيد. و يتبع هذا العمل بلد غار الملح التى هى فى نهاية الحد الشمالى من الشرق و سكانها نحو ألف نسمة، و يتصل هذا العمل من جنوبيه بعمل الحاضرة و على ذلك فقد تصوّر القارىء هيئة تقسيم أرض هذا القطر، غير أنه بقى له تقسيم آخر حكمى أيضا بالنظر إلى القبائل الساكنين به و مرجع أحكامهم.

فنقول: (إن أصل) أهالى هذا القطر هم من البربر و كانوا قبل الفتح إما نصارى أو وثنيين ثم أسلموا كلهم، و لا زال فى بعض القبائل شىء من عادات النصارى يفعلونه عن غير قصد، و هو الوشم بين أعينهم على جباههم بصورة صليب صغير، و كذلك استوطن به

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۸۳

كثير من العرب و اختلطت أنسابهم بالأصليين، ثم استوطن به أيضا من هاجر من الأندلس بعد المائة الثامنة و قد بنوا بلدانا بالقطر خاصة بهم، و كذلك فى ربض باب سويقة من الحاضرة بنوا حارة خاصة تسمى إلى الآن حومة الأندلس، و من بلدانهم التى أسسوها

سليمان و زغوان و طبربة و مجاز الباب و تستور. و كلها مؤسسة بأماكن جيدة على شكل حسن متقابلة الطرق واسعتها مستقيمتها، و اختلط نسلهم بالقاطنين ثم وفد عليهم الترك و اختلط نسلهم أيضا بالقاطنين، و لكن الأكثر هم النوعان الأوّلان. و ديانة الجميع هى الإسلام إلا- نحو ستين ألفا من اليهود أغلبهم فى الحاضرة و باقيهم متفرقون فى أغلب بلدان القطر، كما أن فى القطر من النصارى الأوروباوين نحو الأربعين ألفا من أجناس شتى أغلبهم مالطيون من الإنكليز، و يليهم الطليانيون ثم الفرنساويون ثم غيرهم قليلا هذا من غير اعتبار المسلمين التابعين للفرنسيس و إلا- فعدد الفرنساويين بذلك الإعتبار أكثر من غيرهم، ثم إن الأهالى الأصليين كانوا فى صدر المدة على مذهب أبى حنيفة، هم و جميع سكان الجزائر و المغرب إلى ولاية المعز بن باديس ، فحملهم على اتباع مذهب مالك و ذلك فى حدود سنة (۴۰۶)، و بقوا على ذلك إلى إلى أن جاء الترك فكانوا هم و نسلهم على مذهب أبى حنيفة، و لذلك كان أكثر الأهالى مالكية. و هذا بيان أسماء الأعمال و القبائل و الإشارة إلى أماكن إقامتهم:

(۱) الحاضرة.

(۲) القيروان.

(۳) أولاد خليفة من جلاص جنوبى القيروان.

(۴) الكعوب و الكوازين منهم غربى القيروان.

(۵) أولاد بدر منهم مثل السابقين.

(۶) أولاد سنداس منهم مثلهم.

(۷) كسرى فى الغرب الجنوبى منهم.

(۸) الساحل.

(۹) المثاليث حول صفاقس من غربيها و جنوبيها.

(۱۰) صفاقس.

(۱۱) جربة.

(۱۲) الأعراض.

(۱۳) نفات فى الأعراض.

(۱۴) تغزاوة من الجريد فى جنوبيه الغربى.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۸۴

(۱۵) الوديان فى جنوبيه.

(۱۶) الحامة فى جنوبيه الشرقى.

(۱۷) توزر فى شماليه.

(۱۸) نفطة فى وسطه.

(۱۹) الشبيكة و تامغزا فى نهاية الجنوب منه.

(۲۰) قفصة فى شماله.

(۲۱) أهل بيت الشريعة من عرب دريدر رحالة ما بين الجنوب الغربى و الغرب الشمالى.

(۲۲) أولاد سيدى تليل فى تلك الجهات.

(۲۳) أولاد سيدى عبيد مثلهم.

(۲۴) أولاد عزيز من الهمامة ما بين القيروان و الجريد و الأعراض و هم رحالة فى تلك الأراضى الرحيبة.

(۲۵) أولاد معمر منهم مثلهم.

(۲۶) أولاد رضوان منهم مثلهم.

(۲۷) الغمامدية فى غربيهم.

(۲۸) أولاد وزاز من الفراشيش فى جهة الغرب الجنوبى.

(۲۹) أولاد ناجى منهم مثلهم.

(۳۰) أولاد على منهم مثلهم و الجميع رحالة فى تلك النواحى.

(۳۱) شقمطة فى الغرب المتوسط من القطر.

(۳۲) الفؤاد قرب السابقين.

(۳۳) أولاد مهنة مثلهم.

(۳۴) أولاد بوغانم فى الحدود الغربية.

(۳۵) الزغالمة مثلهم.

(۳۶) شارن مثلهم.

(۳۷) العوامر منهم مثلهم.

(۳۸) أولاد يعقوب قربهم.

(۳۹) التوابع مثلهم.

(۴۰) ورغة فى جبال الشمال.

(۴۱) الخمامسة و دوفان فى بحاير الكاف.

(۴۲) الكاف سبق ذكره.

(۴۳) ورتتان فى الجنوب من الكاف.

(۴۴) أولاد عيار قربهم.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۸۵

(۴۵) أولاد عون قربهم.

(۴۶) جندوبة شمالى الكاف.

(۴۷) أولاد بو سالم قربهم.

(۴۸) الرقبة شرقى الكاف الجنوبى و غربى جنوبى باجة و فيها جبال و قبائل من سكان الخيام.

(۴۹) باجة سبق ذكرها و يتبعها جبال تشتمل على قبائل شتى غير خاضعين حقيقة للحكومة ممتنعين بجبالهم الوعرة، و كثيرا ما ترسل معسكرات لأخذ الضرائب منهم و كثيرا ما يؤدّون إليها مقدارا عن غير تحقيق لعددهم و كسبهم، و هم عمدون و نغزة و مقعد و خمير و الشيحية.

(۵۰) تبرسق سبق ذكرها.

(۵۱) رياح تقدّمت أيضا.

(۵۲) المحمدية و رادس كل منهما قرية لها عامل مخصوص و الأولى: كانت مدينة قاهرة فى ولاية أحمد باشا فأخنى عليها الذى أخنى على لبد فى بضع سنين و كانت مستقرّة و مستقرّ جنده.

(۵۳) ثم المرسى و حلق الوادى و قد تقدّما.

(۵۴) أريانة و جعفر كذلك.

(۵۵) بن زرت كذلك.

(۵۶) ماطر و بجاوة بجبالها و قد تقدّمت.

(۵۷) الوطن القبلى كذلك.

(۵۸) قبطنة.

(۵۹) طياش.

(۶۰) حجرى ليس لهم مقرّ بل هم متفرّقون فى الأوطان.

(۶۱) أولاد سعيد فى النفيضة فى الشمالى الشرقى للقيروان.

(۶۲) السواسى جنوبيهم.

(۶۳) الطرابلسية متفرّقون فى الأوطان.

(۶۴) الغرابة كذلك.

(۶۵) العروش الرقاق الأولى كذلك.

(۶۶) العروش الرقاق الثانية كذلك.

(۶۷) دريد رحالة ما بين الغرب و الجنوب.

(۶۸) عرب مجور تابعون إليهم.

(۶۹) أولاد حسن حنفيوا المذهب من دريد.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۸۶

(۷۰) فطناسة اتباع جلاص.

(۷۱) أولاد سيدى عبيد الظاهر فى الجهة الغربية الجنوبية.

(۷۲) طبربة تقدّمت.

(۷۳) السبالة فى الشمالى الغربى من الحاضرة على نحو إثنى عشر ميلا.

و عدد جميع السكان نحو مليون و نصف، لأن تحقيق العدد غير موجود سيما و كثير من أعراب الأعراض مثل و رغمه و كذلك جبالية باجة لا يعرف عدد ذكورهم البالغين القادرين على التكسب، فضلا عن غيرهم، و إنما يعرف عدد الذكور البالغين من بقية السكان الغير العاجزين عن التكسب و هم مائة و سبعة و عشرون ألفا عدا سكان بلدة تونس و القيروان و المنستير و صفاقس لاستثنائهم من الآداء المرتب على الرؤوس.

فصل: فى إجمال تاريخ هذا القطر التونسى

اشارة

و يشتمل على ثمانية مطالب:

الأول: فى نبذة من تاريخه القديم.

الثانى: فى علقته بالدولة العثمانية.

الثالث: فی سیاسة الخارجیة.

الرابع: فی سیاسة الداخلیة من العائلة الحسینیة.

الخامس: فی وزارة مصطفی خزنه دار.

السادس: فی وزارة خیر الدین باشا.

السابع: فی وزارة محمد خزنه دار.

الثامن: فی وزارة مصطفی بن إسماعیل.

المطلب الأول: فی نبذة من تاریخه القدیم:

اعلم أن هذا القطر تداولته ولایة الرومانیین و القرطاجنیین منذ قرون عدیدة قبل البعثة و صدر من زمن الخلفاء الراشدین إلی أن افتتح الخلیفة الثانی سیدنا عمر بن الخطاب رضی اللّه تعالی عنه مصر، و وصل أمیر جیشها بالفتح إلی برقة بین طرابلس و مصر، فأرسل یستأذنه فی فتح أفریقیة یعنی بها تونس کما تقدم بیان وجه التسمیة فی الفصل السابق، فأرسل إلیه یقول ما مفاده: «إنها الغدارة المغدور بها، ماؤها قاس مفرقة لقلوب أهلها لا تفتح ما دمت حیا» الخ. و کان وجه ذلک سیاسة منه رضی اللّه عنه لخبرته بالأمور و هو علمه بالإختلاف الدائم بین أهلها الذی صار طبیعة لهم بحیث لا ینقادون لبعضهم، و لذلک و هنت شوکتهم و صاروا طوع الأجانب المستولیین علیهم بحیث لا یعهد منهم قیام بشأن أنفسهم بل تسلم أنفسهم الإنقیاد إلی الغریب بما لا تسلمه إلی واحد منهم، و الدلیل علی ذلک أن هذا القطر مهما تغلب علیه أجنبی إنقاد له أهله

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۸۷

إلی أن ینقرض أو یستولی علیه أجنبی آخر، و حیث کانوا علی تلک الصفة فالإستیلاء علیهم و لئن کان سهلا غیر أنه لا تؤمن عواقبه.

أما أولا: فلأن الجیش إذا استقر هناک ربما سرت إلیه طباع أهل الإقلیم، کما هو شأن الطبیعة البشریة من سریان الطباع بالمخالطة و الملازمة، فیقع بینهم التنافر الواجب التباعد عنه.

و أما ثانیا: فإذا غلب الجیش الإسلامی ولاة القطر الذین هم أجانب من الرومان، لا یبعد أن یرجعوا إلی بنی جنسهم و یعیدون الکرة علی المسلمین، و هؤلاء لا یمکن لهم الاعتماد علی أهل القطر فی إمدادهم و إعانتهم لما تقدّم من طبعهم، و أنهم طوع الغالب کیفما کان و ذلک لا یجدی معه رؤیتهم لعدل المسلمین و استقامة أمور دینهم و دنیاهم لما فی أصل الطباع من النفرة عن التعاون و میل کل لخویصة نفسه، و الحامل الدینی وحده غیر مجد لأنه یلزم له رسوخ و تخلق و مع ذلک قلیل من یکفی له ذلک، فقد قرر أبو إسحاق الشاطبی فی موافقاته: «أن العلماء علی ثلاثة أقسام: الأول: من یبلغ به العلم إلی درجة تصیر النظری فی حقه ضروریا لاطلاعه علی أسرار العلوم و تخلقه بها، حتی یصیر العلم له طبیعة راسخة یرجع إلیها رجوعه إلی سائر الضروریات، و لا یمکن له العمل علی خلاف ذلک کما لا یمکن للإنسان العمل علی خلاف الضروری، و هذا القسم قلیل ما هم.

و القسم الثانی: اطلع علی أسرار العلم لکن إطلاعا محتاجا إلی المراجعة و التذکر و التدبر و هؤلاء لا یجرون علی مقتضی العلم إلا بکلفة من خوف الوازع الظاهری، غیر أنهم ینقادون إلیه بالتسلیم و هو فی حقهم خفیف فأدنی درجاته تؤثر المطلوب منهم.

و القسم الثالث: هو الذی لا یطلع علی شیء من أسرار العلم و إنما یسمع تکالیفه و ینقاد إلیها بالتقلید البحت و هذا لا یحمل نفسه علی مقتضاه إلا بالوازع الظاهری و هو القسم الأکثر و الأغلب فی الوجود، و لهذا أقیم فی الدین وازع الحکم، لیحرس الدین الشامل لجمیع أقسام التصرفات الدنیویة و الأخرویة، و لا- یقال إن أهل القسم الأوّل یلزم أن یکونوا معصومین، و ذلک لا یصح لأنا نقول تصدر منهم الخطیئة علی وجه الغفلة کما تغفل الحواس فی بعض الأحیان. هذا إجمال کلامه و أنی لأهل أفریقیة إذ ذاک و بلوغ

درجة القسم الأول هذا على فرض إسلامهم، و أما إذا رضوا بالطاعة و ضرب عليهم الخراج فالأمر أبين مع أن المنعة إذ ذاك للمسلمين و خط التجائهم بعيد جدا، و هو جزيرة العرب حيث كانت مصر إذ ذاك فى أول فتحها و لم يستقر قرارها، و ليس من المعقول الرغبة فى الفتوح بالتهور.

و بما تقدم يندفع إشكال بين و هو كيف يتوقف سيدنا عمر رضى اللّه عنه عن بث الإسلام فى أفريقية استنادا لمجرد ذلك التعليل و هو تفرق أهلها مع أن الأمر ببث الإسلام ليس بمشروط باتفاق قلوب أهل الإقليم، و يؤيد ما قلناه: «إن سيدنا عثمان رضى اللّه عنه لما ولى الخلافة و استقر إذ ذاك أمر الإسلام فى مصر و كان لجيش المسلمين قرب منعة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۸۸

و مدد أمرهم بفتح أفريقية ففتحت سنة ۲۹ على يد سيدنا عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح رضى اللّه عنه، مصحوبا بعشرين ألفا من الصحابة و التابعين رضوان اللّه تعالى عليهم، و كانت أسبيطلة هى القاعدة الثانية فى القطر و هى مركز المشاورة و اجتماع أهل الحل و العقد لكى يكونوا أحرارا فى مفاوضاتهم لبعدهم عن الملك الذى مقره فى قرطاجنة، و ما يرسى عليه أمرهم يبعثون به إليه و حيث كانت تفاصيل التواريخ لهذا القطر قديما قد تكلفت بها مؤلفات منفردة و من أجلها الحلل السندسية ، فلا يمكن استيعابها فى هاته العجالة لأنها خارجة عن المقصود الذى هو معرفة الحالة الراهنة، و إنما الذى يتوقف عليه المقصود هو بيان ما عليه الحال، لكن هذا لما كان له مساس بأمور سابقة لزم بيان مقدار الحاجة لتبيين الأسباب و مسبباتها.

و لذلك نذكر جملة الدول التى تولت هذا القطر من حين الفتح فى جدول، مع ذكر صفة الدولة إجمالا و تاريخ مدّتها بداية و نهاية، و أسماء أصحاب الملك إلى أحمد باشا من أمراء الدولة العلية العثمانية، و منه نأخذ فى ذكر بعض التفاصيل التى ينبنى عليها المقصود، حتى يكون المقصود مستوفى البيان إن شاء اللّه تعالى:

تاريخ الولاية/ الأسماء/ الملاحظات

۰۰۲۹/ عبد اللّه بن أبى سرح/ عامل للخليفة ثم من بعده عمال لوالى مصر التابع للخليفة

۰۱۵۱/ عمر المهلبى أوّل دولة المهلبيين/ تابع للخليفة المنصور العباسى و هكذا من بعده تابعون للعباسيين مع الإطلاق فى التصرف بجميع وجوهه حتى الحرب و الصلح.

۰۱۸۱/ إبراهيم بن الأغلب هو أوّل دولة الأغالبة/ مثل السابق و توارثها بنوه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۸۹

۰۲۹۷/ دولة العبيديين و أوّلهم عبد اللّه المهدى / فى نفس الأمر مستقلة و فى بعض الأطوار تظهر الخضوع للعباسيين و طورا للفاطميين بمصر

۰۳۶۵/ دولة صنهاجة و أوّلهم المنصور بن يوسف / مثل السابقة

۰۶۰۳/ دولة الحفصيين و أوّلهم الشيخ عبد الواحد / مستقلين و استولوا على المغرب و دانت لهم مصر و الحرمين الشريفين برهة من الزمن

۰۹۸۱/ الدايات و البايات المراديون و الباشوات منهم/ أتباع للدولة العلية العثمانية فتارة يكون صاحب التصرف يلقب بالداى و تارة يلقب بالباى و تارة بالباشا

۱۱۱۷/ الحسينيون أوّلهم حسين باشا ابن على تركى / أتباع للدولة العلية بامتياز فى التصرف

۱۱۵۳/ ابن أخيه على باشا/ مثله

۱۱۶۹/ محمد بن حسين باشا بن على/ مثله

۱۱۷۲/ أخوه على باشا/ مثله

۱۱۹۶/ ابنه حموده باشا/ مثله

۱۲۲۹/ أخوه عثمان باشا/ مثله

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۹۰

۱۲۳۰/ محمود بن محمد باشا/ مثله

۱۲۳۹/ ابنه حسین باشا/ مثله

۱۲۵۱/ أخوه مصطفی باشا/ مثله

۱۲۵۲/ إبنه أحمد باشا/ مثله

۱۲۷۱/ محمد بن حسین باشا/ مثله

۱۲۷۶/ أخوه الصادق باشا/ مثله

المطلب الثانی فی علاقة القطر بالدولة العثمانیة

إعلم أن سبب استیلاء الدولة العثمانیة هو: أن الدولة الحفصیة ضعف أمرها أخیرا إلی أن استولی الطلیان علی طرابلس و جربه، ثم افتکتها الدولة العثمانیة سنة (۹۵۸ ه) و امتد أمرها إلی القیروان بطلب من أهلها، إذ کانت الدولة العثمانیة هی الرافعة لعلم الدول الإسلامیة، و استقلت الجزائر و کثرت حروبها الأهلیة و کانت قاعدتهم تلمسان، و خشی الأهالی من استیلاء الإسبنیول علیها و کان أحد کبراء رجال الدولة العلیة المسمی خیر الدین باشا و أخوه عروج غازیان فی البحر، فاستصرخهم أهل بجایة للنجاة من ربقة الإسبنیول فاستولی خیر الدین علیها و انقادت له سائر أهالی الجزائر، و خطب للسلطان سلیم العثمانی و ذلک فی حدود عشرة الثمانین و التسعمائة، ثم أنقذ تونس أیضا من جور الحفصی و الإسبنیول ثم استعان آخر الحفصیین حسن الحفصی بالإسبنیول و عاد إلی تونس، فأنقذها منهم سنان باشا سنة (۹۸۱ ه) و رتب بها جندا من عسکر إلینکشاریة قدره أربعة آلاف، و علی کل مائة رئیس. و مرجع الجمیع إلی الوالی الملقب بالباشا و هو إذ ذاک حیدر باشا، ثم وقع تنافر بین الرؤساء آل إلی حرب و استقرّ قرارهم إلی تسلیم الأمر إلی واحد منهم یلقب «بالدای». و جعل علی خلاص الجبایة مولیّ یلقب «بالبای» و فی عهدته تأمین السبل و هناء القبائل، و یسافر لأجل ذلک مرتین فی السنة، إحداهما:

شتاء إلی الجهة الجنوبیة، و الثانیة: صیفا إلی الجهة الشمالیة، و یسافر فی عسکر مؤلف من العساکر المشاة و هم إذ ذاک إلینکشاریة. و من قسم الفرسان الموظفین فی الحکومة و لهم جرایة و یسمون بالحوانب و الصبایحیة و علی کل خمسمائة رئیس یسمی «بالآغا»، و کل قسم یسمی «یوجق» و جمیعهم سبعة أوجاق لکل وجق مرکز من القطر، کما یستصحب البای فی سفره قسما من فرسان القبائل یسمون بالمزارقیة، و یسمی جمیع الجیش المسافر فیه البای «محله». و جری العمل علی ذلک غیر أن ریاسة التصرف العام تارة تکون بید الدای

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۹۱

و تارة تکون بید الباای تغلبا منه و أحیانا یحصل الباای علی رتبة الباشا من الدولة العثمانیة. و استقرّ الأمر علی ذلک إلی أن کثرت الحروب الأهلیة ما بین البایات و الدایات علی حوز الریاسة العامة، و ملت الأهالی من ذلک فنادوا بطیب نفس و اختیار منهم بحسین بن علی ترکی جد العائلة الموجودة الآن، إذ کان إذ ذاک آغة وجق باجة و سلموا له أمر الولایة العامة بعد قتل کل من الباای والدای السابقین و أقرت ولایته الدولة العلیة و لا زالت الولایة متوارثة فی عائلته کبیرا عن کبیر إلا ما ندر من ولایة حموده قبل محمود بعهد من أبیه و کذلک أخوه عثمان، و أمضت الدولة العلیة ذلک له فی حیاته و منذ ذلک التاریخ استقرّت الریاسة العامة للباای، و صار هو

الذى يولى الداى إلى أن انقطع هذا اللقب و عوض برئيس الضابطية فى سنة (۱۲۷۷ ه) فى ولاية الصادق باشا.

غير أن استقرار الولايـة هكـذا على نحو ما مر لم يكن بتعهـد من الدولـة العلية رسـميا بالكتابة و إنما اقتضاه جريان العمل، و ذلك أن الدولـة العلية كانت عادتها فى الولايات إطلاق التصـرف للوالى بحيث يكون له التفويض المطلق لاتساع أطراف الممالك مع صـعوبة المواصـلة إلا بعد مدة مديدة لا سـيما فى مثل الأماكن التى طريقها البحر من مقر الخلافة كتونس و طرابلس و الجزائر و مصر و غيرها، و تسـمى عنـدهم بالأوجاق و من كمال الإطلاق الذى اضـطر إليه البعد اختيار الوالى لأنه إذا مات الوالى أو وقع ما يوجب عزله بتغلب غيره أو بثورة عامـة يسـلم أهل الحل و العقـد فى تلك الجهـة لواحـد منهم لإجراء ما لا بد منه، و ما يصل الخبر للدولة إلا بعد مدة، و حيث لم يكن من قصدها إلا هناء الممالك الإسلامية و إجراء الشرع فيها و الإدلاء بالخضوع للخلافة و الإنقياد إليها و أداء الواجب لها من مال أو غيره، لم يكن من فائـدتها مخالفـة ما يراه أهل الحل و العقـد فى الصـقع الواقع به الواقعة، لأن ذلك لا يحصل لها فائدة بل ربما توقع حصول غير فائـدتها المار ذكرها «و رب البيت أعلم بما فيه» و لـذلك تولى هى من ارتضوه لحفظ أمورهم و حفظ حقوقها، و المتقرر فى هـذا القطر التونسـى من الحقوق التى رسـمتها الدولـة العثمانيـة فيه عنـد فتحه هو إعـانته بالسـفن الحربيـة و مـا يلزمها فى الحروب، و هـدايا ترسل من الوالى إلى دار الخلافـة عنـد ولايته أو عنـد ولايـة سـلطان أو عنـدما توجد مناسـبة للإهداء، و الأغلب فى الهدايا سابقا أن تكون من نتائج البلاد كالخيل و الحيوانات الغريبة من الصـحراء و المنسوجات الحريرية و الصوفية، و منها راية عظيمة متقنة تصـنع عند ولاية السـلطان فقط و يكتب فيها آيات قرآنية و أبيات من البردة و تزركش بالفضة، و منها أيضا السروج المحلات و سبح المرجان و العنبر و الطيب و الأسـلحة المرصـعة بالمرجان، و منها التمر و الزيتون و السمن و الشمع، ثم توسع فى هاته الهدية حتى صارت من المال و المجوهرات النفيسة و قد بلغت فى بعض الأحيان إلى مليونين فرنكا و ما يساويها من المجوهرات.

و كذلك رتب على القطر من الأشياء التى هى علامة على التبعية الخطبة بإسم السلطان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۹۲

و الرايـة من نوع رايـة الدولـة و رسم إسم السـلطان على السـكة و أصـحاب الهـدايا هم الـذات السـلطانية و الصدر الأعظم من خواص الوكلاء كقبطان باشا و السـر عسـكر و أمثالهم، و أما غير ذلك فلم تكن حالة القطر تقتضـيه و لذلك لما رأى وزير الدولة سـنان باشا الفاتح حالة القطر أمر رؤوساءه، بأن الجباية يقيمون بها ضـروریاتهم و ما يلزم لحماية القطر من الإسـتعدادات الحربية و ما يلزم إليه من المصالـح العامـة، و لم يرسم بشـىء آخر. ثم قدم قبطان باشا فى حدود سـنة (۱۰۱۳) لتفقد حال القطر و ما تقتضـيه حاله بعد اسـتقرار الأمر، فأرسـى بأسطوله فى حلق الوادى و خرج له إذ ذاك عثمان داى فى جماعة من كبراء الجند و تفاوضوا معه على مصالح بلادهم، و بعـد أن تحقق عنـده إنقيـادهم لطاعـة الدولـة و عـدم الإقتـدار على الأداء، أقلع من هناك راجعا و بقى الأمر على ذلك إلى أن بـدا للدولـة العليـة إبـدال عـادات الدولـة فى شـأن ولاـة الأقطـار من إطلاـق التصـرف إليهم لمـا تفاقم حال ظلمهم و عـدم انقيادهم أحيانا لأوامرها، و منهم حسين باشا والى الجزائر الذى تسبب بأعماله فى دخول الجزائر تحت الفرانسيس بحربهم.

و كان ذلك الإنقلاب فى دولة السـلطان محمود و صدرا من ولاية أحمد باشا، فخشى الباشا المذكور من وصول النوبة إليه فى التغيير، و زاد خوفه بسـبب مـا كـان حصـل من سـلفه من تعريضه بالإمتنـاع من نزول قبطان باشا فى حلق الوادى عنـد قـدومه لإرادة التوجه برا للجزائر، لعزل و اليها الذى عقد الحرب مع الفرانسيس و بزواله يزول الإرتباك، فاعتذر له بأن الكرنتينة أى التحفظ من المرض العام لا تبيح نزوله، و أكرم مقدمه و هاداه فى ذاته و كان السـبب الحامل له على الامتناع هو أن دولة الفرانسيس لما أعلنت بحرب الجزائر بعد التشـكى للدولة العلية، كاتبت حسـين باشا والى تونس بالإنذار «بأنه إذا أعان بشـىء يلحق الحصار و الحرب به». مع إجماع الخلق على ظلم والى الجزائر فخشى والى تونس أن يعد مرور قبطان باشا إعانة للجزائر، لأنه لا يمكن مروره بدون حامية فإذا دخل للجزائر بحامية من عسـكر تونس يعـدّها الفرنسـيس إعانـة، و أيضـا إذا تسامعت العربان بمرور باشا تركى فى وسط الولايـة هاجوا لما فى طباعهم من التشـكى من المتولى كيفما كانت سـيرته ظنا أن الجديـد يساعدهم على مرادهم كيفما طلبوا، و قد كان ذلك من الغفلة التى سبق بها

القدر لإنفاذ الأمر فی الجزائر، فخشی أحمد باشا مما سبق و انضاف إلی ذلک فتح الباب من الدولة العلیة فی مقدمات ما کان یخشاه، و هو طلبها من تونس الأداء السنوی و إلحاحها فیه المرّة بعد المرّة، إلی أن توجه إلیها عالم القطر الأفریقی سیدی إبراهیم الریاحی و واجه السلطان محمود و قبل اعتذاره و سکت عن طلب الخراج، و أیضا طلب من الباشا القدوم بنفسه لدار الخلافة و لم یکن معتادا منذ الفتح الخاقانی إلی الآن، و طلب منه أیضا أن تکون

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۹۳

خلطة تونس مع الدول بإذن خاص و ولایة المناصب بأمر السلطان و الإختیار لأصحابها من الوالی، و یرفع فی کل عام حساب دخل الحکومة و خرجها، و أیضا قد فعلت الدولة فی طرابلس ما فعلته فی سائر ولایاتها من التغییر، و کذلک فی مصر لکنها بامتیاز فقوی خوف الرجل و جعل یرود کل الأبواب للإطمئنان علی إبقاء عادته المألوفة له و لآل بیته و للقطر، من غیر أن یخطر بباله قط الإستقلال لا هو و لا من سلف من آله فضلا عن الدخول فی حمایة دولة أجنبیة، و غایة الأمر زیادة المواصلة منه مع دولة فرنسا، و المدارات بما لا یخل بشیء من العادات مع طلب محافظة عاداته لو ترید الدولة العلیة إلحاقه بغیره، و غایة ما حصل علیه من دولة فرنسا هو الوعد الشفاهی بحمایته و حمایة امتیازاته الجاری بها العمل و العادة.

و یشهد لما مرّ سیما بعد ولایة العائلة الحسینیة المستقرّة الآن، أنّ الدولة العلیة فی سنة (۱۱۵۳ ه) أعطت جزیرة طبرقة التی هی من القطر التونسی إلی دولة الجنویز، و أذنت بذلک والی تونس فسلم الجزیرة بالشروط التی عینتها الدولة، و هی: أن لا یکون لهم بها حصن و لا یتجاوزون فی بناء بلد هناک حدّا محدودا، ثم خالفوا الشروط و لذلک افتک الجزیرة منهم علی باشا والی تونس إذ ذاک فی تلک السنة. و فی سنة (۱۱۸۴ ه) حصلت وحشة بین فرنسا و بین علی باشا الثانی والی تونس من جهة الخلاف فی الأسری الذین أخذتهم تونس من قرسکا قبل استیلاء الفرنسیس علیها، و کذلک صید المرجان الذی أبیح للفرنساویین لسنتین بعدد معلوم من القوارب و أداء معلوم، و تفاقم الخلاف إلی أن جاء الأسطول الفرنساوی إلی شطوط تونس ورمی بعض الحصون، و کان إذ ذاک رسول الدولة فی تونس قادما لطلب إعانة السفن الحربیة علی العادة فی حرب الدولة إذ ذاک مع الروسیا، فتداخل رسول الدولة فی النازلة و أبرم الصلح علی أن تدخل کرسکا فی عهدة فرنسا و أن ترد الأساری الذین أخذوا بعد استیلاء الفرنسیس علیها، و أن یمکنوا من صید المرجان خمس سنین مستقبلة بإثنی عشر زورقا لا غیر، و أن یمکنوا من شراء ثلاثة آلاف قفیز قمحا و یخرجونها من غیر أداء سراح علیها، و أن یدفعوا ما جرت به العادة عند عقد الصلح من الهدیة، و رجعت بعد ذلک العلقة الحسنة المعتادة بین تونس و فرنسا علی ید رسول الدولة العلیة، و کذلک أرسلت خمس سفن حربیة بجمیع لوازمها لإعانة الدولة فی حرب الروسیا المذکورة سنة (۱۱۸۵ ه).

و فی سنة (۱۲۱۳ ه) أمرت الدولة العلیة حموده باشا بحرب الفرنسیس معها عند استیلائه علی مصر، فامتثل الأمر و قطع الخلطة مع القنسل و أرسل سفنه الحربیة لإعانة الدولة، غیر أنه تحفظ للغایة علی أموال التجار الفرنساویین فی بلده و لم یتعرض لسفنهم التجاریة، حتی قال تجار الفرنسیس إذ ذاک نحن بلا قنسل أحسن حالا من وجود القنسل، و أعلم الباشا الدولة بسبب تلک المعاملة و هو کثرة الخلطة التجاریة المتقادمة الموجبة لاشتراک مال التونسیین مع مال الفرنسیس، فلو تعرض لأموالهم لکان تعرضا لمال التونسیین

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۹۴

أیضا. و انتقمت علیه من بعض الجهلاء من الداخل و الخارج، و عند وقوع الصلح عرفها له نابلیون الأول و صارت بینهما مهادات و اعتراف بالکمال.

و فی سنة (۱۲۳۶ ه) أرسلت الدولة العلیة رسولا أمرا بحفظ الوحدة و ترک الحرب بین تونس و الجزائر و عمل بأمره.

و فی سنة (۱۲۳۷ ه) أرسل محمود باشا سبع سفن حربیة ثم أردفها بإثنین لإعانة الدولة علی حرب الیونان. و فی سنة (۱۲۴۳ ه) أرسل حسین باشا أسطولا حربیا لإعانة الدولة فی حرب و احترق مع جملة سفن الدولة، و مصر و الجزائر بعمل أساطیل الدول کما یأتی

تفصيله فى بابه.

و فى سنة (۱۲۵۱ ه) أرسل مصطفى باشا والى تونس هدية لقبطان باشا عند قدومه على طرابلس لنزعها من أيدى آل قرمانى، ثم طلب قبطان باشا الإعانة الحربية من تونس فأرسل والى تونس فى تلك السنة ثلاث سفن حربية و أتبعها بتسع سفن تجارية حملت ثلاثمائة من الخيل.

و فى سنة (۱۲۵۵ ه) طلب أحمد باشا والى تونس تقليده رتبة مشير مع هدية فاخرة، فأنعمت الدولة عليه بذلك ثم زادته نيشانا آخر يرسم فى غطاء الرأس، و الآن زال من رسم الدولة و لم يزل معمولا به فى ولاة تونس.

و فى سنة (۱۲۵۶ ه) أمرت الدولة العلية والى تونس بالعمل بالتنظيمات الخيرية و قرىء أمرها فى موكب مشهور، و أجاب عنه أحمد باشا الوالى بالامتثال غير أنه طلب وقتا للعمل مع مراعاة ما يلزم من التغيير بسبب عادات البلاد، ثم ألح عليه فى إتمامها سنة (۱۲۵۸)، فأرسل هدية فاخرة منها سفينة حربية و مائتين و خمسين ألف فرنك، و طلب الإمهال فى العمل بالتنظيمات.

و فى سنة (۱۲۵۷ ه) لما رتب الوالى المذكور أمر تنظيم المولد النبوى، قال له يمين حكومته أبو العباس أحمد بن أبى الضياف : المناسب أن تخرج من باردو راكبا و عندنا من العساكر ما يكفى إلى الوقوف بين باردو و جامع الزيتونة، فقال له: يفعل ذلك السلطان العثمانى و ليس لنا أن نفعل مثله، فالمناسب الأدب معه، رأيت ذلك بخط الوزير المذكور.

و فى سنة (۱۲۵۹ ه) حصلت نفرة بين دولة الصاردو و والى تونس أحمد باشا كادت أن تفضى إلى حرب بسبب منع الوالى إخراج الميرة إلى سردانيا لقحط حصل بالقطر، و كانت الشروط مخالفة، فأرسلت الدولة العلية رسولا خاصا ليبحث عن السبب و أمر الوالى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۹۵

بفصل النازلة بصلح، فأخذ تقريرا فى النازلة و فصلت بصلح ببقاء ما كان على ما كان و دفع ما خسره تجار الصاردو فى شراء الميرة.

و فى سنة (۱۲۶۳ ه) أرسلت الدولة رسولا مخصوصا للوالى المذكور لتأمينه من جميع ما توهم مع إسقاط مطلب المال السنوى و تأييد الوالى فى الولاية مدة حياته، فأجاب بالفرح و القبول لكنه طلب إبقاء جميع الإمتيازات، و منها انتقال الولاية لآله عند موته.

و فى سنة (۱۲۶۵ ه) أرسل عباس باشا والى مصر مكتوبا ووداديا على وجه الإخوة ينصح فيه الوالى المذكور بترك الأوهام الحاصلة له، و أنه قد ذهب للاستانة و نال رتبة الصدارة مع أن أباه و أخاه قد فعلا ما لم يحم حوله ولاة تونس، و أنه لو يساعفه على اللقاء فى بلد معين و يصطحبا معا للأستانة يكون له الحظ الأوفر، فأجابه بأنه عبد للدولة و لم يختلج بفكره شىء مما يتهم به، و قصارى أمره التمسك بالإمتيازات السابق بها العمل و الجارية من القديم فى القطر التونسى، ثم أرسل عباس باشا رسولا من العلماء و آخر من التجار للتفاهم مع الوالى فى مقصود الدولة، فقرر لهم غاية أماله من ازدياد اللحمة الإسلامية و الخضوع للدولة العلية على ما جرى من الإمتياز للولاية، و منه: عدم وجوب قدوم الوالى إلى الآستانة.

و فى سنة (۱۲۶۳ ه) وقع خلاف بين والى تونس أحمد باشا و دولته فرنسا فى شأن قبيلة نهد من جباليه باجه حيث أن القبيلة منقسمة إلى فخذين فخذ تابع لتونس، و فخذ تابع للجزائر، فاستولى الفرنسيس على الجميع، فسجل الوالى أحمد باشا و كتب إلى القنصل فأجابه القنصل بمضمون مكتوب دولته، و هو أن فرنسا تعطى إلى تونس أرضا أخرى عوضا عن هذه بعد تحرير الحدود، فأجابه الوالى بما نص محل الحاجة منه و أما تجديد التحديد أو إبدال بعض العمالة بجزء من غيرها فمعلوم أنا نتوقف فيه على المشورة من جهة الدولة العثمانية، و إن كان لنا التصرف العام فى الإيالة بما يقتضيه اجتهادنا من المصلحة، أما التنقيص منها أو إبدال بعضها فلا يحسن منا بغير إعلام لمولانا السلطان و تقرير ما ينشأ لنا من المضرات بسبب ذلك لجنابه العلى. ا ه.

و فى سنة (۱۲۷۰ ه) أرسل أحمد باشا أربعة عشر ألفا عسكريا بجميع لوازمهم الضرورية و الحربية، و فرقاطة شراعية و ستة سفن منها باخرتان لإعانة الدولة العلية فى حرب القريم.

و فى سنة (۱۲۷۱ ه) أردف ابن عمه محمد باشا عند ولايته ذلك العسكر بأربعة آلاف و خيل و مهمات.

و فی سنهٔ (۱۲۸۱ ه) أرسلت الدولهٔ العلیهٔ رسولا مخصوصا إسمه حیدر أفندی

صفوهٔ الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۹۶

لمراقبهٔ حال الثورهٔ العامهٔ فی القطر التی سیرد بیانها، و أرسلت إلی الحکومهٔ ملیونا فرنکا لإعانتها علی ما حصلت فیه من الضیق.

و فی سنهٔ (۱۲۸۸ ه) أبرم الفرمان الآتی ذکره الذی استقر علیه القرار.

و فی سنهٔ (۱۲۹۳ ه) أرسلت الإیالهٔ نحو ملیون و نصف فرنکا لإعانهٔ الدولهٔ علی حرب الصرب.

و فی سنهٔ (۱۲۹۴ ه) أحضرت الأیالهٔ نحو ذلک المقدار لکنه لم یصل منه إلی خزانهٔ الدولهٔ العلیهٔ إلا أقل من الربع، و الباقی صرف منه علی تهیئهٔ العساکر التی قدرها نحو أربعهٔ آلاف فی کسوتهم و تعینوا للإرسال و حصل الصلح قبل سفرهم و هم فی انتظار لسفن الدولهٔ العلیهٔ لحملهم إذ لم یکن للحکومهٔ قدرهٔ علی ما تحملهم علیه، و سبحان محول الأحوال.

کما أرسلت الولایهٔ فی تلک السنهٔ للإعانهٔ المذکورهٔ نحو ستمائهٔ بغل و أربعمائهٔ حصان و ما زاد علی ذلک مما سلمته الأهالی بقی عند الحکومهٔ التونسیهٔ.

و ما تقدم کله زیادهٔ علی الرسل التی تتوارد فی أغلب الأحیان بین التابع و المتبوع الذی هو کثیر، و ها نحن نثبت هنا نص بعض المکاتیب التی أرسلت من ولاهٔ هذا القطر فی النصف الأخیر من هذا القرن، حتی یتیقن معها زوال کل شبههٔ، و لم نذکر ما کان قبل هذه المکاتیب لأن المکاتیب کانت ترسل باللسان الترکی، و لما تقادم عهد الولاهٔ بتونس نشأ جیلهم الأخیر علی جهل باللغهٔ الترکیهٔ، و کان أحمد باشا صاحب المکتوب الأوّل ذا احتراز و نقد فکر، فلم یرد أن یمضی کلاما لا یفهم أسرار تراکیبه، فکتب باللغهٔ العربیهٔ و قبلته الدولهٔ، إذ کثیر من ممالکها عربی و لا یسعها إنکار لغهٔ شریعتها التی هی الحامیهٔ و الذابهٔ عنها، و کان إرسال هذا المکتوب مع عالم القطر سیدی إبراهیم الریاحی فی الغرض الذی تقدمت الإشارهٔ إلیه، و هو طلب العفو عن الأداء السنوی و نص المکتوب:

اللهم بالثناء علیک نتقرّب إلیک یا فاتح أبواب القبول و الإقبال، و مانح المنح التی لا تمرّ شواردها علی البال، تنزهت فی العظمهٔ و الجلال، و لا- تول عبادک الإهمال، بمحض الرحمهٔ و الإفضال، فأقمت علیهم خلیفهٔ تعرض علیه الأحوال، و یرفع عنهم بإعانتک الإختلال، و یسوسهم للصلاح فی الحال و المثال، صلّ علی سیدنا محمد خاتم الإرسال، و الملجأ المنیع عند اشتداد الأزمهٔ و الأهوال، و علی آله و أصحابه الذین ورثوه فی الأقوال و الأعمال، و سرت مکارمهم مسری الأمثال، و نستوهب منک عزا لا یبلغ حده، و نصرا یمضی فی الأعداء حده، لهذه الدولهٔ العلیهٔ، و السلطنهٔ العثمانیهٔ، و المملکهٔ الخاقانیهٔ، التی رفعت من الملهٔ الحنفیهٔ أرکانا، و شیدت من معالمها بنیانا، و أقامت للحق قسطاسا و میزانا، و روت أحادیث العنایهٔ الربانیهٔ صحاحا حسانا، و ورث ملوکها الأرض و هم الصالحون سلطانا

صفوهٔ الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۹۷

فسلطانا، حتی استنار الوجود، بخلیفهٔ الوقت الموجود، و هو مولانا السلطان محمود، اللهم أعنا علی ما أوجبت له من فروض الطاعهٔ، و تأیید الحق بجهد الإستطاعهٔ، و احفظنا برفقه و عدله من الإضاعهٔ، و اجعل الملک فیه و فی عقبه إلی قیام الساعهٔ، و عطف قلبه إلی سماع هذه الضراعهٔ، من أیالته و من بها من الجماعهٔ، علی لسان أحمد المقیم علی طاعته فیها، و المجتنی من ثمرتها ما یلزمها و یکفیها، و طاعهٔ خلافتک فرض علی أهل الأرض و هی عند اللّه أنمی قرض، فإذا لم یعرض الحال علیک فعلی من العرض، تونس موضع شعائر الإسلام، غریبهٔ ببعدها عن استمطار أیادیک الجسام، و مساحهٔ معمورها للسیر نحو الستهٔ أیام، شأن أهلها التمعش من الزیت و البر، و الصوف و الوبر، یعانون فی تحصیلها من ألم الحرّ و القرّ، هذا غالب ما یسد لهم الخلهٔ، و یوجد غیرها لکن علی قلهٔ، و مقدار زکاهٔ ذلک لا محالهٔ، بحسب اتساع العمالهٔ، فما یفضل من خصبها فهو للقحط عدهٔ، و بذلک دام عمرانها لهذه المدّهٔ، لا فضل من ذلک لترف، و لو فی سبیل شرف، هذا معظم دخل القطر، إن جادت السحب بالقطر، و یلزمه ضرورهٔ لحفظ عمرانه، و حمایهٔ أوطانه، و تأمین سکانه، و إصلاح مراسیه و بلدانه حماهٔ و أجناد، فی کل جههٔ و بلاد، لتأمین الجبال و الوهاد، و ردع أهل الفساد، و

يلزم العساكر الكسوة و الطعام، و المرتب على الدوام، و لا بد لهذا العدد، من آلات و عدد، و قوام هذا بالمال، و هو السبب فى عرض الحال، بأن الدخل على قدر الإنفاق، و ذلك بشهادة اللّه غاية ما يطاق، و إذا كلفنا الرعية المشاق، و نزعنا الرفق و الإشفاق، كان ذلك ذريعة للنفاق، و سلما للشقاق، و ربما هرعوا للدولة شيوخا و ولدانا، و كهولا و شبانا، يسوقهم العجز و يقودهم الأمل، إلى من فى طاعته النيات منا و العمل، فالسلطان ظل اللّه فى أرضه يأوى إليه كل مظلوم، و هذا من الواضح المعلوم، و عبدكم حسبه تأمين البلاد، و حفظها من طوارق الفساد، بمن معه من الحماة و الأجناد، سهرنا لانامة أجفانها، و تعبنا لراحة شيوخها و ولدانها، و اقتحمنا المخاوف لأمانها، و ما تنتجه غلاتها، تسد به خلاتها، و على هذه السيرة ولاتها، لا يقتنون لأنفسهم مالا، و لو بسطوا لذلك آمالا، إلا ما يقتضيه الحال من العادات المألوفة، و المراسم المعروفة، يصدهم عن ذلك عدم اليسار، لا زهد الأبرار، و اللّه المطلع على الأسرار، و بما بسطنا من الكلام، فى حال هؤلاء الإسلام، يظهر للقائم بمصالح الآنام، أن لا قوّة لهذه الايالة على آداء المال فى كل عام، هذه ضراعة رعيتك، المستمسكين بطاعتك، المستجيرين بحمايتك، المرتجين لعنايتك و إعانتك، قمت بتبليغها بين يدى سلطنتك الخاقانية، و همتك العثمانية، و تبليغها من الواجب فى حقى، و هو ثمرة طاعتى و صدقى، و المأمول من تلك الهمة، النظر لهذا القطر بعين الرحمة، و هذا المال فى خزائن الدولة لا يزيد، و ثقله على هذا القطر شديد، فارحم أيها المولى ضراعتنا، و لا تفرق بما لا نطيق

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۹۸

جماعتنا، فالأمر جلل، و ما قرّرناه بعض من الأسباب و العلل، و قد فكرنا و أعيتنا الحيل، فلم نجد إجابة المطلب إلا بتنقيص عمل، يفضى إلى نقص و خلل، أو تثقيل يقطع من الرعية الأمل، و يضعف بسبب ذلك هذا العمران، و تشتد الحاجة للإستمداد من كرم مولانا السلطان، و اللّه يجيرنا من حوادث الأزمان، هذه وسيلة من بعدت داره، و لم يكن بيده اختياره، على لسان مملكة تونس، مع قدوتها المونس، صالح مصرها و إمام عصرها، شيخ الجماعة و مفتيها، الذى دانت له البلاد ببنيها، و نالت به الملة أقصى أمانيها، السارى ذكر تأليفه فى النواحى، السيد إبراهيم الرياحى، و جهته حالتنا و انتظرت، و من سحائب رحمتك استمطرت، اللهم أنت أعلم بنا منا، فلا تحملنا ما لا طاقة لنا به و اعف عنا، و ارزقنا الرحمة من سلطاننا و الهمة، لإعانة أوطاننا، إنك على كل شىء قدير و كتب فى أواخر أشرف الربيعين سنة (۱۲۵۴ ه).

و فيها: ما كتبه أحمد باشا المذكور فى تبرئة نفسه مما رمى به، من إرادة المخالفة، و نصه:

الجناب المقصود لبلوغ الآمال، و نجاح الأعمال، جناب ركن الدولة و شمس ضحاها، و قطب رحاها، صدر صدور الكبرا، و مركز دائرة الوزرا، المشير الأفخم، و الصدر المعظم، السيد مصطفى رشيد باشا، لا زال محط الرحال و قبلة الوجوه، بالغا من اللّه ما يؤمله و يرجوه.

أما بعد تقديم ما يجب للسلطنة من فروض الطاعة، بحسب الإستطاعة، فإن هذا العبد الذى مات فى خدمة الدولة سلفه، و عاش فى فضلها خلفه، روابطه مع الدولة العلية ثابتة الأساس، معلومة فى الناس، واضحة وضوح الصبح غنية عن الشرح، كما أن ما جبل عليه سلطان زماننا من كرم الطباع و طول الباع، أمر انعقد عليه الإجماع و ما على الصبح غطاء و ما على الشمس قناع، و الأمان الذى مهده لأهل الإيمان واضح للعيان، لا يختلف فيه إثنان و لا يخطر بالبال ما ينافيه، لأنه من الذين صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه، و طالما تمنى هذا العبد الوفود إلى الحضرة العلية و مشاهدة الأنوار المجيدية، لو ساعده الزمن، و تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن، و ما صده و اللّه عدم الأمان لأنه من المستحيلات العقلية مع أنه لم يصدر منه خلل فى عمل و لا نية، فاعلل النفس بأن التوجه إنما هو تعرض لعناية الدولة. و المقام إنما هو لحفظ ما لها فى هذا القطر من الصولة، و تؤثر واجب الخدمة على التعرض لمزيد النعمة، و النصح فى خدمة السادات مقدم على نفع خاصة الذات، فاقتصرت بالضرورة على السنن المألوف و المسلك المعروف. من تقربى إلى الباب العالى بتقديم الهدية طبق الأصول الإعتيادية، فى هذا الوجق الذى أشرقت عليه الأنوار العثمانية. و حمته الشوكة الخاقانية، و إن كانت الدولة على أضعافها غنية، فما

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۱۹۹

راعنى إلا ما فى مكتوب الوزارة من أنه صدرت المساعدة من حضرة صاحب الخلافة بالتفضل بتوقيفها، و أن هدايا الوكلاء العظام صار فى حيز القبول بمقتضى الرخصة السلطانية، ففهم العبد من التوقيف عدم القبول و من عدم القبول نقصان الرضاء، و فى المكتوب المذكور ما يشير إلى ذلك مع ما بلغه الرسول من تفسير الإشارة بصريح العبارة، كما ذلك محرر فى صحيفة. فحزن لذلك الفؤاد و ماج فى تيار الانكار، إذ لم يصدر منا ما يقتضى ذلك و ما سلكنا فى غير مسالك، أما كون سلامة تونس و سعادتها متوقفة على تأييد الروابط القديمة مع الدولة العلية فهو من المعلوم ضرورة و جاحده منكر للبديهيات، و أما التبعد و التوحش الموجب لأنواع المحاذير فمحله إذا صدر منا خلاف ما انطوى عليه الضمير، أو فعلا يقتضى نوعا من التغيير أما و الحالة هذه فإن العبد لم يجحد حقا معتادا، و لا أضمر بشهادة اللّه عنادا، و لا ـ وطأ لأسباب الشبهات مهادا، و لم يصدر منه إلا المعلوم بسالف الأزمان، و أقره السادة القادة من آل عثمان، و الأصل بقاء ما كان على ما كان، فلا مخاطرة و الحالة هذه بالنفس و لا بالوطن أما النفس بوجود الأمان، من ظل اللّه فى أرضه و القائم بواجب الإسلام و فرضه، و عدالته العمرية و نيته الخيرة و شفقته على البرية، بأكثر من هذه الآمال حرية.

و أما الوطن فإنه فى حماية دولته، محوط بصولته يدافع عنه بقوّته، و يكافح من ناوأه بشوكته، و لا ـ منافاة بين الذب على القطر الإسلامى و حمايته، و بين التفضل باستمرار عادته، و استغفر اللّه إن يخطر بالبال و الحال الحال، ما لا أقدر أن أفوه به من توهم الإستقلال، أعوذ بك اللهم من هذا المقال، كيف و منابر القطر فى كل جمعة تنادى بطاعته، مع التشكر على تقرير عادته، و لا رواج للدرهم و الدينار إلا باسمه العالى فى سائر الأقطار، و أشرف ألقاب هذا العبد هو ما جعلته له السلطنة العلية و أهلته لنيله من المراتب السنية، بمحض فضلها و كمال عدلها، و عدم إمكان الحضور لهذا العبد الشكور إذا كان سببه صلاح الأمور، و المثابرة على دوام حفظ الجمهور لا يتوقع منه المحذور، و اختلاف البشر فى مدارك العقول معقول و منقول، و صدق الخدمة يقتضى التصديق فى المقول، هذا و طلب الوزارة شد اللّه أزرها و قرن باليمن نهيها و أمرها، من العبد الفقير أن يودع لأمانتها ما فى الضمير، يوجب أن نشرح نيتى و ما انطوت عليه طويتى، فأقول و اللّه شهيد على سرى و علانيتى، هذا العبد الذى نشأ فى طاعة الدولة العلية، و رفل فى حلل مرضاتها الجلية، و تغذى بلبانها و عاش بإحسانها، و استظل بأمانها و تشرف بخدمة سلطانها، من بيت هو عاشر آله فى الخدمة و مظهر ما للدولة من النعمة، أعظم أمانيه دوام رضى مولانا السلطان و ظل أهل الإيمان، و أن تبقى خدمته على سنى أبيه وجده، و نيل هذا هو سعادة جده، و أن هذه الإيالة الطائعة على هذه الحالة، لا يراع لها سرب و لا يتكدر لها شرب بحماية القوة السلطانية و الشوكة الخاقانية، و بهذا الحال حفظ طاعتها و صلاح جماعتها، و هو السبب فى اجتماع الكلمة لهذه صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار ؛ ج۱ ؛ ص۲۰۰

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۰۰

الأمة المسلمة، و اللّه يقول: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا [آل عمران: ۱۰۳].

و اختلاف عوائد الآفاق لا ينافى الطاعة و الإتفاق. و لا يكون ذريعة للإفتراق، و تمسك البلدان بعاداتها مخلوق مع ذواتها، و المأمول من الحضرة العلية أدام اللّه نصرها، إذا رأت هذا العبد فى مقعد صدق، و حققت إن نطق بحق، أن يرق لهذه الفئة القليلة و يرحم ضراعتهم و يجمع بإبقاء عاداته الجميلة جماعاتهم، حاشا فضله و إنصافه أن ينزع حلة تفضل بها أسلافه، بل المأمول من كرمه الزيادة و هو المحيى لمآثر أسلافه السادة، هذا ما فى الجنان نطق به اللسان، بلا شبه و لا تمويه و لا خواطر تنافيه، فإذا ساعد القدر بالقبول فهو المظنون المأمول، و إن كانت الأخرى فاللّه مع الصابرين و هو سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم و اللّه يعلم أننا ما غيرنا و لا أضمرنا غير الذى أظهرنا، و يوم تبلى السرائر نسأل عما صررنا، و هذا المكتوب يشرف بلوغه إلى الباب العالى المستوجب لكل المعالى، الثقة الفاضل المؤتمن نخبة أقرانه لنباهة شأنه، إبننا محمد أمير لواء عسكر البحر و معه الكاتب الثقة الخير العفيف الفقيه إبننا على الدرناوى و جناب الوزارة يثق بأن ما يلقى إلى الحاملين من المقال يصل للعبد الفقير على أحسن حال، و المرجو أن يعودوا إلينا

بخبر يبسط النفس و يعيد لها الأنس، و اللّه يديم للدولة العلية المجيدية عزا لا يطاول حده، و نصرا يمضى فيمن عاندها حده، و السلام و كتب فى ۲۰ ذى القعدة سنة (۱۲۶۵ ه).

و منها: مكتوب من أحمد باشا المذكور أصحبه مع العساكر المرسلة فى حرب القريم مخاطبا به الصدر الأعظم و نصه:

أما بعد تقديم التحية المناسبة لتلك الوزارة العلية، و الفخامة الراسخة الجلية، فهذا أمير الأمراء و أحد أعيان الكبراء، الثقة العمدة فارس هذا الميدان إبننا رشيد وجهه معظم قدركم، بهذه الفئة القليلة السابق تقريرها لجليل وزارتكم، و وجهنا معه إبننا محمد أمير اللواء. و اللّه يرى ما للعبد الفقير من الإستحياء عند عرضها على الباب العالى و يسهل الأمر، إن ذلك على قدر العبد الفقير لا على قدر الدولة ذات العظمة و الصولة و الاعتماد على الوزارة العظمى فى الإنهاء و التقرير و بهمم الرجال تنال الآمال و تحسن الأعمال، و المأمول من وزارتكم المحمودة الصفات أن تهب لبائع نفسه للّه حسن الإلتفات، فاليد فى طاعة اللّه و خدمة الخلافة واحدة و القلوب على ذلك متعاضدة، و الأنفاس متواردة و المأمول أن يرى أمير هذا الجيش من عنايتكم فوق الأمل و اللّه يسدده إلى مرضى العمل، و ينصر مولانا السلطان و يعلى بسطوته أركان الإيمان، و يديم وزارتكم ركنا منيعا و كهفا رفيعا، و السلام.

و كتب فى شوال سنة (۱۲۷۰ ه).

و منها: مكتوب من محمد باشا عند ولايته على القطر، يطلب التولية و التقرير و يعلم بإرسال نجدة عسكرية لحرب القريم، و هدية مالية مصاحبة للمكتوب، و نصه:

اللهم بالثناء عليك نتقرب إليك، و بالصلاة على رسولك و خلفائه المتناسقين نسألك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۰۱

سبل المتقين، و بشكر نعمك نقرع باب كرمك، و هو باب الدولة العلية العثمانية و السلطنة المجيدية الخاقانية، المخدومة بالأعمال و النية، المقصودة لبلوغ الأمنية، الوارد فضلها على الأقطار من كل ثنية، و الشمس عن مدح المادح غنية، و كفاها أن رفعت من الملة الحنفية أركانا، و أقامت للحق قسطاسا و ميزانا، و روت أحاديث العناية صحاحا حسانا، و ورث ملوكها الأرض و هم الصالحون سلطانا، يتبع سلطانا من سمى ذى النورين إلى من اختاره المجيد سبحانه لعباده، و أقام به شرائع دينه و فروض جهاده و تولاه بإعانته و إسعاده، و يسر على يده مصالح أرضه و بلاده، لا زالت القلوب بطاعته مؤتلفة، و السيوف و الأقلام بخدمته متصفة، و الألسن فى الإقرار بعجزها عما يجب له منصفة، و بماذا أحيى تلك الحضرة العلية الشامخة و القدم التى فى كل فضل راسخة، ضاق نطاق العبارة و لم يبق إلا مسلك الإشارة، فالرجوع إلى السنة و تحية أهل الجنة السلام على أمير المؤمنين و رحمة اللّه من عبد نعمته العاكف منذ نشا على خدمته محمد بن خديم الدولة حسين باشا باى. أما بعد.

فالمعروض على تلك الحضرة و لها طول العمر، و نفوذ الأمر، أن رهين نعمتكم و عبد طاعتكم و عاشر هذا البيت فى خدمتكم ابن عم عبدكم و مقام أخيه المشير أحمد باشا باى سار إلى عفو اللّه فداء الحضرة السلطانية متزودا بما مات عليه من طاعة الخلافة و خدمتها بالعمل و النية، و فى الحين بادر أهل الإيالة التونسية عموما و خصوصا، و كانوا بنيانا مرصوصا، إلى هذا العبد الفقير و ألقوا إليه مقاليد أمورهم، و النظر فى حفظ مفردهم و جمهورهم، فقام العبد بما وجب عليه من جمع الكلمة الإسلامية، و الدعاء على المنابر للسلطنة المجيدية، راجيا من رضى الخلافة فى تأمين البلاد و زوال روعة العباد، و سد طرق الفساد، و اعتصمنا بحبل اللّه جميعا و لبى العبد الفقير سلطنتكم سامعا مطيعا، على عادة أسلافه الخدّام مع السلف الصالح السلاطين الكرام، و وسيلة هذا العبد أنه نشأ فى ظل سلطنتكم و تغذى بلبان نعمتكم، و تعرّف من نعمكم الأنواع و الأجناس، و استضاء من عنايتكم بنور يمشى به فى الناس، و الكرم يرى لسالف الخدمة تأكد حرمة، و قد ترجى العناية من ذلك الباب، اعتمادا على فضل ذلك الجناب، و لا يمت بغيره من الأسباب، و عادات السادات سادات العادات، و الأمل أن تزيد خدمة عبدكم على خدمة من مضى حتى يرى من ظل اللّه الرضى، و اللّه يعاملنى فى نيتى فيما عرضت من أمنيتى قبل حلول منيّتى، و قد ابتدأ العبد خدمته بما كانت إليه فيه مع من تقدّم واحده، و القلوب و الجوارح عليه

متعاضده، و هو إرسال طائفة من العسكر إعانة لتلك الفئة القليلة التى تقدمت و بحسن القبول قوبلت و الأمل الذى عليه المعول أن يشملها الفضل الأوّل، و معها جهد المقل و منتهى طاقة الضعيف و على قدر المهدى الهدية فى هذه الإعانة الجهادية، و علم السلطنة بالحال و لكنه يقتضى الإغضاء عنه يقدم ذلك عبدا لسلطنة المكتفى بوثوقه و أمانته و سياسته و نجابته أحد خواص عبدكم و محل إبنه محمد أميرا للوا و هو النائب عن العبد العاجز فى طلب الفضل الذى وسيلته الرجاء و الأمل، و فضل الكرام لا يتوقف على ملاحظة عمل، اللهم أعنا على ما أوجبت لهذه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۰۲

السلطنة من فروض الطاعة و تأدية الحق جهد الإستطاعة، و اعصمنا بيدها الطولى من الإضاعة، و احملنا من مرضاتها على سنن السنة و الجماعة، اللهم إنا إليه ناظرون و عن أمره صادرون و لإنجاز وعدك فى نصر من ينصر دينك منتظرون، فما فقد شيئا من وجدك و لا خاب من قصدك، آمين يا رب العالمين و سلام على المرسلين و الخلفاء الراشدين و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، و كتب فى شوّال سنة ۱۲۷۱ ه.

و منها: مكتوب من محمد الصادق باشا عند ولايته فى طلب الولاية و التقرير مثل السابق و نصه:

الحضرة العلية الخاقانية السلطانية المخدومة بالعمل و النية، واثقة من عدلها و فضلها ببلوغ الأمنية. و الشمس عن مدح المادح غنية، خليفة رسول اللّه و ظل اللّه فى الأرض، الحامى لشعائر الإسلام من سنة و فرض، من اختاره المجيد سبحانه للخلافة، و زين بما يرضيه أوصافه، و محى بعدله كل إخافة، اللهم يا كريم يا مجيد أدم له النصر و التأييد و الخير المزيد و العمر الطويل المديد فى الزمن السعيد و العيش الحميد، و أعن العباد على ما أوجبت له من فروض الطاعة، و اجعل السلطنة فيه و فى عقبه إلى يوم الشفاعة. أما بعد: السلام على أمير المؤمنين و رحمة اللّه فإن العبد الشاكر على وراثة خدمته الناشىء فى نعمته السابح فى بحار منته، يعرض للأعتاب العالية و منبع الفواضل المتوالية، أنه تقدم منه أخبار للباب العالى بوفاة أخى و للحضرة العلية طول العمر و دوام الأمر، فصبر العبد على القضاء و رجونا له حيث توفى فى خدمة الخلافة الرحمة و الرضى، و حفظ العبد العاجز رتبته على العادة، المقرّرة من السلاطين السادة، و وجه لباب الفضل عبد السلطنة العلية نخبة الأعيان، و صفوة الأقران، وزير البحر إبننا أمير الأمراء خير الدين يطلب على لسان العبد الفقير الفضل المعتاد، من لباب السلاطين الأمجاد، و على عادة هذه البلاد، و قدم العبد على قدره ما يستحيى لعظمة السلطنة من ذكره، و إن كان مقام السلطنة الكبير يسمو على التقدير، و يرى الفضل بالقبول أوّل مأمول، فالعبد وجه رسله لباب الفضل و انتظر، و فاز من وضع الأمل موضعه بنيل الوطر، و اللّه أسأل أن يطيل بقاء أمير المؤمنين و يعز به الدين، و يقوى بشوكته حبل اللّه المتين، و يحيى بعدله سنن الخلفاء الراشدين، و يديم الخلافة فيه و فى عقبه إلى يوم الدين، آمين يا رب العالمين، و السلام على أمير المؤمنين، من عبد نعمته المخلص فى خدمته المؤمل لنعمته، الفقير إلى ربه تعالى المشير محمد الصادق باشا باى وفقه اللّه. كتب فى ۱۸ ربيع الثانى سنة ۱۲۷۶ ه.

و كاتب فيما ذكر الصدر الأعظم بما نصه:

الصدارة العظمى و الركن الأعظم الأحمى و الرتبة الشامخة الشما، صدارة ركن الدولة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۰۳

و عز الوزارة، و منتهى الأمال و مصدر الإشارة، و من لا تفى بمحاسنه العبارة، الوزير الشهير الصدر الأعظم السيد محمد باشا لا زال كما يختار سعيد الأراء محمود الآثار و مناقبه تخلدها أقلام الأقدار.

أما بعد تقديم التحية المناسبة للوزارة العلية المستمدّة من أنوار الخلافة المجيدية، فإن العبد الفقير قدم للباب العالى خبر وفاة أخيه إنا للّه و إنا إليه راجعون و أن أهل الإيالة قدموا العبد الفقير العاجز لجمع الكلمة من هذه الأمة المسلمة، فأجبتهم لحفظ مصلحة الوطن و قلت ما رآه المسلمون حسنا فهو عند اللّه حسن، و الآن وجّهنا لباب السلطنة العلية و منبع الفضائل الجلية عبد السلطنة نخبة الأعيان و

صفوة الأقران وزير البحر أمير الأمراء إبننا خير الدين، و فى رفقته أمير اللواء إبننا حسين لطلب الفضل المعتاد من السادة القادة السلاطين الأمجاد، و وجهنا معه الهدية على قدر العبد الفقير لا على قدر السلطنة الكبير، كما يرى جنابكم السامى تقييد ذلك، و جنابكم يسير رسولنا فيما يراه من المسالك، و المحقق المأمول أن وزارتكم العظمى تعامل رسل العبد العاجز بحسن القبول، كما هو المعروف من آثاركم و الشائع من أخباركم، و يرجع الرسول بفضل السلطنة قرير العين مسرور الفؤاد و دمتم دام لكم الإسعاد و بلوغ المراد على ممر الآماد و السلام، من معظم قدركم العالى و شاكر فضلكم المقدم و التالى الفقير إلى ربه تعالى المشير محمد الصادق باشا باى وفقه اللّه. و كتب فى ۱۸ ربيع الثانى سنة ۱۲۷۶ ه.

و المكاتيب على هذا النمط كثيرة و كفى بإعلان الولاة فى جميع مكاتيبهم الرسمية بلقب التشريف الذى منحتهم به الدولة العلية، يقول كل منهم من المشير فلان باشا باى و هاته السياسة هى التى يدين بها أهل القطر التونسى، كالإعتقادات الدينية مع التمسك بالإمتيازات الحاصلة الآن، و أهمها إبقاء آل حسين بن على على الولاية لالتحامهم بهم، و معرفتهم طبائع أهل القطر و منازلهم و طبقاتهم، و إنما جلبنا ما تقدم بيانه و إن كان الأمر غنى عن البرهان لما شاع فى أذهان بعض من لا خبرة له، بأن أحمد باشا شق عصا الإسلام و تبعه من بعده، و كادوا أن يلمزوا أهل تونس بالكفر لرضاهم بأعماله، مع أنه لم يأت شيئا فريا، و غاية أمره التحفظ على الإمتيازات التى أوجدتها العادة، و رام أن يحصلها رسميا جاء على غير الطريق المناسب و لم يحصل إلا إسقاط طلب الأداء السنوى و إبقاء الولاية فى مدة عمره، و إن تاب إلى اللّه مما سلكه من عدم الإنقياد لما طلب منه الذى ترائى للجمهور أنه شبه خلاف، و رقع خرقه بزيادة إرسال العساكر على ما كان يعهد الذى هو فى أواخر عهده بهذه الدار، و عزمه هو و ابن عمه من بعده على التوجه إلى دار الخلافة كما هو مشهور عند خاصتهم، و قال: إن تخوفنا من الدولة العثمانية أراه أن يجر بنا إلى العدم، و معاذ اللّه أن أكون سببا فى خروج هذا الصقع الإسلامى من يد المسلمين و خروج روحى أهون علىّ من ذلك، هب أن الدولة انتزعت من يدى هذا الملك ألست بمسلم، و رأيته بخط أمين أسرارهم كتبهم الخاص الوزير أحمد بن أبى الضياف.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۰۴

المطلب الثالث فى سياسة القطر الخارجية:

اعلم أنه لم يكن من الدول جميعا معارضى للسياسة المتقدمة حتى أن الدولة الإنكليزية كانت مراقبة لحركات ولاة القطر معارضة لكل ما يخالف التبعية للدولة العلية، مما يظهره بعض الدول و الولاة، و قد كانت تشدّد فى ذلك بعد استيلاء الفرنسيس على الجزائر، حتى أنها لم ترد أن تقبل أحمد باشا فى سفره إلى أوروبا إلا بواسطة سفير الدولة العلية، و عدل هو عن زيارتها لمخالفة ذلك للعوائد معه حيث كانت تقبل رسله بلا واسطة، غير أنها بعد حرب القريم أغضت و قصرت من مسلكها إرخاء للعنان مع من يريد زيادة النفوذ من الدول، كى يعوضها بمثله فى الجهات التى لها فيها منافع مع وجود الإستناد الرسمى للدولة العلية، الذى كانت تحوم حوله فتستند لذلك عند الحاجة.

و أما دولة إيطاليا فإنها كانت فى المدة السابقة متفرقة و لما اتحدت و صار لها اعتبار التعديل فى السنين الأخيرة، فكانت موافقة لسائر الدول رسما و علنا، و فى السر ينزع بعض متوظفيها لما صارت تنزع إليه دولة فرنسا على غير الطريقة الرسمية، و ذلك لأن باتحاد إيطاليا صارت مشاركة للدول العظام فى النفوذ فى البحر الأبيض و تطلب المنافع التى تناسبها فى جوارها، ثم إن وحدة إيطاليا و جعل تختها مدينة رومة أحيت رسم خريطة الإستيلاء على قرطاجنة تذكارا لملك الرومانيين، غير أنها لم تحم حول ذلك الحمى جهارا لما تقدم من حق الدولة العلية و لأن دولة فرنسا ناشرة لواء السطوة و سياستها لا توافق على ذلك، فصارت إيطاليا محافظة على إبقاء ما كان على ما كان.

و أما دولة فرنسا فإنها لم تخالف تلك السياسة و لم يكن يعنيها أمر تونس و علاقتها بالدولة العلية إلى أن استولت على الجزائر للأسباب التى سترد فى الباب الخامس عند الكلام على الجزائر، فمن ذلك التاريخ صارت متحذرة من زيادة تداخل الدولة العلية فى القطر التونسى لأسباب:

منها: أن الجزائر أصلها تابعة للدولة العلية و لم يكن استيلاؤها عليها بحرب مع الدولة العلية و إنما اضطرّ إليه الحال فى الإنتقام من والى الجزائر لإهانته نائب فرنسا.

و منها: أن نفس الإستيلاء على الجزائر إنما تم بعد سنين، و حروب طويلة مع أهلها و ما زال أهلها يدينون فى عقيدتهم بالخلافة للسلطان العثمانى.

و منها: أن مجاورة دولة قوية مثل الدولة العلية توجب مشاحنات يقتضيها الجوار، و لا تذعن إحداهما للأخرى بسهولة بخلاف ما إذا كان الجار ضعيفا فما هو إلا أن يؤمر فيتبع.

و شاهده: أن بمجرّد ما تم أخذ الجزائر سنة ۱۲۴۵ ه، قدّمت فرقة من الأسطول الذى كان على شطوط الجزائر و طلب رئيسها من والى تونس زيادة فى الشروط، منها: أن لا- تختص الحكومة التونسية بمتجر بل و لا- تتجر، و منها: إبطال التلصص بالسفن على السفن التجارية و إبطال ملك الأسرى و إبطال ما اعتيد من الهدايا، و أن يكون للفرنساويين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۰۵

التعامل فى القطر مثلما يتعامل أهله، فعقد الوالى معه ذلك على كره، و سجل و أرسل إلى دولة فرنسا معلما بأن الشروط أخذت شبه غصب، و كانت إذ ذاك دولة فرنسا فى شغل من الثورة على ملكها، فعدلت تلك الشروط بعض التعديل.

فلمثل تلك الأسباب لزم فرنسا مراعاة مصالحها و مداخلتها فى حراسة سياسة تونس، و الذى استقر عليه القرار من الدولة الفرنساوية من ذلك التاريخ إلا الآن، هو ما يشير إليه ما رأيته بخط أمين أسرار الحكومة أبى العباس الوزير أحمد بن أبى الضياف و نصه: «لما اجتمع أى أحمد باشا بملك فرنسا و هو لويز فليب فى خلوة، قال له: «إن كنت تروم الإستقلال فلا سبيل إليه، و الذى تعتمده منى أن فرنسا تحمى بسياستها حالتك التى أنت فيها الآن، بحيث لا يتعدى عليك أحد من جهة البحر، و أما البر فدبر أمرك فيه من جهة طرابلس، و أساس حمايتك هو التحبب إلى الرعية و الرفق بهم». سمعنا ذلك منه مشافهة رحمه اللّه اه.

و هاته السياسة التى صرح بها ملك فرنسا إذ ذاك هى السياسة المعول عليها عند عقلاء الفرنسيس قديما و حديثا، حتى قال أحد كبار جنرالات الفرنسيس و أحد حكام قطر الجزائر، بقصد التبليغ إلى حكومة تونس و الحال أنه عسكرى و الغالب على الحزب العسكرى هو الميل إلى استيلاء، و ذلك سنة ۱۲۹۵ ه عند ختام مؤتمر برلين فى شأن الحرب الأخيرة بين الدولة العلية و الروسيا، و قد اشتهر إذ ذاك أن بعض نواب الدول فى المؤتمر لما رأوا مشاحنة نائب فرنسا فى تسليم قبرس إلى الإنكليز، أو عز إليه على غير الطريقة الرسمية بأن تستولى فرنسا على تونس إرضاء لها و لم تعمل بذلك فرنسا، فقال الجنرال المذكور لمن يبلغ: «قل لوزيركم و للباى ها أنتم ترون من هى الدولة التى تصدقكم من التى تكذبكم، فإنهم يقولون لكم أنا نريد الإستيلاء عليكم ليبعدوكم و ينفروكم منا، و الآن قد أعطوكم لنا و أبينا من الإستيلاء عليكم، فلتعلموا من هو الصادق و لتعلموا أنا لم نمتنع من الإستيلاء عليكم لمجرد حب الباى، لأن مصالح الدول لا تتداخل فيها الشخصيات، و إنما امتنعنا لعدم فائدتنا، لأن فائدتنا فى تونس إن كانت هى المال فهى فقيرة و خالية، و فرنسا ليست بمحتاجة. و إن كانت هى تكبير الأرض ففى الجزائر أراضى وسيعة و لا- زالت إلى الآن خاوية محتاجة إلى العمران، فالأولى بنا تعمير أرضنا قبل أن نأخذ أرضا أخرى خالية، فأى مصلحة لنا فى أن نرسل عساكرنا لإطلاق الرصاص عليهم فى قابس و الحالة ما ذكر، نعم غاية ما نطلبه منكم هو الهناء و الراحة فى داخليتكم حتى نرتاح نحن براحة جوارنا، و أما إذا أحدثتم الإختلال فى داخليتكم و أحوجتمونا إلى إطلاق الرصاص لأجلكم، فالأولى أن تطلقوه إذا لأجل أنفسنا لأن ما كنا نتباعد عنه توقعونا أنتم فيه الخ».

فكلامه صريح فى أن سياستهم هى إبقاء تونس على ما هى عليه، و كذلك سمعت من أعيانهم فى السياسة أنهم كما لا يريدون هم

الإستيلاء على تونس لا يريدون غيرهم أن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۰۶

يتولاها، مصرحين بحقيقة سياستهم التى و فى بها كلام الجنرال المذكور، مع الأنفة من منة الدول فى المؤتمر بإعطائهم شيئا لا فائدة فيه زيادة على ما هم حاصلون عليه و هو غاية أربهم فى تونس، بأن يكون لدولة فرنسا المنزلة الأولى فيها و تتقدّم على غيرها فى النفوذ السياسى و المتجرى، بحيث تكون كل مصلحة عامّة لا يقتدر على عملها الأهالى أو الحكومة تسلم إلى الفرنساويين، و يرغبون فى أن تكون الإدارة فى الداخلية حسنة تثمر كثرة العمران و الثروة ليزداد بذلك متجرهم و حركتهم و نفوذهم، لكن على وجه فى الإدارة لا يمكن أن يتعطل به قصدهم، و يرى بعضهم أن من أسباب التعطيل أن تكون الحكومة قانونية شورية إذ ربما رأوا أن ذلك يعارض مصلحتهم فى بعض الأحيان باستناد الحكومة فى الامتناع من الإجابة إلى بعض مقترحاتهم لرأى الأمة التى هى مقيدة به، و ذلك عندهم مما لا- يمكن أن يعارض لأنه هو القاعدة الأساسية فى مملكتهم و ما عدا ما تقدّم فلا أرب لهم فى الإستيلاء على الأحكام أو معارضة الوصلة مع الدولة العلية التى لا تنقض هاتيك الأساسات.

فهاته هى مقاصدهم فلو تجديد الإدارة فى الحكومة قادرة على الإنتفاع بها و دفع غائلتها، و منها عدم الإستواء فى الحكم لكان مما يعين على الراحة و رجال الدولة الفرنساوية قابلون لإصلاح الأحكام و انفرادها كما سيأتى بيانه، و مثل ذلك تقييد الحكومة بالقانون الذى لا مندوحة عنه، و يتبين لرجال الدولة الفرنساوية أن التقييد بالقانون لا يفوت مصلحتهم المذكورة لأن عقلاء الأمة باجتماعهم تكون حالتهم أدعى إلى ما يزيد فى خير الوطن، و ما يدركه أفراد المستبدين فى تونس بالتصرف من وجود مراعاة الدولة القوية المجاورة يدركه مجموع العقلاء للأمة على وجه أتم مما هو للأفراد، و يراعون مقتضى الأحوال.

نعم إنهم يفرقون بين ما يعود لما ذكر و ما يعود لأفراد فى خويصة ذاتهم مما لا يرضاه عموم الأمّة لو تطلع على تفاصيله، و لمثل ذلك ألحت دولة فرنسا على تونس فى تأسيس التنظيمات سنة ۱۲۷۴ ه كما سيتضح، و عاضدتها دولة الإنكليز حتى ورد أسطول الدولة الأولى و كان فى آثاره أسطول الدولة الثانية، و ألح كل من قنسليهما فى إجراء الأمر محتجين بالشريعة و عمل الدولة العثمانية و السياسة الحاضرة، و عاضدهما رئيس الأسطول الفرنساوى و تحققوا أن ذلك غير معارض لمصالح دولهم الخاصة، و إن استند بعض متوظفيهم فى بعض الأحيان ميلا- إلى موافقة الولاة الممتنعين إلى أن الحكومة الشورية يخشى منها تعطيل مقاصدهم و ينهون إلى دولهم الأحوال على ما يوافق سلوكهم، و ربما أشاروا إلى فوات مقصود دولتهم إذا خالفت رأيهم فتضطر دولتهم إلى السلوك على ما يشيرون إليه، حيث أن الدول العظيمة تراعى الوصول إلى مقاصدها فى الخارج بأى طريق أمكن، و تكسو تلك الوسائل بحلل تحسنها أيدى السطوة و القوّة، و لا مقايسة بين سيرتهم فى داخليتهم و سيرتهم فى الخارج سيما فى الجهات التى لهم فيها مأرب، فربما ارتكبوا فى ذلك ما لا يمكن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۰۷

تصور مثله فى داخليتهم، و وجه ذلك هو التوصل إلى نفع دولتهم لأن مثل تلك المنافع إذا ساغ أن تعقد لأجله الحروب التى تراق فيها الأنفس و تضيع فيها الأموال من الطرفين، فلئن يتوصل إليها بوسائل أخرى أيا كانت فهو أخف و أولى، و لهذا لا ترى أثرا لمثل تلك السيرة فى الجهات التى لا مقاصد لهم بها، بل تراهم هناك يسيرون على نحو سيرتهم فى داخليتهم، و سيأتى لهذا مزيد بيان فى الخاتمة إن شاء اللّه تعالى، إذ القصد هنا خصوص ما يتعلق بالقطر التونسى من جهة سياسته الخارجية.

و حاصله من جهة فرنسا: إبقاء تونس على حالتها و امتيازاتها و الامتناع من زيادة الإلتحام بالدولة العلية، و لذلك لما قدم قبطان باشا إلى طرابلس لافتكاكها من يد آل قرامانى سنة (۱۲۵۱ ه)، أرسلت فرنسا أسطولا إلى حلق الوادى حذرا من قدوم الأسطول العثمانى إلى تونس، فتخوف إذ ذاك والى تونس مصطفى باشا من أن يتهم بسعيه فى ذلك، و كاتب قنسل فرنسا بما نصه:

و بعد، فإن جناب الدولة الفرنساوية وجهت أجفانها لمرسى عمالتنا على مقتضى المحبة و المودّة و قابلناهم بإكرام، لأن شقوفنا فى

مراسی الفرنسیس کأنها فی مراسی عمالتنا، فکذلک شقوف الفرنسیس عندنا، و أما إقامة الأجفان فی هذا الوقت بحلق الوادی و دونالمة مولانا السلطان بقربنا و فیها السید قبطان باشا، ربما تنتج لنا مضرة فی الحال أو فی المستقبل من جهة الدولة العثمانیة أدام اللّه لنا وجودها، لأنها ربما تظن فی جنابنا ظنا یضر بنا، و معلوم أننا تحت طاعة مولانا السلطان فی أمره و نهیه و باسمه نخطب فی جوامعنا و علی سکتنا، فلا یخطر ببالنا أننا نعصیه أو نخالف أمره أو نعارضه بشیء، فالمراد أن تعرف الأمرال بهذه المضرة التی نتوقعها و الاعتماد علی کمال عقلکم فی حسن التبلیغ، و شقوف الفرنسیس مهما تمر بنا أو تأتی لمرسانا فمرحبا بها، و نقبلها بالإکرام علی مقتضی قوانین المحبة و لا زائد إلا الخیر و العافیة، و کتب فی (۱۱) جمادی الثانیة سنة (۱۲۵۲ ه).

و أجابه القنسل بما نص تعریبه:

أنه بلغنا و وصلنا المکتوب الذی تشرفنا به من عند السیادة، و أعلمنا به الأمرال للندن و علمنا جمیع ما تضمنه، و جوابنا علیه هو ما سنذکره، و هو أن جنابکم العلی بریء و أجنبی و خارج من الإتفاق الذی اقتضاه نظر الدولة الفرنساویة فی إرسال هذا الأسطول لسواحل تونس، و أنتم لا یمکن لکم أن تمنعوا دولة الفرنسیس من ذلک و هو إرسال شقوفها لسواحل تونس، و لأجل ذلک لا یوجد علیکم لوم و لا عتاب من جناب الدولة العثمانیة، لأنه لا وجه لذلک، و الدولة الفرنساویة تعلم تحقیق حالتکم مع الدولة العثمانیة و حاشا جناب دولتنا أن ترضی بما یوجب لکم غیارا مع دولتکم، و إنما مراد الملک أن تبقی جناب دولتکم مع الدولة العثمانیة علی العهد القدیم السابق من غیر تبدیل و لا تغییر، لکن الدولة العثمانیة لا یمکن لها أن تخترع أمرا جدیدا تضر به مصلحة الفرنسیس فی الناحیة التی تحت یده فی أفریقیة،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۰۸

و لأجل أن یمنع ما عسی أن یقع من المضرة أرسل الملک أسطوله لتونس لیمنع به قدوم قبطان باشا لأجل التصرف بما هو مأمور به، و الأمرال لما بلغه أن قبطان باشا أتی لطرابلس و أعلم أن مراده الإتیان لتونس، فی ذلک الحین أرسل الأمرال جفنا من الأجفان التی تحت حکمه هنا لیعلم قبطان باشا أن حبیب السلطان الصافی و هو ملک الفرنسیس لا یمکن له أن یتحمل هذا التعدی بوجه من الوجوه فی المملکة التی تحت یده فی أفریقیة، لأن قدوم دونالمة المسلمین إلی تونس یتقوّی بها قلب بای قسنطینة الذی عندنا معه فی التاریخ مکالمة، و ربما کان بیننا و بینه حرب، فلأجل ذلک نعلم قبطان باشا أن لا یقدم و یرجع للمحل الذی جاء منه، فإن صمم و عزم علی القدوم فإن الأمرال واجب علیه أن یصده و یمنعه بالمدافعة القهریة بالقوّة ا ه.

فأنت تری کیف صرح بالحالة المطلوبة مع تصریحه بأن الدولة العلیة هی دولة تونس، لکنها بامتیازها کما هو صریح عبارته لمن تدبرها، فهذه هی السیاسة الخارجیة لهذا القطر، و استمرّ علیها إلی سنة ۱۲۸۰ ه التی حصلت فیها الثورة العامة الآتی بیانها، و نادی الأهالی بالتشکی للدولة العلیة، و قدّمت شکایات شفاهیة و کتابة لرسولها حیدر أفندی عند قدومه بالأسطول العثمانی مع أساطیل الدول، و طلبوا بواسطته تداخل الدولة العلیة فی تحسین إدارة القطر، بل إن بعض البلدان طلبوا الإنضمام الحسی للدولة و رفعوا العلم العثمانی، و تداخل فی هاته الثورة نواب الدول کل علی حسب ما تقتضیه سیاسته، فأثرت الحالة فی الوالی و وزیره مع ما هو معلوم من الحالة السیاسیة السابقة، و أنتج الرأی أن یرسل بالشکر للدولة العلیة عما فعلته، و یطلب منها تحریر الروابط و الإمتیازات کتابة بما لم یبق معه مقال لقائل، فسافر بذلک الوزیر خیر الدین مع التفویض التام، و قص علی الصدر الأعظم و هو إذ ذاک فؤاد باشا مطالبه، و حصلت مذاکرات مع رجال الدولة عدیدة أنتجت الإتفاق علی أصول الروابط المبنیة علی العوائد المعروفة الآتی بیانها فی نص الفرمان الآتی.

و تلقی الوزیر خیر الدین مع مزید الترحاب به من الدولة ما یبلغه للوالی شفاها من مزج حلاوة الثناء علیه بمرارة الإعتراض علی تصرفاته التی هوت بالقطر إلی الخراب و تلقی ذلک حتی من فم السلطان عبد العزیز نفسه، ثم رجع بمکتوب من الصدر فؤاد باشا محتویا علی الأصول التی وعد بأنها سیصدر بها الفرمان الذی صدر الإذن السلطانی به و لم یساعف الوقت للعجلة بصدوره، ثم کتب

الوالى يشكر ذلك و استنهض صدور الفرمان مرارا فيرد الجواب بالوعد، و كان جميع ذلك غير معلن به إلى سنة (۱۲۸۸ ه) و كانت فرنسا إذ ذاك فى شغلها الشاغل من حرب ألمانيا لها، فاطمأنت إيطاليا من جهتها و ظنت تأثير التباعد من الدولة العلية و سنحت لها فرصة و هى أن وزير الحكومة التونسية مصطفى خزنه دار اكترى أرضا وسيعة تسمى بالجديدة إلى لجنة إيطالية، و أرسل الوزير أحد أعوانه إلى تلك الأرض رائما التسبب لفسخ الكراء مع ما فى نفس إيطاليا من جهة تونس، فادعت اللجنة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۰۹

خسائر حصلت لها من تعدى تابع الوزير لو بسطت من الذهب على سطح تلك الأرض لما وسعتها و امتنع الوزير من تحمل ذلك، فأعلن قنسل إيطاليا بقطع الخلطة و تهدد الوالى و جهزت إيطاليا أسطولها للإستيلاء لو لا تعرض الدولة العلية الذى حجزها عن ذلك، و انفصلت النازلة بالشروط التى أرادتها دولة إيطاليا فى الخسائر التى ادعت بها اللجنة و لم تختص بالواقعة بل هى عمومية، فتيقن الوالى أن لا- نجاة إلا باحكام الوصلة مع الدولة العلية بأمر علنى تحصل منه الراحة، فكتب الوالى يستحث إصدار الفرمان، و كتب الوزير خير الدين للباب العالى مكتوبا فى بيان الأخطار المحيطة بالإيالة إذا لم تتدارك الدولة العلية بحفظها، فورد الجواب من الصدارة بأن نازلة الفرمان مهما تقتضى إرسال من يعتمد من الوالى للتفاهم فى النازلة مع تلميح أو تصريح باستقباح السيرة التى عليها الوالى و الصدر إذ ذاك على باشا، ففهم رجال الحكومة أن الدولة غير راضية بأن يبنى الفرمان على ما فى مكتوب الصدر السابق، فوجه الوالى الوزير خير الدين بالتفويض الذى نصه:

من عبد اللّه سبحانه الموكل عليه المفوّض جميع الأمور إليه المشير محمد الصادق باشا باى سدد اللّه تعالى أعماله و بلغه آماله إلى الهمام المفخر أمير الأمراء إبننا خير الدين الوزير المباشر أدام اللّه حفظه و أجزل من السعادة حظه (أما بعد):

فإننا بمقتضى ما نتحققه من صدقك و أمانتك و كتابتك وجهناك للأبواب العلية السلطانية العثمانية أعز اللّه نصرها و أدام اللّه فخرها للكلام فيما يؤكد أصول عاداتنا المألوفة المعروفة الآن و ما تنفصل به مع الدولة العلية فى ذلك بالكتابة فهو ماض فى حقنا، فوضنا لك فى ذلك التفويض التام بحيث لم نستثن عليك فى ذلك فصلا من فصول التفويض و لا معنى من معانيه، و أقناك فيما ذكر مقام أنفسنا تفويضا تاما عرفنا قدره و التزمنا به و اللّه أسأل لكم التوفيق و الإمداد و بلوغ الآمال و الإسعاد.

و مع التفويض المتقدم و معرفة العادات المألوفة، فإن الوزير المذكور لم يتمم شيئا مع الدولة إلا بعد أن عرض على الوالى الشروط التى استقر عليها الرأى للفرمان و قبول الوالى لها مع الإستحسان، فتمم الفرمان مع الصدر إذ ذاك محمود نديم باشا، و قاسى الوزير خير الدين متاعبا من مناضلة رجال الدولة العلية فى زيادة شروط الإمتياز، و ناضل الوزير خير الدين عن حقوق البيت الحسينى بما يشهد له بصدق الوفاء و البراعة فى السياسة، و لم يزد فى الفرمان على ما تضمنه مكتوب الصدارة إلا قليلا، و رجع الوزير خير الدين بالفرمان علنا مع إعلاء رتبة نيشانه و إتيانه بالنيشان المجيدى المرصع للوالى و لعدة من كبار رجال الحكومة بنياشين، و لما وصل إلى مالطة لزمته إقامة مدة الاحتماء بها حيث كان فى الأستانة مرض الكوليرا، و من استبشار الوالى به و شكره على عمله أرسل له أمير لواء العسة مصطفى ابن إسماعيل، و هو إذ ذاك أعز المقربين إليه فواجهه من خارج محل الاحتماء و أبلغ إليه التشكر و بات ليلة و رجع فى الباخرة الخاصة التى قدم فيها، و لما قدم الوزير المذكور

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۱۰

بالفرمان المشار إليه عقد له موكب كأعلى ما يمكن من المواكب، و ألبس الوالى النيشان، ثم تشرف بالفرمان و عظمه ثم قرأه علنا و هذا نص تعريبه:

بتعريب الباب العالى الدستور المكرم المشير المفخم نظام العالم، مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب، متمم مهمات الأنام بالرأى الصائب، ممهد بنيان الدولة و الإقبال مشيد أركان السعادة و الإجلال، المحفوف بصفوف عواطف الملك الأعلى الوالى بتونس الآن، الحائز الحامل للنيشان المجيدى الشريف من رتبة الأولى مع النيشان، الهمايونى العثمانى المرصع، وزيرى محمد الصادق باشا أدام اللّه

تعالى إجلاله آمين.

ليكن معلوما عندما يصلكم توقيعى الرفيع الهمايونى، أنه منذ وجهت و أودعت من جانب سلطنتنا السنية إدارة الإيالة التونسية التى هى من ممالك دولتنا العلية المحروسة المتوارثة التى عهدتك ذات اللياقة و الأهلية، كما وجهت سابقا إلى عهدة أسلافك لم تزل تظهر حسن السيرة و الخدمة و تنهى إلى طرفنا الملوكى الأشرف خلوص النية و الإستقامة، حتى صار ذلك قرينا لعلمنا المضىء بالعالم فمأمولنا السلطانى على مقتضى الشيم المرضية، التى جبلت عليها هو الدوام فى ذلك المسلك المرضى و الجد و الاجتهاد فى كل ما ينمى عمران مملكتنا الشاهانية، و سعادة أهاليها تبعة دولتنا العلية و رفاهيتهم و راحتهم، حتى تستديم بذلك استحقاق عنايتى الشاهانية و اعتمادى السلطانى المبذولين فى حقك و إن فئنا و تعرف قدر تلك العناية و الاعتماد و تشكرهما.

و لما كان المقصود الأصلى و المراد القطعى لسلطنتنا السنية هو ارتقاء طمأنينة الإيالة المهمة الراجعة لدولتنا العلية و نمو عمرانها و تأسيس أبنية الأمن و الراحة لسكانها يوما فيوما، و كان من البديهيات أن السلطنة العزيزة لا يعزها و لا يؤودها صرف الهمّة و العناية العائدة إلى حقوقها الأصلية لتمام استحصال هاته المطالب، و ورد الطلب المندرج بكتابك المخصوص الموجه من طرفك أخيرا إلى جانب الخلافة العلية، قررت و أبقيت إيالة تونس المحدودة بحدودها القديمة المعلومة بعهد تال بضم امتياز الوراثة و بالشروط الآتية، و حيث أن مرغوبنا السلطانى على ما تقدّم بيانه إنما هو تزايد عمران تلك المملكة الشاهانية و ثروة أهاليها و هى الآن فى حالة مضايقة و تأخر فى الواردات لكل من الحكومة و الأهالى، قد سمحت السلطنة السنية بعدم إرسال ما كان يرسل بإسم معلوم من الإيالة لطرف دولتنا العلية بموجب التبعية المقرّرة المشروعة رحمة لأهالى تلك الإيالة، و لما كانت الإيالة المشار إليها من الأجزاء المتممة لمملكتنا الملوكية، صدرت إرادتنا السنية بأن يكون الوالى بتونس مرخصا له فى تولية المناصب الشرعية و العسكرية و الملكية و المالية و هما السياسة لمن يكون متأهلا لها، و فى العزل عنها بمقتضى قوانين العدل و فى إجراء المعاملات المعلومة مع الدول الأجنبية كما كانت سابقا فيما عدا المواد البوليتكية العائدة إلى حقوقنا المقدّسة الملوكية، و نعنى بها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۱۱

ما كان كعقد الشروط المتعلقة بأصول السياسة و الحرب و تغيير الحدود و نحوها مما يكون إجراؤه راجعا إلى حقوق سلطنتنا السنية.

و عند حلول القدر المحتوم فى الولاية و تقديم المعروض بطلب الفرمان الشريف من الوارث الأكبر من عائلتك لطرف سلطنتنا السنية، يرسل له الفرمان الشريف مع منشور الوزارة و المشيرية الهمايونى كما استمر العمل بذلك إلى الآن، بشرط أن تستمر الخطبة بإسمنا السلطانى و تزين به السكة التى تضرب هناك علامة علنية للإرتباط القديم الشرعى لإيالة تونس بمقام الخلافة الجليل، و أن يبقى السنجق على لونه و شكله و مهما وقع حرب لسلطنتنا السنية مع أجنبى يرسل العسكر من تلك الأيالة الشاهانية بقدر الإستطاعة طبق ما جرت به العادة القديمة فى الجميع، و مع تلك المواد يكون أمر الولاية بطريق الوارثة مخصوصا بعائلتك، على أن تبقى سائر المعاملات الإرتباطية مع دولتنا العلية جارية مرعية كما كانت سابقا، و أن تجرى الإدارة الداخلية لتلك الإيالة مطابقة للشرع الشريف و موافقة لقوانين العدل التى يقتضيها الوقت و الحال الكافلة بتأمين السكان فى النقش و العرض و المآل، فإعلانا لما ذكر صدر هذا الفرمان الشريف الجليل القدر من ديواننا الهمايونى، و أرسل موشحا أعلاه بخطنا الهمايونى السلطانى، فخلاصة نياتنا الشاهانية إنما هى إصلاح حال تلك الإيالة المهمة و ما لآل بيتكم، و تقوية ذلك حالا و مألا و استكمال أسباب السعادة و الرفاهية و الأمنية لصنوف تبعتنا المستظلين بظل عدلنا السلطانى، و مأمولنا القطعى الملوكى أن يبذل من جهتنا الجهد فى حصول ما ذكرتم، حيث كان تمام المحافظة على حقوق سلطنتنا السنية المحققة بتونس من قديم الأزمان و على أمنة الأهالى القاطنين بتلك الأيالة المودعة بعهدة صداقتك من حيث النفس و العرض و المال و سائر الحقوق العمومية، شرائط امتياز الوارثة الأساسية المقرّرة، فيقتضى أن تتأكد محافظتها عن تطرّق الخلل دائما سرمدا و متباعدا عن وقوع الحال و الحركة على خلافها.

إذا عرفت ذلك فلا بد أن تعرف أنت و من يقوم مقامك فى أمر الولاية بالتوارث من أعضاء عائلتك قدر هاته النعمة العلية الشاهانية

و تشكرها، فعلى ذلك تسعى لتحصيل رضاى السلطانى بالغيرة و مزيد الإهتمام بإجراء هذه الشروط المؤسسة. حرر فى اليوم التاسع من شهر شعبان المعظم سنة ثمانية و ثمانين و مائتين و ألف.

و نشر الفرمان فى صحف الأخبار و حصل إذ ذاك من عموم الأهالى أفراح خارقة للعادة فى ذات الحاضرة و فى سائر بلدان القطر و فى سائر قبائل العربان كل بما يناسب عوائده، و دامت الزينات أزيد من ثلاثة أشهر متوالية، و السبب فى ذلك.

أما ما يتعلق بالوالى: فلإستقرار أمره على أساس متين له و لعائلته طالما سعى فيه من كان قبله و لم يحصل عليه كما تقدّم، مع الإرتياح من مقاصد الأجانب المتنوّعة.

و أما الأهالى: فلحصول مرغوبهم من تمام الإتصال بالدولة الإسلامية، مع شروط

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۱۲

الأمن لهم و حسن الإدارة فيهم من ولاتهم الملتحمين بهم و المحبوبين عندهم، و إن لم يجر المطلوب فيهم على وجهه مما أبقى الباب مفتوحا فى حقهم و لم يحصل من الدول الأجنبية أدنى إنكار و لا معارضة لما تضمنه الفرمان المذكور إلا دولة فرنسا، فلم توافق على الإعتراف به و بقى الأمر على ذلك رسميا إلا الآن، لكن المقاصد و السيرة الصادرة من الوزير الحالى مصطفى بن إسماعيل و ما نشأ عنها من الإرتباكات يجهل ما هو منتهاها، فلله فيهم علم غيب هم صائرون إليه، فهذا هو خلاصة السياسة الخارجية لهذا القطر إلى هذا العهد و هو جمادى الثانية سنة ۱۲۹۷ ه.

تنبيه: قد حدثت حوادث مهمة مما أشرنا إليه بعد الفراغ من هذا الجزء نفردها بذيل وحدها إن شاء اللّه تعالى عند الكلام على سياسة فرنسا الخارجية.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۱۳

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المطلب الرابع فى السياسة الداخلية من العائلة الحسينية.

اعلم أنه منذ وليت العائلة الحسينية هذا القطر التونسى كان مدار أمرهم الرفق بالأهالى و الخمول و التباعد عن سمات الملك و الرفاهية، و غاية الألقاب التى تحلى بها أتباعهم و أعوانهم هى ما يأتى:

فأولها: صاحب الطابع، يعنى حافظ ختم الوالى و مأموريته ختم المكاتيب و مباشرة المتوظفين فيما لم يباشره الوالى، و يكون هو الواسطة بينهما.

و ثانيها: باش كاتب، و له رياسة الكتابة و محاسبة العمال و الرأى فى كل الأحوال.

و ثالثها: خزنه دار، و هو حافظ مال الحكومة فى قصر الوالى.

و رابعها: باش أغه، و له رئاسة أغوات أوجاق الخيل.

و خامسها: كاهية، و له نيابة الوالى فى الأحكام.

و سادسها: أمين الترسخانة، و لنظره ما يرجع إلى البحرية.

و سابعها: باش حانبه، و هو الواسطة بين الوالى و المشتكين إليه مع رياسة الحوانب و هم الأعوان الخيالة للحكومة، و هاته الوظيفة منقسمة إلى شخصين، أحدهما: باش حانبه ترك، و الآخر: باش حانبه عرب، و هذا له نفوذ على الآخر.

و ثامنها: باش مملوك، و له رياسة إدارة القصر الأميرى.

و تاسعها: الداى، و له الحكم فى الجنايات [مطلقا] إلا القتل فهو خاص بالوالى، و له حفظ الراحة فى خصوص الحاضرة.

و عاشرها: شيخ المدينة، و له الحكم فى الليل و حفظ المدينة ليلا- من السراق، و ترجع إليه سائر المعاملات العرفية و خصومات الأجانب فى الديون، كما أن فى كل ربض شيخا لخصوص حفظه ليلا.

و حادى عشرها: آغة القصبة، و له الحكم فى العسكر الينكشارى و الجنايات الخفيفة و مثله آغة الكرسى بانحطاط درجته عن السابق.

و ثانى عشرها: رئيس مجلس التجارة، و معه عشرة أعضاء يسمون العشرة الكبار و لا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۱۴

يجتمعون إلا فى مهم، كما أن لكل صناعة أمينا يفصل الخصومات المتعلقة بالصناعة.

و ثالث عشرها: كاهية دار الباشا، و له فصل الجنايات الخفيفة حول الحاضرة، فهاته هى أهم الرتب السياسية و العسكرية.

و أما العلمية:

فأوّلها: الباش مفتى الحنفى، أى رئيس المفتيين ثم المالكى ثم المفتى الحنفى ثم المالكى، و قد يزاد على واحد فى كل من المذهبين، ثم قاضيان لكل مذهب قاض ثم قاضى باردو ثم قاضى المحلة، أى المعسكر المسافر مع وارث الولاية، ثم قضاة المدن الكبيرة و مفاتيها. ثم قضاة المدن الأخرى و الجميع مالكية إلا ما يحدث أحيانا من ولاية مفتى حنفى فى المهدية و المستير، فهؤلاء أصحاب الأحكام.

و هناك وظائف دينية كالمدرس و الإمام و الخطيب و صاحب الولاية، أى الأمير يجلس يوميا بمحل يسمى المحكمة صباحا لتلقى المشتكين من العمال و المتوظفين و من الحرابة و قطع الطريق و أمثال ذلك، أما نوازل المعاملة بين الناس فهى للحكام الشرعيين، و نوازل التجارة لمجلسها و الجنايات الخفيفة يباشرها الداى، و له الجبس مع الأعمال الشاقة المسمى بالكراكة، و له الضرب ثلاثمائة سوط فقط و أعظم به من مبلغ حرمة الشرع، و هكذا كل نازلة فإنها ترجع إلى حكامها ممن مر بيانهم مع التوقير التام للحكام أهل الشرع و نفوذ أحكامهم و لو على ذوى المناصب العالية، و يجتمع رؤساء المفتيين و المفتيون و القاضيان و قاضى باردو يوم الأحد بمحضر الوالى، و تورد عليهم سائر النوازل المهمة فى الحقوق الشخصية، و ليس للوالى إلا تنفيذ ما يحكمون به مع غاية التعظيم و التوقير، و لا زال طرف من هذا العمل إلى الآن بحيث أن هيبة العلماء و توقير الشريعة لا زالت فى القطر التونسى على بعض ما يجب لها من الإجراء، و كذلك سائر الشعائر الدينية، و لقد أدركت أن سب الدين لا يمكن أن يكنى عنه بهاته العبارة تعظيما و توقيرا، بل يكنى عنه بسب المنكر، و ترى الكبير و الصغير يقول: من سب المنكر أذيب الرصاص فى حلقه كأنه هو حكمه المعروف، و كذلك سائر العبارات الفاحشة مما يكنى به عن العورات لا تذكر أبدا و من يذكرها فى خلواته يعد من السفهاء و لقد تغيرت فى هذا المعنى الحال و للّه الأمر.

و أما ما يتعلق بالجباية و صرفها فقد كان لا يؤخذ من الأهالى إلا أعشار الحبوب من القمح و الشعير ثم عشر الزيت، و أداء مالى حسب مقدار مرتب العساكر الينكشارية مقسم على بلدان القطر يؤدّى على ستة أقساط فى السنة و هو نزر يسير، ثم العاشر و هو المسمى فى العرف بالقمرق، ثم مداخيل الأراضى و الأملاك الراجعة لبيت المال مع ضرائب ضعيفة على القبائل مثل البلدان المارّ ذكرها، عوضا عن زكاة المكاسب يوزعها على أفرادهم مشايخهم و عرفاءهم، كل قبيلة بحسب حالها. و لما امتدّت أيدى العمال بما يسمونه الهواء و هو أخذ ما يقدمه أهل العمل للعامل برسم الضيافة، ثم ما يلتقطه منهم بإسم و هبة أى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۱۵

هبة، ثم العقاب على الجناية بالمال جعل لذلك حموده باشا على العمال أنفسهم أداء يسمى بالإتفاق، هو فى الواقع قسط مما ينهبونه من الأهالى ثم زيد على ذلك ما يسمى باللفضية، و هو ما يجعل رشوة للواسطة بين الوالى و العامل و آخذها إما أن يعطى منها قسطا للحكومة أو يأخذ الكل على حسب قربه من الوالى، ثم إن جميع ذلك مشروط فيه أن لا- تتشكى منه الأهالى فإذا ضجت قبيلة و اشتكت للوالى من عاملها عزله حالا، و يقال له لم يؤخذ منك مقدار يجحف بالأهالى فأنت تجاوزت الحد ثم يصرف جميع ما تقدّم

فی مصالح الحکومة، و القطر من مرتبات العساکر و أقواتهم و جرایات المتوظفین بغایة الاقتصاد و هی جرایات ضعیفة، و الناس إذ ذاک مقتنعون بعیدون عن الترف یکتفون بمصنوعات القطر فی اللبس و المسکن و المرکب یکفیهم القلیل لا سیما العلماء، فقد رأیت بخط بیرم الثانی نعمه اللّه فی حساب خاص بشؤنه بیان مرتباته و جراياته من الأوقاف و الحکومة بلغ مجموعها شهریا إلی ثلاثین ریالا و سبعة أرباع الریال التونسی، و ثمنه مع ما هو علیه من جمیع وظائفه العلمیة و هی ریاسة الفتوی و نقابة الإشراف و مشیخة المدرسة الباشیة و درس و ذلک فی أوائل هذا القرن، نعم کان له کما لبقیة المجلس الشرعی جرایة من الطعام و هی إثنا عشر قفیزا قمحا و مثلها شعیرا و إثنا عشر مطرا زیتا، و کان ذلک کافیا له و لعائلته و أبنائه و کانت ولاة القطر من بنی حسین بن علی یعتنون بالاقتصاد و حمل الأهالی علیه بأوجه سیاسیة لطیفة، منها:

أن حموده باشا رأی کثرة لبس الشال الکشمیر أی الطیلسان فی الأهالی فحضر من الشال المصنوع فی جربة عددا و لبس هو منه و ألبس رئیس الکتبة أیضا و خرجا بذلک اللبس یوم العید لتلقی وفود الهنا و للصلاة، و کان فی أثناء إقبال الأعیان علی هنائه یلتفت إلی رئیس الکتبة و یقول جهرة نعم الشال هذا صنع بلادنا فما لنا و لإضاعة أموالنا خارجها، و الأعیان یسمعون و هم لابسون للشال الکشمیری فودوا أن لم یکونوا لبسوه من الخجل، حتی أن من سمع منهم قبل الدخول علیه أزاله و استعار من غیره الشال الجربی و انکفوا من ذلک التاریخ عن الکشمیری، و له وقائع عدیدة مثل هاته و هو فی الحقیقة أعقل فروع ذلک البیت الذین استولوا علی القطر، فقد أنشأ فیه ما لم یکن فیه من الحصون و القشل و السفن و الذخائر، حتی أن مبانیه الخاصة به لم تزل منتفعا بها إلی الآن کبستان منوبه الذی صار قشله للخیالة و داره بتونس المسماة الآن بسرایة المملکة، و أعانه مقام وزیره یوسف صاحب الطابع الملقب بأبی الخیرات من کثرة أیادیه فی طرق البر مع الإنصاف و الإقتصاد الذی لم یکن القطر یتحمل سواه.

حتی أن حسین باشا لما توسع فی الرفاهیة زیادة عما تقدم توقفت حکومته فی دین قدره خمسة ملایین ریالات أی ثلاثة ملایین فرنک، باع بها زیتا سلما للتجار الإفرنج و لم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۱۶

یمکنه إحضاره لهم، فنشأ عن ذلک ولایة شاکیر صاحب الطابع الإدارة بشروطه الشدیدة علی الوالی فی تقصیر یده عن التصرف فی المال و فی العمال، و أخذ من دار الوالی أغلب ما فیها من فضة و ذهب و احتسب علی خاصة مصاریفه الذاتیة و تحملت الأهالی أول ولایته مظالم مالیة إلی أن خلص الدین و عمر خزائن الحکومة، و موجبات الإقتصاد الکلی هی ضعف واردات الحکومة للإقتصار علی الحد فی المداخیل الشرعیة أو ما له شبهة بها، کما تقدم فی توزیع جرایات العساکر تحفظا علی الدیانة و للسیر علی ما تساعفه الدیانة أیضا فی غالب الأحوال إلا ما ینذر، کالعقاب بالمال علی الراجح من منعه شرعا و أمثاله، کما تقدم طرف منه ما دامت الرعایا راضیة به، ثم إن الإقتصار علی ذلک لا یجتمع منه مبالغ تقتضی الترف لأن طبیعة أرض القطر و لئن کانت غنیة غیر أن کثرة توالی الحروب علیه و الأمراض و المظالم فی الدول السابقة أفنت من السکان القدر الأوفر، فقد نقل بعض المؤرخین أن عدد سکان أفریقیة فی صدر الإسلام و یعنی بها ما یشمل برقه المعروفة الآن ببنی غازی و طرابلس و تونس و الجزائر هو تسعة عشر ملیونا، مع أن عدد الجمیع الآن لا یبلغ ستة ملایین، ثم مع قلة السکان ضعفت أعمالهم و اقتنعوا بما یسد الخلة، و بقیت الأرض معطلة لوجوه: منها.

عموم الجهل بصناعة الفلاحة و تعمیر الأرض و تکثیر الأشجار، و منها:

خوف صاحب الثروة علی نفسه و ماله فیری أنه یعمل لغیره فینزع منه الباعث، و منها:

الإکتفاء بما خف لسهولة الرحیل فی الفتن، و منها:

عدم الثمرة إذا کثرت الغلال و الحبوب لصعوبة نقلها للمدن و علی تقدیر وصولها لا تجد لها مشتریا، لمنع إخراجها من القطر لأجل الحروب المستمرة مع أوروبا إلا لبعض الأجناس أحیانا لوقوع الصلح معه، فإذا بقیت النتائج فی البلاد رخص سعرها لزیادتها علی قدر الکفایة و استمرت السیرة علی نحو ما مر إلی ولایة أحمد باشا.

فأخذت الحكومة فى طور جديد و تبعها الأهالى على مقتضى قاعدة الناس على مذهب أمرائهم، و ذلك أن هذا الوالى كانت له همة عظيمة أكبر من حالة القطر، و قد وجد فى ولاية أبيه ابتداء تنظيم العسكر النظامى فاعتنى هو بهم و بمهماتهم و تعظيم رؤسائهم، ثم جد فى تفخيم هيئة الحكومة تفخيما لا يخرجها عن المقام الحقيقى فلم يقل فى مكاتيبه ألقابا تشعر بالإستقلال كإطلاق لفظ الدولة و المملكة و لم يطلق على نفسه لفظ ملك متحاشيا عن ذلك كل التحاشى هو و ابن عمه محمد من بعده، و إنما غير ما لا يمس الحقوق حتى غير الألقاب المار ذكرها آنفا. ففى الوظائف الشرعية لقب رئيس المفتيين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۱۷

الحنفية محمد بيرم الرابع بشيخ الإسلام، و فى العساكر النظامية صير لها رؤساء على مقتضى أصل اصطلاحهم و أهمها على الترقى بين باشى ثم آلاى أمينى ثم قائم مقام ثم أمير آلاى ثم أميرلوا ثم أمير الأمرا أو فريق، و إنشاء النياشين المسماة بالافتخار و جعل له خمسة رتب ثم العليا و تسمى افتخارا أكبر و معه شريط من الحرير أخضر يسمى بالفاشه و يلبس على الكتف و الصدر و الظهر على هيئة حمائليه، ثم نيشان آل بيته خاص بهم و يعطى للملوك و أعيان بعض الكبراء، و شكل للوظائف السياسية وزراء، و لقب كلا منهم بالوزير فى خطاباته الرسمية إلا- إذا عرض ذلك فى مكاتيب الدولة العلية فإنه يتحاشا عنه، و أوّل من تلقب بتلك الألقاب فى هذا القطر هم الوزير مصطفى صاحب الطابع، و هو رئيس الوزراء عند اجتماعهم و صاحب التقدم عليهم لسنه و سابق تربيته للوالى، لكنه لا تصرف له فى شىء معين، ثم الوزير مصطفى خزنه دار وزير العمالة أى الداخلية و المالية، ثم مصطفى أغا وزير الحرب ثم محمود كاهيه وزير البحر ثم جوزاف رافو وزير الخارجية و فى آخر مدته لقب الداى بوزير التنفيذ و هو إذ ذاك كشك محمد، و كان كل من هؤلاء الوزراء يباشره بنفسه فيما يتعلق بوظيفته و لا يتداخل واحد فى وظيفة الآخر بشىء و لا نفوذ لأحدهم على الآخرين رسميا إلا الوزير الأوّل، لكنه لرزنته و خموله و فهمه مغزى الوالى كان يقتصر على نصح الوالى فيما يراه أو يبدى له رأيه عندما يستشيره، و صاحب النفوذ الحقيقى هو مصطفى خزندار لتقريب الوالى إليه و لأن مقتضى وظيفته التعلق بالأهالى و العمال و جميع أصحاب الإدارة، و حيث كان هذا التفخيم يستدعى زيادة المصاريف و الميل إلى الترف مع ما فى نفس الوالى من الكرم على أهل إصطفائه و كبراء العساكر، دعاه ذلك إلى زيادة الضرائب على الأهالى بأسماء سموها أثقلت الظهر و أوجبت الفقر، و زعيم ذلك المضمار هو محمود ابن عياد باتحاد مع الوزير مصطفى خزندار مع انحصار جميع أنواع مصاريف الحكومة فى يده من قوت العساكر و ملابسهم و جميع المهمات للحكومة و لذات الوالى، و لذلك وظائف بأسماء و هى:

الرابطة: و هى قبض الأعشار و دفعها، و الكوشة: و هى معمل الخبر و الغابه و هى قبض أعشار الزيت و خرجها، و الغرفة: و هى اشتراء جميع مهمات الحكومة و الوالى، و انحصر جميع ذلك و غيره فى ابن عياد و تغاضى الوالى عن المذكور و كادت أن تنحصر فيه ولايات جميع العمال و وظائف سائر جبايات الأموال لشركة سرية بينه و بين ذى اليد، و قدم ابن عياد لاقتداره على إرضاء الوالى بإحضاره فعلا و وعدا ما يطلبه من المهمات و الأموال و امتدّت يده بزيادة المظالم على ما ترسمه الحكومة بأضعاف مضاعفة، و من اشتكى لا يجاب إلا بقول الوالى أخلص مع عاملك، و توصل إلى كتب الأوامر بخطه سرا هو و الوزير و يمضيها له الوالى من غير علم أحد مع تحسين الوزير لذلك عند الوالى بأن ما يربحه ابن عياد يكون خزينة حاضرة متى ما طلبها الوالى وجدها بالإستيلاء على كسبه، و جمع ابن عياد بذلك أموالا عريضة قدرها «ريشارد وود» قنسل الإنكليز بتونس الذى أقام بها ما ينوف عن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۱۸

العشرين سنة فى رسالته التى ألفها قدحا فى طريقة تلزيم مداخيل الحكومة بثمانين مليونا، و هو المشتهر على ألسنة العارفين فى تونس. و أرسل ابن عياد تلك الأموال إلى فرنسا و احتال على السراح للسفر إلى هناك للتداوى عندما علم هو و شريكه أن عاقبته و خيمة و أحس بمباديها، و سرحه الوالى و لم يحاسبه الوزير حتى سافر من غير حساب فلما سافر إلى هناك احتمى بدولة فرنسا و أعلن بعدم الرجوع، كما طلب الحماية لشريكه و حصل على الإذن فيها غير أن دولة فرنسا تفظنت لأمره و رجعت عن حماية الوزير و علمت أن

سببها هو خيانته لبلاده و هو عندهم من أعظم الذنوب كما هو فى نفس الأمر لكن ابن عياد لما تمم الشروط الواجبة فى نيل الجنسية الفرنساوية و حصل عليها بالفعل قبل الإطلاع على أعماله لم يكن فى وسع دولة فرنسا نزع ما ناله إذ قوانينهم لا تسمح بذلك، و عند ما علم أحمد باشا بامتناع ابن عياد مع الأموال الذريعة التى نهبها و لم يحاسب على تصرفه قيض لخصامه الوزير النصوح خير الدين، و اتفق الفريقان على تحكيم إمبراطور الفرانسيس نابليون الثالث، فأمر بعقد مجلس من ثقات المعتبرين فى الوزارة الخارجية للنظر فى النازلة، و عرض الوزير خير الدين مطالب الحكومة و عرض ابن عياد مطالبه و ألف كل منهما نحو ثمانية عشر رسالة فى النازلة و أرسى الأمر فيها بعد عدّة سنين على صدور الحكم من الإمبراطور بما ملخصه.

ريالات ۰۱۴۱۷۱۴۹۵ ثبوت مال عين قبل ابن عياد للحكومة

۰۲۰۹۰۲۷۵۰ و ثبت عليه أيضا قيمة رسوم بانكه و تذاكر سراح

۰۳۵۰۷۴۲۴۵

۷۸۴۵۹۰۷ و ثبت لابن عياد على الحكومة

۰۲۷۲۲۸۳۳۷ فإذا طرح ذلك من مجموع ما ثبت للحكومة بقى

قبل ابن عياد سبعة و عشرون مليونا و مائتان و ثمانية و عشرون ألفا و ثلاثمائة و سبعة و ثلاثون و نصف، كما صدر الحكم عليه بأن يحاسب فى تونس على الرابطة و غيرها مما لم يمكن الحساب عليه فى باريس، و قد أفردت هاته النازلة بتأليف مخصوص للوزير حسين حيث كان له خبرة بالنازلة لأنه كان بمعية الوزير خير الدين عند خصامه فيها و سماه حسم الألداد فى نازلة محمود ابن عياد، و ما انفصلت هاته للنازلة إلا بعد ما نشمت فى الحكومة نازلة مثلها إذ الوالى مرض فى تلك الأثناء بمرض الفالج و طالت مدّته، و استبد الوزير مصطفى خزنة دار و عوض ابن عياد بالقائد نسيم الذى وظيفته أنه قابض للأموال و كذلك عوض ابن عياد فيما يرجع للعمال بسعد بن عبيد و غيره، و لم يمكن لبقية الوزراء إنهاء الأمر إلى الوالى لمرضه و بقى الحال على ذلك إلى أن توفى ذلك الوالى سنة ۱۲۷۱ ه فى نصف رمضان، و لم يترك على الحكومة و لا دانقا من الدين بالربا و لا بغيره إلا ما لا يمكن خلو

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۱۹

الوجود منه كدفع أثمان بعض مهمات مما لم يحل أجله، و لقد أعان على عدم حصول الدين الوزير خير الدين لأن الوالى كان أرسله لعقد قرض فى فرنسا عند إرسال العسكر لحرب الروسيا سنة ۱۲۶۹ ه و لم يمكن له معارضته لأنه مستبد، لكنه تشدّد فى شروط القرض و سوّف حتى توفى الوالى المذكور، و ساعد وريثه محمد باشا على عدم الإستقراض و مع ما تقدم فأحمد باشا مدّة صحته لم يستبد عليه وزير و له مآثر حسنة فى القطر، أهمها:

إحياء العلم بعد أن كاد يندثر، فرتب فى جامع الزيتونة ثلاثين مدرسا بجارية قدرها ستون ريالا فى الشهر، و هذا المقدار إذ ذاك له موقع عظيم لما تقدم لك فى مقادير مرتبات العلماء، ثم رتب إثنى عشر مدرسا آخر بمرتب خمسة عشر ريالا فى الشهر، و خصص للأوّلين مواريث من لا وارث له الراجع ذلك لبيت المال، و للثانيين أحباسا تلاشتها أيدى العدوان، كما أقام بالجامع خزائن كتب بها نحو سبعة آلاف مجلد و نتج من ذلك إحياء العلم و كثرة العلماء بالقطر و منهم فحول يعز نظيرهم و لا زال ذلك مستمرّا و للّه الحمد.

و لما ولى محمد باشا فى سنة ۱۲۷۱ ه لم يغير شيئا من فخامة الحكومة لكنه جعل أكبر همه رفع المظالم على الرعايا و جلب ثروتهم لما كان يتيقنه من المضرات التى كانت حاصلة لهم، و أبقى وزراء ابن عمه على ما كانوا مع ما فى نفسه من حالة مصطفى خزنة دار لكنه غلبه على أمره فيه وزيره المستنصح لديه إسماعيل السنى صاحب الطابع، فكان كالباحث على حتفه بظلفه عفى اللّه عن الجميع كما يرد خبره، و السبب فى ذلك هو تخوف إسماعيل من تقدم أحد أقرانه للوزارة المعتبرة و هى وزارة العمالة، فأنفت نفسه من ذلك و واعده و عاهده مصطفى خزنة دار على الإلتحام به و تقديمه على غيره إذا أبقى فى الوزارة، فسارع للوالى و قال له لا غنى لنا عن مصطفى خزنة دار لعلمه بما لم يعلمه غيره من أسرار الحكومة و أموالها إلى غير ذلك، و لم يزل به إلى أن أقرّه و عاهده على

الصفاء و النصح.

و أما الوزير مصطفى صاحب الطابع فقد أبقاه شيخ الوزراء من غير مباشرة، و أما محمود كاهيه وزير البحر فإنه توفى و ولى عوضه الوزير خير الدين و افتتح الوالى أمره بتنقيص كمية العساكر بعد انفصال الحرب مع الروسية مع مراعاة ضباطهم فأبقى فى الخدمة القادر العارف على قدر الحاجة و جعل لغيرهم نصف مرتب مع إبقاء المقام، و كذلك أسقط جميع المظالم على الأهالى و عوضها بأداء واحد على كل فرد ذكر بالغ قادر على السعى و هو ستة و ثلاثون ريالا فى السنة أى ثلاثة ريالات فى الشهر و هى قدر فرنكين الذى لا يجحف بأحد مع إمكان ضبطه، و ضبط أيدى العمال عن التجاوز فيه مع تحجير العقوبة بالمال و عمم ذلك الأداء على جميع القبائل و البلدان بالسواء، و لم يبق عليهم غيره إلا عشر الحبوب من القمح و الشعير و عشر الزيت أو عوضه من القانون، و قانون النخيل أى الخراج على أعداد النخيل و لم يستثن من ذلك أحدا إلا أهالى المدن الكبيرة و هى تونس و القيروان وسوسه و المستير و صفاقس، فأبقى بها أنواع الأداء السابق المختلف الأسماء على أنواع

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۲۰

المكاسب و تلقت الأمة ذلك العمل بالسرور و الإنقياد إلا السادات المعاونين الأشراف من أهالى الوطن القبلى لعدم سابقية أداء عليهم، و كذلك ضبط أعشار القمح و الشعير و جعل على كل ماشية قدرا معينا هو أقل ما يمكن حصوله فى الغالب إلا أن يكون قحط بالمرة و إذا ثبت القحط يسقط على صاحبه، و ذلك المقدار هو ربع القفيز من كل نوع و إن زاد العشر الحقيقى على ذلك القدر فهو موكول إلى ديانة صاحبه يدفعه لمن شاء كل ذلك تحاميا عن أبواب المظالم.

و هكذا رتب أعشار الزيت و جعل لها مكاييل منضبطة و لا يأخذ إلا العشر و شيئا يسيرا مقدارا معينا لكراء المعصرة، و شدد النكير على العمال فيما إذا امتدّت أيديهم إلى شىء زائد من الرعايا لأنه جعل لهم مرتبات على حسب أعمالهم يأخذونها من الحكومة، و لم تنفع جناية العامل قرابته لأنه كان صلبا فى الحق حتى عاقب أصهاره بأخذ ما أخذوه من الرعايا و سجن بعضهم بمساكنهم و سجن أتباعهم الذين شاركوهم فى الأخذ و توسطوا فيه، و لذلك انكف الوزير مصطفى خزنة دار و صار على حذر إلا ما ندر أواخر مدّة الوالى المذكور، و كان هذا الوالى جريا على الحكم و لو بالقتل فيما يراه من الحقوق و اشتد خوف الوزير منه باطنا، إلى أن حصل من أحد أتباع القائد نسيم اليهودى سبا للدين الإسلامى علنا فى مجمع عظيم من المسلمين، و كان أمر الدين إذ ذاك و شعائره بالمكان الأعلى على ما تقدم بيانه، فاهتزت البلاد تعظيما للخطر سيما و قد رأوا أن الرجل لا تناله الأحكام لأنه إنما قدم على مثل ذلك اعتمادا على الاحتماء بسيده الذى هو من خواص الوزير، و بلغ ذلك للوالى و قد كان منذ قريب قتل عسكريا لقتله يهوديا على مقتضى المذهب الحنفى من قتل المسلم بالذمى، مع أن أحكام قتل النفس فى القطر جارية على مقتضى المذهب المالكى لأنه يرى القود بغير المحدد، و هو الموافق لحالة أهل القطر و لمذهب أغلبهم و هذا المذهب لا يرى قتل المسلم بالكافر، فخالف الوالى عادة البلاد و أجرى حكم المذهب الحنفى فلزمه نظرا للهيجان العام توجيه النازلة إلى المجلس الشرعى فحكم المالكية بقتل اليهودى و وافقهم أغلب الحنفية و كتب فيها الشيخ بيرم الرابع بالموافقة مع نقل نصوص مدارها على التعزير المغلظ و قد يبلغ به للقتل و هو المعين فى معروضات أبى السعود و قد تحقق ما ظنته العامة، فإن الوزير عارض انتصار التابعة فى إنفاذ الحكم و طلب من الوالى أن يحكم هو فى الجانى بغير القتل و ألح عليه فامتنع لما تقدم و احتال الوزير حتى بإغراء قنسل الفرانسيس بالتداخل فى النازلة و أنفذ الوالى الحكم فانتهزها الوزير فرصة و لاذ بفرنسا بواسطة قنسلها إلى أن أتى الأسطول الفرنساوى فى المحرّم سنة ۱۲۷۴ ه و ألح رئيسه و قنسلهم و عضدهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۲۱

قنسل الإنكليز على إنشاء عهد الأمان. و مما استدل به كل منهم عمل الدولة العثمانية بالتنظيمات الخيرية حتى صرح بذلك وزير الخارجية لفرنسا فى مكتوبه المرسل فى ذلك الشأن إلى قنسله المأمور بقراءته على الوالى و تفاوض الوالى مع خاصته و وزرائه فى

ذلك و استقر الأمر على إنشاء عهد الأمان و قرىء فى موكب شامل لجميع المتوظفين و أعيان البلاد و نواب الدول و رئيس الأسطول الفرنساوى. و نصه:

بسم اللّه الرحمن الرحيم الحمد للّه الذى أوضح للحق سبيلا، و جعل العدل لحفظ نظام العالم كفيلا، و نزل الأحكام على قدر المصالح تنزيلا، و وعد العادل و توعد الجائر و من أصدق من اللّه قيلا.

و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الذى مدحه فى كتابه بالرؤوف الرحيم و فضله تفضيلا، و بعثه بالحنفية السمحا فبينها تبيينا و فصلها تفصيلا، و رتبها كما أمره ربه إباحة و ندبا و تحريما و تحليلا، فلن تجد لسنة اللّه تبديلا، و لن تجد لسنة اللّه تحويلا، و على آله و أصحابه الذين أقاموا على معالم الهدى علما لمن اقتدى و دليلا، و فهموا الشريعة نصا و تأويلا، و أبقوا سيرتهم الفاضلة و أحكامهم العادلة أمانا جليلا، و نستوهبك اللهم توفيقا يوصل إلى الإسعاد برضاك توصيلا، و عونا على أمور الإمارة التى من حملها فقد حمل عبئا ثقيلا فقد توكلنا عليك و التجئنا إليك و كفى باللّه وكيلا. أما بعد:

فإن هذا الأمر الذى قلدنا اللّه منه ما قلده و أسنده إلينا من أمور خلقه بهذا القطر فيما أسنده، ألزمنا فيه حقوقا واجبة و فروضا لازمة راتبة، لا- تستطاع إلا- بإعانته التى عليها الاعتماد و لولاها فمن يقوم بحق اللّه و حق العباد، فمحضنا النصيحة للّه فى عباده و أرضه و بلاده، و الأمل أن لا نبقى فيهم بحول اللّه ظلما و لا هضما و لا نخرم لهم فى إقامة حقوقهم نظما، و أنى ينصرف عن هذا القصد بعمله و نيته من يعلم أن اللّه لا- يظلم مثقال ذرة و لا يحب الظالمين فى بريته، فقد قال لنبيه المعصوم الأوّاب: يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ [ص: ۲۶]. و اللّه يرى أننى آثرت فى قبول هذا الأمر على خطره مصلحة الوطن على ذاتى، و عمرت بخدمته الفكرية و البدنية غالب أوقاتى، و قدمت من التخفيفات فى الجبايات ما علم خبره و ظهر بعون اللّه أثره، فانتشرت الآمال و تشوّقت النفوس إلى ثمرات الأعمال، و انقبضت عن التعدى أيدى العمال، و استقصاء المصالح يقتضى تقديم إجمال، و من رامها جملة فقد عرضها بسبب التعذر إلى الإهمال، و رأينا غالب أهل القطر لم يحصل لهم الأمنية بإجراء ما عقدنا عليه النية، و جرت عادة اللّه أن العمران لا يقع من نوع الإنسان إلا إذا علم أن برأته هى الأمن له و الآمان، و تحقق أن سياج العدل يدفع عنه خوف العدوان و أن لا وصول لهتك ستر من حرماته إلا بقوّة الدليل و وضوح البرهان، و لا يكفى لتحققه الواحد و الإثنان، فإذا رأى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۲۲

الجانى تعدّد الأنظار غلط إن كان منصفا حدسه، و قال: وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ [الطلاق: ۱]. و قد رأينا سلطنة الإسلام و الدول العظام الذين على سياستهم الدنيوية أعمال الأعلام فى النقض و الإبرام، يؤكدون الأمان من أنفسهم للرعية و يرونه من الحقوق الواجبة المرعية، و هو أمر يستحسنه العقل و الطبع و إذا اعتبرت مصلحته فهو مما يشهد باعتباره الشرع، لأن الشريعة جاءت لإخراج المكلف عن داعية الهوى و من التزم العدل و أقسم عليه فهو أقرب للتقوى، و بالأمن تطمئن القلوب و تقوى و قبل هذا كاتبنا علماء الملة الأركان و بعض الأعيان بعزمنا على ترتيب مجالس ذات أركان للنظر فى أحوال الجنايات من نوع الإنسان و المتاجر التى بها ثروة البلدان، و شرعنا فى فصوله السياسية بما لا يصادم القواعد الشرعية، هذا و أحكام الشريعة جارية مطاعة و اللّه يديم العمل بها إلى قيام الساعة، و هذا القانون السياسى يستدعى زمنا لتحرير ترتيبه و تدوينه و تهذيبه، و أرجو اللّه الذى ينظر إلى قلوبنا أن تستقيم بهذا الترتيب أحوال الرياسة و لا يخالفه ما ورد عن السلف الصالح من اعتبار السياسة، و أنا العبد الفقير أتعجل لمرضاة ربى بما تطمئن إليه النفوس و تكون منزلته فى النفس منزلة المشاهد المحسوس، و تأسيسه على [أحد عشر قاعدة]:

الأولى: تأكيد الآمان لسائر رعيتنا و سكان أيالتنا على اختلاف الأديان و الألسنة و الألوان فى أبدانهم المكرمة و أموالهم المحرمة و أعراضهم المحترمة، إلا- بحق يوجبه نظر المجلس بالشورى و يرفعه إلينا و لنا النظر فى الإمضاء أو التخفيف ما أمكن أو الإذن بإعادة النظر.

الثانية: تساوى الناس فى أصل قانون الأداء المرتب أو ما يترتب و إن اختلف باختلاف الكمية بحيث لا يسقط القانون عن العظيم لعظمته و لا يحط عن الحقير لحقارته و يأتى بيانه موضحا.

الثالثة: التسوية بين المسلم و غيره من سكان الأيالة فى استحقاق الإنصاف لأن استحقاقه لذلك بوصف الإنسانية لا بغيره من الأوصاف، و العدل فى الأرض هو الميزان المستوى يؤخذ به للمحق من المبطل و للضعيف من القوى.

الرابعة: أن الذمى من رعيتنا لا يجبر على تبديل دينه و لا يمنع من إجراء ما يلزم ديانته و لا تمتهن مجامعهم و يكون لهم الآمان من الإذاية و الإمتهان لأن ذمتهم تقتضى أن لهم ما لنا و عليهم ما علينا.

الخامسة: لما كان العسكر من أسباب حفظ النوع و مصلحته تعم المجموع و لا بد للإنسان من زمن لتدبير عيشه و القيام على أهله، فلا نأخذ العسكر إلا بترتيب و قرعة و لا يبقى العسكرى فى الخدمة أكثر من مدة معلومة كما نحرره فى قانون العسكر.

السادسة: أن مجلس النظر فى الجنايات إذا كان الحكم فيه بعقوبة على أحد من أهل الذمة يلزم أن يحضره من نعينه من كبرائهم تأنيسا لنفوسهم و دفعا لما يتوهمونه من الحيف و الشريعة توصى بهم خيرا.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۲۲۳

السابعة: إننا نجعل مجلسا للتجارات برئيس و كاتب و أعضاء من المسلمين و غيرهم من رعايا أحبابنا الدول للنظر فى نوازل التجارات بعد الإتفاق مع أحبابنا الدول العظام فى كيفية دخول رعاياهم تحت حكم المجلس، كما يأتى إيضاح تفصيله قطعا لتشعب الخصام.

الثامنة: أن سائر رعايانا من المسلمين و غيرهم لهم المساواة فى الأمور العرفية و القوانين الحكمية لا فضل لأحدهم على الآخر فى ذلك.

التاسعة: تسريح المتجر من اختصاص أحد به بل يكون مباحا لكل أحد و لا تتاجر الدولة بتجارة و لا تمنع غيرها منها و تكون العناية بإعانة عموم المتجر و منع أسباب تعطيله.

العاشرة: إن الوافدين على أيالتنا لهم أن يحترفوا بسائر الصنائع و الخدم بشرط أن يتبعوا القوانين المرتبة و التى يمكن أن تترتب مثل سائر أهل البلاد، لا فضل لأحد على الآخر بعد الإنفصال مع دولهم فى كيفية دخولهم تحت ذلك، كما يأتى بيانه.

الحادية عشر: إن الواردين على إيالتنا من سائر أتباع الدول لهم أن يشتروا سائر ما يملك من الدور و الأجنة و الأرضين مثل سائر أهل البلاد، بشرط أن يتبعوا القوانين المرتبة و التى تترتب من غير امتناع و لا فرق فى أدنى شىء من قوانين البلاد، و نبين بعد هذا كيفية السكنى بحيث أن المالك يكون عالما بذلك و داخلا على اعتباره بعد الإتفاق مع أحبابنا الدول.

فعلى عهد اللّه و ميثاقه أن نجرى هذه الأصول التى سطرناها، على نحو ما بيناها و وراءها البيان لمعناها و أشهد اللّه و هذا الجمع العظيم المرموق بعين التعظيم فى حق نفسى و على من يكون من بعدى، أن لا يتم له أمر إلا باليمين على هذا الأمان الذى بذلت فيه جهدى و جعلت سائر الحاضرين من نواب الدول العظام و أعيان رعيتنا شهداء على عهدى، و اللّه يعلم أن هذا القصد الذى أظهرته و جمعت له هؤلاء الأعيان و اشتهرته هو ما أودعه اللّه فى نيتى، و إجراء أصوله و فروعه فورا أعظم أمنيتى و المرء مطلوب بجهده و من عاهد اللّه لزمه الوفاء بعهده، و الحق هو العروة الوثقى و الآخرة خير و أبقى و استحلف من لدى من هؤلاء الثقات و الحماة الكفاة أن يكونوا معى فى إجراء هذه المصلحة يدا واحدة بقلوب سليمة متعاضدة و أقول لهم: «و لا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها، و قد جعلتم اللّه عليكم كفيلا، إن اللّه يعلم ما تفعلون، اللهم من أعاننا على مصالح عبادك فكن له معينا و أورده من توفيقك عذبا معينا، اللهم اجعل لنا من عنايتك و إعانتك مددا وهب لنا من لدنك رحمة و هىء لنا من أمرنا رشدا، منك الإعانة على ما وليت و لك الشكر على ما أوليت، المهدى من هديت و الخير كله فيما قضيت» هذه مقدمة أنتجتها الإستشارة و رآها العبد الفقير ناجحة صالحة فأعنا اللهم ببركة القرآن و أسرار الفاتحة و السلام. من الفقير إلى ربه تعالى عبده المشير محمد باشاباى صاحب المملكة التونسية فى ۲۰ محرّم الحرام سنة أربع و سبعين و مائتين و ألف صح من كاتبه المشير محمد باشاباى و اللّه على ما نقول وكيل.

ثم عقد الوالى مجلسا رئيسه الوزير مصطفى خزنة دار وزير العمالة و أعضاءه:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۲۴

مصطفى آغه وزير الحرب و خير الدين وزير البحر و الوزير إسماعيل السينى و الوزير محمد و كاتب أسرار الوالى أحمد ابن أبى الضياف، و أذنهم باستخراج أحكام سياسية تدور عليها أعمال الحكومة، و استخراج أحكام فرعية فى الحقوق الشخصية يجرى بها الحكم فى القطر، و أذن أن يكون شيخ الإسلام محمد بيرم الرابع أحد أعضائه فامتنع من الحضور دون مشارك: من العلماء الحنفية و المالكية، و استقرّ الرأى على إضافة الشيخ محمد ابن الخوجة المفتى الحنفى و الشيخ أحمد بن حسين رئيس الفتوى فى المذهب المالكى و الشيخ محمد البنا المفتى المالكى و هؤلاء الأعلام الأربعة هم أكبر علماء القطر إذ ذاك، فحضروا أوّلا ثم امتنعوا و اكتفوا بأن كتب كل منهم شرحا منفردا على الإحدى عشرة قاعدة المار ذكرها، أبدوا فيها الأحكام الشرعية المطابقة لتلك القواعد و اقتصروا على ذلك متعللين بأن الذى بدا لهم من مغزى الجماعة هو الميل البحت للسياسة الساذجة من غير التفات إلى محاذاة الشرع، بل و ربما عرض ما يصادم القواطع، و حيث كان عمل المجلس على ما يستقر عليه رأى الغالب لم يأمنوا أن يسند إلى المجلس ما يخالف الشرع و يحمل ذلك على عاتقهم، و الذى تبين لكل من الفريقين فيما بعد مما ولدته الليالى أن الصواب فى غير مسلكه على ما يتحرّر إن شاء اللّه تعالى فى الخاتمة.

و لم يتم هذا المشروع فى مدّة الوالى المذكور مع حرص القناسل عليه و تأكيدهم بأنه لا محيص عما أشهدهم عليه بالنيابة عن دولهم، و لم يبخل الوالى بذلك لأنه محب طبعا للعدل و إنما عاقه عن إتمامه الأجل، و فى آخر مدّته أغراه وزيره بتعاضد مع روش قنسل فرنسا حيث كان العامل فرنساويا على ما يأتى و حسنا للوالى جلب ماء زغوان الذى كان جاريا لقرطاجنة فى قنوات من البنا و على حنايا بأن يجلب على يد جمعية فرنساوية فى قنوات من حديد و يوصل إلى المرسى و الحاضرة، و إنما يحصل من ثمنه للديار و للمزارع يوفى بالمصروف عليه فى مدة يسيرة و ينشأ منه فوائد للزراعة حول الحاضرة و المرسى، و كان الوالى مغرما بحب العمران و الفلاحة و بالمرسى أيضا، و هى معطشة من قلة الماء الحلو فوافق على ذلك و اتفقوا على جلبه و على بناء دار لقنسلات فرنسا بهية خارج باب البحر من الحاضرة بمقدار للجميع قدره إثنا عشر مليونا تدفع على أقساط أربعة كل قسط فى سنة بثلاثة ملايين، و قد عد بعضهم ذلك مبدأ محن القطر حيث آل إلى دين بالربا و الحق أنه لا لوم على الوالى فى ذلك لأن الحكم على ما هو موجود و على اعتبار جريان الأمر على الإستقامة، و لا يحمل عليه فساد غيره و إن بناه على شىء من أعماله هو فى نفسه سليما إذ المفسد يبنى فساده على ما يريد، و النظر فى الحقيقة للعمل من حيث هو فينظر فيه هل فيه مصلحة أم لا؟ و جلب ذلك الماء على الكيفية المذكورة فيه مصلحة، و هو تعطش

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۲۵

البلاد فى أغلب السنين، لأن شربها من المواجل المحبوس فيها ماء المطر و من بير خارجها ماءها غير خالص العذوبة تسمى بير كلاب و يستعمل لغسل الصابون مياه فساقى حول الحاضرة لأن أبارها ماءها ملح لا يصلح إلا لاستعمال تنظيف البيوت، و كثيرا من السنين تحصل الشدة للأهالى من قلة الماء صيفا حتى يبلغ ثمن القلة لمقادير وافرة مع التعب فى جلبه، ثم إعزام الوالى بالفلاحة ترغيبا للسكان فى العمران الذى أثمر إقبالهم عليها على ما سيرد، يستدعى جلب الماء الحلو على أن مالية الحكومة إذ ذاك وافية بذلك المقدار لأن الفلاحة التى هى ركن ثروة هذا القطر قد تكاثرت فى تلك المدة و أقبلت عليها الناس إقبالا عجيبا، حتى غلت أسعار الأراضى ملكا و كراء أو غلت أسعار الحيوانات و غلى قرض الأجير المسمى بالخماس غلوا فاحشا، حتى بلغ قرض الخماس إلى ألف و خمسمائة ريال، و ذلك لكثرة استغناء الأهالى سيما الأعراب و أنفتهم من صناعة الخماسة لاقتدار كل على أن يصير فلاحا مستقلا بنفسه، و نتج من ذلك ثروة الحكومة ثروة زائدة على المعتاد مع نقصان المصاريف على العساكر، فكان دخل الحكومة فى الأقل نحو نيفا و عشرين مليونا فى السنة و بيان تقريبه ما يأتى:

ریالات

۰۰۰، ۰۹۷۰۰ عدد النفوس التی تؤدی الجبایة ۰۰۰، ۲۷۰ علی کل نفس ریالات ۳۶

۰۰۰، ۰۶۰۰ مدخول مکس الغلال فی الحاضرة المسمی فندق الغلة

۰۰۰، ۰۵۰۰ دار الجلد أی محل دبغ الجلود

۰۰۰، ۰۵۰۰ کمرک الدخان

۰۰۰، ۰۶۰۰ کمرک السلع الداخلة و الخارجة

۰۰۰، ۰۰۰، ۱ سراح خروج الزیت و القمح و الحبوب

۰۰۰، ۱۱۰۰ قانون زیتون الساحل و صفاقس

۰۰۰، ۰۹۰۰ قانون نخیل الجرید

۰۰۰، ۰۵۰۰ محصولات المدن و غیرها أی الأداء علی ما یباع فی الأسواق

۰۰۰، ۰۵۰۰ لزامات صغیرة فی الحاضرة و غیرها کالحوت و الخیل و غیرها

۰۰۰، ۶۷۵۰ أعشار القمح و الشعیر علی کل ماشیة ربع قفیز قمحا و مثله شعیرا و عدد

۰۰۰، ۱۲۰ المواشی فیجتمع من ذلک أقفزة

۰۰۰، ۳۰ قمحا و مثلها شعیر سعر ۱۵۰ الأول و سعر ۷۵ الثانی

۰۰۰، ۰۳۰۰ أعشار الزیت متوسطا کل سنة أمطار زیتا ۰۰۰، ۱۲ سعر ۲۵ المطر

۰۰۰، ۲۲۹۵۰۰ الجمع

فالحکومة التی دخلها ما تقدم و مصاریفها الإعتیادیة لا تتجاوز الإثنی عشر ملیونا، لأن أحمد باشا مع کثرة عساکره و مصاریفها کان دخل الحکومة زمنه نحو خمسة عشر ملیونا إلی الثمانیة عشر، و مصاریفها مثل ذلک لأنه لم یتداین شیئا، و محمد باشا نقص کثیرا من

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۲۶

العساکر فلم یکن مصروفه الإعتیادی مجاوزا الإثنی عشر ملیونا، نعم له مصاریف غیر إعتیادیة فیما یخص ذاته، و ماذا عساها أن تبلغ فإذا دفع من دخل الحکومة ثلاثة ملایین فی السنة مدة أربع سنین لمنفعة عامة لا یکون فیه ضرر، و لاعتماده علی مثل ذلک اشتری له الوزیر المذکور مصطفی خظنة دار مصوغا بقیمة خمسة عشر ملیونا مقسط ثمنه أیضا لیکون ذلک ذخر للحکومة عوضا عما باعه أحمد باشا من ذخائرها الثمینة فی مصاریف حرب الروسیا، لأن المال الناض یسهل إلیه امتداد الأیدی بخلاف المجوهرات مع ما فی طبع الوالی من المیل إلی طبائع الأقدمین و منها إدخار المصوغ، و هو و لئن کان مسرفا فیما یتعلق بذاته و حرمه بالنسبة لأسلافه لکنه یؤثر الإقتصاد للعامة و اتباع الحکومة بأن یستلطف لهم لکی یقتصدوا فی مصاریفهم، فقد قدم علیه المولی الإمام الشریف سیدی محمد الشریف فی رمضان و کان محبا للإشراف معظما لهم شنشنة أهل تونس الإسلامیة فأدخله لقصر حرمه مختلیا معه مباسطا و مؤانسا له، فعرض فی أثناء الخطاب لومه للشریف علی التقصیر فی القدوم إلیه فأجابه معتذرا ببعد مسکنه حیث کان مسکن الوالی بالمرسی و بتعب الرکوب علی ظهر مرکوب للوصول إلیه لأنه لیست له کروسة أی عجلة، فأجابه الوالی: بأن ملک مثله للکروسة مضر لما یلزمها من المصاریف السنویة، و هو لا یبخل علیه بإعطاء کروسة له بلوازمها، و لکنه یخشی علیه کثرة مصاریفها فلذلک رأی أن یعطیه ثمنها و ثمن ما یجرها، علی شرط أن یشتغل به فیما له دخل فی مصالحه، و أما رکوبه فإنه مهما أراد الرکوب یرسل إلیه لیبعث له کروسة لیرکبها، و أعطاه خمسة آلاف ریال و لعمری أنها من نصح الأصدقاء.

و له فی مثل ذلک کثیر من المساعی سیما فیما یعود إلی تکثیر الفلاحة و غراسة الزیتون و الأشجار من الأهالی، حتی رغب أهالی الحاضرة أیضا و أنشأوا فی مدته القصیرة ما ینیف علی الستین ألف شجرة من الزیتون فی أرض تعرف بعبدی خوجه من مرناق، و

توفى رحمه اللّه و لم يترك على البلاد و لا دانقا دينا بالربا، إلا الأموال المقسطة فى مقابلة الأشياء المار ذكرها و بقايا أثمان أشياء مما لا يخلو الأمر عن مثله، مع أنه ترك خزائن من الحديد مملوأة بمسكوكات الذهب التى أنشأ ضربها، كما ترك خزانة مهمة جدّا ملآنة بالمصوغ و الياقوت الأبيض المسمى بالإلماس أو «الديامنت» المتجمع من النياشين التى أبطلها و أخذها من أصحابها و عوضها بنياشين من الفضة على حسب مجرى الدول، و عوض أصحاب الرتب العسكرية علامات فى أعناق لباسهم، و قد كان كل من أرباب نياشين الإفتخار و من أهل الرتب العسكرية له نياشين من «الديامنت» مختلفة النوع و النفاسة على حسب الرتب، فمنها نيشان يبلغ خمسة عشر ألف ريال، و منها دون ذلك و هى كثيرة جدا. فاجتمع منها مع ما اشتراه مقدار وافر يعرف ذلك كل رجال الحكومة و أتباعهم بل و جميع آل بيته، و استولى أخوه محمد الصادق باشا فى (۲۴) صفر سنة (۱۲۷۶ ه) و لما كان هذا الوالى يتقى الصعوبات و يأتمن من يرى أمانته و يطلق له التصرف من غير معارضة كانت الوقائع تختلف فى مدته اختلافا بينا بحسب الوزير الذى بيده التصرف، مع أن الوالى متحد.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۲۷

فلذا لزم أن نذكر لك كل وزير بانفراده و الوقائع التى جرت مدة ولايته و مساعيه لأن الوالى يأتمنه و يعمل على رأيه، و هى القاعدة الجارى بها عمل الممالك المتمدنة لو تمت شروطها، و هى جعل محتسب من الأمة لمراقبة أعمال الوزير حتى لا تضر به و لا بالأمة، غير أنه ينسب إلى الوالى تفخيم أمر الحكومة فأطلق عليها لقب الدولة و على نفسه لقب الملك، و أدمج ذلك فى ألفاظ القانون المسمى بقانون الدولة و وزع منه نسخا على سائر الدول ليكونوا شهداء عليه، و سلم بيده إلى يد الإمبراطور نابليون الثالث نسخة منه عند الاجتماع به فى الجزائر، و كتب تلقيب وزرائه بإسم الوزير فى مكاتيبه للدولة العلية، و قيل له فى ذلك من بعض رجال حكومته فقال الدولة لها السيادة علينا و طاعتها واجبة و لكن لا نهين أنفسنا و كذلك اخترع زيادة النياشين و قلد بها نفسه و رجال حكومته و غيرهم، فمنها:

نيشان العهد: و هو مرصع بالياقوت الأحمر و الأخضر جعل للبسه قانونا و عددا و يتبعه شريط أبيض مثل الذى سبق ذكره فى اختراع أحمد باشا، و منها:

نيشان عهد الأمان: على شكل آخر و خصصه بأصحاب المباشرة فى الوزارة إلى غير ذلك من الأشياء التى مدارها على الأبهة مع رأفة نفسه ورقة قلبه.

و أول ما افتتح به حلفه باليمين اللازمة فى قبول بيعته على مقتضى عهد الأمان و سرد عند البيعة العامة التزاما نصه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تبارك من جعل الأمان أقوى أسباب العمران و الصلاة و السلام على سيدنا محمد و آله و صحبه و من تبعهم بإحسان.

أما بعد فيقول العبد الفقير إلى ربه المشير محمد الصادق باشاباى وفقه اللّه لما يرضاه و أعانه على ما أولاه: إنى قبلت البيعة من الأعيان الحاضرين على ما وقع الإلتزام به فى العشرين من محرم الحرام سنة (۱۲۷۴ ه) من المرحوم المقدس أخينا المشير سيدى محمد باشاباى، و هو عهد الأمان لسائر السكان على الأعراض و الأموال و الأديان و ما حواه من القواعد و اللوازم و الأركان، و حلفت و أحلف باللّه و عهده و ميثاقه على مقتضاه و أن لا أخالفه و لا أتعداه، و هذا الكلام صدر منى و نقله الناطق به عنى و خطى و ختمى فيه أقوى شاهد و أوضح إعلان لكل من حواه هذا الديوان و سائر الرعية و السكان، و على مقتضاه عليكم السمع و الطاعة و يد اللّه مع الجماعة.

حرر يوم السبت الخامس من صفر الخير سنة (۱۲۷۶ ه).

ثم التفت إلى الوزراء فوجد الوزير مصطفى خزنه دار هو صاحب الشفوف على الكل لإلتفات أغلب أتباع الحكومة عليه و انقيادهم إليه رغبة و رهبة لما له من اليد و كذلك قناسل الدول فسلم إليه أمر الحكومة و لقبه بالوزير الأكبر، و بقى منفذا لرأيه ملازما للسير

على نهجه فى كل أمر حتى فيما يعود إلى خاصة ذاته، فكثيرا ما كان يلبس الوالى ثيابه و يتقلد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۲۸

بمنطقته تهيئا لركوبه إلى الحاضرة فى كل يوم من رمضان لكون عادته ذلك، و يبقى منتظرا للوزير ليركب معه لأنه لا يركب دونه فيرد عليه رسول الوزير معتذرا له بأنه غير قادر فى ذلك اليوم على الخروج لمرض أو شغل فيلوى الوالى عزمه و لا يتوجه للحاضرة وحده، و كان لا يباشر فيها شيئا من الإدارة و إنما يذهب لمجرد التنزه و التفرج على الأسواق من شبابيك قصره و حيث علمت ما تقدم نذكر لك بعض حالات هذا الوزير و ما طرأ من تصرفاته كما نذكر لك غيره من الوزراء.

المطلب الخامس فى وزارة مصطفى خزنه دار:

اعلم أنه رجل أصله من قرية قرب ساقس جلب إلى تونس و سنه دون العشر سنين، و أخذه أحمد باشا و رباه و تعلم القراءة و الكتابة و بعض الفروض العينية كالتجويد و الوضوء و الصلاة، و نشأ على مسايرة أخلاق سيده بشوشا غير متفحش غيورا على من انتمى إليه جالبا لهم الأرباح بكل وجه، كما أنه كان غيورا على تقرب أحد من الوالى و مع ذلك كان كثير الإعتقاد فى الصالحين و من انتمى إلى معرفة الحدثان مواظبا على قيام الثلث الأخير من الليل و له فيه أوراد مخصوصة إلى أن يصلى الصبح ثم ينام، و كان أولا قبل كبر بنيه ذا كرم كثير العطاء لحاشيته ثم صار شحيح النفس حريصا على الإمساك و التقتير، و لم يعهد أنه باشر أحدا بشتم أو كلام منكر مدة وزارته على طولها و هى خمسة و ثلاثون سنة إلا رجلين يقال لأحدهما على زيد و للآخر عثمان هاشم، و كان لا يقدم إليه أحد يطلب شيئا منه إلا يعده بقضاء حاجته كيفما كان حالها، مع أنه ربما كان الوفاء ببعضها غير ممكن، و قيل له فى ذلك فأجاب بأن سليقته تأبى أن يقنط الطالب [بل يؤنسه] و يصرفه بالوعد و إن كان عازما على عدم إعطائه و يرى أن تعليق الآمال أولى من الأياس منها و لذلك كثيرا ما حصل منه الخلف بما يعد، و صاهره أحمد باشا على أصغر أخواته ثم ولاه خزنه دار ثم لما أحدث أحمد باشا ألقاب الوزراء ولاه وزارة العمالة و هى عبارة عن التصرف فى الداخلية، فراكن إليه محمود بن عياد و تشاركا سرا حتى صار المحتسب و المحتسب عليه شريكين و حصر دخل الدولة و خرجها فى محمود كما تقدم، و للنجاة بما حصلا معا سهل خروج محمود إلى فرنسا من غير حساب و خانه محمود فأظهر عقد الشركة مع مصطفى خزنه دار و طلب على يد مجلس الحكم إلزام الشريك بدفع نصف قيمة السلع المجلوبة لمصالح الحكومة و استولت هى عليها بعد خروجه من تونس، و عرض هذا الحكم على الوزير مصطفى خزنه دار بواسطة قنسل فرنسا فى تونس، كما أظهر أن شريكه خزنه دار كلفه بطلب حماية فرنسا له كما قرره فى الصفحة الرابعة من الرسالة الأولى التى عرضها على مجلس التحكيم و بعد أن كاد يحصل على الحماية عدلت فرنسا عن ذلك و الحال أنه لم يبد له من سيده موجب لذلك بدليل بقائه على منصبه و تصرفه إلى أن مات سيده، ثم بعد سفر محمود بن عياد استعوضه بسعد بن عبيد و جعله سمسارا على بيع الوظائف، فكان المتولى يدفع ما اتفق معه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۲۹

عليه و المعزول يغرم ما يدعى به عليه أهل عمله مع كونه مضطرا إليه لأنه ما دفع المال لشراء الوظيفة إلا ليربح ما يتمعش به و ما يدخره للمستقبل، و عظم بذلك الخطر و الفقر على الرعايا حتى شاهدت قبيلة أولاد عياران كثيرا منهم يستلقطون حب الزيتون بالأجرة لأربابه و عند ما يتم عملهم يأتون إلى الفلاح ليحاسبوه عما تجمع لهم من المال و معهم أحد أتباع هذا العامل فيحصى لهم جميع أجرهم بعد إخراج مقدار ما أخذوه لقوتهم و يرسله الفلاح معهم إلى دار العامل ليقبضه لأنه حاجر عليهم فى قبضه و أشباه ذلك كثيرة.

كما أنه استعوض عن ابن عياد فيما يتعلق بشراء مهمات الحكومة و دفع أموالها أناسا منهم عطية الذى وقع منه أمور عجيبة. منها:

أنه ولى على أعشار الزيت و دفعها فى مصاريفها المعينة، و منها:

الإجحاف فى مؤنة العساكر فكان يدفع إليهم الردىء من الزيت زيادة على مضاعفة الكيل من الدافع، بل من سوء عمله أنه كان يدفع للعساكر أوساخ الزيت الذى يحمل فى قفاف الحلفة و لا يسيل منها، كما كان يحك ما لصق بحيطان مراجل الزيت و دنانه المسماة بالجرار و ما تجمع من ذلك الدسم الوسخ يغلى فى الماء السخن و يدفع للعساكر على أنه زيت، و الأرباح التى تحصل لعطية كان يصرفها لمصالح الوزير خزنه دار، و منها:

أنه ابتدأ فى بناء جامع قرب باب القرجانى و نسبه إلى نفسه مع أن المصروف عليه من مال الحكومة بعض منه على يد ابن عياد و البعض الآخر كان صرفه على يد عطية المذكور، و الدليل على أن ما صرفه لم يكن له أنه مات مفلسا و مع ذلك لم يتم الجامع إلى الآن، و قد بنى الوزير خزنه دار سبيلا ببطحاء القصبة و وقف عليه حوانيت بجواره و لا زال مستمرّا إلى الآن، و قد استعوض عن ابن عياد أيضا القائد نسيم شمامة و جعل وظيفته كونه قابض الأموال، و كان يشترى المهمات بسعر و يحتسبها على الحكومة بأضعاف، كما أنه حصل بواسطة الوزير المذكور بناء لعدّة زوايا، فمنها: تجديد زاوية الولى الصالح القطب سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى اللّه عنه الكائنة بجبل الجلاز بنيت على شكل حسن متقن حيث كان الوالى إذ ذاك أحمد باشا تلميذا للشاذلى رضى اللّه عنه، و كذلك جدد بناء زاوية الولى الصالح سيدى على الحطاب رضى اللّه عنه، الذى هو أحد تلامذة الشاذلى الكبار و هى فى الجهة الغربية من تونس تبعد عنها ثمانية عشر أو عشرين ميلا فى الوطن المسمى بالمرناقية و بنيت أيضا بناء حسنا، و منها زاوية الحاج على شيحه الكائنة قرب الحلفاوين من ربض باب سويقة من حاضرة تونس، و هو منتسب للولى الصالح سيدى عبد السلام الأسمر رضى اللّه عنه، و بنيت بناء حسنا.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۳۰

و منها تجديد بناء زاوية الولى الصالح ملاذ أهل تونس و عمدتهم سيدى محرز بن خلف رضى اللّه تعالى عنه، و هو رجل كبير فى العلم و الصلاح من كبار رجال مذهب الإمام مالك رضوان اللّه تعالى عليهم أجمعين، و بنيت بناء حسنا و ما صرف على جميع ذلك من مال الحكومة، كما أنه استوهب من الوالى محمد الصادق باشا سبخة السيجومى التى بقرب الحاضرة من الجهة الغربية الجنوبية و أنفق على تنشيفها عدّة مئين من الألوف من مال الحكومة، و حفر لذلك خندقا يمرّ فى واد بين جبال المحل المعروف ببئر القصعة ثم يمرّ على الوهاد المعروف ببحيرة باش حانبه، ثم يصل إلى الأرض المعروفة بمدار ابن عروس و هناك ينهمل الماء المنحدر من السبخة فحصل بذلك تلف الأراضى التى على مصب ذلك الخندق، لأنه لم يجعل لها سبيلا إلى الوصول إلى البحيرة مع كون مائه ملحا أجاجا، و تعطلت عند مصبه الطريق الموصلة إلى مرناق و إلى حمام الأنف ثم ما والاه من الجهة الجنوبية فى وقت الشتاء لتعطل طريقه الأصلى من الوحل فصار الطريق الشتوى أيضا إما معطلا أو صعبا جدّا مع أن نفس السبخة لم تنشف لأن ارتفاع قعرها على سطح البحيرة إنما هو نحو ميتروين و نصف فقط، و يلزم لانحدار الماء فى الأقل صانتى ميتر لكل ميتر، و طريق الخندق لما كانت طويلة لم يكن فيها الإنحدار المطلوب فلم تنشف السبخة، و قد أنذر بذلك أحد حذاق المهندسين و قال: لا يمكن تنشيفها إلا بنفق تحت جبل المنوبية لقرب المسافة الكافية للإنحدار، فلم يعمل بقوله و لم يحصل المقصود و بقى الأمر على ذلك إلى أن سد الخندق فى بعض جهاته بإذن الحكومة فى وزارة خير الدين لرفع الضرر عن الطريق و عن الأراضى المشار إلى جميعها، كما شرع فى عمل طريق صناعى بين تونس و حلق الوادى فعمل فيه من جهة حلق الوادى نحو أربعة أميال و من جهة تونس نحو خمسة أميال ثم ترك، فأما الذى من جهة حلق الوادى فأبطلته جمعية طريق الحديد، و أما الذى من جهة تونس فلم يزل منتفعا به لكنه محتاج الآن إلى التدارك بالإصلاح لأنه ضرورى فى وقت الشتاء، حيث أن الأرض التى يمرّ عليها المسماة بالخضراء صعبة المرور لكثرة الوحل.

و لما ولى محمد باشا و أقرّ الوزير المذكور بمعاضدة الوزير إسماعيل السنى حصل الإغراء للوالى على محمد المرابط أمير أمراء عساكر القيروان و صهر أحمد باشا و على صالح شيبوب أمير لواء عساكر غار الملح و غيرهما من خاصة أحمد باشا من أبناء البلاد،

فنزعت رتبهم و استؤصلت جميع أموالهم و سمع الثقات من وزراء أحمد باشا الحاضرين مواطن الإغراء شدّة انفعالهم من ذلك، و لما وقع استقراره بالوزارة عند محمد باشا بواسطة ما تقدّم أراد أن يبرهن على صدق ما وسمه به الوزير إسماعيل السنى من الصدق و النجابة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۳۱

و علم ما لا- يعلمه غيره، فطلب من الوالى عمل حسابه عما مضى و بعد إتمامه جاء بالدفاتر و بتلخيصها و عرضه على الوالى محمد باشا، و رأيت فى صفة الموطن بخط الوزير ابن أبى الضياف ما نصه: «و قال له بمحضر الوزراء و رجال الدولة هذا حسابى قبضت فى مدّة خدمتى ما هو مرقوم فى هذا التلخيص، و صرفت فى المدّة ما هو مرقوم أيضا و كان المصروف أكثر و أنا غير طالب له و لم أدفعه من مالى و ليس على دولتك المباركة دين، فقال له بعض الحاضرين من الوزراء بديهة: أنا أوّل قادح فى هذا الحساب، و من أين جاءت هاته الزيادة؟ فأجابه الوزير بلين و سياسة: لك أن تنظر فى فصول القبض هل نقص منها شىء و فى فصول الدفع هل زاد فيها شىء و ما وراء ذلك نتيجة أصابعى ولى أن أتطلبه لو استحللت الخيانة و لهذا أتيت بالدفاتر ليطلع عليها كل من يريد الإنتقاد فخجل القادح الخ».

و الكاتب المذكور عالم بالبلاغة حيث ورى بقوله: «فخجل» أى خجل من الجواب لأنه قيل: إن المال من الأشياء التى لا تنمو بذاتها، فالقسمة العقلية إما أن يكون من فصول المقبوض شىء لم يرسم، كأن يكون المقبوض من الطوارىء التى لا- تنضبط كالأخذ من العمال زيادة على الموظف، أو تكون بعض وجوه المصروف لم تصرف حقيقة، أو يكون المقدار الحقيقى منها دون ما رسم فى الدفاتر، أو يكون الدافع دفع من عنده، أو اقترض و هذان الأخيران قد أقرّ الوزير بعدمهما و إقرار الإنسان ماض عليه فلزم بالضرورة أحد الوجوه السابقة، و لعلها هى المرادة بقوله: «بأصابعى»

ثم أنه فى مدّة محمد باشا لم تقع مظالم الرعية من العمال لما تقدّم من سيرة ذلك الوالى، و إنما يقال أنه جعلت له حصص من المال و المصوغ جعلا- من الجالبين لماء زغوان و بائعى المصوغ ليكون العقد بتلك المقادير، و فى آخر مدّة الوالى المذكور لما رسخت قدمه حصل الأخذ للوزير من بعض العمال بدعوى أنه مع تشديد الوالى فى قبض أيديهم لا بد أن يسرقوا، و جعل السمسار رجلا يقال له خليفة السائس مشاركا لسعد بن عبيد مع التحذير من أن يظهر أدنى تشكك من الرعايا، و قد أدركت المضرات حذاق القطر حتى قال أحد العلماء قصيدة يستغيث بها القطب الصالح سيدى أحمد التجانى رضى اللّه عنه لما دهى القطر من تلك الأعمال مطلعها:

كادت تنيط رجاءها بالياس‌مهج فغوثا يا أبا العباس

إلى أن قال:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۳۲ إنا إليك نبث ما قد نابنامن مكر ذى شر شديد الباس

درب على فعل القبائح قائم‌بالجور ناء عن مدى القسطاس

ثم قال:

نشبت مخالب كيده فى قطرناو بدت مضرته على أجناس

و مراده و اللّه يمحو رسمه‌إلحاقه بالأربع الأدراس

خفيت مدارك كيده فتحيرت‌فى غورها النبها من الأكياس

حار اللبيب و لم يفد تخمينه‌مع ضربه الأخماس فى الأسداس

ثم قال:

و استأصل الأموال من أربابهاو رماهم بالذل و الإفلاس

كل تراه و قد أمضى فؤاده‌يشكو القديم و للجديد يقاسى

إلى آخرها و هى طويلة، مع أن التباعد بين وظيفة المشتكى و المشتكى منه مما يؤيدان الشكوى عن غير أغراض شخصية و دليل صدقها الخارج، ثم لما استولى محمد الصادق باشا و كان الوزير يخشاه لما هو مشتهر عنه من الصلابة جد الوزير فى إتمام قوانين عهد الأمان سيما و اليد كانت فيها جائلة من قبل للإطمئنان على نفسه، بدليل ما جرى بعد، و أظهر ميله إليها لعموم العدل لكى يستعين بمحبى الإنصاف على إنفاذها فتممها و شرع فى العمل بها فى ۱۵ شوّال سنة ۱۲۷۷ ه، و حلف الوالى على إنفاذها و عدم مخالفتها.

و كذلك سائر المتوظفين، و استغرقت جميع مداخل الحكومة فى المصاريف التى عظمت و كثر المتوظفون و الكتبة على ما تستدعيه القوانين و زيادة، و وفرت المرتبات على نحو غير معهود فى القطر حتى صار لذات الوزير خزنه دار من المرتبات ما بيانه فى السنة:

ريالات

۱۴۰،۰۰۰ مرتبه على الوزارة الكبرى

۰۶۰،۰۰۰ مرتبه على وزارة العمالة

۰۶۰،۰۰۰ مرتبه على وزارة الخارجية

۰۶۰،۰۰۰ مرتبه على وزارة المال

۰۶۰،۰۰۰ مرتبه على نيشان آل بيت الوالى الذى هو حامل له

۳۸۰،۰۰۰ الجمع

مع أنه يصرف مصاريف غير ذلك من أموال الحكومة كما تبين من الحسابات فى الحكومة، و جعل القائد نسيم لا يدفع لمن يطلب مالا من الحكومة إلا بإسقاط مقادير رابحة زيادة على الأرباح من شراء المهمات، و استغرق بمثل ذلك جميع مداخل الحكومة ثم جعل جميع المال المطلوب للمعاقدات المار ذكرها من ماء زغوان و غيره دينا بالربا و استقرض له

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۳۳

مبلغا بالربا من أوروبا قدره نحو تسعة عشر مليونا فرنكا حسبما هو محرر بالتقرير المصحح بخطه و خط المجلس الأكبر، و قد برح إذ ذاك الخفا و بان لعقلاء رجال الحكومة سوء تصرفاته فكان أعظم المضادين له من كان أكثرهم قربا إليه، و ألحوا عليه فى الكف عن تلك السيرة فصار لهم بالمرصاد و صار يشينهم عند الوالى و يقدح فيهم ضد ما كان يقول فيهم لأنه علم حالة الوالى و انقياده إليه، و رام نقض القانون أو إبقائه صورة لأن مقصد الأمن على خصوص ذاته قد حصل بجريان الوالى على رأيه و إبعاده كل أحد عنه إلا الخدمة لخدمة ذاته، و اشتدت المشاحنة بينه و بين الوزير خير الدين إلى أن استعفى من وظائفه ثم تبعه الوزير حسين و الوزير مصطفى أغه و الوزير رستم، و خلا الجو لخزنه دار و أخذت السيرة فى طور آخر جديد و رام أن يضاعف أداء الجباية على الأهالى و يصيرها إثنين و سبعين ريالا- على الرأس عوضا عن الستة و الثلاثين ريالا التى أسسها محمد باشا و طلب موافقة المجلس الأكبر، فامتنعوا و استبد هو بإمضائها مع تحذير العقلاء له، فلم يلتفت إليهم مع أن الأهالى فى ثروة من أثر سيرة محمد باشا تقويهم على الدفاع عن أنفسهم مع ما استأنسوا به من تلك السيرة و سماعهم بأن العدل و الإنصاف قد شملهم بالقانون و أن لهم الكلام على حقوقهم، فامتنعوا قاطبة و أراد غصبهم على ذلك فثار القطر كله ثورة واحدة لم تعهد من قبل على غاية من الرياضة و الأمن بحيث لم يتعرضوا بالأذية لأحد مع أمن السبل و كثرة الغادى و الرائح و ضبط كل جهة ببعض أهلها لردع السفهاء و حفظ الراحة و الأمن، و كان متولى أكبر الجهة الغربية و الملتف عليه أكثر قبائل الأعراب رجلا يسمى على بن غذاهم و ذلك سنة (۱۲۸۰ ه).

و لا- زالت هذه الثورة تسمى ثورة ابن غذاهم و كاتب الجهات بأنا أخوان و مطلبنا واحد و ليس المراد منه الإفساد فالواجب حفظ الأمن و الراحة و تأمين السبل و لا نتعرّض لأحد بشيء سوى اتباع الحكومة، فإذا أرادوا و غصبنا على الظلم ندافع عن أنفسنا، و أنذرت القبائل عمالهم الذين كانوا بين أظهرهم فمن أراد منهم التوجه إلى الحاضرة أوصلوه بأمان و من أراد الإقامة منكفا عن التداخل فى أمرهم أبقوه بأمان، و لما توجه أمير الأمراء فرحات إلى الكاف لإجبار قبائل ماجر على ذلك الأداء، تعرّضوا له و قتلوه فشدد النكير

عليهم على ابن غذاهم و قال لهم: أصل اتفاقنا إنما هو على الدفاع عن أنفسنا و ما ضركم قدوم الرجل إلا إذا حاربكم فدافعوا عن أنفسكم، و كاتب المذكور رئيس الفتيا العلامة الشيخ أحمد بن حسين و طلب منه التوسط فى الصلح مع الحكومة، و حاصل مطالب الجميع إبطال الأداء الجديد و عزل الوزير مصطفى خزنه دار و محاسبته، فامتنع الوالى أولا من جميع مطالبهم و اشتد الكرب على الحكومة حتى لم يبق أمر الوالى نافذا إلا فى الحاضرة و نحو إثنى عشر ميلا حولها، و اشتد الخوف فى الحاضرة و قدمت أساطيل الدول و أسطول الدولة العثمانية و فيه رسول سياسى أنزل فى قصر المملكة بالحاضرة، و تداخلت نواب الدول فى النازلة و فى قبائل القطر و بلدانه كل بما يوافق سياسته، و كان من جملة إلحاح قنسل الفرانسيس

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۳۴

على الوالى لإرجاع الراحة عزل الوزير خزنه دار لكنه خاطبه بذلك شفاها كما هو مشهور فى البلاد، و رأيته بخط الوزير ابن أبى الضياف.

و أصر الوالى على الإمتناع إلى أن أحضر الوالى معسكرا قليلا وجهه تحت رياسة إسماعيل السنى لميل الأعراب له لصدقه، ثم خلفه الوزير رستم عند مرض الأول و وقع الإتفاق مع جمهورهم على إعطاء الوالى الأمان إلى الجميع و إسقاط الأداء المطلوب و عفا اللّه عما سلف، و كتب الوالى بذلك أوامره و باشر بإعطاء الأمن كل من وفد عليه من الرؤساء و انتهز الوزير الفرصة لإبطال القوانين، بدعوى أن الثورة قامت لطلب إبطالها و ما سمع ذلك من أحد لأن أصولها لا تنافى الشريعة و غاية ما تكلمت فيه الناس هو فروع منها، و ذلك أنهم أنكروا كون قوانين الأحكام الشخصية لم تكن شرعية فى كثير من المسائل و نسبها الجهلاء إلى أنها كلها مخالفة للشرع لجهلهم و لرؤيتهم هيئة الحكم على خلاف ما تعودوه فى هيئة الأحكام الشرعية، و للتصريح بقصر الأحكام الشرعية على أبواب خاصة دينية، و لعدم إدخال الحكام الشرعيين فى الحكم بالقوانين، و لأن بعض من أدخل فى الحكام لا جدارة له بها حتى خرج عن طوره بما لم تتحمله أنفس المعاصرين، و لأنه أجريت القوانين دفعة واحدة فى جميع الأنحاء حتى فى القبائل التى لم يوجد أن يوظف فيها من يعرف القراءة و الكتابة التى هى ضرورية فى المتوظف، و صاروا يخبطون خبط عشواء، و كذلك ملّ الأهالى من التطويل الزائد فى الأحكام على ما هو عادة الأشياء فى مبدئها، فهو فى الحقيقة إرادة لإصلاح نفس القوانين لا كره ذاتها بدليل أن المجلس الأكبر لم يتعرّض له أحد من العامة و الخاصة بالقدح فيه إلا بعدم اشتماله على أفراد من جهة المملكة حذاق لكى يعرفوا بما يليق بأحوال أطراف القطر، و الحال أن المجلس الأكبر هو روح القوانين لمحافظته على أساسها، لكن الذى لم يكن له قصد سوى الأمن على نفسه و قد وجد الوالى لا يخشى منه، أشاع هو و من كان على شاكلته أن الناس يطلبون إبطال القانون و قد اعتمدت تلك الإشاعة و أبطل القانون، و الدليل على أن الناس لم يطلبوا ذلك المكاتيب التى أرسلها قنسل الإنكليز تسجيلا على إبطال المجالس و مفهومها قاض بموافقته قنسل فرنسا على ذلك، و إن كان سر الأمر هو الإغراء من قنسل فرنسا بإبطالها، لما ذكر فى سياسة فرنسا بتونس.

و نص تعريب مكتوب قنسل الإنكليز الأول فى فبراير سنة (۱۸۶۴ م ۱۲۸۰ ه):

«المعروض على جنابكم الرفيع، أنى [أرى] من الواجب علىّ أن نذكر جنابكم فى هذا الوقت الذى أحواله الزمت جنابكم الرفيع توقيف تراتيب الحنان المؤسسة على الحرية فى بلادكم، فإن هاته التراتيب وقعت الوصاية فى شأنها و كان ترتيبها بملاحظة الدولتين الحبيبتين الإنكليزية و الفرنساوية و جنابكم، و عدهما إذ ذاك رسميا بإتمامها و إبقائها على جميع قوتها و عدم تغييرها، و وكيل الدولة الإمبراطورية الفرنساوية ورد له الإذن من دولته كما ورد لى الإذن من دولتى لأنهما على اتفاق واحد فى النازلة و فى الحث على طلب

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۳۵

ترتيب المجالس المختلطة بسرعة لفصل نوازل الجنايات و النوازل المتجرية لما يلزم من الوقت لعمل القانون المتجرى، و لما كان الإذن المذكور الصادر لنا من دولنا الذى تشرفت بعرضه على جنابكم بمكتوبى المؤرخ فى (۱۷) اشتنبر سنة (۱۸۵۷)، و هو نظير

المكتوب الذى خاطبكم به موسيو روش نصا سواء، و لم تزل المكاتيب موجودة يجب أن تكون سير نواب الدولتين فى هذه المملكة على مقتضاها، و لهذا يجب أن نطلب من جنابكم بشدة حرص أمرا زائدا على إبقاء المجالس و هو المبادرة إلى المجالس المختلطة الموعود بها منذ زمان طويل، و بمقتضى ما تقدم من الإذن طلبت مشاركة قنسل جنرال دولة فرنسا فى هذا المطلب كما يطلع جنابكم على نسخة مكتوبى إليه، و هو موسيودين بوفال هذا و زيادة على الوعد الرسمى الذى أعطاه جنابكم إلى ملكى إنكلاتيره و فرنسا بحفظكم التراتيب المبنية على الحنان و التمدن التى أعطاها جنابكم لبلاده، لا يخفى عليكم أن دولة إنكلاتيره عقدت مع دولتكم شروطا تقتضى دوام التراتيب المذكورة لأنها هى الحافظة لحقوق رعايا إنكلاتيره فى هذه الملكة، و مع وجود ذلك فتبديل تراتيب الحكومة الآن و الرجوع إلى الكيفية القديمة بدون سبقية إعلام للدولتين الإنكليزية و الفرنساوية بمقصود جنابكم يظهر منه فى السياسة أنه فعل يدل على نقصان الإعتبار، و لا شك فى عدم وقوع ذلك من جنابكم مع دولتين حبيبتين، و أيضا يظهر منه أنه غير صواب مع الدولة الإنكليزية التى فى شروطها الأخيرة صدقت أمان الحكومة التونسية و محبة الدولتين إلى جنابكم توجب علىّ عدم الزيادة فى المشاق الموجودة فى حكومتكم بمطالب تشق فى هذا الوقت، و لكن واجبات خدمتى تلزمنى أن أطلب منكم رسميا دوام الأصول المؤسسة عليها إدارة الحكومة، و خصوصا أنى أترك لجنابكم انتخاب الكيفية التى تظهر لجنابكم أنها لائقة و مناسبة لإجراء تلك الأصول و الجنوس المتقدمة فى التمدن، ربما لزمهم فى أزمان متعددة بدون أن يتعرّضوا للأصول المؤسسة عليها قوانينها تبديل كيفية العمل بها و هذا الباب مفتوح لتونس اقتداء بالدول الأوروباوية الذين لا شك فى فطنتهم و حكمتهم، و هذا الأمر يظهر لى أنه سهل حيث أن التشكى الواقع من زيادة الأداء و من تطويل المجالس فى الحكم يمكن دواؤه بما تتهنى به البلاد و ترجع إلى حالها الأصلى، و هذا أعظم دليل على حسن خلق الرعية المستنتجة من هذه التراتيب لأنه لم يوجد فى تواريخ تونس مثل سيرة القبائل فى هذا الزمن لما لهم من الشكايات و هم متسلحون على عاداتهم السابقة فى سالف الزمن، لكن لم يتعرضوا بسلاحهم إلا للإحتماء من أداء ثقيل فوق طاقتهم» اه.

ثم كاتب الوالى أيضا بما نص تعريبه فى مايه سنة ۱۸۶۴ الواضع إسمه أسفله يتشرف بتقرير ما يأتى: و هو أنى لما اعتبرت شأن الحال الغير المترقب الذى عرض لحكومة تونس، رأيت من مقتضى الوداد أن لا أعطل سير عملها بما لا يقتضيه الحال، و مع ذلك حيث لم يبلغنى إعلام رسمى منكم بشرح كيفية مقدار التوقف الوقتى الذى وقع فى قيود العمالة علاجا لأمرها، فقد وجب على الواضع إسمه أن يطلب التعريف فى ذلك، كما أنه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۳۶

يجب عليه المحافظة بمقتضى هذا المكتوب على إبقاء ما حصل لدولة بريطانيا العظمى من الحقوق التى لا نزاع فيها بمقتضى شروطها مع على جناب الباى، محافظة متعلقة بما يمسها بمقتضى التوقيف الوقتى المذكور، فالواضع إسمه يقرر للجناب أن تلك الحقوق معتمدها الاعتماد العمومى و قد لزم شرح الأسباب المبنى عليها تقريره، و هو أن المرحوم سيدى محمد باى و الجناب العلى أدام اللّه عزه لما أصدرا عهد الأمان فهما و وزراؤهما و المفتون و القضاة و جميع علماء الشريعة الشريفة حلفوا يمينا و أكدوا يمينهم باستدعاء حضرة وكلاء الدول الأجانب بأنهم يحافظون على الوفاء بعهد الأمان بجميع شروطه، و أبانوا أن عهد الأمان جزء من شروط الشريعة الشريفة و العلماء الكرام المذكورون و رجال الدولة أشهدوا اللّه على صدق نيتهم فى إبقائها على الدوام و الإستمرار من يوم صدورها فصاعدا، و أن دولة بريطانيا العظمى اعتمدت على الوفاء و الاعتقاد الذى لا يمكن منه فسخ لعهد الأمان بمقتضى هذه الأيمان، و عقدت مع علىّ جناب الباى اتفاقا متعلقا بأمور منصوصة فيه، فينتج من ذلك أن الحقوق المسلمة لرعية الإنكليز و لوازمها التابعة لتلك الحقوق بمقتضى الإتفاق المذكور معتمدها هو عهد الأمان و القوانين الناشئة منه و بذلك صار حقا من حقوق الدولة الإنكليزية يقتضى أن تطلع بسبب ذلك على حقيقة الحال فى شأن عهد الأمان هل هو عامل بجميع شروطه أم لا؟ و كذلك توقيف القوانين الناشئة منه هل هى معالجة وقتية؟ ثم هل الحكومة التونسية مرادها أن تجرى فى المستقبل الأصول المقررة به على صورة مناسبة لحفظ

مکاسب الإنکلیز فی العمالة التونسیة و تأمینها؟ و الواضع إسمه یطلب بحرص و اجتهاد لا ینافی الأدب و التواضع جوابا شافیا شارحا للإستفهامات المذکورة، لیخبر بها دولة ملکته المعظمة، و کذلک أن الواضع إسمه یبقی و یتحفظ علی لسان دولته فی حقها علی جمیع الحقوق و لوازمها و الکفالات التی أعطیت لرعایا الإنکلیز بمقتضی ما هی مبینة بالإتفاق المذکور، و یقرر أیضا أن ذلک الإتفاق إتفاق عمومی لا یخالف فیه من الجانبین». اه.

و أعاد الکتابة فی یولیه الموافق لأواخر صفر سنة (۱۲۸۱ ه) و نص تعریب المکتوب:

«الواضع إسمه أسفله نائب و قنصل جنرال حضرة المعظمة ملکة بریطانیا العظمی قد تشرف بمخاطبة الجناب العلی بمکتوب مؤرخ فی مایه سنة (۱۸۶۴) طالبا منه الشرح فی شأن التوقیف الوقتی، الذی وقع فی رسوم العمالة بسبب أمر غیر متوقع و قد أبقی و حافظ علی لسان دولته فی حقها علی الحقوق التی یستحیل النزاع فیها، الحاصلة لدولة المعظمة الملکة بموجب اتفاقها المعقود مع علی جناب الباب بمقتضی عهد الأمان و القوانین الناشئة منه، و توقیفها یمس الحقوق المذکورة، و أن الواضع إسمه لا یمکن أن لا یحصل له فی النازلة شیء من الفکر لأنه یری أنه مضی شهران و نصف و لم یتشرف من الحضرة برد الجواب عن مکتوبه، و لمراعاة الحکومة التونسیة لم تقع معارضة غیر ضروریة فی سبیل إطلاق عملها و إنما الواضع إسمه أتاه الإذن بعد ذلک فی تقویة عهد الأمان بسند، مع أن دولة المعظمة الملکة لها اعتماد بأن عهد الأمان لما کان مبنیا علی شروط الشریعة الشریفة لا یمکن نقضه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۳۷

إلا بنقض نفس الشریعة، و لم تتخیل و لا یخطر ببالها بوجه من الوجوه أن السادة الأجلاء المفتیین و المدرسین للشریعة الذین حلفوا یمینا علی إبقاء عهد الأمان أن یرضوا بأن یشیع فی العالم ما لا یناسبهم من وقوع الشک فی وفائهم بما عاهدوا علیه، و مع ذلک دولة المعظمة الملکة تری فی الأمور المتعلقة باتفاق عمومی بینها و بین الحکومة التونسیة أعظم اعتمادها دون الإعتقاد العمومی و هو صدق الباب و محبته فی إجراء العمل کما یجب بمقتضی الإتفاق المذکور، فلذلک الواضع إسمه یرجو أن علی جناب الباب یتفضل بالجواب عن الأسئلة المبینة فی مکتوبه المؤرخ فی مایه و ذلک لإعلام دولته بجواب مقنع.

فأجابه الوالی فی ذلک التاریخ، بأن عهد الأمان باق علی قوته و مفهومه، فلو کانت الأهالی طلبوا إبطال القانون لما استطاع القنسل أن یسجل ضدا للرأی العام فیما یرجع إلیهم، علی أنه قد صرح رسمیا بما هو مطلوبهم کما هو بین لمن تدبر عبارة مکتوبه، و کذلک ما نسب إلی قنسل الفرنسیس و لو کان امتناع الأهالی من القوانین موجودا لکان للوالی أعظم حجة فی التعلل بدلیل أنه یحتج به فی خلواته علی من لا یقدر علی معارضته، و من وقتئذ تسلطت أیدی العدوان علی الأهالی بسلب الأموال و القتل و الضرب بالسیاط المؤدی إلی القتل، لأن الوزیر اشتد حنقه علیهم حتی دخل علیه أحد الأعیان یوما و هو یقول: «طلبوا دمی فلا أرضی إلا بدمائهم، طلبوا مالی فلا أرضی إلا بأموالهم». و لعل مراده بطلب دمه هو طلب عزله و قد اعتادوا فی بعض الوزراء السابقین قتلهم فظن أن العزل یؤدی للقتل و إلا فنفس قتله لم یطلبه أحد أما المال فنعم قد طلبوا حسابه و أول باکورة بعد إبطال القوانین افتتح بها لأهل الحاضرة مع أنهم هم وحدهم الذین بقوا خاضعین للحکومة إلا أنه کثر بینهم الکلام فی إنصاف مطلب الأهالی فجلد أحد أعیانهم المسمی محمد بن مصطفی عجم الشهیر فیهم بالوجاهة بمجرد تهمته أنه أغری بعض غلمان القصر الأمیری بالهروب، فجلد خمسمائة سوط مؤلمة بحضور أحد خواص الوالی لإتقانها و إکمال عددها و سجن مع الأعمال الشاقة فی الکراکه، و منهم محمود بن سالم أحد الأعیان من التجار و أحد أعضاء مجلسهم، ادعی الوزیر أنه اشتکی به إلیه من جماعة المجلس و سجنه. و من أغرب الأمور أنه لما لاذ أهل المسجون بالوزیر طالبین تسریحه أو بیان ما هو مطلوب فیه أرسل إلی جماعته یسألهم ما هی شکواکم التی سجنا بها الرجل فأجابوه أن جنابه أعلم بها منهم لأنه اعتمدها حتی عاقب الرجل بالسجن، کما حصل لرجال الحکومة أشیاء فمنها:

أنه حجر علی الوزیر إسماعیل السنی الذی اعتمد فی حل عقدة الثورة، و علی أمیر الأمراء رشید الذی سافر بالعساکر إلی الأستانة فی حرب القریم، و أمیر اللواء الشریف السید حسن المقرون الذی له الید البیضاء فی حفظ الراحة فی الثورة فی الحاضرة و حسین وردیان

باشا و خسرف و على جهان و يونس الجزيرى أمير لوا و حسن المدلجى أمير ألاى و السيد محمد المقرون و محمد بن الحاج رئيس عساكر زواوة الذى جمعهم له عند عدم وجود غيرهم فى الثورة و أعانه بما استطاع، فحجر على جميع هؤلاء فى الخروج من بيوتهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۳۸

و خلطة الناس لأنه كان يوجس منهم الإعتراض على التصرفات، ثم قتل الأولين فى بضع دقائق من غير سماعهم لدعوى و لا حجة و لا استشارة و ارتجت البلاد لذلك و شنعت القناسل سيما الفرنساوى و الإنكليزى و سجلوا تسجيلا شديدا فكاتب الأول أى الفرنساوى إلى الوالى بما نص تعريبه:

إنى أتمم خدمتى التى ساءنى إتمامها و هى إعلام دولة الإمبراطور بالحادث الموجع الذى لوث قصر باردو بالدم، فإن الفريق رشيد وزير الحرب كان رئيس العساكر التونسية فى حرب القريم و الفريق إسماعيل السنى صهر جنابكم وقع قتلهما فى القصر بمجرد تهمة لم يقع إعلامهما ممن صدرت و من غير أدنى وجه من أوجه الحكم، فلم يتيسر لى السكوت فى مثل هذا الأمر و كان همى أن أقرر لجنابكم التأثير الذى لا بد أن يقع من ذلك و فى سيرتى هذه سبقت إذن جناب دولتى التى استحسنت فعلى المذكور استحسانا تاما، و إن كنت مأذونا بإعلام دولة جنابكم و إعلام حضرتكم العلية نفسها بالتأثير الذى وقع لجناب دولة الإمبراطور من قتل الشخصين المذكورين، و لم تتوقف دولة جنابكم فى تحملها تلك المسؤولية العظيمة، كما أنى مأذون أيضا بأن أقرر لجنابكم التشويش الواقع من مشاق هذه الأحوال التى لم تزل تعظم من سائر جهاتها» انتهى.

و كتب الثانى أى الإنكليزى للوالى أيضا بما نص تعريبه: «أن الملحوظات الشفاهية التى تسامح الواضع إسمه أسفل هذا المكتوب فى عرضها على جنابكم فيما يتعلق بالأمور الموجعة التى وقعت بقصر باردو فى شهر التاريخ لا بد أنها أفادت جنابكم بأنها صادرة من التأثير القوى الذى عندى فى شأن همة جنابكم و مصالحكم، و فى شأن التأثير الموجع الذى سيقع بإنكلتره من ذلك و دولتى لا توافقنى إذا ادعيت التداخل فى تصرفات الدولة الداخلية التى يظهر لجنابكم استعمالها لحفظ الراحة العامة من مقاصد بعض الأشرار، و بعد الشرح و التفصيل الذى تفضل به جنابكم علىّ لا يبقى لى شك فى وجود حجج كافية أظهرت لجنابكم توقع مقاصد موجهة نحو ذاتكم العلية لإتلافها فى قصركم نفسه، و لا شك بناء على كونكم كبير الدولة أن يكون لكم الحق فى استعمال سائر الطرق اللازمة لحل تلك العقدة التى مؤداها إتلاف ذاتكم العلية و خراب المملكة، و لكن بسبب كون جنابكم هو شخص الدولة المرتسمة شرعا فمصلحتكم تقتضى ضرورة أنكم لا تسعوا إلا بإسم الشرائع و على مقتضاها فإنها أحسن ضمانة لكم و لا يبعد عنها إلا المتعدى عليها بفساده، و بعد أن راضت نفس جنابكم و تأملتم فى الأحوال لا شك أنكم تحققتم أن الخطر الحال الذى كان فيه جنابكم لم يكن حجة كافية فى قتل فريقين من دولتكم لأن فى تباعدكم عن طريقة سيرتكم المعتادة بعدا عن القواعد السالمة المرتسمة فى القوانين التى منحتم بها بلادكم، و هى و إن توقفت بالضروب الموجعة الخارقة للعادة فإنها لم تزل موجودة، مع أن دولتكم مطلوبة بالشروط المنعقدة بينها و بين بريطانيا العظمى و جنابكم معترف بهذه الحقائق غاية الإعتراف لأنكم لم تتوقفوا فى إقراركم الرسمى بأنكم تحترمون القواعد المذكورة و ذلك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۳۹

بمكتوبكم لمسيو أوود المؤرخ فى (۱۸) أغسطس و لسنا نناظر عن مدة توقيف القوانين.

و قد حصل لى سرور لما حقق لى جنابكم بأنه لا يقع فى المستقبل مثل هذه الأمور الموجعة التى وقعت، و أعيد القول لجنابكم أنى لا أتداخل فى البحث عن جرم الجناية التى يمكن أن الشخصين المذكورين ارتكباها لأن إنسانية جنابكم التى كثير من أدلتها كافل لى بأن جنابكم كان متحققا بأنهما قتلا على حق و مع هذا التحقق كنا نود أن كيفية الحكم تكون على الصورة التى تقتضيها القوانين دفعا لما عسى أن يتهمكم به أعداؤكم، فإن جنايتهما لم تثبت و لا يوجد شك فى مساعدة أن القوانين هى أقوى الضمانات التى تستند إليها الملوك كأفراد الناس، و قد رأينا فى كل وقت أن كل من بعد عنها ليستعمل القوة المادية فى تصرفه يكون سببا لأعدائه فى أن

يفعلوا معه كذلك مقتفين آثاره، و أرغب من فضلكم المسامحة فى هذه الملحوظات فإنها لم تقصد الأمور و الأحوال التى فاتت لسوء البخت، و لا يتيسر لأحد إصلاحها، و إنما المقصود بها الطلب من فضل جنابكم أن تتذكروا أن بلادكم لم تبعد كثيرا عن أوروبا، و أنها إذا لم تتقدم مع تقدم العصر فإن قواعد التمدن المتداخلة فى كل مكان تعمها و لا يتيسر التصرف الآن كما كان فى زمن الجدود، لأن كل عصر له أحكامه و أحكام هذا العصر لا تقتضى أن الحكم الذى سيقع على الأسرى الذين لم يزالوا فى العسكر أن الأمير يتصرف فيهم بما عنده من القدرة، و يرى أن الحق له فى التأمل بذاته فى نازلة شخصية بل يلزم توفية حق المتهمين لدى مجلس و أنه يسمع مقالهم و يخاصمون على أنفسهم و يبرؤون أنفسهم من التهمة الموجهة عليهم، فإذا أثبتت جنايتهم فالقانون يحكم و بهذه الكيفية تستحفظون على همتكم و لا تأخذون من القانون إلا الرفيع العالى فى حق الملك و هو العفو عن المحكوم عليه» انتهى.

ثم جمع الوالى جميع رجال الحكومة و أخبرهم و أبلى فى ذلك اليوم الوزير خير الدين البلاء الحسن بقوله القرائن التى ذكرت لا تثير لوثا فضلا عن القتل، ثم على فرض صحة التهمة فبعد إيقافهما كان الواجب إقامة الدعوى عليهما و سماع جوابهما عليها إلى غير ذلك من الأعمال الواجبة، و غاية الحجة فى قتل الشهيدين هى التهمة بإعانة أخ الوالى محمد العادل باى على الهروب مع أنه لم يذكر فى معرض الإحسان معه إلا رشيدا و لم يعرج على إسماعيل بشىء، و رشيد نفسه لم يسمع الدعوى و لا قامت عليه حجة و أدمج فى أثر ذلك نفى جميع من تقدم ذكره، و كان فى أثناء ذلك الوزير حسين خارج المملكة لما توقع من عظم كربها بعد تسليمه فى جميع وظائفه فنجا مما لحق غيره، و لحق به الوزير رستم فلم يبق من يعترض على التصرفات من رجال الحكومة.

و أما أهالى بقية القطر فقد أحيى فيهم ما دثر خبره و نسى ذكره من تسليط الحزب الحسينى على الحزب الباشى إلى أن خضدت شوكته و لصق بالأرض، ثم كر على هذا الحزب أيضا و لحق بصاحبه فعاثت أيدى الأول بأهل الساحل و قتلوا النساء و الصبيان مع

معسكر الوزير أحمد زروق الموصى بالنكال و أحدث فيهم ما تقشعر من سماعه الجلود من قتل أربعة من رؤوس الساحل حكما هناك، و لما أتى أهل المجلس الشرعى بالمستير لرئيس المعسكر أحمد زروق قابلهم بعسف و أحكم الأغلال و القيود فى أعناقهم و أرجلهم و أمر بإزالة عمامة رئيس المفتين بلفظ مستهجن، و عامل وفد صفاقس بما يقرب من ذلك و سجن القاضى و حكم أيدى النهب فى الجميع، و قد رأيت بخط الوزير الكاتب لأسرار الولاية فى معرض ما حصل من أحمد زروق ما نصه:

و بالجملة فجميع ما ينسب فى هذه الوجهة لأحمد زروق إنما هى نسبة تنفيذ لأنه مقيد التصرف بما يرد إليه فى الأمر فى كل نازلة الخ، مما يصدق نسبة ما ذكرناه إلى صاحب التصرف و إن كان أحمد زروق تفاخر بما صنع حتى رآه بعض رجال الحكومة الكبار داخلا إلى جامع الزيتونة و هو لابس لنعله، و قد جرى العمل باحترام الجوامع بعدم دخولها بالنعال فقال له فى ذلك، فأجابه بمرأى من الناس و مسمع بقوله: لولاى لربطت فى هذا الجامع خيل أهل الساحل، مع أن أهل الساحل معلوم إسلامهم و على فرض منعه المسجد من ذلك لا يسوغ له ذلك جواز إهانته، و هذا الرجل أعنى أحمد زروق لم يزل مقربا عند الوزير خزنه دار إلى أن انفصل عن التصرف، و من تصرفاته فى تلك الوجهة أنه فلس الشيخ محمد الصويلح رئيس الفتوى بالإعراض و غرم أهالى تلك الجهات أموالا كثيرة أفنت الطارف و التالد و بقوا فى قيد ديونها المثقلة للأجانب إلى هذا الوقت بحيث يصح أن يقال أن جميع ما يمكن أن يباع قد بيع و ما لا يباع كالأوقاف و جميع ما تحصل من كسب أبدان أهل الساحل كله دفع للأجانب بسبب ديونهم، و لو أفردت نازلة الساحل وحدها بتأليف لجاء مستكملا زيادة على القتل و السجن مع الأعمال الشاقة و ضرب السياط الموجع أو القاتل، حتى أن الوزير خزنه دار المذكور لما رأى خروج الضرب عن حده فى السيد الشريف على ابن عمر من أهل مساكن مع من أتى معه إلى محل حكم الوالى أظهر الشفقة و أرسل إلى الأعوان و قال لهم: إن سيدنا أمر بضرب هؤلاء لا بقتلهم فإن للقتل آلات تخصه، و إنما أسند الأمر للوالى لأن ذلك هو دأبه كما تقدم من عدم مكافحته لأحد بما يوجع و يسند جميع الأعمال للولاة، و أما جهات القطر الآخر التى سافر إليها المعسكر تحت أمر الوزير رستم فلم يقع بها من المضرات ما وقع بالأولى لأنه اقتصر على مجرد قود الطاعة و استخلاص المال

الممكن للأهالى و عمل بالمثل القائل: «ولى أذن عن الفحشاء صماء عن الأوامر التى ترد عليه فى سلب اللحم و العظم» و من ذلك التاريخ حصل تغير الوزير خزنه دار عليه لما ذكر مع تعرضاته لتصرفات العمال على غير الوجه المعقول، و كذلك المعسكر الذى سافر تحت أمرة ولى عهد الولاية أمير الأمحال أبى الحسن على باى فقد اقتصر فيه على مثل ما ذكر و استعطف أخاه فى العفو عن كثير من رؤساء تلك الجهات، و أنكرت عليه تلك السيرة ممن يريد الخراب حتى أرسل معه إبراهيم بن عباس الرياحى قائد دريد و أمر أمير الأمحال باتباع إشارته و تنفيذ أمره لكى لا يجد الأمير سبيلا للإعتذار عن الناس مع ما

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۴۱

هم فيه من الفقر، و ضاق الخناق بسبب ذلك بين جذب و دفع لما فى طبع هذا الأمير من النفرة عن تلك السيرة و كان ذلك سببا للوشاية به لأخيه و اتهم مستشاره المقرب محمد الطاهر الزاوش بأذية الأهالى، و نسب إليه بعض ما صدر من إبراهيم بن عباس المذكور، و الحال أنى رأيت بخط كاتب أسرارهم الوزير أحمد بن أبى الضياف المذكور فى وصف المستشار المشار إليه ما نصه:

«و اعتمده باى المحلة فى الوساطة بينه و بين الناس و حمدت بذلك سيرته الخ»، و ذلك هو المعروف عند السكان فى الثناء على أعمال المستشار، و توصل الوزير خزنه دار بما تقدم إلى إبطال سفر الأمير المذكور بالمعسكر على عادة أسلافهم و استعوض عن ذلك بسفر أحمد زروق المذكور، ثم أن ما وقعه كل من الأمير على باى و الوزير رستم قد خرقته أيدى العمال و البعوث التى وجهها الوزير خزنه دار، و أتى بأعيان من قبائل الجهات الغربية و الشمالية يبلغون نحو المائتين و أغلبهم كان فى خدمة الطاعة و أبلوا فى قود الأهالى و إرجاعهم للسكون البلاء الحسن، و لا ذنب لهم إلا كسبهم، و أوقفوا فى صحن البرج من قصر الحكومة بباردو و خرج لهم الوالى و خاطبهم بأنه لو لا شفاعة الوزير لأمر بقتلهم، وليته لم يشفع لأنه أى القتل أهون الموتتين، ثم حكم عليهم بالجلد بالعصا. و رأيت بخط الوزير الكاتب المذكور فى قصة هؤلاء الرهط الذين منهم الشيخ الهرم المنسوب إلى الصلاح الحاج مبارك صاحب زاوية تاله ما نصه:

«فتقدمت مردة العذاب إلى ما كرم اللّه من أبدان بنى آدم يكبون الواحد على وجهه و يسحبونه على الأرض موثوق اليدين و الرجلين، و دام الضرب فى أولئك المساكين يومين أو ثلاثة بمرأى و مسمع، و فى خلال أيام الضرب قدم ابن ملكة الإنكليز سائحا فلم يقع الضرب يوم قدومه خشية وقوع الشفاعة منه عند مشاهدته تلك الحالة اللظيعة الشنعاء، و لما تم الضرب بإعداده و إتقانه سجنوا بسلاسلهم و أغلالهم و مات منهم بسبب الضرب الذى لا تتحمله القوى الحيوانية على بن عباس شيخ تاله و خرجت روحه قبل كمال عدد الضرب فكملوا العدد بضرب شلوه و هو ميت، و مات بعد الضرب الحاج مبارك شيخ الطريقة بتاله المار ذكره و لم يسمع منه حالة الضرب إلا قوله يا ربى يا ربى إلى أن أغمى عليه، و الحاج صالح بن التليلى من بيوت الفراشيش و غيرهم، و عدد من مات بالضرب فى أقل من عشرة أيام ستة عشر رجلا». ا ه كلامه باختصار. و سجنت خلائق مع الأعمال الشاقة و منهم على ابن غذاهم بعد تأكيد الأمان إليه و قدومه مع ابن القطب الصالح سيدى أحمد التجانى رضى اللّه عنه و بقى فى حبس مظلم ندى إلى أن مات، و كذلك كثير ممن سجن و لا يمكن إحصاؤهم و فشا الخبر فى الآفاق و استفظعه من سمعه، حتى أن نابليون الثالث إمبراطور الفرانسيس أثر رجوعه من الجزائر لثورة وقعت فيها و مهدها بلطف و تحبب للأهالى بسعيه بنفسه، و كان ذلك فى أثناء الهرج بتونس خطب عند رجوعه و ذكر أسباب ثورتهم من جهلهم بما يراد منهم و عدم سلوك الطريقة المناسبة لوصولهم، و أثنى على عساكره ثم قال و بعد الحرب و إطفاء

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۴۲

الثورة لم يقع منا انتقام و لا شدة و لا ما ينقص فخر النصر الخ، و كأنّ الدولة الإسلامية لم يبلغها الحال الذى لم يزل شبهه إلى الآن مع نص الفرمان المخالف لذلك، و مع هذا التعذيب فى الأبدان فقد أتى على أموال الأهالى عن آخرها و لم يبق للبلدان و القرى و قبائل العرب شىء مما يسد العوز، و من كان له أدنى شىء من القوت كان يخفيه و يرسل نسوانه لالتقاط العشب و عروق الأشجار لقوتهم،

و لقد ذكر لى أحد يبتوتات دريد أنه كان يرسل نسوته اللائى لم يعهدن التطوف فى البرارى لجلب عروق الترفاس و ينشره على ظهر بيته ليراه أعوان العامل و يطبخ ليلا القمح فى الماء من غير طحن لكى لا يسمع الناس حس الرحا فيتهم بالمال، و ذكر لى أحد الثقات من التجار أنه كان يوما جالسا عند إبراهيم العامل المذكور و هو يوصى نائبه العازم على السفر إلى القبيلة و يحرضه على خلاص المال، فأجابه النائب بأنه يعمل غاية جهده بحيث يبيع كل ما يجد فمن وجد عنده نعجة باعها و من وجد عنده عنزا باعها و من و من إلى أن قال: و فى أقرب وقت نخلص مال الدولة و نرجع.

فحنق عليه إبراهيم و وبخه، و قال: إن مال الدولة لا يضيع و إنما القصد مال الوزير، فقال له: الحق معك، هو مقدم! و ذهب على ذلك العزم هذا كله بعد تأكيد الأمن الذى خدع الرعية بالكتابة و الكلام، فزيادة عن الظلم هو شين على الخائن، و قد ذكر الوزير حسين قبل خروجه من القطر الوالى بأمانه عند قدوم أهل الساحل طائعين فحنق عليه و أجابه بما يكره، مع وجوب الوفاء بالعهد عقلا و شرعا و ما كفى الناس ما هم عليه من الفقر المدقع أو المظالم التى لم تعهد، إذ دهمهم الجوع و القحط المتسببان عن حبس المطر لكثرة الظلم، و عن فناء الأموال التى تعمر بها الأرض فى الفلاحة و اشترك فى العسر حتى أهل الحاضرة لإتباع مكاسبهم لمكاسب بقية أهل القطر فاقبلت أفواج الأقوام تراهم من كل حدب ينسلون متوجهين إلى الحاضرة و المدن و ما وصل إليها لا القليل لفشو مرض الحمى الخبيثة فيهم، و كان مرضا مستوبيا أفنى خلائق لا تحصى و بقيت أكثر جثثهم فى الفلاة للوحوش بعد أن أفنت منهم الكوليرا عددا وافرا، فمن ساعده الأجل و وصل إلى الحاضرة مات منهم أكثرهم فى الطرقات، ثم ابتدر أفراد من أهل الحاضرة لإغاثة أولئك المساكين و عقدت لهم جمعية يرأسها المقدس سيدى حسين الشريف نعمه اللّه و أذن الوالى فى عقدها، و جعلوا يجمعون المال من الأهالى كل على حسب استطاعته على حالة ضعفهم الحالى الشديد التى كادت أن تلحق كثيرا منهم بأولئك الوافدين المساكين، و شمرت الجمعية عن ساعد الجد و خففت بعض الضر بالقوت و المسكن، و إن كان المرض تمكن منهم و صاروا إلى حالة ضعف لا توصف و فشا فيهم الموت إلى أن صاروا يرفعون خمسة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۴۳

فما دون فى نعش واحد رحمهم اللّه، و قد كنت كتبت لصديقى و هو غائب بوصف الحالة فى القطر عندما طلب منى أن أرسل إليه نسخة من ضرب مثل للحالة المذكورة فى القطر التونسى، و أصور ذلك بصورة واقعة تاريخية مما ينسب لرؤيا رآها بعض ملوك ألمانيا فى القرون المتوسطة، و نصها:

رأى بعض ملوك ألمانيا فى القرون المتوسطة من تاريخ المسيح عليه السلام رؤيا فهاله أمرها فبحث عن معبر يعبرها له- و هو عندهم المنجم لأن أصحاب التنجيم هم الذى كانوا يدعون معرفة علوم الحدثان- فحضر المعبر بين يديه و قال له الملك: إنى رأيت البارحة فى المنام ما هالنى أمره و لا يبعد شأنه عندى من منام فرعون فى مصر فى أيام يوسف الصديق عليه السلام، و ذلك أنى رأيت ثلاثة جرذان مجتمعة فانتبهت أولا قبل استكشاف حالها ثم نمت ثانية فرأيت جرذة من تلك الجرذان على غاية من العجب و الهزال بحيث أن سائر ضلوعها بادية و لا تستطيع الثبات على رجليها، و رأيت الجرذ الثانى على غاية من السمن يترعرع فى مشيه ترعرع القنفذ، ثم تأملت الجرذ الثالث فرأيته أعمى من كلتى عينيه، لا يبصر بها شيئا فانتبهت، ثم نمت الثالثة فرأيت الجرذان الثلاثة معا على تلك الحالة فالسمين يقود الأعمى و الأعمى يقود الهزيلة فانتبهت و هم يتقاودون فأفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون؟ فأجابه المعبر بقوله: سيدى إن رؤياك أشهر من أن تعبر و لكنها تكتب و تسطر، أما الجرذة الهزيلة فهى مملكتك و السمين هو وزيرك و الأعمى هو أنت أيها الملك يقودك وزيرك إلى ما فيه صلاح نفسه و تقود أنت رعيتك إلى ما فيه هلاكك و هلاكهم. انتهى.

و كتبت إلى صديقى فى ذيلها ما نصه: هذه حال رؤيا القرون المتوسطة أما رؤية حال القرون الأخيرة، فى هاته الحضيرة، مما دهاها من النفوس الشريرة، فهى سنو يوسف عليه السلام التى كانت تعبيرا لتلك الرؤيا، على ما فيها من البلاء، فلو رأيت ما عليه القرار، لملئت رعبا و لوليت منه الفرار، من ذئاب تغتال، و ثعالب تحتال، مجتهدة فى قلب الرحال، و تشتيت الرجال، و ثعبان شاغر فاه لابتلاع

الأموال، فيا لها من حال يرثى لها من رام النزل، و تخر لشدتها شامخات الجبال، افتضحت فيها ربات الحجال و هوت الإيالة إلى الزوال، و تمكن من القلوب الزلزال، و تقاربت الآجال و انقطعت الآمال، و عد الصلاح من المحال، فقد فاز من نهض بنفسه، و استراح من فتنة باطنه و حسه، إذ الآيات وردت على ذلك ناصة، فقال تعالى: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً [الأنفال: ۲۵]. ففاز المخففون، و ابتلى المتأهلون و و اللّه العظيم، و نبيه الكريم، طالما نهضت عزائمى إلى الترحال، فأثقلتنى قيود العيال، مع ما أنا عليه من الوحدة عن أخ شقيق، أو قريب يخلفنى فيهم عند الضيق و لم أستطع التخلص بكلى، لما يخفى مما يثقل كلى، و أقسم بالقرآن، و صفات الرحمن، أننى عرضت للبيع أملاكى، لأتخلص بها من إشراكى، و أستعين منها بالأثمان فلم أجد من يصرف لهذا الوجه عنان، و لو من أعيان الأعيان، فالناس حيارى فى الأقوات، تائهين فى جلب الضروريات، يكادون من القحط أن يأكلوا الحديد، و يقولون هل من مزيد. وَ تَرَى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۴۴

النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ [الحج: ۲] إلى غير ذلك من زفرات تتصعد، و جمرات تتوقد، و أنين بقوارع الطريق، و صياح على الأبواب و نعيق، و ضجيج بالأسواق، حتى تخالها قد التفت الساق بالساق، فلا تسأل عن القلوب، و ما دهاها من الخطوب، و قد فوضنا الأمر إلى علام الغيوب. اه.

و مع تلك الحالة فى الأهالى فغاية ما رحمهم به الوالى من الخزنة خمس عشرة ألف ريال و له العذر لأنه كثيرا ما باتت أتباعه، بل قيل عائلته طاوية إلى بعد نصف الليل حتى يرسل وزيره أحد أعوانه إلى حميدة بن عياد المكلف بمعمل الخبز، ليستقرض ما يمكن أن تتعشى به عائلة الوالى و الوزير غاية ما تكرم به على أولئك المساكين سبعة آلاف ريال، و إن كان سيدى حسن الشريف ألح عليه فى إعانة المصابين مرارا، فيعطيه من خزنة الحكومة، كما أنه فى هاته الشدة أبلى البلاء الحسن كثير من الأهالى و الأجانب سرا و علنا، و قاموا بكثيرين قوتا و كسوة و سكنا و دواء و أطباء جزى اللّه الجميع بفضله، و فى أثناء المدة هرب العادل باى أخو الوالى إلى جبل باجه حيث كان أهله إذ ذاك ثائرين بعد أن نسى مثل ذلك فى البيت الحسينى منذ نحو مائة سنة، و سبب ثورته الضيق الحالى الذى حصل له من تعطيل مرتبه و مثله سائر آل بيته، و إذ ذاك اضطروا لإعادة سفر ولى العهد بالمعسكر فأرجع أخاه و قاد الطاعة ثم أعيد ترك سفره، هذا و بينما كان القطر على هذا الحال فالأموال المستخلصة لم تكف و جعلت الحكومة تستقرض من أوروبا قرضا بعد قرض فأول استقراض كان خمسة و ثلاثين مليونا لاستهلاك الدين السابق الذى قدره تسعة عشر مليونا، و لم يزل باقيه لم يستخلص إلى أن تشكل الكومسيون الآتى بيانه.

و هكذا كل قرض يدعى فيه مثل ذلك و يبقى الأصل على ما كان و اشترى من تلك الديون بواخر حربية بأضعاف قيمتها بلغت أكثر من سبعة سفن منها فرقاطه سميت بالصادقية أصلها كرويت فزيدت فيه طبقة و صار شكلا مضحكا لأرباب ذلك الفن، و قد شاع عند الخاصة و العامة أن القصد من شراء تلك السفن و غيرها مقاسمة الأرباح من الوزير مع أصحابها ثم بما يستفاد من القرض و قد بيع بعض ذلك الأسطول بثمن مؤجل و اكترى بعضه بإصلاحه و ذلك عند عجز الحكومة عن القيام به بعد شرائه بنحو أربع سنين فأفلس المشترى و المكترى و ذهبت السفن و ثمنها المتجاوز خمسة عشر مليونا فرنكا سدى، مع أن أصل شرائها لا حاجة إليه سوى تحصيل الربح من ثمنها و الربح من الإستقراض لدفع الثمن، و شاهد مما وقع فى شراء مائة مدفع مسدسة بمليون فرنك فلما أرى السمسار صك الإتفاق الرسمى للبائع الذى باع تلك المدافع بثلاثمائة ألف فرنك تعجب البائع من فحش التباين بين الثمنين فأجابه السمسار بأن وزير تونس أراد أن يربح خمسمائة ألف فى هذا البيع و أنا لا نقدر على منعه و لست مكلفا بمصالح حكومة تونس فربحت أنا أيضا ما زاد على ذلك، هكذا فشا الخبر.

و لما قدم ضابط فرنساوى باستدعاء للتأمل فى سلامة تلك المدافع قومها بدون المائتين ألف فرنك لأنها غير سليمة و بقيت ملقاة على الأرض بلا فائدة، و بأمثال ذلك ربح

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۴۵

السماسرة فى الإستقراضات و فى الشراء ما صاروا به أغنياء، حتى أن أحد أهالى الشام المسمى برشيد الدحداح الذى انتقل إلى فرنسا و صار فرنساويا توسط بوسائل لأن يخدم فى حكومة تونس راضيا بمرتب قدره ثلاثة آلاف و خمسمائة فرنك أى ستة آلاف ريال فى السنة قد رجع إلى باريس بعد ثلاث سنين أو أقل و بنى بها قصرا بهيا شامخا و رأيته فى أعز حارات البلدة، و هى قرب شانزى لزى و أخبرنى أحد الثقات هناك أن تجارة الرجل التى يخوض فيها بكسبه الخاص نحو خمسة ملايين فرنك، حتى تصدق على إحدى معابد النصارى بستين [ألف فرنك] كل ذلك من تعاطيه السمسرة للوزير المذكور، و مثل ذلك القائد نسيم المار ذكره مع زيادة ربح ما يسقطه الطالبون من الحكومة لأنه يسوف أصحاب المرتبات و غيرهم ممن يطلب المال، حتى يسقط له مقدارا مما يطلبه و يصحح فى الحجة أنه قبضها كاملة، و تفاقم الأمر أواخر المدة إلى أن بلغ الإسقاط أحيانا إلى ثلاثة أرباع المطلوب و الوزير لا يقبل فيه الشكاية و لما خشى القائد نسيم فى أثناء الثورة العامة على نفسه سرحه الوزير إلى أوروبا من غير أن تعمل معه الحكومة حسابا، و مات فى بلد قرنه من إيطاليا و أرادت الحكومة التونسية بواسطة الكومسيون الآتى ذكره فصل مطالبها من ورثة المذكور بالتراضى من غير خصام و جنحوا هم أيضا إلى ذلك، و بينما العمل جار فى ذلك فإذا بالوزير خزنه دار جلب أعيان الورثة إلى بستانه و هم مومو شمامه و ناتان شمامه و يوسف شمامه و عرض على كل منهم كتابين:

أحدهما: يتضمن إعطاء خمسة فى المائة للوزير خزنه دار مما يصح لهم من الإرث.

و الثانى: يتضمن إبراء عاما للوزير المذكور مما عساه أن يطلب من جهة نسيم فامتنعوا من الإمضاء على ذلك و تخلصوا بطلب مهلة للتروى.

و هرب مومو إلى قنسلات فرنسا و يوسف و ناتان إلى قنسلات إيطاليا، و أرسلت الحكومة محمد البكوش مستشار الخارجية و المترجم الأول بها كونتى و القابض لياه شمامه إلى سؤال المذكورين عن سبب هروبهم فأجابوا بما ذكر من مطلب الوزير خزنه دار و كان ذلك بمحضر من القناسل و كتب التقارير فى ذلك موجودة بالوزارة و القنسلاتوا و لذلك سافر الورثة قبل فصل النازلة، و وجهت الحكومة لتحرير الحساب و الخصام معهم الوزير حسين و دامت الخصومة نحو تسع سنين و لا زالت إلى الآن منشورة، و لما تفاقمت الديون فى أوروبا و علموا أن الفائض يستقرض أضعافه كل مرة لأجل خلاصه امتنعوا من الأقراض، حتى جعلت رسل الوزير يرددون كل باب لذلك و لم يحصلوا على شىء حتى أن الياس مصلى المستشار الثانى بوزارة الخارجية ذهب لمثل ذلك و أخذ لمصاريفه تذاكر و سندات على المالية بإسم الحامل و طفق يبيع منها المائة بخمسة فرنكات، و ترتب على الحكومة بذلك أزيد من المليونين فرنكا لاجتناب أصحاب الأموال من ضياع أموالهم، فلذاك عدل الوزير إلى الإقتراض من الأجانب المقيمين بالحاضرة على أخذ كل منهم رهنا فى يده يتصرف فيه من مداخيل الحكومة و هى المسماة باستقراض الكونفرسيونات، و استعان فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۴۶

تصرفاته فيما يرجع إلى ذاته و لو من وظائف الحكومة بولده الأكبر و استغنى به عن السماسرة، و خالطه بل و اشتهر إنه شاركه فى استلزام بعض مداخيل الحكومة، و فى التجارة فى رقاع أموالها و رقاع الدول الأجنبية حاى الصباغ أحد تجار اليهود، كما داخله و قيل أنه شاركه فى معمل الخبز و قبض أعشار الحبوب و صرفها و غير ذلك من موارد مصاريف الحكومة أميرا للوا حميدة بن عياد، و ولاه على عمل ابن زرت و أطلق له التصرف بعد أن كان الوالى و أخوه من قبله يتجنبونه فى الولاية لما استقر فى النفوس من مظالم محمود بن عياد و أغلب عائلته، و لأن حميدة المذكور محتم بالإنكليز فلا تناله الأحكام و مع ذلك فإن حميدة المذكور لم يضر بالرعية و فيه جهة للرفق، و أعان أهالى ابن زرت على مساعيهم بإقراضهم المال و الحبوب و لم يجحف بدافعى الأعشار و لا بقابض الحبوب، و عامل أهل العلم معاملة حسنة و اقتصر فى الأرباح الوافرة على ما يربحه من الحكومة مثل الربح من معمل الخبز فإنه تبين بمقتضى الحساب الذى جعله الكومسيون أى اللجنة المالية فى السنين التالية بعد خروج المعمل من يد المذكور أن أرباحه كانت تقرب من

الخمسين فى المائة، ثم لما رأى الوزير عسر خلاص أموال الحكومة لفقر الأهالى و تكاثر الطلب من الأجانب لأموالهم نقل وزارة المال بالإسم إلى الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتورباش كاتب لكى يتحمل المصاعب و يبقى متحملا للقضاء بلا كره و لا رضا، و الأموال يرسل إليها ابن الوزير أعوانه ليخلصها من العمال بأسماء مختلفة.

منها: شراء مطالب من له مطلب على الحكومة مالى سواء كان من الطوارىء أو المرتبات.

و منها: إخراج تذاكر بأعداد من المال يؤمر فيها وزير المال بدفع ذلك القدر إلى محمد بن الوزير فى مصالح على يده من غير بيان، و كانت ترد تلك التذاكر مكتتبة إلى وزير المال ليصحح على جريدتها لترسل لإمضاء الوالى، فلم يكن فى وسعه إلا الإمضاء من غير أن يعلم شيئا من تلك المصاريف، و ذلك معلوم عند الجميع و لذلك لم يعرج على طلب وزير المال بشىء الكومسيون المالى، على أن ما يمكن أن يرسله العمال إلى الحكومة ليسكت به الأجانب أصحاب الديون كانت تتخطفه أعوان الوزير خزنه دار من الطرقات، حتى وقعت خصومات شديدة من الأجانب فى مثل ذلك، و لما كثر القيل و القال من الأجانب فى خراب القطر و وقوف حاله و أنه تلزم مساعدة الحكومة للأهالى لرجوع شىء من رمقه، كان الوزير خزنة دار يقول لخواصه: عجبا لهؤلاء القوم أفأنا المطلوب بإبطال العرب للفلاحة، أليسوا بعارفين بكيفية الحرث و الأرض موجودة فما منعهم عن ذلك، كأنه لا يعلم السبب لكنه أراد إسكات الأجانب فأعطى إلى الكنت صانس الفرنساوى أربعمائة ماشية أرضا أى نحو أربعين ألف و ستمائة هكتار بحساب كل ماشية مائة و إثنان و تسعون حبلا- و الحبل خمسون ذراعا، و يكون إعطاء المواشى مدرجة على أربعة أقساط و من شرطها أن تكون قابلة للزرع و السقى و أن تعفى من جميع الآداءات التى بواسطة و التى بدون واسطة فى جميع ما ينبت فيها و ما يربى من الحيوانات و نتائجها، و لزم بسبب ذلك الحكومة مشاق سيرد تفصيل بعضها.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۴۷

كما منح لجنة إنكليزية إحداث طريق حديدية من تونس إلى حلق الوادى، و منح لجنة طليانية صيد نوع من السمك كبير يسمى التن فى مصيده بالمنستير و منحها أيضا معدن جبل الرصاص و اكترى لها أرضه المسماة بالجديدة التى حصلت فيها الخصومة المشار إليها عند الكلام على سياسة القطر الخارجية، و نشأ من كل منحة ما يناسبها من الصعوبات القاضى بها عدم الفائدة و عدم إتحاد الحكم و زادت المشاكل بكثرة الديون و عدم المال و روج فى القطر سكة من النحاس كل قطعة منها بنصف ريال، و كان مقدار ما روّجها فيه يبلغ إثنى عشر مليونا ريالا، و عظم الخطب لامتناع الأجانب من قبولها فى أثمان سلعهم و ديونهم العامة لأهل القطر و بلغ سعر الصرف إلى أن المائة ريال فضة تصرف بنحو ثلثمائة ريال، و بلغ سعر الويبة من القمح إلى السبعين ريالا بتلك السكة، و بعد إنفاق ما ضربته الحكومة منها و اشتداد الحال أنزل قيمة السكة النحاسية إلى أصلها حقيقة و هو الربع مما نفقت به فصار نصف الريال ثمن الريال و ضاعت على الأهالى تسعة ملايين سدى مع ما زاد على ذلك مما جلب من نوع تلك السكة خفية، و أكثر ما أصيب بالخسارة أهل الحاضرة فكانت قسطهم من غرم المال، و لما بلغ الحزام الطبيين شدّد الأجانب فى طلب ديونهم و فائضها و قطع القنسل الفرنساوى الخلطة مع الحكومة ثم استرضته، و استقر القرار على تشكيل لجنة مختلطة من الأهالى و الأجانب و سميت بالكومسيون المالى و نص الأمر الصادر فى ترتيبه.

أما بعد: فقد اقتضى نظرنا لمصلحة مال مملكتنا و الرعية و المتجر أن ترتب كومسيونا ماليا على صورة الأمر الصادر فى الرابع من إبريل من العام الفارط، المؤكد بأمرنا المؤرخ فى التاسع و العشرين من مايه الموالى للشهر المذكور على الكيفية الآتية:

الفصل الأول: الكمسيون الذى صدر به أمرنا المؤرخ فى الرابع من إبريل سنة ۱۸۶۸ يجتمع بحاضرتنا فى مدّة شهر التاريخ.

الفصل الثانى: يقسم الكومسيون المذكور إلى قسمين متميزين قسم: للعمل، و قسم:

للنظر و التصحيح.

الفصل الثالث: قسم العمل يركب على الصورة الآتى بيانها و هى عضوان من متوظفى دولتنا نسميهما نحن أنفسنا، و ناظر مالى

فرنسیس نسمیه نحن أنفسنا أیضا بعد تعیینه من طرف دولة جناب الإمبراطور.

الفصل الرابع: قسم العمل هو المکلف بحصر المداخیل التی یتیسر للدولة أن تخلص بها ذلک.

الفصل الخامس: قسم العمل یجعل دفترا فیه یقید جمیع الدیون المنعقدة خارج المملکة و داخلها، و هی التذاکر المالیة و رقاع سلفی عام ۱۸۶۳ و عام ۱۸۶۵، و أما الدیون الغیر المحصورة بکنتراتوات فعلی حاملی تذاکرها أن یأتوا بها فی خلال مدة شهرین،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۴۸

و کذلک یسعی قسم العمل فی الإعلان عن ذلک فی جرنالات تونس و أوروبا.

الفصل السادس: مهما أراد قسم العمل الإطلاع علی جمیع الحجج الصحیحة المتعلقة بالداخل و المصاریف فإن وزارة المال تجیبه إلی ذلک حق الإیجاب.

الفصل السابع: بعد أن یقع حصر مداخیل الدولة و مقابلتها بجامعة المصاریف مزادا علیها مبلغ الدین یبحث قسم العمل عن توزیع المداخیل العمومیة علی وجه الإنصاف باعتبار جمیع الحقوق علی طریق العدل، و کذلک یجعل تجریدة المداخل التی یمکن زیادتها علی جمیع الضمانات السابق تعینها لأرباب الدیون.

الفصل الثامن: لقسم العمل أن یجعل جمیع التأویلات و التراتیب المتعلقة بالدین العمومی و نمده بکل ما یلزم من الإعانة لإنفاذ ذلک الإنفاذ التام.

الفصل التاسع: قسم العمل یتولی قبض جمیع مداخیل المملکة من غیر استثناء و لا یسوغ إخراج تذاکر مالیة من أی نوع کان إلا بموافقة القسم المذکور علی ذلک بعد التفویض إلیه فی ذلک من قسم النظر و التصحیح، و إذا اضطرت الدولة لعمل سلف فلا یسوغ لها ذلک إلا بموافقة القسمین، و جمیع التذاکر التی تخرج فی مقابلة المبلغ الذی یعینه الکومسیون لمصاریف الدولة تکتب بإسم الکومسیون، و یعلم علیها قسم العمل و قدر هذه التذاکر یلزم أن لا یتجاوز المبلغ المحدد فی قائمة المصاریف.

الفصل العاشر: قسم النظر و التصحیح یترکب علی الکیفیة الآتی بیانها، یعنی من عضوین فرنساویین ینوبان عن حاملی رقاع سلفی عام ۶۳ و عام ۶۵، و من عضوین إنکلیزیین و عضوین طلیانیین ینوبان عن حاملی رقاع الدین الداخلی، و هؤلاء الأعضاء یکونون بوکالات مخصوصة من قبل حاملی رقاع السلفین و حاملی کونفرسیونات مملکتنا، و یصدر لهم إعلان فی ذلک منا تحت نظر قسم العمل.

الفصل الحادی عشر: قسم النظر و التصحیح له الحکم فی جمیع تصرفات قسم العمل و هو المکلف بتحقیقها و بالموافقة علیها عند الإقتضاء و موافقته ضروریة، حتی أن الذی یستقر علیه رأی قسم العمل مما یتعلق بالمصلحة العمومیة یصیر بذلک واجب العمل به.

الفصل الثانی عشر: إذنا وزیرنا الأکبر بالعمل بما تضمنته الفصول الأحد عشر المذکورة أعلاه و نعین العضوین و نطلب الناظر المالی الفرنساوی المذکورین بالفصل الثالث فی أقرب وقت ممکن، کتبت الإثنا عشر فصلا أعلاه بسرایة حلق الوادی فی السادس و العشرین من ربیع الأول سنة ۱۲۸۶ ه ستة و ثمانین و مائتین و ألف، فانتظم هذا الکومسیون و استولی ریاسته الوزیر خیر الدین، و العضو الأول فی قسم العمل هو صاحب رتبة الوزارة فی فرنسا فیلیت، و العضو الثانی الوزیر محمد خزنة دار و سیأتی تفصیل ما نشأ عن هذا الکومسیون، و جمع دیون الحکومة فکانت ما یأتی:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۴۹

جملة الجوامع فرنکات

/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۳۵/ الإستقراض من دار ارلانجی بباریس لإیفاء الدین السابق الذی لم یخلص بتمامه و قدره نحو تسعة عشر ملیونا کما تقدم.

/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۹/ الإستقراض من بینار بباریس سنة ۱۸۶۳

/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۵/ الإستقراض من دار ارلانجی و غیره سنة ۱۸۶۵.

۰۰۰، ۰۰۰، ۶۹/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۶۹/ الجملة تسعة و ستون مليونا

۰۰۰، ۰۰۰، ۶۹

الاستقراضات الداخلية المعروفة بالكونفرسيونات.

جملة الجوامع فرنكات

۰۰۰، ۰۰۰، ۶۹/ ۰۰۰، ۱۳۵۰۰/ الأول

/ ۰۰۰، ۰۹۶۷۰/ الثانی

/ ۰۰۰، ۱۷۸۵۰/ الثالث

/ ۰۰۰، ۷۸۰۰/ الرابع

۰۰۰، ۴۸۸۲۰/ ۰۰۰، ۴۸۸۲۰

۰۰۰، ۳۶۸۰۰/ جملة الدين الغير المنضبط بالتذاكر الرائجة

۰۰۰، ۱۵۴۶۲۰/

۰۰۰، ۰۲۰۳۸۰/ جملة الفوائد المتأخرة تقريبا

۰۰۰، ۰۰۰، ۱۷۵/ ريالات

/ ۲۸۰۴۳۷۵۰۰/ جملة صرف تلك الديون بالريالات التونسية فإذا أضفنا إلى ذلك مداخيل الحكومة من وقت تعطيل القانون إلى انتصاب الكومسيون الذى هو سنة ۱۲۸۶ بحساب كل سنة

۰۰۰، ۰۵۸۴۵۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۹۵/ خمسة عشر مليونا ريالا الذى هو أقل ما يمكن نظرا إلى ما تركها عليه الوالى السابق محمد باشا و نظرا لدخلها فيما بعد فيكون المجموع للستة سنين.

۰۰۰، ۲۳۳۴۵۰/ ۳۷۵۴۳۷۵۰۰/ تقريب الغرم الذى دفعه السكان على مصاريف الثورة لأنه ثبت بالحساب أن أهل الساحل وحدهم

۰۰۰، ۰۰۰، ۰۴۰/ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۶۵/ دفعوا من ذلك عشرين مليونا

۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۱/ ۰۰۰، ۰۰۱۶۲۵/ ما أعانت به الدولة العلية الحكومة وقت الهرج. ما أهداه صاحب القرض الأول بإسم المارستان و أخذته الحكومة.

۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۱/ ۰۰۰، ۰۰۱۶۲۵

۰۰۰، ۲۷۵۴۵۰/ ۴۴۲۶۸۷۵۰۰

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۵۰

فكانت جملة الأموال التى خاضت فيها الحكومة فى مدة نحو سبع سنين مائتين و خمسة و سبعين مليونا فرنكا و صرفها ريالات ما هو مرقوم بآزائها مع مزيد التضايق المالى بتعطيل الجرايات، حتى امتدت الأيدى إلى الأوقاف و عطل إرسال مال الحرمين الشريفين من أوقافهما عدة سنين، و كذلك عطل مرتب المدرسين و العلماء من بيت المال الذى أسسه أحمد باشا لاستيلاء الحكومة على ما فيها من المال، و لم يحصل من تلك الأموال فى القطر ما يمكن أن يذكر أو يعد سوى ما تقدم ذكره من السفن و المدافع البالغ مجموع ثمنها إلى ثمانية عشر مليونا، و إن أضفت إلى ذلك ما خسره القطر و الحكومة مما ضاع عند ابن عياد و نسيم و كله بواسطة الوزير المذكور كان مجموعه مع ما بين يزيد على خمسمائة مليون ريالا، و حيث كان الحال مما لا يمكن إخفاؤه على الوالى بالمرة ذكر له وزيره خزنه دار أنه خزن له فى بعض بانكات أوروبا عشرين مليونا فرنكا احتياطا لما عساه أن يقع، لأن الثورة العامة أنذرت مما يخشى من مثله فلا بد أن يكون له ذخر خارج المملكة، و ذكر ذلك له مرة بمحضر أحد قناسل الدول ثم طلب هذا القنسل إسقاط الطلب عنه بتلك الملايين عند عزله.

و من وقت انتصاب الكومسيون المالى قصرت يد الوزير خزنه دار عن التصرف و كاد أن يكون إسناد الوزارة إليه إسما بلا مسمى، و حنق من ذلك أشد الحنق و رام أن يغير الحال فلم يوافقه الوالى لاطلاعه على حقائق الأمور و علمه أن رجال الحكومة لم يبقوا على ما كانوا عليه من الإلتفاف على الوزير، و بقى على ذلك إلى أن ظهرت نازلة أرلانجى البنكير بمطلب مالى و ادعى أنه إبروسيانى و كان ذلك فى خلال محاربة فرنسا مع ألمانيا، و شدد القنسل البروسيانى فى مطلبه و لم يكن للحكومة مال و ظهر للوالى أن يستقرض من وزيره المال المطلوبة فيه الحكومة فأقرضها بالربا و رهن آجام و غابات طبرقه بفائدة عشرين فى المائة فى السنة ثم ظهرت نازلة الألفى رقعة و حاصلها أن الكومسيون المالى لما حصر جميع الديون و وحدها فى دين واحد جعل له رقاعا جديدة و شرع فى إبدال القديمة بالجديدة، فعند ذلك تبين أن الرقاع الجديدة المقدرة على ما ضبط من مقدار الدين لا تفى بالرقاع القديمة التى جاء بها أصحابها للتبديل، فاستقرى الكومسيون أسباب ذلك و تبين أنه لما انتصب الكومسيون المالى وجهت له الحكومة حسابا رسميا فيه بيان حساب الرقاع الرائجة من سلفى سنة ۱۸۶۳ و سنة ۱۸۶۵ بعد طرح الرقاع التى رجعت بالخلاص للحكومة فى الإقتراعات، و بعد طرح ألفى رقعة اشتريت على يد البنكير أرلانجى للحكومة من ديونها، فلم يعتبر الكومسيون فى ديون الحكومة إلا ما بقى من رقاع السلفين بعد طرح القسمين المذكورين، لأن كلا منهما هو خلاص لمقداره من الدين و أذن الكومسيون بطبع عدد من الرقاع جديد بمقدار ما بقى من الدين و لما شرع فى تبديل الرقاع وجد فى رقاع سلف سنة ۱۸۶۳ أكثر مما كان قدره على مقتضى الحساب الرسمى المشار إليه، فظن أوّل الأمر أنّ الزائد مزوّر فتأمل فى جميعها و لم يجد فيها مجالا للزور فحاول حينئذ الكشف عن منشأ هاته الزيادة و استفسر من الوزير خزنه دار عن الألفى رقعة المشتراة على يد أرلانجى و ما كان فيها، فلم يجب و أصر على السكوت مدة أكثر من سنة مع تكرر السؤال له كما

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۵۱

يتبين ذلك من تقرير الجلستين المنعقدتين من الكومسيون فى ۱۵ أغشت سنة ۱۸۷۲ و فى غاية سنة ۱۸۷۳.

و لما ألح الكومسيون على الوزير فى طلب الجواب زعم: أن الحكومة لم تتصل بالرقاع المذكورة و أن دار أرلانجى هى المطالبة بذلك، لكن الكومسيون قبل أن يطلب من أرلانجى البيان تحرى فيما يلزم من الإطلاع على الحساب مع الدار المذكورة، و على الرسائل الواردة منها لكى يعتمد فى المخاطبة ما هو الواجب، فأذن الوالى فى ذلك و أطلع عليه الكومسيون و ثبت عنده أن الدار المذكورة سلمت تلك الرقاع للحكومة و كان من المعلوم لدى الكومسيون أنه كان بين الوزير خزنه دار و بين رشيد الدحداح المتقدم ذكره معاملة خصوصية، و أن الوزير رهن سبعة آلاف رقعة من سلف سنة ۱۸۶۳ فظهر للكومسيون أن يطلب بواسطة ثانى الرائس و هو قنسلات الحائز رتبة الوزارة من رشيد الدحداح المذكور جريدة أرقام الرقاع المذكورة، كما يطلب من دار أرلانجى جريدة أرقام الألفين رقعة التى استرجعتها الحكومة، فاتصل بالجريدتين و كشف الحال أن الألفى رقعة روجها الوزير خزنه دار على يد الدحداح بعد خلاصها، فعرض ثانى رائس الكومسيون على الكومسيون تقريرا مفصلا فيما ثبت لديه فى النازلة و تضمنه تقرير جلسة الكومسيون المؤرخ فى ۴ يونيه سنة ۱۸۷۲ و ملخص تقرير الجلسة أن الرقاع المذكورة سلمت فى ۱ فبراير سنة ۱۸۶۴ للحكومة التونسية على يد شميت النائب عن دار أرلانجى، و قيد ثمنها فى الحساب الواقع بين الحكومة و الدار المذكورة، المؤرخ فى ۱۷ مايه سنة ۱۸۶۷. ثم روجها الوزير مصطفى على يد الدحداح القاطن فى باريس، و أن استعمال الرقاع المذكورة على الوجه المذكور أضر بالحكومة و أرباب الديون، و أن رأى كل الكومسيون أجمع على طلب التعويض و الخسائر من الوزير مصطفى المذكور. ا ه.

و علم الوزير بما وقع و نصحه الوزير خير الدين بفصل النازلة عن عجل فأبى ظنا أنه لا تناله الأحكام، و بلغ ذلك للوالى سرا بواسطة مصطفى بن إسماعيل أقرب المقربين لديه لتعصب الوزير خير الدين له فى إنهاء فظائع خزنه دار إليه و إفهامه أن الوزير خير الدين مضاد حقيقة لذلك الوزير و إن كانت له عليه يد المنة و المصاهرة لما ذكر من سيرته، فامتلأ و طاب الولى من إنكاره أعمال وزيره و لم يزل الوزير مصرا على الامتناع من بيان الوجه فى رواج تلك الرقاع ثانيا إلى أن واجه الوالى ثانى رائس الكومسيون بمحضر

المذكور و عرض على الوالى ملخص النازلة، و طلب منه إمضاء الحكم فباشر الوزير ثانى رائس الكومسيون بكلام شديد إلى أن انتهره الوالى و قال له: إن جوابك له إما أن يكون بالحجة فى تبرئة نفسك أو تدفع الحق الذى عليك، و انفصل الموطن و تيقن الوزير تغير الوالى معه لكنه لم يكن يظن أنه يعزل فكاتب الوالى بالإقرار بأخذه للألفى رقعة و طلب عفوه و أدى للكومسيون ما طلبه، و لما تيقن الوالى فظاعة النازلة و تيقن عدم الخوف من عزل الوزير بعد أن جس جميع الجهات أبرم عزله فى غرة رمضان سنة ۱۲۹۰ ه و كان مبدء تقلده منصب الوزارة فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۵۲

سنة ۱۲۵۵ ه، و ارتجت البلاد عند سماع عزله فرحا و كاد أن لا يصدق بعضهم بذلك لشدة تمكنه من الولاة، حتى ينقلون عن بعض الصالحين أنه يقول له: إنه يخدم ثلاثة أمراء يكون مع أولهم بمنزلة الإبن، و مع الثانى بمنزلة الأخ، و مع الثالث بمنزلة الوالد، سمعنا ذلك من آخر مدة أحمد باشا.

و زينت البلاد عند عزله و لم يسمع بمثل ذلك فى هذا القطر و اتبع عمل الأفراح جميع البلدان و القبائل و حزن على عزله أفراد من خواص حاشيته و من توفرت أرباحهم على يديه و أفراد قليلون من الأجانب، و رام من له وجاهة منهم أن يتداخل فى إرجاعه لمنصبه أو فى الأقل أن يواجه الوالى كآحاد المتوظفين، فامتنع الوالى و جعل أتباعه يرودون كل وجه لإرجاعه حتى سافر أحدهم إلى أوروبا و إلى الأستانة و اجتمع برجال الدول و بذل فى التوصل أموالا فلم يجد من يتداخل فى توليته وزيرا فى حكومة مختارة فى إدارتها، و حيث تيقن الوالى كثرة الأموال التى توصل إليها الوزير المذكور من أموال الأهالى و الحكومة سيما الأموال التى أخذها إبنه الأكبر بتذاكر على المالية مكتوب بها يدفع فلان وزير المال مقدار كذا من المال لأمير الأمراء إبننا محمد فى مصالح على يده الخ، و يقبض الإبن المال و يمضى بخطه على القبض مع أنه لا وظيفة له رسمية تقتضى صرف تلك الأموال، و مع عدم بيان الجهة المصروف فيها المال فأراد محاسبته و محاسبة إبنه على أموال الحكومة فتبرأ الوزير خير الدين من مباشرة ذلك على ما جرت به العادة، من أن صاحب الوزارة يباشر مثل ذلك مع كل المتوظفين و عقد لذلك مجلسا مخصوصا يرأسه ولى عهد الولاية الأمير أبو الحسن على باى، و أعضاؤه: المفتى الحنفى الشيخ أحمد بن الخواجة، و القاضى المالكى الشيخ محمد الطاهر النيفر، و الوزير محمد و رشيد كاهية.

و وكلت الحكومة على طلب حقوقها الشيخ عمر بن الشيخ، أحد كبار المدرسين بالجامع الأعظم، و أرسل المجلس يدعو المطلوبين لسماع الدعوى كما أرسل الوزير خير الدين مكتوبا إلى الوزير السابق يعلمه فيه بعقد المجلس للتأمل فى نازلة المطالب المتوجهة عليه و على إبنه و جوابه عنها، فامتنع من الحضور و لما ألح عليه بالحضور أرسل إلى قنسل فرنسا يطلب حمايته و توجيه أحد أعوانه ليحميه عند ذهابه للمجلس، فتعجب القنسل من الطلب و أجابه بأنه لا يتداخل فى أحكام البلاد سيما و لم يجر عليه ظلم يقتضى مثل ذلك، ثم أرسل وكيلا عنه من أحد رعايا الأجانب فلما دخل إلى المجلس سأله الرائس: هل هو داخل تحت أحكام البلاد أم لا؟ فأجابه: بلا و تفاوض المجلس فى قبوله و عدمه على تلك الصفة فظهر لهم أنه يجب أن يكون الوكيل داخلا تحت أحكام البلاد، ليؤاخذ بأعماله و أقواله فيما يتعلق بموكله و فيما يعود إليه، و لما علم الوزير خزنه دار بذلك أرسل إبنه الثانى محمد المنجى الذى هو برىء من جميع الأعمال السابقة و جعله وكيلا عن والده و أخيه، و علم ما هى مطالب الحكومة منهما و حيث علم أن الحجة قائمة عليهما ركن إلى طلب الصلح، فصالحته الحكومة.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۵۳

و قال بعض الأعيان: إن الصلح كان لا ينبغى وقوعه لأن المال مال بيت المال، فإما أن يتحقق مقداره و يؤخذ بتمامه و على فرض لدده يجبر بالحبس و لا مقالة لقائل إذا كان يصدر الحكم عليه من ذلك المجلس، و أما أن تثبت براءته و لا يؤخذ منه شىء، و أجاب الوزير خير الدين بأن إجباره يحصل منه القيل و القال سيما و شيعته يشيعون أن أصل المطالب غير صحيحة لقصد تداخل الأجانب فى أمره، و حيث طلب الصلح فالصلح خير، و وقع هذا الصلح بخمسة و عشرين مليونا فرنكا و ملخص صورة الصلح هو ما يأتى بيانه:

فرنک

۰۰۰، ۰۰۰، ۲۵ أصل المبلغ الذی صولح علیه یطرح منه ما ۰۰۰، ۰۰۰، ۵ أسقطته عنه الحکومة ۰۰۰، ۰۰۰، ۲۰ بیان ما دفع فرنک ۰۰۰، ۰۰۶۰۰ ما سبقه للحکومة فی منابها من ربح دار السکة.

۰۱۲۳۵۹۲۲ ما هو بقیة قرضه لها برهن طبرقه ۰۰۰، ۰۰۲۰۰ ما دفعه عینا ۱۰۹۶۴۰۷۸ قیمة ما یملک من الربع و العقار و المنقول و استثناء قصر الحلفاوین و الخشب المقطوع من طبرقة.

۰۰۰، ۰۰۰، ۱۳ ۰۰۰، ۰۰۰، ۱۳ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۷ فبقی قبله سبعة ملایین مقسطة لأقساط کل قسط بنصف ملیون فی سنة و ضمن الولد الأکبر أباه مع خیار الحکومة فی الطلب و کتب بشرح ما تقدم بصک أمضی فیه الجمیع و ختمه شاهدان من عدول الحاضرة.

۰۰۰، ۰۱۵۰۰ یطرح ما اسقط عنه فی مقابلة إسقاطه الاتفاق فی عمل دار السکة الذی أحاله إلیه حمیدة بن عیاد.

۵۵۰۰ ،۰۰۰

فکان الباقی علی النحو المار ذکره: «خمسة ملایین و نصفا فرنکا» و لم یدفع الأقساط التی حلت علیه منها لدعوی الإفلاس، و ذکر الأعیان أن المقادیر التی دفعها لم یکن فیها شیء من العین إلا مائتی ألف فرنک و ما بقی من الأملاک کلها إلا ما ندر أخذها بهبات من الولاة کما تشهد به رسومها أو اشتراها من الحکومة بأثمان ضعیفة دفع فیها أملاکا کانت الحکومة و هبتها له، مثل قرنالیا التی اشتراها من الحکومة بنحو ثلاثمائة ألف ریال تونسیة، و دفع فی ثمنها أرض سبخة أمام حمام الأنف مع الحمام المذکور الذی کان أخذ جمیعه هبة من الوالی الحالی، ثم بعد أربع سنین عند الصلح المشار إلیه عرض أن تکون قیمة قرنالیة المذکورة أربعة ملایین و نصف فرنکا، و مما ینافی دعوی الإفلاس أیضا أن کثیرین ممن لهم علقة بالکومسیون المالی و بمجلس إدارة المداخیل علموا أن الوزیر المذکور کان قبل عزله یرسل من یستخلص له فوائض أربعة و عشرین ملیونا فرنکا من خصوص الدین التونسی، ثم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۵۴

بعد انبرام الصلح صدر له إذن الوالی بأن یخالط من شاء و یذهب أین شاء داخل القطر و خارجه و العود إلیه متی شاء هو و أبناؤه إلا زوجه و زوج إبنه الأکبر لکونهما من عائلة الوالی، و لم تکن عادتهم تسمح بخروج أحد عائلتهم خارج القطر، و لم یستثن علیه إلا الإجتماع بالوالی و کان یظن ذلک بسعی الوزیر خیر الدین المتولی بعده، لکنه کشف الحال أنه من ذات الوالی لأنه دام علی الامتناع من مواجهته حتی بعد انفصال الوزیر خیر الدین عن الوزارة، و بقی الوزیر المذکور علی حالة إنفراده فی قصره بالحاضرة یتردد علیه قلیل من أتباعه و الأجانب إلی أن توفی سنة ۱۲۹۵ ه رحمه اللّه.

المطلب السادس: فی وزارة الوزیر خیر الدین

اشارة

هذا الوزیر أصله من أبناء الجراکسة القاطنین فی جبال القوقاز، و نشأ بالقسطنطینیة ثم شب فی تونس بقصر الوالی أحمد باشا، و استکمل القراءة و الکتابة و التجوید و الفروض العینیة، و لحدة ذهنه أقبل بها علی تحصیل الفنون العسکریة و السیاسیة و التاریخ، و مشارکة فی الفنون الشرعیة حصلها بمثافنة أهلها و مطالعة الکتب، و تعلم اللسان الفرنساوی فکان فصیحا فی العربیة عارفا بالترکیة و الفرنساویة، شدید التوقیر للشریعة و العلماء محافظا علی شعائر الدین عالی الهمة و قورا حتی یخاله من لم یخالطه متکبرا، فإذا ثافنه رآه حسن القبول عفیفا عن الرشا راسخ الطبع ثابت الفکر لا یتزلزل عن رأیه، حازما فی العمل ترقی فی الخطط العسکریة فی مدة أحمد باشا مع استنجابه إلیه، و قربه الوزیر مصطفی خزنه دار حتی صاهره علی ابنته، ثم ولاه أحمد باشا أمیرا للواء الخیالة سنة ۱۲۶۶ ه.

و لما وقعت حرب القریم أرسله أحمد باشا المذکور إلی باریس لیبیع مجوهرات للحکومة یستعین بثمنها فی مصاریف العسکر

المرسل لإعانة الدولة العثمانية، و ناضل هناك على التعرض فى إرسال العسكر بما تقدم شرحه و لم يبع المجوهرات إلا بعد عرضه لأثمانها على الوالى أحمد باشا، مع أنه فوض إليه و أنكر عليه التأخير بسبب الإستشارة و كتب له تفويضا تاما، كما كلفه فى تلك الوجهة بعقد قرض مع إحدى ديار المال فباع المجوهرات و أرسل ثمنها و حاسب عليه و قدره نحو مليونين فرنكا، و أخذ حجة تامة من محمد باشا فى الحساب و براءة ذمته و ماطل فى العقد للقرض و كيفية شروطه لما يراه من المضرة على القطر و راجع الوالى مرارا إلى أن توفى الوالى المذكور و وافقه خلفه محمد باشا على عدم القرض، و قد رأيت بخط كاتب أسرار الولاة الوزير أحمد بن أبى الضياف فى هذا الغرض ما نصه:

«و شكر أى محمد باشا خير الدين فى عدم الإستعجال و أنقذ بها البلاد من هاوية

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۲۵۵

الخ». ثم عرض للوزير المذكور فى أثناء سفرته المذكورة هروب ابن عياد و تكليف الوالى أحمد باشا الوزير المذكور بخصامه، فدام فى خصامه سنين مبدأها من سنة ۱۲۶۹ ه و منتهاها سنة ۱۲۷۳ ه. و نجح فى عمله بما تقدم شرحه عند الكلام على ولاية أحمد باشا، و رأيت بخط الوزير أحمد بن أبى الضياف فى ذلك ما نصه: «و لو تم مراد ابن عياد و وجد من خير الدين إذنا صاغية لمواعيده لكانت المملكة فى أسره لوقتنا هذا لكثرة ما بيده من الأوامر و الرسوم إلى أن قال لو لا تداركك لطف اللّه على يد خير الدين الخ».

ثم فى سنة ۱۲۷۲ ه قدم الوزير خير الدين من فرنسا لتهنئة الوالى محمد باشا، فأكرم مقدمه و عرف له نصحه فى النوازل المذكورة، و رقاه إلى رتبة الفريق و عاد لإتمام الخصومة المذكورة، فولاه محمد باشا و هو غائب وزارة البحر لموت صاحبها محمود كاهية سنة ۱۲۷۳ ه، و عند انبرام الحكم على ابن عياد رجع الوزير خير الدين إلى تونس و اعتنى بمباشرة وزارته مع اعتماد الوالى عليه فى الإستشارة، فحسن حالة حلق الوادى التى هى أعظم مرسى فى القطر بما استطاع، و رتب هيئة خدمة الوزارة بتقييد المكاتيب الصادرة، و ضبط جميع الحركات اليومية فى دفتر، و كان أول من عرف ذلك فى القطر، و كانت الأمور تجرى بلا ضبط و جعل إتفاقا مع الأجانب الذين استولوا على أكثر أراضى تلك البلاد بلا وجه، فجعل معهم الاتفاق على ثلاثة أوجه فمن كانت بيده حجة من الوالى فى الإذن بالبناء جعل له قيمة كراء الأرض خاوية سنويا على حسب الكراء المؤبد و لورثته ميراثها من بعده، و من كانت بيده حجة فى البناء من خصوص وزير البحر فقط فله إبقاء البناء مدة حياته لخصوص ذاته و من بعده ترجع للحكومة و إن امتنع قلع بناؤه أو تراضى مع الحكومة فى شراء الأرض أو كرائها، و من لم تكن بيده حجة لزمه التوافق مع الحكومة أو قلع بنائه، و وافقه على ذلك قناسل الدول و حصل من ذلك نفع كثير، و تحصل من الكراء المؤبد ما هو وقف الآن على جامع حلق الوادى و قائم به أحسن قيام، ثم أحدث معملا بخاريا لما تحتاج إليه السفن من الأدوات الحديدية و الخشبية و أبدل الجسر الذى كان على الخليج بجسر حسن متين، و أوسع الطرق و نظمها و بنى مجلا لإدارة الوزارة حسنا و جعل أمامه بطحاء و حسن لباس العساكر البحرية، ثم لما أنشأ عهد الأمان كان الوزير المذكور فارس ميادين أنشأ القوانين لميله للحرية و العدل، و كان المجلى فى مضمارها بتدابيره و فصاحته و عدم استحيائه من الحق، حتى أن الوالى المذكور لما أراد جلب ماء زغوان و جمع رجال حكومته و استشارهم و كان أغلبهم ذاهبا إلى عدم الموافقة، فأجابهم الوالى: بأنى أعطيت كلمتى للقنسل بالموافقة على جلبه، فتنفس الوزير خير الدين و قال: أى فائدة لجمعنا حيث أعطيت كلمتك و حسبنا سماع هذا الخبر من سيادتكم، كذا رأيته بخط كاتب أسرارهم الوزير أحمد ابن أبى الضياف.

و لما ولى على القطر محمد الصادق باشا أرسل الوزير خير الدين المذكور إلى الدولة العلية لطلب فرمان الولاية على العادة و استقبله استقبالا حسنا و قضى مأموريته، و لما أنجز

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۲۵۶

الوالى المذكور القوانين كما مر ولى الوزير خير الدين عضوا فى مجلسه الخاص الذى يرأسه بنفسه، كما ولاه رياسة المجلس الأكبر أى مجلس النواب، و كان فى مبدأ الأمر رئيسا ثانيا للوزير مصطفى صاحب الطابع و هذا هو الرائس الأول، غير أنه أخذ لقب الوظيفة

فقط مراعاة لمقامه و سنه و عجزه سنا و معارفا عن الوفاء بتلك الخطة، و من إنصافه رحمه اللّه كان يصرح للوزير خير الدين بذلك و يقدمه، حتى أن القانون بعد إتمام تأليفه عين الوالى أعضاء المجالس حسب الإنتخاب و أمرهم بقراءة القانون و فهم معناه قبل العمل به، فلم يحضر الرائس الأول و قام مقامه الوزير خير الدين، و قال فى شأن ذلك الوزير أحمد بن أبى الضياف ما نصه:

و أبدى فى تقريره أى القانون و بسطه و تفسيره من حسن البيان و فصاحة اللسان ما أعجب السامع و شنف المسامع: ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ* [المائدة: ۵۴ و الحديد:

۲۱ و الجمعة: ۴] ا ه». و اعترف له بالفضل كل من حضر من العلماء و غيرهم، ثم توفى الرئيس الأول و صار الوزير خير الدين هو الرئيس بالإسم و الرسم و العمل، و قد كان على غره ظانا أن القانون مراد لذاته حقيقة فشمر عن ساعد الجد و طفق يبرهن على المصالح و يفتح البصائر إلى مغزاها، و تنقاد الأعضاء لسد أبواب المفاسد إلى أن نشبت مخالب التضاد بينه و بين الوزير السابق كما تقدم شرحه، و اضطربت أعضاء المجلس و رأى أن المآل إلى جعل المجلس صوريا لإنفاذ الأغراض على عاتقه، فاستعفى من الرياسة و بقى عضوا فى كل من المجلسين، و قال فى ذلك الوزير أحمد بن أبى الضياف: «و انتفع المجلس بإعانته أى انتفاع مترديا بحية نبله و عفافه و إنصافه الخ».

ثم أرسله الوالى سفيرا عنه إلى دولة السويد و البروسيا و البلجيك و الدانمرك و هلاندا مكافأة بإرسال نياشين إلى ملوكهم عما أرسلوا به إليه من النياشين إكراما له على إنشائه القوانين، و كذلك فعلت غالب دول أوروبا، و فى أثناء عضويته عرض على الملجس الخاص أن فواضل الأوقاف تصرف للقيام بالعسكر بموافقة أحد العلماء المالكية معتمدا الفتوى بما جرى عليه العمل من غير المشهور من مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضى اللّه عنه، من أن فواضل الأوقاف تصرف فى طرق البر و رأوا أن القيام بالعساكر من طرقها فخالفهم الوزير خير الدين محتجا بأن القيام بالعساكر له نصيب معلوم شرعا من بيت المال، فإن كان النصيب المعين شرعا صرف جميعه على العسكر و لم يف بذلك فحينئذ ينطبق النص و نوافق على ما ذكرتم، و أما إذا كان دخل بيت المال يصرف فى غير وجهه الشرعى كما يعلمه الجميع فلا أرى انطباق النص على ما ذكرتم، و لعمرى أنه لهو صميم الحق فثمرة العلم تحقيق المناط و إن ذهبوا إلى العمل بما رأوا و كان ذلك من أسباب إيغار صدور الخاصة و العامة كما تقدم، و لما راموا أن يضاعفوا الأداء المسمى بالإثنين و سبعين الذى كان سببا فى الطامة الكبرى كما مر قال الوزير المذكور للوالى حسبما رأيته بخط الوزير ابن أبى الضياف: «الحاضر فى المجلس يا سيدى إن أخفيت ما ظهر لى من نصح

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۵۷

سيدى و بلادى أكون خائنا لأمانة الإستشارة، نرى أن هذه الزيادة فى مال الإعانة تؤدى إلى زوالها بالمرة أو تلجىء إلى مال أكثر منها لتجهيز الجيوش لغصب الناس، و لا نجد فى السنة التى بعدها ما يقارب الإعانة الأولى هذا باعتبار القدرة على الغصب، و لعمرى أنها مقالة دين و نصح تجد ثوابها يوم تجد كل نفس ما عملت» الخ كلامه.

و صرح بمثل ذلك فى المجلس الأكبر أيضا و لما سأله بعض أعضائه سرا عما أوجب تسليمه قال: إنى رأيت السقف يريد أن ينقض و لم أستطع استدراكه و لا وجدت أذنا صاغية فخرجت من تحته و على بخويصة نفسى، ثم لما أبطل القانون بقى الوزير خير الدين فى بستانه مقبلا على شؤون نفسه لا يختلط بالحكومة إلا نحو يومين فى الشهر يتوجه إلى الوالى للسلام عليه أو عندما يدعوه لأمر ما، كما وقع عند قتل الشهيدين إسماعيل السنى و رشيد لان الوالى جمع بعد ذلك جميع رجال حكومته و أعلمهم بالقتل، و رأيت فى صفة المواطن بخط الوزير ابن أبى الضياف الذى كان حاضرا فيه ما نصه:

و قال له الوزير المنصف أبو محمد خير الدين: «نرجو اللّه أن يكون هذا حد البأس و أن لا تقع ندامة على هذا الاستعجال بعد وصولهما إلى محبسهما لأن طبع الزمان ينافى هذا الإستعجال فاغتاظ الوالى و كاد أن يستهويه الغضب لو لا لطف اللّه بخير الدين الخ».

و له فی أمثال ذلک من النصح و الإقدام کثیر، و فی أثناء استعفائه کان التزاور بینه و بین الوزیر مصطفی خزنه دار مستمرا لقرابة المصاهرة و لا یتداخل معه فی رأی من تصرفاته، کما أن الأعیان من المتوظفین و الأهالی یزورونه و لا یخوض معهم فی شیء من أحوال سیاسة البلاد متجنبا القیل و القال مستکفیا فی التأنس و إراحة البال بخواص من أصحابه مقبلا علی مطالعة الکتب و التألیف، فألف کتابه «أقوم المسالک فی معرفة أحوال الممالک» و هو أول کتاب مبتدع فی السیاسة التی یقتضیها الحال و الشرع، و کفی بتقاریظ العلماء فیه مع أن الرجل إذ ذاک بعید عن شائبة التملق إلیه، ثم لما شددت الأجانب فی طلب أموالهم و أنشیء الکومسیون المالی باتفاق الدول دعاه الوالی إلی ریاسة ذلک الکومسیون فامتنع و لما ألح علیه الوزیر السابق، قال له ما معناه: إن الحال قد بین التباین بین مهیعی و مهیعک فی طریق السیاسة و أنت رجل مثل والدی لک التقدم علیّ فإن وافقتک خنت دینی و أمانتی و إن خالفتک صرت إلی العداوة معک فالأولی بقائی علی ما أنا علیه.

فأجابه بترک جمیع ما مضی و أن الحال قد بلغ النهایة و أنه لا یرید فی المستقبل إلا الإصلاح و موافقة الرأی، فأعاد الوزیر خیر الدین مقاله و أنّ طبع الوزیر مصطفی خزنه دار لا یوافق السیرة التی یراها هو، فأکد له مزید الموافقة فی عدة مواطن و قبل إذ ذاک الوزیر خیر الدین ریاسة الکومسیون، و من هذا الوقت و هو سنة ۱۲۸۶ ه تنسب التصرفات إلیه و إن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۵۸

رجع الوزیر السابق عن وعده، و تحمل الوزیر خیر الدین بسبب ذلک مشاقا صعابا لکنه لم ینتج للوزیر مصطفی خزنه دار مراده إلی أن انفصل عن الوزارة بالمرة کما تقدم شرحه.

فأول ما ابتدأ به الوزیر خیر الدین من الأعمال أنه رأی تداخل الکومسیون المالی فی مالیة الحکومة یتسع نطاقه إلی التداخل فی السیاسة، کما یقتضیه صریح فصول ترکب ذلک الکومسیون، و دلیله أنه بعید انتصابه وجه تقریرا للوالی فی أمور تقتضیها وظیفته من مباشرة العمال فی استخلاص الأموال و غیر ذلک، و توقف عن إمضائها الوزیر السابق لأنها تؤل إلی خروج التصرف عنه بل و عن الحکومة أیضا، فاشتکی أعضاء الکومسیون الأجانب إلی قناسلهم بأن أعمال الکومسیون توقفت، لأن أساسها توقفت الحکومة فی إمضائه، فکتبت القناسل للوالی بالتسجیل و الحث علی إجراء ما التزم به للدول الثلاثة و هی فرنسا و إیطالیا و انکلترا، فجمع الوالی جمیع رجال الحکومة و عرض علیهم الأمر، و کان من الحاضرین الوزیر أحمد بن أبی الضیاف و کتب حسبما رأیته بخطه فیما وقع فی المجلس ما نصه:

«و تکلم الوزیر خیر الدین بالمجلس بما یکتب علی صفحات الأیام، إلی أن قال: إنکم دفعتمونی إلی هذه الخدمة و أنا عبد لخدمة سیدنا و بلادنا، علی کل حال، و نطلب الإعانة من جمعکم فإن أعنتمونی فلکم الفضل و إن أسلمتمونی لا أجنح للهروب، و إنما أقول أخدم برهة من الزمان و أتأخر لیقدم غیری من أمثالی یخدم مثل مدتی و هلم جرا، فضمن الجمیع له الإعانة کل علی حسبه و انفصل الموطن. الخ». و أمضی الوالی مطلب الکومسیون و خاطب القناسل بذلک، و کان ذلک مما یجر إلی إبقاء الحکومة صوریة لأن استخلاص الأموال یستدعی تحسین الإدارة و هو یستدعی العدل فیتداخل الکومسیون فی جمیع ذلک و تهرع إلیه الأهالی و لا یبقی للحکومة إلا النزر، فلذلک أشار الوزیر خیر الدین علی الوالی بوجه تمضی معه حقوق الکومسیون و تحفظ به حقوق الحکومة و ناموسها، و هو توظیف رئیس الکومسیون بوظیفة وزیر للوالی فی رتبة الوزیر الأکبر بحیث یشارکه عند حضوره و ینفرد عند غیابه و تنقل خدمة الکومسیون إلی محل الوزارة، و یکون مصدر جمیع الأعمال واحدا فاستحسن الجمیع ذلک الرأی. و وظف الوالی الوزیر خیر الدین وظیفة سماها بالوزیر المباشر، فرتب أشغال الوزارة علی الصورة الآتیة و هی الوزارة الکبری و تنحصر فیها جمیع شعب الإدارة إلا الوزارتین الآتیتین، بمعنی أن الوزیر الأکبر ثم الوزیر المباشر هما اللذان یباشران جمیع المصالح إما بواسطة أو بدونها، ثم قسم إدارة هاته الوزارة إلی أربعة أقسام:

فالقسم الأول: تحت ریاسة مستشار و یرجع إلیه جمیع الأمور السیاسیة العامة و أحوال المالیة الخاصة بدخل الحکومة و خرجها دون ما

يتعلق بالكومسيون المالى.

و القسم الثانى: تحت رياسة مستشار و يرجع إليه ما يتعلق بشكايات الرعية من المتوظفين و العكس.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۵۹

و القسم الثالث: تحت رياسة مستشار و يرجع إليه ما يتعلق بالحقوق الشخصية ثم اتحد هذا القسم بالقسم الثانى.

و القسم الرابع: تحت رياسة مستشار و يرجع إليه ما يتعلق بالخارجية.

كما جعل كلا من وزارتى الحرب و البحر مستقلا بنفسه كل منهما لها وزير خاص، غير أنه تحت نظارة الوزارة الكبرى فهذا ما يتعلق بكيفية الإدارة.

و أما ما يتعلق بما حصل من الإدارة فإن ديون الحكومة حصرت فكانت مائة مليون و خمسة و سبعين مليونا فرنكا كما تقدم تقريبه آنفا، و كان الفائض الذى يدفع سنويا نحو العشرين مليونا فرنكا، فأسقط من الأصل نحو مليون فرنكا ثم طرحت العشرون مليونا التى هى الفائدة التى لم تدفع و جعلت دينا بلا فائض يستهلك من الدخل المضروب جديدا على البضائع الداخلة للقطر، و بقى المقدار الذى يؤدى الفائض نحو مائة مليونا و خمسة و عشرين مليونا فقط، فجعل له فائضا خمسة فى المائة و صار مقدار الفائض السنوى نحو ستة ملايين فرنكا و خمسمائة ألف فرنك، الذى هو نحو الثلث مما كان جاريا و خصص له أنواع مخصوصة من مداخيل الحكومة لأن نواب أصحاب الديون و هم قسم النظر من الكومسيون المالى، لم يرضوا بأن الحكومة تتعهد لهم بدفع الفائض بل أرادوا أن تكون إدارة المال الراجع إليهم تحت أيديهم، فجعل لذلك مجلسا يسمى مجلس الإدارة أعضاؤه أجانب منتخبون من قسم النظر من الكومسيون و عددهم خمسة، و عضو تونسى ينتخبه قسم العمل و فوض إليهم قبض المداخيل الراجعة إلى الفائض تحت احتساب قسم العمل ثم قسمت مداخيل الحكومة إلى قسمين:

القسم الأول: يتولى قبضه ذلك المجلس و الأنواع التى سلمت إلى ذلك هى ما يأتى بيانه مع بيان تقريب دخله حسب الميزانية المسلمة من الوزارة السابقة.

فرنكات

۰۰۰، ۰۳۵۰ لزمه فندق الغلة أى الاداء على الخضراوات و الفواكه المباعة فى الحاضرة

۰۰۰، ۰۴۱۲ محصولات سوسه و المستير أى الأداء المرتب على نحو ما ذكر و على بيع الحيوانات و غيره.

۰۰۰، ۰۰۹۷ الرحب أى الأداء على بيع حبوب القمح و الشعير و شبهه.

۰۰۰، ۰۵۰۰ القمرق أى الأداء على السلع الداخلة و الخارجة للحاضرة من الممالك.

۰۰۰، ۰۱۰۰ خروبة الأكرية بالحاضرة أى أنه يؤدى على كل ريال المنقسم إلى ستة عشر خروبه خروبة واحدة أى جزء من ستة عشر على كل مكان يكرى.

۰۰۰، ۰۰۴۵ قمرق صفاقس.

۰۰۰، ۰۰۰۸ قمرق وادى قابس.

۰۰۰، ۰۰۲۵ قمرق سوسه و المستير و المهدية.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۶۰

۰۰۰، ۰۲۲۰ قمرق الدخان أى انحصار بيع الورق المدخن به و المستنشق فى الحكومة.

۰۰۰، ۰۰۵۵ قمرق الخل أى ما يؤدى على المسكرات.

۰۰۰، ۱۸۱۲ نقلت

۰۰۰، ۰۰۴۵ فندق البياض أى ما يؤدى على بيع الفحم.

۰۰۰، ۰۰۶۰ الجبس أى إنحصار بيع الجص فى الحكومة.

۰۰۰، ۰۰۱۰ صيد الحوت أى الأداء على صيد السمك و انحصار أماكن البحر فى صيد الحكومة.

۰۰۰، ۰۱۱۰ الملح أى انحصار بيعه أيضا فيها.

۰۰۰، ۰۰۵۵ الأداء على النشاف و القرنيط أى الإسفنج و نوع السمك المسمى بالقرنيط.

۰۸۵۰۶۰۰ قانون الزيتون فى سوسة و المستير و المهدية و صفاقس أى الخراج على شجرة الزيتون عوضا عن الشعر.

۰۰۰، ۳۰۳۲

۰۰۰، ۰۱۵۰ قانون زيتون الوطن القبلى.

۰۰۰، ۰۱۰۰ محصولات صفاقس مثل ما بينا سابقا.

۰۰۰، ۰۰۹۰ محصولات جربه و قمرقها.

۰۰۰، ۰۰۸۰ محصولات بن زرت.

۰۰۰، ۰۰۲۰ محصولات حلق الوادى.

۰۰۰، ۰۰۰۸ لزمة صيد المرجان أى المقدار الذى يؤدى على ذلك من الفرنسيس.

۰۰۰، ۰۰۸۵ محصولات الوطن القبلى.

۰۰۰، ۰۳۰۰ التنبراى الأوراق المختوم عليها من الحكومة ليكتب فيها الإحتجاجات بحيث لا تقبل حجة فى غير ورقة مختومة.

۰۰۰، ۲۶۴۰ السراحات أى الأداء على ما يخرج من القطر من الحبوب و الزيت و التمر و الصوف و الصابون.

۰۰۰، ۲۵۰۵

و قد أقيم الحساب على مقتضى هاته الميزانية فلم توف فى أغلب السنين للغلط الذى وقع فى تقدير فصل السراحات و هو الأخير، لأن ذلك غير صحيح كما أبانه الواقع، و سبب ذلك عدم إمكان ضبطه فى الوزارة السابقة فقرب تقريبا بالقياس على سنة كانت خصبة مع الطلب فى الثمن إلى أوروبا، و لذلك لزم الحكومة أن تكمل من دخلها الخاص ما ينقص من ذلك الدخل عن الوفاء بالفائض حسبما هو مشروط فى اللائحة التى جعلها الكومسيون المالى أساسا لأعماله، فإن منها أن فائض الدين الذى هو ستة ملايين و نصف فرنكا كما تقدم إن وفت بها المداخيل المعطاة لمجلس الإدارة فبها و نعمت، و إلا فالحكومة ملزومة بأن تكمل من باقى مداخيلها ما يوفى بذلك المقدار، غير أنها فى السنة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۶۱

الأولى لا- تكون ملزومة إلا- بما يكمل خمسة ملايين و ما نقص يذهب مجانا على أرباب الديون، و فى السنة الثانية تكون ملزومة بإكمال خمسة ملايين و نصف، و فى السنة الثالثة تكون ملزومة بإكمال ستة ملايين، و فى السنة الرابعة تكون ملزومة بإكمال الستة ملايين و نصف، و هكذا فيما بعد للأسباب التى تقدم شرحها فى ضعف القطر، و من الشروط أيضا أن الحكومة لها أن تستقرض من خزانة مجلس الإدارة مليونا متى أرادت لسبب قوى، على أن ترجعه قبل مضى ستة أشهر و لا تؤدى عليه فائدة، و منها أيضا إذا زاد دخل القسم المذكور من المداخيل على القدر اللازم فإنه يبقى منه نصف مليون للإحتياط، و ما زاد على ذلك يشترى به رقاع من الدين و تستهلك، و هكذا فى كل عام إلا إذا زاد الدخل على ثمانية ملايين فرنكا فإن ما زاد يقسم أيضا فالنصف يلحق بما تقدم فى إستهلاك رأس مال الدين، و النصف الآخر تصرفه الحكومة على نظر قسم العمل من الكومسيون فى المصالح العامة كالطرقات و غيرها.

و أما القسم الثانى: من مداخيل الحكومة و هو ما بقى من أنواع المداخيل كأعشار الحبوب، و الزيت، و خراج النخيل، و مدبغة الجلد، و الأداء على الرقاب المسمى بالمجبا أو الإعانة الذى هو نحو خمسة ملايين و نصف فرنكا، فإنه يتولى قبضه قسم العمل من

الكومسيون و هو الذى يتولى دفعه إلى الحكومة على مطابقته للميزان الذى يجعل فى رأس السنة لمصاريف الحكومة فى مصالحها و مرتبات العائلة الأميرية و لسائر المتوظفين، و تكون بطاقات الإذن لحافظ الخزنة بالدفع صادرة من الوالى غير أنه لا يختمها بإمضائه ما لم يجد عليها إمضاء أعضاء قسم العمل من الكومسيون إعلاما بأن البطاقة موافقة لأصول الميزان المالى، و لا يكتب من تلك البطاقات فى وقت من الأوقات إلا بمقدار ما فى الخزنة من المال بحيث لا تقع المماطلة لصاحب البطاقة من القابض الذى هو حافظ الخزنة، حتى ربما يضطر صاحبها إلى إسقاط شىء مما بها لتدفع إليه أو أنه يبيعها لغيره، مما يوجب إحداث دين جديد على الحكومة، هذا هو الرسم الذى جرى عليه العمل فى الظاهر و ربما وقع ما يخالفه على وجه تصعب مراقبته، فهذا ما يتعلق بأحوال الديون و ما جرى عليه العمل فيها و قد رفعت فوائضها فى السنين الأولى على نحو ما تقدم من مداخيلها المعينة لها، ثم فى بعض السنين أكملتها الحكومة من مداخيلها و فى بعضها زاد الدخل المعين لها حتى اشترى منه شىء من أصل الدين و فى بعضها رهنت الحكومة دار الجلد أى مدبغته لإكمال الفائض، بحيث أن جميع مدة تصرف الوزير خير الدين لم يبق على الحكومة شىء من فائض الدين، و انتسق دفعه فى أوقاته ثم جعل هذا الوزير معاهدة متجرية مع سائر الدول الأجنبية على أن يزاد فى أداء القمرق على السلع الداخلة من ممالكهم إلى القطر و المقدار المزاد خمسة فى المائة، و عين هذا المقدار إلى استهلاك الدين الذى يبقى بلا فائض، و أصله فائض الديون السابقة الذى لم يدفع و قدره نحو عشرين مليونا على نحو ما تقدم، ثم بعد خلاص ذلك الدين يرجع ذلك المقدار مع بقية دخل القمرق إلى فائض الدين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۶۲

المتحد و استهلاكه، و صار أداء القمرق على السلع بين المزيد و المزيد عليه ثمانية فى المائة.

و أما ما يتعلق بتحسين الإدارة المالية و الحكمية فى القطر فأحدث أمورا عديدة نافعة فمنها: أنه أبطل أنواع المجابى التى اختلفت كيفيتها و كميتها فى السنين المتقدم ذكرها و جعل على كل ذكر بالغ قادر على التكسب أربعين ريالا تونسيا فى السنة مدرجة على أربع سنين.

ففى الأولى: يدفع المطلوب خمسة و عشرين ريالا.

و فى الثانية: يدفع ثلاثين ريالا.

و فى الثالثة: خمسة و ثلاثين ريالا.

و فى الرابعة: أربعين ريالا.

و يجرى بها العمل من غير زيادة و شدد فى الأخذ على أيدى العمال بحيث لا تمتد يد أحد منهم إلى شىء زائد عما ذكر، و جعل لهم أجرهم ستة فى المائة يأخذونها من ذات الأموال المستخلصة على أيديهم الراجعة للحكومة، منها أربعة للعامل و ريالان للشيخ ثم أبطل هذا الأجر و عوض بواحد على كل عشرة تستخلص من الدافع زيادة على العشرة، بحيث صار على كل نفر أربعة و أربعون ريالا فى السنة و ذلك الواحد الزائد يجمع عند العامل فيأخذ هو النصف و النصف الآخر يقسم بين مشايخ العمل و نواب العامل المسمين بالخلفاوات.

و منها: جعل قانون معلوم لرسل الحكم فى استخلاص الأموال سواء كانت راجعة للحكومة أو للأهالى أو للأجانب، بحيث يأخذ المرسل نصف ريال على كل عشرة يستخلصها من الملة هذا إذا كان رسولا من الحكومة أى من أعوان الوالى أما إذا كان من أعوان العامل و غيره من الحكام غير أهل الشرع فإنه يأخذ ربع ريال على كل عشرة، و قد كانت قبل ذلك على حسب المشيئة.

و منها: ترتيب استخلاص أعشار الحبوب التى اضطرب حالها أيضا فحضر عشر كل ماشية أى ما يحرثه الرجل الواحد فى السنة الواحدة على الحيوانات المناسبة بحسب كل جهة و بذرها، مما يطلق عليه إسم الماشية هنالك فى خمسة و يبات قمحا و مثلها شعيرا، الذى هو أقل ما يمكن أن يكون عشر الخارج من النبات فى أغلب السنين و ما زاد على ذلك من العشر الحقيقى فهو فى عهدة ديانة

صاحب الزرع يدفعه لمن أراد، و إذا أثبت صاحب الزرع ما احتاج زرعه فإنه يسقط عنه بمقدار ما ضاع له و يؤدى أجرة الكيل و التقييد و التقدير أربعة ريالات على كل ماشية، هذا كله فى الجهات التى تدفع العشر من ذات الحبوب النابتة، و أما الجهات التى تدفع عوض ذلك دراهم لبعدها عن محل الدفع فإن الدافع يدفع خمسين ريالا على كل ماشية فى كل سنة و ريالين أجرة المستخلص،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۶۳

و هذا المقدار مراعى فيه حالة صاحب الفلاحة لأن ثمن الخمسة ويبات من القمح وحده تبلغ الخمسين ريالا، بحسب ثمن كل ويبة عشرة ريالات الذى هو السوم فى أغلب السنين، و روعى فيه أيضا جهة الحكومة لما يلزمها من كثرة مصاريف الحمل لعدم الطرق الصناعية، ثم إن ذلك المقدار قسط أيضا تدريجا على أربعة سنين يبتدىء بثلاثة و يبات و نصف من كل نوع على حدته و يزيد فى كل سنة نصف ويبة إلى أن يوصل فى العام الرابع إلى خمسة و يبات من كل نوع و مثله ما يقابله من المال، و قد نتج من ذلك عمران الأيالة بدليل أنه عند ولاية المذكور وزيرا مباشرا لم يكن فى الأيالة عشرة آلاف ماشية أرضا مزروعة و عند خروجه من خطة الوزارة ترك فى المملكة أكثر من مائة ألف ماشية مزروعة.

و منها: التخفيف على خراج الزيتون المسمى بالقاتون فى الوطن القبلى الذى كان أجحف بأهله فى المدة الماضية، حتى سلمت أصحاب الأملاك فيما يملكون و لم يقبل منهم و أغروا البوادى بإحراقه للإستراحة من مطالبه، فنزل من رتبة الريال و النصف ريال على كل شجرة إلى الثمانية نواصر على كل شجرة، و الناصرى هو جزء من تجزية الريال إلى إثنين و خمسين ناصرى، ثم أسقط عن أصحاب الزيتون إحدى و ثلاثين ألف شجرة زيتونا احترقت، و أسقط عنها أداءها، و به يعلم مقدار ما كانوا يتحملون و مقدار نقصان العمران فيما سبق، و نشر ذلك فى العدد الثانى من رائد سنة ۱۲۸۶ ه الذى هو الصحيفة الرسمية للحكومة، ثم أسقط هذا الأداء بالمرة و رجع الأمر إلى الوجه الشرعى و هو العشر على ما يحصل من الزيت، و فرح بذلك أصحاب الأملاك و أقاربهم فرحا شديدا لارتياحهم من إعياء ذلك الثقل العظيم.

و منها: تخفيف قانون النخيل ببلد نفزاوه من عمل الجريد، حيث كان ملحقا بسائر عمل الجريد مع أنه غير مساو لما فيه من شجرة النخيل خصبا و حسنا، فلذلك جعل على كل شجرة من نوع الدقلة ريالا و نصفا و على بقية أنواع النخيل ستة خرارب على كل شجرة، و الخروبة جزء من ستة عشر جزءا من الريال كما تقدم.

و منها: ترتيب مجلس محاسبة العمال و المتوظفين عما تعاطوه بحسب وظيفتهم و لم يوصلوه إلى الحكومة، و بقيت قبائلهم و بلدانهم مطلوبين للحكومة ببقايا ما عليهم، فتحرر من ذلك مبالغ جسيمة قبضت الحكومة بعضها و بعضها لم يقبض، إما لإعدام من قبضه أو للعفو عنه. و أسقط ذلك من المطالب الباقية على أصحابها من أهل الجريد و دريد، و جندوبه و الساحل، و أولاد عيار و أولاد مجور، و من ذلك محاسبة أحمد زروق و أتباعه، و إبراهيم بن عباس و إخوانه، و على الساسى و عبد الرحمن بن عمرو الحاج الحسنى، و ملخص الحسابات ما يأتى بيانه:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۶۴

ريالات

۰۰۰، ۰۰۰، ۸ من الساحل حسبما أفاد أحاد أعضاء مجلس المحاسبة.،

۱۱۵۸۰۸۵۲ من بقية الأعمال المذكورة حسبما نشرت المحاسبات.

۹۱۵۸۰۸۵۲

۵۸۸/ منها أيضا غنم/ ۱۲/ منها أحمرة

۰۶۴/ منها بقر/ ۱۳، ۰۷/ منها أقفزة قمحا

۰۲۰/ منها خيل/ ۱۲، ۱۱/ منها أقفزة شعيرا

۰۰۲/ منها أرطال فضة/ ۰۴/ منها بغال

۳۴۰/ منها إبل/ ۲۶/ منها طرحات تبن

و منها: تنقيح المتوظفين بما لا يوغر الصدور إلا من تفاقمت سقطاته فدحض، و أما غيرهم فلم يؤثر من كان من حزبه على غيره و لو على أضداده فلم يفد فيهم الإحسان و نقص بذلك اعتبار حزبه حتى رآه الوالى مفقود الأعوان و اتخذها ذريعة لعزله من الوزارة، و صدقت وصايات الحكماء الأقدمين الحاثين على جلب الأصدقاء و الأعوان و عدم الركون إلى الأعداء لأن تقريبهم لا ينفع و الأصدقاء يضمحلون بذلك، و أما دعوى التحزب بالجمهور فذاك أمر لا يتم إلا للملوك الذين رسخت قدمهم فى الملك بالتوارث و صار إنقياد الأنفس إليهم طبيعيا، أما الوزراء، فهم أشد الأصناف احتياجا إلى معونة الأصدقاء.

و منها: الترغيب فى غرس الزيتون و النخيل بأن جعل لكل من غرس منها شيئا أن لا يؤدى عليه شيئا من الأداآت المرتبة على ذلك النوع مدة خمسة عشر سنة.

و منها: رفع الضرر عن أهل الساحل من وطأة أصحاب ديونهم فإنهم كانوا يسجنون المديون مع قيام الرهن بيد الدائن، و يبيعون غلة الأحباس المشتركة مع المديونين و غيرهم، و يستولون على الجميع و يطلبون الضامن قبل فلس المديون مع عدم اشتراط ذلك، و يستولون على مخلفات من مات من المديونين و يبيعونها على غير يد الحكام، و إذا أفلس المديون لا يتركون له ما يستر بدنه و لا ما يقتات به و يتركون المديون فى السجن بلا تحديد مدة فأبطل جميع ذلك و أجرى فيه أحكام البلاد الشرعية و العرفية.

و منها: إرجاع من هاجر من القطر من الأهالى بالأمن لهم و العفو عمن سبقت منه جناية و إسقاط ما عليهم من المطالب إلى الحكومة و كذلك العساكر الذين فروا من القطر شملهم بمثل ذلك.

و منها: إرجاع من نكب من أتباع الحكومة و تأمينهم و تقليدهم بمثل ما كانوا عليه من الوظائف إذ لم يكن من سبب معقول لإبعادهم أو نفيهم أو نكبتهم، فرجع للقطر و للوظيفة السيد الشريف أمير اللواء حسن مقرون و أخوه، و الوزير رستم و الوزير حسين و أمير الأمراء محمد المرابط، و أمير اللوا يونس الجزيرى، و أمير اللوا مراد و أميرا الآلاى حسين ورديان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۶۵

باشا و أمير الآلاى حسن مدلجى، و القائم مقام على جهان و غيرهم.

و منها: حصر الديون التى على أهل الساحل من الأجانب و بناؤها على أساس لائق بالجانبين بحيث انقطع تفاقم الربا و تضاعفت زيوت السلم و جعل لخلاصهم مدة معينة على أقساط.

و منها: أن أمير لواء العسة إذ ذاك على بن فريجة نقم عليه الوالى و أرادوا أن يأخذوا منه أهم مصوغة و كسبه بأوجه من الدعاوى بلا بينة و لا ترافع، كما وقع مع الشهيد ابن إسماعيل السنى و رشيد فامتنع الوزير خير الدين و أقام له مجلسا لمحاسبته و مكنه من مصوغه و ما ثبت عليه بعد الحساب دفعه باختياره.

و منها: بذل وسعه فى استحصال فرمان سنة ۱۲۸۸ ه السابق ذكره على ما مر شرحه، و من فرح الوالى به و إكرامه على ما نتج على يده أن وجه له و هو مقيم بمالطه لمدة الحمية مصطفى بن إسماعيل، أقرب المقربين إليه و مستشار الخارجية محمد البكوش لإكرام خاطره و إبلاغ الشكر إليه، و أراد أن يلبسه نيشان البيت الحسينى فتعرض له الوزير مصطفى خزنه دار و أبدل له نيشان الصنف الأكبر بنيشان منه مرصع، ثم كافأه على ذلك بمرتب عمرى قدره خمسة و سبعون ألف ريال تونسية فى السنة، ثم عاوض له هذا المرتب بهنشير أى أرض وسيعة تعرف بالنفيضة.

و منها: إسقاط جميع البقايا الباقية على الأهالى من مداخيل الحكومة على اختلاف أنواعها مما سبق تاريخه سنة ۱۲۸۶ ه الذى هو مبدأ مباشرته للوظيفة، و انبعثت بذلك آمال الأهالى إلى تعمير الأرض حيث كانوا يرون أن ثمرة أعمالهم يستأثر بها غيرهم للوفاء بتلك البقايا الباهظة التى دفعوا أضعافها.

و منها: تركيب المجلس للحكم فى نازلة الوزير مصطفى خزنه دار عند عزله كما تقدم شرحه، و تجنبه للعادة فى مثل ذلك من كون الوزارة هى التى تباشر مثل تلك النوازل لينفى الشكوك و التهم، و منذ ذلك التاريخ انفرد الوزير خير الدين بالوزارة حسا و معنى، و لقبه الوالى بالوزير الأكبر و أبطل لقب الوزير المباشر و قلده بنيشان بيته الحسينى مع بقائه على رياسة الكومسيون المالى، و ذلك فى غرة رمضان سنة ۱۲۹۰ ه فزينت البلاد و عقد الأهالى محافل ليلية مع التنوير، و هكذا سائر بلدان المملكة و قبائل عربانها بما أذكرهم احتفالهم بفرمانه سنة ۱۲۸۸ ه حسبما سبقت الإشارة إليه، لتيقنهم بالإستراحة من تصرفات السابق و أملهم بإزدياد إصلاحات المتولى لما عرفوا من أياديه مما مر ذكره، و فى هاته الأثناء تمم إسقاط خراج الزيتون المسمى بالقانون فى الوطن القبلى الذى مر ذكره، و جعل عوضه لخزنة الدين تعميم الخروبة على جميع الأملاك سواء اكتريت أو سكن فيها المالك بأن يقوم كراءها و يدفع بحسبه خروبه على الريال أى جزءا من ستة عشر جزءا و عم ذلك البلدان و القرى و البساتين لأن نواب أصحاب الدين لم يرتضوا بإسقاط القانون إلا بعوض عنه فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۶۶

الدخل، و من تصرفاته بعد ذلك إنشاء جمعية الأوقاف بأن جعل نظر الأوقاف مطلقا فى جميع أنحاء القطر لجماعة من أعيان الأهالى مركبة من رئيس و نائبه و عضوين، و كان الحقير متوليا إدارة هاته الوظيفة التى أصحابها ينظرون فى مصالح الأوقاف سواء كانت أهلية أو على أعمال البر، لكن الأهلية نظرهم فيها بإرشاد أهلها لإقامتها و حراستها من الإتلاف و التى على أعمال البريتولون إدارتها و حفظها إذ كانت تلاعبت بها أيدى الإهمال، و كانت كأنها مناط التفضلات فما من وقف له شىء من الدخل قليل أو كثير إلا و يعطى لأحد ذوى التقرب أو الإستناد لمن بيده التصرف، فتعطلت منافع الأوقاف و أهمل الموقوف عليه إلى أن خرب أكثره، و قد عينت ثقاة لتحرير ما يكفى لإصلاح الموقوف عليه وحده، فكان تقدير ما يكفى ۳۱۶۶۷۷۵ ريالات مع تعطيل مرتبات الشعائر و تراكم ديون القوانين الراجعة للحكومة من الموظفات على الأوقاف، حتى صار عليها من الدين ما يقرب من نصف مليون فتدارك أمرها بذلك الترتيب و أقيمت الجوامع و المساجد و المدارس فى كل جهات القطر، و هكذا الأوقاف على قراءة القرآن و غيره من أنواع البر، و كان دخل الأوقاف عدا أوقاف الحرمين الشريفين و عدا أوقاف جامع الزيتونة، لأن ذلك مستثنى من العموم لكل إدارة مخصوصة و هكذا أوقاف المدرسة الصادقية الآتى بيانها، فما عدا ما ذكر و عدا الأوقاف الأهلية و الزوايا التى لها ذرية كان دخله فى السنة الأولى من مباشرتى و هى سنة ۱۲۹۱ ه ۰۰۰، ۱۲۰۴، و صار دخلها فى السنة الخامسة و هى آخر السنين التى باشرت الإدارة فيها بتمامها و هى سنة ۱۲۹۵ ه ما قدره ۲۱۵۴۰۷۳، و أصلحت فى مدة الخمسة سنين ۳۳۳۰ مكانا و كان المصروف فى سنة ۱۲۹۵ ه على خصوص إقامة الشعائر ۵۶۷۰۸۲، و ما دفع للحكومة فى قوانينها على ما يخص الأوقاف ۱۹۱۹۳۴، و كان المصروف فى الإصلاحات ۱۶۸۰۷۲، فمجموع ذلك ۹۳۰۱۲۳، ثم كان المصروف من الداخل المذكور على عموم المصالح غير الموقوف عليه ۵۵۶۴۰۹ الجميع ريالات تونسية كما نشر جميع ذلك بالرائد التونسى الذى هو الصحيفة الرسمية للحكومة.

و من تصرفاته التى قمت بإجرائها إجراء مرتب لأهل المجلس الشرعى بالحاضرة و قد كان هذا المرتب عين لهم فى مبادىء ولاية محمد الصادق باشا على أن يكون من فواضل الأوقاف، و جمعت إذ ذاك الأوقاف لنظر محتسب فلم تقم بنفسها و لا وفت بتلك المرتبات إلا فى بعض أشهر، و استخلصت إذ ذاك معاوضات كثيرة و صرفت فى ذلك المصرف و ضاعت الموقوفات و مع ذلك لم يحصل المقصود، حتى أنيطت وكالة بعض الأوقاف بأهل المجلس الشرعى مفرقة عليهم لكى يستنفعوا منها بما يقابل المرتب، فجرى فيها مثل ما كان و لم يحصل لهم المقصود حتى ذكر بعضهم أنه كان يناله فى جميع السنة خمسمائة ريال، فأجرى لهم الوزير خير الدين من فواضل الأوقاف خمسمائة ريال فى كل شهر على مجرد الخطة الشرعية، و لكل من شيخ الإسلام و رئيس الفتوى من المالكية ثمانية آلاف فى السنة عدا ما لكل منهم من مرتبات وظائف أخرى و جرايات من القمح عشرة أقفزة و مثلها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۶۷

شعيرا و اثنى عشر مطرا زيتا، و يزيد لكل من الرئيسين المذكورين على ما ذكر قفيزين من كل نوع و ثلاثة أمطار زيتا، و أطرد جريان ذلك و لم يتأخر عن أصحابه و لا شهرا واحدا مدة مباشرتى.

و منها: أيضا الزيادة فى مرتب المدرسين بجامع الزيتونة الذين مر ذكر ترتيبهم من أحمد باشا، فزاد لكل مدرس من الطبقة الأولى ثلاثة ريالات يومية، و لأهل الطبقة الثانية ريالا واحدا و كان إجراء ذلك أولا من مال الحكومة ثم أجريته لهم من فواضل الأوقاف.

و منها: جعل مرتب للحكام الشرعيين فى جميع بلدان القطر على خصوص وظيفة الحكم الشرعى، و لم يكن لهم ذلك من قبل بل كانوا مقتصرين على مرتبات من دروس و إمامة و خطابة، فأجريت لكل قاض ببلد فيها مفاتى مايۀ و خمسين ريالا فى الشهر، و لكل مفتى مايۀ و عشرين، و لكل رئيس فتوى مائة و خمسين، و لكل قاض فى بلد لا مفتى بها و هى البلدان الصغيرة تسعين ريالا فى الشهر.

و منها: جعل وكيل للخصام عن الناس العاجزين عن الخصام بأنفسهم و العاجزين عن أجرة الوكيل.

و منها: إحداث طريق صناعى بين تونس و حمام الأنف طوله نحو إثنى عشر ميلا، و قد كان ذلك الطريق الذى هو أهم طرق جهات القطر يتعطل المرور فيه زمن الشتاء لكثرة الوحل و تموت فيه حيوانات كثيرة للمارة و لا يكاد يصل صاحب العجلة فيه مع قوة مراكيبه التى تجر العجلة إلا فى نحو نصف يوم هذا إن سلمت عجلته حتى أن الأمراء و الوزراء يربطون فى عجلاتهم أربعة من الخيل أو البغال أو أكثر لمن يسوغ له ذلك و لا يصل إلى حمام الأنف إلا فى أربع ساعات أو أزيد، أما الضعفاء فلا يستطيعون المرور فيه و ترى المارة يرودون الطرق البعيدة بأضعاف طول ذلك الطريق الذى هو ضرورى لجميع من كان فى الجهة الجنوبية الشرقية من القطر كأهل الساحل و صفاقس و الأعراض و الجريد و غيرهم، فزال جميع التعطيل بإحداث ذلك الطريق و إن عده بعضهم أنه من التحسينات التى تأخر عن غيرها فهذا لجهله بأسباب العمران و عدم تفرقته بين الضرورى و التحسينى.

و منها: التحجير على معاوضة الأوقاف بمال من النقود بل لا بد بعد المسوغ الشرعى من أن يعوض مكان الوقف بمكان آخر يدا بيد، حيث كان ضاع على الأوقاف بسبب مخالفة تلك الطريقة أموال لها بال، إذ حررت الأموال التى وجدتها مقيدة بدفاتر القضاة و المفتيين بأنها ثمن أوقاف عوضت و لم يشتر بثمنها شىء فكان مجموع المال ۲۴۰۰۶۷۳ هذا عدا ما عوض و لم يرسم فى الدفاتر، و إنما كتب فى رسوم أصحابه و لم يبق للوقف حجة فيه و هو أيضا كثير. ثم ذلك المبلغ أكثره ضاع بالمرة إما لجهل من أمن تحت يده حيث يقال فى الرسم و أمن تحت يد من يوثق به، أو أنه أمن تحت يد أناس قد ظهر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۶۸

إفلاسهم حتى أنه مع غاية الاجتهاد إنما أمكن أن يستخلص من المليونين و نيف المذكورة نحو مائتى ألف ريال فقط، و اشترى بها أملاكا وقفت على مرجعها و زالت أسباب الضياع بسبب ذلك التحجير.

و منها: التحجير على العدول الذين يكتبون رسوم بيوع الأملاك بأنهم مهما وجدوا فى رسم معاوضة أو إنزالا أى كراء موبدا إلا و أخبروا به جمعية الأوقاف لكى يتحرر بذلك الوقف، فنتج من ذلك ظهور أموال للأوقاف تبلغ قيمتها مايات الألوف، كما ظهر بالبحث أيضا أملاك أخرى أصلها وقف و استولت عليها أيدى العدوان و رجعت إلى أوقافها بالمرافعة و الأحكام الشرعية، و كان من جملتها نيف و سبعون هنشيرا، أى قطعا من الأرض المترثة ما بين كبير و صغير زيادة على الزياتين و غيرها من الأملاك التى تتجاوز قيمة المليون.

و منها: إبراء من كانت عليه رسوم فى أموال من المعاوضات المذكورة مثبتة فى دفاتر القضاة مع أن أصحابها دفعوها أو اشتروا بها أملاكا رجعت إلى أوقافها و لم يكتب على المرسوم فى الدفاتر ذلك، حتى لو ضاعت حجة الخلاص على المدين لبقيت رسوم الدين عليه قائمة، و الحال أنه خالص. و كان الذى تحرر من ذلك القبيل ما يبلغ المايتين ألف ريال أو تزيد فأبرئت أصحابها و علم على رسوم الدين بالخلاص.

و منها: أن عائلة حاى الصباغ الذى مر ذكره أنه كانت له علقة بالوزير السابق قد نال الحماية من دولة ألمانيا مع أنه تونسى و لم يجر عليه ظلم، فتكلم الوزير المذكور مع دولة ألمانيا بوسائط سياسية إلى أن صدر مكتوب منها رسمى بأن الصباغ المذكور لا تناله حماية ألمانيا فى خصوص القطر التونسى بل تجرى عليه أحكام بلاده و إنما يكون ألمانيا إذا كان فى غير ذلك القطر.

و منها: إنشاء مجلس مختلط من متوظفى أغلب قنسليات الدول الأجنبية الذين لهم كثرة رعايا فى القطر و رئيسه أحد المتوظفين التونسية للحكم فى نوازل الديون و المعاملات المالية الواقعة بين أهل القطر و الأجانب فيما إذا كان لا يتجاوز المال الألف ريال، و لم يتخلف عن الدخول فيه إلا دولة إيطالية لخلاف وقع فى المقدار الذى يجوز التحاكم فيه لدى ذلك المجلس، لأن قوانينها إنما تسوغ الحكم فى رعاياها على خلاف قانونهم فى مقدار لا يبلغ إلا ألف ريال فقط، و دامت المذاكرات فى ذلك المعنى إلى ان انفصل الوزير المذكور عن الوزارة و حصل من هذا المجلس قطع تشعبات عظيمة و هرج كثير فى الخصام لأن الديون القليلة و المعاملات الضعيفة كثيرة الوجود و اختلاف الحكم فى بلد واحد من المصائب العظمى، فزال ذلك بوجود ذلك المجلس.

و منها: شروعه فى المذاكرة مع الدول العظام على اتحاد الأحكام فى القطر و لما كان يعلم أن دول أوروبا لا ينقادون إلى إدخال رعاياهم تحت أحكام الشريعة الإسلامية فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۲۶۹

تونس إذا بقيت حالة القضاة على ما هى عليه الآن حيث أنه يوجد لكل من المذهب الحنفى و المذهب المالكى قاض مطلق الحكم فى النوازل، مع ما يوجد بين المذهبين من الخلاف فى كثير من الفروع بل و فى المذهب الواحد تختلف الأقوال و يكون للقاضى الاجتهاد فى الترجيح و التطبيق باعتبار الأصلح و العرف، فيحكم هذا القاضى فى حادثة بما يخالف حكم قاض آخر فى مثلها، و الأروباويون يريدون أن تكون الأحكام المدخول عليها معروفة لهم من قبل مضبوطة بما لا يتوهمون معه ميل الحاكم إلى غير ما توجبه الحجة، فلذلك أحضر الوزير خير الدين القوانين المعمول بها فى الدولة العلية المتعلقة بالأحكام، و كذلك القوانين المعمول بها فى مصر، و كلف أحد المهرة العارفين بالأحكام الأوروباوية بأن يستخرج من أحكامهم ما يوافق حالة القطر و عرفه، و بعد ذلك عقد الوزير المذكور مجلسا مؤلفا من شيخ الإسلام من العلماء الحنفية و هو الشيخ أحمد بن الخوجه، و من عالمين من المجلس الشرعى المالكية و هما: الشيخ محمد النفير المفتى، و الشيخ عمر ابن الشيخ قاضى باردو، و من أحد الوجهاء العقلاء العارفين بإصلاحات البلاد و تجارتها و هو الوجيه حسونه الحداد ليستخرج هذا المجلس من مجموع ما تقدم قانونا شرعيا مطابقا للأحكام الشرعية و العرفية التى عليها عمل القطر من غير تخصيص بأحد المذهبين، و لكن عاق عن الإستفادة من ثمرة هذا العمل خروج الوزير المذكور من الوزارة فترك المجلس مع أن اتحاد الحكم على سكان قطر واحد ضرورى.

و منها: إنشاء المدرسة الصادقية لتعليم مبادىء الفنون الشرعية كالقراءة و الكتابة و القرآن و العقائد. و الفقه الحنفى. و المالكى و النحو و الصرف و الأدب و التاريخ و الخط و المعانى و تهذيب الأخلاق و الحديث، و تعليم اللغات التركية و الفرنساوية و الطليانية، و تعليم الفنون الرياضية كالحساب و الهندسة و الهيئة و الجبر و الجغرافيا و الفلك، و رتب لها معلمين لكل فن و جعلها تقبل مائة و خمسين تلميذا من جميع أبناء القطر المسلمين منهم خمسون تلميذا من أبناء العاجزين عن القيام بهم، و هؤلاء يسكنون بالمدرسة و تقوم بهم زيادة على التعليم بالأكل و اللبس و المسكن مجانا، و أما المائة الباقية فالمدرسة تقوم بأكلهم نهارا مرة فقط، و بالتعليم مجانا، و يلزم أن تكون جميع التلامذة فى لبسهم على شكل واحد، و أوقف عليها من أملاك الحكومة أوقافا لها بال يزيد دخلها السنوى على المائتين و الخمسين ألف ريال، و نتج من أبناء البلاد ما شهد لهم به الوافدون من أهل أوروبا و الحاضرون لامتحانهم، و مثل هاته المدرسة ضرورى للممالك الإسلامية سيما فى العلوم الرياضية التى اضمحلت من الأمة، و إنما خص التلامذة من أبناء المسلمين من خصوص الأهالى لأن أبناء الأجانب لا يمكن إجراء التراتيب فى حقهم مطلقا إلا إذا وافق أولياؤهم، و الموافقة منهم كأنها غير مأمونة فى كل وقت سيما مع اختلاف الأحكام التى مر ذكرها، و أيضا من خصوصيات المنح للتلامذة عند استكمالهم

للمعارف أن يتقدموا فى جميع الوظايف المحتاج إليها فى القطر على غيرهم، و هذا إنما يليق بأبناء القطر أما الأجنبى فإنما

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۷۰

يتقدم بل يستخدم بخصوصيات أخرى، و أما تخصيص المسلمين فلأن غيرهم بالنسبة إليهم قليل جدا كما مر ذلك فى فصل صفة القطر، ثم أولئك القليلون لا- يرغبون فى إتباع جميع تراتيب المدرسة التى منها تعلم العلوم الشرعية التى هى المقصد الأهم لكى يحصل التبصر من علماء الديانة بالعلوم الرياضية و يوفقون ما بين ما يظهر بحسب بادى الأمر أنه مخالف للشرع من بعض العلوم الرياضية، ثم إن الوزير المذكور عزم على إيجاد مدرسة على ترتيب آخر صالح لدخول غير المسلمين فيه.

و منها: تحبيس كتب رجعت للحكومة من صلح الوزير السابق تبلغ نحو ألفى مجلد فألحقها بنحو تحبيس الكتب من أحمد باشا بالخزائن التى عمر بها صدر جامع الزيتونة.

و منها: ما أنشأته بأمره من إحداث المكتبة الصادقية حول جامع الزيتونة و جعل لها ترتيبا لم يسبق فى البلاد على نحو التراتيب الجارية فى الأستانة و الممالك المتمدنة، بحيث لا يخرج الكتاب من المحل و يستنفع المريد بما شاء من الكتب، و أنواع الإستنفاع مع تحسين هيئة المكان و إحضار فرشه و المحابر و الأقلام، و ساعة للإعلام بالوقت و الرسم بأن كل الأوامر الرسمية العامة العمل يحفظ منها بتلك المكتبة نسختان لكل من أراد مراجعة ذلك، و انتظام وضع الكتب و ترتيبها على نسق يسهل الإستنفاع بها و مناولتها، و أوقف عليها جميع كتبه العربية و كانت تبلغ نحو ألفى مجلد، كما جمع بها سائر الكتب التى كانت مفرقة فى الجوامع و المدارس و تلاشتها أيدى التلف حتى ضاع أكثرها، فإن خزانة الكتب الحنفية بالمدرسة الحسينية وجد بها مكنسة و لم يوجد بها و لا ورقة مع أنها كانت تشتمل على مئات من المجلدات، و هكذا أغلب الخزائن مع عدم النفع بها إلا لمن كانت بيده و هم أفراد قليلون يعسر عليهم وجدان الكتاب الذى يريدونه لعدم ترتيب وضعها و ضبطها بدفتر و إعداد فضبطت و عم النفع بها لكل مريد من المسلمين، حتى قال بعض من كانت بيدهم تلك الخزائن: أقسم أنى الآن استنفع بما كان تحت يدى من الكتب أحسن مما كان عندى.

و منها: إنشاء مجلس مكلف بنظافة البلاد كأنه شعبة من المجلس البلدى، لكنه يزيد عليه بدخول أعضاء من الأجانب لتيسر أداء الأجانب ما يلزم للنظافة و حصل به شىء من النظافة الضرورية.

و منها: إنشاء ترتيب للعلوم و تدريسها بالجامع الأعظم جامع الزيتونة حتى لا تهجر علوم و لا يزاد على قدر الحاجة من غيرها، و تضبط الدروس و تجرى على الوجه المطلوب للوصول، و جعل امتحانا للتلامذة فى كل سنة حتى لا يتقدم للوظائف العلمية إلا من قدمته نجابته و تحصيله.

و منها: إنشاء ترتيب فى إدارة المجالس الشرعية لقطع وجوه تطويل الخصومات

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۷۱

و دفع تعارض الأحكام و تسهيل المراجعة بينهم و تحديد أجر أتباعهم و تعيين محل للحكام الشرعية خارج الحاضرة، حيث كان كل يحكم فى مكانه بحيث صارت المحاكم الشرعية معلومة مضبوطة أوقات الإنتصاب فيها إلى الحكم و إن كانت لذلك سابقية فى خصوص الحاضرة من مدة محمد باشا، لكن اعتراها الخلل فجدد انتظامها على حسب الوقت.

و منها: إنشاء ترتيب لأعمال العدول المنتصبين للشهادة و ضبط عددهم بالموجودين و حصر المحتاج إليه فى كل جهة بعدد مخصوص، و عدم تولية غير الموجودين إلى أن يصل العدد إلى القدر المحصور فيه، فإذا نقص منه أحد لا يزاد إلا بانتخاب أهل الشرع مع ضبط كيفية أدائهم للشهادة و تحملها و كتبها مما يندفع به حصول الزور و تبعد به التهم.

و منها: إحياء إرسال محصل أوقاف الحرمين الشريفين للمستحقين من أهلهما بعد أن مضت على إبطال ذلك سنوات، و أكلت أموال تلك الأوقاف على غير وجهها، فمنذ ولاية الوزير خير الدين أطرد إرسالها.

و منها: إنشاء سجن عمومى للنساء و آخر للرجال على صفة السجون فى البلاد المتمدنة من النظافة و تخلل الهواء و الطبيب و الفرش

الضرورية للنوم و محل للطهارة و مسجد للصلاة، و جعله مقسما على عدة أقسام بحسب الجنايات التى يسجن فيها و بحسب حال المسجون من السن و العرض، بحيث صار سجنا لا كما كان مقتلا، و إن حصر دخوله بمن يحكم عليه بالسجن أما الموقوفون فقد بقوا يوقفون فى السجن القديم فكانوا أشد عقوبة ممن ثبتت عليهم الجنايات، و لذلك كان الوزير خير الدين المذكور عازما على إحداث محل للإيقاف.

و منها: حصر أجر أعوان الحكومة و أتباعها المرسلين فى الإتيان بالجناة فى مقادير معلومة معلنا بها للعموم على حسب الجنايات و بعد مكان المجلوب بحيث صار ذلك القدر معينا بالحكم بمقدار غير مجحف لا كما كان من تفويضه لإرادة المرسل الذى كثيرا ما أضر بالجناة، بل بالذى تثبت براءته أكثر مما يناله من الحكم.

و منها: جعل خزانة يجمع بها أجر أولئك الأعوان المتوجهين من الحكومة، و يخرج منها فى رأس كل شهر أجر معين للأعوان المسمين بالبوابة الذين كانوا يأخذون مقادير ممن يريد الشكاية، و يقع بسبب ذلك محاباة فى تقديم بعض المشتكين على بعض ثم يقسم الباقى على الأعوان الأخر الذين فى نوبة الخدمة على حسب رتبهم، و حصل بذلك تعادل فيما يحصل للأعوان و تحسين فى هيئتهم و شارتهم، لأنه قبل ذلك كان المقرب عند رئيسهم يحصل على مال كثير، و غيره يبقى على الإعدام مع اتحاد الوظيفة.

و منها: أن من يجلب من المشتكى بهم و تثبت براءته لا يؤدى أجر جالبه سواء كان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۷۲

فى مال أو جناية، فإن كان للمشتكى شبهة راجحة فى شكايته لا يؤدى هو أيضا الأجر و يحسب المتوجه فى النازلة كأن لم يتوجه فيها و يعاد توجيهه فى نازلة أخرى، لأن أجره فى الواقع يخرج من عموم ما فى خزنة الأعوان، و إلا بأن ظهر تعمد المشتكى للباطل فهو أحق بالحمل عليه.

و منها: حصر أجر ما يكتب من التسجيلات فى خصومات الأهالى على أيدى العمال فى مقدار معين، و هو ريالات ۱۲۲ بحيث لم يبق الأمر على مشيئتهم الذى كثيرا ما كان سببا لامتداد أيديهم لأموال الأهالى.

و منها: الأمر بعدم التشديد فى توثيق الكتاف على من يجلبه أعوان الحكومة من الجناة إذ كان وسيلة لهم فى التوصل إلى المال.

و منها: إبدال السكة الفضة التى كانت ناقصة فى الوزن و من كانت فى يده تبدل له فى الحال بسكة الذهب الكاملة يدا بيد على خلاف ما سبق، كما مر ذلك فى واقعة الفلوس النحاس.

و منها: ضبط العرف الجارى به العمل فى الفلاحة التى هى أهم أشغال أهل القطر و مورد ثروته، و ضبط ما يتعلق بشركة الخماس فى قانون معروف يرجع إليه عند الحاجة و قد كان من قبل لا يعرف له مرجع إلا الإستخبار من أفراد أصحاب الفلاحة و كثيرا ما يقع بينهم الإختلاف فى الأخبار عن العادة و العرف حتى يحتار الحاكم فيما يحكم به.

و منها: ترتيب مجلس التحفظ العمومى على النحو الجارى به العمل فى الممالك المتمدنة و جعل له قانونا خاصا يرجع إليه، و أدخل فى أعضاء المجلس أعيانا من متوظفى الحكومة مع قناسل الدول الذين هم أعضاء لذلك المجلس.

و منها: إنشاء ترتيب لكيفية أعمال العمال فى مواصلتهم مع الحكومة و ضبط مكاتيبهم و أحكامهم فى دفاتر لتكون حجة فيما يراد الرجوع إليه، و ليعلم الداخل للوظيفة ما هى أعمال السابق عليه هذا، و أما ما يرجع إلى تحسين مالية الحكومة و الأهالى فقد شدد النكير على العمال و سائر المتوظفين و حصر أوجه الدخل و الخرج و بناها على ميزان سنوى على نظر قسم النظر من الكومسيون المالى، و ضبط كيفية القبض من الرعايا بأن كل من يدفع ما عليه من المال المعين الذى استوت فى معرفة مقداره الأهالى جميعا، يأخذ بيده حجة من نوع خاص من البطاقات على شكل خاص مختومة من شيخ القبيلة أو عاملها، مقطوعة من دفتر خاص بذلك بحيث يبقى نصف الرقعة فى الدفتر مرسوما بها نظير ما بيد صاحب المال، لينضبط الإستخلاص و لا تمتد الأيدى إلى الأموال، و من خالف ذلك عوقب على حسب جنايته، ثم خفف كثيرا من الأداء على السلع الخارجة من القطر الذى هو الأمر المعقول لتكثير الثروة

فى القطر بنفاق نتائجه و استعواضها بأموال غيره، و ذلك يحصل بترخيصها و تسهيل نقلها و إخراجها، فصدر لذلك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۷۳

مكتوب الوالى للقناسل معلما بما يأتى بيانه:

الأداء على البضائع:

ما كان سابقا ما استقر عليه الحال

ريالات ريالات

۲۰/ ۱۰/ قنطار الشمع

۴۰/ ۲۰/ الصوف المغسولة عدا ما يؤدى للقمرق و دار الجلد و هو ۴

۱۲/ ۶۰/ قنطار الجلد القريقى

۳۰/ ۱۰/ قنطار الصوف بونتوف أى المركبة من المغسولة و غيرها.

۲۰/ ۱۰/ قنطار الصوف غير المغسولة عدا ما للقمرق و دار الجلد و هو ۲

۲۵/ ۱۰/ قنطار التمر الدقلة

۶۰/ ۳۰/ قنطار التمر الحرة

۶۰/ ۱۲/ قنطار تمر قابس

۰۲/ ۰۲/ قنطار البسر

۲۰/ ۱۰/ قنطار جلد المعز

۱۵/ ۰۸/ قنطار بطانة الغنم أى جلدها

۳۰/ ۱۰/ قنطار القطن الغير المصنوع

۳۰/ ۱۰/ قنطار النيله

۰۵/ ۰۵/ قنطار القماعة كأصله نوع من الإبزار

۰۴/ ۰۴/ قنطار القنطس مثله

۲۵/ ۱۰/ قنطار العسل

۶۰/ ۳۰/ قنطار النشاف أى الإسفنج المغسول

۴۰/ ۱۰/ قنطار الغوة نوع من الصبغ

۷۲/ ۰۳/ قنطار الحنة

۲۵/ ۱۰/ قنطار القرنيط نوع من السمك

۱۰/ ۰۵/ رطل العلق أى دود الماء يستعمل لامتصاص الدم من الإنسان فى الأمراض

۱۵/ ۰۵/ قنطار بيض السمك و لحم التن

۱۵/ ۱۵/ قنطار النشاف أى الإسفنج غير المغسول كأصله

۱۵/ ۰۷/ قنطار النحاس أسقط عنه الأداء بالمرة قنطار الصابون

۱۱/ ۰۸/ صابون سوسه مع أن أداء الطبخ داخل فى ذلك

۰۰/ ۱۶/ الزيت و قد كان من قبل يؤدى بالمطر فصيره وزنا

و على النسبة المذكورة وقع التخفيف على مصنوعات الصوف و القطن فى جربه التى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۷۴

هى أعز صنائعها على ما مر، فصار على ما يأتى:

على ما يباع من الغزل: ۶/ فى المائة

على ما يخرج من جربه إلى مراسى المملكة: ۳/ فى المائة

أداء للعامل على كل شدادة من المصنوعات: ۳/ ريالات

على ما يباع من المصنوعات: ۶/ فى المائة

على كل شداده للزام: ۱۲/ ريال و نصف

و منها: إنشاء مراكز للقمرق فى جهات الحدود لضبط القمرق.

و منها: انتساق دفع المرتبات لأصحاب الوظائف سيما الوالى و آل بيته، بحيث يقبضون مرتباتهم من أول الشهر إلا ما ندر، أما الوالى فلم يتخلف مرتبه و لا شهرا واحدا عن ميعاده، و قد حصل فى بعض السنين زيادة فى الدخل عن المقدار المعين للمصروف فاشترى به مقدارا من دين الحكومة لذاتها لا أنه مما يرجع إلى مجلس الإدارة النائب عن أصحاب الديون و استفادت منه الحكومة فى وقت قلة الدخل، لكن لم تتم الفائدة حيث أن بعض المغرضين سعى فى إسقاط اعتبار مالية الحكومة على ما سيأتى بيانه، فلزم لرفع ثمن سهام الدين إقراض الحكومة بعض التجار لتظهر الرغبة فى شراء الرقاع بما يطمئن به التجار، فرهنت الرقاع المشتراة للحكومة لذلك القرض و لم ينفع ذلك فى ارتفاع الثمن بل زاد فى الإنحطاط إلى أن خسرت الرقاع بالمرة و بيعت فيما رهنت فيه و أفلس التاجر الذى أقرض المال، و مما حصل من أعمال هذا الوزير مدة ولايته: جعل مراكز من العربان فى الطرق المخيفة و إعفاء أصحاب المراكز من الأداء الموظف على بقية السكان و إجراء شىء من الحبوب إليهم، على أن يعمروا تلك الجهات و يكونوا مطلوبين بما يحصل فى أماكنهم من الجنايات على المارة، حيث أنهم هم الحارسون. و بذلك و بإنفاذ الأحكام من غير محاباة أمنت السبيل و استقر الأمن حتى صارت القوافل و الفرادى فى الأمن و عدم الخوف سواء.

و منها: الإحسان إلى المحسن من الأهالى بأمنه فى ماله و عرضه و نفسه و إن كان موقتا بمدة انتباه الوزير و إجراء العقاب بلا ضعف على من يحب الراحة و لا يطبع أوامر الحكومة، حتى أنه لما ظهر من فرقة من قبيلة الهمامه عصيان و تحير للأمن بانتهابهم لغيرهم من القبائل و إخافة السبل، وجه لهم معسكرا تحت رياسة وزير الحرب رستم و زجرهم و عاقبهم عندما أظهروا حربه و أرجعهم إلى الطاعة، و أمن تلك الجهات و عندما رجع للحاضرة و علموا باستقراره عادوا إلى ما كانوا عليه ظنا بعجز الحكومة عن إرسال معسكر أثر السابق، فلم يكن من الوزير خير الدين إلا أن وجه عليهم فرقة من العساكر الفرسان المسمين بالحوانب و الصبائحية مع أوامر لمن يمرون عليهم من قبائل العربان بأن يتوجه معهم فرسانهم فى أقرب وقت لردع البغاة، فلم تكن إلا بضعة أيام حتى عاقبوا البغاة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۷۵

و خضدوا شوكتهم بما استقر معه الأمن منهم إلى الآن، و بمثل هاته الشدة فى إبانها و الرفق و اللين فى إبانه خضعت القبائل و بادروا إلى دفع أموال الحكومة فى إبانها و نفذت أوامر الحكومة فيهم و انقادوا لها بطيب نفس لإجرائها العدل فيهم بما لم يبق لهم معه خوف من امتداد الأيدى إلى مكاسبهم، فأقبلوا على العمران و كثرت ثروتهم حتى أن فى العام الثانى و الثالث من ولاية هذا الوزير كثر شراء الأعراب للحلى من الفضة لما سبق من عدمهم منها و تكاثر ذلك تكاثرا فاحشا إلى أن صار الصياغ لا يوفون بمحتاجهم، و صارت دار السكة كل يوم تصنع علامة السلامة و الصحة مع المصوغ المذكور بما يبلغ وزنه إلى عشرات أو مئات القناطير إلى أن كتبت أخباره فى الصحف العربية و الأروباوية.

و منها: جعل صندوق مقفول له منفذ لوضع المكاتيب فيه لمن أراد رفع نازلته للوزير أو إنهاء مصلحته بأن يشرح مقصوده و يبين دليله

و لا يلزمه التصريح باسمه ليسهل رفع المظالم و عدم الخوف، و جعل مفتاح المحل الذى يمكن وصول كل الناس إليه عنده و التزم أن يفتح هو بنفسه جميع المكاتيب و يوقع عليها بما يراه من الملاحظات فيها و يوجهها لأحد أقسام الوزارة الراجعة إليها النازلة بحيث تكون النوازل على ذكر منه لكى لا يقع التحريف فى تلخيصها أو إهمالها، مما ربما يمكن أن يحدث فى بعض النوازل و إن نسب إليه بعض المتوظفين فى ذلك عدم الثقة ببعضهم و حب الإستبداد بكل الأشغال، و هو يقول إنه إنما جعل التعب على نفسه و لم ينقص من مراتب المتوظفين شيئا إلا عدم القدرة على فتح المكاتيب إلا بإذنه.

و منها: تحسين حالة مطبعة الدولة التى هى ضرورية فى هذا الزمان لطبع الكتابات الرسمية و غيرها مما يعجز عن الوفاء به الكتاب، و تيسير نشر الكتب فى الفنون ليسهل تناولها بالثمن اليسير و يتوصل للإنتفاع بها ذو الجدة و غيره الذى هو من أعظم الأسباب لترقى الأمة فى المعارف و العلوم، و هكذا تحسين إدارة الرايد التونسى الذى هو الصحيفة الرسمية للحكومة و صار صدوره موقتا مثل سائر الصحف، بعد أن كان لا يخرج منه إلا عدد يسير ربما بلغ النصف أو أقل مما يلزم خروجه سنويا و الحال أنه أسبوعى، ثم الإفادة فيه بأفكار الوزير فى المسائل السياسية بما كان ينشر فيه من المقالات المرشدة الذى هو ضرورى للحكومة فى إيقاظ أهلها و السكان و إرشادهم لما تراه بلطف إلى غير ذلك من فوائد الصحف على ما سيأتى فى الخاتمة إن شاء اللّه تعالى. زيادة على نشر الأوامر الرسمية ليستوى فى معرفتها القريب و البعيد، و دليل ما ذكرناه اختلاف منحى الرائد بعد خروج الوزير من الوزارة عما كان من شحنه بالمقالات السياسية كمقالة المدار على الرجال غيرها مما هو كثير، و ألزم المتوظفين بقراءته و أخذه إذ يقبح بالمتوظف أن لا يعلم أحوال حكومته فضلا عن غيرها، بل ذلك شرط فى المتوظف فى الممالك المستقيمة.

و منها: جعل خزائن لمكاتيب الحكومة و جمع العتيق منها على ترتيب يسهل به معرفتها و التوصل إليها فى أقرب وقت و ذلك من أهم الأمور.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۷۶

و منها: تعميم أمر تعظيم المولد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة و أزكى التسليم، فجعل له مواكب فى جميع البلدان بالقطر مع إطلاق المدافع عند الوقوف لسماع الأبيات، و هى قوله:

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهبعلى ورق من خط أحسن من كتب

و أن تنهض الأشراف عند سماعهقياما صفوفا أو جنبا على الركب

أما اللّه تعظيما له كتب اسمهعلى عرشه يا رتبة سمت الرتب

فقم أيها الراجى لنيل سعادةقيام محب صادق الحب و الأدب

ففى الذكر لإسم الحب إحضار ذاتهبقلب له فى الحب و جسد له لهب

و رب جليل عظم الناس ذكرهفكيف و هذا سيد العجم و العرب

عليه صلاة اللّه ثم سلامهيكونان للرضوان من أعظم السبب

و عمل جميع ما يعمل مثله فى الحاضرة على نفقة الحكومة.

و منها: تحرير المكاييل و الأوزان و تحرير مكيال الجبس أى الجص.

و منها: إنشاء معمل الغاز بيد لجنة إنكليزية فى الحاضرة.

و منها: إنشاء بطحاء القصبة و تحسينها و إنشاء قصر للوالى على الوجه المطل على البطحاء المذكورة من قصر المملكة الذى بناه حموده باشا، و إكمال بناء السوق المحيط بالبطحاء المذكورة و تعميره بتجار من الأهالى و ترغيبهم بالشراء منهم، و الجلوس بحوانيتهم و قدوم الوالى إليهم فى بعض ليالى المواسم، و تحسين الحصن المطل على البطحاء المذكورة.

و منها: فتح باب للجامع العتيق الكائن بالقصبة على الطريق العام حتى عمر بالمصلين و انتفع به المسلمون، و قد كان من قبل لا تكاد

تصح فيه جماعة لأن له بابا واحدا داخل القصبة و قد خليت من السكان منذ زمان.

و منها: تدارك السور الخارج المحيط بالحاضرة بالإصلاح فأصلحته من الأوقاف و أصلحت الحصون المحيطة بالحاضرة، و كذلك أغلب حصون البلدان التى بها حصون كصفاقس و القيروان و سوسه و غيرها.

و منها: إنشاء بطحاء عظيمة خارج باب البحر و استقامة الطريق الموصل منها للبحيرة، و هكذا إنشاء عدة طرق فى البلاد و إصلاح غيرها.

و منها: العناية بإحياء صناعة النقش حديده أى النقش على الجص المطلى على الخيوط و القباب، التى هى أغرب صناعات تونس و المغرب فى البنا، و قد انعدم صناعها من البلدان فجاء عارف بها من المغرب فجعل له الوزير خير الدين أجرا و صاحبه بعدة أناس من الأهالى و أحسن إليهم إلى أن تعلموا الصناعة الغريبة بعد اندثارها، و الحاصل أنه أجرى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۷۷

مصالح عديدة و من أعظمها قطع مادة الرشا و بيع الوظائف الذى هو أساس العدل حتى نمت المكاسب و انكفت أيدى المتوظفين إلا ما كان على وجه الإختلاس مما لا يمكن التحرز منه، و لم يرفع أمره إليه أو لم ينتبه بواسطة من الوسائط إليه، بحيث يقال فى مدة ولايته فى القطر أن حكومته استبدادية عادلة ناحية منحى الشورى، لأن أغلب ما مر ذكره من الخصال كان يعقد له لجنات من أعيان الأهالى أو أعيان المتوظفين أو العلماء و الأغلب أن تكون تحت رياسته، و لا يتمم أمرا إلا بعد التوافق و التدبير فيه. و أحبته الأهالى و اعترفوا بفضله سيما و قد أتاهم بعد شدائد مر ذكرها.

حتى أنه لما أتم امتحان تلامذة المدرسة الصادقية فى السنة الأولى و رأى أباؤهم ما لم يعهدوه فى التعليم، أظهروا ممنونيتهم و شكرهم بأن اتخذوا مصحفين كريمين و جعلوا لهما سفرين فاخرين و كتبوا على الأول منهما: بالياقوت الأبيض على إحدى الدفتين المحفوظ بالسور و الآى، و على الثانية محمد الصادق باى، و على الثانى منهما: بالياقوت الأبيض أيضا على إحدى الدفتين الناصح الأمين، و على الثانية الوزير خير الدين، و ذلك اللقب هو الذى جرى التعارف فى إطلاقه عليه عند أغلب الأهالى و دفع ثمن ذلك آباء التلامذة من أنفسهم كل على قدر ثروته، فمنهم من دفع ريالا واحدا و هو ما فى وسعه و تكدر إن لم يؤخذ منه، و منهم من دفع عدة آلاف، و أهدوا المصحفين للوالى و للوزير مع خطبة مفصحة عن الباعث على ذلك و هو نتائج المعارف لأبنائهم، ثم بعد سنتين اجتمع أعيان من التجار البلدية و غيرهم من أعيان العربان و بعض أصحاب الأملاك المثرين و صنعوا فى لندرة مكتبة، أى مائدة للكتابة من خشب رفيع مذهبة و ملونة و أدواتها من ذهب و عليها ميزان إشارة إلى العدل، و كتب عليها إسم الوزير خير الدين و أهدوها فى رأس العام إلى الوزير المذكور مع خطبة مفصحة عن الباعث، و هو ما حصل من ثمرة أعماله فى عموم القطر حتى ازدادت الثروة و غلت أسعار الملك و راجت التجارة، و هكذا كانت علقة سياسته فى الخارج على سلم و هناء و لم يحدث مع إحدى الدول أدنى صعوبة و لا ظهر من أحد القناصل تشدد فى نازلة ما من متعلقات دولهم و رعاياهم، مع أن بعضهم كان ينفر من ذاته لصحبة أو منفعة له من الوزير السابق، و مع ذلك لم يجد شيئا يستند إليه فى إنشاء صعوبة أو تعكير هناء، و لم يعترض على ما حدث مدة ولايته فى الداخل أو الخارج إلا ما يأتى بيانه.

و هو إعطاء منحة لشركة فرنساوية فى إحداث طريق حديدية من حاضرة تونس إلى الجهة الغربية، فانتقم هذا العمل بأن سياسة فرنسا فى تونس معروفة و ذلك الطريق يؤل إلى تسهيل استيلائها على البلاد، و هنا العقول على فرقتين: فبعضهم يرى السهولة من تسهيل نقل العساكر من الجزائر إلى تونس فى أقرب وقت، و منهم من يراها بالتسهيل المعنوى و هو زيادة النفوذ و الإختصاص بالمتجر، بل يقول بعض الإنكليزيين أن مراسى تونس تصير خالية و تصير عنابه أى بونة هى مرسى تونس و هى فرنساوية، و ذلك لأن السلع التى توسق من تونس لا تدخل إلى فرنسا إلا بأداء بليغ عليها فى مراسى فرنسا بخلاف ما يوسق من مرسى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۷۸

عنابة، فإنه إذا دخل إلى مراسى فرنسا لا يؤدى شيئا فيكون سببا فى التزام التجار توجيه البضائع إلى عنابة و تبقى مراسى تونس خالية، و زاد للمعترضين قوة فى أن المقصد بذلك الطريق أمر سياسى أن الإتفاق فيه تم فى أقرب وقت، حتى أشاعوا أنه وقع من غير استشارة بقية الوزراء هذا مدار الإعتراضات و نحن نقص قصص ما وقع فى النازلة و أحوال متعلقاتها و نكل الحكم فيها إلى المطالع.

و هو أنه فى سنة ۱۲۹۱ ه قدمت شركة إنكليزية و طلبت منحة لإعمال طريق حديدية بين تونس و دخلة جندوبه فى الجهة الغربية من القطر المعنية بأفريقية، التى هى أهم الجهات فى الفلاحة على ما تقدم بيانه فى الفصل الأول من الباب الثانى من المقصد، على أن تمر الطريق حذو بلد باجه و تصل إلى معدن دجبه المركب من الرصاص و الفضة، و تختص بتشغيله على أن يكون للحكومة قسط من دخله بعد طرح المصاريف، فقسطها يكون من الربح و حيث كانت منافع طرق الحديد فى الممالك من أعظم أسباب عمرانها على ما سيرد إن شاء اللّه فى الخاتمة، و كانت تونس من أحوج الأقطار إليها لعدم وجود الأنهر و الترع التى تمكن بها المواصلة، بل و لا مجرد الطرق الصناعية، و كانت نتائج الزرع فى الأماكن الخصبة يتعذر نقلها بل يستحيل زمن الشتاء و الوحل، و كان نقلها فى زمن سهولة الطرق يكلف مصاريف باهظة ربما لا يوفى بخلاصها ثمن الحبوب عند بيعها، حتى كان الشعير لا يجلب من تلك الأماكن لمراسى المملكة و لا لبلدان أسواقه لعدم وفاء ثمنه بأجرة حمله فضلا عن التبن، فإن كلا منهما يترك فى مكانه إلى أن يضيع على أصحابه و لا- زال مثل ذلك إلى الآن فى جبال ماطر و غيرها، بل و كان جلب الحبوب من الأماكن الأجنبية فى البحر أيسر و أرخص من جلبها من داخل القطر، و رأيت فى رسالة كابيزول القنسل الفرنساوى بثغر حلق الوادى من تونس التى ألفها فى التعريف بأحوال القطر ما معناه: «إن هاته البلاد التى كانت تسمى بمخزن حبوب أوروبا فى الزمن السالف، ها هى الآن يجلب إليها القمح من خارج و يباع بأرخص مما يجلب من داخلها، حتى كان ذلك سببا فى تعطيل أكثر أراضيها و فقر أهلها» الخ. و لقد صدق فى ذلك و كان تأليفه لتلك الرسالة فى حدود سنة ۱۲۸۰ ه التى مر تفصيل أهوالها، فلما ذكر كان إحداث الطريق الحديدية ضروريا للقطر فبقى الكلام فيمن يصنعه و الأمر منحصر فى ثلاثة أوجه:

الأول: أن تصنعه الحكومة و قد علمنا مما مر أن أغلب ماليتها راجع للأجانب بسبب ديونهم، و ما بقى من دخلها إنما يوفى بضروریاتها التى لا مندوحة عنها، فلا سبيل لها لأعمال الطريق المذكورة لما يلزمها من كثرة النفقات.

و الوجه الثانى: أن يتولى عملها الأهالى و هذا أيضا إما متعذر أو صعب جدا لأن سابقية الفقر فيهم قد أخذت مأخذها و ما تراجع لهم من بعد لم يكن موفيا بالمقصود و على تسليم اقتدارهم فإنهم لا يلتفتون إلى ذلك.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۷۹

أما أولا: فلعدم معرفتهم بفوائد الشركات، لأن مثل ذلك لا توفى به قدرة الواحد، و قد علمنا أن فتح أبصارهم لمثل العلوم الرياضية و الاقتصادية و المدنية إنما كان بعد ذلك التاريخ، و على فرض حصول مبدأ التعليم من قبل فلا بد له من زمان ليرسخ و يعمل به.

و أما ثانيا: فإنهم لا يأمنون على إظهار أموالهم و ما بالعهد من قدم قد رأوا نقض عهد الأمانة الملتزم به بعهد اللّه و شهادة الدولة العلية و سائر الدول الأجنبية، و حرص دولة فرنسا فى إتمامه، و رأوا بأعينهم كيف جرى قتل النفوس و تعذيب الأبدان و استئصال الأموال، فما هى قدرة الوزير وحده فى حفظ حقوقهم و أمنهم و هل ذلك إلا موقت بوقت تصرفه، على أنه من الضامن لهم فى بقاء الوزير على ما هو عليه و هل هو إلا بشر قابل لتغير الأفكار، و بهذا يعلم أيضا عدم إمكان حمل الأهالى غصبا على منفعتهم فى ذلك الطريق من الوزير خير الدين، و لأنه كان لهم فيه نفع لكنه يظلمهم بإتلاف أموالهم لما أشرنا إليه، بل و لربما مع ما يتوقع من استيلاء الحكومة على مداخيل الطريق و التداخل فى إدارته لا يدوم شغله كما حصل بالفعل فى معمل الملف الذى كان أنشأه أحمد باشا، و يؤيد ذلك ما حصل من الخلل فى أشياء أسسها هو مما مر ذكره و سيأتى كيفية خلله، فتعين حينئذ.

الوجه الثالث: فى أعمال الطريق الحديدية، و هو أعمالها بيد لها اقتدار على المال و تأمن عليه و ليس ذلك إلا الأجانب، و لما قدمت الشركة الإنكليزية المار ذكرها و طلبت تلك المنحة عقد الوزير عدة مجالس من بقية الوزراء و المستشارين و كان بعضها تحت

رياسة الوالى نفسه، و تفاوضوا فى مصالحها مما مر ذكر بعضه و استقر الرأى على عقد الإتفاق مع تلك الشركة فى إحداث الطريق المذكورة سيما و قد سبقت شركة إنكليزية لإحداث طريق بين الحاضرة و حلق الوادى، و تمم الإتفاق على شروطه التى.

منها: إن للشركة أن تمد فروعا من الخط الأصلى يمينا و شمالا كل فرع طوله خمسون ألف مترو أى نحو خمسة و أربعين ميلا أينما أرادت.

و منها: أنه إذا مضت سنة و لم تشرع الشركة فى العمل يفسخ العقد، فشرعت الشركة فى جمع المال لذلك غير أنها لم تنجح لأن الإنكليزيين ليس لهم هم فى تجارة تونس و لا- فى سياستها و لا- يصرفون المال إلا- بغلبة الظن فى الربح، و قد علموا أن الطرق الحديدية غالبا فى أول أمرها تخسر و شاهدوا فى طريق حلق الوادى عدم الربح الذى أطمعوهم فيه، فبعد انقضاء الأجل طلبت الشركة أجلا ثانيا لعلها تتحوّل الرغبة فلم تحصل على شىء، و آل أمرها أن طلبت من حكومة تونس أن تتعهد لها بربح خمسة فى المائة على ما تصرفه، فإن و فى دخل الطريق بذلك أو زاد فهو لها و إن نقص أو لم يحصل شىء فالحكومة تلتزم بإيفاء الخمسة فى المائة أو أن الحكومة تدخل شريكة مع الشركة المذكورة بالربع من رأس المال، و لا يخفى أن ذلك لا يتيسر لأن الوزير خير الدين على علم من ضعف مالية الحكومة و من خسارة الطرق فى أول أمرها، و من الشك فى حصول الربح من المعدن، و من صعوبة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۸۰

المحاسبة و الاحتساب مع الأجانب، مع اختلاف الحكم زيادة على كون مثل ذلك لا يتم إلا بموافقة الكومسيون المالى الذى هو المحتسب على مالية الحكومة من الأجانب، فرفض مطلب الشركة الإنكليزية المذكورة و فسخ الإتفاق معها و اشتهر ذلك.

فجاءت فى أثره شركة فرنساوية و هى المسماة الآن بشركة «بون كالمة» و طلب زعيمها من الوزير خير الدين إحالة الإتفاق الذى فسخ مع الشركة الإنكليزية لعجزها إلى الشركة الفرنساوية المذكورة بلا اشتراط الضمان المذكور لكن على شرط إيصال الطريق بطريق الجزائر، فأجابه حالا بعدم تيسر ذلك لجلبه مسائل سياسية لا داعى لفتحها، فرجع الزعيم و قال: نكتفى بالحلول محل الشركة الإنكليزية التى سمحتم لها و ارتضيتم بشروط الإتفاق معها فذلك الإتفاق يحال إلينا، فأجابه: بأنه يعرض المطلب على الوالى و أخبر الوالى و عقد مجلسا مركبا من سائر الوزراء و المستشارين إلا الوزير حسين حيث كان فى بلد قرنه لخصام ورثة القايد النسيم، و استقر رأيهم على نقل المنحة لما تقدم من البواعث و الأسباب و لأن الامتناع من خصوص الفرنساويين بعد حصول المنحة لغيرهم، و عدم الفرق فى الشروط ربما لا تسوّغها المعاهدات و الحجاج نعم و إن كان هناك فرق فى سياسة أصل كل من الجنسين، لكنه لا يمكن الإستناد إليه فى الحجاج سيما و صريح المعاهدات مع الدول قائل أن كل منحة أو امتياز أو اعتبار يحصل لأحد الأجناس يكون للجنس المعقود معه المعاهدات مثله، بل فى بعضها يقول أنه يكون له مثل الجنس الأكثر اعتبارا الخ.

فكيف مع ذلك كله يمكن الإمتناع؟ و لذلك أحيل الإتفاق المشار إليه إلى هاته الشركة مع زيادة التحرى فى شروطه للحكومة، فكان مما زيد على الشروط السابقة: أن قسط الحكومة الذى تأخذه من المعدن يكون من ذات الخارج قبل طرح المصاريف. صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار ؛ ج۱ ؛ ص ۲۸۰

منها: أن الجهات التى تمد إليها الفروع يلزم الإتفاق فيها من قبل العمل مع الحكومة على المركز المنتهية إليه و على محل المرور.

و منها: أن لا- توصل الطريق بطريق الجزائر و عند هذا الشرط طلبت الشركة المذكورة أن يزاد أيضا و أن ليس للحكومة أن تمنح الوصل بالجزائر لغير الشركة المذكورة، فزيد ذلك بحيث أن المنحة كانت خاصة بمثل منحة الشركة الإنكليزية مع زيادة شروط لفائدة الحكومة، و لم يقع الإيصال و لا طلبه مدة الوزير المذكور و إنما وقع فيما بعد على ما يأتى شرحه فى المطلب الثامن إن شاء اللّه تعالى.

و يشهد لما فى ذلك من المنافع و عدم المضرة المكتوب الذى أرسله قسم النظر من الكومسيون المالى إلى الوزير خير الدين أثر انعقاد الإتفاق، و نصه:

سيدى فإن أعضاء قسم النظر من الكومسيون المالى رأوا أن من واجبات مأموريتهم إبداء سرورهم لجنابكم بالاتفاق المنعقد فى هذه الأيام على إحداث طريق حديدية بين الحاضرة و وطن باجه، لأن ما يلزم لنقل نتايج الوطن من المصاريف الباهظة عطل وسق

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۸۱

النعمة فكاد أن يبطل أهم فروع متاجر المملكة مع الأقطار الأجنبية، فكان من الأكيد إزالة هذه العوائق بتيسير اشتغال الفلاحة و المعاملات، و قد عرض فيما سبق قسم النظر على جنابكم صورة إحداث طريق اعتيادى بين الحاضرة و الوطن المذكور حرصا على حصول الثمرات الأكيدة، فلما وقع الآن ما نؤمل به إتمام هذه المصلحة بما لا يثقل مالية الدول مع استيفاء الشروط الواجب اعتبارها فى مثل هذه المشروعات، صار فرضا علينا نظرا إلى مصالح البلاد التى هى لا محالة مصالح أهل المملكة و الأوروباويين المستوطنين بها على اختلاف أجناسهم، كما هى مصالح أرباب الدين أن نهنىء جنابكم بإتمام هذا المقصد المبارك و لم يبق لمحبيكم إلا أن يؤملوا المتاجرة فيه فى أقرب وقت، بحيث تستكمل به رغبة الأهالى فيرون إن شاء اللّه اتساع نطاق التعامل و نمو أسباب العمران فى تلك الجهات، و يفتح ما بقى مرتجا إلى الآن من أبواب الفلاح و موارد الثروة و هذا أول ما ترتبط به فيما بعد سائر جهات المملكة من الطرق السهلة السريعة، فلا حاجة حينئذ إلا للمداومة و مساعدة الوقت لتجديد شباب المملكة و فلاحتها و الصناعة و المالية بها فيتم بذلك ما لم يزل جنابكم ساعيا فيه حق السعى منذ ثلاث سنين من تعمير هذا القطر، و الكتب من معظمى السيادة أعضاء قسم النظر من الكومسيون المالى فى ۲۰ مايه المسيحى سنة ۱۸۷۶، و صحح من الأعضاء الإنكليزيين و الطليانيين و الفرنساويين، فلو كان فى تلك الطريق ما يخل بالسياسة لما صحح الإنكليزيون و الطليانيون لأن ذلك مباين لسياستهم، و لو فرضنا جهلهم بها لنبههم أهل سياستهم لكى يكون لهم مستندا يوما ما، بل إن أهل سياستهم لم يتعرض منهم أحد رسميا لذلك على أن توهم الإستيلاء الحسى بمجرد الطريق المذكورة من الفرنسيس ليس هو إلا وهم، لأن قوة فرنسا و منعها من الإستيلاء على تونس ليس هو لتوقفها على صعوبة الطريق فإن بين مرسى عنابه و مرسى حلق الوادى مسير إثنى عشر ساعة فقط بالبواخر فى البحر، بل أن مرسى ابن زرت لا تبعد عليها أكثر من ثمان ساعات، و سفن فرنسا التى توصلت بها من فرنسا إلى الجزائر بل و من فرنسا إلى سانيفال بأفريقية الغربية و إلى كنبوديا بالهند الشرقية لا يصعب عليها قطع تلك الساعات.

تنبيه: قد أيد هذا الرأى ما حصل بالفعل فى خارج القطر من هجوم عساكر فرنسا برا و بحرا على القطر سنة ۹۸ و لم تركب و لا فرقة منهم طريق الحديد المذكورة مع وصولها إلى حدود الجزائر، و أما الإستيلاء المعنوى فإن كان المراد منه زيادة النفوذ و زيادة المتجر فسيأتى عليه الكلام فى المطلب الثامن إن شاء اللّه. و إن كان بالمعنى الذى مر نقله عن أحد الإنكليزيين و بقاء مراسى القطر خالية؟ فهو مدفوع بأن السلع التى تؤدى عند دخولها إلى فرنسا تصير تؤدى ذلك فى حدود الجزائر، و غاية الأمر أن يتبدل الطريق و محل الأداء، و أما ذات الأداء فهو واحد و به يتحد ثمن البضائع سواء شرحنت من هاته المراسى أم من هاته، و قد اجتمعت فى موطن مع الوزير خير الدين بعد الاتفاق المذكور و شيوع ذلك الاعتراض بما تقدم ذكره فذاكرنى فى دفعه بما يقرب مما شرحناه، و زاد فى الجواب و هو متبسم بأن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۸۲

قال: إن الاعتراض بأن مآل ذلك الطريق هو إخلاء مراسى القطر التونسى و انحصار الشحن فى مراسى الجزائر الخ. هو مما لا يقوله إلا جاهل أو متجاهل بما ينشأ عن الطرق الحديدية من العمران و سهولة المواصلة مما يكفى فى البرهان عليه الوجود الخارجى فى الممالك الحاوية لتلك الطرق و الخالية عنها، فإن ازدياد عمران الأولى و توفر مكاسبها، و عكس ذلك فى الثانية مما يفنى فيه العيان عن البيان، فأما المتجاهل فالكلام معه ضرب فى العبث و أما الجاهل فجوابنا له أن المضرة من نقل البضائع بطريق الحديد إلى الجزائر على ما قالوا لا- يخلو إما أن تحصل للأهالى أو للحكومة، فإن قلنا أنها للأهالى بالنظر إليهم فرادى، فالجواب أن الأفراد مدار نفعهم على زيادة أسعار بضائعهم بقطع النظر عن المحل المشحون منه، و ذلك لا يحصل إلا بتسهيل النقل المنحصر فى طريق الحديد نعم

إذا خشى من خروج النتائج الغلاء فى البلاد فللحكومة منع الإخراج من أى طريق كان سواء كان من مراسيها أو من الحدود البرية، و إن قلنا أن المضرة تحصل للأهالى بالنظر لمجموعهم من حيث نفع الوطن فهو يرجع حينئذ إلى منع الحكومة، فيكون الجواب شاملا لكليهما معا و هو: أن مضرة الحكومة مندفعة بما تقدم شرحه من أخذها أداء الشحن إلى خارج القطر سواء خرجت النتائج من المراسى أم من الحدود البرية على السواء، بل نقول: إن بالطريق الحديدية يحصل النفع و دفع الضرر فى خصوص الأداء المذكور بخلاف وقت انعدام الطريق، و بيانه أن الحدود ما بين تونس و الجزائر ممتدة على جميع طول الحد الغربى للقطر التونسى المتجاوز أربعمائة ميل، و أغلب سكانه أعراب رحالة يتكسبون بما يحملونه على ظهور إبلهم، فإذا وجدوا أثمان النتائج أغلا فى الجزائر لدخولها إلى فرنسا بدون أداء، لا شك أنهم ينقلون نتائجهم إلى المحل الذى تسوى فيه أكثر من غيره كما هو واقع، و يتحملون غلو الكراء بالحمل على الإبل لأجل ذلك؛ فإذا جعلت الحكومة مراكز لأخذ الأداء عند الإخراج من الحدود لا يخلو الحال إما أن تجعل المراكز على طول خط الحدود، أو تجعلها فى أماكن مخصوصة هى أكثر مرورا و عمرانا من غيرها.

فأما الأول: فهو ممتنع لكثرة ما يلزمه من الحراس الذين لا يوفى بمؤنتهم مدخول ذلك الأداء.

و أما الثانى: فلا يحصل منه المقصود لأنه لما كانت جهات الحدود كلها سواء فصاحب النتائج يتحمل مسير نصف يوم زائد على جهة مركز الحراسة، و يخرج نتائجه بدون أداء شىء، فتلخص من ذلك:

إن النتائج تخرج إلى الجزائر دون أداء للحكومة التونسية بخلاف ما إذا وجد طريق الحديد، فإن رخص الحمل فيه يعادل أضعاف الأداء على النتائج للحكومة، فالأهالى تعدل عن الحمل على ظهور الإبل لغلوها و تؤدى أداء الحكومة فى مركز الطريق الحديدية و لا يضرهم ذلك لأنهم يربحون ما توفر لهم من الكراء مع قرب المسافة و قصر الوقت،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۸۳

و الحكومة يمكن لها ضبط مركز الأداء بجعل حراس عليه لأنه متحد، و بعد هذا كله إذا فرضنا توجه الإعتراض و صحته لماذا يحمل علينا وحدنا، و الحال أن المنحة إنما أعطيت بمشاركة جميع الوزراء و المستشارين ممن تقدم بيانهم، فإذا تشارك جماعة فى رأى فلماذا يحمل منكره على واحد منهم فقط لمجرد مباشرة تنفيذ ما استقر عليه رأى الجميع هذا كلامه، على أن هذا كله مفروض عند وصل الطريق و قد علمنا اشتراط عدم وصله لمجرد الأسباب السياسية التى يأتى بيانها لا لما تقدم ذكره، فلا يتأتى الإعتراض إلا عند ذلك و سيأتى لهذا مزيد بيان فى موضعه إن شاء اللّه تعالى.

كما وقع الإعتراض على هذا الوزير فى كون الفائض جعل للدين أكثر من القسط الذى عينت مداخيله لذلك، حتى لزم الحكومة إكمال الفائض فى بعض السنين من دخلها و الإستقراض فى بعض السنين برهن مدبغة الجلد للإيفاء بالفائض أيضا، و من المعلوم أن خلاص الدين بالدين يؤدى إلى تفاقمه، و أجيب عن هذا الإعتراض بما تقدم شرحه فى كيفية الوجه الذى أعمل فى الديون، فقد علمت أن الفائض قد حط من عشرين مليونا فرنكا إلى ستة ملايين و نصف بمشاركة نواب الدائنين ثم تأسيس ذلك المقدار على معدل الميزانية التى أرسلت من الوزارة السابقة التى وقع فيها الغلط فى تقدير فصل السرحات كما بيناه هناك، سيما و قد رأى الكومسيون الوفاء بذلك فى بعض السنين و رأى اقتدار الحكومة على الإيفاء فى بعضها، فلا يسلم صاحب المال فى ربحه بسهولة إلا بعد تيقنه العجز، و لا يحصل ذلك إلا بمداخلة قسم النظر من الكومسيون فى أحوال ميزانية الحكومة الراجعة لمصاريفها الخاصة، و ربما كان ذلك غير ملائم لسياسة الحكومة لمزيد التضيق عليها و التحجير على تصرفاتها، فاختير أخف الضررين إلى أن يكشف الواقع على ما هو فى الإقتدار حقيقة بطول المدة و التجربة، و تنقاد وكلاء أصحاب الديون عن بينة.

لكن الوزير خير الدين خرج قبل حصول ذلك كما لام الوزير المذكور أفراد قليلون من المتوظفين على عدم إحيائه للقوانين لكن على أن تكون على غير الكيفية التى سبق بها العمل فى تونس بل على وجه يندفع به الإعتراض الذى مر فيها، بأن تكون موافقة لأحكام الشرع، و المباشرين للأحكام الشخصية هم نفس الحكام الشرعيين بضبط نفس الأحكام فى قول واحد شرعى، و جعل مجلس

شورى لمصالح القطر أعضاؤه من جميع جهات القطر إلى غير ذلك مما يناسب الحال من القوانين لما هو معلوم من ميله إليها كما مر فى الكلام على قوانين عهد الأمان، و حاصل جوابه الذى علمناه منه عند إبلاغ الإعتراض إليه و هو بتونس، هو أن الدول الإسلامية لا يتيسر ذلك فيها إلا بإرادة الملوك أو الأمراء الذين لهم استقلال فى الإدارة، و قد كان والى تونس أجراها ثم لما أبطلت بالكيفيات التى مر ذكرها، كان الوالى المذكور أشد النافرين عنها فلا يصفى إلى إنشائها و ليس فى ذات الأهالى من يرغب فيها بإلحاح فى طلبها إلا أفراد قليلون، كما بان بالكاشف فيما وقع عند إيقافها و كما بان بالإستخبار للأعيان عند إعلان الدولة العلية بالقانون الأساسى، فلم يبق إلا أحد شيئين:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۲۸۴

و هما: إما بقاء الوزير خير الدين فى الخطة بدون القوانين لرفع ما يستطيعه بذاته، أو أنه لا يبقى فى الخطة إلا بوجود القوانين فاختار هو الوجه الأول بدعوى عدم إمكان الوجه الثانى، و هاته الدعوى المستندة لما تقدم ذكره رجح عند البعض خلافها، لأنه لو تيقن والى تونس فى أول الأمر إصرار الوزير على عدم البقاء فى الخطة إلا بوجود القوانين لكان يحصل المقصود و تدوم القوانين معمولا بها فى الأقل مدة بقاءه و لا لوم عليه بعد انفصاله، و من بلغ المجهود حق له العذر.

و قد كنا اطلعنا على تحرير للوزير المذكور بعد انفصاله عن الخطة بتونس فى الجواب عن الإعتراض بما ذكر، فأثبتنا خلاصته هنا ليحكم المطالع بين الشقين و حاصله: أنه بلغنا أن أناسا لاموا على عدم تأسيسنا فى مدة وزارتنا التنظيمات السياسية المعبر عنها بالكنستسيون، التى كنا أوضحنا فى كتابنا أقوم المسالك الأدلة النقلية و العقلية على لزوم تأسيسها و إجراء العمل بها، و لما كان صدور مثل هذا اللوم منبأ عن عدم فهم من صدر منه لما كنا شرحناه فى الكتاب المذكور من الأحوال التى تنبنى عليها التنظيمات وجب إعادة الكلام على ذلك و بذلك يتضح الجواب عما ذكر فنقول: «إن تأسيس التنظيمات السياسية الحاملة على اتباع المصلحة قد شوهد أنها نشأت فى الممالك المستقرة بها بإحدى طريقتين، إحداهما: أن يكون تأسيسها من الراعى، و ثانيتها: أن تطلبها الرعية، و الصورة الأولى هى الممكنة فى الممالك الإسلامية إذا انتبه الراعى لفوائد التنظيمات فيسعى بجد و اجتهاد فى تأسيسها و حمل الناس عليها مستعينا باللّه و بأهل الدراية و المروءة حتى تدرك العامة منافعها و يتمسكوا بها، و يحصل لمن تسبب فيها فخر و أجر من أسس ما يدوم به العدل الذى فضل الحكماء صاحبه على فاتح الأقاليم الكثيرة، و وجه ذلك ظاهر و هو أن مصير الفتوحات المؤسسة على غير العدل إلى التقلص و الإختلال و مصير المملكة ذات العدل إلى البسطة و الإعتدال، و الحكيم من لاحظ العاقبة و المآل و عند ذلك تدوم معمولا بها إذا كان فى العامة استعداد إلى فهمها و قبولها، و بدون ما تقدم لا يمكن إجراء ما ذكر فيما علمت، فلا يكفى لذلك معرفة الوزير وحده بمصالحها و ميله إليها و لا نظن أحدا من رجال السياسة العارفين بأصول مبنى التنظيمات يخالفنا فى هذا، فكان الواجب على المعترضين أن يبحثوا أولا عن معرفة حال أمير تونس هل هو ممن يسعى فى تأسيس ما ذكر على الوجه المذكور؟ و عن حال الإيالة هل فيها من يعتبر لحفظها و قبولها؟ و فى ظنى أن كلا الأمرين لا يوجد منه ما يسوغ الإقدام على تأسيس التنظيمات و فى يقينى عدم نجاحه بدون ذلك كما أعطته التجربة، فإن التنظيمات التى أسست فى هذه المملكة سنة ۱۲۷۷ ه المتقدم بيان أصولها الكافلة بتأمين السكان أبطلت تمشيتها مع الحلف على إجرائها بسعى الوزير و اتباعه، حتى آل أمر المملكة إلى ما قد رأيت من تصرفات الحكومة زمن وزارة السيد مصطفى و ما نشأ عنها من المضار فى النفوس و الأعراض و الأموال و لم يتعرض أحد لذلك بأدنى إنكار.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۲۸۵

فلما كان الحال ما ذكر و أيست من الوالى بتونس فى تأسيس التنظيمات، سعيت فى تحسين إدارة المملكة و تأمين راحة السكان بقدر الطاقة و الإمكان مستعينا باللّه و بمن كان من أهل المروءة من رجال الحكومة، إلى أن آل أمرى إلى الإضطرار إلى الخروج و أن ترتب عليه ما حصل لنا بعده من الصعوبات بمنع الناس من مخالطتنا، و لم أتحصل على الحقوق البشرية الواجبة شرعا و طبعا.

مع أن ذلك وقع فى حق رجل تقلب فى سائر رياسات الحكومة، و حصل على يده مصالح حسب الوسع، و يسوغ له أن يقول حكاية للواقع أنه بإعانة اللّه و عنايته حمى وحده مدة وزارته جميع السكان من الظلم و التعدى عليهم، بدليل أنه بعد خروجه من الخطة رجع الأمر لما كان عليه قبل ذلك لأن الوالى فى الحكومة لا زال هو بذاته، و كذلك رجال الحكومة الذين خدموا معه و هم الذين خدموا مع السيد مصطفى أيضا لا زالوا متوظفين، و هؤلاء قسمان: عفيف فى نفسه غير قادر على منع غيره من الظلم، و ظالم كان محجوزا بنا عن ظلمه فانطلق بخروجنا من الخطة، هذا و أنى لا زلت أقول إن تونس لا تستقيم بدون تنظيمات، و أنها لا بد لإجرائها من الطريقة المار ذكرها و إلا- فالتنظيمات فى تونس بدون ما ذكر كالعنقاء إسم بلا مسمى، فلا تغترن بقول من لا يدرك الحقائق و اللّه تعالى يرشدنا و إياهم إلى ما يرضيه بمنه آمين انتهى.

و بما تقدم من انتقاد بعض التصرفات وجد أضداد الوزير خير الدين السبيل إلى إيقاع التنافر بينه و بين الوالى إلا مسألة القوانين فلم يعرجوا عليها، غير أن ذلك لم يفدهم لأنه مدفوع بما تقدم شرحه و الوالى على علم منه، فلذلك نزعوا إلى أوجه أخرى و بيانها يستدعى بيان منشأها و أسبابها، و حاصله أن الوزير خير الدين لما باشر الوظيفة بلقب وزير مباشر لم يكن له ضد فى نقض أعماله إلا الوزير السابق مصطفى خزندار، لكنه لم ينجح لتبصر الوالى فيه و معرفة سائر المتوظفين و الأهالى بتصرفاته التى نفروها، حتى ذات خدمة الوالى فى نفسه و قصره، فكان الجميع يدا واحدة مع الوزير خير الدين و لما عزل الوزير السابق مصطفى خزندار و ولى مكانه الوزير خير الدين و استقر أمره بعد الإنفصال معه على ما مر شرحه، طمعت نفسه للرجوع إلى المنصب أو فى الأقل مواجهة الوالى و إسقاط خير الدين عن الوزارة و استعان على ذلك بأفراد من الأجانب و بأحد خاصة الوالى و هو الوزير مصطفى بن إسماعيل، و اعتضد الجميع كل على حسب فوائده فتارة يقدحون فى التصرفات العامة و إشاعة ذلك فى الصحف الأجنبية و يبلغونها بذاتها أو بتعريبها للوالى بواسطة خاصته المذكور، لكن لما رأوا عدم نجاح المقصود بذلك لأنه لا يروج على الأهالى لمشاهدتهم حسن إدارة الوزير، رجعوا إلى إشهار أراجيف تتعلق بالسياسة الخارجية فمنها ما يرجع إلى تنفير الوالى و عائلته من الوزير خير الدين و أشهروا أن للمذكور اتفاقا سياسيا سريا مع الدولة العلية، و منها: ما يعود إلى تنفير الأهالى من الوزير المذكور فأشهر أن مراده تسليم البلاد للفرنسيس، و منها: ما يعود إلى تخويف أصدقاء الوزير خير الدين و عموم الناس فأشهر أن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۸۶

مراد الوالى إرجاع الوزير السابق مصطفى خزندار لخطة الوزارة، حتى أثر كل قول فى أصحابه و نشأ عن الأخير التشويش فى عقول العامة و تجار أوروبا بما أوجب إنحطاط أسعار الرقاع للدين التونسى عدة مرار للتخوف من تبديل السيرة فى السياسة الموجبة لتعطيل فائدة الدين، حتى أعلن للوالى بتكذيب تلك الإشاعات فكتب للوزير خير الدين مكتوبا و نشره فى الرائد التونسى و نصه:

«بعد الحمدلة و الصلاة، أما بعد: السلام عليكم و رحمة اللّه تعالى، فإنه بلغ لحضرتنا أن بعض أشخاص كادت أن تكون أسماؤهم معروفة ممن كان لهم فى تصرف أمير الأمراء إبننا مصطفى منافع شخصية تعطلت عنهم بسبب مساعيكم الجميلة بالإدارة المنوطة بعهدتكم، أشاعوا أراجيف لا حقيقة لها حملهم عليها الميل لما يوافق شهواتهم، و هى و إن كانت مما لا يترتب عليه أثر و لا يكون لها موقع لأولى الأحلام إلا أنها ربما توجب لمن كان خلى البال شغلا عما يعينه، مع أن الأسباب التى اقتضت عزل المذكور لم تزل تعضدها أنظارها و الآثار التى أنتجتها مساعيكم الحميدة لم تزل تحمد أخبارها و تظهر للأعيان آثارها، و لعلمنا بما فى شغل الأسماع و لهى الآذان بسماع هذه الأراجيف التى لا توصل قائلها إلى مقصوده من إضاعة الوقت بنقلها و الإلتفات إليها، حررنا لوزارتكم هذا الرقيم لنهى من يشتغل بذلك و ليتحقق السكان أن استحساننا للإدارة المنوطة بعهدتكم لم يزل و المنة للّه تعالى متزايد بتزايد آثارها، و أن ما أرجف به أولئك الأشخاص لا يجدون إليه مستندا و تشهر ذلك للسكان ليزول عنهم الشك الذى قصد إيقاعهم فيه و شغل بالهم به، لترتاح أفكار من يريد مصلحة وطنه و نجح خدمته، فالعمل أن تجتهدوا بالاستمرار على تلك السيرة الحسنة التى ظهرت آثارها لدولتنا و اللّه تعالى يحرسكم و يمدكم بحفظه و إعانته و السلام»، من الفقير إلى ربه تعالى المشير محمد الصادق باى وفقه اللّه

تعالى بمنه، كتب فى الثانى و العشرون من شهر رمضان المعظم سنة إحدى و تسعين و مائتين و ألف.

(التوقيع) صح من كاتبه محمد الصادق باى

فأنت ترى ما صرح به الوالى من حسن نتيجة خدمة الوزير خير الدين، و هو الذى تشهد به سكان الإيالة على اختلاف أجناسهم و مع ذلك لا زالت الأعداء تسعى بالفتن بين الوالى و الوزير حتى كان فى خلال تلك المدة جميع رجال الحكومة فى كدر من خوف تفاقم النفرة بين الوالى و وزيره الموجبة لانفصال الوزير عن الوظيفة، و لما تيقن الوالى ذلك دعى الوزير خير الدين و وعده بقطع التعرضات و أمر مصطفى بن إسماعيل بالكف عن سيرته و موالاة الوزير خير الدين، و كان ذلك أواخر سنة ۱۲۹۲ ه فدام على نحو ذلك بضع أشهر ثم عادت الكرة فى أواسط سنة ۱۲۹۳ ه، و أثرت الأقوال فى الوالى إلى أن صار يستفهم من عمده عن رأيهم فى فصل الوزير عن الخطة، فرأى منهم استعظام الأمر و ربما قال

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۸۷

بعضهم أن بلدنا صغيرة و ليست بمتأنسة بفصل الوزراء على التتابع سيما مع رؤية الرعية لسيرة هذا الوزير فربما نشأ من فصله ما يسوء العموم فأحجم الوالى عن فصله فى أثناء تلك المدة، و قال أحد المحبين للوزير خير الدين، إن استناد الأضداد فى اختراعاتهم يؤل إلى الإستبداد منك على الوالى و رؤساء المتوظفين و ذلك ينقطع بأمرين: أولا: أن تتشارك مع بقية المستشارين و الوزراء فى إعطاء رأيهم مع مستشار القسم الأول من الوزارة و مع أعضاء قسم العمل من الكومسيون، بحيث يشترك الجميع فى الرأى عند تحرير ميزان الحكومة فى الخرج فى رأس العام. و ثانيا: تقسيم الإدارة فى الرسم تبعا لما هو جار فى المعنى فى أقسام الوزارة حتى يكون مستشار كل قسم يلقب بوزير و يمضى هو على المكاتيب و يتحمل مسؤولية ما يعود عليه.

و لما بلغ ذلك الكلام الوزير خير الدين لاحظ فيه ما يأتى و هو أن الأول واقع بالفعل لأنه بعد تحرير الميزان من قسم العمل و مستشار القسم الأول يعرض على بقية الوزراء و المستشارين و يبدون ما يظهر لهم فيه، ثم يعرض بعد ذلك على الوالى للتروى فيه و يمضى ما يستقر عليه الرأى، و أما الثانى فإنه حالة ضيق القطر و صغر الإدارة لا تقتضى تعدل المصادر، بل ربما أوجب ذلك التعاوض فى الأوامر لمأمور واحد فى حادثة واحدة مع ما فى ذلك من زيادة المصاريف بتعدد المأمورين فى كل جهة و كل قبيلة و ذلك لا تطيقه مالية الحكومة و لا تتحمل الرعايا الزيادة عليهم، هذا خلاصة جوابه الذى لم يقنع الناصح حيث أن العرض فى الأول إنما هو صورى و التضايق فى الثانى مدفوع بالاقتصاد و حسن التقسيم مثل ما هو واقع بين المستشارين، لكن الأهم من جميع ما تقدم امتناع الوالى من إجراء المطلوب بدليل ما جرى من بعد خروج الوزير خير الدين عن الوزارة و استمرار نوع الإدارة على ما سبق من انحصارها فى شخصية الوزير الأكبر، كما نصح الوزير المشار إليه لإبعاد التهم عنه بأنه ينبغى له أن يسوى بين نواب الدول فى المعاملة، و لا يزيد فى تقريب نائب فرنسا و هو يقول أن معاملته مع ذاك النائب شخصية لا تعلق لها بالإدارة، على أنه لو قيل إن تلك المعاملة مما يقتضيها الحال فى دفع غائلة فرانسا لما بعد ذلك، لأن ترجيح كفتها بتونس ضرورى و ارتكاب أخف الضررين واجب، فإن لم تر لنفسها رجحانا تكالبت إلى أن تصل إلى قصدها و لو بالتغلب على تلك البلاد كما أوضحنا خلاصة سياستها سابقا، و لما تقدم عادت المصافاة بين الوزير خير الدين و الوالى حتى كتب الوالى إلى قنسل الفرنسيس بتكذيب ما أشيع تارة بعزمه على إبدال الوزارة و تارة بالعزم على التنقيص من مقدار الفائض، مما أوجب عدم الإطمئنان بمالية الحكومة و انحطت أثمان رقاع دينها، فكتب إليه فى جمادى سنة ۱۲۹۲ ه بما نصه:

«الحمد للّه وحده أما بعد: فقد رأينا فى الجرنالات الفرنساوية ذكر ظنون أبرزت فى صورة مقدمات مسلمة و استخراج نتائج، منها يريد صاحبها التنفير من إدارة دولتنا و تنقيص ثقة حاملى الرقاع بما بأيديهم من رقاع الدولة، مع أن تلك الظنون لا حقيقة لها فى الواقع

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۸۸

و لا أصل، و ما استخرج منها ترده الأدلة المشاهدة زيادة على كونه مبنيا على غير الواقع، و هذه الأراجيف و إن كانت باطلة عند

المنصف و عند من يعلم حقيقة الواقع و لم يترتب عليها ما قصده من الأمور السياسية فإنه نشأ عنها لغير من ذكر و لمن لا اعتناء له إلا بالتحفظ على ماله بمراعاة كل ما يطرق سمعه خوف، ترتب عليه بعض إنحطاط فى سعر الرقاع مع أن كوبونها يدفع فى أوقاته كاملا، و إدارة مداخيله جارية على الوجه الكافل بحفظه، و غير خفى على جنابكم ما يلحق كلا من الدولة و المتجر من ضرر هذا الإرجاف الذى مع كونه لا حقيقة له و مضاد للواقع، لا داعى إليه إلا أغراض غير خفية، و لما كنا على يقين من أن جنابكم يود الخير لبلادنا كاتبناكم بهذا مؤملا منكم السعى الجميل بحسن وساطتكم فى إيقاف هذا الضرر، إذ لا شك فى أن المتصدى لنشر ذلك و الحالة هذه لم يكن له قصد إلا ما ذكرناه، و لحرصه على ترويج ما أبرزه تكلف ما يظن أنه يعينه على مقاصده و هو توزيع نسخ من الجرنال و تبليغها لمساكن أناس لا معرفة لهم به و لا اشتراك لهم فيه مجانا من غير أن يطلب منهم عوضا عنه خلافا للعادة، و نشر ما هو من فروع مقصده بغيره فتعين بما أشرنا إليه أن ذلك لم يكن للإرشاد و لا للنصح اللذين أبرز كلامه فى صورتهما و إنما هو للمقصد المشار إليه الذى نتحقق أن جنابكم لا يرضاه و يبذل الجهد فى تعطيله و لو بإشهار هذا إعانة لنا بما تقتضيه المودة، على ما أملناه من الخير و تأييدا للحق بإظهار الواقع كما هو المقطوع به من إنصافكم و محبتكم و دمتم فى أمن اللّه، و كتب فى ۲۰ جمادى الثانية سنة ۱۲۹۳ ه ألف و مائتين ثلاثة و تسعين».

ثم حدث بعد ذلك فى الآستانة ولاية السلطان مراد فتوجه إلى تهنئته من تونس على لسان الوالى وزير الحرب رستم و له مودة اقتضتها المعاشرة الطويلة مع الوزير خير الدين، كما له معه مصاهرة حيث أن الأول زوج بنت الثانى، و كان ذلك فى جمادى الثانية سن ۱۲۹۳ ه و حصلت إذ ذاك الحرب بين الدولة العلية و الصرب فظهر من جهات الإسلام الإعانة للدولة العلية بالمال لضيق ماليتها و بمقتضى الحقوق الدينية و الإرتباط السياسى بين تونس، و الدولة لزمت الإعانة بالمال أيضا من تونس و كان حال الحكومة فى ضيق المالية و عدم إمكان القرض ما علمت، فاجتهد الوزير خير الدين بعد الإستشارة و المفاوضة فى حصول الإعانة بالمال من الأهالى عن طيب نفس، و صدرت بذلك مكاتيب الوالى و الوزير إلى الجهات من الحرص فى التعجيل، فظهر من الأهالى غاية الرغبة إلى أن حصل مقدار مليون و أربعمائة ألف فرنك مع مصاريف الصرب و الحوالات لإرسال المال سكة رائجة فى الآستانة، و قدر ما دفعته الأهالى ريالات ۲۳۸۴۰۴۲ و نشر حسابه فى الصحيفة الرسمية و وصل بتمامه للباب العالى، و فى أثناء ذلك رجع وزير الحرب رستم المذكور، ثم حصل فى الدولة العلية صعود سلطاننا المعظم عبد الحميد على تخت السلطنة و أعيد إرسال وزير الحرب المذكور للتهنئة أيضا و أقام بالآستانة ثمانية أشهر لتثبيطه من الباب لإحضار جوابه و إحضار ما تتفضل به الحضرة السلطانية على الوالى مع كثرة شغل الدولة إذ ذاك بحرب

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۸۹

الصرب و الجبل الأسود و البلغار و هرسك و بوسنه و بالمؤتمر الذى عقد فى الآستانة و بإنجاز القانون الأساسى ثم بحرب الروسية، و كان وزير الحرب أثناء إقامته بالآستانة فى المدة الأخيرة قدر شهرين أو ثلاثة لم يرسل مكاتيب تبين سبب تأخره لأن كل أسبوع يظن أنه يرجع فيه وطالت غيبة المكاتيب و حملتها ذوو الأغراض على ما سيتلى.

ثم طلبت الدولة العلية الإعانة العسكرية لحرب الروسيا و لم يكن لحكومة تونس من العساكر التى تحت السلاح إلا مقدار ما يكفى لحفظ الراحة فى القطر، كما أن المال الضرورى لذلك حاله ما علمت فرأى الوزير خير الدين المسألة مهمة جدا و لم يكتف برأى الوزراء و رؤساء الحكومة و طلب من الوالى عقد مجلس عام من ولى العهد فى الحكومة و أهل المجلس الشرعى و الوزراء و أعضاء جمعية الأوقاف و المجلس البلدى و رؤساء سائر أقسام الإدارات و رؤساء الكتبة و المستشارين و ضباط العساكر من أمراء الألوية و الفريقان و أعيان الأهالى و رؤساء ديانة اليهود و كبرائهم العرفيين، فأسعف الوالى على ذلك و انعقد المجلس تحت رياسة الوالى نفسه و أذن وزيره خير الدين بإلقاء المراد على المجلس، فقال ما معناه: إن الدولة العلية قد أعلمت الوالى بأن الروسيا أعلنت عليها حربا و إن لها فى الحدود للمدافعة عن الخلافة الإسلامية و الوطن نحو ستمائة ألف، و أنها مع ذلك لا زالت محتاجة إلى كثرة العدد

و العدد و أنها تطلب من الولايـة إرسال العسكر، و لعله سرد ذات التلغراف الوارد من الدولة، ثم قرر أن للدولة حقوقا على تونس، و أن تونس لهـا عادات مع الدولـة لا محيص عنها، و أن حالـة الحكومـة فى العسكر و فى المال معروفـة للجميع، و أن الوالى جمع هـذا المجلس ليشير عليه بما يراه فى الطرق الموصلة للمقصود، فخاض المجلس فى الكلام وطالت المذاكرات و حصل التشاحن فى الرأى، إلى أن علت الأصوات.

و حاصل آراء المجلس هو أن بعضهم يرى إرسال العسكر بالمقدار الذى يطيقه القطر من العسكر النظامى المسرح أكثره و تقريبه نحو ستـة عشـر ألفـا، لكن فيهم من عجز فلاـ أقـل من وجود ستة آلاـف تقـدر الأهالى على القيام بهم بما يلزم من الكسوة و القوت، و أما السـلاح فللحكومة من المدافع من الأنواع الجديدة أزيد من بطرية، كما لها من المكاحل المسدسة أزيد من عشـرة آلاف، و إن كانت تعمر من أفواهها من النوع العتيق فالحكومـة حينئـذ تقوم بالسـلاح و تعين بمليون من المـال الـذى لها أن تسـتقرضه من خزنـة مجلس الإدارة لمـدة ستـة أشـهر بلا فائض، و ترجعه بالإقتصاد من مرتبات ذوى المرتبات كل على ما يقتضـيه حاله، فإن بعضـهم أراد إسـقاط جميع مرتبه لـذلك. و يتم التجهيز و ترسـل العسـاكر و يجعل على الأهالى تقسـيط ما يقوم بهم يـدفعونه منجما مع جريان الإقتصاد من الحكومـة على نحو مـا تقـدم، مع الإعلاـن بـأن كـل من أراد القتال بنفسه فله ذلك، و يعلل هـذا القسم رأيه بأن أحكام الـدين قاضـية بذلك مع أن نص فرمان سنة ۱۲۸۸ ه مصرح بشرط ذلك، و أنه على فرض الإعانة بالمال الذى يمكن أن يوازى مصروف العسكر فلا يزال التبكيت على القطر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۹۰

بأنه لم يوف بشـرطه، و أصـحاب هذا الرأى قليلون. و بعضهم يرى أن الإعانة إنما تجب بالأبدان، و أما المال فلا يجب على أحد شىء و من قـدر ببـدنه و ماله فعليه أن يـذهب و ليس على هذا الرأى إلا إثنان، و جميع العلماء و العامة ضدهما و سـقط اعتبارهما وقتئذ من أعين بعض رؤساء الحكومـة سـيما الوزير خير الـدين، و بعضـهم يرى أن العسـكر يحتاج إلى التدريب و إلى السـلاح الجديد و بدونه العسكر كالعدم و المال لإقامة ذلك غير موجود، لأن الغصب على أخذ المال من الرعية غير سائغ لما هم عليه و لجهل الحال فى الملا و الفقر، فلذلك يلزم أن يوكل الأمر إلى الإختيار كل بما يستطيع.

و بهاته الصورة لا يعلم مقـدار ما يتحصل حتى يمكن الاعتماد عليه و تجهز العساكر على مقـداره، و على فرض حصول شـىء أولا فلا تحقق لجريانه فى المسـتقبل للقيام بالعسـكر فى المؤنـة و الذخائر، و لذلك يكون اللازم هو إحضار المال لإعانة الدولة العلية بالمال و إعانتها واجبة لا محالة، غير أن جمع المال يوكل إلى اختيار الدافع و اجتهاده كما حصل فى إعانة الحرب مع الصرب، و هذا هو الرأى الغالب الذى اسـتقر عليه أمرهم، و هذا القسم يدفع تعليل القسم الأول من شرط الفرمان بوجوب إرسال العسكر، بأن شرطه الطبيعى أن يكون ذلك فى الإمكان، و قد تبين أن الإمكان غير موجود و عمل بهذا الرأى لأنه رأى الغالب.

«و حكم المسألـة شـرعا أفردناه برسالة فيما كتبناه على باب الجهاد من صـحيح البخارى جامعة لحكم المذهب الحنفى و المالكى». ثم جمعت الإعانـة الماليـة على نحو مـا تقـدم و أرسـل بعضـها فى مـدة وزارة خير الـدين و قـدره، فرنـك ۰۰۰، ۳۰۰ و لـم يعلم حسـابها بالتحقيق، لأن الوزير خير الدين خرج قبل نهايتها و بعده لم ينشـر حسابها مثلما نشـر حساب السابقة، ثم أرسـلت الدولة العثمانية بطلب ستمائـة بغـل لجر الأثقـال الحربيـة و إن كانت خيلا و بغالا فلا بأس به، فعمل الوزير خير الـدين حزمه فى طلبها من أعيان المتوظفين و قبائل العربان و البلـدان بأن عين لكل فرد ما يـدفعه من عـدد البغال أو الخيل، و كـذلك القبائل و البلدان على أن يسـعر ما يدفعه أهل البلـدان و القبائـل من الحيوانـات بالمال و يقسط ثمنه على جميع الأهالى على حسب الجـدة، و يـدفع الثمن لصاحب الحيوان بحيث لا ينـاله من المـال إلاـ أمثال غيره، فتسابقت الناس إلى ذلك و تنافسوا فيه، و كثير من أصـحاب الحيوانات فى القبائل و البلـدان امتنع من أخـذ الثمن و جعلها فى سبيل اللّه، و أحضـرت الحيوانات و بقيت تنتظر سـفن الدولة لحملها لأن حملها فى السـفن التجارية غير مأمون عليه خشـية تعرض سـفن المحارب الـذى أشاعه من يريـد اجتناب تونس من الدولة العثمانية، و شـحنت تلك الحيوانات للآسـتانة بعد

خروج الوزير خير الدين من الوزارة ببضعة أيام.

و فى مبدأ الحرب سأل أحد نواب الدول الوالى و الوزير عن قصد الحكومة فى التداخل فى الحرب و حذرها من عواقب قدوم الأسطول الروسى إلى مراسيها و خسارتها من

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۲۹۱

ذلك مع عدم كبير الفائدة من إعانتها للدولة، فأجابه الوزير: بأن الوالى لا يستطيع ربط نفسه بالكلام فى عدم التداخل فى الحرب، ثم جاء قنسل الروسيا و أنذر، و احتج بأن الوالى صرح بأنه لا يتداخل فى الحرب، فكذبه الوزير و أن الوالى لم يصرح بشىء ينزع حريته، كما أن الرائد التونسى نشر من المقالات السياسية المنتصرة للدولة العلية ما هو مشهور، و هو لا ينشر إلا ما يوافق مشرب الحكومة لأنه هو الصحيفة الرسمية لها، و الوزير هو الذى يشير بالمقاصد التى تنشر فيه، فمن جميع ما تقدم اتخذه أضداد الوزير خير الدين سبلا لتنفير الوالى منه و إسقاطه من الوزارة، فقالوا: إن وزير الحرب كان سبب طول مكثه فى الآستانة السعى بما يضر بالوالى، و أنه يكاتب الوزير خير الدين و هو لا يظهر مكاتيبه للوالى لأنها ضده، و أن زيادة ميله للدولة العثمانية ظاهرة مما تقدم بيانه، و الوزير يقول: إن تأخر وزير الحرب لا علم له بسببه لأن واقعه فى نفس الأمر هو ما تقدم شرحه، و أنه لو تروى القائل فى قوله لوجده غير صحيح، لأنه لو كان بينهما شىء حقيقة للزم أن يأتى من وزير الحرب مكاتيب صورية ليطلع عليها الوالى، و لما ساغ عدم إظهار و لا مكتوب واحد حتى يتفطن الوالى مما لا يفعله عاقل فدل ذلك على بطلان أهل التهمة و قد حققه الخارج، كما يقول الوزير أن ما فعل مع الدولة العلية هو الواجب بمقتضى فرمان سنة ۱۲۸۸ ه، و هو الواجب ديانة و لا قصد إلا حفظهما، و لكن لم يجب ذلك فى السعاية بل أثرت فى الوالى لأنه كان حصل قبيل تلك المدة نازلة إدعاء مصطفى بن إسماعيل على يوسف بن عطار أحد تجار اليهود بتونس أنه يطلبه بسبعة ملايين أو أزيد من جهة رقاع مالية و مصوغ أعطاها له للتجارة بها، و أنكره المدعى عليه و استظهر وكيل مصطفى بن إسماعيل بحجة ثبت فى الوزارة زورها على ما يسرد تفصيله فى المطلب الثامن، و أراد الطالب أن يكون هو الخصم و الحكم و رفع المطلوب أمره للوزير بهروبه إلى قنسلاتو إنكلتره و حمايتها له، و تداخل القنسل فى النازلة له فرأى الوزير أن يعقد لفصلها مجلسا و أنف من ذلك الطالب و وافقه الوالى و امتنع الوزير من الحكم فى النازلة تجنبا من الكلام فيها من الجهتين، فازداد حنق مصطفى بن إسماعيل من الوزير.

و من ذلك التاريخ اشتدت الوشاية و أشاعوا أن الوالى نفر من الوزير بسبب ما تقدم، و أنه بلغه عدم إرتضاء رؤساء الحكومة بسيرة الوزير مستندين إلى ما سبقت الإشارة إليه، ثم أشاعوا أن الوزير يريد تسليم البلاد إلى فرنسا مستندين بسكة الحديد المار ذكرها و إلى عدم إرسال العسكر إلى إعانة الدولة العثمانية، و ازداد إشاعة هذا بعد انفصال الوزير خير الدين عن الوزارة لقصد تنفير الأهالى منه، حيث أن الوجه الأول لم يؤثر فيهم و الوزير يجيب بنفس الوقائع و أدلتها مما وقع فى الخارج و استوفينا ذكره، و كثر الكلام فى هذه المنحى إلى أن خاطب الوزير الوالى بحكاية مضمون ما تقدم شرحه من كثرة ما أشيع فى شأنه، و أن الإشاعات صادرة من خاصته و أن ذلك مما يقدح فى نفس المنصب و يعطل الإدارة، و أنه يلزم أحد شيئين: إما توثق الوالى به و رفع العوائق، أو استعفاؤه. و قد كان الوالى إذ ذاك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ۱، ص: ۲۹۲

صمّم على قبول استعفائه لا لاعتقاده ما أشيع بل لأن مصطفى بن إسماعيل غير متداخل فى الإدارة بما يرضيه، لأن الوزير ممانع له لما يراه من تصرفاته حسبما يأتى إن شاء اللّه فى المطلب الثامن، و علم أن الحامل للوالى هو ما ذكر بما صرح به مصطفى بن إسماعيل عند ولايته، فإنه قال ما معناه: لو أن الوزير خير الدين ساعفنى لما خرج عن الوزارة، فلما ذكر أجاب الوالى الوزير خير الدين بسؤاله عن رأيه فى النازلة، فأجابه بأن رأيه ما ذكره، فقال أعد علىّ الكلام يوم السبت عند اجتماع الوزراء بعد الإشارة إلى أن أوداءه خانوه بما أوقعه فى تلك الحال، و ذلك مما يؤيد القول بأن الوشايات لم يصدقها حقيقة و أن يريد تغيير الصدور بينه و بين أحبته، فاجتمع

الوزير خير الدين بالوزراء و المستشارين قبل الدخول على الوالى و قص عليهم الخبر مما كان ذكره لهم فرادى و مجتمعين، و كان مآل كلامهم أن الأولى به تحمل المشقة و عدم فتح باب الكلام فى الإستعفاء، و قال الوزير محمد الذى تولى بعده و كان معلوما عند جميع الناس أنه هو الذى يتولى بإشاعة المعرض المتقدم ذكره و اتباعه، بأن لهم اتفاقا مع الوزير محمد على ولايته و أبلغوا للوالى رضاه بذلك و كان على ابن الزى صاحب مصطفى بن إسماعيل الخاص كثير التردد على جهات مسكن الوزير محمد ليظهر للناس صدق الدعوى، فقال الوزير محمد للوزير خير الدين: أما أنا فإنى لا أتولى مكانك و لو دقت عظامى و لكنى أخدم مع كل من يوليه الوالى، كذا شاع و حمل كلامه ذلك على تكذيب ما شاع عنه و لما دخلوا على الوالى أعاد الوزير خير الدين الكلام فى الإستعفاء على نحو ما مر فأجابه الوالى بأنه هو أبو عائلة و قد حصل له التعب و محتاج للراحة فيأمره ببقائه مرتاحا فى محله، فرجع لبستانه بقرطاجنه و كان ذلك فى رجب سنة ۱۲۹۴ ه، و منع الوالى المتوظفين من الاجتماع بالوزير خير الدين حتى خواص أحبائه بل و أتباعه الذين على أيديهم متعلقات كسبه، إلى أن خرج من القطر للآستانة و لم يعمل حسابه معهم.

و فى عشية يوم انفصاله عن الوزارة تذاكر بعض رؤساء المتوظفين فى زيارة الوزير المذكور و ذكر أحدهم ممن أبلغ إليه النهى بواسطة أنه عازم على زيارته تلك العشية متغافلا عما بلغه، فحذره الحاضرون من الوزراء و المستشارين من وقوع ذلك قبل الإستشارة و أنهم هم فى أنفسهم عازمون على مثل ذلك، و إنما علقوه على استشارة الوزير الجديد فلما استأذنوه أحالهم على إذن الوالى و لما استأذنوه أعلن بالمنع، و جعلت عيون على كل من يقدم إليه فبقى منفردا و تكاثرت الأقوال فى الخوف عليه، و نازلة الشهيدين إسماعيل السينى و رشيد لم تبرح من البال، و كان هو متجلدا متغافلا عما يظهر إليه من الغضب و طلب مواجهة الوالى لمجرد الزيارة فاضطرب فى أمره ثم أذن له فى وقت خاص، و وقع بين الوالى و قنسل الفرنسيس كلام سأل فيه القنسل الوالى عن سبب خروج الوزير خير الدين عن الوزارة، فأجابه: بأن خروجه ليس كخروج الوزير السابق، لأن الوزير السابق ارتكب ما يشين العرض، و أما خير الدين فلا سبب لخروجه إلا الخلاف السياسى الواقع بينى و بينه و أنت تعرفه، و هو إشارته إلى ميل الوزير للدولة العلية لأن الوالى كان تحقق لوم قنصل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۹۳

فرنسا على سياسة الوزير مع الدولة العلية، و إلا فما هو الخلاف السياسى الذى يعلمه القنصل دون غيره، و هذا يؤيد الكلام السابق فى حقيقة أسباب انفصال الوزير المذكور عن الوزارة.

و لما تفاقم التنافر طلب الوزير خير الدين السفر لمداواة مرض عصبى فأذن له بعد التصعب التام و وداع الوالى، و لما استقر فى أوروبا حذر من العود خوفا عليه فكاتب هو الوزير محمد بما مضمونه: أنه كان أرسل إليه مكتوبا جوابا عن مكتوبه بأن الوالى سأل عن حاله و عن وقت رجوعه و أنه إنما كان سافر لأجل التداوى أولا و ثانيا لأجل التباعد عن القيل و القال و هو المقتضى لتطويل الغيبة، فإذا رأى رجوعه لا بأس فيه فليأمر الوالى به لأن غاية مراده هو أن يعيش فى بلاده مع عائلته تحت ظل الوالى مع حريته الشخصية من غير أن يتداخل فى شىء من الأمور كما هى عادته عند انفصاله من الوظائف، بدليل سيرته فى التسعة سنين السابقة التى بقى فيها بلا مأمورية، و أنه كان ينتظر الجواب عن ذلك المكتوب الذى تضمن الإعلام بعزمه على السكنى بالقطر خلافا لما يشيعه المغرضون، متعهدا بعدم التداخل فى شىء من الأمور السياسية، و أنه طلب حريته الشخصية حيث صدر الإذن للأهالى و المتوظفين باجتنابه، و مع انتظاره للجواب مدة من الزمن لم يرد له الجواب إلا بكون رجوعه لا يتوقف على إذن مع التغافل عن الموجبات المشار إليها مع أنه لم يطلب إلا ما كان الوالى سمح به للوزير مصطفى خزندار فى صفر سنة ۱۲۹۲ ه من الرخصة فى مخالطة من يشاء و السفر الخ، مع أن ذلك الوزير كان مطالبا بمال جسيم و ليس خروجهما من الوظيف سواء لاختلاف الأسباب، و ما طلبه الوزير صاحب المكتوب هو ضرورى فى حقه لما صدر من الإذن فى المنع من الاجتماع به حتى أن وكيله المالى امتنع من القدوم إليه هذا زيادة على الصعوبات التى وقعت عند إرادته السفر، و لم يجب عن هذا المكتوب و كان القصد من أضداده إما حمله على عدم العود أو أنه إذا عاد يتسبب

له بإيقاعه فی محذور وخيم، و مع ذلک قدم الوزير خير الدين لتونس عندما شاع أن بعض بواخر الروسيا قادمة إلى تونس و كانت حالته مع الوالی أشد مما سبق، فأرسل إليه بأن يقصر من القدوم إليه إلا بإذن متعللا بأن الوزير مصطفى خزندار تشكى من منعه هو من زيارة الوالی مع عدم منع الوزير خير الدين، و قال كثير من الناس هو قياس مع الفارق ثم عاد الوزير خير الدين إلى السفر أواسط سنة ۱۲۹۵ ه و رجع، إلى أن أتاه إذن بسلک الإشارة من الأعتاب السلطانية بالقدوم إلى الآستانة، فاستأذن الوالی و امتنع من الإذن له حتى دعا القناسل المعتبرين و استشارهم فی ذلک، فكلهم أشاروا عليه بأن لا وجه فی منعه و إلا وفق له الإذن بطيب نفس منه، فأذن له عن كره و منعه من وداعه و سافر فی رمضان سنة ۱۲۹۵ ه و ترقى فی عناية الخليفة به إلى أن صار صدرا أعظم فی ذی الحجة من تلک السنة، و جلبت عائلته فی باخرة سلطانية و من ذلک الوقت خرج الكلام على هذا الوزير عن موضوعنا الذی نحن فی صدده، و قد انحصرت دعوى أعداء خير الدين فی أمرين.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۹۴

إحداهما: إرادته تسليم البلاد للفرنسيس.

و الثانی: ميله إلى الدولة العلية.

فلا شک أن الخلاف السياسی الذی ذكره الوالی لقنسل فرنسا لا يتعلق بالدعوى الأولى و عليه فلا سبب إلا الثانی، و على كل فقد أشهد الوالی قنسل الفرنسيس بعد خروج الوزير خير الدين من الخطة باستحسان سيرته إلا الخلاف المذكور، فعلى الواقف المتأمل فی ذلک إذ الحق ما شهدت به الأعداء، فعداوة الوالی لخير الدين بعد خروجه من الخطة لا يجهلها أحد و الحجة القطعية فی ذلک امتناعه من مقابلته عند صدور الإذن بالقدوم لدار الخلافة و طلب الوداع.

المطلب السابع: فی وزارة محمد خزندار

اعلم أن هذا الوزير أصله من اليونان و حضر إلى تونس فی ولاية حسين باشا، و ربی فی الحكومة و تعلم الفروض العينية و القراءة و الكتابة و نشأ على صفة التعفف عن الرشا موسوما بحسن الرأی جدی الطبع كثير الصمت صبورا محبا للسادة الأشراف، صاهره أحمد باشا بالمولى الشريف سيدی محمد الشريف على إبنته، صاحب صدقات سرية متباعدا عن الشفوف متحد السيرة، كان قربه الوالی حسين باشا بما راعاه به صاحب التصرف إذ ذاک شاكر صاحب الطابع و صار من خواصه، و زادت به عناية الوالی المذكور حتى أولاه خزندار و كذلک أخوه من بعده مصطفى باشا فی استنجابه، إلى أن قيل أنه حصلت غيرة منه لشاكر صاحب الطابع المذكور، و اتهم بأنه أغرى بعض خواصه به فی المعسكر الذی توجه تحت رياسة صاحب الطابع المذكور لثورة أهل جبل باجه، فأطلق على الوزير محمد الرصاص فی واقعة حربية هناک فأصيب فی رجله و عوفی مع بقاء تأثيرها، ثم استنجبه أحمد باشا و ولاه عاملا على الساحل و حسنت فيه سيرته و طالت مدة ولايته عليه من حدود سنة ۱۲۵۳ ه إلى سنة ۱۲۸۰ ه. و دافع عن أهله ما استطاع من تعديات محمود بن عياد بتكفله بخلاص كل ما يطلب منهم ابن عياد، على أن لا يباشرهم ابن عياد بتوجيه أعوان الخلاص الملتزمات التی يطلبها منهم، و أعان على مصاريف عسكر حرب القريم بألف قفيز من الشعير، و وجهه أحمد باشا رسولا عنه للدولة العلية فی استطاع نيتها فی ترتيب الأداء على تونس و الإعتذار إليها، ثم وجهه أيضا لإحضار مهمات العسكر فی حرب القريم، ثم عاد مع العسكر و أقام هناک مدة ثم رجع، و لما ولی محمد باشا أرسله بالهدية و النجدة الثانية من العسكر و طلب تقرير ولايته فقضى مأموريته و عاد و كان فی عزم الوالی المذكور تقديمه لوزارة الداخلية فعاقه عنه ما تقدم فی إبقاء الوزير مصطفى خزندار، و لكن الوالی المذكور قربه و اعتمده و رفع شأنه و أرسله رئيسا على المعسكر الموجه إلى الأعراض و الجريد لجلب رئيس قومه من أعراب طرابلس المسمى بفومه عند ثورته على الدولة العلية هناک، ثم التجائه إلى تونس عند خشيه الإستيلاء عليه و أحدث فی أطراف الجهة الجنوبية من قطر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۹۵

تونس شيئا من الإختلال، فوجه عليه الوالى المذكور معسكرا تحت إمرة الوزير محمد المذكور و لقبه فى تلك الوجهة بأمير الأعراض.

و استقال الوزير محمد من اللقب و لم يساعفه الوالى، و فى ولاية الصادق باشا ولى الوزير محمد وزارة الحرب عند استعفاء وزيرها منذ ولاية أحمد باشا و هو مصطفى أغا، ثم ولى عوضا عنها وزارة الداخلية ثم عوضها بوزارة البحر كما ولى رئيسا ثانيا بالمجلس الأكبر عند وجود القوانين حينما استعفى الوزير خير الدين، ثم لما حدثت الثورة العامة سنة ۱۲۸۰ ه بقى الوزير محمد فى زوايا الخمول إلى أن حدث الكومسيون المالى فولى فيه عضوا، و أرجعت إليه الولاية على الساحل و أبلى فى التخفيف على أهله من مصاعب الديون ما تقدم شرحه بإعانته للوزير خير الدين، ثم سنة ۱۲۹۰ ه ولى مستشار القسم الثانى من الوزارة الكبرى مع التلقب بوزير الإستشارة، و لما حصلت مبادىء استعفاء الوزير خير الدين شاع التعاضد بالوزير محمد لقصد تقليده الوزارة الكبرى، حيث كانوا على علم بأن نقل الوزارة من خير الدين إلى ابن إسماعيل صعب عظيم فى أعين العامة و الخاصة، و يلزم مدة الإستئناس بمباشرة مصطفى بن إسماعيل للسياسة تحت رياسة غيره، فلما استعفى خير الدين قلد الوالى الوزارة الكبرى للوزير محمد خزندار بعد أن استقاله منها و بكى و اعتذر بكبر السن و مرض البدن فلم يساعفه الوالى فتلقاها، و ألبس نيشان البيت الحسينى و طلب من الوالى أن لا تتغير سيرته عن الطور المعتاد له فى الأبهة اللازمة لرياسة الوزارة، كما قلد أيضا رياسة الكومسيون و كان ذلك فى رجب سنة ۱۲۹۴ ه.

و ولى فى وظائفه التى كانت بيده مصطفى بن إسماعيل و بقى الوزير محمد فى الوزارة متحفظا فى ما يستطيعه على إبقاء ما كان على ما كان، و صاحب النفوذ هو غيره على ما سيأتى شرحه، و مع أكثر الجزئيات التى تعرض له لا يبدى فيها أمرا إلا بالإستشارة، و لم يحدث فى مدته شىء جديد سوى حرص الدولة العلية على إرسال العسكر فاعتذر إليها بأن غاية ما فى الوسع هو الإعانة المالية للأسباب التى مر شرحها، فلم تصغ لذلك و زادت إلحاحا و تهديدا بلزوم العسكر و طالت المراجعات و الإعتذارات من تونس، إلى أن صرحوا للدولة العلية بأن غاية ما فى الوسع و القدرة هو إحضار أربعة آلاف من النفوس بلباسهم فقط و سلاحهم من النوع القديم و ما عدا ذلك يلزم أن يكون جميعه على الدولة، فرضيت بذلك و أعلمت بأنها ترسل إلى حملهم على عجل سفنها فتجب المبادرة بإحضارهم، فأحضروا و صرف على كسوتهم و لوازمهم مدة حضورهم و انتظارهم للسفن مما جمع من الإعانة المالية من الأهالى التى سبق ذكرها فى وزارة خير الدين، و انعقد الصلح قبل سفرهم فورد الإذن بسراحهم.

و كذلك حدثت نازلة انتهاء أجل الكنت دى صانسى لكنها لما كان كل من الحرص فيها و انتهاء خصامها فى مدة الوزير مصطفى بن إسماعيل، و هكذا نازلة وصل الطريقة الحديدية المار ذكرها بطريق الجزائر، فإنها و إن وقعت فى وزارة الوزير محمد لكنها فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۹۶

الواقع منسوبة لسعى مصطفى بن إسماعيل حيث كانت التصرفات بين هذين الوزيرين فى مدة وزارة محمد مثل التصرفات بين الوزير مصطفى خزندار و الوزير خير الدين بعد ولاية هذا وظيفة وزير مباشر، و غاية الفرق بينهما أن وزارة محمد و ابن إسماعيل لم يظهر فيها جهرة التباين و العناد، و وزارة خزندار و خير الدين بخلاف ذلك، فليس من الإنصاف نسبة مساعى أحد الرجلين إلى الآخر كما ذكرنا مثل ذلك سابقا، سيما مهم المسائل الخارجية فقد كادت أن ينفرد بها الوزير ابن إسماعيل و ليس للوزير محمد فيها إلا الإجراء، و دام الوزير محمد على ذلك متجنبا لكل صعوبة مقتصرا على امتناعه من الرشا و بيع الوظائف فى نفسه مشيرا بلطف إلى استقباحها لمن يريدها مداريا لسائر المتوظفين، إلى أن أحس بالكلام بإرادة استعفائه بعد ولايته بستة أشهر فعرض بذلك للوالى متعللا بالعجز و المرض فأشار عليه الوالى بالتحمل و البقاء فى الخطة إلى الوقت الذى يشير عليه الوالى بالإستعفاء فعمل بذلك.

و فى ربيع الأول من سنة ۱۲۹۵ ه كثر الكلام فى عود الوزير الأسبق مصطفى خزندار فكذبته الحكومة بنشرها فى صحيفتها الرسمية

فصلا طويلا فى أن ذلك الكلام مما يشوش على السكان و يحير الأفكار و أنه بهتان و الوالى لا يعمل به و أنه من الإفتراء و الإرجاف، و ذلك فى عدد ۱۱ من الرائد فى ۱۶ ربيع الأول سنة ۱۲۹۵ ه، و إنما ذكرنا ذلك ليتيقن أن نفرة الوالى للوزير المذكور لأعماله حقيقية لا كما قيل من أنها بسعى الوزير خير الدين، حيث أنه فى ذلك التاريخ بعيد عن الوالى و أشغاله ثم أن الوزير محمدا بقى منتظر الإشارة لاستعفائه كما بقى من جهة طالب المنصب و صاحب الولاية انتظار إعادته هو للإستعفاء أو التعريض به، و بقى هكذا الحال كل شق ينتظر صاحبه مدة أشهر إلى أن أظهر الوالى كثرة الكلام فى الرغبة فى استعفاء الوزير و أحضر نيشان آل بيته الذى صار علامة ملازمة للوزارة الكبرى و فطن بذلك الوزير محمد فقدم للوالى معرضا بالإستعفاء على حذر حيث اعتمد الوصاية بأن الوالى هو الذى يشير عليه فقبل بالرحب و البشر و أوصاه بأن يكتب غدا مكتوب الإستعفاء، فلما حضر الجميع إلى قصر المملكة من الغد أمر الوالى قبل أن يصل إليه مكتوب الإستعفاء الوزير محمدا بأن يستصحب معه الوزير مصطفى بن إسماعيل إلى محل الوزارة و يعلن لجميع المتوظفين بعد جمعهم بأن الوالى أولى مصطفى الوزارة الكبرى و رياسة الكومسيون بعد أن ألبس الوزير مصطفى نيشان البيت، و لاطف الوالى الوزير محمدا و أمره بأن يعود إليه بعد ذلك الموكب مصاحبا للوزير الجديد فعمل بذلك على هيئة استغربت إذ لم يعهد مثلها، و بعد ذلك كتبت مكاتيب الإستعفاء و قبوله و نشرت فى الرائد و كان ذلك فى شعبان سنة ۱۲۹۵ ه، فمدة وزارة محمد عام و شهر و لقب فى ذلك الوقت بوزير الإستشارة و جعل له مرتب عمرى و قدره ستون ألفا فى السنة، و أمره الوالى بأن يقدم إليه فى كل أسبوع فى يوم السبت مع جملة المتوظفين أو عندما تدعو حاجة لحضوره، و جعل منزلة حضوره فى موكب الوالى فوق منزلة الوزير الحالى بحيث لم ينزل عن مرتبته،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۹۷

ثم استقال هو من ذلك و نزل تحت الوزير ثم ولى عضوا فى مجلس الشورى الآتى ذكره و بقى على ذلك إلى الآن.

المطلب الثامن: فى وزارة مصطفى بن إسماعيل

هذا الوزير من الناشئين فى حاضرة تونس، و لما شب رباه أحد متوظفى قصر الحكومة الملقب بزهير حتى نسب إليه فى اللقب ثم أخذه منه الصادق باشا الوالى الحالى و صار من خدمته و قربه و رقاه إلى رتبة أمير لواء مع انضمام رتبة أمير لواء ثانيا فى عسته العسكرية الخاصة، و هى وظيفة مقصورة عليه لم تكن من قبل و لا بقيت من بعد، و من حدود تلك المدة عرف بلقب ابن إسماعيل نسبة إلى والده الذى يقال أنه مسمى بذلك، و هو متواضع بشوش كثير التردد على الصالحين و زيارتهم شديد الإعتقاد فيمن ينتمى إلى علوم الحدثان، شره على الأشياء الجديدة كثير الإنفاق على ما يعود إلى لذاته محب للتجمل بالملابس المجوهرة، حتى تتعدد الخواتيم المكللة بإصبعه و ترى المجوهرات على صدره و سلسلة ساعته، عارفا بأخلاق سيده ملائما فى سيرته معه لمرضاته، حتى تمكن ميله إليه و اشتدت رغبته فى استرضائه إلى أن قدمه على معاصريه و أبناء جنسه، فبلغ إلى الرتبة المشار إليها، ثم رقاه إلى رتبة أمير لواء العسة و أبطلت الرتبة الثانية المشار إليها، و فى أواخر مدة التنافر بين الوزير خير الدين و مصطفى خزندار انتهزت تلك الفرصة إلى التنويه بشأن مصطفى بن إسماعيل ورقى إلى رتبة الفريق، و أرسل من الوالى كما تقدم إلى مالطه لإبلاغ العناية بالوزير خير الدين و كان يظهر إليه الميل عن مصطفى خزندار، ثم ولى عاملا على الوطن القبلى أواخر مدة مصطفى خزندار و أخذ مستلزمات العمل المذكور بنقلها إليه بدون انتهاء مدة من كانت بيده.

و امتدت الأيدى إلى أرزاق أهالى العمل المذكور بالرشا فى الأحكام و غيرها حتى قال كثير من أهله لقد زال العناء عن أهالى القطر إلا نحن فإنا لم نر شيئا من أثر ذلك لإغضاء الوزير خير الدين النظر عنه لمعاضدته إياه، و استولت بعض حواشيه على الأوقاف ببلد سليمان إلى أن آل أمرها لما كنا شرحنا بعضه، فإن جامع الحنفية و المدرسة ببلد سليمان لم يكتف فيهما بأخذ دخل الوقف و إهمال

الموقوف عليه حتى خرب و تعطل جريان الشعائر، بل نقل منهما مهمات من الرخام و غيره إلى دار المتولى، كما أقيمت فى ذلك حجج من أهالى البلد و قدموها إلى جمعية الأوقاف و جرى على الأهالى من المتاعب ما بلغ إلى قتل النفس كما ذكروا ذلك فى قتل حميده بايوض أحد أهل الحاضرة الذى انتقل بالسكنى إلى هناك و ذهب دمه هدرا و سودت فى موته رقعة على أنه مات حتف أنفه تبرئة عند الحكومة رسما من دمه، و شدد على الأعيان من أهل الحاضرة و غيرهم فى خلاص قانون الزيتون الذى كان مرتبا على الوطن القبلى الذى مر ذكره و تحملوا من مباشرى الخلاص إهانات لم تعهد لهم، حتى أن بعضهم كان جالسا بحانوت أحد أصحابه فى العطارين فجاء المستخلص و ألزمه بالخلاص حالا مع أن العسر عمومى فضلا عن كون الرجل لم يكن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۹۸

مستعدا و لا مال محمولا معه فأهين بما أذرف دموع المشاهدين من ذلك الملأ، و مثل ذلك متعدد.

ثم ولى الوزير ابن إسماعيل وظيفة صاحب الطابع أواسط سنة ۱۲۹۰ ه، و يوم ولاية الوزير خير الدين الوزارة الكبرى ولى الوزير ابن إسماعيل وزارة البحر غير أنه لم يباشر هاته الوظيفة فى محل الوزارة، و إنما جعل ما يتوقف على إمضائه يحمل إليه أين كان ليمضيه حتى يقال إنه انفصل عنها، و هو لا يعلم مضمون تلك الوظيفة إذ لم يكن التصرف على نحو إرادته و لأنه يعتمد من ينيبه من غير احتساب عليه، ثم عزل عن ولاية الوطن القبلى لأن الوزير خير الدين قد استقر فى الوزارة الكبرى و ظن أنه غنى عن معاضدة ابن إسماعيل حينئذ، فاقتحم مع الوالى صعوبة الإلحاح بعزله و من ذلك التاريخ برح الخفاء فيما كان كامنا من منافرة الوزير ابن إسماعيل للوزير خير الدين، و أن إظهار الميل إليه لم يكن حقيقيا و التفت عليه عصبة الوزير الأسبق خزندار من الأجانب و بعض المأمورين لترويج أغراضهم مما تقدم شرحه، و فى أثناء تلك المدة كانت أموال الوالى و ذخائر الحكومة من المجوهرات و الياقوت الأبيض الذى تركه محمد باشا كلها فى تصرفات الوزير ابن إسماعيل المذكور إلا ما أخرج من ذلك مما أرسله فى هدايا الدولة العلية و ما أعطاه الوالى إلى الوزير خزندار، و له قسط وافر أو غيره، و كان التحم فى تلك المدة بالوزير ابن إسماعيل شخص من سكان الحاضرة يقال له على ابن الزى كانت الناس تتقيه من قبل ثم ازدادوا منه إتقاء لما التحم بالمذكور، و تفصيل حالة هذا الشخص لا تناسب هذا التأليف على أن من شاهدها لا يبلغ ما نذكره لما يعلمه و من لم يشاهدها لا يكاد يصدق بوجودها و لذلك لا نذكر إلا ما يتعلق به من حوادث سيده.

فمنها: أنه حسن إليه معاطاة التجارة فى رقاع ديون الدول و راد له تاجرا بعد تاجر إلى أن استقر أمر مع أحد تجار الأقمشة الحريرية من يهود الحاضرة المسمى بيوسف بن عطار، و أرسله إلى فرنسا للتجارة هناك ثم لما عاد التاجر حصلت بينه و بين على ابن الزى نفرة، فأغرى به سيده لإرادة استئصاله و سجن التاجر فى سجن الضابطية لأن الضابطية كانت لا تسأله عمن يريد سجنه و إنما حسبها التنفيذ لما يراه، و ادعى على التاجر بنحو سبعة ملايين فرنكا أو تزيد بين مال و مصوغ و حجارة كريمة من الياقوت الأبيض على أنها من أعلى نوع و أنه سافر بذلك إلى فرنسا و لم يؤخذ منه حجة فى بيانها و أنه أرجع إليهم بالإرسال من فرنسا مقدارا وافرا من الياقوت الأبيض من النوع الردىء على أنه لم يبع مما تسلمه منهم، و قبلوا ذلك و بقى التاجر إلى أن أحضر بالضابطية و أخذت منه حجة على أنها بتصحيحه و أنكرها هو و طال الأمر إلى أن تخلص التاجر من السجن و هرب إلى قنسلات الإنكليز محتميا بها طالبا إجراء الإنصاف فى نازلته، و تداخل القنسل الإنكليزى مع الحكومة فى إنصاف الرجل و لاحت علائم الزور على الحجة و لم يكن معها من القرائن أو الأسلوب التجارى ما يؤيدها، سيما فى مبلغ وافر مثل ذلك بل ربما كان معها من القرائن عكس

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۲۹۹

الدعوى، إذ أن المدعى به عليه من الياقوت هو من أعلى نوع و هو المصرح به فى الحجة، ثم النوع الذى أرجعه إليهم و قبلوه و أرسلوا له فيه مكاتيب بوصوله من غير إنكار لكونه من نوع ما أعطوه و لا تعريض بذلك، مع أن ذلك المقدار البليغ يعطى لإنسان من غير بيان و لا حجة و لا دفتر و لا تؤخذ عليه الحجة إلا بعد رجوعه بمدة، و هو تحت الغصب زيادة عما كان عند انتهائها فإن جميعه

يؤيد كلام التاجر، فإنه بعد أن رفعت النازلة إلى الوزير خير الدين و إرادته تشكيل مجلس للنظر فيها و امتناع الوزير ابن إسماعيل من ذلك حسبما تقدمت الإشارة إليه و بقى التاجر محتميا بالقنسلاتو تصالح معه الوزير بن إسماعيل بمائة ألف فرنك و عشرين ألف فرنك، و تعجب كل من سمع بالدعوى التى هى نحو ثمانية ملايين كيف يصالح عنها بذلك القدر لو كانت حقا، و النازلة مقررة فى الوزارة و فى القنسلاتو.

و لو نظرنا إلى ما وقع فى النازلة من الكلام على ألسنة الناس الذى منه: أن مما قاله على ابن الزى إلى الوزير ابن إسماعيل: أن التاجر المذكور لما عاد من فرنسا أرجع له مصوغا أو أتاه بمصوغ بقيمة بليغة من المال و أنه اكتشف عن حالة المصوغ بعد الإنفصال بالصلح مع التاجر فإذا هو من البلور المقلد على الياقوت، فأذنه الوزير ابن إسماعيل ببيعه حيث لم يكن فيه من فائدة، فأخبره بأنه بيع ببضع آلاف و أدخلها له فى حسابه و لما وقعت الواقعة الآتى بيانها مع ابن الزى تبين أن عين ذلك المصوغ لم يزل بخزائنه و أنه من الياقوت حقيقة و أمثال ذلك لطال الكلام فى النازلة، لكن لا داعى لنا فى ذكر ما يقال على ألسنة الناس سيما و هو مما يعود إلى ما بين الخادم و المخدوم، و إنما الداعى إلى ذكر ما تقدم هو بيان كونه سببا فى خروج عائلة التاجر المذكور من رعايا تونس و صيرورتها تحت الحماية الإنكليزية، كما أنها كانت سببا فى تمكن النفرة و إظهارها بين الوزير خير الدين و الوزير ابن إسماعيل و ميل الوالى إلى معاضدة هذا لأنه مكنه من جميع أمواله حتى أن نفقته و نفقة عياله كانت على يده، و قد نشرت أخبار متواردة فى الصحف الخبرية عربية و غيرها فيما تقتحمه العائلة من تباعة ذلك و لم يقع تكذيبه، و حيث كان من الخصوصيات فلا نجلبه هنا أيضا، و إنما أشرنا إليه لتعلم خلاصة التصرفات المالية، و بما تقدم و غيره حصلت الإشاعات التى أشرنا إليها فى أسباب استعفاء الوزير خير الدين و قرائن الحال دلت على أنه كان القصد توجيه الوزارة إلى الوزير مصطفى بن إسماعيل، غير أن معرفة حال المتوظفين و الأهالى فى التسليم لذلك كانت مجهولة فقدم للوزارة الوزير محمد و قدم إلى استشارة القسم الثانى من الوزارة الوزير مصطفى بن إسماعيل، لكى يباشر العمال و الأهالى فى شكاياتهم و يتأنس بمباشرة التصرفات العامة، فكان لا يتعرض لتصرفات الحاضرين من اتباع الحكومة عند ورود الدعوى إلا أن تكون نازلة له بها خبرة بواسطة أحد علائقه و تقررت له من قبل قدومها إلى الوزارة فحينئذ يأذن فيها بما كان وقع عليه الإنفصال، و حصلت فى أثناء هاته المدة الرشوة التى كادت تتناسى سيما فى توظيف العمال و لم يقتدر الوزير محمد على دفاعها غير أنها لم تتفاحش إذ ذاك، كما ولى الوزير مصطفى بن إسماعيل عاملا على الساحل لاستعفاء

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۰۰

الوزير محمد عنه، فجرى أول الأمر العمل فيه على ما كان ثم ولى على المستير رجلا نائبا عن العامل بجعل ينيف عن المائة ألف، و كان ذلك الرجل مدينا للأجانب من قبل و اشترى الوظيفة لخلاص ما اشتراه به و لخلاص دينه و تكسبه، و امتدت يده إلى الأهالى و إلى النواب الذين تحت نظره و تفاقم الأمر مع شدة الضعف المالى فى الساحل و اشتكت رعايا الأجانب إلى قناسلهم هناك لأن أهل الساحل لم يزالوا فى رق دينهم فما يتحصل لهم من المال عوض أن يدفع لدائنهم صاروا يدفعونه إلى المتولى، و بقى أمرهم على ذلك إلى نحو ما سيرد خبره.

و فى أول مدة تداخله فى الإدارة وجه قصده إلى التداخل فى المسائل الخارجية و المداخلة مع نواب الدول فاستعطفه أحد نواب الأجانب على أمير اللواء إلياس المصلى لعلقة بينهما ذاتية على إرجاع المذكور إلى خطته التى كان فيها، و هى وظيفة مستشار ثان فى الوزارة الخارجية و قد كان عزل عنها فى أواخر وزارة خزندار أثناء ولاية خير الدين وزيرا مباشرا بسبب واقعة، و هى: أن إحدى الجمعيات الأجنبية التى تجمع المال لنوع من أنواع المرحمة توسطت إذ ذاك بقنسل فرنسا لتعينها الحكومة التونسية بشىء من المال على وجه المرحمة، فأرسلت الحكومة بواسطة المستشار المذكور مقدارا من المال، و لما اجتمع القنسل بالوزير شكر صنعه و ذكر له المقدار الواصل لتلك الجمعية فإذا هو غير مطابق لما أعطته الحكومة، و وقع التحقق فى النازلة إلى أن عزل المستشار المذكور و بقى بلا وظيفة و لا مرتب إلى أن قدم من الأجانب من عطف على المذكور، فتوسط له لدى الوزير خير الدين فى وظيفة فأفهمه أن ذلك

غير لائق لما تقدم؟ فألح على أن يحصل له نفع و نال بواسطته مرتبا سنويا قدره ستة آلاف ريال و قطعة من أرض مقدار ما يبنى بها دار للمذكور، و كبر ذلك على الوزير ابن إسماعيل إذ ذاك و جعلها هجيراه فلما تعاطى هو الأشغال السياسية و توسط لديه فى إرجاع المذكور للخطة السابقة بادر بالإجابة بالقبول، و لما انتهى الأمر للوالى استفظع النازلة سيما و قد سمع بعض القناسل بذلك و أوغر بالإنكار، بل ربما قال بعضهم: إنه يعد ذلك إهانة لهم، و حصل من المتوسط أيضا التشديد فى الإتمام بمقتضى القبول الذى أجابه به الوزير ابن إسماعيل و هو و إن لم يكن إذ ذاك وزيرا للخارجية إلا أنه علم أن كلامه رسمى مثل وزير الخارجية، و نكر ابن إسماعيل التعهد بالقبول و إنما قال إنى وعدت بإبلاغ الوالى المطلب فقط، و تفاقم الخلاف إلى أن استرضى الطالب و وظف المذكور وظيفة مخترعة و هى كاتب سر الوالى بالفرنساوى، و جعل له مرتب إثنا عشر ألفا سنويا، ثم ابتدأت نازلة الكنت دى صانسى فألح الوزير ابن إسماعيل فى تعجيل فصلها و كان فيها ما سيرد خبره.

ثم جاءت نازلة وصل السكة الحديدية التونسية بسكة الجزائر، و ذلك أن الشركة التى بيدها المنحة و شرعت فى العمل بها بعد أن قربت أن تصل ببلد باجه لزمها وصل السكة المذكورة بسكة الجزائر لأنها إن لم تصلها تتوقع الخسارة و يفوتها تيقن ربح الخمسة فى

المائة، لأن دولة فرنسا ضامنة للشركة المذكورة ربح الخمسة فى المائة على ما تنشئه من الطرق الحديدية بأفريقية و تتصل بالجزائر، و دولة فرنسا إنما ضمنت ذلك لأنه مما يعمل به كثيرا فى الممالك الأوروباوية لترغيب أرباب الأموال فى إنشاء المنافع العامة مع تحقق الربح من أموالهم، و هى لا يثقل عليها مثل ذلك لغناها و كثرة مواردها من الطرق الحديدية، فعلى فرض خسران جهة من الجهات فى الطرق يعدل بالربح الحاصل من الجهات الأخرى، و إذا بقيت طريق تونس غير متصلة بالجزائر لا- تحصل الشركة على الضمانة المذكورة، فلذلك قدم إلى تونس زعماؤها و طلبوا وصل السكة مستندين إلى الفصل الثالث عشر من الإتفاق الذى بأيديهم فى أصل المنحة من الشركة و هو أن الشركة يسوغ لها مد فروع يمينا و شمالا عن الخط الأصلى بعد الإتفاق مع الحكومة على جهة المركز الواصل له الفرع و على جهة مروره، و أن المقدار الذى بين نهاية الخط الأصلى و بين حدود الجزائر لا يبلغ إلى مقدار طول الفرع الذى لهم الرخصة فيه، و هو خمسون كيلومتر و أى نحو خمسة و أربعين ميلا- و أنهم غاية ما يطلبون الإتفاق على تعيين المركز المنتهى إليه و تعيين جهة المرور كما يطلبون مد فرع إلى جهة الكاف بمقتضى الرخصة الأولى أيضا، فنالت النازلة فى البلاد و عند رجال الحكومة أهمية تامة لا بالنظر إلى فرع بلد الكاف لأنه خال عن كل شائبة و ليس فيه إلا النفع، و إنما الأهمية من حيث وصل الطريق بالجزائر.

و كثرت الأقوال فى وجود مليون و مائتى ألف فرنك لتيسير أسباب الوصول إلى المقصود و تولى أمر الحرص فيها الوزير ابن إسماعيل، و كان القنسل الفرنساوى معينا إلى الشركة على غير الطريقة الرسمية، و إنما هو من باب المجاملة و النصح و يود فصل النازلة من غير أن تدعو إلى تداخله الرسمى باستنجاده من الشركة على ما يمكن أن تدعيه فيبرأ الوزير محمد إذ ذاك من تحمل العبىء، و عقد لها مجلسا تحت رياسة مستشار الخارجية و أعضاؤه ثلاثة تونسيون و إثنان فرنساويان و إثنان طليانيان و كاتب إنكليزى، و الجميع من متوظفى الحكومة، فتفاوضوا فى المسألة لكن مع الإشارات المتواردة بالتعجيل و اختلف رأى المجلس هل أن الفصل ۱۳ المستند إليه من الطالب يقتضى ذلك أم لا؟ لأنه بالنظر للخريطة يتبين أن المقدار المطلوب ليس بفرع بل هو تطويل لأصل الخط حيث يتجاوز منتهاه النقطة الأصلية المنتهى إليها الخط الأصلى فى البعد، و لكن الذى ترجح عند أغلب المجلس أنه يصدق عليه أنه فرع إذ لم يقيد الفرع بعدم تجاوزه نقطة الأصل، و مع هذا فإن الإستناد إلى ذلك الفصل لا ينتج المطلوب لأنه و لئن تضمن إمكان إمداد أحد الفروع ضمنا يعارضه التصريح القطعى بفصل خاص و هو: «أن الوصل بطريق الجزائر ليس للشركة عمله و لا رخصة لها فيه إلا- باتفاق جديد» و لهذا خصص أيضا بأن الحكومة ليس لها إعطاؤه لغير الشركة المذكورة و هو حجة قطعية بأن إيصال طريق الحديد لحدود الجزائر لم يعط مدة وزارة خير الدين بل أنه شرط عدم الإيصال للحد، و أن إعطاء الرخصة للشركة الفرنساوية فى

إيصال الطريق للحدود هو امتياز جديد أعطته الحكومة التونسية بعد خروج الوزير خير

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۰۲

الدين من خطة الوزارة، و لهذا انتقل الكلام إلى أن الوصل هل للحكومة عمله أم لا؟ فتذاكر الجميع فى منافعه و دفع الإعتراضات و المضرات الناشئة منه بما تقدم بيانه عند الكلام على وزارة خير الدين، بل زاد بعضهم أن قال إنه إذا لم يصل تتحقق المضرة المالية للحكومة بأن ما يصل إلى المركز النهائى يقرب من الحدود مع عدم إنحصار جهة الخروج منها، فتحمل النتائج على ظهور الحيوانات و تخرج إلى الجزائر من غير أداء لضرائب الحكومة إلى غير ذلك من المصالح و دفع المضار، و مما عساه أن يقع من الإرتباكات السياسية عند الإمتناع عن الوصل، و لما كنت أحد أعضاء ذلك المجلس وافقت على ما ذكر غير أنى لاحظت شيئين.

أولهما: أن الوصل إلى الحدود يلزم منه تعيين الحد و هو واقع فيه خلاف و طال النزاع فيه مدة أحمد باشا و ليس للحكومة أن تعين الحد و إنما ذلك يتوقف على إعلام الدولة العثمانية و هى التى تعين الحد.

و ثانيهما: أن وصل الطريق ينشأ عنه كثرة القادمين من رعايا الجزائر لسهولة الإنتقال و قرب الوقت و رخص المصروف و ذلك هو موجب رواج التجارة، و أن الخلق من كل نوع فيهم المستقيم و غيره، فإذا كثر الوارد من رعايا الفرنسيس و حصلت كثرة المخالطة استدعى ذلك كثرة الخصومات الطبيعية و ليس لحكام تونس الحكم فى نوازلهم، بل النوازل ترفع إلى القناسل و أين هذا فى قبائل العربان التى يمر بها الطريق بل و فى نفس البلدان، ليس لأتباع الحكام وضع اليد على المطلوب فيفعل المتعدى ما يريد و يركب و يرجع إلى بلاده قبل أن يصل العلم إلى حاكمه، فيجر ذلك إلى ضياع الحقوق سواء كانت للأهالى و هم الأكثر أو لغيرهم و يضطرون إلى إعمال وجوه يتوصلون بها إلى حقوقهم ربما أوقعت البلاد فى ارتباك أو خروج الرعية عن حكمها، و لا مندوحة عن هذا إلا باتحاد الحكم و قد كان السعى فيه من قبل، و دولة فرنسا موافقة على أصله فلم يبق إلا إنجازه، و لذلك لا تمكن الموافقة على وصل الطريق إلا بالوجهين المذكورين.

فقيل لى: أنّى لهاته المسألة التجارية من تعليقها بمسألة الحكم و هل ترضى باتحاد الحكم جميع الدول حتى تدخل فرنسا معهم إذ لا ترضى بذلك وحدها؟ فقلت: إن كانت نازلة الطريق متجرية بحتة فلا ضرورة لنا تحملنا على اقتحام المسألتين السياسيتين المشار إليهما إلا بعد التخلص منهما و مضرتهما تعدل و تفوق على المنافع المشار إليها أولا، و إن كانت النازلة فيها شائبة سياسية ففرنسا تعيننا فيما يتعلق بها بجلب موافقة الدول على اتحاد الحكم و تبدأ بنفسها، لأن الداعى معها و هو اتصال المملكتين و سهولة الوصلة بالطريق الحديدى على ما مر شرحه، لا- تشاركها فيها بقية الدول. فإذا رأوا جريان العمل بذلك مع جلبها لوفاقهم يغلب على الظن توافق الجميع، و كانت هذه الملاحظات هى مبدأ رميتى بضدية قوم و معاكسة آخرين و أغلب الأعضاء أنصفها، و تكررت المذاكرات حسبما هو

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۰۳

طبيعى فى تعدد الآراء و كلف فى أثناء ذلك أحد الأعضاء بصورة الشروط التى يمكن أن يقع عليها التعاقد.

و بينما المجلس يوما فى أثناء المذاكرات و إذا بالخبر بأن الوزير ابن إسماعيل أخبر بأن القنسل قادم على الوالى ذلك اليوم للحرص على النازلة و أنها لا تتحمل زيادة الطول، فمن ذلك التاريخ خرجت النازلة عن كونها شورية حقيقية و عدلت الشروط المشار إليها فى أقرب وقت، و دفعت أولى الملاحظات المشار إليها بالنص على أن مركز القمرق لا يكون علامة على الحدود، و أنظر هل يجدى ذلك أم لا؟ كما دفعت الملاحظة الثانية بأن تكتب بانفرادها فى أوراق الوزارة لتكون إشارة على الحكومة فى السعى على مقتضاها، و أبقيت فى خزانتها مع تقرير كل ما وقع فى المجلس و أمضيت المنحة و سمع ممن ناجزها و سعى فيها أنها من تصرفات الوزير خير الدين، و الواقف على كل ما قررناه يحكم بإنصافه. ثم أرسل هذا الوزير من الوالى لتهنئة ملك إيطاليا أمبيرتو بالولاية عوضا عن والده، ثم سافر إلى معرض باريس و احتفل به الوالى العام بالجزائر، و اجتمع فى باريس برئيس الجمهورية و رجال السياسة و ذاكر

بعضهم فی فتح البحر بالصحراء الکبیرة من خلیج قابس و عدد له منافع تنشأ من ذلک للجرید، و ذکر له أوصاف الجرید التی هو علیها الآن فتخلص الوزیر ابن إسماعیل من الخوض فی النازلة، لأنه یخشی من المذاکرات السیاسیة، بأنه کان فی سن الصغر لما کان الوالی یسافر إلی تلک الجهات، و لذلک لم یکن یعرفها، و أن المذاکرة فی النازلة تجری فی الوزارة بتونس، فتعجب المخاطب من الجواب. ثم شاع الخبر بالإستعانة ببعض نواب الدول علی توجیه الوزارة الکبری إلی الوزیر ابن إسماعیل و أن بعض النصحاء صرح له بأن الوظیفة مآلها إلیه لتوجه عنایة الوالی إلیه، فلا داعی إلی الإستعانة بالأجانب علی ذلک لأنه یفتح بابا غیر مناسب، فإن الذی یستطیع أن یعین علی الولایة یستطیع ضدها عندما یرید فلم یفد ذلک.

ثم استقرت ولایة الوزیر ابن إسماعیل الوزارة الکبری فی شعبان سنة ۱۲۹۵ ه علی الکیفیة التی تقدم ذکرها فی استعفاء الوزیر محمد، و استبد الوزیر ابن إسماعیل بالتصرفات و حصلت فی البلاد تزینات تشبها بما وقع عند عزل الوزیر خزندار، و قد علموا ما بعثهم علی ذلک إذ ذاک، و أما هاته فکانت امتثالا لما أشیر به علیهم بالإیعاز من الإتباع، فحدث فی هاته المدة أمور فی الحکومة و القطر.

فمنها: تفاقم الأمر فی نازلة دی صانسی، و خلاصتها أن هذا الرجل الفرنساوی کان منح فی وزارة مصطفی خزندار أن تعطی له أرض قدرها أربعمائة ماشیة کل ماشیة کیل مائة و إثنین و تسعین حبلا، و کل حبل طوله خمسون ذراعا، علی أن تکون الأرض قابلة للزرع و السقی، و یعطی له ذلک المقدار علی أربعة أقساط مهما وفی بشروطه فی سنة یعطی له قسط، و علی أن تعفیه الحکومة من جمیع الأداآت، و اشترط علیه أن یربی فی الأرض

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۰۴

المذکورة أنواعا ثلاثة من الحیوانات، و هی: الخیل، و البقر، و الغنم، فی کل مائة ماشیة عدد خاص من الأنواع المذکورة علی أن تکون الأنواع من أحسن الموجود فی القطر أو خارجه إلی غیر ذلک من شروطه، و هو یبیعها لمن شاء و لیس للحکومة شیء فی عوض ذلک إلا تحسین الأنواع المذکورة فی القطر، فمضت آجال منذ قبوله للأرض الأولی و ادعت الحکومة عدم وفائه بالشروط و ادعی هو التعلل بأنها هی لم توف له أیضا حیث طلب الإعفاء من الأداآت التی بواسطتها أیضا، و کان ذلک فی مدة وزارة الوزیر خیر الدین فآل الأمر بعد أن کادت أن تفصل النازلة بالمرة، و بعد أن عقد لها مجلس من متوظفی الحکومة إلی إجراء مطلبه و أخذه القسط الثانی من الأرض، و إسقاطه کل دعوی فیما تقدم تاریخه، فلم یوف بما اشترط علیه أیضا و ادعی أن سبب ذلک تداخل تونس فی حرب الروسیا و أن الأرض التی أخذها لیست کاملة المقدار و أنها لیست بکاملة الصفات و أنها لم تعف مما هو مشروط و أن الحکومة لم تحم حقوقه من التعدی علیه من الأهالی، فعقد لذلک مجلس تحت رئاسة الوزیر ابن إسماعیل فی مدة وزارة الوزیر محمد، و طالت المراجعات بین الحکومة و بین دی صانسی و القنسلاتو إلی أن ولی الوزیر ابن إسماعیل الوزارة الکبری فحرص فی إتمام النازلة و تخلیص الأرض من ید المذکور، و انعقد لذلک مجلس من متوظفی الحکومة من الأهالی و الفرنساویین و تکررت المراجعات إلی أن استقر الرأی علی أن لا حق للکنت المذکور، فأرسل الوزیر ثلاثة من متوظفی الحکومة مع مصاحبة قنسل أوستریا لحوز الأرض المذکورة و الشهادة علی کیفیة الحوز، و قبیل إرساله أعلمه قنسل فرنسا بأن الأولی الصلح فی النازلة بأن یضرب لصاحب المنحة أجل ثان للوفاء بشروطه و یسقط جمیع دعواه فإن لم یوف تخلص دولة فرنسا الأرض منه و ترجعها لحکومة تونس، و بدون ذلک لا یمکن تسلیم الأرض إلا بمجلس تحکیم مختلط و أنه لا یسمح لأتباع الحکومة بالدخول إلی الأرض و إن أتوا للإستیلاء یجدون من یعارضهم من أتباع القنسلاتو، فلم یقبل منه ذلک. و عند وصول الرسل منعهم أتباع القنسلاتو من الدخول بالکلام فرجعوا و کتبوا التسجیل حالا فورد من قنسل فرنسا طلب أربعة مطالب:

أولها: طلب الترضیة من الحکومة.

ثانیها: إلقاء المسؤولیة علی من تسبب فی النازلة.

ثالثها: عقد مجلس مختلط للنظر فی إثبات دعاوی دی صانسی أو عدمها.

رابعها: الجواب عن ذلك قبل مضى يومين و إلا فإنه يقطع الخلطة.

و شاع بالإيعاز أن المراد بإلقاء المسؤولية هو عزل الوزير فاضطرب الوالى و الوزير و اشتد الخوف، و قال بعض الأجانب أن قطع الخلطة لا يعقبه الحرب فتربصوا حتى تعلم الدول و لعله يكون منهم التداخل، فتفصل النازلة بوجه آخر، و لم يقع من أحد القناسل جواب مقنع فى عدم خوف الحكومة لعدم وصول الأخبار التلغرافية و ضيق الوقت، و لم يعلموا الدولة العثمانية و سعى أمير اللواء إلياس عند القنسل بالوجه الخصوصى بأن يكون

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۰۵

الوزير فى أمان و يجاب لجميع المطالب على أن يعزل الكاتب الذى توجه فى النازلة و هو الحاذق الفطن المتفنن دابيد سنطليانه الذى على صغر سنه كان يحسن سبع لغات، و مطلع على السياسة و نصوح لتونس كأعز النصحاء و وفى بجميع لوازم وظيفته، و يقال إن سبب الرضاء بعزله هو شخصيات نفسانية، فأرسل الكاتب استعفاءه قبل العزل، و قبل وقوع الرضا الشفاهى بأن يكون ذلك نهاية المسؤولية التى هى إحدى المطالب، و وقعت الإجابة إلى المطالب من الوالى بعد أن كتب تلغرافا إلى وزير خارجية فرنسا بأنه يريد أن يرسل له رسولا خاصا ليشرح له النازلة، فأجيب بواسطة القنسل: بأن لا فائدة و الحالة هاته فى ذلك، و أن القنسل معتمد من قبل دولته، فأجاب الوالى حينئذ بالقبول و نزل الوزير ابن إسماعيل إلى القنسلاتو باللباس الرسمى ترضية عن الواقعة، ثم عقد مجلس يرأسه موسيو فولون أحد أعيان الحكام الفرنساويين و كان رئيس مجلس التحقيق بالجزائر و هو رجل منصف عفيف، و أعضاء المجلس إثنان تونسيان و اثنان فرنساويان، و بعد التروى فى مجرد دعاوى دى صانسى هل هى واقعة أم لا عدا دعوى التعطيل بالحرب، استقر الرأى على أن مقدار الأرض بالقيس الهندسى الذى لم يجر بكيفيته العمل فى تونس هو ناقص، و أن صفتها مطابقة للشروط، و أن الإعفاء لم يقع لأن شروطه لم تقع، و أن حماية الحقوق موفاة من جهة الحكومة، ثم بقيت الأرض بيد دى صانسى إلى الآن، و عند قبول الشروط كوفىء أمير اللواء إلياس بولايته مستشارا ثانيا بالوزارة الخارجية.

و مما حصل أيضا أنه ورد على تونس أحد الفرنساويين و طلب إنشاء مرسى أمنية للسفن على شاطىء قرطاجنة قرب حلق الوادى و ألح على ذلك، و تخوف من منعه فأعطى خمسة و عشرين ألف فرنك لكى لا يتشدد، و أعطى إلى أمير اللواء إلياس عشرة آلاف ريال لتوسطه عنده بأن يرضى و لا تعطى المرسى، و كذب فى الصحيفة الرسمية أن كون إعطاء المال كان بسبب طلب قنسل فرنسا.

و منها: جعل موكب لإحراق تذاكر الكبون أى الفائض الذى استخلص من مبدأ الكومسيون إلى ذلك الوقت، و جازى الوالى الوزير ابن إسماعيل على ذلك الإحراق بالسيف المرصع الذى أنعم به من طرف الخلافة.

و منها: أن أحد العمال من أشراف مساكن ولى على قبيلة المثاليث فادعى عليه بأنه أخذ منهم زائدا عن موظفات الحكومة نيفا و مائتى ألف ريال و لم يحرر الحساب على مقتضى الإنصاف المطلوب، فطلب تحرير الحساب بمحضر أعيان من ثقات الحكومة فلم يجب و قبض به إثنان من أعوان الوزير و منعوه من الخروج من داره إلى أن تخلص منهم بحيله و رمى بنفسه من إحدى طواقى علوه و التجأ جاريا إلى قنسلاتو إنكلترة فدخل بابها صائحا مستغيثا و أغمى عليه، و لما أفاق سأله القنسل عن سبب حاله فقرر: أنه عذب بربط يديه و إحراق الحطب فى وسط بيته و السكر فيها و صب الخمر أو القاذورة على رأسه، و غير

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۰۶

ذلك من أنواع التعذيب ليؤدى المال، و أخذوا منه أجرا على ذلك خمسة عشر ألف ريال، و آل الأمر إلى طلب القنسل إعادة الحساب فامتنع الوزير من ذلك و حصلت بينه و بين القنسل نفرة و دامت مدة إلى أن أبدل القنسل المذكور لفراغ مدة خدمته بالسن، و هو سر ريتشاردو و دورقته دولته ثم جاء خلفه و صولح العامل المذكور بأقل من ربع ما ادعى عليه يدفعه على أقساط.

و منها: أن أحد أغنياء الساحل الملقب بابن الحفصية ادعى عليه بأنه اشترى زيتا من الوزير و كتب عليه حجة بنحو ثلاثين ألف ريال فتلطف بالتخلص فلم يفد، ثم طلب أن يتوجه إلى جهة الإفرنج ليستقرض منهم و يدفع، فأرسل معه أحد الأتباع لمراقبته و لما وصل

تجاه قنسلاتو فرنسا دخلها مستغيثا فتلقته أعوان القنسلاتو و قرر نازلته. و اجتهد القنسل فی حمایته لما ثبت عنده ظلمه و حماه من ذلک و لم یخرج من هناک إلا و هو و جمیع عائلته تحت الحمایة الفرنساویة، و تفاقم الأمر فی الساحل علی ذلک النوع إلی أن کتب أحد القناسل إلی نوابه بقبول کل من یلتجیء إلیهم، و کتب تقریر فیما هو واقع فأحس الوزیر ابن إسماعیل بذلک فاستعفی من ولایته عاملا علی الساحل و تلطف للقنسل بأن یکون ذلک ختام النازلة فانفصلت علی ذلک.

و منها: أن أحد التجار الملقب بالصباغ الذی تقدم ذکره عند الکلام علی الوزیر مصطفی خزندار أقرض أهل مساکن فی نکبة الساحل العامة سنة ۱۲۸۰ ه أموالا سلما علی الزیت، و تضاعف أمرها إلی أن عجزوا و سجنوا مدة طویلة فلما ولی الوزیر ابن إسماعیل علی الساحل توسط فی الصلح مع التاجر علی أن یتحمل هوله بما یطلبه منهم و هم یدفعون ذلک للوزیر علی أقساط فسرحوا علی ذلک، و نقل الناس عن التاجر المذکور أن المال أسقطه هو عن الوزیر ابن إسماعیل لتوسطه فی إرجاع بستان الوزیر مصطفی خزندار بمنوبه، الذی کان دفعه فی الصلح عن مطالب الحکومة منه کما سبق ذکره، و إن لم یرجع البستان إلا لورثة خزندار عند موته و إنما فعل التاجر ذلک للعلقة بینه و بین خزندار المذکور، و بقی الوزیر ابن إسماعیل یستخلص المال من أهل مساکن شیئا فشیئا هکذا شاع عند من سمع من الصباغ.

و منها: أن أحد أتباع الوزیر ولی علی قبائل جلاص فما لبث فیهم مدة إلا و أقبل منهم فوج عظیم شاکین إلی الوالی بأنهم ضربت علیهم غرامة بنحو مائتی ألف ریال زیادة علی أموال الحکومة، و وقع فی النازلة مبادیء هرج إلی أن صولحوا برفع الغرامة و إبقاء العامل.

و منها: تکاثر الجعائل علی الوظائف من العمال فقسمت لذلک بعض القبائل کالهمامة و عاد ما تتخوف الناس منه من امتداد الأیدی إلی الأموال، حتی أشاع بعض العمال أنه شریک للوزیر فیما یستلزمه من أنواع الدخل، و بسبب ذلک انحطت بعض المداخیل فلزمه غابة الزیتون سنة ۱۲۹۷ ه أخذها تابع الوزیر ابن إسماعیل بسبعة و عشرین ألف مطر زیتا،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۰۷

و أحجم عن الزیادة علیه سائر الأهالی لما أعلن التابع أن أخذه لها شرکة مع الوزیر و لیست هاته مما یتقدم إلیها الأجانب الذین لا یخشونه، لأنها تحتاج إلی ممارسة الإعراب و لم تسبق لهم عادة باستلزامها.

و منها: أن قبیلة تسمی بالقوازین من المنتسبین إلی أحد الصالحین و عددهم لا یبلغ إلی الثلاثمائة رجل، یسکنون فی الجهة الجنوبیة فی حدود الصحراء کانت الحکومة منذ قدیم معفیة لهم من الأداء لقلتهم و قلة کسبهم، و استمر الأمر علی ذلک إلی سنة ۱۲۹۶ ه، فأرید إلزامهم بالأداء فامتنعوا متعللین بالعادة و الحال، فألح علیهم و تهددوا بالغصب فتحملوا بأداء شیء من المال سنویا علی أنهم یوزعونه علی أنفسهم من غیر أن یتداخل العامل فی عددهم، و توزیع المال علیهم مثل ما هو جار فی بعض القبائل المتوحشین کورغمه و مطماطه و شبههما، و کان الفرق بین ما یمکن أن تحصل علیه و بین ما أرادوا هم إعطاءه بأنفسهم لا یتجاوز الألفی ریال علی ما قرره أحد العارفین بهم، فامتنع الوزیر من مساعفتهم و أذن بغصبهم و استعمل لذلک بعض القبائل الذین لهم معهم عداوة مع بعض العساکر الخیالة الغیر المنضمین المعروفین بالجوانب و الصبائحیة، فعاثوا فیهم و قتل منهم کثیر حتی النساء و الأطفال بتمزیق جثثهم رحمهم اللّه.

و منها: أن رئیس أطباء الوالی طلب أن یکون بالحاضرة مستشفی علی النحو الأروباوی، فتمم ذلک بمال الأوقاف و انتظم أمره، و قد وفیت فیه بکل ما تحتاج إلیه المرضی و تتم به راحتهم، حیث کنت أنا المباشر إلی إنشائه. و جعلت فیه قسما منفردا خاصا بالنساء و کل ما یصرف علی الداخل من المستشفی یکون من فواضل مال الأوقاف و لا یعطی المریض شیئا، و لهذا اشترط أن یکون الداخل إلیه فقیرا، کما جعلت به قسما منفردا خاصا بالأغنیاء و یقوم المستشفی بجمیع لوازمهم علی أحسن حال علاجا و سکنا و یعطون عوض ذلک قدرا زهیدا من المال، و جمیع أدوات هذا القسم من الأسرة و الخدم و الفرش مماثل لحالة بیوت الأغنیاء المقتصدین فی

مصاريفهم، و فائدة هذا القسم أن كثيرا من أهالى الحاضرة إذا مرض لا يجد من يوفى له بواجبات العلاج للجهل من العائلة مع أنهم يستكثرون أجرة الطبيب فيندفع عنهم ذلك فى المستشفى، و هناك فائدة أكبر من هاته و هى: أن أغلب بلدان القطر خلية عن الأطباء و كثيرا ما يأتى منهم أناس للتداوى بالحاضرة فلا يجدون مأوى سوى منازل المسافرين التى تسمى و كائل و هى غير صالحة لمثل ذلك فتحصل لهؤلاء هاته الثمرة مع الإشتراك فى الفائدة المقررة لأهل الحاضرة.

و منها: أن الوزير ابن إسماعيل استوهب من الوالى الأوقاف التى كان حبسها على باشا الثانى على الإناث من ذريته فسعى فى جعل بينات تشهد بملكيتها فى مدة وزارة خير الدين و عطلها إذ ذاك الوزير المذكور، ثم بعد خروجه تمت الهبة و بقيت الأوقاف عنده بالهبة، و لما تكاثرت عنده الأراضى المسماة بالهناشير المختلفة كبرا و صغرا باع منها عددا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۰۸

وافرا إلى لجنة فرنساوية و غيرها.

و منها: أنه استوهب من الوالى أيضا مصيدة السمك ببلد المستير المسماة بالتنارة ثم أحالها إلى لجنة أخرى، كذا شاع أيضا.

و منها: عمل طريق بين باب البنات و باب سويقة من الحاضرة قرب دار الوزير و فيها أكثر مروره إلى جهة باب البحر.

و منها: أن أحد الأغنياء من الأهالى توظف فى الحكومة المسمى بمحمد عريف توفى رحمه اللّه عن غير ولد و كانت له بنات من إبنه، فأوقف كسبه عليهن و على من يتزايد له، و بعد وفاته وضعت زوجه حملها فكان ولدا ذكرا ثم توفى فى أثر ذلك، و كان للمتوفى ابن عم فتعاضد مع الزوجة و أرادا أن يعطلا الوقف المذكور ليصير المخلف إرثا فيرثان أغلبه، و استعانا بتابع الوزير المسمى على ابن الزى على مواعيد له، و قد كان القاضى جعل وصيا على البنات و حفظ الوقف و المنقول فطلب التابع أن ينقل حكم النازلة من الشريعة إلى الوزارة على خلاف الديانة و العادة من تحكيم الشرع فى المواريث و الأوقاف، و أرسل الوزير إلى القاضى مكتوبا بأن يسلم رسوم الوقف إلى كاتبين، أحدهما من خواص الوزير، و الثانى من الوزارة، مع الوعد فى المكتوب بأن الوزارة بعد الإطلاع على الرسوم ترجعها و كان المتسلم لها أبو الزوجة و هو وكيلها مع أحد الكاتبين، فطال الزمن و أبلغ الوصى إلى القاضى التخوف على الرسوم إذ شاع أنها سيقع فيها تغيير فأرسل إلى أبى الزوجة و إلى الكاتب اللذين تسلما الرسوم بطلب ترجيع الرسوم فأبيا فأحضرهما فامتنعا فسجن أبا الزوجة حيث أنه هو المتسلم و أخبر بأن الرسوم بعلو فى داخل المحكمة الشرعية هو محل اشتغال الكاتب المذكور حيث كان من شهود الأوقاف، و ذلك العلو هو مكان اجتماعهم، فبعد أن ألح القاضى على الكاتب و امتناعه أمر بأن يمنع من دخول العلو خشية إخراج الرسوم منه، و بقى القاضى بمحل حكمه على الهيبة الشرعية حسبما سبق التعريف بذلك من كون أهل الشرع بتونس لهم من التعظيم و التوقير قريبا مما كان عليه الحال فى الأعصر المعظمين للديانة و شعائرها، فما كان غير بعيد إلا و على ابن الزى المذكور قارم فضرب باب العلو برجله و كسر قفله، و أمر الكاتب بالصعود و إخراج الرسوم و أخرج المسجون و أمره بالذهاب حيث شاء و قدم على القاضى و باشره بما لا يناسب ذكره.

و فشا الخبر و عظم الأمر عند العلماء و العامة إلى درجة لم تعهد، فأبطلت الدروس من الجامع الأعظم و أغلقت دار الشريعة و كثر اللغط و سرى إلى خارج الحاضرة، و أبلغ أمر النازلة إلى الوزير ابن إسماعيل فأراد أن يهون النازلة بمنع تابعه من القدوم إلى تونس، و أرسل معلما إلى القاضى بأنه سجنه فلم يلتفت لذلك العلماء، و تقدم الشيخ أحمد بن الخواجة شيخ الإسلام و جمع العلماء مرارا و أظهر أشد الإنتصار للشرع و كتب جميع المجلس الشرعى مكتوبا و أرسلوه إلى الوالى قصدا بلا واسطة الوزير على خلاف المعتاد،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۰۹

و قدم به رسولهم على الوالى فى مجلسه العام فقرىء عليه فإذا فيه تفصيل الواقع و الإشارة إلى أن الخطب عظيم، فاهتز الوالى و توقى عاقبة الأمر و أحضر الجانى و أمر بنزع رتبته و حبسه ثم نفيه إلى حصن جربه، و قدم على أهل المجلس باشكاتب و وزير الشورى و تأسف لهم على ما وقع و هدأ بالهم بما صدر من الحكم فاقتنعوا فى الجانى بما وقع، و لكنهم طلبوا مواجهة الوالى و قصوا على

باشكاتب المذكور ما هو حال بالقطر مما تقدم شيء منه، إلى أن بلغ الحال إلى تلك الدرجة و توقعهم لما هو أعظم، و كان شيخ الإسلام يبكى على حالة من لا أرب له فى الدنيا و كل تكلم بما بدا له من فظاعة الحال فأبلغ باشكاتب ما سمع و ما رأى فاضطربت أفكار الوالى و تكاثر الكلام فى الناس و كانوا كلهم على كلمة واحدة فى اتباع أهل المجلس الشرعى، و مما ذكر إرادتهم إنهاء الأمر و الشكاية إلى خليفة المسلمين و طلب إجراء ما تضمنه الفرمان المؤرخ فى شعبان سنة ۱۲۸۸ ه من إجراء العدل و الإنصاف فى الرعايا، و بلغ الوالى قصد العلماء و هو طلب تشكيل مجلس للنظر فى المصالح و فى أعمال المأمورين لكى لا يقع مثل ما وقع، و خشى مما شاع من تداخل الخلافة الكبرى لظنهم أن السلطان لا يرضى بضياع أهالى تونس لمخالفة السيرة الإدارية لما هو مشروط فى الفرمان السلطانى، سيما و قد بلغ الأمر إلى ما هو راجع إلى الشرع و حمايته و أن ذلك أيضا يجرى إلى تداخل بقية الدول العالمين بقبح السيرة، مع كون الصدر بالدولة العثمانية إذ ذاك هو خير الدين باشا الذى يراه عدوا له، فأرسل الوالى إلى العلماء ثانيا يقول لهم: أمهلونى بضع أيام، فإن جعلت ترتيبا سياسيا يقنعكم فاقدموا إلىّ حينئذ شاكرين و إلا فلكم أن تبدوا ما يظهر لكم، و كان هذا رأى أشير به على الوزير بأن يعمل كما قيل: «بيدى لا بيد عمر» و خشية تفاقم المطالب على ذلك النحو، و وقع إذ ذاك مبادىء إنحلال فى عزم أهل مجلس الشريعة لأن رئيسهم تقرب إليه الوزير سرا، فانحط حرصه و توجهت أطماع البعض إلى المسابقة لإرضاء الوزير فأجابوه: بنعم، ثم جمع الوالى وزراءه و أعلمهم متأسفا من مطلب أهل الشريعة بأنه يريد أن يجعل مجلسا مركبا منهم، أى من الوزراء و رؤساء الإدارة دون غيرهم من الأهالى للنظر فى المصالح و جريان السياسة، فأجابوه: بأن ما يظهر له حسن فهو حسن، و كان هذا الجمع من الوزراء و المستشارين مشتملا على جميعهم حتى أن الوزير حسين كان إذ ذاك قدم من إيطاليا لمصالح فى مأموريته فصادف الواقعة، و كان ممن وافق الوالى على رأيه فى جعل المحتسب و المحتسب عليه واحدا خلافا للمعقول، و لما يعلم من طبعه من لزوم الإحتساب الحقيقى على تصرف المأمورين بثقات من الأهالى إلى غير ذلك من أوجه العدل، و مع هاته الموافقة فلم يسلم من القدح.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۱۰

ثم أن الوالى أرسل لأهل الشريعة يعلمهم بأنه أنشأ مجلسا مؤلفا من عشرة أعضاء تحت رياسة الوزير ابن إسماعيل و أعضاؤهم الوزراء و المستشارون و بعض رؤوساء الإدارة، و لما بلغ لأهل الشريعة ذلك، قالوا: ليس قصدنا المتوظفين لأنهم دائما تحت الأمر و لا خبرة لهم بما فى أطراف القطر، و إنما المراد أن يكون المجلس من المتوظفين و العلماء و أعيان من البلاد و العربان و لا أقل أن يكون عددهم ثلاثين عضوا، و أنهم لا يقصدون إلا مصلحة البلاد لأنهم ليس لهم غرض إلا هناء القطر و هناء الوالى، و قيل: إن قنسل فرنسا صرح بأنه لا يتعرف بالمجلس و أنه إن أراد الوالى الإستعانة بعساكره لردع الطالبين فهو حاضر له، حيث أن طريقة الوزير هى التى تبلغه إلى قصده كما ذكرناه فى محله، ثم لما بلغ الوالى جواب العلماء أرسل إليهم بأنه يزيد إثنين من رؤساء المتوظفين و أن هذا المجلس ينظر فيما يقتضيه الحال من الكيفية و يجرى العمل به، و كان فى أثناء هاته الأيام دبت السعاية بالترغيب لبعض العلماء و الترهيب لهم من تداخل الأجنبى بلا مستند، فرضى عمدهم بذلك و كان سببا فى تمكن الفيض على من زيد حيث انتهى رضاء المقترحين عند ذلك و صرح الوالى بما يشف عن ذلك و اللّه المطلع على السرائر.

ثم جعل هذا المجلس فى نفس الأمر إذا اجتمع يعرض عليه ما يريد الوزير و الأغلب أن يكون المعروض هو بعض النوازل التى تعرض بقلة، و لما كان أغلب الأعضاء يسايرون الوزير لم يظهر لوجوده من أثر إذ لا يتداخل فى نصب و لا فى عزل و لا سيرة عامل أو رشا و شاهد ذلك الخارج، فإنه لم يمض عليه شهران حتى وردت الرسل على شيخ الإسلام بأن يتشفع فى الجانى على الشرح فلم يوافق جهرة بل أظهر زيادة الامتناع ثم سودت سرا بطاقة إلى المنفى ليكتب على نمطها مكتوبا لأهل المجلس الشرعى، و لما ورد مكتوبه على نحوها كتبوا إلى الوالى مستشفعين بعد أن امتنع بعضهم، و قيل: عندما سمع بذلك! ليت شعرى ما هو وجه كتبهم مع علمهم بالحقائق.

و منها: أنه شرع الوزير أثر ما تقدم فى بناء دار شيخ الإسلام المذكور بتونس و كذلك داره بجبل المنار، و كثر تردد تابعه الجانى المذكور عليه حتى نشأ عنه قيل و قال يسوء جانب العلم و الخطة.

و منها: أنه اشتكى بعض السكان فى مطلب له من تابع الوزير المذكور إلى القاضى، فلما دعى للجواب امتنع و ورد الإذن إلى القاضى الشرعى بأن المذكور لا ترفع نوازله إلا للوزارة فليس له النظر فيها، و قد علمت سابقا ما هى حالة احترام الشريعة و حكامها.

و منها: بناء محل للكرنتينة أى الإحتماء للواردين من الأقطار التى يكون بها مرض عام معدى، و بنى ذلك بحسب رغبة الأجانب و حرص رئيس أطباء الوالى و جعل له طبيب خاص، و كان بناؤه بإحدى المراسى المسماة غار الملح.

و منها: حصول الهرج فى القبائل بالجهة الغربية حتى ادعى قبائل الجزائر التعدى من

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۱۱

قبيلة و شتاته التونسية، فأرسل عليهم الوزير بعض أتباع الحكومة و شاع أنهم اغتصبوا منهم نحو ثمانمائة رأس من البقر أعطوهم إلى قبائل الجزائر و أخذوا لأنفسهم و كبيرهم خمسمائة رأس من البقر.

و منها: أن تابع الوزير ابن إسماعيل استلزم لزمة الصاغة، أى دخل الحكومة مما يؤخذ على المصوغ المباع من الفضة، فادعى على أحد أهالى القيروان الأغنياء من الذين يتعاطون التجارة بأنه أخفى ما يلزم الأداء عليه للزام، و سجن و كاد أن يفلس و راد لنفسه وجها للحماية فى المستقبل.

و منها: أن شركة طليانية طلبت مد سلك كهربائى بين تونس و إيطاليا و لم يجبها الوزير إلى ذلك، و كان ذلك سببا فى تعكير الخلطة مع إيطاليا بدعوى أن شروط أصل إنشاء التلغراف لا يقتضى منعهم.

و منها: جعل أداء على العجلات التى فى الحاضرة حسبما هو جار فى سائر البلدان لإصلاح الطرق.

و منها: منح لجنة فرنساوية لإنشاء مرسى فى شاطىء البحيرة بالحاضرة بعد أن طلبت أن تكون المرسى حول حلق الوادى، مع إنشاء طريق حديدية إليها من الحاضرة مارة على طريق رادس فمانعت فى ذلك الشركة الطليانية التى اشترت من الشركة الإنكليزية الطريق الحديدية الواصلة بين تونس و حلق الوادى المارة على العوينة مستندة إلى شروطها و كاد أن يتفاقم الخلاف إلى أن أرسى على ما تقدم.

و منها: منح اللجنة الفرنساوية المذكورة و هى صاحبة طريق الحديد الواصلة إلى الجزائر، بأن تنشى طريقا حديدية إلى الساحل و أخرى إلى ابن زرت و أن تستبد بالطرق الحديدية فى المستقبل إلى أى جهة.

و منها: أن أحد أقارب صهر الوزير ابن إسماعيل قتل حلاقا بإطلاق مكحلة عليه فى دكانه لمشاجرة بينهما و لم يقتص منه.

و منها: أن أحد التجار الطليانية كان يدعى بأن جده كان أتى لمحمود باشا الذى توفى سنة ۱۲۳۹ ه بشىء من السلع و لم يأخذ ثمنه، و هو نحو خمسة عشر ألفا و كانت نشرت النازلة مرارا و لم تقبل حتى عند الكومسيون المالى المختلط، و حفيد ذلك التاجر صهر لأمير اللواء إلياس المتقدم ذكره فأعطى حينئذ ما يطلب، و لما كانت مالية الحكومة ضيقة و الكومسيون غير متعرف بالدعوى أعطى الطالب أرضا قبل إن قيمتها نحو ستين ألفا، و لما ورد الإذن من الوزير على الكومسيون بأن يأذن وكيل أملاك الحكومة بتسليم الأرض المذكورة للطالب توقف المحتسب العام الفرنساوى فى وجه ذلك، و لكن قد تمكن الطالب من الأرض.

و منها: أن فى رأس سنة ۱۲۹۷ ه صنع بعض أتباع الوزير مصحفين على النحو الذى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۱۲

تقدم فى وزارة خير الدين و قدموهما للوالى و الوزير ابن إسماعيل فى موكب بإسم الإهداء من الأهالى، و انظر ما هى الخصلة التى كانت سببا لذلك، ثم فى ربيع الأول من تلك السنة قدموا للوزير أيضا مثل ما تقدم سيفا مجوهرا، ثم فى شوال من تلك السنة قدموا له أيضا دواة مجوهرة بقلمها بإسم اليهود من الأهالى، لكن الخصلة التى استحقت ذلك لم تعين و لا فى واحدة من تلك الأشياء.

و منها: أن أحد المهندسين الفرنساويين كان ادعى أنه مطالب للحكومة بمال مدة وزارة مصطفى خزندار و تؤملت مطالبه فلم تقبلها الحكومة، و كذلك عند انتصاب الكومسيون المالى عرضت عليه تلك المطالب و استقر الأمر على عدم قبولها، و مهما ادعى بها لم تقبل و لا وجدت قناسله مستندا لتدعيم دعواه، ففى وزارة الوزير ابن إسماعيل قيل أن يجعل فيها تحكيم و عقد لذلك مجلس مختلط من التونسيين و الفرنساويين و رئس عليه أولا أحد رؤساء الأحكام فلون الذى تقدم ذكره فى نازلة دى صانس غير أنه لم يقبل، كأنه علم غير ملائمتها لما هو عليه فقدم للرياسة غيره و صدر الحكم على الحكومة بأدائها للمذكور نحو ثلاثمائة ألف و خمسة و خمسين ألف فرنك.

و منها: أن التاجر الصباغ الذى تقدم ذكره أيضا كانت له دعوى من نوع السابقة و لم تقبل لا من الحكومة و لا من الكومسيون المالى فكذلك الوزير ابن إسماعيل قبل فيها التحكيم، و صدر الحكم بأداء الحكومة نحو أربعمائة ألف و خمسين ألف فرنك، و الحال أن الحكم كان صدر من الكومسيون المالى الذى هو مختلط من تونسيين و فرنساويين و طليانيين و إنكليزيين و فيه أحد كبراء الموظفين من دولة فرنسا و انتصابه باتفاق الدول المذكورة على التراضى به فى جميع النوازل المالية ورد هو كلا من المطالب المار ذكرها، و استمر العمل بذلك أزيد من عشرة سنين مع ما فيه الحكومة من العسر المالى كما تقدم شرحه.

و أضيف إليه استيهاب ما بقى على ملك الحكومة من مهم الأملاك للوزير أبى إسماعيل حتى تمم ما بقى مما يعتبر منها عندما تزايد له مولود، بل حتى الأحباس التى أوقفتها الحكومة على المدرسة الصادقية أراد أن يأخذ منها أهمها هو و بعض من المقربين عنده بوجه الإنزال أى الكراء المؤبد، و عند امتناع القاضى من ذلك جعلت الأوقاف المذكورة من أملاك الحكومة و خوطب بذلك رئيس الفتوى من المالكية فأنزلوها على يده، فالعمال يشترون الوظائف و الأهالى تتحمل أعمالهم و المالية و السياسة و الشريعة على ما تقدم ذكره، و آخر المنح التى بلغتنا أنها حصلت فى هذا العهد أن وقع الإلتزام إلى دولة فرنسا بأن لا يحدث شىء جديد فى القطر من الأعمال العامة النافعة إلا بعد عرضه على الفرنساويين، فإن لم يوجد منهم من يريد عمله فإذ ذاك يسوغ أن يباشره غيرهم بحيث وقع التقيد فى ذلك بإرادتهم، و هذه خلاصة التاريخ فى القطر التونسى إلى هذا العهد و هو مبدؤ سنة ۱۲۹۸ ه.

تنبيه: قبل طبع هذا الجزء طرأ الحادث العظيم على القطر، و سنفرده بذيل خاص فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۱۳

الجزء الثالث إن شاء اللّه تعالى عند الكلام على سياسة فرنسا الخارجية.

فصل فى بعض عوائد أهل القطر و صفاتهم

مطلب فى الأوصاف العامة

قد تقدم أن السكان مسلمون إلا ما قل من يهود و نصارى الذين مجموعهم نحو مائة ألف، و أما التبصر فى أحوال الديانة فإنما هو فى المدن و بعض القرى و أما فى القبائل الساكنين بالخيام فلهم معرفة إجمالية خصوصا ذوى الثروة و الذين تنشأ فى أوطانهم زوايا لبعض الصالحين، فيرشدهم مشايخ الطرق، و أما باقيهم فيعرفون من عقائد الإسلام الوحدانية للّه و رسالة محمد صلى اللّه عليه و سلم صادقة و ربما كان بعضهم لا يعرف عدد أوقات الصلوات و غيرها من الفروض العينية، و كأنى بإثمهم يتحمل به من يعلم حالهم و لا يرشدهم، و الكل على مذهب الإمام مالك رضى اللّه عنه إلا قليلا منهم على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى اللّه عنه، و الجميع أهل سنة إلا بعض أهل جربة فهم على مذهب الإعتزال و لهم علماء و مساجد خاصة، و للأهالى تعظيم لشعائر الدين و منها الحياء فإن الإبن سيما من الأعيان لا يجلس أمام والده إلا بإذنه و لا يستنشق التبغ و لا يدخن به أمامه أبدا و كذلك أمام والدته، هذا فضلا عن الكلام

الفاحش أو خطاب زوجته بل حتى إذا كان له ابن صغير فإنه لا يحمله و لا يخالقه أمام والديه، و يقبلون أيدى والديهم فى السلام عليهم و ربما كان ذلك كل صباح و هى تحية التلامذة لمشايخهم و تحية السادات الأشراف و لجميع الأهالى تعظيم كامل لهم، و أما سلام الأكفاء فهو التقبيل فى الكتف إلا الأعراب فإن بعضهم يقبل يد بعض أو رأسه، و لا تكاد تسمع أحدا من ذوى المروءة يغنى فضلا عن النساء اللاتى صوتهن عورة ، بل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۱۵

لهاته الصناعة أناس خاصون و فيهم من النسوة عاهرات و هن يسكن بديار فى حارات مخصوصة.

و ما ذكر من الغناء و مثله الرقص خاص بالحاضرة و أكثر البلدان بخلاف الأعراب فعندهم ذلك غير معيب، كما أن الأكل فى الطريق أو فى الأماكن المكشوفة للمارة معيب تسقط به العدالة، و كذلك دخول القهاوى تتجنبه أصحاب المروءة حتى أن الأعيان ليس لهم محل اجتماع عمومى و غاية تفسحهم بالمشى فى الطريق النزهة أو أماكنهم الخاصة مع أحبابهم، نعم يتساهلون فى دخول القهاوى فى أماكن النزهة خارج الحاضرة و لكن أعيان الأعيان لا يدخلونها أيضا، و التدخين بالتبغ لا زال معيبا عند ذوى المروءة و ليس ذلك إلا مجرد اتباع للعادة و إلا فلا فرق بينه و بين النشوق مع كثرة استعمالهم لهذا جهرة، و حكم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۱۶

الجميع شرعا على مذهبنا الحنفى الجواز، و كذلك المعمول به من المذهب المالكى، لابتنائه على مسألة الأصل فى الأشياء الإباحة و هى مسألة خلافية، فقالت طائفة: الأصل الإباحة حتى يرد المحرم، و قالت طائفة: بالمنع حتى يأتى المبيح، و قالت طائفة: بالتوقف و الصحيح الأوّل لقوله تعالى: هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً [البقرة: ۲۹].

فجميع ما فى الأرض خلق لمنفعتنا فنستعمل كل شىء فى محله إلا ما ورد فيه المنع، و يشهد له أيضا قول النبى صلى اللّه عليه و سلم: «إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يحرم فحرم من أجل مسألته» و قوله عليه الصلاة و السلام: «دعونى ما تركتكم فإنما أهلك من قبلكم كثرة مسائلهم و اختلافهم على أنبيائهم» و كل من الحديثين منقول فى الصحيح، و كان ورود الحديث عقب السؤال عن أشياء لم يرد فيها حكم بالتحريم فدل على الإباحة.

و هذا التبغ لم يكن معروفا زمن البعثة و إنما عرف بعد الإكتشاف على أمريكا كما تقدم، فيكون حكمه هو الإباحة الأصلية، و كان الإستحياء من استعمال التدخين مطلقا أو النشوق أمام الوالد و الكبراء مبنى على أصل آخر غير التحريم، و هو أنه لما كان فيه خلاف فالورع تركه إذ الورع هو ترك ما لا- بأس به حذرا مما به البأس، و لما كان الأصل فى المؤمنين هو السلوك على أكمل الصفات فكأن أهل تونس يستحون من ترك الورع أمام ذوى المقام، كما أنه لا- يوجد فى الحاضرة أماكن للملاهى أى الملاعب إلا فى رمضان، فتكون فيها أماكن للصبيان ليلا يلعب فيها بتصاوير من وراء الستار بالخيال من الصور فى نور المصابيح و يسمى المكان خيال الظل، و ربما أحضر فيها نوع من السماع، و صورة اللعب هى تشخيص حكاية بصور من الجلد على هيئة المحكى عنه، و اللاعب يتكلم على لسانها و الجميع من وراء الستار بحيث يشخص للناظرين من خارج الستار كأن الواقعة مشاهدة و إن كانت الصور صغيرة طولها قدر شبر، و الأغلب أن تكون الأماكن و سخة و لا يدخلها إلا الصبيان و بعض من لا مروءة له من الرعاع لتقضية الأوقات فيما لا فائدة فيه سوى السخرية و الضحك و إضاعة الزمان، و الأغلب فى الحكايات أن تكون مضحكة مما يدركه الصبيان و ربما شخصوا المستحيلات العادية كالغول و الشيطان إذ هذا لا يرى و لا تعرف صورته بحيث يصح أن يقال إن تلك الملاهى لا ثمرة فيها إلا مجرد لهو الصبيان، و كان الأصل فى إساغتها ما نص عليه فقهاؤنا فى كتاب الحضر و الإباحة من جواز شراء اللعبة للصبيان،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۱۷

فقاسوا عليه اتخاذ ملهى لهم ليلا- فى رمضان لكى يسهروا و لا- يستيقظوا مبكرين فيوقظون والديهم، إذ عادة الناس فى رمضان هى السهر أغلب الليل و منهم من يستغرق جميع الليل بحيث لا يشتغلون إلا قرب نصف النهار، و كأن هاته عادة مبنية على العبادة إذ قيام

ليالى رمضان بالعبادة مندوب إليه بيد أن الكثير يشتغل بالملاهى كسماع آلات الطرب فى القهاوى أو لعب الورق المسمى بالكارطة و هو الكثير، و لهم منه أنواع شتى أشهرها ما يسمى بالتريسيتى أو لعب النرد أو الدامة أو الشطرنج و هى الألعاب الموجودة فى القطر، و يوجد أيضا لعب المنقلة و الخربقة بقلة فى الحاضرة و بكثرة فى غيرها، لكن الأعيان إنما يسهرون فى رمضان أو غيره بديارهم أو ديار أصدقائهم، و بعضهم بعد صلاة التراويح يسردون كتابا فى السير أو الحديث ثم يتسامرون بالكلام، و بعضهم يتعاطى أحد الألعاب المذكورة.

و أما فى غير رمضان فعموم الناس يبكرون إلى أشغالهم و لا يرجعون إلى ديارهم إلا عند الظهر للفطور ثم يعودون إلى أشغالهم إلى قرب الغروب، و بعضهم ممن تكون ديارهم بعيدة عن محل أشغالهم يفطرون فى حوانيتهم و يوجد فى حارات الإفرنج ملاهى على نحو ملاهى أوروبا، كما يوجد فيها قهاوى كثيرة على نحو قهاوى أوروبا و منازل للمسافرين مثلها، و لكن أعيان الأهالى يتحاشون عن الدخول إلى الجميع و إن كانت مخالطتهم مع الأجانب و غيرهم حسنة، و قد كان لعموم الأهالى ولوع بالفروسية و لهم فى مسابقة الخيل مواكب تسمى ملاعب يعقدها كبراء الحكومة أو كبار العمال، و من له انتساب إلى الأعراب خارج الحاضرة فى إحدى الجهات المتسعة، و يستدعون إليها الفرسان فيأتون بأحسن الملابس و السروج المزركشة بالذهب و الفضة و السلاح مثل ذلك و تارة يلبس الفارس على رأسه شيئا من ريش النعام يسمى عروج، و الأصل فيه تعليم النبى صلى اللّه عليه و سلم لسيدنا حمزة فى إحدى الغزوات بريش كما فى عيون التواريخ ، و الحاصل أن لبس الفرسان جميل جدا و لهم براعة فى الحركات الحربية، فترى الفارس فى حال السباق يطلق و يعمر مكحلته عدة مرار، و تارة يطلق أربعة مكاحل كل بجعبتين ثم يطلق قرابينه ثم أربعة طبانجات ثم يخترط سيفه، و جميع ذلك السلاح محمول عليه و لا يعطل له شيئا من خفة حركاته، و تراه إذا اخترط السيف يصير بين كروفر، و بعضهم فى حالة السباق يدلى يده إلى الأرض فيحمل منها قبضة من تراب، و بعضهم يفرش له بمحاذاة ميدان السباق رداء من حرير فى نهاية الصفاقة ففى حالة الركض النهائى يمد يده و يرفع طرف الرداء ثم وسطه ثم آخره، و بعضهم يركض فرسه و بينما هو فى حملة السباق و إذا بالفارس يقف على رجليه فوق السرج و يطلق البارود، ثم يجلس و يلتصق بدير الفرس ثم يلتصق بحزام الفرس ثم يقف على رأسه و يديه فوق السرج و رجلاه إلى فوق و عليهما مكحلة، ثم يدفع المكحلة و يلتقفها بيده و يجلس و يطلقها، كل ذلك و الحصان فى نهاية ركضه و جميع أعماله فى بعض دقائق، و هذا العمل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۱۸

الأخير من النادر فى الفرسان. و منهم من يلعب فى دائرة لا يتجاوز قطرها عشرة أذرع و الحصان فى حالة الرباع بل رأيت من يركب على حصانه و يركز الحصان رجليه فى الأرض و يرفع يديه معا و يلتفت يمينا فيطلق فارسه القرابينة ثم يرفع يديه كذلك و يلتفت شمالا فيطلق فارسه القرابينة أيضا، و الحال أنه عمرها فى حصة رفع الحصان يديه و يستمر ذلك كذلك بالتتابع نحو نصف ساعة و ليس بين الطلقة و الطلقة إلا بضع ثوان من الدقائق الزمانية على غاية من السرعة و التتابع و هذا أيضا نادر و منهم من يخترط السيف و يصير مع راجل أو فارس مثله فى غاية الطعان و الكر و الفر.

و الحاصل أنهم يشخصون حالات الحرب بالخيل على أنواع شتى و تكون إذ ذاك طبول الحرب تعزف و معها مزامير للعربان و ذلك أعظم ألعاب الأهالى التى يفتخر بتعليمها و يتبادرون فى إتقانها، و ذلك مبنى على أمر دينى و هو ما ورد من أن كل لهو حرام إلا ثلاث منها: «ملاعبة الفارس لفرسه» و ورد أيضا الحث على الفروسية و على السباق و أبيح فيه المخاطرة إذا كانت مع ثالث، فلذلك كانت هاته الخلة مما يتنافس فيها من رجال الحكومة و غيرهم فى جميع القطر، لكن فى هاته المدة الأخيرة تناقص الأمر منذ كثرت الكراريس و ربما صار الكبراء يتنزهون عن اللعب بخيلهم جهرة، نعم بقى ركوب الخيل مرغوب فيه كما أن الصفات الأولى لا زالت عامة فى البلدان و الأعراب و هو الحق، لأنها من صفات الرجولية و الدين و مما يشملها قوله تعالى: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ [الأنفال: ۶۰]. و هاته الخلة تستلزم الرماية التى هى من مشمولات القوة المأمور بها فى الآية الكريمة، و قد تجرد منها

أغلب أهل الحاضرة حتى أن بعضهم لا يكاد يستطيع أن يطلق طبانجة كما أنه لا زال فى الحاضرة و بعض البلدان تعليم الخيل و البغال من نوع الهملجة و هى أن يرفع الحيوان يدا و رجلا معا من أحد شقيه على الإستقامة ثم الشق الآخر ليكون سيرها لينا لا يتعب الراكب بخلاف الخبب، ثم يتقنون ذلك التعليم إلى أن يصير الحيوان به يمارى الراكض، و لهم فى ذلك اعتناء بحيث تجد منهم جماعات يخرجون كل عشية صيفا و خريفا إلى حد الأماكن القريبة من الحاضرة النزهة كسيدى فتح اللّه قرب شوشة رادس أو منوبة فى قهوة سيدى ابن الأبيض أو سبالة الأحواش، و بعد الإستراحة هناك يركبون و يتسابقون بالسير المذكور، و ربما اعتنى بعض غير الأعيان حتى بالمسابقة على الحمير بالسير و قد يوجد بعض منها يسابق الخيل و البغال مع أن هاته يمكن أن تجارى الحصان فى ركضه إذا لم يكن شديد الجرى، و الخيل على

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۱۹

حسنها فى القطر يعتنون بتربيتها و تهذيب أخلاقها كى تصير مساعدة للفارس فى جميع أغراضه، ثم إن الأهالى ينقسمون إلى ثمانية أقسام:

فالأوّل: الأصليون من البربر. و الثانى العرب: و هم الذين قدموا عند الفتح ثم بعده على أجيال عديدة. و الثالث الأندلسيون: و هم الذين قدموا عند تغلب الإسبنيول على بلادهم. و الرابع التركى: و هم الذين وردوا عند الإستيلاء على تونس ثم من ورد منهم بعد ذلك. و الخامس السودان: و هم الذين جلبوا من دواخل أفريقية لبيعهم. و السادس الجزائريون: الذين رحلوا بعد استيلاء الفرنسيس على الجزائر، و السابع اليهود: و هم قدماء فى السكنى، و الثامن: الوافدون من أوروبا.

فالأقسام الستة الأول تخالط نسلهم و لم يبق تمييز بينهم إلا قليلا من البربر فى جهات الأعراض لا زالوا يستعملون لغتهم، و كذلك قليل من السودان متميزون بلونهم و قليل من أهل الجزائر يتميزون بمجرد نحلتهم و انتمائهم و اللون الغالب على الجميع هو لون البياض المشوب بسمرة و منظرهم جميل يكثر فيهم الحسن و هم أقوياء سليمون أهل مروءة و تواضع و بشاشة و حسن معاشرة.

مطلب فى التجارة:

اعلم أن أغلب الأهالى تقاصروا فى هذا الميدان، و قصارى الأمر أنهم يتجرون فى البضائع التى تنفق فى البلاد الإسلامية بإخراجها إليها، و يجلب ما يروج من بضائعها فى القطر، مع أن أغلب الخارج منه و المجلوب إليه من بلاد أوروبا و كله منحصر فى الأوروباويين إلا نادرا من الأهالى، ثم أن قيمة التجارة بين الداخل و الخارج لا يتجاوز معدلها الأربعين مليون فرنكا فى السنة.

فأما البضائع الخارجة فهى: الحبوب من قمح و شعير وفول و غيرها، و كذلك الزيت و الصوف الساذجة و المنسوجة و القطن و الإسفنج، و بيض السمك و لحم نوع منه و منسوجات الحرير و القطن و الشاشية و أشياء أخر زهيدة.

و أما البضائع الداخلة فهى كثيرة فمنها: المنسوجات القطنية و الحريرية و الصوفية، و أنواع الأخشاب و الحديد و القرميد و السكر و القهوة و أوانى النحاس و غير ذلك، مما هو محتاج إليه فى الحضارة و لا وجود له، من نتائج البلاد. و حمل السلع إلى خارج القطر فى السفن البحرية و قد أرسى بأعظم مراسى القطر و هو حلق الوادى فى سنة ۱۲۹۵ ه مايتان و سبعة و خمسون باخرة و أربعمائة و ثمانون سفينة شراعية كلها للأجانب إلا عددا يسيرا، و أغلب الأجانب رواجا فى التجارة هى التجارة الفرنساوية و الطليانية.

و أما حمل السلع فى البر فهو على ظهور الإبل و الخيل و البغال و الحمير و العجلات المسماة بالكرطونات، و واسطة المواصلة هم فرق من تجار القطر يسمون بالحمارة تكون لهم دواب وافية و يكونون ذوى عرض و أمان تسلم إليهم التجار البضائع و هم يبلغونها إلى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۲۰

جهاتها بعدت أو قربت، و لكل جهة حمارون مخصوصون و لا يكون ذلك إلا بين البلدان، و أما القبائل الأعراب فلهم قوافل

يجتمعون عند قصد إحدى البلدان أو الأسواق التى تقام فى أيام من الأسبوع بإحدى الجهات، كسوق الخميس قرب الركبة و أمثاله، و يحملون على دوابهم ما اشتروه و يرجعون إلى أماكنهم، و لما كانت الطرق الصناعية قليلة تعطل أغلب التجارة زمن الشتاء فى دواخل القطر، لكن الطريق الحديدية المارة إلى الجزائر سهلت التجارة إلى الجهات الغربية كما أنه رتبت بواخر للبريد و السلع بين مراسى القطر الشهيرة، زيادة على البرد التى هى ثمانية تأتى أسبوعيا من أوروبا، فإثنان إلى فرنسا و الجزائر، و إثنان إلى إيطاليا، و أربع إلى مالطا، و قد يأتى غيرها على غير انتظام، و ليس للأهالى من السفن شىء إلا قليلا من ذات الشراعى لأهل جربة و صفاقس و الساحل.

مطلب فى ترتيب الأحكام و الإدارة

الآن الوالى يجلس يوم السبت فى كل أسبوع غالبا بمحل من قصر الإدارة الكائن فى بلد باردو يسمى هذا المحل بالمحكمة، و هو بيت كبير مستطيل و بصدره كرسى ذو درج مموه بالذهب و عليه تاج معلق، و الدرج مكسوة بالمحبر نوع من منسوج الحرير الثخين الغالى، يجلس عليه الوالى و يوضع بجنبه زوج طبانجة و يقف عن يمينه و شماله على الدرج من حضر من أهل بيته، و يقف الوزير عن يمينه من أسفل الدرج بحيث يكون مواجها إلى الجهة اليسرى من الوالى و يليه بقية الوزراء على حسب أسبقيتهم فى الوظيفة، ثم يليهم كبراء العساكر النظامية ثم رؤساء العساكر الخيالة غير النظامية المسمون بالأغوات، ثم العمال و الأظاباشية و الكواهى أى الصنف الثانى و الثالث من رؤساء العساكر الخيالة الغير النظامية، و عند نهاية الصف عن اليمين يتممون الصف عن اليسار، فإن زادوا جعلوا صفا ثانيا وراء الصف الأول و يجلس باشكاتب على مسطبة على يسار الوالى مقابلا لأول الصف الأيمن، ثم يليه مسطبة طويلة يجلس عليها كتبة من أقسام الوزارات على حسب رتبهم، ثم يقف تجاه الوالى عن بعد فى آخر الصفوف نحو ستة رجال يسمون شواش السلام و الشطار، بلباس أحمر مقصب بالفضة و على رؤوسهم شواش حمر و شراباتها فضة و عليها مما يلى الجبهة قطع من النحاس الأصفر و مغروز فيها أنواع من ريش أجنحة الطير الطويل و بأيديهم معاول طوال من النحاس الأصفر يركزونها و يتكؤون عليها، و عند جلوس الوالى فى ذلك المجلس يرفع صوته كبير هؤلاء الشواش بكلام باللغة التركية معناه: دعاء بالنصر و التأييد للوالى، ثم يرفع صوته بقوله: سلام و رحمة اللّه، ثم يقف وراء هؤلاء رؤساء البوابة أى أصحاب الباب و تعزف الموسيقى العسكرية عند دخول الوالى لذلك المحل و يأذن إذ ذاك الوالى بإدخال أصحاب الشكايات، فيرفع صوته رئيس البوابة بقوله: «باش حانبا» أى يا رئيس الحوانب أدخل، و هو الترجمان بين الوالى و المشتكين لا لكون الوالى يحتاج إلى فهم لغة المشتكين بل لكونهم بعيدين فى الوقوف عنه و ربما يكون بعضهم لا يحسن الإلقاء

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۲۱

لدعوته لرهبة أو انخفاض صوته، فيبلغ باش حانبه للوالى معنى كلام المشتكى، و هاته الوظيفة لها كبيران: أحدهما من العرب، و الآخر من أبناء الترك، و للأول تقدم على الثانى، فالمشتكى إن كان من المالكية يمسكه الأول و هو الذى يتولى الوساطة فى أمره، و إن كان من الحنفية رجع إلى الثانى، و لكن لهؤلاء هيئة أخرى فى إلقاء الشكاية فإن باش حانبه لا يمسكه و يقدمه إلى قريب من الوالى و بعد استقرار باش حانبه بنوعيه أمام الوالى يرفع صوته بقوله: «باش بواب شكاية» أى يا كبير أصحاب الباب أدخل المشتكين فيرفع صوته هذا خارج باب المحل بقوله: يا سعد، ثم يدخل المشتكون فردا ففردا على حسب الصدفة، و تقدم المشتكى بالإزدحام و ربما صار التقديم بإعطاء شىء من المال لكنه لا يتجاوز عشرة ريالات فما دونها، و كل مشتك فى حال شكايته فى ذلك الموكب الهائل زيادة عن باش حانبه المقيض به تكون محدقة به الحوانب و الأوظاباشية، و إذا كانت له حجة مكتوبة قدمها و أخذها من يده باش حانبه و مكنها الباشكاتب و يؤخر إذ ذاك المشتكى و يؤتى بغيره، و بعد قراءة باشكاتب للحجة يقول مضمونها للوالى مع الإشارة إلى صحتها أو فسادها، فيأمر الوالى بما يراه و تنفصل بذلك النحو عدة خصومات فى نحو ساعة أو ساعتين إذا طال المجلس و ربما أنهيت

فی ساعة واحدة ستون نازلة بلا تعقیب للحکم.

و کثیرا ما یستشیر الوالی وزیره سرا فی النوازل أو یسأله عما یعلم فیها کما أن الوزیر کثیرا ما یشیر علیه فی بعض النوازل ابتداء و کثیرا ما یأمر الوالی بإرجاع بعض النوازل إلی الشرع أو الوزارة، و إذا کان هناک بعض من یحکم علیه بالقتل فإنه یؤخر دخوله إلی آخر المجلس و الغالب أن یکون هذا النوع إما حکم علیه فی مجلس الشریعة و رفع للوالی لینفذ الحکم المکتتب بعد إجراء جمیع اللوازم الشرعیة و طول مدة المناضلة و المدافعة لدی المجلس الشرعی، أو یکون قد حررت نازلته فی الوزارة و فی النادر أن یؤتی بالمشتکی به من ذلک النوع بدیهة للمحکمة، و یصدر الحکم بقتله فی الحین فیخرج فی أثر المحکوم علیه بالقتل أحد الشطار أی الجلادین و یقطع رأسه قدام باب باردو أو باب البلدة التی فیها الوالی، أو یشنق هناک فی مشنقة من خشب و هو أن یربط عنقه فی حبل و تکتف یداه و یعلق من عنقه فیختنق، و تارة یعلق کذلک فی سور المدینة القدیم قرب باب سویقة و عند انتهاء المشتکین أو ملل الوالی یقول یا باش حانبه عافیة، فیرفع صوته بها باش حانبه فیرفع صوته بها باش بواب و یقوم الوالی و ینفصل الموطن، فیجری إذ ذاک باش حانبه ما أمره به الوالی من إرسال الأعوان لجلب المدعی علیهم أو خلاصهم، و کذلک باشکاتب یحضر المکاتیب التی صدر بها الإذن و لا تحضر إلا من غد فیختمها الوالی علی نحو ما سیأتی.

و جمیع من حضر فی ذلک الموکب من المتوظفین یکون بلباسه الإعتیادی إلا من له رتبة عسکریة، فإنه یتقلد سیفا فی منطقته و قبل دخول الوالی للمحکمة یجلس فی بیت أنیق فی سرایة الحکومة علی کرسی أصغر مما سبق، و یدخل علیه الوزیر وحده أو أنه یأتی معه من قصر سکناه، ثم یجلس الوزیر عن یمینه و أهل بیت الوالی عن شماله وقوفا، ثم یأذن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۲۲

للمتوظفین بالدخول فیدخل أولا: الوزراء و بعض مشیخة المتوظفین الکبار المتقاعدین، و کل من وصل منهم إلی الوالی قبل یده و أذنه بالجلوس فیجلسون یمینا و شمالا و أعلاهم شمالا باش کاتب و أصحاب الیمین یجلسون دون الوزیر، ثم یدخل کبار المتوظفین علی صف واحد و کل من انتهی إلی الوالی قبل یده و رجع خارجا ثم الذین یلونهم ثم و ثم، إلی أن یصلوا إلی أصغر المتوظفین کالأعوان الذین یرسلون لجلب المدعی علیهم، و الهیئة المتقدمة فی المحکمة هی الهیئة فی سائر المواکب الکبار کالأعیاد غیر أن هاته تکون فیها الناس باللباس الرسمی المزرکش بالفضة و النیاشین، و تکون أیضا فی محل آخر أکبر من المحکمة و هو بیت عظیم یصعد إلیه بدرج کثیرة مکسوة بالحلف نوع من المنسوج الصوفی الأحمر، و البیت مفروش بالزرابی و الستائر الحریریة الرفیعة و کرسی الوالی أکبر و أضخم من السابق و الکتاب لا یجلسون فی هذا الموکب و الناس کلهم وقوف، و متولی إدارته هو أمیر لواء العسة و عوضا عن دخول المشتکین یدخل المعیدون أفواجا أفواجا علی نحو ما تقدم فی تقبیل ید الوالی من المتوظفین، و یجری ذلک علی کل القادمین من جمیع المتوظفین و أصحاب الرتب العسکریة النظامیة و غیرها و الأهالی و التجار إلا أهل المجلس الشرعی، و خواص السادات الأشراف و المدرسین، فإن الوالی یجلس لهم مجلسا خاصا بعد الموکب العام بحصة یسیرة فی بیت أنیق أسفل الأول، و تدخل علیه کل فرقة من الفرق الثلاث وحدها، و أولها: أهل المجلس الشرعی معا الأول فالأول، فیقف إلیهم و یتقدم لهم خطوات و یتعانقوا و یقبل کل منهم کتف الآخر ثم یجلس و یجلسون الحنفیة عن الیمین و المالکیة عن الشمال و یؤتی إلیهم بأطباق من الفضة فیها شیء من الحلو و یطعمه الوالی معهم، ثم یرشون بالطیب و یقرؤون الفاتحة و یقوم الوالی لوداعهم و یقبلونه أیضا مثل ما صار عند دخولهم و ینصرفون، و هکذا غیرهم، غیر أنهم لا یقوم لهم الوالی و یقبلون ذراعه إلا بعضا من السادة الأشراف فإنهم یقبلونه مثل أهل المجلس الشرعی و بعض المدرسین من الطبقة الثانیة یقبلون کفه کسائر الناس، و کذلک لا یجلسون و لا یأکلون و إنما بعد فراغ آخرهم من التقبیل و أولهم وقوف یمینا و شمالا یقرؤون الفاتحة و ینصرفون، و هکذا کل فرقة دخلت علیه فی الموکب الأول إلا المتوظفین فإنهم یقفون و یزدحم بهم الموکب لأنه یجتمع فیه أغلب المتوظفین و لو من جمیع جهات القطر، و الذین یقفون هم أصحاب الرتب من العسکریة أو الکبار من غیرهم.

و موكب المعايدة يدوم يومان أولها أعظم من الثانى و كلاهما صباحا، و فى اليوم الثانى يقدم عليه قناسل الدول و يدخلون عليه على حسب أسبقيتهم فى الوظيفة، و كل منهم معه متوظفو قنسلاته فيجدونه واقفا و يصافح القنسل و يتخاطبون بالترجمان بكلمات فى التهنئة و الموكب محتبك كما سبق ذكره إلى أن يتموا فيجلس الوالى على كرسيه، و يتمم بقية الأهالى على نحو ما سبق، و لا يختص هذا الموكب بأعيان الأهالى بل حتى أصحاب الصناعات، و فى بقية أيام يكون الوالى فى قصره لا يجتمع به إلا الوزير الأكبر يوميا بل هو

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۲۳

الآن ساكن معه فى قصر واحد، و فى يوم الإثنين قرب الزوال يقدم عليه الوزير و من كان فى الوزارة من المتوظفين، و إذا كانت هناك نوازل تلزم فيها المذاكرة أمام الوالى تكون فى أحد ذينك اليومين أعنى يوم السبت و الإثنين، أو يدعوهم الوزير بالخصوص ليوم معين. و جميع الولايات إنما تكون بإذن الوالى و كتبه لرقعة فى ذلك تسمى أمرا، و أما كيفية إدارة الوزارة فقد سبق ذكرها فى الكلام على وزارة خير الدين باشا و لا زالت على تلك الهيئة و المتوظفون يأتون فى بكرة النهار إليها يوميا إلا يومى الخميس و الجمعة، و ينفصلون منها عند الزوال و عندما يأتى الوزير و يجلس فى البيت الخاص به يقدم إلى السلام عليه جميع كبراء الأقسام، ثم يتوجه كل إلى محل مأموريته و كل فى بيت خاص يجمعها قصر واحد فى ناحية من قصر الوالى لإدارة الحكومة، و لكل من أقسام الوزارة كتاب و أعوان و تكتب فى النوازل سجلات و يمضى الوزير على الرأى فيها، ثم تعرض على الوالى و هو يمضى على ما يراه الوزير، و تسمى تلك السجلات معاريض و تجرى على مقتضاها الأمور و كثيرا ما تجرى بأمر الوزير شفاهيا، و ترسل تلك المعاريض مع بطاقات الأوامر فى ظرف مختوم ليمضيها الوالى بخطه فى المعاريض و ختمه فى الأوامر، و لكل عمل من الأعمال التى مر ذكرها عامل خاص إلا الحاضرة فحاكمها يلقب رئيس الضابطية، و الغالب أن يسكن العامل فى محل عمله و له نائب يلقب بالخليفة و تحته مشايخ على عدد أفخاذ القبائل و لكل عامل أعوان على حسب كبر عمله و صغره و ترفع إليه الشكايات فيحكم فيها برأيه و كذلك خليفته و الشيخ عند مغيب العامل، و لا يختص حكمهم بنوع من أنواع الخصومات و إنما الغالب أن نوازل صحة التملك فى غير المنقول و الزواج و الأوقاف و المواريث يرجعونها للحكام الشرعيين، و هؤلاء لهم مجلس فى الحاضرة فيه قاض حنفى و مثله مالكى و مفتيان حنفيان و خمسة مالكية و رئيس للحنفية يلقب شيخ الإسلام و مثله للمالكية يلقب أحيانا أيضا بذلك، و قد يزاد أو ينقص من عدد المفتيين و لهم محل خاص يسمى دار الشريعة يجلس به يوميا صباحا القاضيان و مفتيان من المذهبين على التناوب، و فى يوم الخميس يجتمع جميع المجلس ببيت كبير و ينضم إليهم رئيس الضابطية للمشورة فى النوازل التى يريد الخصم فيها العرض على المجلس و لا يرضى بحكم القاضى أو المفتى وحده و رئيس الضابطية ينفذ ما يلزم فيه قوة الغصب إلا القتل، فإنه يرفع إلى الوالى.

و فى كل من بلدان القيروان وسوسة و المستير و صفاقس و الأعراض و توزر و نفطة و الكاف و باجة مجلس شرعى، أقل ائتلافه من قاض و مفتى و رئيس فتوى يجرى به العمل مثل ما هو فى الحاضرة لإجراء التحقيق فيها من مجلس الشريعة، و المنفذ هو العامل. كما؟؟؟ ف نابل و المهدية و جربة و قفصة مفتى مع القاضى، و بقية الأعمال إن كانت كبيرة ففيها؟؟؟ اض فقط و للوالى التصرف فى جميع النوازل نقضا أو إبراما و كذلك الوزير، و أما القابض لأموال الحكومة أو العمال فهو من اليهود إلا قليلا من العمال لمجرد عادة فى ذلك و يتوظف منهم مترجمون و نظار على الصاغة و دار السكة، كما يتوظف من النصارى فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۲۴

الترجمة و غيرها إلا العمال و الوظائف الدينية، ثم إن جميع العقود التى تحتاج إلى الشهادة و كذلك كتب الحجج و صكوك الأملاك لها طائفة من العلماء و المنتسبين إلى العلم يوليهم الوالى و يسمون الشهود أو العدول، و هم بالخصوص الذين يباشرون ما ذكر و لأغلبهم حوانيت مفتوحة لهاته الصناعة فى سائر البلدان، و كذلك قبائل الأعراب، و يوجد فى خصوص الحاضرة مجلس بلدى لمصالح الطرقات و البناآت و مجلس مختلط للأحكام بين أغلب الأجانب و الأهالى فيما دون الألف ريال، و جمعية للأوقاف، و لها

نواب فی سائر القطر و مجلس تجارة و مجلس لحفظ الصحة أعضاؤه القناسل و مستشار الخارجية و رئيس المجلس البلدی و شيخ المدينة، و لكل من المدينة و الربضين شيخ لبعض النوازل العرفية و حفظ الأمن ليلا، و أما الضابطية فهی موجودة غير منتظمة و أمور المعاش يقومها القاضی المالكی و لها أمناء يطوفون عليها لحراستها من الغش، و أما بقية المملكة فليس فيها إلا الحكام المار ذكرهم أو بعض أمناء على الصنائع أو المعاش.

مطلب فی المعارف

الموجودة الآن و مناخها جامع الزيتونة من الحاضرة هی العلوم الدينية و وسائلها، و هی القرآن و التفسير و المصطلح و الحديث رواية و دراية، و العقائد و أصول الفقه حنفية و مالكية و شافعية، و الفقه الحنفی و المالكی و المنطق و المعانی و البيان، و النحو و الصرف و الإشتقاق و العروض و الأدب، و التاريخ و الحساب و الهيئة و الفلك و اللغة، و لكل كتب معينة للإقراء بما لها من الحواشی كما هو معين فی قانونها الذی أحدث فی وزارة خير الدين باشا، و منها فنون و كتب لا بد من وجود أقرائها، كما أن مواد المطالعة و التحصيل سهلة بخزائن الكتب المعروفة فی الإسلام إلا ما ندر مما هو فی اللسان العربی و قليل جدا بالتركی و الفارسی و الفرنساوی، و مشايخ جامع الزيتونة الموظفون و لهم مرتب مائة و خمسون ريالا شهريا عددهم ثلاثون مدرسا، و الطبقة الثانية مرتبها تسعون ريالا شهريا و عددها إثنا عشر مدرسا، و الذين لا مرتب لهم و إنما لهم إعانات سنوية مما يحصل من تخلف المدرسين و الخصم عليهم من مرتباتهم عددهم نحو ستين، و هم يزيدون و ينقصون. و عدد التلامذة بالجامع المذكور نحو الثمانمائة و يزيدون و ينقصون أيضا، و كيفية الدرس حسنة الإلقاء و السؤال و الجواب و لا يطول الدرس أكثر من ساعة كما توجد مدارس نحو الخمسة عشر مدرسة يقرأ بكل منها درس أو درسان من الفنون المذكورة، و كذلك بعض جوامع بها قليل من الدروس، و توجد المدرسة الصادقية تقرىء مبادىء فنون الديانة و اللغة مما مر ذكره، و تقرىء الفنون الرياضية و اللغات التركية و الفرنساوية و الطليانية، و من الرياضيات الحساب و الجبر و الهندسة و الهيئة و الفلك و الجغرافية و مبادىء الطبيعيات. و هی تعلم مجانا لمائة و خمسين تلميذا و تقوم بأكلهم نهارا و منهم خمسون تقوم بهم حتى فی السكنی و اللباس، و كذلك يوجد مكتب أنشأه قسيسو الفرنسيس فی صان لويس يعلم العلوم الرياضية و اللسان العربی و الفرنساوی و الطليانی و تلامذته لا يبلغون الخمسين الآن، و يوجد مكتبان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۲۵

للفرنساويين أيضا بالحاضرة يسميان مكتبا الفرير تلامذتهما نحو أربعمائة، و كذلك مكتب للطليان به نحو مائتی تلميذ، و كذلك مكتب لجمعية اليهود به نحو تسعمائة تلميذ، كلها تعلم مبادىء الرياضيات و اللغة الفرنساوية و الطليانية و العربية، و يعلم بعضا من الصنائع كشیء من الفلاحة و الموسيقی، و يعلم اللغة العبرانية و كلها تعلم الأغنياء بالمال و بعضها يعلم الفقراء مجانا، كما يوجد فيها مكتب للبرتستنت من الإنكليزية نحو مائتی تلميذ، كما يوجد بالحاضرة نحو مائة و إحدى عشر مكتبا للقرآن العظيم و للكتابة العربية نحو ثلاثة آلاف و خمسمائة تلميذ.

و أما جهات القطر فلا يوجد إلا فی قليل من البلدان شیء من العلوم الدينية كالفقه و العقائد على قلة و النحو، و أشهر البلدان بذلك القيروان و صفاقس و المستير وسوسة و جربة و الأعراض و الكاف و باجة و ابن زرت، و بعضها يزيد بشیء من الأدب و الحديث، كما يوجد فی بعض زوايا الصالحين بالقبائل شیء من القراءة و الكتابة و الفقه، و جميع الجهات إنما يقرأ فيها الفقه المالكی إلا المهدية و المستير فيوجد أحيانا الفقه الحنفی، أما غير ذلك فلا نعم توجد مكاتب للقرآن و مبادىء الكتابة العربية فی جميع البلدان و القرى بحيث لا تخلو قرية عن ذلك فضلا عن بلد، و يقرب جميع تلامذتها بنحو إثنی عشر ألف تلميذ لكن هيئة التعليم قاصرة للغاية فی هاته المكاتب الإبتدائية و لو فی الحاضرة بحيث يمكن أن يبقى التلميذ فيها عشرة سنين و لا يحصل على حسن القراءة و الكتابة و

إنما النجيب منهم يخرج حافظا للقرآن المجيد فقط، و أما بقية التعاليم المار ذكرها فهى جيدة سيما العلوم الدينية بجامع الزيتونة نتجت منه فحول تزين المسلمين، و لهم براعة فى كل الفنون سيما الإنشاء بالعربية الذى كاد أن يشبه أسلوب الأعجام فى عدة جهات، فإن علماء تونس لهم براعة فى ذلك و هم محافظون على الأسلوب العربى و محترزون عن اللحن و إن وجد فى الكتبة أو الشهود من يلحن فذاك من تقليد الوظيف لغير المستحق، كما أن أصحاب الأقلام أو الشهود مطلقا محافظون على الشعائر الدينية فى كتابتهم بحيث يفتتحون كتبهم بالحمد للّه و الصلاة و السلام على رسول اللّه محمد و آله و من ولاه.

مطلب فى الصنائع

أهم صنائع الأهالى هى الفلاحة و ما زالت آلاتها على الطرز القديم و يأخذونها عن بعضهم بالمشاهدة مع أنها فيها كتب عديدة بخزائن الكتب لا يلتفت إليها أحد، و لذلك انحطت رتبة هذه الصناعة عما كانت و قل العمران مع انضمام أسباب سياسية كما تقدم شرحه، و صناعة التلقيح فى الأشجار لا يعلمها إلا قليل و لذلك حصل الأروباويون على تقدم عظيم فى القطر فى هاته الصناعة و لو فى زرع الحبوب، و كانوا فيها أكثر ربحا من الأهالى. و كذلك من أعظم مكاسب أهل القطر زيت الزيتون فأما جمعه و استخراج زيته فهو بيد الأهالى ثم يبيعونه إما للأهالى أو للتجار الأجانب، و أما التجارة فيه لخارج القطر فهى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۲۶

بيد الأجانب إلا قليلا من الأهالى كما أنه دخل فى جمعه و استخراج زيته قليل من الأجانب عندما استخدمت المعامل بالبخار لإخراج الزيت، و هى قليلة بل ليس منها إلا واحدة فى الحاضرة، و هناك قليل من المعاصر على النحو المخترع فى أوروبا و الأكثر على النحو القديم الذى صنعه الأندلس أو نوع آخر أقدم منه و كلاهما لا يتقن إخراج الزيت من زيتونه، و أما صناعة الشاشية فإنها كانت هى عيال أكثر أهل الحاضرة و منذ صنعت الشاشية بالمعامل فى أوروبا رخصت و لا زال صناعها فى تونس متمسكين بالآلات القديمة و هى تكلفها غالية فلا- زالت فى تناقص إلى أن كادت أن تكون مقصورة على أهالى القطر و قليل من غيرهم، و بقى من حوانيتها نحو ثلاثين أعنى الذين يخدمون حقيقة بعد أن كانت حوانيت هاته الصناعة تبلغ نحو الألف، و بسبب ذلك بقى أكثر الناس فى الحاضرة بلا صناعة و يوجد من الصنائع فى الحاضرة صنعة البلغة و هى نوع من الأحذية و هى رائجة، و صناعة الكنترة نوع مما ذكر و هى رائجة و هى بيد اليهود و الإفرنج، و أصحاب صناعة السابط التى هى نوع مما ذكر أفلسوا لأنهم لا زالوا متمسكين بخياطتها على الهيئة القديمة و الناس تركوها و أنفوا من جعلها على أسلوب الكنترة لمجرد الإعتياد إلى أن أفلسوا و لم يجدوا هاديا يحملهم على مصلحتهم، و كذلك توجد صناعة العطارين أى الطيب و الحرائرية أى نساجى الحرير و صناعتهم متقنة و فيها بعض رواج، و يصنعون أشياء مخلوطة من الحرير و خيوط الفضة و نوعا من الحرير الصرف المسمى بالمختم و فى بعض أنواعها رغبة فى حواضر أوروبا لو يوجد لها مروج سيما الطيلسانات، و يوجد أيضا صناعة التوارزية أى الخياطين و لهم براعة فى خياطة الإبرسيم على أشكال من النوار بديعة فى سراويل النساء و غيرها، و كذلك صناعة الحياكة للمنسوجات الصوفية، و فيها رواج كبير لأوروبا و غيرها، و لو تجد المروج لكانت من أعظم أسباب الرفاهية للقطر، و توجد صناعة الصاغة و صناعة السروج و لأصحابها براعة فى الطرز فى الحرير و الفضة و العدس، أى قطع من الفضة مموهة بالذهب مثقوبة الوسط ليمسكها خيط الطرز، و كذلك صناعة الحدادة و هى قاصرة و لمن وفد من الأوروباويين التقدم التام على الأهالى، و كذلك صناعة النجارة أى نحت الأخشاب و لأهلها براعة فيها، و كذلك البناية و كذلك النقاشة أى نحت الأحجار، و كذلك صناعة طرز الحرير و الصوف و الخيط و القطن و الفضة و العدس على المنسوجات، و هى خاصة فى النساء وزدن فى هاته المدة تقدما فيها بما تعلمن من الأوروباويين حتى صارت تقوم بعائلات، و توجد صنائع للسلاح بأنواعه لكنها متأخرة، و يوجد معمل للمدافع و آخر للسفن و كلاهما معطل، و توجد معامل كثيرة للكراريس، و كذلك توجد صناعة

النسج للقطن و هى ضعيفة رديئة، و كذلك صناعة تجليد الكتب و هى حسناء، و صناعة النسخ و هى قليلة و كذلك صناعة نقش حديدة أى النقش فى الجص التى هى من أبدع الصناعات التحسينية على الجدران، و كذلك صناعة الدهن أى التلوين و صناعة الفخارين أى صنع الأوانى من الطين، و كذلك نوع يسمى بالجلميز مما يلصق على الجدران و على أراضى البيوت و لكن نوعه ردىء و لأهله اقتدار على

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۲۷

إيصاله للحسن المعهود فى أوروبا إذ كان عندهم قديما أحسن منه و إنما يحتاجون إلى الإعانة.

و أما الموسيقى فلهم مهرة فى معرفة الألحان يأخذونها على قواعد و إنما هى بالسماع من بعضهم، و يعتنون لأخذها فى بعض الزوايا التى تعقد فيها جمعيات لأجل الذكر كسرد البردة و مدائح قادرية، و هذا العمل اختلف فى جوازه لكن الراجح جوازه شرعا إن لم يكن فيه تشويق لمحرم، فالتحريم على كل حال ليس لذاته و إنما هو لما يتوصل به إليه، ثم بعد الجواز ليس هو بطاعة كما يظن العوام و سيأتى للمسألة بسط فى الخاتمة إن شاء اللّه تعالى. كما أن لهم معرفة فى فن الموسيقى أى دق آلاتها و يأخذونها عن بعضهم، و الآلات هى: الرباب و العود و الجرانة، و كلها من ذات الأوتار، و الطار و الدف و الدربوكة و هى أكبر منه و الطبل و الجميع من نوعه، و الكرنيطة و الناى و الغيطة و الشبابة و الصفارة و الفحل و كلها من آلات النفخ، و يضربونها بدون أوراق أمامهم بل من حفظهم، و فيهم المهرة و هاته الصناعة فى الموسيقى قد ذكر فى الأغانى أنها كانت محفوظة على نمط واحد، بحيث لا يخرجون عما كان مسموعا من الطرق يأخذها الخلف عن السلف، إلى أن دخل فيهم إبراهيم ابن المهدى عندما أراد الأمن على نفسه بتنصله من سمات الخلافة فزاد فيها و نقص على حسب ما يستلذه هو ثم جعل من اتبعه يسلك ما يستلذه السامع و لو خالف الطرق الأصلية و تمادى الأمر على ذلك إلى أن فقد الآن ما يعرف به الألحان التى كانت تستعمل فى تلك الأعصار، و لهذا لا يمكن فهم ما يشير إليه فى كتابه الأغانى من الطرق و الألحان ثم أن حكم سماع آلات اللهو هو عندنا حرام إلا الدف و ما كان على شاكلته مما لا وتر فيه إذا ضرب فى الأفراح الجائزة، لكن رأيت رسالة لسيدى عبد الغنى النابلسى مال فيها للجواز إن لم تؤد إلى محرم مقطوع به كما رأيت سؤالا لليوسى فى: أيما أشد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۲۸

حرمة الغيبة أو السماع لآلات اللهو؟ أجاب عنه: بأن لا مقايسة بين الأمرين فإن الغيبة محرمة بإجماع بخلاف سماع آلات الطرب فإنه مختلف فيه و للمقلد سعة بالتمسك بقول أحد المجتهدين.

ثم توجد بقية الصنائع الضرورية، كالبقالين و الجزارين و القصابين و الفحامين و الحلاقين و غيرها، بحيث يقال إن أغلب الصنائع الحاجية معروفة و لكنها غير موفية بالإستغناء عن جلب المصنوعات من خارج القطر، بحيث من نظر إلى لباس أهل المدن و مسكنهم و فرشهم يجد أغلبها من مصنوعات الأجانب و ذلك موجب لفقر المملكة، و أما خارج الحاضرة فالمدن يوجد فيها ما يقرب مما تقدم بأقل بدرجات إلا بعض صنائع فلها فيها التقدم على الحاضرة، فمن ذلك منسوجات الفرش فى الجريد، فإن ما يصنع منه فى طوزر هو من أرفع ما يوجد فى العالم، و كذلك يصنع فى جربة، و لها نوع يسمى بالسوسنى من الصوف و الحرير صفيق من أرفع المنسوجات، و كذلك يصنع فى القيروان الأوانى النحاس، و فى نابل أنواع من الطين الرفيع المرغوب فى كثير من الجهات، و كذلك يصنع فى الكاف نوع من البرنس رفيع، و أما أهل البوادى فلا يعرفون إلا صناعة الفلاحة المتداولة و الرعى للحيوان و الفروسية و الصيد، و لأهل جبل باجة و ماطر معرفة بصناعة البارود، و سائر القبائل تعرف نساءهم صناعة نسج الصوف لفرشهم و لباسهم و نسج بيوت الخيام من شعر المعز و الإبل و العدل، كما أن لبعضهم إتقانا فى صناعة البسط من الصوف كقبائل دريد و جلاص، و مثلهم القيروان و لخصوص أهل الجريد إتقان كلى فى الأردية التى تتردى بها الرجال من الحرير و الصوف.

مطلب فی المساکن و الطرقات

الحاضرة ذات بطحاوات و طرق صناعية محصبة أو محجرة بحجارة منحوتة لا تعب فيها على الماشی و لا الراکب حسنة المنظر، و لقليل من طرقها المتسعة أشجار يمينا و شمالا، و جميع البناآت من حجر مبنی بطين الرمل و الجير و تارة يبنی بالآجر و القرميد و هو أقل من الأول و تارة يعوض الطين بالجص و هو أيضا أقل. ثم إن دورها إما ذات طبقة واحدة أو طبقتين و قليل ما يزيد على ذلک، و صورة الداران تدخل من الباب الذی على الطريق فتجد محلا مسقفا إن کان کبيرا سمی ذريبة أی دهليزا و إلا سمی سقيفة، ثم آخر أصغر منه ثم وسط الدار، و الأغلب أن تکون الأبواب المدخول منها إليه غير متقابلة لکی لا يکون مکشوفا لمن بالسقيفة و هو محل مربع الشکل مکشوف إلی السماء و به أبواب و شبابيک إلی البيوت و هو مفروش الأرض إما بالرخام أی المرمر الأبيض أو الکذال، و الجميع على شکل مربع متقن الإثبات فی الأرض حتی يصير کأنه قطعة واحدة مخطط فی المنظر بخطوط الحدود، و حيوطه مکسوّة بالزليز إما إلی نهايتها و أما إلی النصف، و النصف الأعلی مطلی بالجص الأبيض و به نقش حديدة، و نهاية الحيطان عليها قرميد أخضر،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۲۹

و الأبواب التی به من الأربعة إلی الإثنی عشر يدخل منها إلی بيوت و مرافق، و البيوت غالبا بعضها أحسن من بعض فأکبرها على شکلين:

فالشکل الأوّل: أن يکون إذا دخلت من الباب تجد البيت طويلا- يمينا و شمالا و قبالة الباب بهو ذو قوس مرتفع و فی نهاية أرجل القوس تجد مرفعا، أی شيئا من الخشب المتقن النقش المزوّق بالألوان دائرا مع حيطان البهو توضع عليه أوانی رفيعة من الخزف و الصينی و البلور، و فی نهاية البيت يمينا و شمالا تجد أسرة عليها فرش النوم مسواة بإتقان و أمامها مساطب و متکئات، و جميع الحيطان على نحو ما مر فی وسط الدار مع زيادة إتقان النقش، و الأبواب کلها ذات زواية کاملة ليست بمقوسة إلا باب الذريبة، ثم لکل باب أو شباک عواضل من الأربع جهات من الرخام أو الکذال أو الخشب، کل جهة فی قطعة واحدة غالبا، و عرض العاضدة من شبر و نصف إلا العواضل السفلی فی الأبواب فإنها تکون منخفضة لا ترتفع على الأرض أکثر من إصبعين، و أغلب ارتفاع السقف من الستة إلی إثنی عشر ذراعا، و هی أی السقوف ما بين بناء بالأجر أو الحجر المعقود أو أعمدة من حديد و آجر أو قرميد أو أنها خشب مما يجلب من السويد، المسمی باللوح الطرطوشی و البندقی من النمسا، و على أی نوع کانت فإنها إن کانت من الخشب نقشت و زوّقت و إلا طليت بالجص و نقشت و زوّقت، و تارة يطلی النوعان بالفضة المموهة بالذهب على أشکال بديعة مع التزويق بالألوان، و الأغلب فی سقوف الخشب أن تکون على هيئة خشبات ممدودة على عرض البيت و عمقها نحو شبرين أو شبر و نصف و عرضها نحو ثمانية أصابع، و کل الأبواب ذو دفتين و تارة يکون ذا أربع دفف و هذا فی خصوص أبواب البيوت، و أما غيرها فلا أکثر من دفتين. ثم عن يمين البهو و شماله مقاصير إثنان فما فوق إما للنوم أو الجلوس أو المرافق، و على الأبواب جميعا ستارات متعددة على حسب الرفاهية، و يوضع فی البيت أيضا مرايات کبيرة على المرفع وراء قطع البلور و الخزف و کذلک حول أسطوانتی البهو و هذان يوضع أمامهما خزنتان من خشب الجوز المتقنة الصنعة و عليها ساعتان و فوانيس بأوانی من الزهور المصنوعة و غير ذلک من التحف، و فی الشتاء تفرش أرض البيت بحصير و عليها بسط صوفية.

و أما الشکل الثانی: فی البيوت فإنه يکون براحا واحدا إما مربع أو به استطالة، و الحيوط و السقف و الفرش کلها على نوع واحد، غير أنه يغلب فی هذا الشکل أن يکون السقف من خشب و عيدانه مغطاة من أسفل مما يلی البيت بألواح من خشب مزوّقة أيضا حتی ترى کأنها قطعة واحدة، و الأغلب لحسن المنظر و عدم ظهور القطع بين الألواح أن تغطی الألواح من أسفل بمنسوج من الکتان أو القطن على عکس امتداد الألواح و تدق بمسامير ثم تلون و تزوّق کما مر، و فی وسط هاته السقوف على أی نوع کانت توضع قطع من

خشب مرتفعة منقوشة بأشكال بديعة مذهبة و تمسك فى السقف بقضيب حديد مناسب و يعلق فيها ثريات من البلور، و ما دون ذلك من البيوت يكون أقل إتقانا فى طلى الحيطان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج۱، ص: ۳۳۰

و مفروش الأرض و الستائر فقط، أما أصل الطلى و تبليط الأرض بنوع صلب فلا بد منه، و فى قليل من الديار الكبرى للأغنياء يوجد بيت واحد ذو ثلاث بهوات أو أربع و وسطه مربع و الجميع فى أعلى

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع اُخَرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/ "بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹